

٢٨١٥
٢٧١٥

المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خوارزمي

كما يبدو في كتابه
دس تورالوزراء

تأليف وترجمة وتعليق

الدكتور حربي أمين سليمان

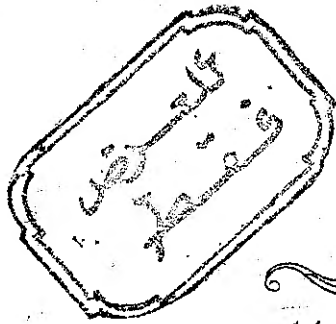
تقديم

الدكتور فؤاد عبد المعطي الصبياد



المؤسسة المصرية للكتاب



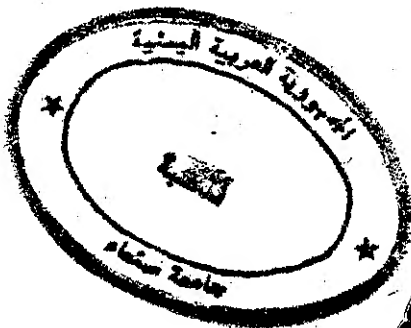


المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خوارزمي

كما يبدو في كتابه
دستور الوزراء

تأليف وترجمة وتعليق
الدكتور حربي أمين سليمان

تقديم
الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٠

١٥٦
١٥٦

جامعة صنعاء - الكلية

الرقم العام: ٤٦٠٦٧

الرقم: ٤٦٠٦٧

٢٨/٤/٨ ١٥

إهداء

الى من وجهتني وعلمتني ..

اليك يا أمي

أهدي ثمرة من ثمار غرسك ...

ابنك الوحيد

حربي

تقديم

الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد

غياث الدين بن همام الدين الملقب بخواندмир مؤرخ عالم أديب . كان يعيش في القرن العاشر الهجرى في عهد التيموريين ، وأدرك قيام الدولة الصفوية . كما اتصل بملوك المغول في الهند الى أن توفى على الأرجح في سنة ٩٤٢ هـ .

كان خواندмир كاتباً غزير الثقافة ، كثير التأليف . اشتهر على وجه الخصوص بموسوعته التاريخية الكبيرة « حبيب السير في أخبار أفراد البشر » . وهذا الكتاب من نوع التاريخ العام يشتمل على شرح الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩٣٠ هـ . ولا شك أن القسم الأخير - الذى يتضمن تفصيلات واقية عن السلطان حسين ميرزا بايقرا وأبنائه ومحمد خان الشيبانى والشاه اسماعيل الصفوى وبابر وابنه همايون من ملوك المغول في الهند - ليعد من أوثق المصادر وأدقها . وقد لا يعدله مرجع آخر في دراسة هذه الفترة . يقول العالم الايرانى الأستاذ « سعيد نفيسى » : « ان المؤلف بواسطة كتاب حبيب السير يعتبر أحد كتاب الفرس المشهورين في القرن العاشر الهجرى . ويجوز أن يكون كتابه حبيب السير - الى عصرنا هذا - أوفى كتاب ألف في تاريخ ايران حتى بدء الدولة الصفوية » .

كذلك من مؤلفات خواندмир القيمة كتابه « دستور الوزراء » . وهو كتاب جامع لأحوال الوزراء في العهود الاسلامية المختلفة التى حكم فيها الأمويون والعباسيون والسمانيون والديلمة والغزنويون والسلاجقة وطائفة الاسماعيليه والحوارزميون والسلاغرة ودولة الشيخ أبى اسحق اينجو وآل المظفر والمغول والتيموريون . وبذلك يكون هذا الكتاب أعم وأشمل الكتب التى ترجمت للوزراء ، وألفت باللغتين العربية والفارسية .

كان خواندмир يكتب عن أحوال هؤلاء الوزراء باعتباره مؤرخاً ، فكانت نظره نظرة دقيقة متفحصة تقوم على التحليل والنقد ، واصدار الحكم على سلوك

هؤلاء الوزراء . وكان من آن لآخر يشير الى المصادر التي استقى منها مادته العلمية ، وهي كلها مصادر معتبرة وموثوق بها . وبعض هذه المادة حصل عليها المؤلف من كتب ضاعت ، ولم تصل اليها . ومن هنا تبدو الأهمية القصوى لهذا الكتاب .

وعن الوزراء المرموقين الذين شاركوا مشاركة فعالة في تسخير دفة الأمور في بلادهم ، وكان لهم أثر بارز في تكييف الأحداث - ذكر تفصيلات جديدة لم ترد في غيره من الكتب الماثلة .

وهكذا رأينا كتابته عن أسرة البرامكة في عهد العباسيين ، وعن نظام الملك الطوسي في عهد السلاجقة ، وعن أسرة الجوينيين والوزيرين رشيد الدين وابنه غياث الدين في العصر المغولي ، وعن الوزيرين محمد الدين محمد وقوام الدين نظام الملك الخوافي في العصر التيموري - كتابة علمية دقيقة مشتملة على معلومات جديدة نقرأها لأول مرة .

وأيضاً مما يزيد من قيمة هذا الكتاب ، ويعطيه أهمية أكبر هو أن مؤلفه امتنع عن التحيز والتملق ، وبعد عن إخفاء الحقائق ، والتزم بقدر المستطاع الحياد النزاهة الدقيق . يتضح هذا على سبيل المثال لا الحصر في موقفه من الوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة المستعصم آخر خلفاء الدولة العباسية ، فقد ترجم له ترجمة وافية ، وذكر ما له وما عليه . ورغم أن مؤرخنا كان أيضاً يدين بمذهب الشيعة فإن هذا لم يمنعه من أن يعلق على تصرفات ابن العلقمي بما يؤيد اتهامه في قضية خيانتته للمستعصم واتصاله المشبوه بالمغول . ويقول خواندمير في هذا الشأن : « وبعد ! . . . فانه ينبغي على من يعملون في بلاط الحكام أن يظهروا أنفسهم من صفات المكر والحديعة متجنبين نكران الجميل ، محترسين من الانسياق وراء أمور الغدر والخيانة حتى لا يعاقبوا في الدنيا والآخرة ، مهتدين بقوله تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد) .

من هنا كان كتاب دستور الوزراء جديراً بالبحث والدراسة . وقد تصدى لهذا الموضوع تلميذى وزميل الدكتور حربى أمين على سليمان المدرس بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر ، فألف عنه رسالة علمية نال بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز من كلية الآداب بجامعة عين شمس . وقد أخلص « حربى » لبحثه ، واتبع منهجاً سليماً في معالجته إذ قسمه الى قسمين رئيسيين :

درس في القسم الأول عصر المؤرخ ، وأبان عما فيه من عوامل موجهة كان لها أثرها البالغ في انتاج هذا المؤرخ . كذلك تحدث عن سيرة الكاتب ، وكشف عن جوانب ثقافته . بعد ذلك تناول مؤلفاته بوجه عام وكتابه دستور الوزراء بوجه خاص . وكانت دراسته لهذا الكتاب دراسة مقارنة تقوم على التحليل والنقد ، وتكشف عن تطور منصب الوزارة منذ الاسلام حتى عصر المؤلف ، فدفعه هذا الى الحديث عن الكتب العربية والفارسية التي تناولت تراجم الوزراء قبل

كتاب دستور الوزراء ، وبيان ما فيها من أوجه الكمال والنقص . ثم انتقل الى الحديث عن الكتاب نفسه وبيان مشتملاته ، ودراسة مصادره ، والكشف عن قيمته الحقيقية ، وابرار خصائصه . وأخيرا اطلعنا على المدرسة التي تأثرت به .

بعد ذلك يعىء القسم الثانى ، وفيه أورد الباحث ترجمة عربية للمتن الفارسى برمته لكتاب دستور الوزراء . وكانت الترجمة مصاغة فى أسلوب عربى سليم بعيد عن التكلف والتعقيد . وكان المترجم أمينا فى ترجمته اذ جاءت مطابقة للأصل . ومما زاد من قيمة الترجمة الحواشى العديدة والتعليقات المفيدة التى ساعدت على ازالة اللبس وتوضيح المعلومات .

ولا شك أن الزميل « حربى » بهذه الترجمة يكون قد قدم اقراء العربية تراثا جديدا من تراث ثقافتنا الاسلامية المجيدة .

وهو أيضا ببحثه وترجمته يكون قد نجح فى اعطائنا صورة حية متكاملة عن المؤرخ خواندمير كما يبدو فى كتابه « دستور الوزراء » .

واننا لنطمح أن تتاح له الفرصة فيعكف على ما لم يدرس من تراث هذا المؤرخ بحثا وترجمة وشرحا وتعليقا فيضيف بذلك جهدا آخر مشكورا فى سبيل خدمة العلم والثقافة خصوصا فى هذا الوقت الذى اتسعت فيه آفاق أدبنا العربى الحالد ، وأخذ يطل على منافذ الثقافات الأجنبية ، الشرقية منها والغربية .

والله ولى التوفيق ..

فؤاد عبد المعطى الصياد

مقدمة

فى الربع الأخير من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين كان يعيش فى مدينة هراة بايران وفى مدينة دهلى بالهند ، مؤرخ اسلامى كبير ، عبثق الكتابة التاريخية وولع بها ، ووضع سبعة من مؤلفاته التسعة فى مجالها ، ووجد كثيرا من الرعاية والاهتمام فى كنف الأمراء والسلطين التيموريين وخاصة السلطان حسين ميرزا بايقرا ووزيره الشاعر الأمير عليشير نوائى والسلطان بديع الزمان ميرزا .

وبعد تدهور الدولة التيمورية فى ايران لقى كثيرا من العنت والعذاب الى أن رحل الى الهند والتحق ببلاط الامبراطور ظهير الدين بابر مؤسس أول امبراطورية اسلامية فى الهند . . ذلكم المؤرخ هو غياث الدين بن همام الدين ، المعروف بخواندمير .

وخواندمير هو صاحب الموسوعة التاريخية « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » ، أو فى كتاب ألف عن تاريخ ايران حتى بداية الدولة الصفوية (١) ، التى حازت اعجابا كبيرا لدى المهتمين بدراسة التاريخ والأدب فى الشرق والغرب على السواء . . وهو أيضا ابن كريمة المؤرخ الكبير ميرخواند صاحب « روضة الصفا » .

ولد خواندمير بين عامى ٨٨٠ - ٨٨١ هـ فى مدينة هراة بايران ، وعاصر فترة من أزهى فترات الدولة التيمورية . . وهى الفترة التى حكم فيها السلطان حسين ميرزا بايقرا (٨٧٣ - ٩١١ هـ) (١٤٦٨ - ١٥٠٤ م) ، حيث التحق بالخدمة فى بلاطه عن طريق الوزير ميرعليشير نوائى ، ونال عندهما مكانة عالية . كما عاصر فترة تدهور الدولة التيمورية فى ايران وقيام الدولة الصفوية الشيعية على أنقاضها ، وكانت فترة الانتقال هذه من أسوأ فترات حياة مؤرخنا .

(١) دستور الوزراء ، خواندمير - مقدمة سعيد نفيسى ، ص (١) ، طهران ١٣١٧ هـ ش .

انتقل خواندمير الى بلاد الهند بعد أن سئم الحياة في إيران ، والتحق بخدمة ظهير الدين بابر مؤسس أكبر دولة عرفتها هذه البلاد (١) ، وحظي في بلاطه بمزيد من التقدير والاحترام ، وبعد وفاة ظهير الدين التحق خواندمير بخدمة ابنه همايون الذي شجعه ورعاه ورفع عنه السأم والملل وجعله من خاصته ، فسجل خواندمير انتصارات ذلك الامبراطور وأعماله في كتابه « همايون (٢) نامه » ، وبعدها انتقل الى جوار ربه عام ٩٤٢ هـ اثر مرض مفاجيء ، ودفن بمدينة دهلي في الهند .

شغل خواندمير بالدراسة والبحث والتأليف منذ نعومة أظافره وحتى آخر عام في حياته ، لكن الكتابة التاريخية استهوت به ، وملكته عليه معظم وقته ، وشغلت الجزء الأكبر من مؤلفاته ، فوضع سبعة منها في هذا الفن ، أما الاثنان الآخران وهما : « مآثر الملوك » ، « نامه نامي » ، فقد وضع الأول منهما عن مخدمه ومكتشفه وراعيه الأمير عليشير نوائي ، وثانيهما وضعه عن فن الكتابة وضروبها المختلفة وآدابها .

ومؤلفات خواندمير لم تحظ بالدراسة الكافية - باستثناء حبيب السير - ولم ينقل واحد منها الى اللغة العربية ، رغم احتواء بعضها على معلومات لا توجد في غيرها من المصادر ، مثل كتابه دستور الوزراء . ومن هنا كان اختيار أستاذي العاضل الأستاذ الدكتور/ فؤاد عبد المعطي الصياد وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس وأستاذ اللغة الفارسية وآدابها ، لهذا الكتاب ، والاشارة على بنقله الى اللغة العربية ، والتعليق على ما جاء به ، وعمل دراسة عنه وعن صاحبه وعصره ومؤلفاته الأخرى . فاستجبت شاكرًا لأستاذي فضله ، وجعلت عنوان البحث « خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء ، مع ترجمة النص والتعليق عايه » .

وتم عمل خطة للبحث نفذت كما يلي :

يشتمل البحث - بخلاف المقدمة والخاتمة - على قسمين :

القسم الأول

« خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء »

وهذا القسم ينقسم الى بابين :

(١) د. أحمد الساداتي ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوپاكستانية وحضارتهم ، ص ٢٠٤ ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م القاهرة .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الجزء التاسع ، ص ٢٥ ، القاهرة .

الباب الأول

« خواندمير ، عصره ، أسرته ، مؤلفاته »

وينقسم هذا الباب الى ثلاثة فصول :

الأول : بعنوان « عصر خواندمير » ، تحدثت فيه عن الحالة السياسية في إيران خلال الربع الأخير من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين ، وهي الفترة التي عاصرها خواندمير ، كما تحدثت عن الشخصيات البارزة التي كان لها أثر كبير في حياة خواندمير وانتاجه وأوضحت مدى تأثر خواندمير بصحبة كل منهم وأثر ذلك في نفسه ، وبينت أيا من المؤلفات وضعها خواندمير بصحبة كل منهم .

الثاني : بعنوان « خواندمير ، موطنه - أسرته - سيرته - فترة نضجه وحياته السياسية » ، تناولت هذا الفصل بالحديث عن مدينة هراة - موطن خواندمير - وازدهارها ثقافيا وحضاريا في العصر التيموري وخاصة في عصر السلطان حسين ميرزا بايقرا ، كما تحدثت عن مراحل حياة خواندمير المختلفة وسمات كل مرحلة .

الثالث : بعنوان « مؤلفات خواندمير » ، ومهدت له بالحديث عن ظاهريته ازدهار الكتابة التاريخية في العصر التيموري وخصوصا الكتابة في التاريخ العام ، ثم تناولت كل مؤلف من مؤلفات خواندمير بالحديث عن موضوعه وقيمه وموقعه في مجاله .

الباب الثاني

وجعلته بعنوان « خواندمير ودستور الوزراء ، دراسة مقارنة » .

وقد قسمت هذا الباب أيضا الى ثلاثة فصول ، سبقتها بالحديث عن تطور منصب الوزارة منذ الاسلام وحتى عصر خواندمير ، ثم تحدثت عن فصوله كما يلي :

الأول : بعنوان « خواندمير ، المؤرخ في دستور الوزراء » - ومهدت لهذا الفصل بالحديث عن الأسباب التي أدت الى ازدهار فن التأريخ في العصر التيموري ، ثم تحدثت عن أهم الكتب العربية والفارسية التي تحدثت عن الوزراء وختمته بالحديث عن خواندمير من ثانيا كتابه دستور الوزراء بالمقارنة مع تلك الكتب .

الثاني : وجعلته بعنوان « خواندمير ، رجل الأخلاق في دستور الوزراء » ، وذكرت فيه وقفات النصيح والارشاد التي سجلها خواندمير في دستور الوزراء ، وحددتها تحديدا واضحا وعلقت عليها .

الثالث : وجعلته بعنوان « خواندمير ، مصادر كتابه وقيمه ، أسلوبه وخصائصه » ، تحدثت فيه عن أهم المصادر التي رجع اليها خواندمير عند تأليفه كتابه وأوضحت مدى تأثر خواندمير بكل منها .

وكانت كلها من أعلام كتب التاريخ والأدب ، فمن بينها كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله الوزير المؤرخ ، وكتاب « روضة الصفا » للمؤرخ ميرخواند ، وكتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » ، لعوفى ، وغيرها .

وفى نهاية هذا القسم تحدثت عن قيمة كتاب « دستور الوزراء » ، وعن أسلوب خواندمير فى هذا الكتاب وخصائصه من واقع منهجه فى دستور الوزراء كما تحدثت عن مدى توفيق خواندمير فى اختيار مصادره وكيفية استعماله لأدوات المؤرخ الناجح .

القسم الثانى

وجعلته بعنوان « ترجمة كتاب دستور الوزراء والتعليق عليه » ويتضمن هذا القسم ما يلى :

أولا : ترجمة كاملة لمقدمة ناشر الكتاب ومصححه الأستاذ سعيد نفيسى والتعليق عليها .

ثانيا : ترجمة كاملة لمقدمة صاحب الكتاب المؤرخ خواندمير والتعليق عليها .

ثالثا : ترجمة كاملة لنص الكتاب والتعليق عليها .

هذا وقد استقيت المدومات من مصادرها الأصيلة فى حديثى خلال البحث وأثناء التعليق على أجزاء الترجمة المختلفة ، وأثبت ذلك فى موضعه من البحث .

وقبل أن أنتهى من قراءة هذه المقدمة أرجو أن يتقبل أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور / فؤاد عبد المعطى الصياد وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس وأستاذ اللغة الفارسية وآدابها بالكلية عظيم شكرى وامتنانى ، حيث كان لسيادته فضل اختيار هذا البحث والإشراف عليه منذ البداية حتى النهاية ، كما أمدنى سيادته بالكثير من النصائح والتوجيهات ، وبالعديد من المراجع والمؤلفات التى كان دخل كبير فى تكوين هذا البحث . كما أذكر لسيادته فضله فى مراجعة هذا البحث خلال أشهر الصيف - رغم أعباء سيادته الكثيرة داخل مصر وخارجها . فلسيادته جزيل شكرى واعترافى بفضلته ما دمت حيا .

كما أرجو أن يتقبل أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور/ عبد النعيم حسنين عميد معهد اللغات والترجمة بجامعة الأزهر ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس شكرى وعظيم امتنانى ، حيث كان لسيادته فضل توجيهى وتشجيعى على مواصلة البحث ، وانى أعترف أنه لولا نصائح سيادته وتشجيعه لى لما قدر لهذا البحث أن يتم حتى الآن ، فلسيادته خالص شكرى واحترامى .

كما أقدم خالص الشكر والامتنان لأستاذى الكريم الدكتور/ طلعت أبو فرحة أستاذ اللغة الفارسية وآدابها المساعد بمعهد اللغات والترجمة جامعة الأزهر

لتفضل سيادته بمراجعة الكثير من النصوص الشعرية والنثرية بالقسم الثاني من
البحث .

وختاماً .. أرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء صورة صادقة عن المؤرخ
الإسلامي الكبير خرواندмир ، وعن مؤلفاته عامة وكتابه دستور الوزراء
بصفة خاصة .

« وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه نيب »

القسم الأول

« خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء »

ويقع في باين

الأول : « خواندمير ، عصره ، أسرته ، مؤلفاته »

الثاني : « خواندمير ودستور الوزراء دراسة
مقارنة » •

الباب الأول

« خواندمير ، عصره ، أسرته ، مؤلفاته »

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الأول : « عصر خواندمير »

الثاني : « خواندمير ، موطنه - أسرته - سيرته ،

فترة نضجه وحياته السياسية »

الثالث : « مؤلفات خواندمير »

الفصل الأول

عصر خواند مير

(٨٨٠ - ٩٤٢ هـ - ١٤٧٥ - ١٥٣٥ م)

نظرة عامة :

عاصر خواند مير الربع الأخير من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين تقريبا . وطبيعة هذه الفترة التي امتدت ثلاثة أرباع قرن تقريبا كانت في بدايتها أشبه ببركان ينتظر شرارة الانفجار ، وكانت شرارة الانفجار هذه وفاة آخر سلاطين الدولة التيمورية في إيران السلطان حسين بايقرا عام ٩١١ هـ ، حيث انقض محمد خان الشيباني من بلاد ما وراء النهر لفتح خراسان ، ولم يفلح الأمراء التيموريون في صدّه وتم له الاستيلاء على خراسان ، ودخوله هراة في عام ٩١٣ هـ . وكانت هذه الأحداث على مرأى ومسمع من خواند مير الذي كان وقتها في هراة نفسها ، ولقى كثيرا من العنت في هذه الفترة صوره لنا في كتبه . وسوف نفصل ذلك عند حديثنا عن حياته السياسية في الفصل القادم .

أما الظاهرة الثانية من عصر خواند مير فهي أن هذه الفترة شهدت أيضا قيام دولة إيرانية قومية صحيحة (١) بعد فترة من الضعف استمرت ثمانية قرون . هذه الدولة القومية تتمثل في الدولة الصفوية حيث ظهر الشاه اسماعيل مؤسس هذه الدولة وأول ملك فيها على أنه قائد لسبع قبائل تركية في أذربيجان تعرف باسم ال « قزل باش » (٢) أي « حمر الرؤوس » . ولم يكن اسماعيل نفسه زعيما تركيا

« Iran, Past and Present », by Donald Wilber

(١)

ترجمة الأستاذ الدكتور/عبد النعيم حسنين ص ٨٦ القاهرة .
(٢) القزلباشية هم أبناء الأسرى الذين سلمهم تيمورلنك للشيخ حيدر ، وسماوا بذلك بسبب غطاء الرأس الأحمر الذي لبسوه ليميزهم عن غيرهم ، وكانوا فرسا وتركيا . وفي ذلك الوقت كان القزلباش أقوى فرق الجيش الصفوي القارسي والترك يطلقون هذه الكلمة على الفرس عامة ، وتطلق كلمة القزلباشية كذلك على فرقة الباطنية الشيعية في تركيا .
(كتاب شرفنامه ، لشرف خان البديسي ، ص ٢٠ الترجمة العربية ، القاهرة) .

ولكنه ظفر بالاحترام ، لانه من نسل سلسلة من الزعماء الدينيين ورئيس جماعة من الدراويش . وفي عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) هزم اسماعيل قباتل « أق قويونلو » أي « أصحاب الخراف البيضاء » وجلس على العرش في تبريز . وفي عام ٩١٦ هـ (١٥١٠) حارب الشيباني وقتله وانتزع منه هراة بعد أن كان قد استولى على العراق وفارس وكرمان وهمدان ، وشقت قواته طريقها شرقا حتى بلغت « خيوه » . وقد أعلن اسماعيل الصفوى المذهب الشيعى مذهبا رسميا ليران ، واستعمل القوة الغاشمة فى تغيير مذهب السنيين الممتنعين .

والظاهرة الثالثة من عصر خواندمير بعد القضاء على الدولة التيمورية فى ايران على يد الشيباني وقيام الدولة الصفوية الشيعية فى الغزو العثمانى ليران ومحاولة الخديفة السنى القضاء على السلطان الشيعى حيث أذكى التحول الى التشيع عداوة الأتراك العثمانيين ضده (١) وكان سلاطينهم فى القسطنطينية قد صاروا خلفاء على جميع المسلمين السنيين ، وأصبح الشيعة فى ايران يفضلون الكتلة السنية فى وسط آسيا والهند وأفغانستان عن السنيين فى تركيا والعراق ومصر والدول الاسلامية الأخرى الواقعة الى الغرب من ايران . وكانت أولى نتائج هذا الاحتكاك المذهبى غزو ايران بجيش يقوده السلطان سليم الأول الذى هزم اسماعيل بالقرب من تبريز ، وقد استمرت الحروب مدة طويلة ، وكان الضغط الخارجى على ايران عاملا قويا فى توحيد جميع أجزائها وإخلاص أهلها للملوك الصفويين والمذهب الشيعى . وحكم الملك الصفوى الثانى الشاه طهماسب من ٩٣٠ هـ الى ٩٨٤ هـ (من ١٥٢٤ - ١٥٧٦ م) وتمكن من الاحتفاظ بحدوده الشرقية . ولكنه قاسى هزائم عديدة فى الغرب على أيدى السلطان العثمانى سليمان القانونى .

وهكذا نرى مؤرخنا خواندمير قد عاصر أهم أحداث ايران بعد الغزو المغولى الأول ، وعانى منها وتأثر بها وسجلها فى كتاباته . وكان أروع ما كتبه من ناحية الدقة والتفصيل تلك الأجزاء المتعلقة بالسلطان حسين بايقرا آخر سلاطين الدولة التيمورية والشاه اسماعيل الصفوى أول حكام الدولة الصفوية ومؤسسها والتى سجلها فى كتابه « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » (٢) . كما كان للسلطان ظهير الدين بابر وابنه همايون أثر بالغ فى حياة خواندمير .

وحتى تتضح مكانة خواندمير وموقعه فى عصره فاننا نورد فيما يلى نبذة مختصرة عن اتصل بهم مؤرخنا وكان لهم دور كبير فى حياته سواء منهم من احتضنه وتعهده وأعلامه ، أو من قربه وشجعهم ورعاه .

« Iran, Past and Present », by Donald Wilber.

(١)

ص ٨٧ من الترجمة العربية القاهرة ١٩٥٨ م

(٢) حبيب السير/خواندمير المجلد ٣ ج ٤ .

١ - السلطان حسين بايقرا

٨٧٣ - ٩١١ هـ (١٤٦٨ - ١٥٠٤ م)

بعد أن ظلت الدولة التيمورية في حالة من الفوضى والاضطراب لبضع سنوات على أثر مقتل ألغ بيك (١) تمكن السلطان حسين بايقرا من السيطرة على خراسان في عام ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) ، وأحيا النهضة الأولى للحضارة والفنون في هراة بحيث كتب أحد معاصريه يقول (٢) : « لم يكن في العالم المسكون جميعه مدينة مثل هراة في عهد السلطان حسين ، فقد كانت خراسان وهراة - على رأس مدنها - مملوءة بعلماء ورجال لا نظير لهم ، وكان اذا اضطلع أحدهم بعمل - مهما كان نوعه - هدف الى اتمامه واتقائه ، وكان من الكواكب النيرة في البلاط جماعة من العلماء من كلا الأصلين الفارسي والتركي ، وكان منهم الشعاعان الجامي (٣)

(١) ألغ بيك : وهو ابن السلطان شاهرخ التيموري وحفيد السلطان تيمور كوركمان مؤسس السلسلة التيمورية في ايران . وكان ألغ بيك حاكما على تركستان أثناء سلطنة والده ، وكان راعيا كبيرا للفن والأدب الفارسيين ، كما كان شغوفا أيضا بفنون الصينيين ، ولكن الرغبة الملحة التي كانت تسيطر عليه هي دراسة علم الفلك ، وقد بنى مرصدا لا يزال قائما في سمرقند وذلك بمساعدة أربعة من كبار العلماء في عصره هم صلاح الدين موسى الرومي ومولانا علاء الدين علي قوشجي وغيث الدين جمشيد الكاشاني ومعين الدين الكاشاني . كما عمل ألغ بيك جداول حسابية تحمل اسمه طبعت بعد ذلك في إنجلترا عام ١٠٧٦ هـ - ١٦٦٥ م . كان ألغ بيك متبحرا أيضا في علم القراءة وسائر العلوم الشرعية ، كما حفظ القرآن الكريم وبذل جهدا كبيرا من أجل رفع شأن الدين الاسلامي المبين ، وبعد وفاة والده السلطان شاهرخ عام ٨٥٠ هـ - ١٤٤٧ م خلفه على العرش التيموري ، ولكن حكمه كان لسوء الحظ قصيرا جدا حيث استغرق المدة من ٨٥١ - ٨٥٣ هـ (١٤٤٧ - ١٤٤٩ م) وانتهى أمره بأن عزله ابنه ميرزا عبد اللطيف وسجنه ، وبعد بضعة أيام من سجن ألغ بيك أمن ابنه المذكور بقتله وكان ذلك في العاشر من رمضان عام ٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م .

براون ، تاريخ الأدب في ايران ، ج ٣ ص ٤١٨ ، ٤١٩ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م .

عليشير نوائي ، مجالس النفاثس ص ٣١٤ طهران ١٣٢٣ هـ ش

دونالد ولبر ، ايران ماضيا وحاضرا ص ٨٠ ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .

« Iran, Past, Present », by Donald Wilber.

(٢)

ترجمة الأستاذ الدكتور/عبد النعيم حسنين ص ٨٠ .

(٣) وهو مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامي ، ولد في قرية « خرگرد » بولاية جام في خراسان ، في الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٨١٧ هـ ، وتوفي في الثامن عشر من المحرم عام ٨٩٨ هـ بمدينة هراة . وبعد الجامي من كبار شعراء أيوان ومتصوفيه . وأهم آثار الجامي ثلاثة دواوين من الشعر ، الأول بعنوان « فاتحة الشبَاب » ، اتمه عام ٨٨٤ هـ ، والثاني بعنوان « واسطة العقدة » اتمه عام ٨٩٤ هـ ، والثالث بعنوان « خاتمة الحياة » ، اتمه عام ٨٩٦ هـ قبل عامين من وفاته .

وعليشير نوائي ، والمصوران أو الرسامان بهزاد (١) وشاه مظفر والخطاط سلطان علي ، والمؤرخان ميرخواند وخواندميرا *

وله أيضا سبع مشهوريات بعنوان « دقت أورنك » أي العروش السبعة ، قلد فيها نظامي الكنجوي في منظوماته المعروفة بـ « خمسة نظامي » *

وللجامي كذلك قطعات شعرية متفرقة ، ومؤلفات في تفسير القرآن ، وإثبات نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي علم الحديث ، وتراجم لأحوال الأولياء والصوفية ، وله مؤلفات في علوم الصرف والنحو والعروض والقافية والموسيقى وصناعة الأغاز *

وقد حظي الجامي بمكانة عالية عند السلاطين والحكام التيموريين ، ولقيت تعاليمه ونصائحه قبولا وانتشارا بين معاصريه ، ونال احتراما كبيرا من مواطنيه . ولم يكتف الأمير عليشير نوائي بالحدوث عن الشعاع نور الدين عبد الرحمن الجامي في كتابه « مجالس النفائس » ، بل خصص رسالة مستقلة تحدث فيها عن ذلك الصوفي الكبير تعرف باسم « خمسة المتحيرين » تحدث فيها عن مولده ونشأته وأحواله ومؤلفاته ووفاته التي حدثت في هرة عام ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م *

(برادش ، التاريخ الأدبي لإيران ، ج ٣ ، ص ٥٦٢ - ٥٩٧ ، الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش) *

عليشير نوائي ، مجالس النفائس ، ص ٥٦ ، طهران ١٣٢٣ هـ ش) *

(١) وهو الرسام الشهير كمال الدين بهزاد ، ولد في مدينة هرة عام ٨٤٤ هـ - ١٤٤٠ م تقريبا ، حيث أن تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته غير معروفين حتى الآن على وجه التحديد . وقد أصبحت هرة في أوائل القرن التاسع الهجري مركزا للفنون بعد أن وقع عليها اختيار السلطان شاهرخ لتكون عاصمة للدولة التيمورية *

وقد استغلم شاهرخ عددا كبيرا من الفنانين لتصوير المخطوطات وتذهيبها ليضمها الى نفائس مكتبة قصره . ولما آل الحكم الى ابنه بایسنقر ، أقام هو الآخر معهدا للفنون الكتاب في هرة ، ووثق في هذا المعهد عددا من الخطاطين والمصورين من داخل بلاده وخارجها *

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، بدأ يظهر أسلوب فني جديد في هرة ، ميزاته توافق التصوير الفنية وحسن تنفيذ التفاصيل ، وبراعة انسجام الألوان ، وأثناء ذلك ذاعت شهرة فنانين عديدين من بينهم روح الله الهروي أستاذ الفنان العظيم بهزاد *

وخلال حكم السلطان حسين ميرزا بايقرا (٨٩١ - ٩١٢ هـ) ووزيره الشاعر الموسيقي الرسام ميرعليشير نوائي ، بزغ عصر فني جديد في مدينة هرة ، إذ شجعها مما النهضة الفنية ، وفي ظل هذا التشجيع أخذ يعمل الفنان بهزاد في معهد فنون الكتاب ، وظل على هذا الحال وحتى وفاة السلطان حسين بايقرا *

ولما جاء الشاه اسماعيل الصفوي الى الحكم ، استدعى بهزاد الى عاصمته تبريز ، وشمله بالرعاية والتقدير . ويروى أنه لما خرج الشاه اسماعيل الصفوي لقتال الترك عام ٩٢٠ هـ ، أخفى المصور بهزاد والخطاط محمد النيسابوري في إحدى المغارات حرصا منه على حياتهما ، ولما عاد كان الفنان بهزاد أول من استفسر عنهم السلطان *

وفي عام ٩٢٨ هـ عين بهزاد مديرا لمكتبة القصر التي كانت وثيقة الارتباط بمعهد فنون الكتاب ، وأتاح له هذا المنصب الاشراف على عدد كبير من الفنانين منهم المصور والمذهب والخطاط =

وكان السلطان حسين بايقرا نفسه أديبا وشاعرا وله ديوان شعر باللغة الجغتائية (١) . وقد قدم مؤرخنا كتابه « دستور الوزراء » أول مرة عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) قبل أن يضيف عليه ، ويخرجه مرة أخرى عام ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) . وتوفي السلطان حسين بايقرا يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ذى الحجة عام ٩١١ هـ (١٥٠٤ م) ، وخلفه ابنه بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا اللذان تقاسما السلطة بناء على وصية والدهما ، وحكم كل منهما مستقلا عن الآخر فى منطقته مما ساعد على التعجيل بنهاية دولتيهما .

والمجلد وغيرهم . يذكر خواندمير أن بهزاد فاق فى مهارته جميع أبناء عصره من أهل صناعته حتى ان شعرة واحدة من فرشاته كانت قادرة بفضل عبقريته على أن تبعث الحياة فى الجمادات . ولما توفي الشاه إسماعيل بقى بهزاد يعمل فى خلعة ابنه الشاه طهماسب الذى قيل أنه كان يتلقى دروسا فى التصوير على يد بهزاد .

والنظرة الإجمالية لأعمال الفنان بهزاد تجعل منه استاذا مجددا فى ميدان التصوير الإسلامى ، حيث سار فى أعماله وفق أساليب فنية جديدة لا سيما فى معالجة الألوان ، وكان هو وتلاميذه ينفجون منهجا مستقلا مبتكرا بخلاف الأعمال التقليدية السائدة فى عصرهم . ولذلك يعتبر بهزاد خالق أسلوب جديد فى فن التصوير ، يمتاز بدقة الأداء والعناية برسوم الأشخاص ، والواقعية الواضحة فى الأعمال والحركات ، واندماج شخصيات صوره - فرادى أو جماعات - اندماجا صادقا فى أعمالهم . وموهبة بهزاد فى رسم الأشخاص رائعة جدا تبدو واضحة فى وجوه الأفراد الذين رسمهم ، كما أضاف بهزاد الى قائمة الألوان المستخدمة ألوانا من ابتكاره ، واتخذ من اللون الواحد أطيافا عديدة ، واستطاع أن يلعب بها فى توافق وانسجام .

وانتاح بهزاد من صور ولوحات ورسوم تنصدر الآثار والأعمال الفنية العالمية فى متحف كابول بأفغانستان ، والمتحف البريطانى ، ومتاحف إيران وخصوصا متحف كليستان بطهران ، ومتحف اللوفر بباريس ، ومتحف بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية . هذا بالإضافة الى مجموعة كبيرة من آثار بهزاد كانت بمتاحف أفغانستان ولكنها أتلقت أيام انقلاب «بجه سقا» .

وتتحقق قمة براعة بهزاد الفنية فى اللوحات التى زين بها هذا الفنان مخطوطة البستان لسعدى الشيرازى - الموجودة الآن بين مخطوطات دار الكتب والوثائق القومية بجمهورية مصر العربية - وهى تشتمل على أربع صيور صغيرة أمضيت كل منها بعبارة « من عمل العبد الفقير بهزاد » ، كما تضم المخطوطة صورة خامسة فى صفحتى الورقة الاولى للكتاب ، تمثل مادبة للسلطان حسين بايقرا . وتوجد بمصر أيضا لوحات أخرى لتلاميذ بهزاد (أبو العينين ، قهقى ، أفغانستان بين الأمس واليوم ، ص ٢٦٣ - ٢٧٥ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، فرع مصر ١٩٦٩ م)

خواندمير ، حبيب السير ، المجلد الثالث ، ج٣ ، ص ٣٥٠ ، بيباى ١٢٧١ - ١٢٧٣ هـ .
دونالدولبر ، إيران ماضيها وحاضرها ، ص ٨٥ ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ م) .

Jan Rypka : History of Iranian Literature, p. 281.

(١)

٢ - السلطان بديع (١) الزمان ميرزا

٩١١ - ٩١٣ هـ (١٥٤٠ - ١٥٠٧ م)

وهو الابن الأكبر للسلطان حسين ميرزا بايقرا ، وكان بديع الزمان كوالده يهوى الشعر والنثر . وقد وردت بعض أشعاره في كتاب « تحفة سامي » (٢) . وكان هذا الأمير شجاعا عالما ، ولكنه لم يكن له نصيب من الدنيا سوى اليأس والخنوط فهزم في عام ٩١٣ هـ على يد محمد خان الشيباني ، وتوجه الى جرجان ، ومن هناك لجأ هو وابنه محمد زمان ميرزا الى الشاه اسماعيل الصفوي ، ومكث عنده فترة . ثم قضى فترة أخرى في مدينة الري . وبعد ذلك سيطرت الرغبة في تولي السلطنة على بديع الزمان ميرزا فهاجم جرجان هو وجماعة قليلة من أتباعه ، ولكنه هزم وتوجه بعدها الى الهند . وبعد أن أقام عامين بالهند عاد مرة أخرى الى خراسان ولجأ الى الشاه اسماعيل الصفوي ، وذهب معه الى آذربيجان ، وظل هناك حتى انتهت حرب « جالداران » في عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) حيث سحب السلطان سليم العثماني الى استانبول . وقد توفي هناك بعد هذه الواقعة بثلاثة أشهر أو أربعة على أثر أصابته بمرض الطاعون .

وقد اتخذ السلطان بديع الزمان ميرزا خواندمير وزيرا له بعد وفاة والده السلطان حسين ميرزا بايقرا واقتسامه السلطنة هو وشقيقه مظفر حسين ميرزا كما يصرح بذلك خواندمير نفسه عند حديثه عن توزيع مناصب كل من السلطانين الأخوين فيقول : « وصادرات بديع الزمان ميرزا بقاعدة مستمرة بمسود أوراق ومولانا غياث الدين جمشيد جلالى تعلق كرفت » (٣) .

وترجمة هذه الجملة : « وقد أسند منصب صدارة بديع الزمان ميرزا - كما هو متبع - الى محرر هذه الأوراق بالاشتراك مع مولانا غياث الدين جمشيد جلالى .

ظل خواندمير ملازما للسلطان بديع الزمان ميرزا منذ أن عينه وزيرا له وحتى آخر أيام حياة هذا الأمير ، وكان رفيقه في جميع أسفاره كما كان الأمير يكن له كثيرا من الاحترام ، ويعتبره حافظ أسرارهِ . وكان يقص عليه تفاصيل حروبه

(١) رجال كتاب حبيب السير/نوائى ص (يا) من المقدمة .

(٢) كتاب « تحفة سامي » : وهذا الكتاب يتضمن ترجمة لأحوال الشعراء على نمط كتب التذاكر ، وضعه سام ميرزا بن الشاه اسماعيل الصفوي الأول المولود في عام ٩٢٣ هـ والمتوفى عام ٩٦٩ هـ . ويضم كتاب تحفة سامي ترجمة لأحوال ما يقرب من سبعمائة شاعر ، بعضهم من المعاصرين للمؤلف والبعض الآخر من القريبين الى عهده ، وقد طبع هذا الكتاب المرحوم وحيد دستكردي في طهران عام ١٣١٤ هـ ش .

(انظر براون ، تاريخ الأدب في إيران ج ٣ حاشية ١ ص ٤٩٥ الترجمة الفارسية ، طهران

١٣٢٧ هـ ش) .

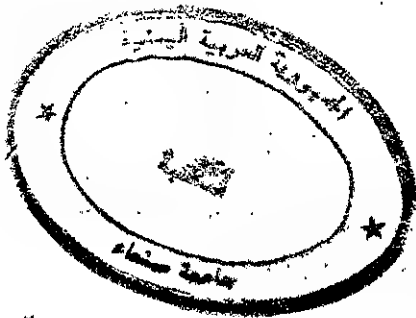
(٣) حبيب السير/خواندمير - المجلد ٣ ج ٣ ص ٣٥٢ بمباي .

وفتوحاته وحتى هزائمه ، وقليلًا ما كان يخفى عنه بعض الأمور • وسوف نوضح ذلك عند الحديث عن الحياة السياسية لخواندمير في الفصل القادم •
وهكذا نرى أن خواندمير حينما يؤرخ أخبار هذه الفترة يكون كلامه كلام المشاهد الحبير الواقف على بواطن الأمور •

٣ - محمد زمان ميرزا

بعد وفاة بديع الزمان ميرزا التحق خواندمير بخدمة أكبر أبنائه محمد زمان ميرزا التافه الشسآن (١) وربط مصيره بمصيره مدة من الزمن في بلخ وغيرها • ومحمد زمان ميرزا هو آخر أعقاب الأسرة التيمورية في إيران •

والفضل الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ من سيرته ذلك الذي حدث بسببه ، وهو لما يزل في الأيام الأولى لمولده • فعندما هزم والده بديع الزمان ميرزا في عام ٩٠٢ هـ (١٤٩٦ م) - الذي كان خارجا على والده السلطان حسين ميرزا بايقرا - حاصر جيش السلطان حسين بايقرا مدينة بلخ • وقد دافع عنها الأمير نظام الدين شيخ على قائد جيش بديع الزمان ميرزا دفاعا مريرا ، ولكنه بعد فترة من الحصار ظهرت آثار القحط في المدينة ، وأخذ يفكر الأمير نظام الدين في وسيلة يستطيع بها انقاذ المدينة وتسليمها دون تخريب • وفي هذه الأثناء حدثت ولادة محمد زمان ميرزا فأرسله نظام الدين ملفوفا في قماط الى جده السلطان حسين ميرزا بقصد التشبّع به • وقد نجحت بالفعل الفكرة وتم بهذه الطريقة انقاذ المدينة من عبث جنود السلطان حسين بايقرا (٢) • وبعد هزيمة والده بديع الزمان ميرزا في « مرل » على يد الشيباني ، توجه محمد زمان ميرزا معه الى جرجان ثم لجأ الاثنان بعد ذلك الى الشاه اسماعيل الصفوي وبقيا عنده حتى عام ٩٢٠ هـ • وبعد ذلك اضطر الى اللجوء الى ظهير الدين بابر في عام ٩٢٣ هـ (١٥١٦ م) • وبعد وفاة بابر أصبح محمد زمان ميرزا عدوا لابنه همايون الذي قضى عليه في عام ٩٤٦ هـ حينما علم بخيائته •



(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ٩ ص ٢٥ •

(٢) رجال كتاب حبيب السيد/نوائى ص (يب) •

٤ - ظهور الدين محمد بابي ميرزا (١)

ولد بابر فاتح الهند المغولي من سلالة تيمورلنك وجنكيز خان في عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٢ م) في فرغانة التي كان يحكمها والده . وبعد أن طرد على يد الازبك عام ٩١٠ (١٥٠٤ م) ، عزم على إخضاع أفغانستان ، فاستولى على كابول وأخضع قندهار عام ٩١٣ هـ (١٥٠٩ م) . وهناك كثر أتباعه وعظم شأنه ، ففكر في غزو بلاد البنجاب التي كان قد فتحها تيمور منذ مائة سنة وسبع سنين . وقد استطاع بابر أن يجمع جيشا كبيرا زوده بالعتاد اللازم ، ولما آتسى في نفسه القوة سار على رأس رجاله من التركمان ونزل في بلاد البنجاب ، وكانت بلاد الهند في ذلك الوقت منقسمة على نفسها وكان أهلها على تمام الاستعداد للترحيب بأى غازي يكفل لبلادهم السلامة والطمانينة ، ويقر في ربوعها الأمن والنظام ، فسرعان ما احتل بابر لاهور عام ٩٢٩ هـ (١٥٢٥ م) ، ووضع أساس دولة مغولية اسلامية نسبت اليه .

وفي عام ٩٣٠ هـ (١٥٢٦ م) هزم بابر جيش ابراهيم لودي وآخر سلاطين أسرة لودي (٨٥٥ - ٩٣٠ هـ ، ١٤٥١ - ١٥٢٦ م) وسلطان دهلي هزيمة منكرة عند مدينة « بانيبات » ، وسرعان ما وصلت جيوش بابر هندية دلهي وأكره وأخضع شمال بلاد الهند ، وبذلك امتدت فتوحات بابر من نهر السند الى حدود البنغال ، وتلقب بلقب «امبراطور بلاد الهند» . وقد استمر حكم هذه الامبراطورية الاسلامية في أسرة بابر الى عام ١٢٧٥ هـ (١٨٥٩ م) حيث أصبحت الهند بعدها مسنعمرة انجليزية .

ومما يجدر ذكره أن بابر كان هو أيضا شاعرا أدبيا مفكرا فديوان شعره المنظوم باللغتين الفارسية والتركية معروف ومشهور كما أن كتابه المسمى ب « واقعات بابري » الذي سجل فيه انتصاراته وفتوحاته قد حاز شهرة فائقة في جميع أنحاء العالم ، كذلك أنشأ بابر خطا جديدا سمي باسمه ، ووضع كتابا في الفقه الحنفي وعدة رسائل في العروض أيضا ، يقول أحمد بداوني في كتابه « منتخب (٢) التواريخ » في هذا الخصوص : واز جملة غرايب اختراعات آن شاء

(١) (أ) حبيب السير/خواندمير - المجلد الثالث .

(ب) مجلة كلية آداب القاهرة - المجلد السابع عام ١٩٤٤ م من مقال للدكتور حسن ابراهيم عن الدولة التيمورية في الهند .

(ج) رجال كتاب حبيب السير / نواهي .

(د) منتخب التواريخ/عبد القادر بداوني - المجلد الأول - باريس .

(هـ) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهند وباكستانية وحضاراتهم ، د/الساداتي ص ٢٣٣ - ٢٨٤ ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م القاهرة .

(٢) منتخب التواريخ : المجلد الأول ص ٣٤٣ - باريس .

مغفرت بناهي خط بابريست كه مصحفى بدان خط نوشتته وبكمه معظمه فرستاده وديوان شعر تركى وفارسى او مشهوراست وكتابى دارد درفقه حنفى ٠٠٠ ورسايل عروض اونيز متداول است ٠ وترجمتها : « ومن بين غرائب اختراعات ذلك الملك - ملجأ المغفرة - الخط البابرى الذى نسخ به مصحفا ، وأرسله الى مكة المكرمة كما أن ديوان شعره المكتوب باللغتين الفارسية والتركية معروف ومشهور ، وله أيضا كتاب فى الفقه الحنفى ٠٠٠ ورسائل فى العروض متداولة كذلك بين الناس » ٠

وقد شاءت الأقدار أن يفكر خواندمير فى السفر الى الهند فسافر من هراة الى قندهار فى عام ٩٣٣ هـ (١٥٢٧ م) وفى الثانى من جمادى الثانية عام ٩٣٤ هـ بدأ رحلته الى الهند ، ولكنه نظرا لسوء الأحوال الجوية وشدة الحرارة فقد استغرقت الرحلة سبعة أشهر وصل بعدها فى اليوم الرابع من المحرم عام ٩٣٥ هـ الى آكره ، ووجد مكانه فى بلاط ظهير الدين بابر امبراطور الهند ٠ وكان وصول خواندمير الى بلاط بابر فى اليوم الثامن من شهر ربيع الأول عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) الذى يوافق اليوم الذى شفى فيه بابر من مرض شديد كان قد ألم به ، ولذلك فانه كان قد أعد فى ذلك اليوم حفلا رائعا شهده خواندمير كما يصرح بذلك بابر نفسه فى كتابه « واقعات بابرى » فيقول انه « أقام فى الثامن من شهر ربيع الأول عام ٩٣٥ هـ حفلا ملكيا فى حديقة غناء حضرها رسل البلاد وأمراء الأقطار ، من بينهم خواندمير المؤرخ ومؤلف كتاب « حبيب السير » ومولانا شهاب الدين معماي ، وميرزا ابراهيم القانونى الذين كانوا قد جاءوا من هراة ، ولم نجد شبيها ولا نظيرا لأحدهم فى فنه ، وفى ذلك اليوم بلغوا الذروة ونالوا الخطوة وصاروا من المقربين » (١) ٠

وقد مرض خواندمير فى الهند بسبب سوء الأحوال الجوية ٠ وبعد أن شفى من مرضه سحب بابر الى بنكاله وكتب عنه (٢) أدق ما كتب فى كتابه « حبيب السير » بحيث أصبح هذا الجزء المتعلق ببابر فى هذا الكتاب مرجعا لكل من يتناولون بابر بالدراسة ٠

وبعد أن حقق بابر كل هذه الانتصارات فى بلاد الهند بفترة قصيرة ، ألم به المرض وانتقل الى رحمة الله فى عام ٩٣٧ هـ (١٥٣٠ م) ٠ يذكر عبد القادر بدوانى صاحب كتاب « منتخب التواريخ » ، مسجلا وفاة بابر فيقول : (٣)

« وبعد از اين فتح باندك فرصتى عارضه بيمارى برذات آن بادشاه غازى طارى شد وبعد از آنكه سن شريفش به بنجاح سال رسيده بود درسه سبيع وثلاثين وتسعمائة (٩٣٧) از عالم فانى بملك جاودانى انتقال فرمود ٠٠٠٠٠

(١) مقدمة دستور الوزراء / بقلم سعيد نفيس ص (هـ) ٠

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج٩ ص ٢٦ ٠

(٣) المجلد الأولى ، ص ٣٤٣ ، باريس ٠

ومدت سلطنت أوجه در ولايت ماور النهر وبدخشان وكابل وكاشغر وجه درهند
وستان سي وهشت سال بود ودرسن دوازده سالكي بدرجه سلطنت
رسیده بود .»

وترجمتها : « وبعد هذه الفتوحات بفترة قصيرة ، ألم المرض بذلك
الامبراطور الغازي وانتقل - بعد أن بلغ من العمر خمسين عاما - من دنيا الفناء
الى دنيا الخلود ، وذلك في عام سبع وثلاثين وتسعمائة ٠٠٠ وكانت فترة حكمه
سواء في بلاد ما وراء النهر وبدخشان وكابل وكاشغر أو في بلاد الهند ثمانية
وثلاثين عاما حيث كان قد اعتلى السلطنة وهو في الثانية عشرة من عمره » .

وقد تم نقل جثمان بابر بعد ذلك من بلاد الهند الى كابل ، ودفن ببروة تطل
على هذه المدينة التي كانت أحب بقاع الدنيا الى قلبه (١) .

٥ - نصير الدين محمد همايون بن ظهير الدين بابر (٢)

٩٣٧ - ٩٦٣ هـ (١٥٣٠ - ١٥٥٦ م)

وقد خلف والده ظهير الدين بابر في حكم الهند ، وكان وقتها في التاسعة
عشرة من عمره . ولم يكن همايون أقل جرأة وشجاعة من أسلافه التيموريين ،
وهو الذي شارك أباه أغلب حروبه ، وترسم خطاه في التجمل بالصبر واحتمال
الشدائد . ولكن همايون لم يوفق في فتوحاته ، وأرغم على العودة الى ايران ، ولم
يتمكن من استعادة امبراطوريته الا بعد خمسة عشر عاما حيث طلب مساعدة الملك
الصفوي الشاه طهاسب الذي أمدد بقوة من الـ « قزل باش » . وبذلك استطاع
استعادة سلطنته التي ورثها عن أبيه .

وفي عام ٩٦٣ هـ (١٥٥٦ م) سقط ذلك الامبراطور من على السطح وتوفي ،
وخلفه ابنه « أكبر خان » الذي أصبح أعظم امبراطور مغولي في الهند .

وكان همايون ماهرا في علم الهندسة والرياضيات كما كانت له خبرة بفنون
الشعر والأدب . وقد التحق خواندمير بخدمته بعد وفاة ظهير الدين بابر في عام
٩٣٧ هـ وكتب باسمه كتابا بعنوان « همايون نامه » أو « قانون همايون » وهو
عبارة عن مدائح لهمايون وكذلك القوانين التي وضعها همايون ، وسجل بآثاره

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوپاكستانية وحضارتهم ، د/الساداتي ، ص ٢٦٩ ،
الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م القاهرة .

(٢) (١) منتخب التواريخ ، عبد القادر بداوني ، ج ١ ، باريس .

(ب) مجلة آداب القاهرة عام ١٩٤٤ م ، مقالة « حسن ابراهيم » .

(ج) رجال كتاب حبيب انسير ، نوائي .

(د) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوپاكستانية وحضارتهم ، د/احمد الساداتي

٢٨٥ - ٣٠٠ ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ م ، القاهرة .

وعماثره . ويعد هذا الكتاب أفضل الوثائق عن سيرة ذلك الامبراطور . وقد ظل خواندمير بقية عمره ملازما للامبراطور همايون وصحبه في حملته على كجرات وتوفي بعد عودة الحملة في عام ٩٤٢ هـ .

٦ - الأمير نظام الدين عليشير نوائي (١)

وهو من الأمراء الأتراك ، وقد عكف على تحصيل العلوم المتداولة في عصره كالفلك والطب والشعر والنثر . وأثناء حكم السلطان أبي سعيد كوركمان توجه ذلك الأمير الى هراة ، وقضى بضعة أيام في الخدمة ببلاط ذلك السلطان ثم ترك خراسان بعدها - لأنه لم يجد الحظوة في بلاط أبي سعيد - وتوجه الى سمرقند وأقام بخانقاه خواجه جلال الدين فضل الله أبي الليثي مشغلا بالقراءة والاطلاع ، كما كان يختلط أحيانا - في تلك الفترة - بالأمير ذرويش محمد خان وبالأمر أحمد حاجي الذي كان صاحب الأمر والنهي في شئون بلاد ما وراء النهر .

وبعد استيلاء السلطان حسين بايقرا على مدينة هراة استأذن الأمير عليشير من الأمير أحمد حاجي ، وتوجه الى هراة والتحق بخدمة السلطان حسين بايقرا ، ووجد لديه الحظوة ، وأصبح من المقربين اليه . وبعد أن وقف السلطان حسين بايقرا على سلامة نفس ذلك الأمير وشاعريته الصافية وإخلاصه ، خاصة وأن ذلك السلطان كان يعشق العلم والعلماء ، أعلى من مكانة ذلك الأمير ، وأوكل اليه التصرف في جميع شئون السلطنة . يقول خواندمير في كتابه حبيب (٢) السير عن الأمير عليشير أثناء التحاقه بخدمة السلطان حسين بايقرا وكان ذلك في أيام عيد الفطر المبارك : « ودر روز عيد از نتایج طبع نقاد قصيدة هلالیه که هربیت از آن رشک لؤلؤ آبذار و غیرت جواهر شاهوار بود نثار بزم همايون فرمود واین معنی موجب از دیاد اعتقاد خاقان عدالت نهاد کشت وروز بروز اعتبار و اقتداز امیر فضیلت شعارد رخدمت آن بادشاه کامکار زیاده میشد تا کار بجائی رسید که سر انجام تمام عظیم امور جمهور نزدیک و دور برای صواینمایش تفویض یافت » .

وترجمتها : « وقد ألقى الأمير في الحفل السلطاني في يوم العيد قصيدة هلالية - كان كل بيت منها تحسده الآلئ النقية وتغار منه الجواهر الملكية - فقوي هذا الموقف من ثقة السلطان العادل به . وأخذت مكانة الأمير الفاضل تعلو يوما بعد يوم في بلاط ذلك السلطان السعيد الى أن وصل الأمر لدرجة أن أنيط به التصرف برأيه الصائب في جميع عظام أمور الرعية القريب منها والبعيد » .

(١) (١) خواندمير : حبيب السير - المجلد ٣ ج ٣ ص ٣١٧ بمبای .

(ب) بهار : سبک شناسی ج ٣ ص ٢٠٩ .

(ج) خواندمير : دستور الوزراء ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(د) نوائي : رجال کتاب حبيب السير - المقدمة ص (٤٠) .

(٢) المجلد الثالث ج ٣ ص ٣١٧ طبعة بمبای .

وقد لقب السلطان حسين بايقرا ذلك الأمير الفاضل بلقب « مقرب الحضرة السلطانية » ولم يعرف طوال فترة حكم السلطان حسين أن لقي أمير أو وزير مألقيه ذلك الأمير في بلاعه أو حظى بمثل ما حظى • وقد أصبح مجلس الأمير عيشير نوائى مملوءاً بالفضلاء والعلماء والفقهاء ، ففتح لهم صدره وأفسح لهم مجلسه واسبغ عليهم نعمه وعرفت ايران من ابنائها حيرة من عرفتهم في مجلس ذلك الأمير وبلاط سلطانه ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الصوفى العظيم مولانا عبد الرحمن الجامى (١) والرسام او المصور الشهير كمال الدين (٢) بهزاد والمؤرخ الكبير ميرخواند (٣) وحفيده المؤرخ خواندمير •

وقد أعجب بذلك الأمير مؤرخنا خواندمير ولقى عنده من الخطوة والمكانة الكثير لدرجة ان الأمير قد ترك خواندمير مكتبته الخاصة ينهل منها ما وسعه حتى أخرج كتابه « خلاصه الاخبار » فى سنته أشهر وقدمه للأمير ، كما خصص أحد مؤلفاته للحديث عن عظمه ذلك الأمير وكرم أخلاقه وهو ما أسماه « مكارم الاخلاق » الذى سنفصل القول عنه فى الفصل الثالث عند الحديث عن مؤلفات خواندمير •

يضاف الى ذلك أن خواندمير كان دائماً ما يذكر ذلك الأمير بالخير فى ثنايا مؤلفاته الاخرى ، ويشنى عليه ، ويوضح مكانته ومنزلته فى بلاط السلطان حسين بايقرا ، فيذكر مثلاً فى كتابه دستور (٤) الوزراء - أثناء حديثه عن الوزير قوام الدين نظام الملك الخوافى - قصة سمعها بنفسه من الأمير عيشير نوائى فيقول : « راقم آين كلمات دليذير ار لفظ كوهر بار آن اميرصافى ضمير جبين استماع نموده كه : در آن اوان كه كيفيت رنجش خاطر من از خواجه نظام الملك نزد حضرت أعلى بوضوح بيوست روزى آن حضرت با من خلوت کرده برسيده كه : تقرب شما نزد من بيشتراست يا از مجد (٥) الدين محمد بيشتتر بود • من از جواب اين سخن اعراض نموده ، آن حضرت سؤال راتكرار فرمود ، آنكاه بمعرض رسانيدم كه : مجد الدين محمد را زهره وياراى آن نبود كه با من برابرى تواند كرد زیراكه شما فرمان داده ايدكه منشيان درگاه عالم بنه در مناشير همايون مرا مقرباً حضرت السلطاني مى نويسند وأولاد أمجاد شماكه درى برج سلطنت ودر درج خلافت اند بتعظيم من قيام مينما يند • ومجد الدين محمد از أمثال اين مواهب وعطايا بهره نداشت !! سلطان صاحب شوكت فرمود كه : يا آنكه مجد الدين محمد درين آستان نسبت بشما بى اعتبار بود ونوبتى من بجهت سعادت أو نظام الملك رامقيد کرده ، فرمودم تا اورا مدتى تشكجه وتعذيب

(١) خواندمير : حبيب السير - المجلد الثالث ج ٣ ص ٣٢٧ بمباى •

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٠ بمباى •

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٩ بمباى •

(٤) ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ طهران •

(٥) وكان من أعظم وزراء السلطان حسين بايقرا - انظر دستور الوزراء ص ٤٠٠

فرمودند واکنون می شنوم که بعنایت من امید وار کشته یاشما طریق مخالفت ومعادات سلوک می دارد اکر شما راضی می شوید می فرمایم که : همین لحظه اورا گرفته حبس می نمایند . من بعرض رسانیدم که : در ایام دولت ابد بیوند هرکس نسبت بمن بدی اندیشید بسزای خود رسید و می دانم که نظام الملک نیز ببلیه ای گرفتار خواهد شد اما نمیخواهم که سبب ابتلای او من باشم » .

وترجمتها : « ولقد استمع کاتب هذه الکلمات الشیقة من ذلك الأمير المخلص ما یلی : فی الوقت الذی وضع فیہ للسلطان حقیقة غضبی من الوزير نظام الملك ، انفراد بی ذات یوم وسألنی بقوله : هل تعتقد أن قریک منی أكثر أم کان قرب مجد الدین محمد ؟ فأعرضت عن الإجابة علی هذا السؤال ، وکرر السلطان سؤاله ، وحينئذ قلت له : ان مجد الدین محمد لم تکن له السلطة والصداقة التي تؤهله للمقارنة بی لأنک قد أمرت بأن یکتب کتاب البلاط السلطانی أسمى فی الأوامر السلطانية بلقب « مقرب الحضرة السلطانية » ، كما أن أولادکم الأمجاد درر عرش السلطنة والخلافة یقدمون لی واجبات التبجیل والاحترام ، ولم یکن لمجد الدین محمد حظ من مثل هذه النعم والعطايا ، فقال السلطان المهیب : بغم أن مجد الدین محمد لم یکن له فی هذا البلاط أى اعتبار بالنسبة لک الا اننی أصدرت بسببه أمری بالقبض علی نظام الملك وأمرت بتعذیبه ، والآن أسمع أن نظام الملك بات مغرورا بعنایتی له ، ويسلك معک سبیل المخالفة والمعاداة ! فلو أنك ترضی فانی أمر فی هذه اللحظة بالقبض علیه وإيداعه السجن ، فقلت له : ان کل من أضمر لی سوءا فی ظل دولتکم الخالدة نال جزاءه ، وانی لعلی یقین من أن نظام الملك سوف یبتلی بمصیبة أيضا ، ولکتنی لا أحب أن أکون أنا السبب فی ابتلاله » .

وهكذا یتضح لنا مما ذکره خواندمیر مقدار مکانة الأمير نظام الدین علیشیر نوائی فی بلاط السلطان حسین بايقرا كما تتضح لنا عظمة ذلك الأمير وترفعه عن الايذاء حتی مع أعدائه والحاقدین علیه أمثال الوزير نظام الملك الجوافی موضوع القصة السابقة أيضا . وقد حاز أيضا الأمير نظام الدین علیشیر نوائی شهرة فائقة فی مجال البر والتقوى والخیر وتشجیع العلماء والأدباء حیث کان هو نفسه شاعرا ملهما وکاتبا مبرزا وله مؤلفات باللغة التركية الجغتائية وبالفارسية أهمها دیوان شعر باللغتين التركية والفارسية ومنظومته « خمسة المتحیرین » التي نظمها مجيبا علی « خمسة (١) نظامی » باللغة التركية (٢) الجغتائية وکتابه

(١) ونقصه نظامی الکنجوى المولود عام ٥٣٥ هـ الذى نظم خمس مثنویات تعرف باسم « الخمسة » أو « پنج کنج » بمعنى الكنوز الخمسة . انظر : (أ) کتاب « تاریخ الأدب فی ایران من الفردوسی الی السعدی » تألیف براون ، ترجمة المرجوم الأستاذ الدكتور الشواوى ص ٥٠٦ .

(ب) . کتاب « نظامی الکنجوى شاعر الفیلة » للأستاذ الدكتور / عبد النعم حسنین .

(٢) « سبک شناسی » ملک الشعراء بهار ج ٣ ص ٢١٠ .

« مجالس النفائس (١) » وغيرها • وتوفي الأمير عليشير نوائي في هراة في الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ ودفن بها •

(١) كتاب مجالس النفائس : ألفه الأمير نظام الدين عليشير نوائي في عام ٨٩٦ هـ باللغة التركية الجغتائية أو التركية الشرقية ، والكتاب عبارة عن فهرست مختصر لأحوال السعراء والفضلاء الذين عاشوا في القرن التاسع الهجري في إيران ومن بين هؤلاء سلاطين وأمراء ووزراء وعلماء ومشايخ صوفية وقضاة وطلاب علم وغيرهم • نذكر منهم على سبيل ائثال لا الحصر السلطان تيمور خان ، ابنه شاهرخ والسلطان حسين ميرزا باقر وابنه بديع الزمان ميرزا ومولانا نور الدين عبد الرحمن الجامي والأمير قاسم الأتوار ومولانا شرف الدين علي اليزدي • وقد بلغ عدد الشخصيات التي تناولها الكتاب حوالي ٣٨٥ شخصية تقريبا - حسب ما جاء في معظم النسخ - موزعة على ثمانية مجالس • والكتاب ترجم الى اللغة الفارسية ثلاث مرات ، الترجمة الأولى ، وقلم بها مولانا فخرى هراتي عام ٩٢٨ هـ - حسب أرجح الأقوال والمسماة بـ « لطائف نامه » وقد أضاف فخرى هراتي على النص الأصلي لمجالس النفائس فصلا بعنوان « المجلس التاسع » ، تحدث فيه عن ١٨٩ شاعرا ومتحدثا لم يذكرهم الأمير عليشير بين مجالس الكتاب الثمانية •

والترجمة الثانية قام بها محمد بن مبارك القزويني طبيب السلطان سليم خان العثماني - عام ٩٢٩ هـ في استانبول ، وقد تصرف القزويني أيضا في النص الأصلي حيث أدمج المجلس الثامن في المجلس السابع وجعل الكتاب الأصلي سبعة مجالس فقط ثم أضاف هو من عنده المجلس الثامن ، تحدث فيه عن الشعراء السابقين على عصر السلطان سليم كما تحدث عن السلطان سليم نفسه والشعراء الذين عاشوا في بلاطه • وهاتان الترجمتان قام بتصحيحهما ونشرهما الأستاذ علي أصغر حكمت في طهران عام ١٣٢٣ هـ ش بعنوان « مجالس النفائس » تأليف الأمير نظام الدين عليشير نوائي • والترجمة الثالثة قام بها شخص يدعى شاه علي بن عيد العل في أوائل القرن الحادي عشر الهجري تقريبا ، وهذه الترجمة تشتمل على سبعة مجالس من المجالس الثمانية الموجودة في الأصل ، وقد ضاع منها نصف المجلس السابع وأصبح هذا المجلس ينتهي بالحديث عن ميرزا الخ بيك •

وتتركز أهمية كتاب مجالس النفائس في كونه صورة حقيقية كاملة للأدب الفارسي في القرن التاسع الهجري وعن الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الفترة • وبالنسبة للأدب الترمي يعتبر هذا الكتاب في نصه الأصلي أثرا نفيسا من آثار اللغة التركية الفصحى ودليلا قويا على مدى انتشارها بين السلاطين والأمراء التيموريين في إيران في ذلك الزمن البعيد •

(براون • تاريخ الأدب في إيران ج ٣ ص ٤٩٣ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ •
- ١٩٤٨ م ، عليشير نوائي ، مجالس النفائس ، طهران ١٣٢٣ هـ ش •)

٧ - الأمير غياث الدين محمد بن الأمير يوسف الحسيني (١)

وهو من أكابر سادات وقضاة خراسان يمتد نسبه كما ذكر خواندمير نفسه في كتابه « حبيب السير » الى الحسين الأصغر بن الامام زين العابدين على بن الحسين عليهم السلام . وقد أصبحت جميع شئون خراسان وخاصة هراة تسير بفضل كفاءته وتديره . وعندما حاصر عبيد الله خان الأذربكي هراة عام ٩٢٧ هـ ، قدم القاضي غياث الدين هذا خدمات جليلة لأهالي هراة وكان لتصرفاته المتزنة أثر كبير في رفع هذا الحصار عن هراة وتخلص أهلها من هذه الكارثة .

ولكن الأمير غياث الدين بعد هذه الحادثة قتل على أيدي الأعداء الداخلين ، وعلى رأسهم الأمير خان حاكم هراة ، والذين كانوا يريدون استمرار الاضطرابات والفلاقل ليتمكنوا من تحقيق مطامعهم في السلب والنهب ، وقد فوت الأمير غياث الدين عليهم تلك الفرصة . وكانت حادثة مقتل غياث الدين في يوم الأربعاء السابع من شهر رجب عام ٩٢٧ هـ ، وكان خواندمير قد بدأ في أوائل عام ٩٢٧ هـ في تأليف كتابه « حبيب السير في أخبار أفراد البشر » بتشجيع من الأمير غياث الدين هذا . وبعد أن وضع الفصل الأول من المجلد الأول من الكتاب تقريبا ، حدثت تلك الواقعة الأليمة للأمير غياث الدين ، فكانت السبب في توقف خواندمير عن مواصلة تأليف الكتاب الى أن أرسل الشاه اسماعيل الصفوي حاكما آخر على خراسان وهو « أبو المتصور دورميش خان » الذي أعاد الأمن والاستقرار الى هراة ، فواصل خواندمير مرة أخرى تأليف كتابه بتشجيع من « كريم الدين حبيب الله الساوجي » وزير دورميش خان بعد أن بذل جهدا كبيرا من أجل رفع أحزان خواندمير وآلامه بسبب مقتل مشجعه السابق الأمير غياث الدين .

(١) (أ) كتاب « حبيب السير » خواندمير - المجلد الأول ص ٤ ، ٥ ، ٦ من مقدمة

خواندمير ، طهران .

(ب) المرجع السابق/مقدمة جلال الدين همائي ص ١٢ ، ١٣ .

(ج) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائي ص ٢٣٥ - ٢٤٠ .

٨ - الوزير كريم الدين حبيب الله الساوجي (١)

عرفنا أن خواندمير قد توقف عن تأليف كتابه « حبيب السير » بعد أن وضع الفصل الأول من المجلد الأول من الكتاب تقريرا وذلك بسبب أوضاع هراة وحصار عبيد الله خان الأذربكي لها ومقتل القاضي غياث الدين الذي شجع خواندمير على القيام بهذا العمل على يد حاكم هراة وأعوانه . فبعد مقتل غياث الدين استدعى الشاه اسماعيل الصفوي الأمير خان من خراسان وعين أبا المنصور دورميش خان حاكما جديدا على خراسان ، فاختار دورميش خان كريم الدين حبيب الله الساوجي وزيرا له ، وجاء حبيب الله الى مدينة هراة في يوم الأحد السادس من شهر صفر عام ٩٢٨ هـ بعد أن وكل اليه دورميش خان مهمة التصرف بحرية واستقلال في شئون خراسان وخاصة هراة . وقد بدأ حبيب الله في اليوم التالي لوصوله هراة يتصل بالعلماء والفضلاء ، وأطلعهم على التغيرات الجديدة ، ثم عمل ذلك الوزير على رعاية أهل العلم والأدب ورد الحقوق الى أصحابها وانصاف المظلومين وتوفير الأمن والطمأنينة للجميع .

ومنذ أن جاء ذلك الوزير الى هراة ، توطدت علاقته بكبار رجال هراة وأرباب الفضل والأدب بها وشجع خواندمير على مواصلة تأليف كتابه ورفع عنه الملل والسأم بكرمه وأفضاله كما يذكر خواندمير نفسه في تقديمه لكتابه . ونظرا لانجاز خواندمير القدر الأكبر من هذا الكتاب تحت رعاية ذلك الوزير واعترافا من خواندمير بفضل عليه فقد جعل اسم هذا المؤلف مستمدا من اسم ذلك الوزير حيث جعله « حبيب السير في أخبار أفراد البشر » بعد أن أنهاه في ربيع الأول عام ٩٣٠ هـ الموافق ١٥٢٤ م .

وقد ظلت مكانة حبيب الله الساوجي واستقلاله بتدبير شئون خراسان حتى وفاة دروميش خان في عام ٩٣١ هـ ، وبعد ذلك جاء في نفس العام حسين خان حاكما على خراسان من قبل طهماسب الصفوي وكانت أحوال تلك البلاد قد ساءت في هذه الأوقات وسادها القحط بسبب كثرة اعتداءات الأذربك ، وخلال تلك الظروف قتل الوزير حبيب الله على يد أحد أفراد قبيلة شاملو بعد أن حاصروا بيته وقتلوا ابنه . وهكذا كان الجو الذي عاش فيه خواندمير وكانت تلك الشخصيات التي تعامل معها وعاش بينها عن قرب . هذا غير أمثاله وأقرانه من الفضلاء وخاصة الذين ذخر بهم بلاط السلطان حسين بايقرا وابنه بديع الزمان ميرزا ومجالس مقرب الحضرة السلطانية الأمير نظام الدين عlishير نوائي في إيران ، وبلاط الامبراطور ظهير الدين بابر وابنه همايون في الهند .

(١) (أ) خواندمير حبيب السير - مقدمة جلال الدين هماني ص ١٣ .

(ب) عبد الحسين نوائي : رجال كتاب حبيب السير ص (ريچ) من المقدمة .

الفصل الثاني

خواندمير

(ترجمته وأسرته ، فترة نضجه وحياته السياسية)

اسمه ولقبه :

ليس هناك اختلاف في اسم ولقب خواندمير لأنه ذكر هو نفسه اسمه وكنيته صراحة في كتابيه دستور الوزراء وحبيب السير ، فذكره في دستور الوزراء (١) « غياث الدين بن همام الدين الملقب بخواندمير » كما ذكره في حبيب (٢) السير « غياث الدين بن همام الدين الحسيني المدعو بخواندمير » ، ولقبه يكتب أحيانا بـ « خواندامير أو خواندمير أو خوندامير أو خوندمير » (٣) .

مولده :

هناك اختلاف في العام الذي ولد فيه خواندمير ولكنه يبدو أنه ولد في عام ٨٨٠ أو ٨٨١ هـ وذلك استنتاجا من العبارة التي قالها خواندمير نفسه في مقدمة كتابه « حبيب السير (٤) » حيث يقول في بداية عام ٩٢٧ هـ عن نفسه عندما أخذ يهتم بالبده في وضع هذا الكتاب : « از مبادى سنن رشد و تمیز تا غایت که سنین عمر عزیز از حدود اربعین هفت هشت مرحله تجاوز کرده همواره بتصحيح روايات احوال سابقه وتنقيح حكايات آثار لاحقة مايل وراغب ميشود » .

وترجمتها : « ومنذ بلوغه سن الرشده وهو يهوى دائما الاشتغال بتصحيح الروايات السابقة وتنقيح الحكايات اللاحقة الى أن تجاوزت سنين عمره العزيز الآن السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين » .

(١) مقدمة خواندمير ص ٧ .

(٢) مقدمة خواندمير ص ٤ .

(٣) مقدمة دستور الوزراء/خواندمير بقلم سعيد نفيسي ص (١) .

(٤) مقدمة خواندمير ص ٤ .

فاذا طرحنا هذه السنوات من عام ٩٢٧ هـ - تاريخ بدء العمل في الكتاب - يكون عام ولادته بين عامي ٨٨٠ ، ٨٨١ هـ ، وهذا هو الأرجح بين الجميع ، كما أن ولادته قد حدثت بمدينة هراة لأن أسرة والدته كانت من أهل هراة ولم يعرف قط أن هذه الأسرة قد انتقلت من هراة الى مكان آخر لا في مؤلفات خواندمير ولا عند غيره من المؤلفين .

موطنه (١) :

كانت ولادة خواندمير كما ذكرنا في مدينة هراة ، حيث نما وترعرع وحصل علومه كلها فيها ، ومن حسن حظ هذا المؤرخ أن هراة في تلك الفترة كانت في أوج مجدها وعظمتها بين مدن إيران بل مدن المشرق كله ، ومن المعروف أن هراة كانت من أكثر البلاد عمراناً أيام السلالة الكوشانية ولكنها زادت عمراناً وازدهاراً في عهد الدولة الغزنوية . وكانت دائماً ذات أهمية استراتيجية وتجارية ، وبعد أن فتحها تيمور لك في عام ٧٨٢ هـ نهضت نهضة علمية وفنية رائعة ، وجعلها ابنه شاهرخ عاصمة له ، وكان من أكثر السلاطين الذين حكموا إيران ثقافة ، فجعلها المركز الثقافي لوسط آسيا وازداد الرخاء في هراة في ظل حكمه الرشيد وعلت مكانة المهندسين المعماريين والرسمين والشعراء والعلماء .

وفي عهد السلطان حسين بايقرا ووزيره الشاعر نظام الدين عليشير نوائي كانت هراة من أعظم مدن الشرق وأشهرها تمدناً ونهضة في العلم والأدب والفن ، فظهر منها كثير من العلماء والفنانين والشعراء والمؤرخين أمثال مولانا عبد الرحمن الجامي وهاتقي وبهزاد وياري وسلطان علي وميرخواند وخواندمير وغيرهم ، رفعوا جميعاً راية العلم والفن عالية في بلدهم .

وهراة لا تزال حتى الآن تحتفظ بتراتها القديم ، ويكثر فيها العلماء والأدباء والشعراء والفنانون . وبهراة أيضاً مساجد وآثار إسلامية مزدانة بأجمل الزينة والزخرفة على الطراز الهروي البديع ، فأهل هراة بطبيعتهم يميلون الى الفن والأدب ، وهم قوم أشداء فارعو القوام عذبو الكلام كريمو الأخلاق . وهكذا كانت الحياة التي نشأ فيها مؤرخنا وكان الموطن الذي تربى وتعلم فيه ، وظهر أثر هذه الحياة وفضل هذا الموطن عليه ، وعبر عن تلك الحياة وسجلها في إنتاجه أفضل تسجيل .

(١) (أ) أبو العنين فهمي محمد ، أفغانستان بين الأمس واليوم ، ص ٢٦٣ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، فرع مصر ١٩٦٩ م .

(ب) دونالدولبر ، إيران ، ماضيها وحاضرها ، ص ٧٩ من الترجمة العربية ١٩٥٨ القاهرة .

أسرته :

والد خواندمير هو خواجه همام الدين محمد بن خواجه جلال الدين محمد بن خواجه برهان الدين محمد الشيرازي الذي تولى الوزارة معظم فترة سلطنة السلطان محمود ميرزا (المتوفى عام ٩٠٠ هـ) ابن السلطان أبي سعيد كوركان كما يصرح خواندمير نفسه بذلك في كتابه « حبيب (١) السير » فيقول : « وزارت أو در أكثر أوقات برای صوابنمای والدمسود أوراق خواجه همام الدين بن خواجه جلال الدين محمد ابن خواجه برهان الدين محمد شيرازي مفوض بود » . وترجمتها : وكان - يقصد السلطان محمود - يسند وزارته في أكثر الأحيان الى خواجه همام الدين بن خواجه جلال الدين محمد بن خواجه برهان الدين محمد الشيرازي والد مؤلف هذا الكتاب » .

ووالدة خواندمير هي كريمة المؤرخ الكبير ميرخواند محمد بن الأمير برهان الدين خاوند شاه بن شاه كمال الدين محمود البلخي مؤلف « روضة الصفا » المتوفى عام ٩٠٣ هـ . وهو ينتمي الى أسرة من الأشراف من كبار عائلات بخارى التي يتصل نسبها بزيد بن علي زين العابدين بن الحسين . يقول خواندمير في كتابه « حبيب (٢) السير » عند حديثه عن سيد برهان الدين خاوند شاه والد ميرخواند :

« واز آنحضرت سه بسر ماند أمير خواند محمد كه والد بزرگوار والده مسود اوراقست وسيد نظام الدين سلطان أحمد كه سالها در ملازمت سلطان بديع الزمان ميرزا منصب صدارت داشت وسيد نعمت الله كه مجذوب متولد شده بود واز وی خوارق عادات ظهور مينمود » .

وترجمتها : « وقد خلف ذلك السيد ثلاثة أبناء أولهم محمد الوالد العظيم لوالدة محرر هذه الصفحات ، وثانيهم سيد نظام الدين سلطان أحمد الذي كانت له الصدارة في بلاط السلطان بديع الزمان ميرزا لعدة سنوات ، وثالثهم سيد نعمة الله الذي كان قد ولد مجذوبا وكانت تصدر عنه خوارق العادات » .

وكان خواندمير يذكر جده لأمه هذا أحيانا بلقب « والدي » - احتراماً له واعترافاً بفضله عليه - مما أوقع بعض الدارسين والمحققين في خطأ كبير حيث اعتبروا خواندمير ابناً شرعياً لميرخواند ، ومن بين من وقعوا في هذا الخطأ المرحوم (٣) رضا قليخان هدايت مؤلف « متمم روضة الصفاء » . وهناك رأى آخر (٤) يقول بأن ميرخواند هو أيضاً عم خواندمير بالإضافة الى كونه جده لأمه ،

(١) المجلد الثالث ج ٣ ص ١٩٤ بمبای .

(٢) المجلد الثالث ج ٣ ص ١٨٩ بمبای .

(٣) سبك شناسی/محمد تقی بهار - ج ٣ .

(٤) حبيب السير/خواندمير - مقدمة جلال الدين همائي ، ص ٦ - طهران .

ولكن هذا الرأي لا يتفق مع الشريعة الإسلامية اذ لا يعقل أن يكون ميرخواند جد خواندمير لأمه وعمه في نفس (١) الوقت لأنه يترتب على ذلك زواج الأخ بابنة الأخ، وهذا محرم شرعا . أما اذا اعتبرنا برهان الدين - جد والد خواندمير - هو نفسه برهان الدين والد ميرخواند ، كان ميرخواند أيضا عم والد خواندمير ، وهذا افتراض صحيح ولكنه لا يوجد دليل على اثباته (٢) .

ونظرا لدور جده هذا في تنشئته ورعايته وتوجيهه ، وكذا نظرا لاعتراف خواندمير بفضل جده عليه وقيامه باكمال الجزء السابع من كتابه «روضة الصفا» ، فان الواجب يقتضي أن نورد كلمة موجزة عن المؤرخ الكبير ميرخواند وعن كتابه « روضة الصفا » .

المؤرخ الكبير ميرخواند : (٨٣٨ - ٩٠٣ هـ) .

وهو محمد بن أمير برهان الدين خاوند شاه بن شاه كمال الدين محمود البلخي مؤلف « روضة الصفا » . وكان من الأشراف من أسرة تتصف بالعلم والتقوى يمتد نسبها الى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وكانت تلك الأسرة تقطن بخارى ثم هاجر والده سيد برهان الدين من بخارى واستقر في بلخ حيث توفي هناك .

وقد حصل ميرخواند المعارف المتداولة في عصره وأبدى مهارة فائقة في علوم المعقول والمنقول ولكنه برز في فنى التاريخ والانشاء ووصل فيهما الى درجة يعجز عن وصفها البيان كما يتضح في كتابه « روضة الصفا » على حد قول خواندمير في كتابه « حبيب السیر (٣) » .

وقد اعتمد ميرخواند عند تأليفه كتابه « روضة الصفا » على الكتب التاريخية العربية حيث ترجم منها الى الفارسية ، كما اعتمد كذلك على بعض الكتب الفارسية حيث اقتبس منها وكان ينقل عن بعضها حرفيا بعد ادخاله تعديلات بسيطة من أجل تبسيط العبارة مثلما اقتبس من كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله وكتاب « ظفر نامه » يعنى « كتاب الظفر » لشرف (٤) الدين على .

وكتاب « روضة الصفا » يشتمل على سبعة أجزاء وضع ميرخواند بنفسه للأجزاء الستة الأولى ووضع خواندمير الجزء السابع المتضمن فترة سلطنة السلطان حسين بايقرا ، وكذا الحديث عنه منذ ولادته وحتى وفاته وعن أعقابه حتى عام ٩٢٩ هـ . وقد ذكر خواندمير في نهاية هذا الجزء تسجيلًا موجزًا لتاريخ

(١) سورة النساء آية ٢٢ ونصها « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت » .

(٢) حبيب السیر/خواندمير - مقدمة جلال الدين همائي ص ٧ - طهران .

(٣) المجلد الثالث ج ٣ ص ٣٣٩ بمبای .

(٤) سبک شناسی/محمد تقی بهار - ج ٣ ص ٢٠٥ .

قبائل ال « قره قويونلو » يعنى « أصحاب الخراف السوداء » ، وقبائل
ال « آق قويونلو » يعنى « أصحاب الخراف البيضاء » .

وقد حاز كتاب « روضة الصفا » هذا شهرة فائقة لدى الايرانيين وغيرهم ،
ولكن كتاب حفيده خواندمير « حبيب السير » يمتاز عليه لأن خواندمير أضاف
فى نهاية كل عصر شرحا وافيا لأحوال الفضلاء والعلماء والأدباء والزهاد
والسادات والوزراء الموجودين فى ذلك العصر ، وذلك بالإضافة الى شموله
جميع المعلومات الموجودة بروضة الصفا الذى كان ينقل عنه خواندمير حرفيا فى
كثير من الأحيان بحيث أنه يمكن (١) الاستغناء عن قراءة روضة الصفا بقراءة
كتاب « حبيب السير » .

وقد ولد ميرخواند عام ٨٣٨ هـ ، وقضى أغلب أيام حياته فى بلاط الأمراء
والسلطين التيموريين . وكان من المقربين لسلطان حسين بايقرا والأمير عيشير
نوائى ، وقد توفى بعد ثلاث سنوات تقريبا من اعتزاله الحياة السياسية والعلمية
والاعتكاف عن الناس ، لاصابته ببعض الأمراض وانقطاعه للعبادة والتصوف
وذلك فى الثانى من شهر ذى القعدة عام ٩٠٣ هـ بمدينة هراة . يقول خواندمير
فى كتابه « حبيب (٢) السير » مسجلا تاريخ وفاة جده ميرخواند : « در دوم ذى
قعدة سنة ثلاث وتسعمائة از محنت آباد جهان برياض راحت افزاى جنان
انتقال فرمود ندوفات آنحضرت درسش شعت وشش سالكى دست داد ودفنش
در مزار شيخ بهاء الدين عمر اتفاق افتاد » .

وترجمتها : « ولقد انتقل فى الثانى من ذى القعدة عام ٩٠٣ من دنيا
الألم والفناء الى عالم الراحة والبقاء ، وكان رحيل ذلك السيد بعد أن بلغ السادسة
والستين من عمره وتم دفنه فى مزار الشيخ بهاء الدين عمر » .

وقد طبع كتاب روضة الصفا مرتين فى بمباى بالهند ، الأولى عام ١٢٦٦ هـ
والثانية عام ١٢٧١ هـ كما طبع عدة مرات فى ايران ، ولكن طبعت ايران تزييد
ثلاثة أجزاء عن طبعتي الهند وهى الأجزاء التى أضافها المرحوم رضا قليخان
هدايت على « روضة الصفا » بعنوان « متمم روضة الصفا » عن تاريخ الدولة
الصفوية والأفشارية والزندية والقاجارية . كما ترجم كتاب « روضة الصفا »
الى اللغة التركية وطبع فى استانبول عام ١٢٥٨ هـ . هذا عدا الترجمات المختلفة
لبعض أجزائه الى مختلف اللغات .

وكان خال خواندمير - نظام الدين سلطان أحمد - من رجال القرن
التاسع البارزين ، وتولى الوزارة لسلطان بديع الزمان ميرزا فترة من الوقت .

(١) حبيب السير/خواندمير مقدمة جلال الدين همائى ص ٢٣ ، ٢٤ طهران .

(٢) المجلد الثالث ج ٣ ص ٣٣٩ بومباى .

ولم يذكر خواندمير أنه كان له أبناء ، ولكن « ريو » مؤلف فهرست المخطوطات الفارسية والعربية بالمتحف البريطاني ، يذكر في معرض حديثه عن خواندمير تحت عنوان « خلاصة الأخبار » أنه كان له ابن معاصر للسلطان « أكبر خان » وكان يعيش في بلاطه بالهند . وقد أنعم عليه السلطان أكبر بلقب « خان » فاشتهر بـ « سيد عبد الله خان » ثم توفي بولاية كشمير عام (١) ٩٩٦ هـ .

كما يذكر الأستاذ سعيد نفيسى في مقدمة (٢) كتاب « دستور الوزراء » أن خواندمير : « كان له ابن يدعى (مير محمود) يبدو أنه جاء من الهند الى ايران بعد وفاة والده أو ربما أنه لم يذهب مع والده الى الهند ، وعلى أية حال فانه كان يعيش في ايران ، وليس لدينا معلومات عن أحواله سوى أنه ألف كتابا عن تاريخ الشاه اسماعيل والشاه طهماسب « الصفويين » بدأ تأليفه في عام ٩٥٠ هـ باسم محمد خان شرف الدين أغلى تكو أحد أمراء البلاط الصفوي ، وأنهاء عام ٩٥٧ هـ . ومن هذا الدليل يتضح أنه ظل على قيد الحياة خمسة عشر عاما بعد وفاة والده » .

نشأته وتعليمه :

يتضح من أسلوب خواندمير فيما تركه لنا من مصنفات وخصوصا كتابه « حبيب السير » ، أنه كانت له يد طولى في فن النثر الفارسي في النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ، كما يتضح أيضا من الموضوعات التي تناولها بالدراسة والبحث والتأريخ في هذه المصنفات أنه اطلع على كتب المتقدمين ، وتعمق فيها واستوعب أيضا أشعارهم ، وأورد بعضها في ثنايا كتبه حيثما اقتضاه الموقف ، بل كان ينظم هو نفسه الكثير من الأشعار .

ويتبين لنا مما سبق أن خواندمير قد قضى فترة طفولته وشبابه في تحصيل الفنون المتداولة في عصره كالطب والتفسير والشعر والأدب (٣) واللغة والتاريخ ، وأبدى مهارة فائقة في هذه الفنون . وربما يرجع الفضل في ذلك الى جده لأمه ميرخواند الذى تعهده من الطفولة ، وأشرف على تعليمه وتنشئته في هراة . وفي عام ٩٠٤ هـ تقريبا نجد خواندمير موضع اهتمام الأمير عليشير نوائى - وهو لما يتجاوز بعد الرابعة والعشرين من عمره - وكان قد استدعاه لحضور مجلسه الذى كان يكتظ بفضلاء وعلماء أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى ، أمثال المتصوف الكبير مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامى والرسام الذائع الصيت كمال الدين بهزاد والمؤرخ المعروف ميرخواند وغيرهم .

(١) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى - المقدمة ص (٥) .

(٢) مقدمة دستور الوزراء ص (ج) .

(٣) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى - المقدمة ص (و) .

ولا شك أن خواندمير قد تأثر بهذا الجو العلمى والفنى واستفاد من معاصريه كثيرا كما نال عطف ورعاية الأمير عليشير نوائى الذى تركه ينهل من مكتبته الخاصة ، ويقرأ ما حوته من مختلف العلوم لدرجة أنه جمع مواد كتابه « خلاصة الأخبار » وأنهاه خلال ستة أشهر ، وقدمه لمخدومه الأمير عليشير نوائى . ويعترف خواندمير بفضل ذلك الأمير عليه وتشجيعه له صراحة فيقول فى تقديمه (١) لكتابه « خلاصة الأخبار » : « أما عالم السر والخفيات آكا هست كه آكرنه يمن اعتنا وحسن اهتمام عاليحضرت خداوندكارى هدايت شعارى بودى آنچه درقرب ششماء نوشته شده بمدت شش سال باتمام نرسيدى » .

وترجمتها : « يعلم الله أنه لولا فضل سيدي الوافر على واهتمامه الزائد بى لما استطعت فى ست سنوات اتمام ما أنجزته فى ستة أشهر » .

كما يمكننا أن نستشف من تلك العبارة أيضا تواضع خواندمير - الذى هو من طبيعة العلماء - واعترافه بفضل الأمير عليشير ومكتبته عليه مرجعا الفضل فى انجاز كتابه هذا الى الأمير ومكتبته . والحقيقة أن الفضل الأول يرجع لخواندمير نفسه فلولا أنه رزق استعدادا كاملا لتلقى العلوم والمعارف ، وبذل مجهودا كبيرا فى البحث والدرس والاطلاع ، لما استطاع أن يستفيد مما حوته تلك المكتبة ، ولما خرج هذا الكتاب بمثل ما هو عليه . وهذا دليل قوى على ذكائه وعبقريته وفراسته التى بدأت تؤتى أكلها فى هذه السن المبكرة . ومنذ ذلك الوقت أخذت منزلة خواندمير تعلو وترتفع يوما بعد يوم عند الأمراء التيموريين الى درجة أن جعلوه نديمهم . ولكنه فضل العمل مع بديع الزمان ميرزا الابن الأكبر للسلطان حسين ميرزا بايقرا . ولم يفارق خواندمير ذلك الأمير وحتى آخر أيام سلطنته .

فترة نضج خواندمير وحياته السياسية :

بعد أن حصل خواندمير هذا القدر من العلم والثقافة أصبح مرموقا لدى الأمراء التيموريين الى درجة أن جعلوه نديمهم . ولكنه فضل العمل مع بديع الزمان دونهم جميعا . وهنا يمكن لنا القول أنه فى هذه الفترة يكون خواندمير قد اكتمل نضجه وتخطى مرحلة الشباب الأولى المعروفة بالطيش وعدم الثبات ، فاخياره العمل مع الأمير بديع الزمان ميرزا ، كان اختيار العارف المدرك لخطورة الأمور ، فلم يكن هناك فى ذلك الوقت أفضل من هذا الاختيار ، وقد قدر بديع الزمان ميرزا أيضا بإحساس الأديب الشاعر موقف خواندمير ، فزاد من احترامه ورعايته ، وعينه وزيرا له وأصبح خواندمير منذ ذلك الوقت لا يفارق بديع الزمان ميرزا ويلزمه فى سفره وحضره وكان الأمير يفضى اليه بكل أسرار ، ويقص عليه

(١) مقدمة « خلاصة الأخبار/خواندمير » نقلا عن فهرست ريو .

أخبار انتصاراته وحتى هزائمه ، كما كان يوكل اليه تدبير الأمور الهامة التي كانت تصادفه .

وكان أول عمل هام (١) يسنده بديع الزمان ميرزا الى وزيره خواندمير في عام ٩٠٩ هـ ، حينما تهدد ملكه من قبل الأzbek ، وخشى من تقدمهم فأرسل خواندمير الى والده السلطان حسين بايقرا طالبا منه النهوض لمساعدته ونجده ، ولكن السلطان حسين بايقرا كان يكن في نفسه في ذلك الوقت الكثير من الألم والمرارة بسبب ما كان من عصيان ابنه الأكبر بديع الزمان ميرزا هذا وتمرده عليه ، فلم يشأ أن يتقدم لنجده والوقوف بجانبه .

وفي ربيع عام (٢) ٩١٢ هـ عندما كان محمد خان الشيباني يتقدم في ما وراء النهر ، أخذ بديع الزمان ميرزا وأخوه مظفر حسين ميرزا - اللذان كانا شريكين في الملك بعد وفاة والدهما السلطان حسين بايقرا - يدبران الأمر للدخول في حرب مع الشيباني وأمر خواندمير بأن يتوجه الى قندهار ليطلب من « شاه بك أوغون » حاكمها النهوض لمساعدتهما ، وأخذ خواندمير طريقه ووصل الى هراة ، ولكنه بسبب موت « جوجوك بيكم » ابنة بديع الزمان ميرزا وتقدم محمد خان الشيباني ، لم يستطع خواندمير الوصول الى قندهار . وفي النهاية قرر بديع الزمان ميرزا والأمراء التيموريون محاربة الشيباني والتحموا معه في معركة قصيرة في « مرل » هرب فيها الأمراء التيموريون ، وقتل ذوالنون أرغون أحد رجال البلاط التيموري . وبذلك سقط الحكم التيموري على ايران الذي ظل أكثر من قرنين من الزمان ، وجاء بديع الزمان ميرزا من مرل الى هراة ، ثم انتقل لاجئا الى جرجان .

وبعد خروج بديع الزمان ميرزا من هراة والجنود الأzbek على مشارفها ، خشى أهلها بطش هؤلاء الجنود وسطوتهم ، وعزموا على تسليم المدينة للأzbek دون قتال أو سفك للدماء . وعلى هذا الأساس اجتمع أهالى هراة بمسجد شيخ الاسلام في يوم الجمعة الثامن من المحرم عام ٩١٣ هـ وأجروا المشورة ، وبعدها كلفوا خواندمير بكتابة رسالة الى محمد خان الشيباني تفيد قبولهم لحكمه وموافقتهم على تسليم المدينة دون مقاومة ، فكتب خواندمير الرسالة وحملها ابن أخيه عثمان - الذي كان محتسبا على هراة - حيث توجه بها الى بلاط محمد خان الشيباني . وبعد أن قرأ الشيباني رسالة أهل هراة هذه أعطى عطاءها الأمان ، واستدعاهم الى بلاطه وكرمهم واستقبلهم استقبالا طيبا (٣) وبعد ذلك كلف الشيباني عبد الرحيم التركستاني بدخول هراة ، وأوصاه بعدم اعمال القتل والتخريب .

(١) رجال كتاب حبيب السير/ عبد الحسين نوائى - المقدمة ص (ز) .

(٢) مقدمة دستور الوزراء/ خواندمير - بقلم سعيد نفيسى ص (ب) .

(٣) حبيب السير - المجلد الثالث ج ٣ ص ٣٦٠ بمباي .

ولكن الطبيعة العسكرية تغلبت على نفسه وتعرضت مدينة هراة لأعمال السلب والنهب ، وتم الاستيلاء على خزائن التيموريين ، بل ان قصور الحريم لم تسلم من الاغارة وأجبرت سيدات الأسر التيمورية - طوعا منهم أو كرها - على الزواج من أمراء الأوزبك ونبلائهم .

وكان عبد الرحيم التركستاني - حاكم هراة من قبل الشيباني - رجلا جاهلا متكبرا ورغم ذلك كان يعتبر نفسه - على حد قول خواندمير - أعقل من جميع العلماء ، ولهذا فانه لم يكن يهتم كثيرا بالعلماء لدرجة أنه أجبر خواندمير والأمير سلطان ابراهيم أميني ومولانا غياث الدين جمشيد - وكانوا من كبار رجال الدولة لمدة طويلة - على شراء عدد من الأغنام التي استولى عليها الأوزبك عند الاغارة على هراة في مقابل ستمائة دينار تبريزي لكل رأس . ولما لم يكن معهم قيمة هذه الأغنام أمرهم بأن يسوقوا هذه الأغنام - كالرعاة - بأنفسهم بعضا الصدارة ، ويمرون بها من سوق هراة حتى منزله (١) . وكان هذا المشهد باعثا على السخرية حيث استغرق الناس الذين كانوا يشاهدونهم في الضحك ، وقد ضحك خواندمير والأمير سلطان أميني أيضا على أنفسهما . أما مولانا غياث الدين جمشيد فقد بكى . وهذا يدل على الألم والمحنة التي لاقاها خواندمير أثناء دخول الأوزبك الى هراة اذ كانت تلك الفترة - التي استمرت من عام ٩٠٣ هـ الى ٩١٦ هـ - أظلم فترة في حياة خواندمير السياسية ، لقي فيها الكثير من الألم والعناء . وقد سجل خواندمير بعض أحداث تلك الفترة يوما بيوم الى أن تمكن الشاه اسماعيل الصفوي الأول من قتل الشيباني في عام ٩١٦ هـ ، وقام بطرد الأوزبك ودخول هراة . ومنذ ذلك الوقت أصبحت هراة تحت السيطرة الصفوية الايرانية ، وان لم تسلم أحيانا من هجمات الأوزبك .

وخلال الفترة من ٩١٦ هـ الى عام ٩٢٠ هـ لا نكاد نجد أخبارا عن خواندمير، فربما أنه أثر العزلة والإنزواء - بسبب أوضاع خراسان المضطربة وهجمات الأوزبك المتكررة وتقدم الصفويين للقضاء عليهم - وانقطع للقراءة والاطلاع ، وانشغل بالتأليف . يقول الأستاذ سعيد نفيسي (٢) : « درسال ٩١٦ كه شاه اسماعيل صفوي شيباني زاكشته وهرات را ازوى كرفته است وى هينوز در آن شهر بوده است ولى درسال ٩٢٠ در ديه بشت در غرجستان در انزوا ميريسته است ودر آنجا بتأليف مشغول بوده » .

وترجمتها : « ولما قتل الشاه اسماعيل الصفوي الشيباني في عام ٩١٦ هـ ، وانتزع منه هراة كان (خواندمير) لا يزال في تلك المدينة ، ولكنه في عام ٩٢٠ هـ كان يعيش معتكفا في قرية بشت - إحدى قرى غرجستان - مشغولا بالتأليف » .

(١) المرجع السابق - المجلد الثالث ج٣ ص ٣٦١ بمباي .

(٢) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسي ص (ب) .

وفى عام ٩٢٠ هـ توجه خواندمير للالتحاق بخدمة محمد زمان ميرزا الذى كان يحاول عبثا اعادة الميـاه الى مجاريها ، والعمل على احياء الدولة التيمورية المنقرضة ، ولكن خواندمير لم يذكر السبب فى ذهابه الى محمد خان ميرزا واكتفى بأن ذكر أن محمد زمان ميرزا قد سر واغتبط بمجيئه ، ولم يتركه يغادر بلاطه مهما قدم له خواندمير من أعذار . وقد تمكن محمد زمان ميرزا فى رمضان من عام ٩٢١ هـ من انتزاع بلخ من قبائل الـ « قزل باش » ، ولكنه حدث خلاف بينه وبين أحد أمراء جيشه يدعى الأمير « أردوشاه » ، فتمكن الأخير من السيطرة على المدينة . ولما أحس محمد زمان ميرزا بأن هيئته باتت مهددة بعث بخواندمير الى الأمير أردوشاه فتمكن خواندمير من التأثير على الأمير وقبل الأمير نصائحه ، ورضى بالدخول فى طاعة محمد زمان ميرزا مرة ثانية بشرط أن يكتب له رسالة أمان له ولأسرته . ولكنه نظرا لأن دولة التيموريين قد قدر لها الزوال فان محمد زمان ميرزا لم يوافق على هذا الاقتراح ، فسلمت المدينة لجنود القزل باش الذين هزموا محمد زمان ميرزا هزيمة منكرة توجه بعدها الى ظهير الدين بابر فى قندهار . وقد ظل خواندمير ملازما له أثناء هذه الظروف ، ويقال ان خواندمير عاد مرة أخرى الى هراة وبقي بها حتى منتصف شوال عام ٩٣٣ هـ لأنه يستدل من كلامه أنه بدأ عام ٩٢٧ هـ العمل فى تأليف كتابه « حبيب السير » بتشجيع من الأمير غياث الدين محمد قاضى خراسان الذى قتل على يد حاكمها الأمير سلطان فانقطع خواندمير فترة قصيرة عن التأليف ثم استأنفه فى عام ٩٢٨ هـ بتشجيع من الوزير كريم الدين حبيب الله الساوجى وزير دورميش خان حاكم خراسان الجديد ، وصرع منه فى عام ٩٣٠ هـ . ثم توجه من هراة الى قندهار فى أواسط شوال عام ٩٣٣ هـ ، ولكنه لم يبق بها طويلا حيث توجه فى العاشر من جمادى الثانية عام ٩٣٤ هـ الى بلاد الهند . ونظرا لشدة الحرارة استغرقت رحلة خواندمير سبعة أشهر تقريبا حتى وصل الى بلاط ظهير الدين بابر فى مدينة آكره ، وقد انضم لبلاطه فى الثامن من ربيع الأول عام ٩٣٥ هـ ، وصحب خواندمير بابر فى العام نفسه الى البنغال وسواحل نهر الكنج ، وشهد معه جانبا من فتوحاته ، وقام بتسجيلها ، وظل ملازما لذلك الامبراطور حتى وفاته عام ٩٣٧ هـ .

وبعد موت بابر التحق خواندمير ببلاط ابنه نصير الدين محمد همايون ، ووضع عنه كتابه المعروف بـ « همايون نامه » يعنى « كتاب همايون » أو « قانون همايون » ، سجل خواندمير فيه انتصارات ذلك الأمير وآثاره وعمائره ، وذلك فى عام ٩٤١ هـ حسب أرجح الآراء .

وفاة خواندمير :

هناك اختلاف أيضا حول العام الذى توفى فيه خواندمير ، فمن قائل بأن الوفاة حدثت فى عام ٩٤١ هـ ومن قائل بأنها حدثت عام ٩٤٢ هـ أو العام الذى يليه .

يقول صاحب « تاريخ (١) فرشته » : در آن اوان يعنى سنة ٩٤١ هـ مؤلف كتاب حبيب السير كه ملازم ركاب بود بمرض اسهال ازجهات كذران در كذشته برحمت ايزدى بيوست وحسب الوصية نعش اورابد هلى برده در جوار شبيخ نظام الدين اوليا قدس سره و أمير خسرو دفن کردند *

وترجمتها : « فى ذلك الوقت - أى عام ٩٤١ هـ - توفى مؤلف كتاب حبيب السير الذى كان ملازما للركب (٢) نتيجة اصابته بمرض الاسهال ، وفاز برحمة ربه ، وقد حملوا جثمانه - بناء على وصيته - الى مدينة دهلى ودفنوه بجوار ضريح الشيخ نظام (٣) الدين اوليا - قدس الله سره - والأمير خسرو (٤) (الدهلوى) » * كما يقول محمد تقى (٥) بهار عن تاريخ وفاة خواندمير : « در ٩٤٢ وفات يافت ودر دهلى دفن كردید » *

وترجمتها : « لقد توفى فى عام ٩٤٢ هـ وتم دفنه فى مدينة دهلى » * ويرجح الأستاذ جلال الدين همائى بأن وفاة خواندمير قد حدثت عام ٩٤٢ هـ فيقول : « وفاتش باصح اقوال در اواخر سال ٩٤٢ بهندوستان اتفاق افتاد وحسب الوصية در مزار خواجه نظام الدين اوليا نزديك أمير خسرو دهلوى بخاك رفت (٦) » *

(١) أحداث عام ٩٤١ هـ ص ٤٠٢ من الكتاب *

(٢) يقصد المؤلف ركب نصير الدين همايون *

(٣) نظام الدين اوليا : وهو أستاذ الشاعر الكبير أمير خسرو الدهلوى والمبتوفى عام ٧٢٥ هـ - ١٣٢٤ م فى دهلى بالهند ، انظر ، براون ، تاريخ الأدب فى ايران ، ج ٣ ص ١٣٢ من الترجمة الفارسية طهران ٣٢٧ هـ ش *

(٤) الأمير خسرو الدهلوى : وهو أحد ثلاثة من كبار الشعراء الذين عاشوا خارج ايران - وربما لم يشاهدوها مطلقا - وكتبوا شعرهم باللغة الفارسية الاثنان الآخران هما حسن الدهلوى وبدر جاجى ، ومكانة الثلاثة تلى مكانة الشعراء جلال الدين الرومى وسعدى الشيرازى مباشرة ، عاش الثلاثة فى الهند وحققوا شهرة فائقة ونالوا مكانة عالية بين أهلها وحكامها *

والأمير خسرو الدهلوى من أصل تركى ، هرب والده أثناء غارات المغول من بلخ الى الهند واستقر فى ولاية بتيالى حيث أنجب شاعرا فى عام ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م . وقد نال الأمير خسرو الدهلوى مكانة عالية ورعاية كاملة لدى خمسة من ملوك الهند فى دهلى ، ونظم أشعارا تروى على مائة وعشرين ألف بيت ، كما أنشأ غزليات تقدر بألفى بيت * ونبغ الأمير خسرو أيضا فى فن الموسيقى بقدر نبوغه فى فن الشعر * ويشاء القدر أن ينتقل الى چوار ربه بعد سبعة أشهر من وفاة أستاذه نظام الدين اوليا ويدفن بجوار مزاره فى دهلى عام ٧٢٥ - ١٣٢٤ م . (أنظر براون ، تاريخ الأدب فى ايران ج ٣ ص ١٣٢ ، الترجمة الفارسية طهران ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م) *

(٥) سبك شناسى - ج ٣ ص ٢٠٦ *

(٦) حبيب السير/خواندمير - مقدمة جلال الدين همائى ص ٨ طهران *

وترجمتها : « لقد حدثت وفاته - تبعا لأصح الأقوال - فى أواخر عام ٩٤٢ هـ فى بلاد الهند ، وتم دفنه حسب وصيته فى مزار خواجه نظام الدين أوليا بالقرب من ضريح الأمير خسرو الدهلوى » • كما يعتقد الأستاذ سعيد نفيسى - عند تقديمه لكتاب دستور (١) الوزراء - بأن وفاة خواندمير قد حدثت فى أواخر عام ٩٤٢ هـ أيضا ودليله على ذلك العبارة التى كان قد سجلها خواندمير موضحا بها تاريخ وفاة معاصره ورفيقه فى الترحال مولانا شهاب الدين معمايى الذى توفى عام ٩٤٢ هـ •

وقد تيسر لى العثور على ما يؤيد ما يذهب اليه الأستاذ سعيد نفيسى وذلك فى كتاب « منتخب (٢) التواريخ » لعبد القادر بداونى الذى يقول أثناء حديثه عن وفاة مولانا شهاب الدين معمايى : « وفاة مولوى در وقت مراجعت جنت آشياني محمد همايون بادشاه است از سفر كجرات درسال نه صد وجهل ودو (٩٤٢) وخواندمير مؤرخ « شهاب الثاقب » تاريخ يافت •

وترجمتها : « وكانت وفاة الشيخ أثناء عودة الامبراطور محمد همايون من كجرات عام ٩٤٢ هـ • وقد سجل المؤرخ خواندمير هذه الواقعة بعبارة « شهاب (٣) الثاقب » •

وعلى هذا يمكننا القول بأن وفاة خواندمير قد حدثت فى أواخر عام ٩٤٢ هـ ببلاد الهند ، بعد عودة مخدومه الامبراطور همايون من حملته على كجرات ، وذلك عن اثنين وستين عاما • وقد تم دفنه حسب وصيته فى مزار خواجه نظام الدين أوليا بالقرب من ضريح الأمير خسرو الدهلوى بمدينة دهلى •

(١) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسى ص (د) طهران •

(٢) منتخب التواريخ/بداونى - المجلد الأول ص ٣٤٣ باريس •

(٣) عبارة « شهاب الثاقب » اذا جمعناها بطريقة حساب الجمل يكون الناتج ٩٤٢ أى عام

٩٤٢ هـ • انظر كتاب « راحة الصدور وآية السرور » للراوندى ترجمة الأساتذة :

دكتور ابراهيم الشواربى ، دكتور عبد العليم حسنين ، دكتور فؤاد السيد ص ٦٢٣

القاهرة •

الفصل الثالث

مؤلفات خواندمير

تمهيد :

يمتاز خواندمير بين مؤرخي ايران بأنه كتب أكثر من الجميع باللغة الفارسية (١) . وقد تركزت كتاباته في فن التاريخ الذي مال اليه وعشيقه . وربما كان السبب في ذلك تأثره بجده لأنه المؤرخ الكبير ميرخواند محمد . يضاف الى ذلك رواج سوق هذا الفن - وخصوصا التاريخ العام - في العصر التيموري وأوائل العصر الصفوي ، ومن قبلهما في العصر المغولي . كما أن خواندمير بالاضافة الى اجادته فن كتابة التاريخ قد أجاد أيضا فن الشعر ولكنه لم يخصص له دواوين بل كان يجعله - غالبا - من أجل خدمة فنه الأول فينظم بعض الأشعار لاكمال المعنى الذي يتحدث عنه ، أو ليعطي عبرة وعظة اذا اقتضاه الموقف ذلك أو ليرثي به عظيما أحبه ، وكان خواندمير في هذا الفن أكثر من المتوسط بالنسبة لمعاصريه من الشعراء - على حد تعبير ملك الشعراء (٢) بهار - وسوف نتحدث عن أسلوبه في الكتابة ومنهجه في التاريخ ضمن الدراسة التي سنقدمها عن كتابه « دستور الوزراء » في الباب القادم .

والآن نستعرض مؤلفات خواندمير وما يتضمنه كل منها وأهميتها وظروف تأليفها فقد اشتغل خواندمير بالتأليف - الى جانب مهامه الأخرى - مدة ثمانية وثلاثين عاما تقريبا ، أي منذ العام الذي توفي فيه جده لأنه المؤرخ ميرخواند عام ٩٠٣ هـ وحتى عام ٩٤١ هـ تاريخ اتمامه كتاب « همايون نامه » آخر مؤلفاته ، فيبدو أن خواندمير قد عزم على أن يحل محل جده ويكون خليفته في فن التاريخ ، وأن يشغل الفراغ الذي خلا بوفاة . وقد وفق خواندمير في هذا الى حد كبير

(١) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسي ص (هـ) ، طهران ١٣٥٧ هـ .

(٢) سبك شناسي/محمد تقي بهار - ج ٣ .

جدا رغم القلاقل والاضطرابات التي ميزت عصره كما ذكرنا من قبل وكما سنتبين ذلك في موضعه عند الحديث عن كل مصنف .

وقبل أن نبدأ الحديث عن مؤلفات خواندمير يجدر بنا أن نذكر عبارة خواندمير نفسه عن مؤلفاته أثناء تقديمه لكتابه «حبيب السير (١)» حيث يقول :

« راقم این حروف درر نثار بندۀ فقیر وذرۀ حقیر غیاث الدین بن ہمام الدین الحسینی المدعو بخواندمیر ۰۰۰۰۰ کا ہی بنابر شارت عظماء ملک وملت أحيانا برسبيل رسوم وعادات در شیروء ونثر مجلدات درسلك انشاء كثير ومنشآت مکمل ومرتب کردانید مانند خلاصه الاخبار واخبار الاخيار ومنتخب تاريخ وصاف و مکارم الأخلاق ومآثر الملوك ودستور الوزراء وديكر نسخ فوايدانتما » .

وترجمتها : « لقد وضع محرر هذه الكلمات - التي هي كالدُرر المنثورة - العبد الفقير والمخلوق الحقير غياث الدين بن همام الدين الحسيني الملقب بخواندمير - تحقيقا لطلب عظماء الدولة وأعيانها أحيانا وأحيانا أخرى وضعها على سبيل العادات والتقاليد - مجلدات بأسلوب شعري ونثري ورتب وأكمل مؤلفات أخرى مثل « خلاصة الأخبار وأخبار الأخيار » ، « ومنتخب تاريخ وصاف » ، و « مكارم الأخلاق » ، و « مآثر الملوك » ، و « دستور الوزراء » ومجلدات أخرى نافعة » .

ومن المعروف أن جميع مؤلفات خواندمير مكتوبة باللغة الفارسية وهي كالتالي :

١ - مآثر الملوك (٢)

يظن « ريو Rieu » أن هذا الكتاب كان أول مؤلفات خواندمير ، ويعلل ما ذهب اليه بأن خواندمير لم يشر فيه الى مؤلفات أخرى كما كان جده لأمه المؤرخ ميرخواند لا يزال وقتها على قيد الحياة . ويذكر جلال الدين (٣) همائي بأن خواندمير يبدو أنه قد وضع هذا الكتاب عام ٩٠٦ هـ تقريبا باسم الأمير عليشير نوائي . أما سعيد نفيسي (٤) فيروى أن خواندمير قد وضعه باسم الأمير عليشير نوائي قبل عام ٩٠٦ هـ .

واذا ناقشنا الرأي الأول القائل بأن عدم اشارة خواندمير لأي من مؤلفاته

(١) حبيب السير/خواندمير - المقدمة ص ٤ طهران .

(٢) (٢) رجال كتاب حبيب السير/نوائي ص « يد » .

(ب) مجلة آداب القاهرة عام ١٩٤٤ ، مقالة بعنوان « مصادر فارسية في التاريخ الاسلامي »

دكتور/الشواري .

(٣) حبيب السير/خواندمير - مقدمة جلال الدين همائي ص ٩ طهران .

(٤) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسي ص (و) طهران .

في هذا الكتاب يدل على أنه لم يضع مؤلفات سابقة عليه ، فاننا نرى أن هذه الحجة ليست قاعدة دقيقة أو حجة قوية تثبت ما ذهب اليه « ريو » لأن مؤلف خواندمير المتفق على أنه ثاني المؤلفات - ان لم يكن ثالثها - وهو « دستور الوزراء » لا يشير خواندمير في ثناياه الى أى من مؤلفيه السابقين « مآثر الملوك » ، « خلاصة الأخيار » مثلا ، ولكن الدليل الثاني الذي يقول به « ريو » بأن تأليف مآثر الملوك كان أول عمل لخواندمير لأن جده لأمه ميرخواند كان لا يزال على قيد الحياة عند اتمام تأليف هذا الكتاب فهذا قول يمكن أن يكون صحيحا الى حد كبير . وعلى هذا يكون كتاب « مآثر الملوك » قد ألف في عام ٩٠٣ هـ قبل شهر ذى القعدة الذي توفي فيه ميرخواند وقدمه خواندمير للأمير عليشير نوائي ، كما أنه يمكن أن يكون أول مؤلفات خواندمير أيضا لأن كل من يتصدى للكتابة في أول مرة لابد له أن يكون ناقلا الى حد كبير محاولا اشباع طموحه بتنويع موضوعاته لظهار قدرته وسعة اطلاعه .

وهذا يظهر واضحا جليا في أبواب وفضول مآثر (١) الملوك حيث يتضمن الحديث عن مآثر وحكم وأمثال الأنبياء والملوك والعلماء وينقسم الى ستة أبواب :

١. الباب الأول - ذكر شيء من آثار ملوك العجم .

٢. الباب الثاني - ذكر أقوال الحكماء من بداية آدم الى بزرجمهر .

٣. الباب الثالث - ذكر أقوال النبي عليه الصلاة والسلام والأئمة .

٤. الباب الرابع - ذكر أقوال ملوك بنى أمية .

٥. الباب الخامس - ذكر أقوال خلفاء بنى العباس وملوك الطاهريين والسامانيين والغزنويين الى آل كرت .

٦. الباب السادس - ذكر شيء من آثار وأقوال ملوك الترك .

وربما كانت أهمية هذا الكتاب تنحصر فقط في الجزء الذي يتحدث فيه خواندمير عن الملوك (٢) الذين من أصل تركي والقريبة أخبارهم من المؤلف والحائزة على كل اهتمامه وخصوصا في الفترة الأولى من حياته ، وأما ما عدا ذلك فكله أحاديث منقولة اما باختصار أو منقولة بكاملها .

(١) توجد بالمتحف البريطاني نسختان من هذا الكتاب تحت رقم ٢٦٤٣ ، ٢٩٢٨ .

(٢) فهرست المخطوطات الفارسية بالمتحف البريطاني/ تأليف ريو ص ١٨ ، ١٩ .

٢ - خلاصة الأخبار في بيان أحوال الأخيار (١)

يبدو أن هذا الكتاب هو المؤلف الثاني لخواندمير لأنه يذكر في مقدمة الكتاب - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني - أنه بعد أن وقع عليه نظر الأمير عليشير نوائي ، وشاهد عليه علامات النبوغ ، وضع الأمير تحت تصرفه كل الكتب التاريخية التي كانت تحويها مكتبته الخاصة فأخذ خواندمير يلخصها ويرتبها حتى استطاع أن يخرج هذا الكتاب في غضون ستة أشهر فقط عام ٩٠٤ هـ (٢) .

ويعتبر كتاب « خلاصة الأخبار » بمثابة تلخيص لكتاب « روضة الصفا » الذي سبق أن وضع الأجزاء الستة الأولى منه جده ميرخواند . والكتاب يشتمل على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة :

المقدمة : في خلق العالم والانس والجن .

المقالة الأولى : في أحوال الأنبياء والرسل .

المقالة الثانية : في أحوال حكماء الفرس واليونان .

المقالة الثالثة : في أحوال ملوك فارس الأقدمين وملوك العرب واللمخمين والساسنة والحميريين .

المقالة الرابعة : في سيرة النبي وغازاته .

المقالة الخامسة : في أحوال الخلفاء الراشدين والأئمة الاثني عشر .

المقالة السادسة : في أحوال بني أمية .

المقالة السابعة : في أحوال بني العباس .

المقالة الثامنة : الطاهريون ، الصفاريون ، السامانيون ، آل بويه ، الغزنويون ، الاسماعيلية ، السلاجقة ، حكام خوارزم ، أتابكة الموصل وأذربيجان وفارس ولورستان ، القراختاي ، آل المظفر ، السربداريون ، الغوريون ، ملوك سيستان ، آل كرت .

المقالة التاسعة : في أحوال جنكيزخان وأحفاده .

المقالة العاشرة : في أحوال تيمور وأعقابيه إلى سنة ٨٧٥ هـ .

الخاتمة : وصف هراة وذكر بعض المعاصرين من العلماء .

(١) (١) مجلة آداب القاهرة - المجلد السابع عام ١٩٤٤ - دكتور الشواربي .

(ب) رجال كتاب حبيب السيد/عبد الحسين نوائي ص «يه» .

(٢) يذكر حاجي خليفة أن هذا الكتاب تم تأليفه عام ٩٠٠ هـ (كشف الظنون ج ٣

ص ١٦٣) .

وقد أصبح هذا الكتاب (١) - فيما بعد الأساس الذي اعتمد عليه المؤلف في تأليف كتاب « حبيب السير في أخبار أفراد البشر » . وكتاب خلاصة الأخبار هذا لا تكمن أهميته في كونه كتاباً في التاريخ العام بل تكمن أهميته في خاتمته المتضمنة الحديث عن أحوال مدينة هراة وشرح لأحوال مشاهير المعاصرين ، لأن المؤلف كان قد وضعه وهو في مقتبل الشباب قبل أن تكتمل له الخبرة الكافية بالتأريخ .

وهناك نقطة أخرى حول الكتاب تجدر الإشارة إليها وهي أن بعض العلماء قد اختلط الأمر عليهم واعتبروا هذا الكتاب من تأليف ابن خواندمير - من بينهم معتمد الدولة فرهاد ميرزا - ولكن بعد أن عرفنا أن المؤلف نفسه قد ذكر صراحة اسم هذا الكتاب بين مؤلفاته في مقدمة كتاب حبيب السير (٢) ، فإنه لا يبقى هناك مجال للشك في نسبة هذا الكتاب الى خواندمير .

٣ - دستور الوزراء

ويتناول هذا الكتاب شرحاً لأحوال وزراء خلفاء الاسلام ووزراء سلاطين ايران ، وضعه خواندمير لأول مرة عام ٩٠٦ هـ ثم أعاد فيه النظر عام ٩١٥ هـ وأضاف اليه شرحاً لأحوال اثني عشر من وزراء السلطان حسين ميرزا بايقرا ، وانتشرت بذلك النسخة الثانية من الكتاب . وعلى هذا فالكتاب توجد منه نسختان خطيتان اعتمد عليهما الأستاذ سعيد نفيسي عند طبعه هذا الكتاب ، ونشره في طهران لأول مرة عام ١٣١٧ هـ ش بعد تصحيحه ، وسوف نتناول هذا الكتاب بالدراسة في الباب القادم ونتحدث عنه بشكل أوسع ، وقد نقلناه من النسخة المطبوعة الى اللغة العربية ضمن هذا البحث .

٤ - (مكارم الأخلاق) (٣)

كان من حق الأمير عليشير نوائي على مؤرخنا خواندمير أن يسجل مآثر مخدمه ومكارم أخلاقه وعشقه للعلم والعلماء وسيرته . وبالفعل عزم خواندمير على أن يضع مؤلفاً في هذا الموضوع ليكون تذكيراً لفضائل ذلك الأمير العظيم وحبه للعلم ، ولكنه للأسف انتقل الأمير عليشير نوائي الى رحمة الله في عام ٩٠٦ هـ قبل أن يتم خواندمير الكتاب فاضطر أن يقدمه فيما بعد الى السلطان حسين ميرزا بايقرا .

- (١) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بالمتحف البريطاني تحت رقم OR.١٢٩٢ كما تحتفظ الجمعية الآسيوية الملكية بلندن بنسخة أخرى .
- (٢) المجلد الأول - مقدمة خواندمير ص ٤ .
- (٣) (١) حبيب السير/خواندمير - المجلد ١ - مقدمة جلال هماني ص ٩ طهران ١٣٥٠ .
- (ب) رجال كتاب حبيب السير/نوائي ص (١٢) .

والكتاب يتضمن شرحا طيبا لعظمة ذلك الأمير وحسن أخلاقه وينقسم إلى مقدمة وعشرة مطالب وخاتمة :

المقدمة : عن ولادة الأمير عليشير نوائي •

المطلب الأول : عن السيرة الطيبة للأمير عليشير وعظمته •

المطلب الثاني : عن رفعة مكانة الأمير عليشير العلمية •

المطلب الثالث : عن أشعار الأمير عليشير •

المطلب الرابع : عن آثار الأمير عليشير النثرية •

المطلب الخامس : عن كرم الأمير عليشير وعطاياه •

المطلب السادس : عن مراعاة الأمير عليشير واجبات الدين والاهتمام به •

المطلب السابع : عن شفقة الأمير عليشير ومرحمته •

المطلب الثامن : عن تواضع الأمير عليشير نوائي •

المطلب التاسع : عن سير الأمير عليشير وتصوفه •

المطلب العاشر : عن أقوال الأمير عليشير الحميدة وملاطفاته •

الخاتمة : وتتضمن الحديث عن بعض الحكايات والنوادر المنسوبة للأمير عليشير نوائي (١) •

ويقال ان هذا الكتاب قد حاز شهرة فائقة بعد تأليفه فيذكر خواندمير نفسه في كتاب « حبيب السير » (٢) أثناء حديثه عن الأمير عليشير نوائي قوله :

« در بيان مكارم اخلاق ومحاسن آداب وتفصيل اشعار ومؤلفات وتعداد آثار وعمارات آن فرخنده صفات رساله عليحده مكارم الأخلاق نام درسلك تحرير كشيده است وآن نسخه درميان فرق انام اشتها تمام دارد » •

وترجمتها : « من أجل شرح مكارم أخلاق ومحاسن آداب ذلك السعيد الصفات وتفصيل أشعاره ومؤلفاته وبيان آثاره وعمائره فقد تم تأليف رسالة مستقلة بعنوان « مكارم الأخلاق » • وتلك الرسالة تلقي شهرة فائقة بين الناس جميعا » •

(١) فهرست ريو Rieu ج ١ ص ٣٦٧ •

(٢) المجلد الثالث ، ج ٣ ، ص ٢٨٩ بميلى •

ولم يشر الأستاذ سعيد نفيسى الى رسالة بهذا الاسم عند حديثه عن مؤلفات خواندمير أثناء تقديمه لكتاب دستور الوزراء (١) ، كما أن الأستاذ جلال الدين همائي يصرح في مقدمته لكتاب « حبيب السير (٢) » بأنه لم يستدل على تاريخ تأليف هذا الكتاب ولكنه يقطع بأنه ألف قبل عام ٩٢٧ هـ تاريخ الشروع في تأليف « حبيب السير » .

٥ - منتخب تاريخ وصاف (٣)

يبدو أن هذا الكتاب قد فقد ، لأنه لا توجد منه نسخ في أى من مكتبات العالم . والمعلومات التى بين أيدينا عنه قليلة جدا ، وتكاد تنحصر فى مقدمة حبيب السير التى كتبها خواندمير نفسه حيث يذكر أن كتابا بهذا الاسم من بين المؤلفات التى وضعها ، وماعدا ذلك فهو من قبيل الاجتهادات .

يقول عبد الحسين نوائى فى كتابه « رجال كتاب حبيب السير » اننا لا نعلم على وجه اليقين بأن هذا المنتخب مأخوذ من كتاب « تجزئة الأمصار وتزجية الأعصار » لمؤلفه شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى الملقب بوصاف الحضرة ، كما لا نعرف أى الأجزاء قد حذفها خواندمير من هذا الكتاب وأى الأجزاء أبقاها . ومن المحتمل أن يكون كتاب « منتخب تاريخ وصاف » لخواندمير يتضمن النواحي التاريخية الموجودة فى كتاب وصاف الحضرة المشار اليه . وكتاب « منتخب تاريخ وصاف » هذا لم يذكره سعيد نفيسى عند حديثه عن مؤلفات خواندمير فى مقدمة دستور الوزراء ، كما أن جلال همائي مقدم « حبيب السير » - طبعة طهران الحديثة - اعتبر هذا الكتاب فقط من بين الكتب التى ألفها خواندمير قبل عام ٩٢٧ هـ .

٦ - نامة نامى (٤)

أى كتاب الشهرة وهو عبارة عن مجموعة من المراسلات والمنشآت التى جمعها خواندمير من الرسائل والمكاتبات الرسمية المتداولة فى بلاط السابقين تحت عنوان « آداب الكتابة والانشاء من أجل الكتاب والأدباء » . وهذا الكتاب كما يصرح خواندمير نفسه فى مقدمته قد أنهاه وهو ما بين السادسة والأربعين والسابعة والأربعين من عمره أى حوالى عام ٩٢٨ هـ تقريبا .

(١) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسى ص (هـ) طهران .

(٢) حبيب السير/خواندمير - مقدمة جلال همائي ص (٩) طهران .

(٣) (أ) حبيب السير/خواندمير - مقدمة خواندمير المجلد الأول ص ٤ طهران .

(ب) رجال كتاب حبيب السير/ نوائى - ص (يز) .

(٤) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى ص (يح) .

والكتاب يشتمل على مقدمة وثمانية فصول وخاتمة :

المقدمة : فى تاريخ فن الانشاء وأصوله وقواعده .

الفصل الأول : فى مراسلات السلاطين والأمراء والوزراء .

الفصل الثانى : فى مراسلات الشيوخ والقضاة والعلماء .

الفصل الثالث : فى مراسلات الحكام والمأمورين .

الفصل الرابع : فى المراسلات التى تخاطب الحرفيين والصناع .

الفصل الخامس : فى مراسلات الأقارب والأصدقاء .

الفصل السادس : فى مراسلات التهانى .

الفصل السابع : فى مراسلات التعازى .

الفصل الثامن : فى المراسلات المتنوعة .

الخاتمة : وتتضمن مجموعة من الرباعيات والقطعات الشعرية نظمها المؤلف نفسه عن المراسلات والألغاز والمواد التاريخية .

وتبدو قيمة كتاب « نامه نامى » هذا أو كتاب الشهرة فيما تضمنه من ذكر عدد من الأسانيد التاريخية والمراسلات الرسمية الهامة . وتجدر الملاحظة بأن هذا الكتاب لم يشر إليه سعيد نفيسى عندما تحدث عن مؤلفات خواندمير فى مقدمة كتاب « دستور الوزراء » (١) ، كما أن جلال همائى عندما تحدث عن نفس المؤلفات فى مقدمة الطبعة الحديثة من كتاب « حبيب السير » (٢) قد ذكر لفظى « نامه نامى » مشيراً الى كتاب « حبيب السير » نفسه . وتوجد من هذا الكتاب نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس (٣) برقم ١٨٤٢ فى قسم الكتب الفارسية .

٧ - الجزء السابع من روضة الصفا (٤)

وهو الجزء السابع المكمل للأجزاء الستة من كتاب « روضة الصفا » الذى طبع فى بمباى عام ١٢٦٣هـ - ١٨٤٧م . وهذا الجزء يشتمل على تاريخ السلطان حسين ميرزا بايقرا منذ ولادته وحتى وفاته ، وكذا يتضمن سيرة أعبابه حتى شهر

(١) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسى ص (هـ) طهران .

(٢) حبيب السير/خواندمير - مقدمة جلال الدين همائى ص ٩ ، ٢٠ المجلد الأول طهران .

(٣) Blochet E. : Catalogue des Manuscrits Persans de la Bibliothèque Nationale, Vol. 4, pp. 279-281, Paris, 1925.

(٤) حبيب السير/خواندمير مقدمة جلال الدين همائى ص ٣٤ المجلد الأول طهران .

دى القعدة عام ٩٢٩ هـ أى بعد احدى وعشرين سنة تقريبا من وفاة ميرخواند مؤلف روضة الصفا - الأجزاء الستة الأولى - وهذا الجزء منقول بتمامه كلمة كلمة من كتاب « حبيب السير » (١) لخواندمير دون ما زيادة أو نقصان اللهم باستثناء مقدمته القصيرة التى لا تتجاوز عشرين سطرا تقريبا والتى يبدو أن ميرخواند كان قد كتبها بنفسه .

والدليل القوى على أن ميرخواند لم يشتغل بالكتابة بعد الفصل السادس من كتابه روضة الصفا هو ما صرح به ميرخواند نفسه من أنه كان يعانى من آلام حادة فى الكبد أثناء اشتغاله بتحرير الجزء السادس من روضة الصفا المتضمن الحديث عن السلطان شاهرخ الذى اعتلى العرش بعد وفاة والده تيمور گوركان فى عام ٨٠٧ هـ ، وحتى وفاة السلطان أبى سعيد التيمورى فى عام ٨٧٣ هـ . وبعدها ازدادت آلام المرض على ميرخواند ولم يقو على تحرير صفحة واحدة (٢) . وكان ذلك فى عام ٨٩٩ هـ أى ما بين ثلاث الى أربع سنوات قبل وفاة ميرخواند . كما يؤيد الرأى القائل بعدم اشتغال ميرخواند بالكتابة بعد هذا ، ما قاله أيضا أقرب المقربين اليه وهو خواندمير عند الحديث عن سيرته حيث يذكر بأن ميرخواند قد جنح فى أواخر أيام حياته الى الاعتكاف والبعد عن الناس ، وقضى سنة كاملة خارج مدينة هراة فى « گازرگاه » ، وكرس معظم أوقاته للعبادة والاستغفار . ثم رجع فى شهر رمضان عام ٩٠٢ هـ الى المدينة من كازركاه بسبب ابتلائه بمرض سوء القنية ، ولأزم فراش المرض بعدها الى أن توفى فى الثامن من شهر ذى القعدة عام ٩٠٣ هـ (٣) .

ويتضح لنا مما سبق أن صاحب روضة الصفا لم يشتغل بالكتابة منذ انتهائه من كتابة الجزء الخامس والسادس عام ٨٩٩ هـ ، وقيامه فقط بكتابة مقدمة قصيرة - لا تتجاوز عشرين سطرا - للجزء السابع على أمل أن يتم اذا أرادت مشيئة القدر ، لأنه قضى الفترة من بعد عام ٨٩٩ هـ وحتى وفاته فى عام ٩٠٣ هـ فى المرض والنقاهة والاعتكاف واعتزال الناس والعبادة والاستغفار . وهكذا أثبت ارادة القادر أن يتم ميرخواند هذا الجزء . وهكذا يمكن القول بأن ميرخواند لم يسجل أية وقائع بعد عام ٨٧٣ هـ فى كتابه « روضة الصفا » وما سجل فيه بعد ذلك يرجع الى خواندمير حقيقة وهو الجزء السابع كما سبق أن ذكرنا .

(١) المجلد الثالث/الجزء الثالث من ص ٢٣٩ الى ٣٢٠ من طبعة طهران ١٢٧١ هـ .

(٢) روضة الصفا/ميرخواند - خاتمة الجزء السادس ص ٤٠٨ بمبای .

(٣) (أ) حبيب السير/خواندمير - المجلد ٣ ج ٣ ص ٣٠٢ طهران .

(ب) روضة الصفا/ميرخواند - ج ٧ ص ١٢٤ بمبای .

٨ - حبيب السير في أخبار أفراد البشر (١)

يذكر لنا خواندمير في مقدمة هذا الكتاب (٢) أنه بدأ تأليفه بناء على طلب مخدمه الأمير غياث الدين محمد بن يوسف الحسيني الذي كان يتولى التدريس في مدرسة من مدارس هراة وكان مقربا جدا من السلطان حسين ميرزا بايقرا وأعقبه ثم أصبح قاضيا لخراسان زمن الشاه اسماعيل الصفوي .

وكان غياث الدين هذا من سادات أهل البيت يتصل نسبه بحسين الأصغر ابن الامام زين العابدين علي بن الحسين عليهم السلام ، وكان محبوبا جدا من أهل هراة . وما ان بدأ خواندمير في كتابة الجزء الأول من هذا الكتاب تقريبا حتى قتل مخدمه غياث الدين علي يد الأمير خان حاكم خراسان من قبل الشاه اسماعيل الصفوي فسادت الفتن والقلقل مدينة هراة وخشى خواندمير ألا يستطيع اكماله . ولكن الشاه اسماعيل الصفوي الأول أرسل حاكما جديدا لخراسان أعاد إليها الأمن والطمأنينة هو « دورميش خان » الذي جعل « كريم الدين خواجه حبيب الله الساوجي » وزيرا له . وكان هذا الوزير معروفا بعلمه وأدبه وحبّه للتاريخ وسائر العلوم .

والوزير حبيب الله هذا هو الذي شجع خواندمير على تكملة كتابه فاختر خواندمير تسمية كتابه بـ « حبيب السير » تيمنا بالوزير حبيب الله الساوجي . وحبيب السير يعتبر أعظم مؤلفات خواندمير وأشهرها وأكثرها تفصيلا ، بدأ تأليفه في أوائل عام ٩٢٧ هـ وانتهى منه في عام ٩٣٠ هـ . ولكنه بعد ذلك أعاد فيه النظر مرة أخرى ، وأضاف اليه أمورا أخرى وانتشرت النسخة الثانية . ولم يذكر خواندمير سوى العام الذي انتهى فيه من تأليف « حبيب السير » دون أن يحدد الشهر أو اليوم فيقول أنه انتهى منه في عام ٩٣٠ هـ ، وجعل المادة التاريخية لالانتهاء منه عبارة « آثار الملوك والأنبياء » أي عام ٩٣٠ هـ بطريقة حساب الجمل (٣) .

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة وهي أن الأستاذ / سعيد نفيسي قد ذكر في

(١) (١) حبيب السير/خواندمير - المجلد الأول ، طبعة طهران ، والمجلدات الثلاثة طبعة

بمبای .

(ب) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسي - طهران .

(ج) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائي - طهران .

(د) مجلة آداب القاهرة - المجلد السابع عام ١٩٤٤ م/دكتور ابراهيم الشواربي .

(٢) حبيب السير/خواندمير - المجلد الأول/مقدمة خواندمير ص ٤ طهران .

(٣) امرقة طريقة حساب لجمل انظر كتاب « راحة الصدور وآية السرور » مؤلفه الراوندي

ترجمة الأستاذة الدكتور/ابراهيم الشواربي ، الدكتور/عبد النعيم حسنين ، الدكتور/فؤاد الصياد ص ٦٢٣ القاهرة .

مقدمة كتاب « دستور الوزراء » عند حديثه عن مؤلفات خواندمير كتابا باسم « آثار الملوك والأنبياء » ، يعتبره خلاصة لكتاب حبيب السير . ولكنني لم أستطع العثور على من يتفق في هذا الرأي مع الأستاذ سعيد نفيسي ، كما لم أجد ذكرا لكتاب بهذا الاسم نسب الى خواندمير ، والمعتقد أن ذكر خواندمير لهذه العبارة كان فقط بقصد تسجيل تاريخ الانتهاء من تأليف « حبيب السير » (١) .

وكتاب « حبيب السير » في أخبار أفراد البشر « يشتمل على التاريخ العام للعالم منذ بداية الخلق وحتى عام ٩٣٠ هـ قبل وفاة الشاه اسماعيل الصفوي الأول بأشهر قليلة . وهذا الكتاب يقع في ثلاثة مجلدات كل منها يشتمل على أربعة أجزاء بيانها كما يلي : -

المجلد الأول : مقدمة وأربعة أجزاء :

المقدمة : في تاريخ الخليفة .

الجزء الأول : عن الأنبياء والرسل والحكماء .

الجزء الثاني : عن ملوك العجم والعرب الأقدمين .

الجزء الثالث : عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وغزواته .

الجزء الرابع : عن تاريخ الخلفاء الراشدين .

المجلد الثاني : في أربعة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ الأئمة الاثني عشر .

الجزء الثاني : عن تاريخ بني أمية .

الجزء الثالث : عن تاريخ بني العباس .

الجزء الرابع : عن تاريخ الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية وتاريخ الاسماعيلية .

المجلد الثالث : في أربعة أجزاء وخاتمة .

الجزء الأول : عن تاريخ المغول الايلخانية .

الجزء الثاني : عن تاريخ الدول المعاصرة لدولة المغول الايلخانية .

الجزء الثالث : عن تاريخ تيمور وأعقابيه .

الجزء الرابع : عن تاريخ الشاه اسماعيل الصفوي الأول الى عام ٩٣٠ هـ .

الخاتمة : في ذكر بدائع الربيع المسكون وغرائب ووقائع العالم وعجائبه .

(١) حبيب السير/خواندمير - مقدمة جلال الدين همائي المجلد الأول ص ٢٠ طهران .

قیمه کتاب حبیب السیر : -

تنضح اهمیت کتاب « حبیب السیر » و قیمتہ فی امور عدة امتاز بها ونویرت له منها وضوح أسلوب الكتاب وخلوه بسبباً من احشوا والزوائد التي كانت منتشرة في عصره . . . كما أن خواندمیر رغم أنه كان ينقل عن « روضة الصفا » في مواقع كثيرة من كتابه « حبیب السیر » الا انه كان يفيض القول فيحدث عن الدول الصغيرة التي أهملتها « روضة الصفا » . . . كذلك تنضح قيمة حبیب السیر فيما كتبه خواندمیر عن الأحداث المعاصرة له ، يقول الأستاذ سعید نفیسی (۱) :

« أين كتاب رابرای خواجه حبیب الله ساوجی وزیر دورمش خان حاکم هرات نوشتہ وبهمین جهة آنرا حبیب السیر نامیده است و کتابیست شامل تاریخ عمومی جهان از قدیمترین زمان تا آخر سلطنت شاه اسماعیل صفوی ومخصوصاً قسمتی که در آن حوادث زمان خودرا دران نوشتہ کہ عبارات از تاریخ سلطان حسین بایقرا وفرزندان او وشاه اسماعیل وبابر وشیبانی باشد در منتهای اعتبار واز هر حیث بی مانندست ومخصوصاً دقت بسیارداشته است کہ هیچ چیزانا سنجیده وبی سند ننویسند » .

وترجمتها : لقد ألف هذا الكتاب بناء على طلب خواجه حبیب الله الساوجی وزیر دورمیش خان حاکم هراة ، ولهذا السبب أسماه « حبیب السیر » . والكتاب يشتمل على التاريخ العام للعالم منذ أقدم العصور وحتى نهاية حكم الشاه اسماعیل الصفوی ، والجزء الذي سجل فيه الأحداث المعاصرة له والمتضمنة تاريخ السلطان حسین بایقرا وأبنائه والشاه اسماعیل وبابر والشیبانی هي في غاية الأهمية ولا مثیل لها لأنها تميزت بالدقة البالغة لدرجة أنه لم یکن یورد شيئاً غیر مؤید بدلیل أو سند » . كما یقول الأستاذ جلال الدین همائی (۲) :

« صاحب حبیب السیر تمام قصص وافسانه ها واساطیر مربوط بدوره های قبل از اسلام را باهمه مطالب تاریخی دوره های بعد از اسلام تا زمان خودش که مقارن باعهد سلطنت سلطان حسین بایقرا وشاه اسماعیل اول صفوی است در این کتاب درج کرده واز این جهت خدمتی بسیار بزرگ بتاریخ وادبیات ایران انجام داده است » .

وترجمتها : « لقد ضمن صاحب حبیب السیر هذا الكتاب جميع القصص والخرافات والأساطير المتعلقة بفترات ما قبل الاسلام ، كما ضمنه جميع المطالب التاريخية المتعلقة بفترات ما بعد الاسلام حتى زمانه - الموافق لزمان سلطنة السلطان حسین بایقرا والشاه اسماعیل الصفوی الأول - ویكون بهذا قد قدم خدمة جليلة جدا للتاریخ والأدب الإيرانيين » .

(۱) دستور الوزراء/خواندمیر - مقدمة سعید نفیسی ص (و) طهران .

(۲) حبیب السیر/خواندمیر - مقدمة جلال الدین همائی - المجلد الأول ص ۲۲ طهران .

كما يمتاز كتاب « حبيب السير » أيضا بميزة تميزه عن سائر كتب التاريخ السابقة عليه ، وهي تخصيص خواندمير فصلا في آخر كل فترة من فترات التاريخ في الكتاب شرح فيه أحوال مشاهير تلك الفترة من الوزراء وكبار رجال الدولة والسادات والنقباء والمشايخ والعلماء والفضلاء والشعراء ، وهذه الفصول من الفصول الهامة جدا في الكتاب . وقد سلك هذا المسلك في الذي ابتدعة خواندمير - مؤلفو العصر الصفوي الذين جاءوا بعده ، واعتبروه قدوة لهم وخصوصا اسكندر بيك التركمانى فى كتابه « عالم آراى عباسى » الذى خصص فى آخر حديثه عن كل سلطان من سلاطين الدولة الصفوية فصلا تحدث فيه عن مشاهير المعاصرين لذلك السلطان من الفقهاء والشعراء وأصحاب الأقاليم والفضلاء والوزراء والأعيان .

منهجه :

لقد نهج خواندمير فى تأريخه لأحداث كتابه « حبيب السير » منهجا دوليا ولم ينهج طريقة السنين فى تسجيل الأخبار مثلما فعل الطبرى ، ومسكويه فى كتابه « تجارب الأمم » وابن الأثير فى كتابه الكامل وغيرهم .

ومن الواضح أن خواندمير قد سار على نهج رشيد الدين فضل الله (١) مؤرخ المغول وتأثر بكتابه « جامع التواريخ » ونقل عنه كثيرا . وكان يصرح بهذا فمثلا حينما تحدث عن أخلاق غازان خان واصلاحاته تحت عنوان « ذكر شمه از محاسن أوصاف ومحامد آثار غازانى وبيان قوانين بسنديده آن » ، مدح هذا المعامل ، وأثنى عليه ، وكشف عن نواحي العظمة فى شخصيته ، وذكر أنه لم يقصر فى تأسيس بناء الدولة وتمجيد مراسم العدل والاهتمام بشئون الرعية . وقد ساق خواندمير عشرين حكاية لحص فيها اصلاحات غازان لتكون شاهد صدق على اثبات عظمة هذا السلطان ، واعترف بأنه نقل هذه الحكايات من كتاب « جامع التواريخ » .

وقد طبع كتاب « حبيب السير » لأول مرة (٢) عام ١٢٦٣ هـ فى بمباى طبعة حجرية ، كما طبع فى طهران بعدها بثمانى سنوات فى عام ١٢٧١ هـ طبعة حجرية أيضا ، ثم طبع الطبعة الأخيرة ونشر عام ١٣٧٣ هـ فى طهران عن طريق مكتبة الحيام ، وهى طبعة ممتازة تميزت عن سابقتها بفهرس جامع لجميع محتويات الكتاب وقدم لها الأستاذ جلال الدين همائى ، وهى التى اعتمدت على المجلد الأول من طبعتها - ضمن ما تم الاعتماد عليه من الطبعات الأخرى - حيث أعارنى اياه أستاذى الفاضل الدكتور/فؤاد عبد المعطى الصياد .

(١) انظر كتاب « مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى » للأستاذ الدكتور/ فؤاد عبد المعطى الصياد - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م .
(٢) كتاب « حبيب السير » خواندمير - مقدمة جلال همائى - المجلد الأول ص ٤١ طهران .

٩ - همايون نامه (١)

وهمايون نامه (٢) رأى كتاب همايون - ألفه خواندمير عن الملك نصير الدين محمد همايون الذى سبق أن تحدثنا عنه فى الفصل الأول وهو ابن الامبراطور ظهير الدين بابر .

والكتاب يتحدث عن القواعد والقوانين التى وضعها همايون حيث يسمون الكتاب أحيانا « قانون همايون » ، كما يتحدث الكتاب عن الآثار والمنشآت التى أقامها همايون ويتضمن أيضا مدائح لهمايون نقشت على تلك المنشآت والعمائر .

ويبدو أن كتاب « همايون نامه » هو آخر مؤلفات خواندمير ، لأنه يصرح بنفسه فى مقدمة الكتاب أنه وضعه عندما كان همايون فى « كواليور » . ومن الثابت أن همايون كان فى كواليور عام (٣) ٩٤١ هـ أى قبل وفاة خواندمير بعام واحد تقريبا .

ومما سبق يتضح لنا أن خواندمير كان كاتباً مكثراً قضى معظم سنى حياته فى التأليف رغم الأعباء التى كان يضطلع بها والآلام التى كان يعانىها بسبب تقلبات الأيام وعدم الاستقرار . وقد تميز خواندمير - كما سبق أن ذكرنا - بأنه وضع جميع مؤلفاته باللغة الفارسية ، وقد لاقت كتبه رواجاً كبيراً أثناء حياته كما لقي كتابه « حبيب السير » اهتماماً بالغاً وأصبح مدرسة سار عليها ، وأخذ عنها المؤلفون الذين جاءوا من بعده ، كما لقي كتابه دستور الوزراء اهتماماً كبيراً أيضاً وطبع ونشر وأخذ عنه كل من تحدث فى هذا المجال بعده أو صحح كتاباً - كان قد تناول موضوعاتها - قبله ، وسوف نوضح ذلك بمشيئة الله فى الباب القادم .

-
- (١) (أ) دستور الوزراء/خواندمير - مقدمة سعيد نفيسى ص (ز) طهران .
(ب) حبيب السير/خواندمير - مقدمة جلال الدين همائي - المجلد الأول ص ٩ طهران .
(ج) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى ص (يج) طهران .
(د) دائرة المعارف الاسلامية ج ٩ ص ٢٦ القاهرة .
(هـ) كتاب اليوت ج ٥ ص ١١٦ History of India
(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب بالمتحف البريطانى .
(٣) فهرست ريو « Rieu » - المجلد الثالث ص ١٠٢٤ .

وعموما فان معظم مؤلفات خواندمير ما زالت فى حاجة الى مزيد من البحث والدراسة والاهتمام وخصوصا من العرب والاييرانيين ليزيلوا الغموض عما اكتنف بعضها ، ولتقفنا على مزيد من الحقائق حول فترة من أزهر فترات التاريخ الاسلامى عامة والاييرانى بصفة خاصة - أنجبت لنا الكثير من الأعلام - كان الواحد منهم مدرسة فى فنه - لا يزال العالم المتحضر يعتبرهم أئمة فى فنونهم مفسحا المجال - فى معاهده وجامعاته - لأفكارهم واثناهم *

والآن ننتقل الى الحديث عن كتاب دستور الوزراء الذى خصصناه بالدراسة، وقمنا بترجمته الى العربية ، فنفصل فيه القول ، وذلك فى الباب الثانى من هذا البحث *

الباب الثاني

« خواندمير ودستور الوزراء ، دراسة مقارنة »

ويشمل ثلاثة فصول :

• الأول : خواندمير ، المؤرخ في دستور الوزراء

الثاني : خواندمير ، رجل الأخلاق في دستور

الوزراء ••

الثالث : خواندمير ، مصادر كتابه وقيمه ،

أسلوبه وخصائصه •

قبل أن نتناول هذا الباب بالشرح والتفصيل يجب علينا ونحن مقبلون على الحديث فيه عن الوزراء (١) وكتب الوزراء أن نورد ملخصا لتطور الوزارة منذ الإسلام وحتى عصر خواندمير :

تطور منصب الوزارة منذ الإسلام وحتى عصر خواندمير :

منصب الوزارة وانشاء الدواوين تقاليد ايرانية أصيلة أدخلها الساسانيون في أنظمة حكمهم فساعد هذا المنصب الأكاسرة - قديما - على تنظيم عملية جمع الأموال وانفاقها ، يقول الجهشيارى :

« وكان للملك فارس ديوانان أحدهما ديوان الخراج والآخر ديوان النفقات ،

(١) الوزير هو المتحدث للملك في أمر مملكته . (صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٤٨) ، واختلف في اشتقاقه : ف قيل : مشتق من الوزر بفتح الواو والزاي ، وهو الملجأ ، ومنه قوله تعالى « كلا لا وزر » (سورة القيامة ، آية ١١) ، وسمى بذلك لأن الرعية يلجأون اليه في حوائجهم . وقيل : مشتق من الأوزار وهي الأمتعة . ومنه قوله تعالى : « ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم » (سورة طه آية ٨٧) ، وسمى بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته . وقيل : مشتق من الوزر بكسر الواو واسكان الزاي وهو الثقل . ومنه قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » (سورة محمد آية ٤) ، وسمى بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك .

وروى الثعالبي حديثا هو : اذا أراد الله بعبد خيرا - أو قال : بالأمير خيرا - جعل له وزير صدق ان ، ان ذكر اعانة ، وان نسي ذكره . واذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسي لم يذكره ، وان ذكر له يمتنة .

وفي كتب اللغة : الوزير حبا للملك - أى جلسه وخاصته - الذى يحمل ثقله عنه ويعينه برأيه - وفي التنزيل : « واجعل لى وزيرا من أهلى » (سورة طه ، آية ٢٩) . « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا » (سورة الفرقان ، آية ٣٥) .

فكان كل ما يرد فالى ديوان الخراج وكل ما ينفق ويخرج فى جيش أو غيره فمى ديوان النفقات « (١) » .

وبعد الفتح الاسلامى لايران فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - دخلت أموال كثيرة الى خزانة المسلمين ، وأصبح من العسير تنظيم جمعها وانفاقها ، فوافق الخليفة عمر على انشاء الدواوين . يقول الجهشيارى :

« وكان عمر أول من دون الدواوين من العرب فى الاسلام ، وكان السبب فى ذلك أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال فلقي عمر ، فقال له عمر : ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم . فقال عمر : اتدرى ماتقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم . فقال عمر :

أطيب هو ؟ قال : لا أدري . فصعد عمر المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلناه كيلا ، وان شئتم أن نعدده عدا ؟ فقام اليه رجل (٢) فقال : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدنون ديوانا لهم : قال : دونوا الدواوين (٣) » .

ولكنه رغم هذا لم يعرف ان الخلفاء الراشدين اتخذوا لهم وزراء ، بل اتخذوا كتابا . ولم يصرح أحد من المؤرخين العرب بما يخالف ذلك ، وسار خواندمير على دربهم ، بل انه كان أكثر حذرا منهم فلم يذكر فى كتابه « دستور الوزراء » شيئا عن كتاب الخلفاء الراشدين وبدأ كتابه مباشرة بوزراء العصر الأموى . الا أننا نرى صاحب كتاب « آثار الوزراء » (٤) يطلق على كتاب الخلفاء الراشدين لقب الوزراء ، فيقول فى بداية حديثه عن وزراء الاسلام بأن وزير أبى بكر الصديق كان عثمان بن عفان ، وعبد الله بن الأرقم كان وزير الخليفة عمر ابن الخطاب ، ومروان بن الحكم كان وزير الخليفة عثمان بن عفان ، وعبد الله أبى رافع كان وزير أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

والمعتقد أن هذه التسمية قد أطلقها المؤلف من عنده ، فالخلفاء الراشدون لم يكونوا فى أيامهم بحاجة الى وزراء خاصة وأنهم - رضوان الله عليهم - كانوا

(١) كتاب الوزراء والكتاب - تأليف محمد بن عبدوس الجهشيارى - ص ٣ طبعة القاهرة عام ٧٥٣١ هـ - ٣٨٩١ م .

(٢) بروى أن الرجل الذى قام الى عمر وأشبهه سار عليه بصيب الديوان ذو الوليد هشام ابن المغيرة وكان قد رأى ذلك عند ملوك الشام . (شرح نهج البلاغة ج ١٣ ص ١٢٠) .

(٣) كتاب الوزراء والكتاب/الجهشيارى ص ١٦ ، ١٧ القاهرة عام ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

(٤) كتاب « آثار الوزراء » - عقيلى ص ٢٢ طبع طهران عام ١٣٣٧ هـ ش .

جميعا من خير صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وكانت دولتهم تسير على هديه . يقول ابن الطقطقى فى كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » عند حديثه عن دولة الخلفاء الراشدين :

« واعلم أنها دولة لم تكن من طراز دولة الدنيا ، وهى بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق فى هذا أن زيتها قد كان زى الانبياء وهديها هدى الأولياء وفتوحها فتوح الملوك الكبار » (١) .

ومما سبق نرى أن الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - لم يتخذوا وزراء بل اتخذوا كتابا . وقد سار بنو أمية على هديهم واكتفوا هم أيضا بكتاب ومستشارين ، واستحدثوا فقط ديوان الخاتم فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، يقول الجهشيارى :

« وكان معاوية أول من اتخذ ديوان الخاتم ، وكان سبب ذلك أنه كتب لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم الى زياد - وهو عامله على العراق - ففصى عمرو الكتاب وجعلها مائتى ألف درهم . فلما رفع زياد حسابه قال معاوية : ما كتبت له الا بمائة ألف درهم ، وكتب الى زياد بذلك وأمره أن يأخذ المائة ألف منه ، فحبسه بها . فاتخذ معاوية ديوان الخاتم وقلده عبد الله بن محمد الحميرى وكان قاضيا » (٢) .

ولكن الوزارة لم تتمهد قواعدها وتنقرر قوانينها عند العرب بعد الاسلام الا فى العصر العباسى . يقول ابن الطقطقى :

« والوزارة لم تتمهد قواعدها وتنقرر قوانينها الا فى دولة بنى العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية . فاذا حدث أمر استشار بذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير ووزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » (٣) .

وكان أبو سلمة الخلال هو أول من أطلق عليه لقب وزير حيث وزر للخليفة أبى العباس السفاح - أول خليفة عباسى - وقد أطلق عليه أهل الكوفة عام ١٣٢ هـ اسم « وزير آل محمد » (٤) .

(١) كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن الطقطقى ص ٦٦ - دار المعارف بمصر عام ١٩٢٣ م .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب/الجهشيارى ص ٢٤ ، ٢٥ طبعة القاهرة عام ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

(٣) كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن الطقطقى ص ١٣٥ - دار المعارف بمصر ١٩٢٣ م .

(٤) كتاب الوزراء والكتاب/الجهشيارى ص ٣٣ طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

ونظرا لأن الدولة العباسية قد نشأت على أكتاف الفرس فاننا نرى الخلفاء العباسيين يسندون منصب الوزارة - فى أغلب الأحيان - الى عناصر فارسية من أسر عريضة . وقد تفنن هؤلاء الوزراء فى الارتماع بمسئوى الوزارة والعمل على بسط نفوذ الوزير واشتراكه فى تدبير جميع شئون الخلافة ، فنقلوا الرسوم الايرانية العريقة الى البلاط العباسى ، ووصل امر الى درجة أن أصبح الوزير هو المسئول الأول عن تدبير شئون الدولة بأكملها وانصرف معظم الخلفاء الى ملذاتهم وانغمسوا فى الشراب واقتناء الجوارى والغايات واصبحت مجالسهم أشبه بمجالس أكاسرة الفرس القدماء .

ومن الأسر التى كانت لها مكانة عالية فى البلاط العباسى أسرة البرامكة التى هى من أصل فارسى عريق ، وكلنا يعرف الشهرة التى نالوها والمكانة التى وصنوا اليها قبل نكبتهم ، وكذا أسرة بنى سهل التى وزرت على أنقاضهم .

يذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن (١) أن الدولة العباسية قامت بمساعدة الفرس ، وتقلد الوزارة فى العصر العباسى الاول وزراء أكثرهم من الأعاجم كالبرامكة وبنى سهل ، كما اشتهر فى العصر العباسى الثانى بنو الفرات وبنو وهب وبنو الجراح الذين اشتهر منهم على بن عيسى وزير المقتدر ، وعبد الرحمن ابن عيسى وزير الراضى .

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن (٢) أن حالة الوزارة ساءت فى عهد خلافة المقتدر ، واضطربت الأمور بسبب هذه السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة اثنى عشر وزيرا عزل بعضهم مرارا ، كابى الحسن بن على بن الفرات وعلى بن عيسى . أضف الى ذلك اعتماده على وزراء ضعاف كابى على بن محمد بن مقله الذى عزله الراضى لوشاية أعدائه به وجبسه بعد أن قطعت يده اليمنى ، وكان يبكى على يده ويقول :

« قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء ، وكتبت بها القرآن دفعتين ، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص » (٣) .

وحيثما زاد نفوذ العنصر الفارسى والتركى فى البلاط العباسى ، أصبح منصب الوزارة مهددا فى كل وقت وكثرت الرشاوى ، وكان كل من يجد فى نفسه القدرة على دفع مبلغ من المال لأهل القصر وغلمان الأتراك والقواد كان يصل الى مقعد الوزارة ، ولكنه اذا ظهر هناك من يدفع أكثر منه كان يقال ويجرد من

(١) فى كتابه « تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، الطبعة السابعة ص ٢٥٠ القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ - ص ٣٣٨ .

ممتلكاته أيضا • ولذلك حفلت الدولة العباسية فى أواخر أيامها - بعده كبير من الوزراء •

وهكذا فقد ساءت أحوال الوزارة تبعا لفساد حال الخلافة ، وقامت فى إيران دويلات مستقلة ، تولى حكمها ملوك وسلاطين ، أنشأوا فى بلاطهم الدواوين واتحدوا لانفسهم وزراء وطبعوا بلاطهم بالطابع الفارسى الاصيل ، نظرا لأن معظمهم كانوا من أصل فارسى • وقد شجع هؤلاء الحكام الوزراء وجعلوا بلاطهم محط الأنظار • وكلنا نعرف الوزراء :

أبا على البلعمى الذى ترجم تاريخ الطبرى فى عهد السامانيين ، وأحمد الاسفراينى وأحمد بن حسن الميمندى فى عهد الغزنويين ، والكندرى ونظام الملك وأولاده فى عهد السلاجقة ، وسعد الدين الأبهري فى عهد الخوارزميين • وغيرهم •

وبعد ذلك جاء المغول بغاراتهم على العالم الإسلامى وكانوا قوما بدوا بعيدين عن مراكز الحضارة والمدنية - فدانت لهم مناطق كبيرة من العالم ، امتدت من سواحل الصين حتى قلب روسيا وحدود مصر ، وكان لابد لهم أن يتدبروا فى كيفية إدارة دولتهم تلك المترامية الأطراف - وهم قوم تنقصهم الخبرة فى هذا المجال وليست لديهم معرفة سابقة بأمور الاستيفاء وشئون الحكم والقضاء - ولذلك فقد اعتمدوا على أهل البلاد المفتوحة وولوهم المناصب وتركوا لهم مهمة الإدارة وجمع الأموال واختصوا هم بأمر الجند والقتال •

وكان معظم من تولوا الوزارة لسلاطين المغول من أصل إيراني ، ففعلوا كذلك ما فعله أسلافهم أثناء الخلافة العباسية والدويلات المستقلة ، وطبعوا البلاط المغولى بالطابع الفارسى ، ونقلوا اليه رسوم الإيرانيين وعاداتهم ونظمهم وتقاليدهم • وكان أول وزير بختكيزخان هو الوزير محمود يلواج سفيره لدى خوارزمشاه • كما وزر للمغول أيضا عدد كبير من العلماء والعظماء الذين هم من أصل إيراني ، فكان لهم فضل كبير على دولتهم ، وباع طويل فى إدارة شئونها ، ومن هؤلاء الوزير أحمد البناكتى والصاحب السعيد شمس الدين محمد الجوينى - الذى أطلق على نفسه لقب « صاحب الديوان » بدلا من لقب وزير • وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى عصر السلطان « بايدو » ٦٩٤ هـ حيث أبطل وزيره « جمال الدين الدستجردانى » هذا التقليد وأطلق على نفسه لقب « الوزير » (١) •

ومن الوزراء العظام الذين وزروا للمغول وكان لهم فضل كبير فى حسن إدارة دولتهم والتأريخ لهم وحفظ أعمالهم كان الوزير المؤرخ رشيد الدين فضل الله

(١) أنظر كتاب « مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني » تأليف الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد - ص ١١٨ ، ١١٩ - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م •

الطبيب حيث وضع موسوعة ضخمة في التاريخ العام أرخت للمغول وللدول التي اتصلوا بها ، وقضى رشيد الدين أغلب أيام عمره في بلاطهم ، ولكنهم للأسف لم ينل منهم - كعادتهم مع الكثيرين من العظماء - سوى الخسارة والالام ، حيث أزهقوا روحه الطاهرة نتيجة الدس وتأصل صفة الجحود والنكران * يقول الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد في هذا المجال :

« ولكن هذه الخدمات الجليلة كثيراً ما كانت تقابل بالنكران والجحود ولا يجزى صاحبها الا جزاء سنمار ، فعلى الرغم من المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها انوزير في أعين الناس ، كان في الحقيقة في موقف لا يحسد عليه ، كما كان مركزه محفوفا بالمخاطر يؤاخذ على أتفه الأسباب وتحسب عليه أقل الهفوات ، وترقبه أعين الجواسيس وتحاك ضده المؤامرات والدسائس وتوضع أمامه العراقيل » (١) .

وأما العصر التيموري فاننا نلاحظ أنه تميز بكثرة عدد الوزراء واقبال السلاطين على اختيار وزرائهم من بين الأعيان والأثرياء ، كما كانوا يميلون الى عزل الوزراء وتنصيبهم بسرعة جدا كما يصرح بذلك خواندمير نفسه في مستهل حديثه عن هؤلاء الوزراء حيث يقول :

« وعادت اين سلطانان جنان بود که زود زود بنصب وعزل وزراء می برداختند ، ومردم فرومایه را بتقلد اين منصب جليل المراتب سرافرازی می ساختند ، لاجرم جمعی کثیر وجمعی غفیر در ایام دولت ایشان وزیر گشتند » (٢) .

وترجمتها : « وكان من عادة هؤلاء السلاطين أنهم كانوا يقومون بتعيين الوزراء وعزلهم بسرعة جدا ، كما كانوا يعينون الرجال الأثرياء في هذا المنصب الجليل ، فلا شك أن وصل الى منصب الوزارة في عهدهم عدد كبير جدا » .

ولكن نظرة السلاطين التيموريين قد تغيرت عن نظرة أسلافهم الايلخانيين تجاه الوزراء فلم تعد ظاهرة قتل الوزراء لأتفه الأسباب سائدة بينهم ، بل انهم كانوا يولون الوزراء ويعزلونهم اما بسبب عدم توفيقهم في ادارة الأمور أو بسبب ظلمهم وجورهم على الرعية ، وقلما كانت تنتهي حياة الوزراء بالقتل * فاذا نظرنا الى ما آل اليه حال وزراء سلاطين التيموريين الذين تحدث عنهم خواندمير وعددهم سبعة وأربعين وزيراً ، نجد أن الذين انتهت حياتهم بالقتل كانوا خمسة وزراء منهم ، قتل معظمهم نتيجة للمكائد والدسائس التي كانت تدبر لهم .

وقد يرجع السبب في ذلك الى أن التيموريين جاءوا الى الحكم وهم على دين

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(١) كتاب « دستور الوزراء » ، خواندمير - ص ٣٤٠ طهران ١٣١٧ هـ ش .

الاسلام حيث كان رأس أسرته تيمور گوركان مسلما شديداً التعصب للاسلام
سرعان ما اندمج مع الشعب الايراني ، وأقدم على تعمير ما خربته الغارات باقامة
الأسواق والمباني •

كما يرجع السبب أيضاً في تغيير نظرة السلاطين التيموريين الى الوزراء
اقبال السلاطين على تلقي العلوم المختلفة ورعاية الفنانين والعلماء ، فهذا شاهرخ
يؤسس مجمعا فنيا في مدينة هراة يجمع فيه الفنانين من خطاطين ومصورين
ومذهبين ومجلدين وغيرهم ويجعل من عصره عصر نهضة فنية شاملة في ايران ،
وهذا ألخ بيك - خليفة شاهرخ - لا يزال المرصد الذي بناه قائما في سمرقند ،
وهذا بايسنقر - أخى شاهرخ - قد أحرز شهرة خالدة في فنون الخط والموسيقى
والتصوير ، وهذا حسين ميرزا بايقرا الشاعر الأديب يرعى الآداب والفنون
ويجعل بلاطه موئلا للعلماء والفضلاء • فلا شك أن هذا المستوى الرفيع الذي
وصل اليه سلاطين العصر التيمورى قد غير من نظرة هؤلاء السلاطين الى الوزراء ،
وأصبحوا ينظرون اليهم نظرة تقدير واحترام ، مما جعل الوزراء يقبلون بنفس
راضية على أعمالهم وينصرفون بقلوب مطمئنة الى تدير شئون بلادهم ، فتعمت
ايران في عهدهم بالكثير من النعم والخيرات •

واذا كان قد لحق الأذى أحيانا ببعض الوزراء في العصر التيمورى فانما
يرجع ذلك اما الى خطأ جسيم ارتكبه أو الى كيد الوزراء أنفسهم لبعض •
وبعد هذا يمكن لنا أن نقول ان سلاطين العصر المغولى كانوا - غالبا السبب
فيما نزل بوزرائهم من محن ، وما حل بهم من نكبات وأما في العصر التيمورى
فان الوزراء كانوا هم أنفسهم الذين يظلمون •

خواندمير المؤرخ فى دستور الوزراء

تمهيد :

لقد ازدهر فن كتابة التاريخ دون سائر فنون الأدب الأخرى فى العصر التيمورى وأقبل الايرانيون على مزاوله هذا الفن والارتقاء به مثلما فعل أسلافهم فى العصر الايلخانى .

فحينما اجتاحت تيمورلنك ولايات ايران المتفرقة وأسقط حكوماتها ، أغار جنوده على مدنها وقراها وأعملوا التخريب والدمار فى ما يصادفهم ، وكان لهذه الغارات أثر لا يقل عن أثر هجمات سلفيه چنگيزخان وهولاكوخان . ولذلك فقد أقبل الايرانيون على انقاذ ما يمكن انقاذه من تراثهم العريق الذى راح معظمه ضحية هذه الهجمات (١) .

واذا نظرنا الى الحركة الأدبية فى هذا العصر فاننا نجدتها قد تأثرت بحالة الاضطراب والعنف هذه حيث وجد الشعب الايرانى أن معظم آثاره العلمية والأدبية قد ضاعت أو أحرقت ، ولذلك فقد أقبل من كتب لهم البقاء بعد هذه الغارات على تسجيل ما يحتفظون به فى ذاكرتهم أو تنظيم وترتيب ما نجا من الكتب أثناء هذه الغارات .

وهكذا فاننا نرى أن فن التاريخ وكتابته قد ازدهر فى هذا العصر كما أن فنون المعمار والتذهيب والتصوير - التى عمل الأمراء التيموريين على تشجيع قيامها - قد ازدهرت هى أيضا فى هذا العصر وخصوصا بعد استقرار الأحوال وزوال شبح الغارات وخطر التخريب والدمار ، وظهر كثير من الأدباء والعلماء والفنانين الذين كان لهم أثر عظيم فى احياء التراث الاسلامى والحضارة الفارسية

(١) كتاب حبيب السير فى أخبار أفراد البشر/خواندمير - مقدمة جلال همائى ص ٢ طبعة طهران .

الإسلامية ووضعوا الشعب الإيراني في النصف الأول بين حضارات العالم في ذلك العصر ، كما ظهر كتاب صنفوا موسوعات تاريخية ضخمة عوضت ما ضاع كما سجلت تاريخ وحضارة الشعب الإيراني العريق في تلك الفترة ، وكان لهؤلاء فضل كبير على الأدب الفارسي . يقول ملك الشعراء بهار :

« انحطاط أدبي درین عصر دنباله کاروان تفهقر را رها نکرد ، تنها تاریخ و خط و فن مینیا تور سازی و تذهیب و معماری رو بترقی داشت ، کتب تاریخ بزبان سادۀ که در اواخر قرن هفتم مقبول افتاده بود پیروی شنید ، نویسندگان چون مولانا نظام الدین شامی یا شنب غازانی مؤلف « ظفر نامه » و مولانا نور الدین لطف الله ابن عبد الله الهروی مشهور بحافظ آبرو متوفی (۸۳۴) ، و مولانا شرف الدین علی یزدی متوفی ۸۵۸ مؤلف « ظفر نامه تیموری » ، و کمال الدین عبد الرزاق بن اسحاق سمرقندی متوفی ۸۸۷ مؤلف « مطلع السعدين » ، و میرخواند محمد مؤلف « روضة الصفا » متوفی ۹۰۳ ، و خواندمیر مؤلف « حبيب السسير » دخترزاده میرخواند متوفی ۹۴۲ و غیرهم در تاریخ نویسی خدمتهاى بسنديده بادیات فارسی بروز دادند » (۱) .

وترجمتها : « لم يستطع الأدب في هذا العصر التحرر من تبعيته لقافلة التمههر والانحطاط اللهم الا فنون التاريخ والخط والمنمنمات والتذهيب والمعمار حيث أخذت سبيلها الى الرقي والتقدم ، واقتفى أثر الكتب التاريخية التي كانت قد ألفت بلغة سهلة في أواخر القرن السابع ولقيت قبولا حسنا ، وقدم الكتاب - أمثال مولانا نظام (۲) الدين الشامي أو « الشامي الغازاني » مؤلف « ظفر نامه » ،

(۱) محمد تقی بهار ، سبک شناسی ، المجلد ۳ ، ص ۱۸۵ .

(۲) المؤرخ نظام الدين الشامي هو أول مؤرخ سجل تاريخ السلطان تیمور گورکان - مؤسس الدولة تیمورية - باللغة الفارسية ، حيث كان الشامي معاصرا لذلك السلطان وسمى بالشامي - أو الشامي الغازاني - نسبة الى شام غازان والتي كانت تعرف أيضا باسم « شنب غازان » وهي البلدة التي دفن بها حشمان السلطان اتغول عازن خان والتي تقع على بعد ميلين جنوب غربى مدينة تبريز - وليس نسبة الى بلاد الشام . ومن حسن حظ الشامي أنه كان أول من التقى بالأمير تیمور گورکان - من أهل بغداد - بعد استيلائه عليها عام ۷۹۵ هـ - ۱۳۹۳ م وهناك على هذا الفتح والظفر ، فكان لموقفه هذا أثر طيب في نفس ذلك السلطان الذي شمله بعددما بحسفه ورعايته . وفي عام ۸۴۰ هـ - ۱۴۰۹ م استدعاه السلطان تیمور وكلفه بتسجيل فتوحاته وانصاراته ، ووضع بين يديه المستندات والأوراق الرسمية التي تساعد على اخراج هذا العمل بخير بدقة وأمانة وأوصاه بالبعد عن أسلوب الانشاء والظن ، والالتزام جانب الدقة والبساطة ليسجل على الخاصة والعامة قراءته والإطلاع عليه . وبالفعل أنجز الشامي هذا العمل الكبير في عام ۸۰۶ هـ - ۱۴۰۴ م ، وأطلق عليه اسم « ظفر نامه » أي كتاب الظفر . ويعتبر هذا العمل أول سجل لفتوحات تیمور وضع في حياته باللغة الفارسية . وفي عام ۸۱۴ هـ وأثناء حكم السلطان شاهرخ . وضع حافظ آبرو ذبلا لظفر نامه - بأمر ذلك السلطان - وأوصله الى عام ۸۰۷ هـ - تاريخ وفاة تیمور - كما قلد الشامي مؤرخ آخر هو شرف الدين علي اليردى حيث وضع كتابا عن تاريخ تیمور أسماه أيضا « ظفر نامه » ، نقل معظمه من تاريخ الشامي ، لذلك أخذ عن الشامي المؤرخون الذين جاؤوا بعد أمثال عبد الرزاق السمرقندی =

ومولانا نور الدين لطف الله بن عبد الله الهروي المعروف بحافظ (١) آبرو المتوفى عام ٨٣٤ هـ ، ومولانا شرف الدين (٢) على اليزدي المتوفى عام ٨٥٨ هـ مؤلف

وميرخواند وخواندمير ، وأصبح مؤلفه لا عسى عنه لكل من يريد معرفة تاريخ إيران السياسي والعسكري في تلك الفترة عامه ، وتاريخ تيمور كوركان مؤسس السلسلة التيمورية فيها خاصة .
(أنظر براون ، التاريخ الأدبي لإيران ، ج ٣ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٨٦ - ٣٩٠ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش) .

(١) المؤرخ حافظ آبرو هو شهاب الدين عبد الله بن لطف الله بن عبد الرشيد الحوافي الملقب بـ « حافظ آبرو » ، ولد في مدينة خواف بمنطقة خراسان ، ونما ونشأ في مدينة همدان ، ولا يعلم تاريخ ميلاده على وجه التحديد . ويرجح أن تكون قد حدثت ولادته عام ٧٦٣ هـ . سحب حافظ آبرو الأمير تيمور لنگ في حروبه وغزواته وشاهد ما جرى من حوادث ، وبعد موت تيمور ، التحق بخدمة خليفته شاهرخ وعاش في العاصمة هراة ، كما اتصل بحفيده بایسنفر ، وتوفي حافظ آبرو في أواخر عام ٨٣٣ هـ .

وأهم مؤلفات حافظ آبرو عبارة عن موسوعة تاريخية سجل فيها تاريخ العالم - بأمر السلطان شاهرخ عام ٨٢٠ هـ - وذلك نقلا عن أهم الكتب التاريخية المعروفة في ذلك الوقت وهي الترجمة الفارسية لكتاب تاريخ الطبری التي قام بها البلعمي . وكتاب جامع التواريخ لرسيد الدين فضل الله ، وكتاب ظفر نامه لنظام الدين الشامي ، كما قام بعمل ذيل لكتاب رشيد الدين «جامع التواريخ» بداه بذكر تاريخ أولجايتو أي من حيث انتهى رشيد الدين إلى أن وصل به إلى حوادث ٨٢٠ هـ . كذلك انتهى حافظ آبرو من تأليف كتاب « مجمع التواريخ » في عام ٨٣٠ هـ ضمنه تاريخ العالم من بدء الخليقة حتى عام ٨٣٠ هـ في أربعة مجلدات يطلق على كل مجلد اسم « ربع » . ومن مؤلفات حافظ آبرو أيضا كتاب « ذيل ظفر نامه » لنظام الدين الشامي ألفه عام ٨١٤ هـ تنفيذا لأمر شاهرخ ضمنه حوادث السنة الأخيرة من حياة تيمور وهي عام ٨٠٧ هـ ، وله أيضا كتاب في الجغرافيا ألفه أيضا بناء على أمر شاهرخ وردت فيه إشارات تاريخية هامة عن منطقة خراسان .

وهكذا نرى أن حافظ آبرو كان غزير التأليف . حفظ لنا الكثير مما كانت تحتويه الكتب التي فقدت منذ عهده وكتبه تعتبر مراجع من الدرجة الأولى .
(براون ، التاريخ الأدبي لإيران ، ج ٣ ص ٤٧٣ - ٤٧٦ ، الترجمة الفارسية طهران ١٣٢٧ هـ ش) .

(٢) الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ، القاهرة ١٩٦٧ م) .
(٢) المؤرخ شرف الدين على اليزدي ، وكان من الشعراء والمؤرخين المعاصرين للسلطان شاهرخ التيموري ، وقد برع في صناعة الألقاب ، وكان يتخلص بـ «شرف» في أشعاره . واليزدي كان يعمل بالتدريس في يزد قبل التحاقه بخدمة السلاطين ، وكان يؤم مجلسه عدد صغير من الدارسين . وفي عام ٨٤٦ هـ - ١٤٤٢م استدعاه من يزد ميرزا سلطان محمد - الذي كان وقتها حاكما على العراق - وقربه إليه وأحسن معاملته ، وجعله من مستشاريه وندما وقع ذلك الأمير راية العصيان في عام ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦م ضد جده السلطان شاهرخ ، وتقدم إليه الأخير على رأس جيش كبير وألحق به هزيمة منكرة ، وشفى على معظم مستشاريه وأعوانه ، =

« ظفر نامه » تیموری ، وكمال الدين (١) عبد الرزاق بن اسحق السمرقندی المتوفى عام ٨٨٧ هـ مؤلف « مطلع السعدين » ، وميرخواند محمد مؤلف « روضة الصفا » المتوفى عام ٩٠٣ هـ ، وخواند مير مؤلف « حبيب اسير » وابن كريمه ميرخواند والمتوفى عام ٩٤٢ هـ وغيرهم - خدمات جلييلة للأدب الفارسی من خلال الكتابة التاريخية » .

وقد ساعد في رواج فن كتابة التاريخ وازدهاره ما عرف عن الأمراء التيموريين أيضا من حب للعلوم والفنون ، ورغبة منهم في تسجيل أعمالهم وآثارهم . وقد ظهر من بين أمراء الدولة التيمورية العلماء والأدباء والخطاطون

= اتهم مولانا شرف الدين بتحريض ذلك الأمير ، وكاد يقضى عليه هو الآخر لولا أن ميرزا تشيع له لدى جده شاهرخ بحجة أن والده ألغ بك سوف يحتاج اليه في اقامة مرصد سمرقند ، فعفا عنه شاهرخ وأرسله الى سمرقند - وبعد موت شاهرخ استأذن اليزدي ميرزا سلطان محمد - الذي ولي فترة حكم خراسان - وذهب الى يزد عام ٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م ، وأقام في قرية تعت ، وظل بها الى أن توفي فيها عام ٨٥٨ هـ - ١٤٥٤ م ودفن بجوار المدرسة الشرفية التي التي كان قد أقامها قبل وفاته .

وترجع شهرة اليزدي الى مؤلفه التاريخي « ظفر نامه » الذي ألفه عام ٨٢٨ هـ - ١٤٢٤ م وتحدث فيه عن فتوحات تيمور وأبائه ويذكر المستشرق براون أن هذا الكتاب هو نفس كتاب « ظفر نامه » الذي وضعه سلفه نظام الدين الشامي أو بعبارة أخرى هو تفصيل ما أوجزه الشامي من قبل .

وعلى أي حال فقد حظي كتاب اليزدي بما لم يحظ به كتاب الشامي من شهرة وانتشار . (براون ، التاريخ الأدبي لایران ، ج٣ ص ٣٨٩ - ٣٩٣ طهران ١٣٢٧ هـ ش الرحمة الفارسية) .

(١) المؤرخ كمال الدين عبد الرزاق السمرقندی : ولد في مدينة هراة عام ٨١٦ هـ - ١٤١٣ م ، واشتهر بالسمرقندی نظرا لأن سمرقند كانت موطن والده مولانا جلال الدين اسحق الذي كان يعمل قاضيا عسكريا في جيش السلطان شاهرخ وفي عام ٨٤١ هـ - ١٣٤٧ م وضع كمال الدين عبد الرزاق - بعد وفاة والده - رسالة في الصرف والنحو ، وقدمها للسلطان شاهرخ ، فلقيت إعجاب ذلك السلطان وأصبح عبد الرزاق موضع عنايته ورعايته . وبعد أربع سنوات وفي عام ٨٤٥ هـ - ١٤٤١ م بعثه السلطان شاهرخ سفيراً له لدى بلاط السلطان بيجانكار في الهند ، وقضى هناك ثلاث سنوات وقد شرح السمرقندی بالتفصيل مآزاه وشاهدته خلال تلك الرحلة . وفي عام ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م - بعثه شاهرخ مرة أخرى برسالة الى كيلاو ولا شك أن السمرقندی استفاد فائدة محققة من هذه الأسفار ، ظهرت نتیجتها في كتابه « مطلع السعدين » .

وفي عام ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م توفي السلطان شاهرخ ، فالتحق السمرقندی بخدمة الأمراء التيموريين أمثال ميرزا عبد اللطيف وميرزا عبد الله وميرزا أبي القاسم بابر ، ثم انتهى أمره بالعمل في خدمة السلطان أبي سعيد التيموري . وبعد أن قضى السمرقندی فترة في خدمة ذلك السلطان ، ركن الى العزلة والانزواء وانقطع للعبادة والزهد في هراة ، وكان ذلك عام ٨٦٧ هـ - ١٤٦٣ م وظل السمرقندی على هذه الحال الى أن توفي عام ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م في هراة أيضا . ومن المعروف أن المؤرخ كمال الدين عبد الرزاق السمرقندی لم يضع سوى كتاب =

والرياضيون ، يقول نصر الله (١) الطرازي : « وقد ذكر لنا التاريخ أن تيمور لنك بعد أن اتخذ مدينته سمرقند عاصمته له استدعى الفنانين من شتى بلاد العالم للعمل على تجميلها بحيث أنه جعل من عاصمته مرزا هاما للعلوم والعون . . . وهذا شاهرخ يؤسس مجمعا فنيا في مدينته هراة يجمع فيه الخطاطين والمصورين والمذهبيين والمجلدين ويعتني بهم ويشجع اعمامهم اعنيه بحيث أنه يجعل من تلك المدينته مرزا هاما لنهضة ادبيه وفنيه خالدة ، وهذا بايسنقر الامير الشاعر الخطاط الماهر يجعل من مكتبته الخاصة خليه فنيه - يجمع فيها نخبه ممتازة من أساتذة فن الدب يصل عددهم الى اربعين فنانا ينسجون امهات الكتب ويصورونها . . . كما شهدت هراة في عصر السلطان حسين بايغرا ووريه الاديبي عيشير نوائى نهضة ادبيه وفنيه نبشر بانكمال » . وهكذا نرى ان العناية التاريخية وجدت رواجاً كبيراً في العصر التيموري ، ونصدي لها لبار الدب ، ووضعوا فيها مؤلفات مازالت من امهات الدب السى لا يستغنى عن دراسها والرجوع اليها والاستعانة بها كل من يتصدى لدراسة ادب العارسى وسونه ، وكان مما أنتجته هذه النهضة - اتى وصلت غايتها في عهد السلطان حسين بايغرا كتاب « دستور الوزراء » الذى ألعه خواندمير وقدمه لذلك السلطان .

أهم الكتب التى تحدثت عن الوزراء قبل دستور الوزراء :

لقد كان من المعمول به بين مؤرخى الاسلام وضع كتب تتعلق مدتها بالحديث عن أحوال الوزراء منذ عهد الخلفاء الأول وحتى العصر الذين يعيشون فيه . وقد كان لغة العربية فضل السبق فى اقتناء هذا اللون من المؤلفات رغم أن فن التدوين فن ايرانى أصيل ومنصب الوزارة ايرانى يرجع الى عهد الساسانيين . ومن أهم الكتب التى طرقت هذا المجال قبل دستور الوزراء كتاب « الوزراء والكتاب » لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، وكتاب « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » لأبى الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى الكاتب ، وكتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » تأليف محمد بن على ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، وهذه الكتب مؤلفة باللغة العربية ، وقد نقل

= تاريخى واحد ، وهو كتابه المسمى « مطلع السعدين » ويشتمل على مجلدين ، أرخ فيهما لفترة امتدت من عام ٧٠٤ هـ - ١٣٠٤ م - عام ميلاد السلطان أبى سعيد بهادرخان المغولى - الى عام ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م عام وفاة سميح السلطان أبى سعيد التيمورى . وترجع أهمية هذا الكتاب الى كون صاحبه قد عاصر معظم الأحداث التى ضمنها كتابه ، وصاءها بأسلوب نسي ، فجاءت معبرة عن تلك الفترة الزمنية من تاريخ ايران .

(براون ، التاريخ الأدبى لايران ج٣ ص ٤٧٩ - ٤٨١ الترجمة الفارسية طهران . ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م) .

(١) فى كتابه « العهرس الوصفى للمخطوطات الفارسية » - دار الكتب المصرية - القاهرة .

الكتاب الأخير منها الى اللغة الفارسية بعنوان « تجارب السلف در تواريخ خلفا وورراى ايتدن » نقله هندوشاه بن سنجر النخجوانى .

والكتابان الوحيدان اللذان ألفا باللغة الفارسية قبل دستور الوزراء هما كتاب « نسائم الأسحار ولطائف الاخبار » المجهول المؤلف والموضوع عام ٧٢٥ هـ ، وكتاب « آثار الوزراء » لسيف الدين حاجى بن نظام عقيلى ، وضعه صاحبه عام ٨٧٥ هـ - قبل بضع سنوات من « دستور الوزراء » - فى عصر السلطان حسين ميرزا بايقرا ، ولكن هذا الكتاب لم يطبع وينشر الا بعد نشر « دستور الوزراء » ، ولذلك فقد اعتمد مصححه على « دستور الوزراء » اعتمادا كبيرا . هذا بخلاف الكتب العربية والفارسية التى أفردت فصولا أو صفحات فى طياتها عن أحوال بعض الوزراء - ضمن موادها الأخرى - مثل كتابى « تجارب الأمم » لمسكويه ، و « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبرى بالعربية ، و « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله و « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » لمحمد عوفى بالفارسية ، وغيرها .

وفىما يلى بيان بأقسام أربعة من الكتب التى وضعت أصلا عن الوزراء قبل « دستور الوزراء » ، مع بيان قيمة كل منها ، ثلاثة منها باللغة العربية وهم « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » للصابى ، و « الوزراء والكتاب » للجهمشيارى ، و « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » لابن الطقطقى ، وكتاب باللغة الفارسية وهو « آثار الوزراء » لسيف الدين حاجى عقيلى ، وذلك حتى يمكن عمل مقارنة بينها وبين كتاب « دستور الوزراء » الذى سوف نعرضه بعد عرض هذه الكتب مباشرة .

١) كتاب الوزراء والكتاب :

وهذا الكتاب يعتبر أشهر مؤلف فى تاريخ الوزراء والكتاب الاسلاميين ، كما يعد من أقدم المصادر التاريخية فى هذا المجال ، تحدث فيه مؤلفه عن تاريخ كتابة الانشاء منذ تأسيس الدولة الاسلامية فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم ، كما تحدث فيه عن تاريخ الوزارة والوزراء فى الاسلام الى نهاية القرن الثالث الهجرى . ومؤلف الكتاب هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهمشيارى ، كان من أهل الكوفة ، ثم انتقل الى العراق وعاش فى عصر الخليفة المقتدر بالله العباسى ، وأصبح من كبار الموظفين فى الدولة العباسية . وكان الجهمشيارى معاصرا للامام محمد بن جرير الطبرى كما كان صديقا للوزير ابن مقله . وقد توفي الجهمشيارى فى عام ٣٣١ هـ .

والجزء الذى بين أيدينا من كتاب « الوزراء والكتاب » والمنشور عام ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م بالقاهرة يشتمل على الأقسام الآتية :

- مقدمة : فى أوائل الكتابة والكتاب وأيام ملوك الفرس •
- أسماء من ثبت على كتابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم •
- أيام الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - حسب ترتيبهم التاريخى •
- أيام الدولة الأموية ابتداء بمعاوية بن أبى سفيان وانتهاء بمروان ابن محمد الجعدى •
- أيام الخلفاء العباسيين ووزرائهم ابتداء بأبى العباس السفاح وانتهاء بالخليفة المأمون •

ويتضح لنا أن الجهشيارى قد أرخ للوزارة منذ عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم • وربما كان يقصد الجهشيارى بكتاب الوحي أو الكتاب الآخرين فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم ، أو كتاب الخلفاء الراشدين والامويين انهم كانوا بمثابة وزراء ومعاونين ، ولكنه لم يصرح بذلك وأسماءهم كتابا ، وكانت أول مرة يذكر فيها كلمة وزير فى صحيفة ٨٤ من الكتاب (١) اذ يقول :

(ولما هزم ابن هبيرة وقصد واسط ودخل حميد والحسن ابنا قحطبة الى الكوفة لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة أظهروا أبا سلمة وسلموا اليه الرياسة ، وسموه وزير آل محمد ، ودبر الأمور وأظهر الامامة الهاشمية ، ولم يسم الخليفة ، وكان أبو مسلم يكتبه : « للأمير حفص ابن سليمان وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم أمير آل محمد ») •

وكتاب الوزراء والكتاب دقيق فى عباراته مختصر فى أخباره ، وترجع أهمية الكتاب الى المعلومات الوافية التى ذكرها عن تاريخ تدوين الدواوين ، وأخذ العرب بها عن الفرس فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وادخال ديوان الخاتم فى عهد معاوية بن أبى سفيان ثم أخبار تطور الوزارة بدواوينها المختلفة فى العصر العباسى • كما ترجع أهمية الكتاب أيضا الى كون مؤلفه قد عاش فى عصر من أزهى عصور الأدب العربى والثقافة الاسلامية ، فيكفى أن يكون هذا الكتاب من نتاج هذا العصر ، وعن القائمين بالأمر ومسيري دفة الحكم وموجهى الشئون السياسية والثقافية فى ذلك العصر ، كتبه رجل كان بالقرب منهم •

وقد أخذ عن هذا الكتاب ياقوت الحموى فى كتابيه « معجم الأدباء » ، و « معجم البلدان » ، وابن خلكان فى « الوفيات » ، والتنوخى فى « الفرج بعد الشدة » ، وأبو الحسن عبد الملك بن محمد فى « روضة (٢) البلاغة » وغيرهم •

(١) الطبعة الأولى - مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده - القاهرة ١٩٣٨ م •

(٢) « كتاب الوزراء والكتاب » الجهشيارى - المقدمة ص (ش) •

(ب) كتاب « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » :

وهذا الكتاب يعرف على سبيل الاختصار بكتاب الوزراء ، وضعه بالعربية هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون بن حبون الصابي الحرائي ، وكنيته أبو الحسن ، وقد ولد عام ٣٥٩ هـ وتوفي عام ٤٤٨ هـ .

والصابي ينتمي الى أسرة نبغت في العلم والأدب ، والتاريخ ، والطب ، وكانت لها قدم راسخة عند الحكام . فكان والده أديبا وكان ابنه محمد صاحب مؤلفات عديدة ، وكان جده الأكبر ابراهيم بن زهرون طبيبا مشهورا ، كما كان والد جده طبيبا أيضا ، كذلك كان عم جد المؤلف ثابت بن ابراهيم بن زهرون من أشهر اطباء ، وتروى عنه النواذر البارة في فنه ، أما أخوال المؤلف فانهم ذرية ثابت بن قرة الصابي الطبيب العالم الفيلسوف التي كان أغلبها أطباء ومؤلفين . وهاتان (١) الاسرتان كانتا متمسكتين بالديانة الصابئية ، والقصة التي رويت عن سبب اسلام هلال بن المحسن مؤلف كتاب الوزراء يفهم منها أن المحسن والده كان مؤمنا بكنتم ايمانه . اذ يقال « أن هلالا رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في منامه يدعوهُ الى الاسلام ، فلما استيقظ قص قصته على أهله ، فوجموا الا أبوه المحسن فانه تبسم وقال : ارجع الى فراشك فالجديث يكون عند الصباح ، وتقدم والده الى الجماعة بكتمان ما جرى ، وقال : يا بني هذا منام صحيح ، وبشرى محمود ، الا أن اظهار هذا الأمر فجأة ، والانتقال من شريعة الى شريعة ، يحتاج الى مقدمة وأهبة ، ولكن اعتقد ما وصيت به ، فأننى معتقد مثله وتصرف في دعائك وصلاتك على أحكامه » .

هذا وقد أسلم (٢) هلال بن المحسن بعد أن تجاوز الأربعين من عمره . وكان أديبا فاضلا أخذ عن أبي على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي صاحب المؤلفات في علوم العربية المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، كما أخذ عن أبي الحسن على ابن عيسى الرمانى المولود سنة ٢٩٦ هـ والذي كان من كبار النحويين ومتقنا للغة والفقه وغيرهما وتوفى سنة ٣٨٤ هـ . ومعنى هذا أن هلالا تلقى العلم على أشهر العلماء وهو صغير ، مما يدل على مكانة أهله وسمو مركزهم .

وللصابي مؤلفات كثيرة في اللغة والتاريخ والسياسة أشهرها كتابه الوزراء أو أخبار الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . والوزراء (٣) الذين ترجم لهم في هذا الكتاب وقص أخبارهم هم : ابن الفرات ، وأبو على الحاقاني ، وعلى بن عيسى . وأثناء حديثه عن هؤلاء يعرض أخبارا لوزراء آخرين تتصل تلك الأخبار بالمترجم لهم .

(١) مقدمة كتاب الوزراء للصابي ، ص (و) طبع القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص (ز) .

(٣) المرجع السابق ، ص (ل) .

والمؤلف لا يسير في تأليف كتابه حسب السلسل التاريخي ، بل يتناول الوزير الأول ثم وزاراته الى أن يستوفيها ، تاركاً ما تخلل عزله ، ويأتي بعد ذلك بأخبار منتورة للوزير ، فيها طراف ونوادير ثم يأتي بعد ذلك بالوزير التالي له ، ويستعرض وزاراته ان تكررت ثم يأتي بأخباره المنتورة وهكذا . وقد أراد هلال ان يدلج بكتاب ما انتهى اليه جهشباري في مؤلفه الوراء والكتاب اندى وقف فيه عند نهاية العباس بن الحسن في مطلع خلافة المقتدر ، وقد أرخ الصابي للوراء في العره من ٣٦٠ - ٤٦١ هـ .

وقد أتاحت للصابي في تأليف كتابه أمور جعلته ثقة فيما يروي . وأول (١) ذلك صفته الرسمية في الدولة التي أظفره بالوثائق الرسمية ، والامر الثاني اطلاعه على تاريخ ثابت بن سنان خال جده ، وقد أرخ ثابت من أواخر القرن الثالث الهجري الى سنة ٣٦٠ هجرية ، وهي فترة عاصرها او لقي معاصريها . والامر الثالث ما رواه أو نقله عن القاضي التنوحي أبي علي المحسن مؤلف نشوار المحاضرة ، والفرج بعد الشدة ، والمستجدات من فترات الاجواد ، والتنوحي ولد سنة ٣٢٧ هـ وتوفي سنة ٣٨٤ هـ والأخبار التي رواها شافه أغلب معاصريها . يضاف الى ذلك انه اطلع على كتاب الوزراء والكتاب للجهشباري وكتاب الوزراء للصولي ، والجهشباري توفي سنة ٣٣١ هـ والصولي توفي سنة ٣٣٥ هـ . والى جانب هذا تلقى الصابي عن طريق الرواية والسند أخباراً من أناس اتصلوا بالدواوين ، وخالطوا الحاكمين وكل هذا نجده واضحاً في كتابه ، مما أكسبه ثقة بين المؤرخين ، وأعطاه ميزة جعلت عمله معراً عن الحقيقة والواقع .

(ج) كتاب « الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » :

وقد سمي هذا الكتاب على سبيل الاختصار بـ « الفخرى » ، وضعه بالعربية محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي عام ٧٠١ هـ بالموصل بالعراق ، وقد نقله الى الفارسية هندوشاه بن سنجر بن عبد الله النخجواني .

وهذا الكتاب يعتبر من بين أشهر الكتب التي تحدثت عن الخلفاء والوزراء في العصر الاسلامي وحتى نهاية الخلافة العباسية . وقد ضمنه مؤلفه - بالإضافة الى حديثه الشامل عن أحوال الوزراء - معلومات وافية عن عهد الخلفاء الراشدين وحروبهم وفتوحاتهم ، وتدوين الدواوين وعن عهد بني أمية ، وكانت خطته هي التحدث عن الأمور السلطانية والسياسات الملكية وأوضح صفات الملك الفاضل المستحق للرياسة والحقوق الواجبة له على رعيته ، والواجبة لرعيته عليه ، وكذا أوضح المؤلف أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في الوزير . وبعد أن وضع دستور الخلفاء والوزراء في الفصل الأول انتقل في الفصل الثاني للحديث عن

(١) المرجع السابق ، ص (ض)

الخلفاء والوزراء دولة دولة ، فبعد أن يتحدث عن خليفة من الخلفاء يبدأ الحديث عن كل وزير ولى الوزارة فى عهده وهكذا ٠٠٠ وقد جاء الكتاب محققا لفائدة ولقى استجابته من العامة والخاصة يقول (١) مؤلفه :

« وهذا كتاب يحتاج اليه من يسوس الجمهور ويدبر الأمور ، وان أنصفه الناس أخذوا أولادهم بتحفظه وتدبر معانيه بعد أن يتدبروه هم ، فما الصغير بأحوج اليه من الكبير ولا الملك العام الطاعة بأحوج اليه من ملك مدينة ، ولا ذوو الملك بأحوج اليه من ذوى الأدب » .

والكتاب حسب تاريخ تأليفه يتضح أن مؤلفه قد عاصر الغزو المغولى على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ، وسمع الكثير ممن شهدوا مختلف جوانب هذا الغزو ، وهنا تكمن أهمية الكتاب فى تأريخه للفترة الأخيرة من عمر الدولة العباسية التى كانت قريبا منها . وعلى سبيل المثال نجده ينصف ابن العلقمى - آخر وزراء الدولة العباسية - ويزيل عنه الشبهات التى عرفناها من بعض الكتب التاريخية - التى من بينها كتابنا « دستور الوزراء » ، والتى ألصقت بابن العلقمى تهمة التواطؤ مع المغول عند قدومهم الى بغداد فيقول (٢) :

« حدثنى كمال الدين أحمد بن الضحاك وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين ابن العلقمى قال : لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلب أن يخرج الوزير اليه . قال : فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه . فقال له الخليفة : قد أنفذ السلطان يطلبك وينبغى أن تخرج اليه فخرج الوزير من ذلك وقال : يا مولانا اذا خرجت فمن يدبر البلد ومن يتولى المهام ، فقال له الخليفة : لابد من أن تخرج ، قال : فقال : السمع والطاعة ثم مضى الى داره وتهيأ للخروج ثم خرج » (٣) .

وكتاب الفخرى فى الآداب السلطانية يشتمل على مقدمة وفصلين :

المقدمة : فى بيان أهمية العلم وضرورته ، وعرض منهجه وخطته فى تأليف الكتاب .

الفصل الأول : يتضمن الحديث عن الأمور السلطانية والسياسات الملكية وما يجب للحاكم على الرعية وما يجب عليه لهم ، وبيان صفات الوزير . وهذا الكلام مدعم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكايات المستترفة والأشعار المستحسنة .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية/ابن الطقطقى - ص ١٣ - دار اعمار بمصر ١٩٢٣ م .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٣) فى دفاع صاحب الفخرى عن ابن العلقمى ، انظر كتاب المغول فى التاريخ طبع بيروت - تأليف الأستاذ الدكتور/فؤاد عبد المعطى الصياد .

الفصل الثاني : وينضمن الحديث عن خلفاء ووزراء الدول التي كانت طاعتها عامة وهي دولة الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - ثم الدولة التي تسلمت الملك منها وهي الدولة الاموية ثم الدولة العباسية ثم الدول اسي وقعت في اثناء الدول الكبار كدولة بنى بويه ودولة السلاجقة واعطامين بمصر .

(د) كتاب « آثار الوزراء » :

والكتاب كما يبدو من عنوانه يتضمن الحديث عن تراجم الوزراء وبيان أحوالهم وما جرى في عصرهم . وذلك اعتبارا من دولة الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - وحتى وزراء تيمورگوركان وأعقابهم حتى الوزير نظام الملك الخوافي وزير السلطان حسين ميرزا بايقرا . وذلك بالإضافة الى ذكر وزراء بعض السلاطين الأقدمين مثل (١) : فيثاغورث الحكيم وجاماسب وبقرات وسفراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وبزرجمهر في بداية الكتاب .

وقد وضع هذا الكتاب بالفارسية سيف الدين حاجي بن نظام العقيلي - والمسمى أيضا بالفضل - عام ٨٧٥ هـ ، وقدمه للوزير نظام الملك الخوافي وزير السلطان حسين ميرزا بايقرا . وهناك نقطة يلزم الإشارة إليها ، وهي ان البعض يذكر أن العقيلي قد نقل كتابه هذا كلمة كلمة من كتاب « نسائم الأسحار ولطائف الأخبار » المؤلف عام ٧٢٥ هـ بالفارسية والمجهول المؤلف كما ذكرنا . ولكن ناشر كتاب « آثار الوزراء » ومصححه يقول « ان العقيلي اذا كان قد فعل هذا لما وقع في كثير من السقطات ، وخصوصا اذا عرف أن كتاب « نسائم الأسحار » قد كتب بأسلوب غاية في الوضوح والجمال . وأما المؤلف فانه يصرح بأنه استفاد فقط من كتاب نسائم الأسحار وجعله من بين مصادره التي اعتمد عليها في تأليف كتابه .

وعموما فان العقيلي قد بذل مجهودا كبيرا في جمع مادة كتابه وتحمل الكثير من المتاعب في تنظيمها وتنسيقها وحفظ لنا بعض ما ضاع من آثار . يقول الأستاذ سعيد نفيسي : « كتاب آثار الوزراء از غنائمی است كه از مؤلفان قرن نهم هجری بما رسیده است زیراكه در این كتاب مطالب بسیار مهمی از اسنادی كه اصل آنها از میان رفته باقی مانده است از آنجمله از كتاب « مقامات أبو نصر مشكان » كه أبو الفضل بیهقی مؤرخ معروف آنجه را از استاد خود أبو نصر

(١) الأول تلميذ لفغان الحكيم ووزير گشت. سب ، والثاني شقيق گشت. سب وتلميذ لفغان الحكيم أيضا . والثالث تلميذ فيثاغورث ووزير بهمن ، والرابع وزير همای بنت بهمن ، والخامس تلميذ سفراط ووزير داراب ، والسادس تلميذ أفلاطون ووزير الاسكندر الأكبر ، والسابع وزير كسرى أنوشيراون .

دربارة تاريخ غز نويان شنيده بوده نقل كرده است وجز دراين كتاب جيزى
از آن باقى نمانده است ۰۰ (۱) » •

وترجمتها : « كتاب » آثار الوزراء من المغانم التى تركها لنا مؤلفو القرن
التاسع الهجرى لأن أمورا هامة بقيت فيه قد ضاع أصلها ، ومن بينها ما نقله
المؤلف عن كتاب « مقامات أبى نصر بن مشكان » ، المتضمنة ما سمعه أبو الفضل
البيهقى - المؤرخ المعروف - من أستاذه أبى نصر عن تاريخ الغزنويين ، والتى
لم يبق منها شئ سوى ما جاء فى هذا الكتاب • وكتاب « آثار الوزراء » يشتمل
على مقالتين :

المقالة الأولى : تتحدث عن أخبار الوزراء السابقين وتنقسم الى اثنى عشر بابا
كما يلى :

- الباب الأول :** عن وزراء السلاطين الأقدمين •
- الباب الثانى :** عن وزراء الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين •
- الباب الثالث :** عن وزراء بنى أمية •
- الباب الرابع :** عن وزراء خلفاء بنى العباس •
- الباب الخامس :** عن وزراء السامانيين •
- الباب السادس :** عن وزراء الغزنويين •
- الباب السابع :** عن وزراء البويهيين - المعروفين كذلك بالديلمة •
- الباب الثامن :** عن وزراء السلاجقة •
- الباب التاسع :** عن وزراء الخوارزميين •
- الباب العاشر :** عن وزراء الايلخانيين •
- الباب الحادى عشر :** عن وزراء آل مظفر وملوك الغور •
- الباب الثانى عشر :** عن وزراء تيمور گوركان وأعقابيه •

المقالة الثانية : عن الوزير نظام الملك الخوافى • وتنقسم الى أربعة أبواب
كما يلى :

- الباب الأول :** عن أخلاق الوزير وامتيازه على جميع وزراء العالم •
- الباب الثانى :** عن أحوال الوزير قبل توليه الوزارة •

(۱) كتاب « آثار الوزراء » عفيى - المقدمة ص (و) طهران ۱۳۳۷ هـ ش •

الباب الثالث : عن أحوال الوزير أثناء توليه الوزارة .

الباب الرابع : عن رعاية سلطان الاسلام وعنايته بالوزير .

وقد طبع كتاب « آثار الوزراء » ونشر بمعرفة جامعة طهران بعد أن صححه وعلق عليه مير جلال الدين حسيني أرموى عام ١٣٣٧ هـ ش في طهران .

ونظرا لأن « دستور الوزراء » كان قد طبع ونشر عام ١٣١٧ هـ ش - أي قبل آثار الوزراء بعشرين عاما - فقد اعتمد مصحح آثار الوزراء اعتمادا كبيرا على دستور الوزراء وأشاد به في كثير من المواضع سوف نذكرها عند حديثنا عن قيمة كتاب دستور الوزراء .

دستور الوزراء :

وهو المؤلف الثالث من مؤلفات المؤرخ خواندمير ، وضعه لأول مرة في عام ٩٠٦ هـ باسم الوزير كمال الدين محمود وزير السلطان حسين ميرزا بايقرا ، ثم أعاد النظر فيه بعد ذلك وأضاف إليه شرحا لأحوال اثني عشر وزيرا من وزراء السلطان حسين بايقرا وأبنائه وأحداثا أخرى حتى سقوط الدولة التيمورية واستيلاء محمد خان الشيباني على هراة ، وبذلك نشر النسخة الثانية عام ٩١٥ هـ - وكان الشيباني لا يزال في هراة - ولكنه أبقى تصدير الكتاب كما هو باسم السلطان حسين بايقرا ووزيره المذكور .

والكتاب يعتبر سجلا موجزا لأحوال وزراء الخلفاء والسلطين منذ بداية الدولة الأموية حتى نهاية العصر التيموري على يد الشيباني - أي منذ عام ٤١ هـ إلى عام ٩١٤ هـ تقريبا . وفيما يلي بيان بالموضوعات التي اشتمل عليها دستور الوزراء حسب ترتيب ورودها بالكتاب :

- مقدمة : في حمد الله والثناء عليه وبيان الحاجة الى الوزير مؤيدا قوله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية - وتقديم الكتاب وثبت بتاريخ تأليفه .

- مقال : عن أحوال آصف بن برخيا وزير سيدنا سليمان عليه السلام وقصته مع بلقيس ملكة سبأ وحادثة عبادة الأصنام في بيته وسرقة الخاتم منه .

- مقال : عن بزرجمهر الحكيم وزير كسرى أنوشيروان ، وبيان قدرته على تفسير الأحلام ، وتعاليمه في الملك والسياسة .

- حديث موجز عن وزراء بني أمية مسبوقا بمقدمة عن عصر الخلفاء الراشدين وذكر لأسماء الخلفاء الأمويين .

- الحديث عن وزراء الخلفاء العباسيين .

- الحديث عن وزراء سلاطين السامانيين .

- الحديث عن وزراء سلاطين الديلمة •
- مقال : عن أحوال الفيلسوف ابن سينا ومؤلفاته •
- الحديث عن أحوال بعض وزراء الغزنويين •
- الحديث عن وزراء سلاطين السلاجقة •
- الحديث عن بعض وزراء الاسماعيلية وحكامهم •
- الحديث عن وزراء سلاطين الخوارزميين •
- الحديث عن وزراء سلاطين السلفريين •
- الحديث عن الملك العظيم الأمير الشيخ أبي اسحق ووزرائه •
- الحديث عن وزراء سلاطين المظفرين •
- الحديث عن وزراء سلاطين الايلخانيين •
- الحديث عن وزراء سلاطين التيموريين •

خواندمير من ثانيا دستور الوزراء ،

بالمقارنة مع الكتب التي سبق أن عرفنا بها :

دستور الوزراء كما رأينا من محتوياته يعد موسوعة عن الوزراء في العالم الاسلامي في عصوره المختلفة سواء تحت ظل الخلفاء أو السلاطين • وقد جاء هذا الكتاب مفصلا جامعا بشكل لم نشهده في الكتب السابقة عليه سواء المؤلف منها بالعربية مثل كتاب الوزراء ، وكتاب « الوزراء والكتاب » ، وكتاب « الفخرى » ، أو بالفارسية كآثار الوزراء مثلا • يقول الأستاذ سعيد نفيسي :

« دستور الوزراء نسبة كتاب جامعي است از أحوال وزاری اسلام از آغاز خلافت تا زمان مؤلف یعنی تا انقراض تیموریان وجلوس صفویه که در ضمن أحوال آصف بن برخیا وبزر جمهر رانیز از روی داستانها برآن افزوده است » (١) •

وترجمتها : « وعموما فان كتاب دستور الوزراء كتاب جامع لأحوال وزراء الاسلام منذ بداية الخلافة الى عصر المؤلف - أي الى زوال الدولة التيمورية وتولى الدولة الصفوية الحكم - والذي أضيف عليه أيضا - من قبيل القصص - الحديث عن آصف بن برخيا وبزرجمهر الحكيم » •

(١) كتاب « دستور الوزراء » خواندمير - مقدمة نفيسي ص (ح،خ) طهران ١٣١٧ هـ ش •

ويتضح لنا من هذا أن خواندمير كان مؤرخا واسع الاطلاع ذا ثقافة واسعة، استطاع أن يستفيد بما حوته مكتبات الأمراء التيموريين ويستوعبها. ولذلك فقد ألم بكل جزئية من جزئيات الموضوع الذى يتحدث عنه .

وإذا طالعنا كتابى خواندمير السابقين على « دستور الوزراء » وهما « مآثر الملوك » ، « خلاصة الاخبار » ، وضح لنا صدق ما نذهب اليه وهو سعة اطلاع خواندمير وحبه لفن التاريخ واقباله عليه عن رغبة وحب لا عن احتراف وارتزاق ، فقد جمع فى الكتاب الأول أقوال وآثار وحكم وامثال الملوك والعلماء والانبياء والخلفاء منذ آدم الى زمانه ، كما جمع فى « خلاصة الاخبار » احبار العالم منذ بداية الخلق ٠٠٠ وحتى عام ٨٧٥ هـ ، وختمه بوصف لمدينة هراة مع عرض شامل لاحوال مشاهير المعاصرين له .

وهكذا نرى أن خواندمير قد أعد عدته ، وهياً ذهنه وعمق ثقافته ، وجرب فلمه وفكره قبل أن يقدم على تأليف كتابه « دستور الوزراء » ، ولذلك فقد ظهرت موهبته واضحة جلية فى هذا الكتاب ، ووضحت قدرته وثقافته ، وتأكدت أستاذيته فى فن التاريخ ، وجاء كتابه نتاجا طيبا لأفكاره ، وتضمن ترجمة لاحوال أكبر عدد من الوزراء شهدناه فى كتاب واحد ، اذ بلغ الذين تحدث عنهم ما يربو على أربعمائة وزير . وقد فاق حديث خواندمير عن وزراء سلاطين الدويلات المستقلة التى نشأت فى ايران ما جاء بكتابى « الوزراء والكتاب » للجهشيارى ، و « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن الطقطقى .

كما يتضح لنا أن خواندمير كان أميناً فى نقله عن الآخرين فى كتابه « دستور الوزراء » ، فكان يصرح بنقله دائماً اللهم فى الاخبار التى أجمع عليها المؤرخون ورغم ذلك فكان يقول أيضاً فى بداية تسجيلها عبارات :

« أرباب أخبار آورده اند » ، « بروایت أكثر مؤرخان » ، « نزد فضلاى خرده شناس وعلماء فضيلت اقتباس بصحت بيوسته كه » ، « بعقيده بعض مؤرخان » ، « در بعضی از كتب معتبر بنظر اين ذره احقر در آمده كه » ، « نزد ناظران جواهر أخبار بصحت بيوسته كه » ، « بثبوت بيوسته كه » ٠٠٠ الخ .

وهكذا يتضح لنا من ثانياً دستور الوزراء أمانة خواندمير فى نقل الاخبار ، وهذه الصفة تعطى له ولكتابه ميزة جديرة بالاعجاب . ويتضح لنا أيضاً فضوح خواندمير ووعيه وذكائه فى « دستور الوزراء » ، فنراه يفسح المجال فى الحديث عن الوزراء الذين كان لهم أثر كبير فى مجرى الأحداث فى مختلف الدول ، ويفرد لهم ولأعمالهم صفحات كثيرة فى كتابه حتى يعطى القارى فكرة وافية عما يريد أن يعرفه عن أحوال هؤلاء الوزراء البارزين ، وذلك مثلما فعل عند حديثه عن الفيلسوف ابن سينا فقد تحدث عنه حديثاً وافياً ربما كان من أمتع وأشمل ما كتب عن هذا الوزير الفيلسوف . ونراه أيضاً يتحدث عن الوزير أبى سلمة

الحلال ، أول وزير لأول خليفة عباسي ، ويورد أخباره بصورة لم نجدها في الكتب التي عرفنا بها . كذلك يورد بحثا مطولا عن البرامكة ودورهم في الدولة العباسية مبينا أسباب نكبتهم وذلك بشكل مفصل ودقيق ، ويورد وجهات النظر المختلفة في شأنهم . وهذا ما لم نجده أيضا بهذا الشكل في الكتب المذكورة . كذلك تحدث خواندمير عن وزير السلاجقة الأكبر نظام الملك الطوسي ، وأنهم بكل ما أحاط بشخصية هذا الوزير . ونراه يفرد الحديث عن الوزير رشيد الدين فضل الله ، ويشني عليه ويتعاطف معه ، ويلم بمختلف الأخبار التي عرفت عنه ، وينكرها عند ترجمته له أو أثناء حديثه عن الوزراء الذين اشتركوا معه في الوزارة ليكمل صورته في ذهن القارئ . وهذا كله وغيره - في ثنايا دستور الوزراء - أن دل على شيء فأنما يدل على وعي خواندمير وذكائه وخبرته في فن التاريخ وإحساسه بالغث والسمين من الأخبار والأحداث .

كما يتضح لنا في دستور الوزراء أدب خواندمير ورفعة أخلاقه . وهذا ما ظهر منه في بداية حديثه عن الوزراء في كتابه حيث لم يطرق الحديث عن كتاب الخلفاء الراشدين الذين أطلق عليهم البعض وزراء مثل صاحب « آثار الوزراء » وجعلهم البعض كتابا مثل صاحبي « الوزراء والكتاب » ، « الفخرى في الآداب السلطانية » . وقد علل خواندمير تركه الحديث عن هؤلاء مدركا أن مجال الحديث عنهم لا يكون في مثل هذه الكتب حيث قال في أدب واحترام :

« لا جرم ایراد أحوال آن طایفه درین أوراق از رعایت حسن أدب دور نمود » (١) .

وترجمته : ولا شك أن ذكر أحوال تلك الطائفة - في مثل هذا الكتاب لأمر بعيد عن مقتضى الأدب والاحترام .

كما نجد خواندمير في كتابه « دستور الوزراء » ، حسن العقيدة نقي السريرة محافظا على تعاليم دينه الاسلامي . مشجعا على التمسك بها ، مننيا على من يرهاها ، ذاما لمن يهملها ويتهمج عليها ، وهذا يتضح وضوحا جليا أثناء حديثه عن الوزير سعد الدولة اليهودي - وزير أرغون خان - حيث نراه يحلل الشخصية اليهودية تحليلا دقيقا ويوضح الألاعيب والأساليب الماكرة التي يسلكونها في البداية ، وذلك حينما عرض الطريقة التي بها أوصل اليهود العاملون ببلاط أرغون خان سعد الدولة إلى منصب الوزارة والقيادة ، وبيان دور سعد الدولة وكيفية استيلائه على نفس أرغون بكثرة الأموال التي جمعها من الشعب ، حتى وصل به الأمر إلى اقناع أرغون بإبعاد المسلمين عن البلاط المغولي واستبدالهم باليهود . بل وصل الأمر إلى اقناعه بتحويل الناس من عبادة الواحد القهار إلى عبادة الأصنام ، وحتى يكتب سعد الدولة لخطته النجاح فقد بادر بقتل الكثيرين من الزعماء الدينيين الذين كان يخشاهم . وقد عبر خواندمير في كتابه دستور

(١) دستور الوزراء/خواندمير - ص (١٩) طهران ١٣١٧ هـ ش .

الوزراء عن كل هذه الأمور تعبير المسلم الغيور على دينه ، المتمسك بعقيدته وذلك بأسلوب عاية فى البراعة ، مبينا انهيائه الاليمه التى انتهى اليها السلطان ارعون خان ووزيره اليهودى سعد الدوله . وكانما أراد ان يقول لكل من نسول له نفسه التفكير فى النيل من الاسلام والمسلمين ، ان هذه سوف تكون نهايت سواء كنت سلطانا عام الصاعه مثل أرغون ، أو كنت وزيرا عام النفوذ مثل سعد الدوله .

وكان خواندمير فاضلا فحبا للحق ممجدا للعدل والانصاف منفرا من أعمال الجور والعسف ، وقد أظهر ذلك بوضوح خلال سرده لأخبار الوزراء الذين أرخ لهم فكان يعبر دائما - خلال عرضه للأخبار - عن الفضيلة وحبها لها وارذيلة وبغضه لها ، فنراه مثلا حينما تحدث عن الوزير مجد الدين محمد أعظم وزراء السلطان حسين بايقرا - بعد الأمير عليشير نوائى - يظهر نواحي النبوغ والعظمة فيه ، كما يظهر فى نفس الوقت صفات التكبر التى كانت فيه وظلمه لبعض الفضلاء الذين كانوا تحت رئاسته . ومحاولاته القيام بالدس للامير الفاضل نظام الدين عليشير نوائى ونكرانه لجميل ذلك الأمير عليه ، حيث كان السبب فى دخوله بلاط السلطان حسين بايقرا ووصوله الى المناصب الرفيعة . كما نجد أيضا عشق خواندمير للفضيلة ، عندما تحدث عن آخر وزير فى كتابه وهو درويش أحمد قابض ، فيظهر خواندمير مدى ظلم ذلك الوزير واعتسافه وكثرة مساوئه وأطماعه ومحاولته شغل منصب الوزارة لكل من الامير مظفر حسين ميرزا والأمير بدیع الزمان ميرزا فى وقت واحد ، وذلك بعد وفاة السلطان حسين ميرزا ، ولما لم يظفر بذلك ووزر لمظفر حسين ميرزا فقط ، أنزل الظلم بالرعايا والمحكومين الذين ضاقوا به وبظلمه ، فرفعوا أيديهم الى السماء داعين الله سبحانه أن يدفع عنهم شره ، فاستجاب لهم ربهم ، وقتله نديمه وهو يحتسى كنوس الخمر والشراب .

وهكذا نرى أن شخصية خواندمير كانت واضحة جلية فى دستور الوزراء خلال حديثه - من أول الكتاب الى آخره - سواء عند حديثه من واقع الأخبار التى نقلها أو الأخبار التى سمعها ، أو تلك التى شاهدها بنفسه ، وعبر عنها جميعا تعبير الحبير المتخصص ، العالم المتبحر ، الواعى المفكر ، المتدبر المدقق ، المعتدل المحقق ، فكانت كتاباته كلها نابعة من حبه للتاريخ وأهميته ، وضرورة الاطلاع به وقراءته ، واحساسه بفائدته وأخذ العبرة منه خاصة أولئك الذين وضعت الأقدار مصائر الناس ومصالح الرعية فى أيديهم من الوزراء والخلفاء والسلاطين والحكام .

الفصل الثاني

خواندمير رجل الأخلاق فى دستور الوزراء

لقد ضمن خواندمير كتابه « دستور الوزراء » الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والحكم والأمثال المشهورة ، وذلك فى موضعها المناسب أثناء أو عقب سرد خبر يرى الاعتبار به وأخذ العظة منه ، كما ضمن كتابه ما يربو على ستمائة بيت من الشعر الفارسى ، بعضها من نظمه والبعض الآخر من نظم غيره من الشعراء البارزين والمتصوفة ، ربط ببعضها جانباً من أخباره - وهذه معظمها من نظمه - والبعض الآخر أورده على سبيل الحكمة والموعظة الحسنة .

وربما أحس خواندمير بأن ترديد هذا بين آونة وأخرى - عقب أو أثناء بعض الأحداث - لا يكفى ، فنراه قد خصص بعض السطور عقب كل حادثة تأخذها أو خبر يشعر بترسيخ مغزاه فى الأذهان ليقف خلالها مرشداً ناصحاً نصيح الحكيم المجرب ذى الأخلاق العالية .

وقد وزع خواندمير هذه الوقفات على ثلاثة عشر موضعاً من كتابه فيما يلى بداية كل وقفة منها والصفحة التى ذكرت (١) بها .

١ - ص ٧٢ بعد عزل الخليفة المنتصر العباسى لوزيره أحمد بن الحبيب بسبب قيام الوزير بركل أحد الرعية بقدمه ووقوف الناس على هذا الأمر لدرجة أن نظم أحد الشعراء هذين البيتين بالعربية بعد العلم بهذه الحادثة :

قل للخليفة : يا بن عم محمد
أشكلك وزيرك انه ركالك
قد نال من أعراضنا بلسانه
ولرجله عند الصدور مجال

(١) انظر ترجمة العبارات المذكورة فى الصفحات المبينة بالترجمة الكاملة لدستور الوزراء فى نهاية هذا البحث .

- وبعد سرد هذه الأخبار يقف خواندمیر ناصحا بقوله :
- « بس مناسب آنست که صاحب ابن منصب صفت حلم ووقار
شعار خود سازد ... » .
- ۲ - ص ۸۰ بعد أمر الخليفة بقطع يد الوزير ابن مقله لمكاتبته الأمراء دون
علم من الخليفة ، يقول خواندمیر :
- « بس لایق بحال شاغل منصب وزارت ، بلکه سایر ملازمان
درگاه سلطنت آنست که بخلائین رضای بادشاه با امرای
اطراف ابواب مکاتبات مفتوح ندادند ... » .
- ۳ - ص ۱۰۶ بعد خدیعة الوزير ابن العلقمی للخليفة المستعصم والاستیلاء
على بغداد وما جرى لابن العلقمی بعد هذه الحادثة من قبل
الناس ، يقول خواندمیر :
- « بس سزاوار روزگار ملازمان درگاه سلاطین کا مکار آنست
که جبلت خود را از صفت مکر و حیلت پاک گردانند ... » .
- ۴ - ص ۱۰۹ عند تقصیر الوزير أبی الفضل محمد وزیر الأمير نوح بن نصر
السامانی فی توفير طلبات الجند ومطالبتهم بقتله ، يقول
خواندمیر :
- « بس لایق بحال متکفل منصب وزارت آنست که بجزویات
أموال دیوانی با اکابر امرا ومقربان حضرت سلطانی در طریق
عناد ولجاج مسلوك ننماید ... » .
- ۵ - ص ۱۴۳ فی أدب التحدث عن الملوك والسلاطین - حتی فی وقت ضعفهم
- نتیجة ما بدر من الوزير أبی علی حسن المشهور ب « حسنک
میکال » - وزیر السلطان محمد الغزنوی - عن السلطان
مسعود الغزنوی يقول خواندمیر :
- « بس لایق بحال خدام بارگاه سلطنت وملازمان درگاه خلافت
آنست که اعتماد بروفور جاه وجلال وکمال دولت واقبال
بادشاه ننمایند ... » .
- ۶ - ص ۱۸۲ عندما قتل السلطان برکیارق السلجوقی الوزير مؤید الملك
ابن نظام الملك نتیجة الغدر والتزوير . يقول خواندمیر فی ذم
هاتین الصفقتین :
- « بس مناسب آنست که عاقل هوشمند وامن همت خود را از
لوث این دو صفت ذمیمه پاک سازد ... » .

۷ - ص ۱۸۷ عندما أساء الوزير ضياء الملك أحمد بن نظام الملك - وزير السلطان محمد السلجوقي - معاملة أحد سادات أهل البيت . يقول خواندمير :

« بس واجب ولازم جنان می نماید که أصحاب دولت و اقبال نسبت باین طایفه عالی مکان که آیه کریمه « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (۱) » « در شان ایشان زیر طریق اخلاص و محبت سلوک فرمایند... » .

۸ - ص ۲۰۵ بعد قتل السلطان طغرل بن محمد بن ملکشاه السلجوقي الوزير أبوالقاسم الدکزینی بسبب أفعاله الناتجة عن صفات الغرور والتجبر . يقول خواندمير :

« مرد خرد مند آنست که بسبب عروج بر معارج دولت ابن جهانی و صعود بر مصاعد عظمت سرای فانی بخار غرور ویندار بکاخ دماغ مصاعد نگر داند... » .

۹ - ص ۲۰۹ بعد قتل السلطان محمود السلجوقي الوزير شمس الدين ابن نظام الملك لظلمه و تعسفه مع الأغنياء و استيلائه على أموالهم . يقول خواندمير :

« بس بر صاحب این منصب بنابر مصلحت دنیوی و آخروی واجب و لازم است که از جاء عدل و انصاف مطلقا میل و انحراف ننماید... » .

۱۰ - ص ۲۴۴ عند کفران الوزير ظهير الدين ابراهيم صواب بنعمة مخدمه الامير محمد مظفر السلغری . يقول خواندمير :

« مرد عاقل که بمقتضای نص « لئن شکرتم لأزيدنکم و لئن کفرتم ان عذابى لشديد » عمل نموده ، بیوسته از وخامت عاقبت کفران نعمت نیندیشد... » .

۱۱ - ص ۲۵۲ عند قتل انشاء شجاع المظفری للوزير رکن الدين حسن بسبب ترويره و کیده رغم أنه ينتسب الى سادات أهل البيت . يقول خواندمير :

« سادات را با ظلم و غدر و فسق چه کار ؟... »

(۱) سورة الاحزاب ، آیه (۳۳) .

۱۲ - ص ۲۸۴ بعد قتل الوزير مجد الملك اليزدى بسبب كيد و ظلمه و تزويره
من أجل الانفراد بالسلطة . يقول خواندمير :

« مرد عاقل آنست كه بسبب ميل جاء وحشمت و نيل جند
روژه كامراني و دولت خود را در ورطه هلاكت نيندازد » .

۱۳ - ص ۳۷۱ بعد قتل السلطان أبى سعيد التيمورى الوزير معز الدين
الشيرازى بسبب تحميله أهل هراة مبالغ كبيرة ، وأخذها
لنفسه و خاصته يقول خواندمير :

« بس صاحب اين منصب لازم و واجبست كه باسطة نيل
مزخرفات دنيوى كه مانند سايه غمام بى ثبات و دوامست
باشعال آتش ظلم و آثام قيام و اقدام ننمايد » .

كما نلاحظ بالاضافة الى ما سبق ، أن خواندمير قد أورد أيضا فى نهاية
كتابه دستور (۱) الوزراء مجموعة من النصائح والتوجيهات الواجب مراعاتها من
قبل الوزراء والمسؤولين . أوضح فيها كيفية التعامل الحسن مع جميع فئات الشعب
من حاكمين ومحكومين ، وبين بأسلوب غاية فى الابداع الفائدة التى سوف تترتب
على هذا التعامل ، ويستهل هذه النصائح بقوله :

« دريغ از آدمى زاد كه بسبب نيل منصب و اختيار و ميل حكومت عالم بى
اعتبار شخص عزيز را هدف تير ملامت مى سازد ، و بر سبب ردائت خلق و شومى
معاش خود را بد نام و مستهام گردانیده ، از اوج شرف و اقبال در حضيض
مذلت و ادبار مى اندازد (۲) » .

و ترجمتها : « ما أشقى الانسان الذى يجعل نفسه العزيزة هدفا للملامه
حبا منه فى نيل المناصب ، و رغبة منه فى حكم الدنيا الفانية . و يسيء الى نفسه
ويستهين بها بسوء خلقه و شؤم حياته ، و يلقى بها من أوج الشرف و السعادة الى
حضيض المذلة و الهوان » . و بعد ذلك يقدم خواندمير انصورة المقابلة ، بعد أن
هيا النفوس لتقبلها فيقول :

« خوشا حال صاحب سعادتى كه هرگز غبار جاء و حشمت بردا من
همت نشانند ، و آستين ملال بر اسباب دولت و اقبال سريع الانتقال افشانند
بر طبق كلمه كريمه «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» خود را در مهالك ظلم و عدوان
نيندازد و نفس نفيس را از طى مسالك جور و طغيان بقدر امكان دور سازد .
از متاع جهان قليل الانتفاع بد آنچه ناكزير مردم درویش و فقير ست قناعت

(۱) دستور الوزراء/خواندمير - من ص ۴۵۶ الى ۴۶۵ - طهران ۱۳۱۷ هـ ش .

(۲) المرجع السابق ، ص ۴۵۶ ، ۴۵۷ .

نمايد وجهت استمتاع از كثرت أموال واجتماع أسباب جاه وجلال باقدام سعی واهتمام طريق ملازمت نيمايد » (١) .

وترجمتها : « وما أسعد ذلك الذي لا يغير همته مطلقا بغبار الحب للعظمة والجاه ، الذي يلبس دولته وسلطانه انزائل ثوب العفة ، ولا يلقي بنفسه في مهالك الظلم والعدوان متعظا بقوله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، وان يبعد نفسه الغالية - قدر طاقته - عن المضي في دروب الضلم والظغيان ، وأن يقنع من متاع الدنيا بالقليل من أموال الفقراء والمساكين ، وألا يسعى الى نيل للمناصب الرفيعة بهدف الاستمتاع بكثرة الأموال ، والحصول على أسباب الجاه والسلطان » .

وبعد ذلك أخذ خواندمير ينصح الحكام الذين قدر لهم أن يصلوا الى مراكز المسؤولية بهدف الخدمة العامة والتطوع لرعاية جميع فئات الشعب ، لا حبا في الجاه والسلطان ، وعدد كل فئة من فئات الشعب وكيفية معاملتها من قبل الحكام فيقول مثلا :

« دهاقين ومزارعان را كه انتظام نظام عالم وسر انجام مهام بنی آدم بروفق احوال ايشان منوطست ورضای جناب جلال الهی وارتضای ساحت اقبال باد شاهي بفرای بال ايشان مربوط در كنف مرحمت وجوار شفقت خویش مرفه دارد واز سحاب رأفت وغمام عاطفت رشحات عنايت وقطرات رعايت بر كشتن اميدشان بارد ، تامضمون در مكنون « ارحموا من فی الأرض یرحمكم من فی السماء » شامل حال او آید واز فروغ خواطر فارغ ايشان جهره بهبود در آئینه مقصودی روی نماید (٢) » .

وترجمتها : « وعليه أن يغمر البسطاء والمزارعين برحمته وشفقته ، لأن مهمة انتظام الدنيا وانجاز شئون الخلائق منوطة بأحوالهم ، وأن رضاء الله سبحانه وتعالى ، ودوام مجد السلطنة مربوط براحة بالهم ، وعليه أن يمطر بستان آمالهم من سحاب رأفته ، وغمام عاطفته ، وقطرات عنايته ورعايته ، حتى يشمل حاله يعضمون الحديث الشريف « ارحموا من فی الأرض یرحمكم من فی السماء » ، ويشاهد - بعد اراحة نفوسهم ، صورة التحسن واضحة في مرآة آماله » .

وهكذا كان خواندمير ناصحا موجها ورجل أخلاق من الطراز الأول في دستور الوزراء ، بالاضافة الى كونه مؤرخا ناجحا .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٣ .

الفصل الثالث

خواندمير ، مصادر كتابه وقيّمته ، أسلوبه وخصائصه

أهم المصادر التي رجع اليها خواندمير :

لقد بذل خواندمير مجهودا كبيرا في قراءة مصادره المكتوبة ، ونجح نجاحا كبيرا في اختيار هذه المصادر ، فنجد أنه قد اعتمد اعتمادا أساسيا على مصادر صرح هو نفسه بأخذه عنها في مواضع كثيرة من كتابه دستور الوزراء ، نورد فيما يلي ذكرها حسب إشارة خواندمير اليها واعتماده عليها وهي :

١ - كتاب « جامع التواريخ » : (١)

وهو الموسوعة التاريخية التي وضعها الوزير المؤرخ رشيد الدين فضل الله ابن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة الهمداني . كان جده موفق الدولة يعبش مع خواجه نصير الدين الطوسي في قلاع الاسماعيلية بقمستان ، ثم التحق بخدمة هولاكو اثر استيلائه على تلك القلاع .

ولد رشيد الدين في همدان عام ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م وأمضى هناك فترة شبابه في تحصيل العلوم المختلفة وخاصة الطب ، واشتغل طبيبا في بلاط آباقا خان (٦٦٣ - ٦٨٠ هـ) ، وصار يترقى شيئا فشيئا الى أن عين عام ٦٩٧ هـ وزيرا في عهد غازان خان (٦٩٤ - ٧٠٣ هـ) ، واستمر متقلدا هذا المنصب في عهد السلطان أوجايتو وابنه أبي سعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . وفي أوائل عهد أبي سعيد ، وقع رشيد الدين فريسة الدس والمؤامرات التي كان يحيكها له زميله في الوزارة علي شاه الكيلاني ، وانتهى الأمر بقتله في عام ٧١٨ هـ ونهب ممتلكاته ، وتخريب محلة الربع الرشيدى التي كان قد بناها شرقي تبريز ، .

(١) براون ، التاريخ الاوهمى لايران ج٣ ص ٧٩ - ١٠٥ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م ، د/الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ، القاهرة ١٩٦٧ م ص ٢٥٩ .

كان رشيد الدين رجلا غزير الثقافة ، يعرف كثيرا من اللغات والنفاحات العبرية والفارسية والعربية والصينية والتركية والمغولية ، فعندما تولى غازان عرش المغول ، لم يكتف بتقليده منصب الوزارة فحسب بل كلفه بعمل أدبي وتاريخي كبير ، هو تأليف كتاب جامع في تاريخ المغول . وقد وضع غازان خان تحت تصرف رشيد الدين خيرة المصادر واندرها . في الامبراطورية المغولية . كذلك استفاد رشيد الدين من الروايات الشفوية التي كان يدور معظمها على لسان غازان خان نفسه وذلك بحكم منصبه كوزير لذلك السلطان . وهكذا تهيأت الظروف لرشيد الدين لان يكتب كتابا مدعما بالوثائق في تاريخ المغول منذ أقدم الازمنة حتى عصر التأليف .

وبعد أن قطع رشيد الدين شوطا بعيدا في مهمته هذه ، وأصبح على وشك الفراغ من هذا المشروع ، توفي فجأة السلطان غازان في شوال عام ٧٠٣ هـ ، وتولى أخوه أوجايتو عرش المغول ، وأبقى رشيد الدين في منصبه ، وكلفه بالاستمرار في انجاز كتابه ، والابقاء على اهدائه الى أخيه الراحل غازان خان اعترافا بجميل هذا الرجل الذي كان السبب في البدء في عمل هذا المؤلف . وكلفه أوجايتو بمهمة أخرى وهي عمل مجلد ثان يشتمل على تاريخ لجميع الشعوب التي اتصل بها المغول أثناء فتوحاتهم ، وعمل مجلد ثالث يشتمل على جغرافية العالم .

وقد استطاع رشيد الدين - بمساعدة العلماء الذين كانوا يقطنون تبريز والسلطانية - أن يفرغ من تأليف كتابه في عام ٧١٠ هـ وأطلق على جميع المجلدات اسم « جامع التواريخ » فكان هذا المؤلف أول تاريخ عالمي معروف بالمعنى الصحيح ، وأول مجموع منظم للتطور التاريخي لكل الأوطان التي تسكن قارتي آسيا وأوروبا من المحيط الهادي الى المحيط الأطلسي ، أما المجلد الثالث في جغرافية العالم ، فانه غير موجود أصلا في نسخ كتاب جامع التواريخ ، ويبدو أن المؤلف لم يكتبه ، وأنه كان مجرد فكرة لم تخرج الى حيز التنفيذ ، أو أنه كتبه ولكنه فقد أثناء الاغارة على الربع الرشيدى عقب مقتل رشيد الدين .

وعلى هذا فكتاب جامع التواريخ يقع في مجلدين :

الأول - يشتمل على باين :

الباب الأول : يحتوى على مقدمة وأربعة فصول في تاريخ القبائل التركية والمغولية وأصولها وأنسائها .

الباب الثاني : يحتوى على تاريخ جنكيز خان وأجداده وأحفاده الى أيام غازان خان .

الثانى - ويشتمل على باين :

الباب الأول : يحتوى على تاريخ أوجلايتو ، وهو مفقود من جميع نسخ هذا الكتاب .

الباب الثانى : ويقع فى مقدمة وقسمين :

المقدمة : فى ذكر آدم ونوح وأبنائهما .

القسم الأول : فى ذكر ملوك الفرس القدماء وذلك من عصر كيومرث - أول ملوك الفرس الاسطوريين - حتى آخر عصر يزدكرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين .

القسم الثانى : وينقسم الى ثلاثة أقسام :

الأول : فى ذكر تاريخ النبى وتاريخ الخلفاء حتى آخر عصر المستعصم .

الثانى : فى ذكر الدولات الفارسية التى نشأت فى ايران على اثر ضعف الخلافة العباسية .

الثالث : فى ذكر الدول الأخرى مثل تاريخ جد الأتراك وقبائل الخطا والصين وبنى اسرائيل .

قيمة كتاب جامع التواريخ وتأثر خواندمير به :

١ - اتخذ كتاب جامع التواريخ شكل موسوعة تاريخية مفصلة لم يؤلف شخص قط مثلها لا فى آسيا ولا فى أوروبا فى العصور الوسطى ، فكان بهذا أحسن وأكمل كتب التاريخ العام فى الأدب الفارسى ، وفتح لمن جاءوا بعده الطريق لعمل موسوعات تاريخية بحيث أصبح العصر المغولى يصح أن يطلق عليه عصر الموسوعات .

٢ - التزم رشيد الدين فى عمله هذه الموسوعة الحياد النزىه وعدم التعصب ، فلم يتملق سلاطين المغول وأبدى رأيه فيهم صراحة فى الوقت المناسب ، كما أنه أرخ للقبائل غير الاسلامية بمنتهى الدقة والموضوعية ، ولم يجعله عمله مع المغول أو اسلامه يحدد عن جادة الصواب والتأليف العلمى .

٣ - استفاد رشيد الدين كثيرا بالوثائق والسجلات التى كانت موجودة فى دواوين المغول ، واستخدم تلك الوثائق ، وهذا لم يتوفر لغيره مثلما توفر له . فكان عمله بذلك عملا تاريخيا دقيقا ، أكسبه ثقة الجميع فلم يترددوا فى الأخذ عنه والاستفادة منه والاشادة به ، كما ضمنه معلومات جغرافية هامة عن مناطق

كثيرة كانت مجهولة لدينا ، وصفها رشيد الدين وصفا مفصلا دقيقا ، كذلك وصف رشيد الدين عادات المغول وتقاليدهم بشكل مفصل لم نشهده عند غيره .

٤ - وتبدو أهمية كتاب جامع التواريخ على وجه الخصوص في الأحداث التي كان يعاصرها رشيد الدين ، فقد عاصر دولة المغول في أوج مجدها وشاهد تحطيم قلاع الاسماعيليه ، وحصار بغداد وما دار فيها من مذابح رهيبه على يد هولاكو خان ، والتحق بخدمة أعظم سلاطين الايلخانيين ، غازان خان وأولجايتو وأبى سعيد . فاذا جاء هذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة المعاصرة له بمحاسنها ومساوئها فانما يؤرخ الأحداث التي كان يعاصرها .

ولم تقتصر قيمة جامع التواريخ على الناحية التاريخية والجغرافية فحسب بل أصبح له قيمة فنيه كبيرة ، فازدهار فن التصوير في العصر المغولي يرجع الى حد كبير الى هذا المؤرخ ، بل ان أكبر صور المدرسة المغولية توجد في كتاب جامع التواريخ ، كما أن رشيد الدين لم يكن مؤرخا فحسب بل كان كذلك عالما أدبيا له مؤلفات عديدة في الطب والاحياء والاقتصاد الزراعي والعلم والأدب ، وقد وضع ذلك في كتبه مما يدل على عظمة هذا الرجل .

وهكذا نرى أن خواندمير كان موفقا غاية التوفيق في وضع كتاب جامع التواريخ على رأس قائمة المصادر التي أخذ عنها واستفاد منها ، وكان يصرح بذلك كثيرا ويردد عبارات « بروايت صاحب (١) جامع التواريخ ٠٠٠ در جامع التواريخ (٢) مسطور ست ٠٠٠ در جامع التواريخ (٣) مذکورست ، صاحب جامع (٤) التواريخ كويد ٠٠٠ » وغيرها من العبارات .

٢ - كتاب « روضة الصفا » :

وصاحبها هو المؤرخ الكبير ميرخواند (٨٣٨ - ٩٠٣ هـ) - جد خواندمير لأمه - الذي عرفنا به وبكتابه في الفصل الثاني والفصل الثالث من الباب الاول .

٣ - كتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » :

ومؤلف هذا الكتاب هو المؤرخ محمد عوفي صاحب كتاب « لباب الألباب » ، ومن كتاب القرن السابع الهجري المشهورين . وهو يصرح في القسم الأول من كتابه « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » أنه عرف باسم « العوفي » نسبة الى عبد الرحمن بن عوف أحد صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان من سلالته .

(١) دستور الوزراء/خواندمير ص ٣٧. طهران ١٣١٧ هـ ش .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

وقد أمضى (١) العوفى معظم طفولته فى خراسان وما وراء النهر وخاصة فى مدينة بخارى ، ثم رحل عن هذه المدينة الى الهند فالتحق بخدمة السلطان « ناصر الدين قباچه » وأهدى الى وزيره « عين الملك حسين الأشعري » معجبه الذى صنفه عن شعراء الفرس باسم « لباب الألباب » فلما فقد هذا السلطان ملكه وحياته فى سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م انتقل العوفى الى خدمة السلطان الذى قهر مخدمه « شمس الدين ايلتتمش » وأهدى اليه كتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » .

وكتاب « جوامع الحكايات » كتاب تاريخى يشتمل على ٢١١٣ حكاية من القصص التاريخية ، استقاها مؤلفه من المصادر الموثوق بها وعددها ثلثته (٢) وتسعون مصدرا تقريبا . وتبدو أهمية هذا الكتاب اذا عرفنا أن معظم هذه المصادر التى أخذ عنها العوفى قد ضاع وبعضها لم نعرفه الا من خلال كتابات العوفى نفسه . وكتاب (٣) جوامع الحكايات مقسم الى أربعة أقسام ، كل قسم منها يشتمل على خمسة وعشرين بابا ، وكل باب منها يشتمل على مجموعة من الحكايات تصور موضوعه وتفسره ، وأسلوب الكتاب بسيط وسهل ويختلف تماما عن أسلوب « لباب الألباب » . وقد استفاد خواندمير كما استفاد غيره كثيرا من كتاب جوامع الحكايات ، ونقل عنه الكثير من الأخبار المتعلقة بأحوال وزراء الدولة الأموية والدولة العباسية فى كتابه « دستور الوزراء » ، يذكر مصحح كتاب جوامع الحكايات هذه الحقيقة - حول من تأثروا بجوامع الحكايات - فيقول :

« در آثار نوره ميرخواند يعنى خواندمير هم تأثير مستقيم جوامع مشهود است ، در مآثر الملوك و خلاصة الاخبار اندك مشابهيى و در دستور الوزراء (٩١٤ هـ) حد اقل بيست نقل قول از جوامع الحكايات ديده مى شود » (٤) .

وترجمتها : « .. ويظهر تأثير جوامع الحكايات الواضح من آثار حفيد ميرخواند أى خواندمير ، وهذا التأثير يبدو قليلا الى حد ما فى كتابى « مآثر الملوك » ، « خلاصة الأخبار » ، أما فى كتاب « دستور الوزراء » - المؤلف عام ٩١٤ هـ - فيلاحظ أنه صرح بنقله عن جوامع الحكايات فيما لا يقل عن عشرين مرة » وخواندمير يذكر صراحة أنه نقل عن جوامع الحكايات ، ويردد ذلك بعبارات مختلفة فى كثير من أجزاء كتابه دستور الوزراء ، ويلاحظ أنه يذكر هذا

(١) براون ، التاريخ الأدبى لایران ، ج٢ ، ص ٦٠٦ ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٣٧٣ هـ .

— ١٩٥٤ م .

(٢) أنظر جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، تصحيح كريمى ، ص ٤٤ من المقدمة . طهران

(٣) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن هذا الكتاب أنظر منتخبات من جوامع الحكايات ، تحقيق

ملك الشعراء بهار ، جوامع الحكايات ، الجزء الأول ، تحقيق د/معين .

(٤) انظر ، جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، تصحيح كريمى ، ص ٧٦ من المقدمة .

طهران .

الكتاب باسم « جامع الحكايات » فيقول مثلاً : « يقول صاحب (١) جامع الحكايات ٠٠٠ » ، « ودر جامع (٢) الحكايات مذكورست ٠٠ » ، « بروايت صاحب جامع (٣) الحكايات ٠٠ » ، « باعتماد صاحب (٤) جامع الحكايات ٠٠ » وغيرها من العبارات .

٤ - « تاريخ أزيده » :

ومؤلف هذا الكتاب هو المؤرخ حمد (٥) الله المستوفى القزويني . كان من الشعراء والكتاب المجيدين في اللغة الفارسية ، يتصل نسبه ببحر بن يزيد الرياحي ، فهو اذن من أصل عربي ، ولكن أسرته استوطنت مدينة قزوین مدة كبيرة ، وارتبطت بايران ارتباطاً قوياً . وكان جده الأكبر « أمين الدين نصر » مستوفياً على العراق ، وكان أخوه زين الدين محمد من عمال الوزير رشيد الدين فضل الله ، ورشيد الدين هو الذي اختار حمد الله ليكون مستوفياً على قزوین وزنجان وأبهر وطارمين .

كان حمد الله يميل في شبابه الى الاطلاع على الكتب التاريخية ومجالسة العلماء والفضلاء ، وكان معظم هؤلاء العلماء يحضرون مجلس رشيد الدين ، فاستفاد منهم حمد الله استفادة كبيرة . وبعد مقتل رشيد الدين التحق القزويني بخدمة ابنه غياث الدين ، اعترافاً منه بفضل أسرة رشيد الدين عليه ، وبعد مقتل غياث الدين محمد لا تكاد نعرف شيئاً عن حياة حمد الله سوى أنه توفي عام ٧٥٠ هـ .

وكتاب « تاريخ گريده » ألفه القزويني عام ٧٣٠ هـ - ١٣٣٠ م في التاريخ العام اذ يضم جميع ما عرف عن ايران منذ عهد آدم حتى عام تأليفه ، وأطلق عليه القزويني اسم « تاريخ گريده » أي التاريخ المنتخب ، وأهداه الى غياث الدين محمد بن رشيد الدين وزير السلطان أبي سعيد بهادر خان . والكتاب ينقسم الى مقدمة وستة أبواب وخاتمة :

المقدمة : في خلق الكائنات .

الباب الأول : ويتكون من مقالتين يتحدث فيهما عن الأنبياء والحكماء والرسل .

- (١) دستور الوزراء/خواندميز ، ص ٢١ ، طهران ١٣١٧ هـ ش .
- (٢) المرجع السابق ص ٢٢ .
- (٣) المرجع السابق ص ٢٧ .
- (٤) المرجع السابق ص ٢٨ .
- (٥) براون ، التاريخ الأدبي لايران ، ج ٣ ص ١٠٦ - ١٢٠ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م .

الباب الثاني : في ذكر ملوك الفرس الذين عاشوا قبل الاسلام ويقع في أربعة فصول .

الباب الثالث : ويشتمل على مقدمة وستة فصول في ذكر النبي وخلفائه وأولاده وأحفاده وصحابته والتابعين ، ثم ذكر خلفاء بني العباس حتى سقوط الخلافة عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م .

الباب الرابع : في ذكر الملوك الذين حكموا ايران بعد الاسلام . وقد خصص المؤلف الفصل الثاني عشر للحديث عن المغول في ايران ، ويعقب هذا الفصل فصل اضافي في تاريخ أسرة المظفرين - حكام شيراز - ليس (١) من تأليف المؤلف وإنما ألحقه أحد النساخ بكتاب « تاريخ كزيده » .

الباب الخامس : ويشمل ستة فصول في ذكر الأئمة والقراء والمشايخ وعلماء الدين والشعراء .

الباب السادس : ويشمل سبعة فصول في ذكر مدينة قزوین موطن المؤلف ومكان تربيته وتنشئته .

الخاتمة : في ذكر شجرة الأنساب لطوائف الأنبياء والأولياء والأئمة والملوك والوزراء وغيرهم ، وقد سار فيها على النهج الذي اتبعه رشيد الدين فضل الله صاحب « جامع التواريخ » ، ولكن هذه الشجرة محذوفة ، ولم يعثر عليها في أى نص من نصوص الكتاب .

ولقد استطاع القزويني بمهارة تدعو الى الإعجاب أن يورد تاريخه حسب ذلك التقسيم الواسع ، فجاء واضح المطالب ، وافيا بالغرض ، بعيدا عن التتويل الملل ، كما أن هذا الكتاب يتضمن ذكرا لمطالب كثيرة لا نجدها في مصادر أخرى ، خصوصا تلك المتعلقة بالفترة التاريخية التي كان يعاصرها المؤلف .

ولقد استفاد خواندمير فائدة محققة باطلاعه على كتاب تاريخ كزيده ، ونقله عنه في بعض المواضع من دستور الوزراء ، مصرحا بذلك بقوله :

« در تاريخ (٢) كزيده مسطور ست كه » بوشيده نماند كه (٣) صاحب تاريخ كزيده . . . » ، وغيرها .

(١) براون ، التاريخ الأدبي لايران ج٣ ص ١١٤ حاشية رقم (١) الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ص - ١٩٤٨ م .

(٢) دستور الوزراء/خواندمير ، ص ١١٤ طهران ١٣١٧ هـ ش .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

٥ - كتاب « جهان نشای » :

ومؤلف هذا الكتاب هو المؤرخ عطا ملك الجويني بن بهاء الدين محمد . ولد عام ٦٢٣ هـ . والتحق بخدمة المغول منذ الصغر . وأصبح الجويني من عمال الديوان في عهد الأمير أرغون حاكم إيران من قبل المغول ، وذلك قبل مجيء المغول الى إيران . ولقد احتل عطا ملك منزلة كبيرة عند أرغون ، لدرجة أنه كان يصحبه في أسفاره العديدة الى « قراقورم » ، وخلال تلك الأسفار العديدة ، استطاع عطا ملك أن يجمع المادة اللازمة لتأليف كتابه ، حيث تمكن من الوقوف على أحوال المغول ونشأتهم ومعرفة قبائلهم . واستمر عطا ملك يعمل في خدمة الأمير أرغون حتى عام ٦٥١ هـ ، ثم التحق بخدمة هولاكو خان عندما قدم بحملته الى إيران في تلك السنة ، واحتل عطا ملك منزلة كبيرة عند هولاكو خان ورافقه في حروبه ضد الاسماعيليين ، والجويني هو الذي كتب شروط التسليم التي أملاها هولاكو خان عندما انتصر عليهم . وكلفه هولاكو خان بالإطلاع على مكتبة الاسماعيليين في قلعة الموت ، فكان من بين ما عثر عليه في هذه المكتبة كتاب « سر گدشت سيدنا » ، وهذا الكتاب عن تاريخ الحسن بن الصباح مؤسس هذه الجماعة ، وخلفائه من بعده ، واستعاد الجويني من هذا الكتاب في التاريخ لهذه الجماعة ، وأورد ملخصا له ضمنه الجزء الثالث من كتابه « تاريخ جهانگشا » ، واستمر الجويني حاكما على العراق في عهد آباقا خان بعد وفاة هولاكو خان ، واستمر يعيش معززا مكرما ، ولكن في أواخر عهد آباقا خان ، دبر له رجل يدعى « مجد الملك اليزدي » مؤامرة حيث اتهمه هو وأخاه الوزير شمس الدين محمد الجويني بأنهما على اتفاق مع حاكم مصر الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) . وأنهما ينويان تسليم العراق له ، فقبض عليهما آباقا خان وعاقبهما ، وكان ذلك ايذانا بأفول نجم هذه الأسرة التي كانت في دولة المغول مثل أسرة البرامكة في الدولة العباسية .

وبعد وفاة آباقا خان ، خلفه أخوه « أحمد تكودار » الذي كان أول من أسلم من المغول ، فأعيد عطا ملك وأخوه شمس الدين الى منصبيهما ، وأمر ذلك السلطان بقتل منافسهما مجد الملك اليزدي عام ٦٨١ هـ - ١٢٨٣ م ولكن عطا ملك لم يعيش طويلا وتوفي هو الآخر في نفس العام .

وكتاب « جهانگشا » كتاب جامع لتاريخ المغول ، وضعه الجويني عام ٦٥٨ هـ ، ولكنه وقف بأحداثه عند عام ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م . وقسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أقسام (١) :

(١) براون ، التاريخ الأدبي لايران ، ج٣ ، ص ٧٥ - ٧٦ ، الترجمة الفارسية ، طهران ،

١٣٢٧ هـ ش .

القسم الأول : فى تاريخ ظهور جنكيز خان وأسلافه وأخلافه حتى عصر جغتاي .
القسم الثانى : فى تاريخ سلاطين الخوارزميين والقراخانيين وحكام المغول فى
ايران .

القسم الثالث : فى تاريخ منكرقا آن ، وتفصيل حملة هولاكو على ايران ، وشرح
تاريخ الاسماعيليه حتى سقوط دولتهم ، وهذا القسم مفتبس من كتاب
« سر كذشت سيدنا » الذى عشر عليه الجوينى فى مكتبة الاسماعيليه فى
الموت ، ويعقب هذا القسم رسالة صغيرة تشتمل على حوادث فتح بغداد ،
تنسب الى خواجه نصير الدين الطوسى ، وفى الغالب أن هذه ارسالة قد
ألحقت بآخر نسخ هذا الكتاب . وكتاب تاريخ جهانگشاي . يشتمل على
معلومات نفيسة ، صرف المؤلف فى تحصيلها أغلب أيام حياته والتزم
جانب الحياد والدقة فى أخباره ، ولم ينهج سبيل الملقى والمداهنة رغم خدمته
فى بلاط المغول ، وقال رأيه صراحة فيهم ووصف مآسيتهم ، وما جنوه على
الحضارة الاسلامية وصفا رائعا مجردا من كل غرض أو هوى . وميزة أخرى
للجوينى انفرد بها بين المؤرخين وهى أنه كان يعيش فى عصر لا تزال فيه
الامبراطورية المغولية وحدة متماسكة ، فذكر ما استطاع ذكره عن تاريخ
أجزاء تلك الامبراطورية ، وسار فى كتابه على نحو ما سار ابن خلدون من
تقصي الحقائق ، وعرض المسائل الفلسفية ، وبيان الأصول الاجتماعية
الصحيحة فى الكشف عن العلل الحقيقية لهزيمة دولة الخوارزميين ،
وانقراض مدنية الايرانيين على يد التتار ، ومقابلة ذلك ببيان الأسباب
الحقيقية لتقدم جنكيز خان ونجاحه فى تحقيق أهدافه (١) .

وقد تأثر كثير من المؤرخين الذين جاءوا بعد الجوينى بكتابه هذا ومنهم
المؤرخ الكبير رشيد الدين فضل الله وميرخواند وخواندمير وغيرهم ، ولا بد أن
يكون خواندمير قد نقل الكثير من تاريخ الجوينى أحيانا بطريق غير مباشر مما نقله
صاحب التواريخ من جهانگشاي - كعادة الكثير من المؤرخين - وأحيانا أخرى
بطريق مباشر عن أصل جهانگشاي نفسه . والدليل على ذلك اعجاب خواندمير
بعلاء الدين عطا ملك والاشادة به وبكتابه فى دستور الوزراء اذ يقول أثناء
ترجمته لأحوال شقيقه شمس الدين محمد الجوينى :

« ویرادر عالی گها خواجه شمس الدين محمد صاحب علاء الدين عطا ملك
كه در علم ودانش خلاصه كارخانه آفرينش بود وتاريخ جهانگشاي از مؤلفات
أوست بحكم آنا قاخان در خطه بغداد رايت حكومت برافراخت وآن بلده راكه
بعد ازن قتل مستعصم چنان خراب وويران شده بود كه قلم دوزبان بهيچ وجه

(١) د/الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ، ص ٢٢٧ القاهرة .

از کیفیت آن تعبیر نمیتواند نمود باندك زمانى معمور وآبادان ساخت (۱) «

وترجمتها : وقد تولى علاء الدين عطا ملك - شقيق الوزير شمس الدين محمد والذي كان فريد عصره فى العلم والمعرفة ، ومن مؤلفاته كتاب « تاريخ جهاننگای » - الحكم فى ولاية بغداد بأمر السلطان آباقا خان ، وقد عمر تلك البلدة فى فترة وجيزة من الزمن ، وكانت قد خربت بعد قتل الخليفة المستعصم ، لدرجة يصعب على القلم - ذى اللسانين - التعبير عنها •

٦ - كتاب « روضة أولى الألباب فى تواريخ الأكابر (٢) والأنساب » :

وهو الكتاب المشهور بين المؤرخين باسم « تاريخ البناکتى » ، ومؤلفه هو أبو سليمان فخر الدين على بن أبى الفضل داود بن محمد البناکتى ، كان شاعرا ممتازا ومؤرخا كبيرا فى بلاط المغول الايلخانيين ، وكان مقربا اليهم وخاصة الى غازان خان الذى لقبه بملك الشعراء عام ٧٠١ هـ - ١٣٠١ م • والبناکتى - نسبة الى « بناکت » اخنى مدن ما وراء النهر - قد سار على نهج رشيد الدين فضل الله فى تأليفه كتابه هذا ، وخاصة عند تأريخه للطوائف غير الاسلامية حيث أفرد لها أكثر من نصف كتابه •

عاش البناکتى حتى عام ٧٣٥ هـ - ١٣٣٤ م ، وألف كتابه فى عام ٧١٧ هـ - ١٣١٧ م فى عهد السلطان أبى سعيد بهادر خان ، ويشتمل على تسعة أقسام على النحو التالى :

القسم الأول : الأنبياء والرسل •

القسم الثانى : ملوك الفرس القدماء •

القسم الثالث : تاريخ النبى - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين •

القسم الرابع : الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية •

القسم الخامس : اليهود •

القسم السادس : المسيحيون والفرنيج •

القسم السابع : الهنود •

القسم الثامن : الصين •

القسم التاسع : المغول •

(١) دستور الوزراء/خواندمير ، ص ٢٦٩ طهران ١٣١٧ هـ ش •

(٢) براون ، التاريخ الأدبى الايرانى ، ج٣ ص ١٢٢ - ١٢٥ ، الترجمة الفارسية ، طهران

١٣٢٧ هـ - ١٩٤٨ م ، د/الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ، ص ٣١٠

القاهرة ١٩٦٧ م •

وينظر الى البناكتى على أنه تابع ومقلد لرشيد الدين فضل الله ، وقد نقل عنه الكثير من أخبار الطوائف غير الاسلامية ، ولكنه زاد عليها وأضاف إليها معلومات دقيقة ومفصلة ، كان يسميها مشافهة من سفراء هذه الأمم بحكم كونه شاعرا في بلاط المغول ، وكانت تتاح له الفرص للاختلاط بالأجانب الوافدين على البلاط المغولى من أماكن بعيدة ، وعلى هذا جاءت بكتابه اشارات عن أخبار تاريخية جرت في مناطق نائية عن البلاد الاسلامية كالبرتغال وبولندا وبوهيميا وانجلترا واسكتلندا وايرلندا وقطالونيا وفرنسا وبلاد (١) الروم .

وقد استفاد خواندمير كثيرا من تاريخ البناكتى ، ونقل عنه في كتابه دستور الوزراء وصرح بذلك أحيانا بقوله :

« صاحب بناكتى يد كز كه (٢) ٠٠٠٠ » .

٧ - كتاب « تاريخ وصاف » (٣) :

والاسم الحقيقى لهذا الكتاب هو « تجزية الأمصار وتزجية الأعصار » . ومؤلف هذا الكتاب هو شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى الشاعر الكاتب الملقب بـ « وصاف الحضرة » . ولد في شيراز عام ٦٦٣ هـ - ١٢٦٥ م ، واشتغل بتحصيل العلم والأدب ، وتعمق في دراسة اللغة العربية وآدابها ، والتحق بخدمة الديوان في شيراز وشيئا فشيئا أصبح الوصاف من خواص صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني نائب الأمير « طغاجار » في فارس . وأما والد المؤلف « عز الدين فضل الله » ، فقد توفي عام ٦٩٨ هـ - ١٢٩٩ م أثناء القحط الذى أصاب اقليم فارس . وكان الوصاف وقتها يشتغل بمجسلا للأموال ، ثم اتصل بالوزير رشيد الدين وتوطدت بينهما روابط الصداقة .

بدأ الوصاف تأليف كتابه عام ٦٩٩ هـ - ١٣٠٠ م ، وعرض القسم الأول منه على السلطان غازان عام ٧٠٢ هـ - ١٣٠٣ م ، وعرض القسم الآخر منه على السلطان أوجايتو عام ٧١٢ هـ - ١٣١٢ م في مدينة السلطانية . ورشيد الدين فضل الله هو الذى قدم الوصاف ، وقدم كتابه الى الايلخانيين المذكورين ، وقد حظى الوصاف لديهما بالقبول ، وأصبح موضع عطفهما ورعايتهما ويبلغ مجموع القسمين المذكورين أربعة أجزاء ، وأما الجزء الخامس والأخير من تاريخ الوصاف فقد كتبه المؤلف مؤخرا حيث يستمر في التحدث فيه عن أسرة هولاكو حتى عام ٧٢٨ هـ - ١٣٢٧ م .

(١) براون ، التاريخ الأدبى لايران ، ج ٣ ص ١٢٤ ، الترجمة الفارسية ، طهران

١٣٣٧ هـ ش - ١٩٤٨ م .

(٢) دستور الوزراء/خواندمير ، ص ٧١ طهران ١٣١٧ هـ ش .

(٣) براون ، التاريخ الأدبى لايران ، ج ٣ ص ٧٧ - ٧٨ طهران ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م

د/السياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ القاهرة

١٩٦٧ م .

وكتاب الوصاف عبارة عن ذيل لتاريخ جهانگشاى للجوينى ، كما يشتمل على تاريخ الملوك وأمراء الأطراف من سنة ٦٥٦ هـ حتى سنة ٧٢٨ هـ (١٢٥٨ - ١٣٢٨ م) ، أى الى أواسط حكم السلطان أبى سعيد بهادر خان الايلخانى . وهذا الكتاب يعتبر من أهم المصادر فى تاريخ المغول فى ايران ، خصوصا فى الفترة ما بين فتح بغداد وأواسط عهد السلطان أبى سعيد ، فهو بهذا يكمل السلسلة التى بدأها عطا ملك الجوينى فى كتابه « تاريخ جهانگشاى » . وتزداد أهمية هذا الكتاب اذا عرفنا أنه يتحدث عن فترة تبلغ سبعين عاما من حكم المغول فى ايران ، بقلم أحد المعاصرين لهذا العهد ، بقلم واحد من الموظفين فى دولة المغول .

كما يمتاز كتاب الوصاف فى كون صاحبه التزم جانب الحياد والدقة والواقعية فى ايراد أخباره وتسجيل أحداثه ، ورغم قيامه بالخدمة فى بلاط المغول ، فانه لم يتملقهم ولم يمدحهم بما ليس فيهم . بل نراه ينقدهم نقدا لاذعا ويرى فيهم قوما طغاة سفاكين للدماء ، داعيا الله أن يخلص الأمة الاسلامية من شرورهم . وقد ظهر هذا الشعور بوضوح حينما أخذ الوصاف يشرح أحوال ملوك فصر من الأيوبيين والمماليك ، ويصف الحروب التى اشتبكوا فيها مع المغول ، تلك الحروب التى أسفرت عن نصر ستاحق للمماليك واندحار تام للمغول (١) .

ولكنه رغم تلك الميزات فقد أقرط الوصاف فى الصنعة ، واشتط فى التكلف ، وجشد كتابه بالكثير من أبيات الشعر وآيات القرآن الكريم واقتباسات من عبارات البلاغة والفصحاء ، مما أصاب كتابه بالغموض وصعوبة الفهم . يقال انه حينما مثل مؤلف هذا الكتاب بين يدى السلطان أوجلايتو ، وقرأ عليه بضع صفحات من كتابه بصوت مرتفع ، عجز السلطان عن فهم (٢) معانيها .

ورغم هذا فقد حقق هذا الكتاب شهرة كبيرة ، ونال اعجاب وتقدير أهل العلم والأدب ونقل عنه الكثيرون من المؤرخين ، ومن بينهم المؤرخ خواندمير فى كتابه دستور الوزراء ، وكان يصرح بذلك أحيانا فى ثنايا هذا الكتاب . يقول مثلا :

« وباعتبار صاحب تاريخ وصاف در عرض چهار روز . . . »

وتلك المصادر التى عرفنا بها ، والتى اعتمد مؤرخنا عليها أساسا ، تعتبر من أمهات الكتب فى التاريخ والأدب التى لا جدال حول الاقرار بدقتها وصدق روايتها ، سواء فى عصر مؤلفيها أو فى عصر خواندمير أو فى عصرنا نحن الآن .

(١) انظر تاريخ الوصاف ، ص ٨٥ - ٩٠ بمباى ١٢٦٩ هـ - ١٨٥٣ م .

(٢) براون ، التاريخ الادبى لايران ج٣ ص ٧٨ ، الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـش

وقد رجع خواندمير كذلك الى مصادر أخرى كثيرة ، ولكنه لم يذكرها كثيرا رغم أهميتها ، من بينها كتاب « الفرج بعد الشدة » للتنوخى (ت ٣٨٤ هـ) الذى ترجمه الى الفارسية عام ٦٢٠ هـ المؤرخ محمد عوفى صاحب « لباب الألباب » ، وكتاب « نفثة المصدور فى صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور » لآنو شيروان ابن خالد ، وكتاب « تاريخ الطبرى » لمحمد بن جرير الطبرى ، وكتاب « سياستنا مه » لنظام الملك ، وكذا مؤلفات الامام الغزالى والفيلسوف ابن سينا وغيرهم .

وهكذا يتضح لنا مدى توفيق خواندمير فى اختيار مصادره ، حيث كانت من أهم المصادر واثقها رواية . هذا بالاضافة الى الأخبار التى سمعها من المعاصرين له ، أو التى شاهدها ولمسها بنفسه ، والتى تتركز فى الفترة التى عاصرها والتى جاءت كتاباته عنها أفضل وأدق ما جاء بكتابه نظرا لعدم وجودها فى مصادر أخرى .

قيمة دستور الوزراء :

من أجل بيان قيمة دستور الوزراء سوف نستقى استنتاجاتنا من ثانيا الكتاب نفسه فمن خلال الكتب التى وضعت خصيصا عن الوزراء ، وتيسر الاطلاع عليها ، وكذا بالاستعانة بأقوال المتخصصين حول دستور الوزراء .

وقيمة دستور الوزراء تبدو فى أمور عديدة أهمها :

١ - يعتبر دستور الوزراء أول موسوعة تاريخية خصصها مؤرخ اسلامى لترجمة أحوال الوزراء بعد الاسلام وحتى نهاية العصر التيمورى - ظهرت فى ايران - باللغة الفارسية . اذ أنها جاءت شاملة لأحوال أكبر عدد من الوزراء عرفناه فى كتاب واحد - حسب ما وصل اليه علمى - وفاقت بذلك كتاب « آثار الوزراء » للعقيل الذى وضع قبله (١) والذى يقال ان مؤلفه نقله كله (٢) كلمة عن كتاب « نسائم الأسحار ولطائف الأخبار » المجهول المؤلف . هذا اذا طرحنا جانبا الأخبار المتفرقة عن الوزراء فى الموسوعات التاريخية الكبيرة ، وغيرها من الكتب التى ظهرت قبل دستور الوزراء .

٢ - لم يستخدم مؤلف دستور الوزراء طريقة التطويل وإيراد الحكايات المنقولة المملة - كما فعل مؤلف آثار الوزراء وغيره - ولكنه كان يقرأ مصادره جيدا ويقارن بينها ويستخلص منها ما اتفق عليه معظم المؤرخين ، ثم يورده فى عرض جامع مانع فى كتابه فكان يردد كثيرا قوله : « نزد ناظمين جواهر أخبار بصحت بيوسته كه » ، « القصه باتفاق مورخان سخندان » ، وبحسب انفاق هم در آن اوقات . . » وما شابهها من عبارات .

(١) ولكن لم يقدر لكتاب « آثار الوزراء » النشر الا بعد نشر « دستور الوزراء » بعشرين سنة أى نشر فى عام ١٣٣٧ هـ شى بايران .

(٢) كتاب « آثار الوزراء » عقيل - مقدمة المصحح ص (ب) طهران ١٣٣٧ هـ شى .

وبهذه الطريقة قدم خواندمير خدمةً جليةً لقارئه بأن وفر عليه جهد قراءة كل هذه الأخبار - الغث منها والسمين - ووضح خلاصتها امامه وانيه شاميه .

٣ - رغم طريقة العرض السابقة التي انتهجها خواندمير الا انه كمؤرخ واع - توفرت له كل المفومات التي يجب ان تتوفر فيمن يتصدى للكتابة التاريخية - لم يفته الحديث بتوسع عن الشخصيات الدبيرة التي دأب بها دخل كبير في تسيير دفة الأمور في عصرها ، فنراه يفيض الحديث - مثلاً - عن أسرة البرامكة وعلو شأنها وأسباب نكبتها ، وعن أسرة بني سهل التي جمعها في العصر العباسي ، وكذا يفيض الحديث عن الوزير نظام الملك واعقابه في العصر السلجوقي ، وعن أسرة اجوينيين وعن الوزير رشيد الدين فضل الله وابنه الوزير غياث الدين في العصر المغولي ، وعن الوزير مجد الدين محمد وموام الدين نظام الملك الخوافي في العصر التيموري . كما ضمن خواندمير كتابه هذا حديثاً مستفيضاً عن الفيلسوف الحكيم الوزير ابن سينا - باعتبار انه كان قد تولى الوزارة فترة من الوقت - تحدث فيه عن جوانب شخصية ابن سينا المختلفة ومواهبه المتعددة ، ومكانته في عصره ومؤلفاته . وكانت هذه الأحاديث المستفيضة من أفضل ما كتب عن هؤلاء بل ان بعضها لم نشهده الا في دستور الوزراء مثل ما كتب عن الوزير قوام الدين نظام الملك (١) الخوافي ، وتلك ميزة عظيمة انفرد بها دستور الوزراء .

٤ - من ميزات دستور الوزراء أيضاً أنه حفظ لنا أسماء بعض الكتب التي اطلع عليها مؤلفه واستفاد منها في عصره ولكنها لم تصل الى أيدينا ولولاه لما عرفت ، يقول الاستاذ سعيد نفيسي :

« وجون باره اي ازين كتابها كه نام می برد یعنی جامع التاريخ جلالی وجامع الحکایات والتواریخ جلالی وملك نامه بدست نیست آكرهم باشند معروف نیست ازین حيث نیز این كتاب فوایدی وارد (٢) » .

وترجمتها : « ولما كانت بعض الكتب التي ذكر أسماءها أي كتاب « جامع التاريخ جلالی » ، وكتاب « جامع الحکایات والتواریخ جلالی » وكتاب « ملك نامه » ليست بين أيدينا - واذا كانت موجودة فانها غير معروفة - ولهذا السبب تكمن فائدة هذا الكتاب أيضاً » .

٥ - لقد تتلمذ خواندمير على يد جده لأمه المؤرخ الكبير ميرخواند وبلغ خبر نبوغه مسامع الأمير عليشير نوائي فقدمه اليه ووضع مكتبته الخاصة بين يديه . فانكب خواندمير على قراءة ما بها من كتب السابقين واللاحقين واستوعبها وأخرج

(١) رهو من وزراء السلطان حسين بايقرا ، وترجمة احوال وزراء ذلك السلطان في دستور الوزراء لا مثيل لها عند الآخرين .

(٢) كتاب « دستور الوزراء » خواندمير - مقدمة سعيد نفيسي ص (خ) .

مؤلفه « خلاصة الأخبار » الذي لقي إعجاب الأمير وتقديره . فإذا كان الأمير عليشير - المشهود بفضلته وعلمه - قد أعجب بكفاءة خواندمير وقدرته على تأليف ذلك الكتاب ، فكيف يكون تقديرنا نحن خواندمير على تأليف « دستور الوزراء » الذي وضعه بعد تأليف ذلك الكتاب ؟

لا شك أن خواندمير قد استفاد كثيرا من قراءاته بمكتبة الأمير عليشير وبما كانت تحويه من كتب نادرة ووثائق ، كما اكتسب خبرة كبيرة بالتأليف بعد أن طرق هذا الباب مرتين قبل اقدمه على تأليف دستور الوزراء . ومن هنا جاء الكتاب نتاج ثقافة واسعة وخبرة كافية .

٦ - لقد استقى خواندمير معلوماته - عن وزراء العصر التيموري - من أفواه الأفاضل والعلماء والأصدقاء المقربين ، كما استقاها من مشاهداته الشخصية ومعارفه المكتسبة خلال عمله في بلاط الأمراء والسلطين التيموريين . ونلاحظ أنه لم يستعن مطلقا بأى مصدر مكتوب منذ أن بدأ الحديث عن وزراء العصر التيموري اللهم الا مرة واحدة استعان بروضة (١) الصفا عند حديثه عن الوزير غياث الدين اندخودى . فنراه يردد - خلال حديثه عنهم - مثل هذه العبارات :

« بيان اين سخن آنست كه » ، « زبان بآداى اين سخنان بكشاد كه » ، « وفى الواقع » ، « از عزيزى صادق القول استماع افتاده كه » ، « جنان استماع افتاده كه » ، « جنان استماع افتاد والعهد على الراوى كه » ، « راقم اين كلمات دليلد از لفظ كوهر بار آن أمير (٢) صافى ضمير جنين استماع نموده كه » ، « ممكن » .

وبعد أن عرفنا أن خواندمير قد استقى أخباره عن وزراء العصر التيموري من أفواه الأصدقاء من الفضلاء والعظماء أمثال الأمير العظيم على شيرنوائى . وبعد أن عرفنا أنه عاصر فترة سلطنة السلطان حسين ميرزا بايقرا وأعقبه حتى انتهاء الدولة التيمورية فى إيران ، يمكن لنا القول بأن أفضل وأدق ما سجله لنا خواندمير فى كتابه « دستور الوزراء » كان الجزء الخاص بوزراء العصر التيموري عامة وبوزراء عصر السلطان حسين ميرزا وأعقبه خاصة ، والذي لم يسبق تسجيل معظمه قبل دستور الوزراء ، وهذه ميزة كبرى لدستور الوزراء . يقول الأستاذ سعيد نفيسى :

« مهم ترين جنبه اين كتاب اينست كه درباره وزراى عصر خود يعنى وزراى تيموريان ومخصوصا وزراى سلطان حسين مطالب تازه ودقيق كه در كتابهاى ديكر نيست بسيار فراوان (٣) است » .

(١) دستور الوزراء/خواندمير - ص ٣٥٧ .

(٢) يقصد الامير نظام الدين عليشير نوائى .

(٣) كتاب « دستور الوزراء » - خواندمير - مقدمة سعيد نفيسى ص (خ) .

وترجمتها : « وأهم جوانب هذا الكتاب المعلومات الكثيرة - الجديدة والدقيقة - عن وزراء عصره - أي وزراء الدولة التيمورية - وخاصة وزراء السلطان حسين والتي لا توجد في الكتب الأخرى » .

٧ - نظرا للثقة الكاملة في كتاب « دستور الوزراء » والاعجاب بفكرته ومضمونه . فقد حظي بمكانة فائقة بين جمهور الفضلاء سواء في عصر المؤلف أو بعد عصره ، ففي عصر المؤلف لم يكتف المؤلفون بالاستفادة من الكتاب بل وضعوا كتباً كذلك تحمل نفس الاسم ، وفيما يلي أسماء هذه الكتب - حسب ما وصل إليه علمي - وأسماء أصحابها وتواريخ تأليفها (١) :

١ - **دستور الوزراء** : وضعه بالفارسية شيخ عالم وقدمه لابراهيم باشا في العشرين من شهر شعبان عام ٩٤٠ هـ ، وهذا الكتاب يشتمل على أربعة أبواب .

٢ - **دستور الوزراء** : وضعه بالتركية علاء بن محيي الدين الشيرازي ، وقدمه لمصطفى باشا وزير السلطان سليم الثاني في عام ٩٦٦ هـ .

٣ - **دستور الوزراء** : وضعه بالفارسية سلطان حسين واعظ استرآبادي في عهد السلطان عباس الصفوي الثاني تقريبا ، ويرجح أن يكون هذا الكتاب قد وضعه صاحبه ما بين سنوات ١٠٥٥ - ١٠٦٤ هـ .

ولكن لم يتيسر لي الاطلاع الا على الكتاب الأخير من هذه الكتب الثلاثة ، وهذا الكتاب صححه وحققه السيد/اسماعيل واعظ جوادى ، وتم نشره في ايران عام ١٣٤٥ هـ ش ، والكتاب غير مقسم الى أبواب وفصول ولكنه يشتمل على :

مقدمة المصحح ثم مقدمة المؤلف ، والأخيرة في مدح السلطان ، وبيان مدى الحاجة الى الوزير . ثم يبدأ نص الكتاب بعد ذلك ابتداء من الصحيفة رقم ٢٢ حتى الصحيفة رقم ٦٤ من الكتاب . ويشمل هذا النص بعض الحكايات واللطائف التي تدور أحداثها بين بعض الخلفاء وأئمة الشيعة ، وبين بعض الوزراء موضحا المؤلف أخلاق السلاطين والوزراء . وقد أشار مصحح هذا الكتاب ، وأرجع بعض أخباره الى دستور الوزراء/خواندمير ، بل نقل عنه بعض الأخبار وتكررت تلك الاشارات - على اختلاف أنواعها - ثلاثا وعشرين مرة رغم صغر حجم الكتاب . وهنا تتضح أهمية كتاب خواندمير خاصة اذا عرفنا أن نفس المصحح قد اعتمد على كتاب « نكارستان » - الكتاب الذي يلي دستور الوزراء/خواندمير من هذه الناحية - أربع مرات فقط .

ونضرب مثلا على تأثير مؤلف « دستور الوزراء/استرآبادي » بكتاب

(٢) انظر ، كتاب دستور الوزراء - استرآبادي ، طهران ١٣٤٥ هـ ش ، ص ٧ - ٩ .

«دستور الوزراء/خواندمیر» ، وهو نص تعلیق مصحح الكتاب (۱) الأول حيث يقول : « این قسمت خلاصه ای است از تفصیلی که خواندمیر در ص ۲۸۴ تا ص ۲۹۵ دستور الوزراء آورده است کیفیت توطنه علیه خواجه شمس الدین وشهادتش را در آن صفحات آورده است ، واصل منبع روایت نیز جامع التواریخ خواجه رشید الدین فضل الله است که در سنه ۷۰۴ تألیف شده است » .

وترجمتها : « وهذا الجزء عبارة عن خلاصة التفصيل الذي آورده خواندمیر فی کتابه « دستور الوزراء » من ص ۲۸۴ الى ۲۹۵ عن كيفية التآمر ضد الوزير شمس الدین (۲) واستشهاده ومنبع الرواية الأصلي هو كتاب « جامع التواریخ » لخواجه رشید الدین فضل الله الذي ألفه عام ۷۰۴ هـ .

ورغم أن كتاب آثار الوزراء ، تألیف سیف الدین حاجی بن نظام عقیل سابق فی التألیف علی کتاب دستور الوزراء ، الا أن الكتاب الآخر ، كان أقیم وأفضل وأكثر احاطة وتفصيلا فيما يتعلق بسیر الوزراء ، وسرد أحوالهم ، والكشف عن الدور الذي لعبوه فی تسیر دفة الامور فی عهدهم . يقول الاستاذ سعید نفیسی (۳) :

« در میان مورخان اسلامی همواره نوشتن کتابهایی که منحصر در احوال وزیران باشد از آغاز تمدن اسلام معمول بوده است و باره ای از آنها اینک در مبان هست و معروفست از آن جمله است کتاب الوزراء والکتاب تألیف أبو عبد الله محمد بن عبدوس جهشیاری و کتاب تحفة الأمراء فی تاریخ الوزراء تألیف أبو الحسن هلال بن محسن بن ابراهیم صابیء کاتب و کتاب منیه الفضلاء فی تواریخ الخلفاء والوزراء معروف بالفخری تألیف محمد بن علی بن طباطبا معروف بابن الطقطقی که آز - هندوشاه بن سنجر بن عبد الله صاحبی کیرانی نخجوانی بنام تجارب السلف ، با اضافاتی بفارسی در سال ۶۲۴ ترجمه کرده است و کتاب آثار الوزراء بفارسی تألیف سیف الدین حاجی بن نظام عقیل که آنرا بنام قوام الدین نظام الملك خوانی وزیر سلطان حسین بایقرا که احوال او در همین کتاب آمده است چند سالی پیش از دستور الوزراء تألیف کرده است . از این کتابهای چند بجز آثار الوزرای عقیل همه جاب شده و معروفست و جای آن داشت که پیش از دستور الوزراء آنرا جاب کنم و بخوانند کان بدهم ولی چون این کتاب حمایه تر و کامل تر از آن بود با همه فوایدی که آثار الوزرای عقیل دارد و از حیث اعتبار ودقت برین کتاب برتری دارد این کتابرا مقدم شمردم زیرا که بس از آن تألیف شده و احوال وزرای دگرراهم که بس از تألیف آثار

(۱) دستور الوزراء/استرابادی ص ۴۵ حاشیه رقم (۱) .

(۲) المقصود صاحب الدیوان شمس الدین محمد الجوینی .

(۳) دستور الوزراء ، خواندمیر ، ص (ح) من المقدمة بقلم سعید نفیسی طهران ۱۳۱۷ هـ ش

الوزراء بوده اند دارد . ناجار این کتاب را مقدم شمردم وامیدوارم در همین نزدیکی ها آثار اوزراء رانیز که درای مطالب تازه مهم است بدست خوانند کان بسبارم » .

وترجمتها : « كان من المعمول به دائما بين المؤرخين المسلمين ، منذ بداية التمدن الاسلامي ، قيامهم بوضع كتب تنحصر مادتها في الحديث عن احوال الوزراء ، بعضها يوجد بين أيدينا ومعروف لنا . ومن تلك الكتب كتاب « الوزراء والكتاب » ، تأليف أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، وكتاب « تحفة الامراء في تاريخ اورراء » تأليف ابى الحسن هلال بن محسن بن ابراهيم البصابىء الكاتب ، وكتاب « منية الفضلاء في نوايخ الخلفاء والوزراء » ، المعروف بالفخرى ، تأليف محمد بن على بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقى ، والذي نقله من العربية الى الفارسية عام ٦٢٤ هـ هندوشاه بن سنجر بن عبد الله صاحبى كيراني النخجوانى ، مع بعض الاضافات وذلك تحت عنوان « تجارب السلف » ، وكتاب « آثار الوزراء » باللغة الفارسية ، تأليف سيف الدين حاجى بن نظام العقيلى ، وضعه قبل بضعة سنوات من دستور الوزراء باسم قوام الدين نظام الملك الخوافى ، وزير السلطان حسين بايقرا ، والذي وردت أخباره فى نفس الكتاب .

وقد طبعت كل هذه الكتب ماعدا كتاب « آثار الوزراء » للعقيلى ، وانتشرت تلك الكتب واحتلت مكانها بين الدارسين وذلك قبل أن أطبع دستور الوزراء وأقدمه للقراء . ولكنه نظرا لأن هذا الكتاب اشمل منه واكمل فقد قدمت طبعه - رغم ما لكتاب آثار الوزراء عقيلى من فوائد كثيرة وما يمتاز به على هذا الكتاب من حيث الأهمية والدقة - وذلك لأن دستور الوزراء تم تأليفه بعد ذلك الكتاب ويتضمن شرحا لاحوال الوزراء الآخرين الذين جاءوا بعد تأليف آثار الوزراء . وهكذا فقد قدمت طبع هذا الكتاب مضطرا ، وآمل فى المستقبل القريب أن أضع أيضا كتاب آثار الوزراء - الذى يضم أمورا جديدة وهامة - بين أيدي القراء -

ويشاء القدر ألا يستطيع الأستاذ سعيد نفيسى نشر كتاب « آثار الوزراء » وانما يقوم بنشره وتصحيحه محقق آخر هو الأستاذ مير جلال الدين حسيني ارموى محدث ، وذلك فى طهران عام ١٣٣٧ هـ ش .

ونظرا لضعف التأليف فى بعض موضوعات هذا الكتاب ، واضطراب الروايات فيها واقتضاها وغموضها ، لم يجد مصحح الكتاب مفرا من الرجوع الى كتاب دستور الوزراء ليجد فيه ضالته المنشودة . وكان واحدا من بين أهم الكتب التى اعتمد عليها فى تصحيح روايات كتاب « آثار الوزراء » ، وتوضيح ما غمض منها .

وقد نبه المصحح الى هذه الحقائق وصرح بذلك أكثر من عشر مرات فى حواشى الكتاب ، ومن هنا تتضح أهمية دستور الوزراء خصوصا اذا عرفنا رأى

ذلك المصحح في « آثار الوزراء » ومؤلفه اذ يقول معلقا على بعض الملاحظات :
 « از ملاحظه این مورد وموارد بسیار دیگر از این قبیل که تکرارلد بانها مطلع
 شده است معلوم میشود که مؤلف چند ان بضاعتی ند اشته ودقت وامانتی
 شایسته در تألیف این کتاب ، ونقل وتلخیص مطالب دیگران بکار نبرده (۱)
 است » ۴۰

وترجمتها : « هذا الموقف ومواقف كثيرة أخرى من هذا القيام - كان
 قد وقف المصحح عليها - يتضح بأن المؤلف لم تكن ثقافته واسعة ، كما أنه
 لم يتوخ الامانة الواجبة في تأليف هذا الكتاب او نقل اخبار الآخرين
 وتلخيصها » .

ونختار المثالين التاليين لتوضيح أهمية دستور الوزراء عند مصحح « آثار
 الوزراء » حيث يقول :

(أ) جون ترجمه این وزیر در نسخه این کتاب بسیار مشوش ومفلوط است . .
 از دستور الوزراء (ص ۳۴۵ - ۳۵۲) در اینجا یعنی در ذیل صفحه درج
 میکنیم (تاحدی ملخصا) وهی :

وترجمتها : « حيث ان ترجمة هذا الوزير (۲) جاءت مضطربة وخاطئة - الى
 حد كبير - في هذا الكتاب ، فاننا نذكر ترجمته هنا - أي في أسفل الصفحة -
 نقلا عن دستور الوزراء (ص ۳۴۵ - ۳۵۲) وذلك بشيء من الإيجاز وهی :

(ب) « با آنکه ترجمه این شخص در آثار الوزراء بطور مبسوط ذکر شده
 است . . . لیکن در دستور الوزراء ترجمه او بطور مبسوط مذکور ،
 ومطالب بسیار سود مندی را نیز مشتمل است از آغاز ترقی او تا زمان
 قتلش ، هر که طالب باشد رجوع کند بصفحة ۴۱۸ - ۴۳۲ » (۳) .

وترجمتها : « مع أن ترجمة هذا الشخص (۴) قد جاءت بشكل مفصل في
 « آثار الوزراء » ۴۰۰ الا أن ترجمته وردت مفصلة في دستور الوزراء ، واشتملت
 أيضا على جوانب مفيدة جدا عنه منذ بداية ارتقائه وحتى مقتله ، ومن يرد
 الاستزادة عليه أن يرجع الى الصفحات من ۴۱۸ حتى ۴۳۲ » .

كانت هذه بعض الجوانب التي وضحت من خلالها قيمة كتاب « دستور
 الوزراء » ، وذلك بخلاف الكتب الكثيرة والأبحاث التي أخذت عنه أو صححت

(۱) كتاب آثار الوزراء - عقيلي ، حاشية ، ص ۱۹۴ - طهران ۱۳۳۷ هـ ش .

(۲) يقصد ترجمة أحوال الوزير سيد فخر الدين محمد .

(۳) كتاب « آثار الوزراء »/عقيلي - ص ۳۶۱ حاشية رقم (۱) طهران ۱۳۳۷ هـ ش .

(۴) يقصد ترجمة أحوال الوزير قوام الدين نظام الملك الخوافي الذي قدم « آثار الوزراء »

ولسمه .

منه ، ويكفى هذا الكتاب فخرا أن مؤلفه هو مؤلف الموسوعة التاريخية المعروفة « حبيب السير في أخبار البشر » .

أسلوب خواندمير في دستور الوزراء :

استخدم خواندمير في كتابه هذا أسلوبا وسطا ، لا يرقى الى مستوى النثر الفني الذي كتب به الجويني ورشيد الدين فضل الله - من قبل - ولا يهبط الى مستوى النثر الركيك الذي كتب به الكثير من معاصريه من كتاب القرنين التاسع والعاشر الهجريين . ولقد تميز (١) النثر الفارسي خلال هذين القرنين وما بعدهما بالاغراق في المحسنات الابدعية من سجع وجناس وخلافه ، وخرج كثير من الكتاب عن الاهتمام بالمعنى الى الاهتمام باللفظ والتأنق فيه ، فجاءت كتاباتهم معقدة تحتاج الى وقت طويل لفهم مضمونها ، كما كثرت المترادفات واستعمال التشبيهات والاستعارات والأمنال السائرة والآيات القرآنية والاشعار الفارسية والعربية داخل الكتابة النثرية ، وتسبب ذلك في غلبة الكلمات والعبارات العربية على الكلمات الفارسية .

كما تميز النثر في العصر التيموري بالاطناب والتشبيب الذي لم يكن له وجود في العصر المغولي ، يقول ملك الشعراء بهار :

« نويستد كان اين دوره كاه در مقدمات كتب وخطب وفواتح فصول تشبيب هائي سبك قديم مينويستد كه از حيث سجع قدرى شباهت قديم دارد ولي از حيث جزالت وانسجام وساير استاديها در مرتباً دون قرار (٢) دارد » .

وترجمتها : « كان كتاب هذا العصر يوردون - أحيانا في بداية الكتب وأحيانا أخرى في بداية الفصول - أساليب التشبيب القديمة ، والتي تشبه الى حد كبير الأسلوب القديم من ناحية السجع ولكنها كانت دونه من ناحية الانسجام والجمال » .

وبالنظر الى أسلوب خواندمير في دستور الوزراء فاننا نجده قد اتخذ لنفسه أسلوبا وسطا فهو لم يغرق كتاباته في المحسنات اللفظية وغيرها ، كما أنه لم يستعمل الأسلوب السلس الخالي من المحسنات والمترادفات وغيرها . وقد استعمل خواندمير في بداية كتابه طريقة التشبيب القديمة ، فبعد أن حمد الله وتحدث عن قدرته في الصفحة الأولى ، ومدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصلى عليه في الصفحة الثانية ، وأوضح أهمية الوزير والحاجة اليه - بالنسبة للأنبياء والسلاطين - في الصفحتين الثالثة والرابعة ، ذكر خواندمير اسم

(١) كتاب « حبيب السير » - خواندمير - مقدمة جلال همائي ص ٣٨ طهران .

(٢) كتاب « سبك شناسي » - تأليف محمد تقى بهار - المجلد الثالث ص ٢٠٨ طهران .

السلطان في الصفحة الخامسة ومدحه وذكر اسم الوزير في الصفحة السادسة وأشاد به ، وأما اسمه فقد ذكره في الصفحة السابعة .

ولكن نرى أن هذه كانت عادة منتشرة شائعة في عصر خواندمير لم يكن يستطيع أن يخرج عليها ما دامت سارية . ولكننا يمكن لنا أن نقول بأنه قد ارتقى بأسلوب عصره في معظم أجزاء كتابه واقترب به من أسلوب العصر السابق ، وكان حينما يستعمل المحسنات اللفظية أو الأفعال الوصفية ، يستعملها في مهارة وابداع وليس في تكلف واصطناع فيقول مثلا عند حديثه عن واقعة مقتل درويش أحمد قابض :

« ودر زی حجه سنه اثنی عشر وتسعمائه در شبی که آن بد اختر درخاذه امیر یوسف علی کوکلتاش که از قبل مظفر حسین میرزا حاکم هراة بود ، بشرب خمر اقدام من نمود ، میان او وبرادر مشار الیه ترخانی بیک مباحثه واقع شدو آن جوانمرد حسام خون آشام از نیام انتقام بیرون کشیده ، بیک ضربت روح خبیث اورا بصدر جهنم رسانید ، وعالمی را از شرارت نفس شومش رهانید . صباح روز دیگر که این خبر بهجت اثر مشهور کشت عهده فرح وانبساط اهالی شهر هراة از اوج سموات در گذشت وهر دو کس که بیک دیگری رسیدند مانند آیام عید مراسم تهنیت ومبارکباد بجای من آوردند وهر جماعت که یک جا می نشستند از ظلم و بیداد آن بد نهاد یاد نموده ، هزار لعنت بروح بلید او می کردند » (۱) .

وقد استعمل هذا الأسلوب الوسط - غير خواندمير - أمثاله من كبار الكتاب مثل عبد الرزاق بن اسحق نور الدين عبد الرحمن الجامي وكاشفي وحافظ آبرو وميرخواند الذين تأثروا بأسلوب رشيد الدين فضل الله الذي سبق له التأثير بأسلوب عطا ملك (۲) الجويني . وقد استعمل خواندمير أيضا في أسلوبه بعض الكلمات المغولية والتركية مثل كلمات « سيور غاميشي » بمعنى الدلال أو الملاطفة ، « سيورغال » بمعنى أملاك السلطان ، « طوي » بمعنى حفل ، « نويان » بمعنى « أمير » « قوريلتاي » بمعنى مجمع كبير وغيرها من الكلمات المغولية . ومن الكلمات التركية استعمل مثلا كلمات :

« آق » بمعنى اللون الأبيض ، « ايلاق أو ييلاق » بمعنى مصيف ، « باريشميشي » بمعنى الصلح والاتفاق ، « قوشون » بمعنى فرقة من الجيش وغيرها .

وعموما فان أسلوب خواندمير جاء أفضل بكثير من الأسلوب الشائع في

(۱) أنظر ترجمة « دستور الوزراء » خواندمير في القسم الثاني من ٤٥٦ (من الكتاب الأصلي) .

(۲) أنظر سبك شناسي/بهار - المجلد الثالث من ١٩٩ طهران .

عصره كما جاء مقبولا محببا مفهوما لمن يقرأونه جيدا الآن ، وظل خواندمير يمسك - في كتابه - بزمام خبره وموضوعه كل الوقت حتى أخرجه في النهاية في صورة تفيض بالحياة والتدفق دون ما خلل أو ملل .

خصائص خواندمير من دستور الوزراء :

تتضح خصائص خواندمير - من خلال كتابه دستور الوزراء - في أمور عدة - ميزته كمؤرخ عظيم - أهمها أربعة أمور هي :

١ - حسن اختياره لمصادره :

فكما ذكرنا استطاع خواندمير أن ينتقى أفضل المصادر وأدقها ، ويتحدث عن كل فترة من واقع أمهات مصادرها ، فمثلا جعل الأساس في حديثه عن العصرين الأموي والعباسي كتاب « جامع الحكايات ولوامع الروايات » لعوفى و « الفرج بعد الشدة » للتنوخى ، وعن العصر السلجوقي مؤلفات الوزير نظام الملك وكتاب « نفثة المصدور » لأنو شيروان خالده ، وعن العصر المغولى كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله وكتاب « تاريخ كزنده » لحمد الله المستوفى القزوينى و « تاريخ وصاف » لوصاف الحضرة ، وعن العصر التيمورى أقوال الفضلاء والمبرزين وكذا مشاهداته وتجاربته الشخصية .

وبذلك سلك خواندمير الأسلوب العلمى الصحيح فى تأليف كتابه دستور الوزراء باستخدامه كل أدوات المؤرخ الناجح .

٢ - تلخيصه الخبر :

سلك خواندمير مسلكا مميزا عن كثير من مؤرخى الفرس الاسلاميين ، وهو قيامه بالاطلاع على مصادره واستيعابها ، ونقله الخلاصة التى اجتمع عليها غالبية المؤرخين حول الموضوع الذى يتناوله ، وذلك دون ما خلل بالمعنى أو نقص فى المطالب الأساسية فجاء كتابه موسوعة مختصرة جامعة .

٣ - نقده لرجائه ووضوح شخصيته :

لم يورد خواندمير الأخبار ويسجلها ويتركها على علاقتها ، بل كانت شخصيته واضحة بارزة طول الوقت ، عبر عنها بشكل غير مباشر أحيانا ، وأحيانا أخرى كان يورد رأيه صراحة وبشجاعة ، وذلك كلما يقتضى الموقف وحينما يسمح المجال . فنراه مثلا بعد أن عدد أسباب نكبة البرامكة قد أورد قولاً لأحد الكتاب أن دل على شيء فانما يدل على طغيان البرامكة واسرافهم . يقول خواندمير :

« از غرائب وقایع که مورخان در مصنفات خویش آورده اند اینست که شخصی از نویسندگان کویده که : دفتر اخراجات هرون الرشید روزی بنظر من رسید ، در ورقی نوشته دیدم که : در فلان روز بفرمان خلیفه برسبیل انعام

جندی زر وسیم کسوت وفرش وعطر جندی تسلیم أبو الفضل جعفر بن یحیی
 ادام الله کرامته کرده شد وجون آنها را برهم گرفتیم سی هزار هزار درم بود ،
 ودرورقی دیگر مشاهده نمودم که بهای نفت وبوریا که جعفر بن یحیی را بآن
 سوختند چهار در ونیم دانک نوشته بود فاعتبروا (۱) یا أولى الابصار » .

وترجمتها : « ومن أغرب الوقائع التي أوردها المؤرخون في مؤلفاتهم ما ذكر
 علي لسان أحد الكتاب والذي يقول : لقد وقع نظري ذات يوم على سجل مصروفات
 هرون الرشيد فرأيت مكتوبا في إحدى اصفحات أنه صرف في اليوم انفلاني
 - بأمر الخليفة - الكثير من الذهب والفضة والكساء والفرش والعمود - على سبيل
 الانعام - الى أبي الفضل جعفر بن يحيى - ادام الله كرامته - وبعد أن جمعتها
 وجدتها ثلاثين ألف ألف درهم ، كما شاهدت صفحة أخرى مكتوب فيها ان نمن
 الغاز والوقود الذي أحرقوا به جنة جعفر بن يحيى كانت قيمته أربعة دراهم
 ونصف ، فاعتبروا يا أولى الألباب » .

وهذا يوضح لنا أن خواندمیر لم يتردد في ابداء رأيه في البرامكة وأعلن
 رأيه صراحة وبشجاعة في أشهر أسرة - من بنی جنسه - تولى أفرادها الوزارة
 في الدولة العباسية ، ولو لم يدهش خواندمیر من شدة اسراف البرامكة
 وتجاوزهم الحدود ، لما أورد هذا القول على هذا النمط .

۴ - حیدته وتجرده من التعصب :

ان خواندمیر يظهر حیادا دقیقا ، يكشف عن تجرده من التعصب وبعده عن
 النظرة الضيقة ، وعلى الرغم من أنه يدين بمذهب التشيع ، نراه عندما كان
 مترجم للوزير مؤيد الدين بن العلقمي - الذي يدين بنفس المذهب - ويورد الاتهام
 الذي وجه اليه من أنه خان المستعصم ، وناصر عليه المغول ، راح يعلق في صراحة
 تامة على الموقف المخزي الذي وقفه هذا الوزير فيقول :

« پس سزاو ار روزگار ملازمان درگاه سلاطین کا مکار آنست که جبلت
 خود را از صفت مکر و حیلت پاک کرد اتند و از سمت کفران نعمت اجتناب نموده،
 از غدر و خیانت احتراز واجب و لازم دانند ، تا در دنیا معاتب و در عقبی معاقب
 نگردند » لئن شکرتم لأزیدنکم ولئن کفرتم ان عذابی لشدید « بیت :

هر آن شرکه آید ز نوع بشر زکفران نعمت نباشد بتر
 بکفر ان نعمت دلیری مکن که بینی مضرت ز جرخ کهن (۲)

وترجمتها : « وبعد .. فيلزم على كل من يعملون في بلاط الحكام ، أن
 يظهرُوا أنفسهم من صفات المكر والحديعة ، ويتعدوا بها عن سمات تکران الجمیل .

(۱) کتاب « دستور الوزراء »/خواندمیر - ص ۵۳ ، ۵۴ .

(۲) دستور الوزراء/خواندمیر ص ۱۰۶ طهران ۱۳۱۷ هـ ش .

كما يجب عليهم أن يعلموا أن الاحتراز من ارتكاب أعمال الغدر والخيانة لأمر واجب ، وذلك حتى لا يعاتبوا في الدنيا ولا يعاقبوا في الآخرة ، مهتدين بقوله تعالى : « لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد (١) » .

(بيتان فارسيان ، ترجمتهما) :

– كل شر يصدر من البشر

، لا يكون أسوأ من الكفر بالنعمة

– فلا تقدم على الكفر بالنعمة

، لأنك ترى هكذا – من الزمن مضاره

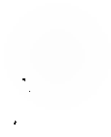
كما نلاحظ أن خواندمير قد أورد ترجمة وافية لأحوال معاصريه من وزراء السلطان حسين بايقرا وأوضح ما لهم وما عليهم ، مثنيا على مخدميه السلطان حسين بايقرا والسلطان بدیع الزمان ميرزا والأمين عيشير نوائي في ثنایا هذه الترجمات ، وذلك أثناء فترة من أقسى فترات حياته – أثناء علو واقدار محمد خان الشيباني عدو مخدميه هؤلاء – مبقيا على المقدمة التي كان قد وضعها لكتابه في النسخة الأولى باسم السلطان حسين بايقرا ووزيره كمال الدنيا والدين خواجه محمود. في النسخة الثانية التي أخرجها (٢) عام ٩١٥ هـ .

وهذه السمات التي تحدثنا عنها تبدو واضحة جلية في مواضع كثيرة من « دستور الوزراء » يدركها كل مدقق ومحقق ، وقد أوردنا فقط بما ذكرناه حولها أن نضرب أمثلة يمكن القياس عليها .

والآن نتقل الى القسم الثاني من البحث وهو ترجمة كتاب دستور الوزراء والتعليق عليه .

(١) سورة ابراهيم ، آية رقم ٧ .

(٢) كتاب « دستور الوزراء »/خواندمير – ص ٥ ، ٦ طهران ١٣١٧ هـ ش . ب



القسم الثاني

« ترجمة كتاب دستور الوزراء والتعليق عليه »

ويضم :

أولا - ترجمة مقدمة مصحح الكتاب وناشره الأستاذ/ سعيد نفيسي

ثانيا - ترجمة مقدمة صاحب الكتاب المؤرخ خوانلمير

ثالثا - ترجمة كاملة للكتاب

مقدمة

بقلم : سعيد نفيسى

يعتبر غياث الدين بن همام الدين المعروف والملقب (خواندامير) بتأليفه كتاب « حبيب السير » واحداً من أشهر كتاب الفرس في القرن العاشر الهجرى . لأن هذا الكتاب ربما يكون أوفى كتاب ألف للآن في تاريخ إيران حتى بداية الدولة الصفوية .

ورغم أن هذا الرجل كان من كتاب عصره المشهورين ، وعاش فترة طويلة في بلاط ملوك زمانه ، ونال عندهم مكانة عالية إلا أننا لانكاد نجد في كتبنا ما يلزم ويكفى عن أحواله ولهذا سوف نتحدث عنه بإيجاز .

خواجه غياث الدين المعروف والملقب بخواندامير (أوخوندمير أوخواندمير أوخوندامير) هو ابن خواجه همام الدين بن خواجه جلال الدين بن خواجه برهان الدين محمد الشيرازى « ومن ناحية والدته فهو حفيد ميرخواند محمد بن أمير برهان الدين خاوندشاه بن شاه كمال الدين محمود البلخى مؤلف « روضة الصفا » المشهور (توفى عن ٦٦ سنة فى الثانى من ذى القعدة سنة ٩٠٣ هـ) الذى كان من سادات ماوراء النهر المعروفين ومن كبار عائلات بخارى التى يتصل نسبها بزيد بن على بن الحسين « وكان خاله نظام الدين سلطان أحمد الصدر أيضاً من رجالات القرن التاسع البارزين » واشتغل والد خوندمير خواجه همام الدين بضع سنوات وزيراً لسلطان محمود ملك سمرقند وعم ظهير الدين بابر .

وكان خوندمير يعيش مثل جده لأمه فى مدينة هراة . ويقال إنه ولد فى هراة

أيضاً حوالي سنة ٨٨٠ هـ ، كما أنه أمضى الجزء الأكبر من حياته في هراة ويقال إنه التحق في شبابه ببلاط السلطان حسين بايقرا الملقب بأبي الغازي والملك المشهور راعي العلوم في العائلة التيمورية . وقد ربطته علاقته وثيقة بالسلطان حسين ، وبالأمر نظام الدين عليشير الأمير المعظم وراعي الفنون في بلاطه ، وبالأمر التيموريين وخصوصاً بديع الزمان ميرزا الابن الأكبر لأبي الغازي السلطان حسين .

وبعد فترة اختص خوندميز بخدمة بديع الزمان ميرزا . ولذلك لم يكن موجوداً في البلاط أثناء وفاة السلطان حسين ميرزا في شهر ذي الحجة عام ٩١١ هـ ، بل كان في ركاب بديع الزمان ميرزا .

وفي ربيع عام ٩١٢ هـ عندما كان محمد خان الشيباني يتقدم في ماوراء النهر ، أخذ بديع الزمان ميرزا وأخوه مظفر حسين ميرزا - اللذان كانا شريكين في الملك - يدبران الأمر ليدخلا في حرب مع الشيباني ، وأمر خوندميز بأن يتوجه إلى قندهار يطلب من شاه بك أرغون - حاكم قندهار - النهوض لمساعدتهما . فأخذ خوندميز طريقه ، ووصل إلى هراة ، لكنه لم يستطع الوصول إلى قندهار لموت جوجك بيجوم ابنة بديع الزمان ميرزا وتقدم محمد خان الشيباني . كما أوفداه مرة أخرى رسولا لهما إلى خسرو شاه في كندز ، ولكنه لم يأت بشيء مرة أخرى . وفي النهاية قررا محاربة الشيباني والتقىا معه في معركة مجلودة في « مَرَل » ، وهرب فيها الأمراء التيموريون ، وقتل ذو النون أرغون أحد رجال البلاط التيموري . وفي شوال سنة ٩١٢ هـ توجه الشيباني صوب هراة . فبعث أهالي هراة خواندميز وابن أخيه عثمان - الذي كان يعمل محتسباً لمدينة هراة - إلى معسكر الشيباني لبحث شروط التسليم ، فتوجه ابن أخيه عثمان ، والتقى - رغم الإغارة عليه في الطريق - بالشيباني . وقد بقي خواندميز في هراة بعد سقوطها وأوضح في كتابه « حبيب السير » خيبة أمله هو وزملائه بسبب انتصار الأتراك .

وحينما قتل الشاه إسماعيل الصفوي الشيباني في عام ٩١٦ هـ ، وانتزع منه هراة ، كان خواندميز لا يزال في تلك المدينة - ولكنه في عام ٩٢٠ هـ كان يعيش معتكفاً في قرية پشت في غرجستان مشغولاً بالتأليف « ثم التحق بعد ذلك بخدمة

محمد زمان الابن الأكبر لخدمته السابق وقضى فترة في بلاطه ببلخ . وحينما فكر محمد زمان في أن يتوجه إلى قندهار ، استأذن منه خواندمير وعاد إلى قرية پشت و يبدو أنه بعد ذلك عاد مرة أخرى إلى هراة لأنه في أورا ط شهر شوال سنة ٩٣٣ هـ كان موجوداً في هراة ، ومنها اتجه إلى قندهار ولكنه لم يمكث كثيراً بقندهار ، وسافر إلى الهند في ١٠ جمادى الآخرة سنة ٩٣٤ هـ « وفي يوم السبت الرابع من المحرم سنة ٩٣٥ هـ انضم خواندمير إلى بلاط بابر في مدينة (أكره) . وفي عام ٩٣٥ هـ نفسه توجه بصحبة بابر إلى البنغال وسواحل نهر الكنج .

وبعد موت بابر سنة ٩٣٧ هـ التحق خواندمير ببلاط ابنه همايون . وفي ذلك الوقت ألف كتاباً عن هذا الملك بعنوان « قانون همايون أو همايون نامه » والمعروف أن وفاة خواندمير حدثت عام ٩٤١ هـ أثناء حرب همايون في كجرات ولكن « مؤلف تاريخ فرشته » يذكر أنه توفي عقب العودة من هذه الحرب بسبب الإسهال .

وكان خواندمير موجوداً في عام ٩٤٢ هـ أيضاً لأنه في هذا العام توفي شهاب الدين معالي الشاعر المشهور بصنع الألغاز في ذلك العصر ، والذي ذكر خواندمير المادة التاريخية لوفاته . . ولا بد أن يكون خواندمير قد توفي في أواخر عام ٩٤٢ هـ . وهكذا نرى المؤلف نفسه قد أورد دليلاً صافياً على رحيله في عام ٩٤٢ هـ وأوصى بدفنه في دلهي بناء على وصيته كان قد أوصى بها بجوار مزار نظام الدين أوليا والأمير خسرو الدهلوي وكان وقتها يبلغ من العمر حوالي اثنين وستين عاماً .

بلغ خواندمير مكانة عالية خلال وجوده في بلاط بابر بالهند كما يروى بابر نفسه في كتابه المعروف باسم « واقعات بابري » فيقول :

« في الثامن من شهر ربيع الأول سنة ٩٣٥ هـ أقيم حفل ملكي في حديقة غناء حضرها رسل البلاد وأمراء الأقطار من بينهم خواندمير المؤرخ ومؤلف كتاب حبيب السير ومولانا شهاب الدين معالي وميرزا إبراهيم القانوني الذين جاءوا من هراة ، ولم نجد شبيهاً ولا نظيراً لأحدهم في فنه . وفي ذلك اليوم بلغوا النورة ، ونالوا الخطوة وصاروا من المقربين » .

مؤلفات خواندميز

يمتاز خواندميز بين مؤرخي إيران بأنه كتب أكثر من الجميع باللغة الفارسية ، وبحسب ما وصل إليه علمي ، له بين أيدينا ستة كتب باللغة الفارسية نوضحها فيما يلي حسب ترتيب تأليفها :

١ - خلاصة الأخبار في أحوال الأخيار :

وهذا الكتاب عبارة عن موجز لتاريخ مناطق العالم ، وهي نفس المناطق التي ألف عنها بعد ذلك حبيب السير . . وقد بدأ تأليفه له عام ٩٠٤ هـ باسم الأمير عايشير نوائي وفرغ منه في عام ٩٠٥ هـ وكان أول مؤلفاته على ما يبدو .

٢ - دستور الوزراء :

وهو الكتاب الحالي الذي يشتمل على أحوال وزراء الإسلام حتى زمان المؤلف .

وقد ختمه أول مرة في عام ٩٠٦ هـ ، وأعاد النظر فيه مرة أخرى بعد عام ٩١٤ هـ ، وأضاف إليه معلومات أخرى جدت حتى ذلك الوقت ، ونشر النسخة الثانية .

٣ - مآثر الملوك :

وهو كتاب في أقوال الملوك وأئمة الدين والحكماء . كتبه باسم الأمير على شير نوائي . ومن هنا يتعين أن يكون قد تم تأليفه قبل عام ٩٠٦ هـ .

٤ - حبيب السير في أخبار أفراد البشر :

وهذا الكتاب أشهر مؤلفات خواندميز ، وأكثرها تفصيلاً . بدأ تأليفه في عام ٩٢٧ هـ ، وفرغ منه في عام ٩٣٠ هـ . ولكنه في أثناء إقامته بالهند ، أعاد فيه النظر مرة ثانية ، وأضاف إليه أموراً أخرى ونشر النسخة الثانية « وألف خواندميز هذا الكتاب لخواجة حبيب الله الساوجي وزير درویش خان حاكم هراة ، ولهذا السبب أسماه حبيب السير . والكتاب يشتمل على التاريخ العام للعالم منذ أقدم العصور حتى نهاية حكم الشاه إسماعيل الصفوي وخصوصاً الجزء الذي كتب فيه الأحداث المعاصرة له وهي عبارة عن تاريخ السلطان حسن بايقرأ وأبنائه والشاه إسماعيل وبابر

والشيعاني . وأخبار تلك الأحداث في غاية الأهمية ولا مثيل لها ، لأنها تميزت بالدقة البالغة لدرجة أنه لم يكن يورد شيئاً غير مؤيد بدليل أو سند .

٥ - آثار الملوك والأنبياء (١) :

ويبدو أن هذا الكتاب هو خلاصة كتاب حبيب السير نفسه ، وضعه خواندمير في عام ٩٣١ هـ بعد إتمام حبيب السير .

٦ - قانون همايون أو كتاب همايون :

وهذا الكتاب ألفه خواندمير في مناقب الملك همايون الذي سبق ذكره من قبل . « ويبدو أن هذا الكتاب هو آخر ما ألفه فقد كتبه بعد عام ٩٣٧ هـ .

ومن هذا يتضح أن خواندمير كان كاتباً مكثراً حيث شغل بالتأليف من عام ٩٠٤ هـ حتى عام ٩٣٧ هـ أي خلال مدة لا تقل عن ثلاث وثلاثين سنة .

وكان خواندمير أيضاً ينظم الشعر الفارسي . وقد بلغ في هذا الفن حد المتمكن . وكان يورد أشعاره أحياناً في مؤلفاته بمناسبة الموضوع الذي يتحدث عنه .

الأمير محمد بن خواندمير :

كان لخواندمير ابن يدعى الأمير محمود ، يبدو أنه رجع من الهند إلى إيران بعد وفاة والده ، أو لعله لم يذهب مع والده إلى الهند .. وعلى أية حال فإنه كان يعيش في إيران .. وليس لدينا معلومات عن أحواله سوى أنه ألف كتاباً عن تاريخ الشاه إسماعيل طهماسب بدأ تأليفه في عام ٩٥٠ هـ باسم محمد خان شرف الدين أغلي تكلو أحد أمراء البلاط الصفوي وانتهى منه عام ٩٥٧ هـ « ومن هذا الدليل يتضح أنه ظل على قيد الحياة خمسة عشر عاماً بعد وفاة والده » .

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الأول في البحث ، تحت عنوان « حبيب السير في أخبار أفراد

البشر » .

الكتاب الحالى

الكتاب الحالى أى دستور الوزراء كما أشير إليه من قبل هو من حيث الترتيب التاريخى المؤلف الثانى لخواندمير والذى ألفه فى البداية عام ٩٠٦ هـ فى هراة أثناء حياة الأمير على شرنوائى راعى العلم المعروف فى بلاط أبى الغازى السلطان حسين ، المتوفى عام ٩٠٦ هـ . . وقد ذكر فيه أحوال وزراء الإسلام حتى ذلك الوقت ثم أعاد النظر فيه مرة أخرى بعد زوال سلطنة أبى الغازى السلطان حسين بايقرا وأولاده ، وتسلم محمد خان الشيبانى على هراة وخراسان ، وأضاف إليه معلومات أخرى وأحدثا بعد عام ٩٠٦ هـ ونشر النسخة أو الرواية الثانية . ولهذا السبب توجد تحت أيدينا نسختان من هذا الكتاب « النسخة الأولى المؤلفة عام ٩٠٦ هـ ، والنسخة الثانية التى أضافت إليه شرحا لأحوال اثني عشر وزيرا آخرين » وفى ثلاثة مواضع منها أوردت ذكرنا لمحمد خان الشيبانى مقرونا بالألقاب « إمام الزمان وخليفة الرحمن أبى الفتح » وآخر تاريخ ورد فيها (ص ٤٥٣ من النص الحالى) هو عام ٩١٤ هـ «ومنه يتضح أنه تم وضع النسخة الثانية تلك بعد عام ٩١٤ هـ ، وقد فرغ منها قبل عام ٩١٦ هـ التى قتل فيها الشيبانى » ولكن لم تعبس يد بباقي أجزاء الكتاب « والروايتان تتفقان سويا قبل ذلك فى جميع المواضع » وكتبت الرواية الأولى باسم كمال الدين خواجه محمود وزير السلطان حسين بايقرا ، وظل اسمه كذلك فى الرواية الثانية موجودا كما هو .

لقد كان المعمول به دائما بين مؤرخى الإسلام وضع كتب تنحصر مادتها فى الحديث عن أحوال الوزراء منذ بداية الحضارة الإسلامية ، يوجد بعض منها بين

أيدينا ومعروف لنا مثل كتاب الوزراء تأليف أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، وكتاب تحفة الأمراء فى تاريخ انوزراء تأليف أبى الحسن هلال ابن محسن بن إبراهيم الصابى الكاتب ، وكتاب منية الفضلاء فى تواريخ الخلفاء والوزراء المعروف بالفخرى ، تأليف محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، والذى ترجمه إلى الفارسية هندوشاه بن سنجر بن عبد الله صاحبى كيرانى النخجوانى بعد أن أضاف عليه عام ٦٢٤ هـ بعنوان (تجارب السلف) « وكتاب آثار الوزراء باللغة الفارسية تأليف سيف الدين حاجى بن نظام عقيلى ، والذى ألفه قبل بضع سنوات من دستور الوزراء باسم قوام الدين نظام الملك الخوافى وزير السلطان حسين بايقرا الذى وردت أخباره فى هذا الكتاب » .

وطبعت كل هذه الكتب وهى معروفة ماعدا آثار (١) الوزراء للعقيلى وكان الواجب أن أظبعه قبل دستور الوزراء وأقدمه للقراء ، لكنه لما كان هذا الكتاب أشمل منه وأكمل ، برغم الفوائد التى يضمها كتاب آثار الوزراء للعقيلى الذى يفضل هذا الكتاب من حيث المكانة والدقة - فقد فضلت تقديم طبع هذا الكتاب لأنه ألّف بعد ذلك الكتاب ويضم أحوال الوزراء الآخرين الذين جاءوا بعد تأليف آثار الوزراء .. ومن ثم رأيت لزما على أن أقدم هذا الكتاب وآمل فى القريب العاجل أن أضع كتاب آثار الوزراء - الذى يحوى أمور جدّة وهامة - بين أيدي القراء أيضا .

وعموما فإن كتاب دستور الوزراء كتاب جامع لأحوال وزراء الإسلام منذ بداية الخلفاء إلى عصر المؤلف أى إلى زوال الدولة التيمورية وتولى الدولة الصفوية الحكيم ، وقد أضيف إليها ضمنا أحوال آصف بن برکما وبزرجمهر نقلا عن القصص والأساطير .

والأجزاء الأولى من الكتاب تتحدث عن أحوال الوزراء السابقين أى الذين كانوا قبل العصر التيمورى - وهى ليست دقيقة ومعتمدة إلى حد ما باستثناء ماورد ضمنها من شرح مفصل ودقيق لأحوال ابن سينا ونظام الملك وصاحب الديوان الجوينى ورشيد الدين فضل الله . ولكنه رغم هذا فقد تحمل خواندمير كثيرا من

(١) ثم نشره فى طهران عام ١٣٧٥ هـ . ش عن طريق جامعة طهران .

المتاعب في تأليف ذلك الكتاب وقد رجع - كما يذكر هو نفسه - إلى عديد من الكتب مثل تاريخ فخر بناكتي وتاريخ كزیده وتاريخ وصاف وجامع التاريخ وجامع التواريخ جلالی وجامع التواريخ رشیدی (ولا يعرف ما إذا كانت كل هذه الأسماء لكتاب واحد أم أسماء لعدة كتب مختلفة ، والمعروف بينها كتاب جامع التواريخ رشیدی تأليف رشید الدین فضل الله) وجامع الحكایات (والمقصود به جوامع الحكایات ولوامع الروایات لمحمد عوفی) وجامع الحكایات والتواريخ جلالی (الذى يبدو أنه نفس الكتاب جامع التواريخ جلالی السابق الذكر) ، وروضة الصفا والفرج بعد الشدة وملك نامه ووصایا نظام الملك . « وقد حققها وتبعها بقدر ما استطاع » ولما كانت بعض هذه الكتب التى ذكرت أسماؤها أى كتاب جامع التاريخ جلالی وجامع الحكایات والتواريخ جلالی ، وملك نامه ليس بين أيدينا ، وإن كانت موجودة فهى ليست معروفة ، ومن هنا فلهذا الكتاب أيضا فوائد .

وأهم جوانب هذا الكتاب أن به معلومات كثيرة ، جديدة ودقيقة ، عن وزراء عصره أى وزراء الدولة التيمورية ، وخاصة وزراء السلطان حسين مما ليس في الكتب الأخرى .

وفي الوقت الذى كنت فيه مشغولا بطبع هذا الكتاب فإن أمورا أخرى وضحت من أجل إصلاح نص الكتاب أو الإضافة إليه - كنت أجدها بكثرة في الكتب الأخرى التى كنت أرجع إليها أو كانت تعينها ذاكرتى - وحيث إنها كانت أحيانا تزيد عن صفحات ، كنت لا أكتبها في أسفل الصفحة نفسها ، وفضلت أن أتركها لأجمع عليها الحواشى والتعليقات في نهاية الكتاب . ولكنه حينما انتهى الكتاب وجدت أنها سوف تكون بضعة أمثال نص الكتاب ، ولذلك اضطررت إلى تركها .

وهذا الموضوع أصلا أى أحوال وزراء الإسلام وخصوصا إيران مفصل جدا ودقيق ، وجدير أن يهتم بها من جديد شخص صاحب دقة كاملة ، عارف بقواعد فن التأريخ ، قادر على تحقيق الأمور الهامة ، لا يقنع بواحد من هذه الكتب الحالية مطلقا . ولهذا السبب فإنى أنشر هذا الكتاب كما هو دون أن أدخل عليه إصلاحات أو إضافات .

وربما يأتي يوم أستطيع فيه أن أنظم المذكرات التي كنت قد جمعتها أثناء طبع هذا الكتاب ، وأضع منها كتاباً كاملاً عن تاريخ وزراء إيران في العصر الإسلامي » وباختصار هذا الكتاب دليل موجز للذين يريدون إلقاء نظرة إجمالية على أحوال وزراء الإسلام « ونظراً لأن الجزء الخاص فيه بوزراء الدولة التيمورية كتب كتابة طيبة . وبقي بالحاجة من جميع الجوانب فسوف يكون كسباً إلى حد ما . أما النسخ التي كانت أساس هذه الطبعة فهي عبارة عن نسختين خطيتين :

النسخة الأولى خاصة بصديقي العزيز العالم السيد / عباس إقبال والتي أرمز إليها في النص الحالي بحرف (ق) وهي ليست مؤرخة ، ولكن يتضح من شكل الخط والورق أنها كتبت في وقت لا يقل عن القرن الحادي عشر »

والنسخة الخطية الثانية خاصة بصديقي العظيم ، ناشر العلم السيد / سيد عبد الرحيم خلخالي والمؤرخة في شهر رمضان عام ١٠١٠ هـ وأرمز إليها بحرف (خ) في النص الحالي « وإني لأقدم الشكر الجزيل لهذين الرجلين الكريمين لأنهما سمحا لي ووجهها باش سعيده ، ويداها كريمة سخية بأن أستفيد بنسختيهما حتى تعم فائدتهما وتصبح في متناول يد القراء ، ولهذا أقدم على طبع هذا الكتاب .

ونسخة السيد / إقبال من نسخ الرواية الأولى ، وقد استخدمتها واعتمدت عليها وحدها في البداية حتى صفحة ١٠٤ من الطبعة الحالية . ولكن عندما صادفت بعض أخطائها في هذا الجزء ، استعرت نسخة السيد / خلخالي ، وبعد ذلك اعتمدت على كلتا النسختين . وحيثما أجد نصاً سليماً وصحيحاً في إحدى النسختين كنت أجعله أساس الموضوع وأشار في الحواشي إلى اختلاف النسخة الثانية . ونظراً لأنني اعتبرت في البداية نسخة السيد / إقبال الأساس ، فإن كل اختلاف في النسخة لم يسبب تغييراً في المعنى ولا يؤدي إلى خلل في التعبير ، ولهذا اعتبرت الضبط أفضل في نسخة الأستاذ إقبال « ولقد كان الكاتب الذي كتب نسخة إقبال أكثر دقة وأصوب كتابة . ولكن مجهولاً وقعت يده على هذه النسخة ، فانترع بعض أوراقها من أماكن عديدة فيها ، لست أدري لماذا ، ونهت إلى ذلك في الحواشي . .

وأما نسخة السيد خلخالي فهي من نسخ الرواية الثانية والتي رتبها خواندمير بنفسه بعد عام ٩١٤ هـ حتى عام ٩١٦ هـ ولهذا السبب فإن الإضافات التي أضفتها في

موضعها كانت عن نسخة السيد إقبال « وحيث إنها كانت قد خطت بخطوط عديدة ومختلفة ، كما أن الكتاب الذين كتبوها كانوا أقل دقة ، فإننا إذا وضعنا كلا من هاتين النسختين في الميزان رجحت كفة نسخة السيد إقبال »

وإني لأسف لأنني لم أعط الحواشي والتعليقات الاهتمام الكافي في بداية عملي ، وكان في خاطري وقتها أن أعد ملحقا لإكمال الكتاب ، وقد أهملت مطالب هامة وكثيرة أسفل الصفحات ، ولم أحاول تصحيح الأخطاء التي كانت بالنص اللهم إلا الأخطاء الكبيرة في ضبط الأسماء ، والتي صححتها من كتاب الفخرى أو من ذاكرتي . ولهذا السبب فإن هذا الكتاب كما هو في كنف ورعاية أهل هذا الفن ، وقد فكرت في البداية وتمنيت من كل قلبي ألا يقع في أيدي القراء ، وآمل أن يقبلوا عذري مضطرين عن هذه الهفوات ، ولا يعزوها إلى التسرع والبخل والغفلة ، لأنه رغم الحمق الذي تولده الخصال والطباع في كل إنسان فإنه كان من الممكن إنجاز أفضل من هذا دون ترك لهذه الهفوات »

طهران - تيرماه ١٣١٧ هـ ش سعيد نفيسي

مقدمة

بسم الرحمن الرحيم

شعر :

- (بيتان ، ترجمتهما) — يامن اسمك مقدمة لأسرار الوجود
- وبوجودك كان خلق العالمين الدنيا والآخرة
- جعلت محكمتك الشاملة برأى للوزراء
- التوفيق والسداد لأعمال السلاطين والأمراء
- يامن بحمده والثناء عليه تزين مقدمات صحائف الشهرة ، وأبواب كل شئ ،
- يكتب له النصرة ، لأن أوراق الليالي والأيام ، وسجلات الشهور والأعوام ملأى
- بنعمه ومكارمه . فنعمه العظيمة الوافرة ، ومكارمة الحسنة الواسعة التي ذكرها
- سبحانه — في باب أرزاق الكائنات في كتابه المجيد — بقوله « نحن قسمنا بينهم ^(١) »
- محروسة ومصونة من العجز والنقصان .

شعر : (رباعي ، ترجمته)

- يا صاحب الجود والكرم الموفور
- غمرت — بعطاياك — الأيام والشهور
- ونعمك موفرة للخلائق
- لا يشوبها قصور إلى يوم النشور

(١) سورة الزخرف ، آية « ٣٢ » . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي . مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٣٦٤ هـ .

ويا من يقدر « يوم يقوم الحساب »^(١) أن يحاسب الجن والإنس - على أعمالهم خيرها وشرها - في لمح البصر دون مساعدة الوزراء والكتاب « ويمنح ألوان المكارم للمهتدين على ما قدموه من حسنات ، ويمحو بشفاعة صاحب الرسالة - عن العاملين ما اقترفوه من سيئات .

شعر : (بيتان ، ترجمتهما)

- يامن مئة إحسانك تعم إلى الجميع
- ويامن فضلك أساس إحسان الجميع
- ويامن بأمرك يكون اللطف النبوى
- شفيعا لجميع العصاة يوم الحساب

[٢] ويامن اسمك عنوان المؤلفات ، وخاتمتك مطبوع على أطيب المصنفات « والسلام والتحية على رسولك الكريم الذى نشر - حينما أمرته بحمل الرسالة - دليل دينك من قولك « إن الدين عند الله الإسلام »^(٢) ، كما نشر تعاليمك الرفيعة التى أنزلتها بقولك « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه »^(٣) إلى الجهات الست والأقاليم السبعة ، وحتى أمر نبوته عززته وزينته بقولك « لولاك » وبتوقيعك « وما أرسلناك » فنشر رأيتك ، ونقلها إلى أركان الدنيا الأربعة حسب قولك فى آيتك الكريمة . « آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة » .

شعر : (بيتان ، ترجمتهما)

- لقد اختص سيد بنى هاشم دون الجميع بالتميم المحمود يوم الحشر .
- ، وسيستظل بظله يوم القيامة آدم ونوح وداود .

فتعاليم دينه المستمدة من نور قلبه وضميره ، أضاءت مصباح الشريعة السمحاء

(١) سورة إبراهيم ، آية « ٤١ » المرجع السابق وذكرت الآية فى النص الفارسى كما يلى : « يوم يقوم الحساب » .

(٢) سورة آل عمران ، آية « ١٩ » .

(٣) سورة آل عمران ، آية « ٨٥ » .

التي بدل بها ظلام الضلالة « من يضل الله فلا هادي له »^(١) نور الهداية ، « من يهد الله فهو المهتد »^(٢) « وشيد بيمن طالعه السعيد بنيان الدين المبين » وأقام بمآثره أساس الأمة المتين « وبذلك محاكم الأمم وجعلها في عالم النسيان » مؤيدا بقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله »^(٣)

شعر : (رباعي ، ترجمته)

- يا من تراب بابك قبلة ملوك الزمان
- ويا من دينك أفضل الأديان
- لقد محوت بصبح وجهك ليل الضلالة
- وأضأت بنور قلبك نهار الهداية

اللهم صل على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه مصاييح الدجى .. صلاة لاتنقضي مرور الأيام ولا تنقطع بكرور الشهور والأعوام .. وسلم تسليما كثيرا كثيرا « [٣] أما بعد .. فإنه لا يخفى ، على أصحاب الجاه والسلطان أهل الرأي والعرفان ، على أصحاب الدولة النابهين أن النظام لن يستتب في تشييد قواعد الخلافة « وتوفير الراحة للرعية .. وإرساء قوائم الحكم والفتوحات بدون وزير مخلص ذى رأى صائب كما يقول خير الحكم « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه »^(٤) . . ، كما أن الأمور لن تستقر لتوفير الإنصاف ورعاية الرعية وتسيير دفة الحكم وبسط العدالة دون الاستعانة بمشير صائب رأى حسن التدبير « ولن تستطيع الجيوش الغفيرة لأى سلطان العمل بدون الاستفادة برأى الوزراء العظام . . ولن تحقق الأسلحة الفتاكة لأى عظيم الانتصار بدون معاونة المخلصين من أصحاب الأقلام .

شعر : (بيت ، ترجمته)

- إن أعمال الملوك تكتمل برأى الوزراء ذوى الضمير المستنير .

(١) سورة الأعراف ، آية « ١٨٦ » .

(٢) سورة الأعراف ، آية « ١٨٧ » .

(٣) سورة الفتح ، آية « ٢٨ » .

(٤) حديث شريف ، ونصه كاملا فى نهج الفصاحة ، ص : ١٠ ط .

بل إن بعض الأنبياء العظام والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام طلبوا من الله سبحانه وتعالى المنزلة عن الشريك - معاونين ووزراء « كما طلبوا أناساً يعاونونهم في توضيح أمور النبوة وتطبيق تعاليم الرسالة » فيقول سبحانه على لسان سيدنا موسى « واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخى (١) » .

شعر عربى : بيت :

وإصابة الخلفاء فيما جاولوا مقرونة بكفاية الوزراء
[٤] وخلاصة القول : إن الوزير الناجح هو الذى يتحلّى بالفهم
والفراصة .. والمشير الصائب هو الذى يسلك طريق العقل والكياسة . ولو عمل
بمقتضى الآية الكريمة « وشاورهم فى الأمر (٢) » فسوف يفتح أمامه الملك السعيد
أبواب خزانة الأسرار .. ويلتمس من رأيه الصائب أسباب بلوغ الآمال ..
وبذلك تكتسب كل ذرة فى أساس بنيان الدين والدولة صفة الثبات والدوام ..
وتأخذ أركان الملك والملة صفة الرسوخ والاستحكام .

شعر : (بيت ، ترجمته)

— تحلّد دولة الملك — ، بفكر وزير موثّل للفتنة

وبناء على هذا فإن السلاطين الفاتحين والملوك المظفرين دائماً ما يستندون منصب
الوزارة لوزراء ذوى رأى سديد .. ويضعون فى قبضتهم الحكمة مهمة البت فى
جميع الموضوعات .. ويزيدون فى تكريمهم يوماً بعد يوم ورفع منزلتهم . وذلك
مثلاً نراه فى هذه الأيام المباركة من حضرة الملك على المقام .. وسلاطين السلاطين ..
الباسط سيطرته على جميع الممالك والآفاق .. الجالس على عرش الخلافة بالإرث
والاستحقاق .. حامى حمى المسلمين .. معمر الدنيا .. ظل الله تعالى فى الأرض ..
القائم بإقامة السنة والفرض .. قارئ القرآن بقراءة السبعة .. قالع أصول الظلم
والبدعة .. واقف على أسرار التنزيل بتأويل الرأى الثاقب .. مظهر أنوار التأويل بتوضيح
الفكر الصائب .. المؤيد من السماء بالدولة القاهرة .. المظفر على الأعداء بالعزة
الزاهرة .. مشيد قواعد العدالة والنصفة .. ممهد مراسم الرحمة والرفقة ..

(١) سورة طه ، آية « ٢٩ » .

(٢) سورة آل عمران ، آية « ١٥٩ » .

[٥] شعر : قطعة : (ثلاثة أبيات ، ترجمتها)

- هو ذلك الذى بلغ قدره - من حيث الرفة - أوج السماء السابعة
 - وذلك الذى سما جاهه فى الرقى - فوق هام الفرقدين
 - هو من تقبل الشمس تراب أقدامه فى الصباح
 - بالرغم من أن عرش الفلك الرابع هو عرشه
 - وهو الذى أعتاب بلاطه قبله منشودة دوما لزوار كعبة الدين
- المأمولة .

المستنصر من النصير المستعان .. الممثل فى الأرض أمر الله « إن الله يأمر بالعدل والإحسان^(١) » .. معز السلطنة والخلافة « أبو الفتح السلطان حسين بهادرخان » لازالت رايات أولياء دولته رافعة منصورة .. وأعلام أعداء مملكته خافضة مكسورة وقد وضع أمر تدبير مهام مملكته .. وعظائم أعمال خلافته فى يد أمينة .. وقبضة خيرة .. لأن ترتيب مصالح الدولة والأمة .. وتنفيذ أمور الشعب جيشا ورعية ، لاتستقيم بدون الاستعانة بمن يرسى دعائم العدالة .. ولن يسهل حل مشكلات الدنيا والدين ، دون الاستعانة بتدبير صاحب ضمير حى ورأى أمين ..

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

- لقد أوكل إلى رأيك السيد
- تدبير شئون الدنيا وتنفيذ شئون الملك
- وقد جرى حكم الخالق بهذه القاعدة :
- أن يكون استقرار الملك نتيجة قلمك النشيط الذى لا يستقر وما هو إلا الوزير الفاضل العادل مرجع الأكابر والأفاضل .. مظهر عجائب التدبير فى أمور الوزارة ناظم قوانين السلطنة والإمارة .. دستور الخافقين .. ملك وزراء المشرقين ،

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

- وهو دنيا المعرفة سحاب السخاء : منجم الكرم

(١) سورة النحل ، آية « ٩٠ » .

- وهو سماء الحشمة ، وبحر الفضل ، وجبل الوقار
 - ووزير المشرق والمغرب من برأيه المستنير
 - يقوى ويعلى شأن الملك والدين
- [٦] الفائز على كل المطلوب والمقصود كمال الملة والدنيا والدين خواجه محمود أعلى الله تعالى لواء جلاله ، وصان عن عين الكمال أيام كماله ،
- شعر : (أربعة أبيات ، ترجمتها)

- كمال الدين والدنيا بحر الأفضال
 - ذاك الذى يجد لديه التكريم كل فاضل عالم
 - تجسم الغبار الكثيف المثار بحافر جواده
 - فوجدت نتيجة له الكرة الأرضية
 - ولما أفضت رياح الصبا للدنيا بسر خلقه
 - فاحت من التراب الأغبر رائحة العنبر
 - وعندما تقف الشمس الساطعة على رأيه
 - تهرب خجلا متوارية كوزة مسرعة
- وبلا تكلف يفضى إلى شائبة .. أو صلف يؤدى إلى غائلة .. فقد بلغ هذا الوزير ذو التدبير الصائب والضمير الطاهر - مرتبة الامتياز فى عمله بفضل بصيرته النافذة .. وسريرته الصافية .. وفطنته البالغة .. وعدالته الشائعة على جميع رجال الدولة وأعيان السلطنة .. ونالت شخصيته الكاملة جميع الصفات الحميدة .. والأعمال الحميدة لاتباعه السنن الفاضلة واجتنابه للشيم الدانية . ولقد عم لطفه الوفير أصحاب الحياه والحلال ، واخضرت من نسائم خلقه الكريم أغصان الأمل عند أهل العلم والكمال .

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

- لو أن نسيم خلقك العليل يمر ناحية البستان
- لحادت جميع الأشجار بروحها بدلا من ثمارها
- ولو يتنسم الفلك نسمة من أريج خلقك
- لأصبح بطيب العطر كطيلة العطار

وبإنعامه الشامل وجد لديه أفاضل القوم — الذين كانوا في فاقة من العيش بسبب القحط ذلك العام — الرفاهية والهناء ، ومن عطايه الوافرة وإحسانه عاش الأشراف — الذين أخنى عليهم [٧] الدهر — في رغد من العيش والصفاء ، والميزات التي كان أهل الفضل والفضيلة لا يتوقعونها في هذه الأوقات قد تحققت لهم بيمينه ، وعنايته ، والدهر الخائن — الذي كان دائم الإيذاء للفضلاء والحقاء للعلماء — طوى بحسن رعايته ، ولو لم تظل سحب مرحمته بظلها أهل إخرسان الآن لأحرقت شمس الأحداث أمثالنا نحن الضعفاء ، ولو لم تشرق شمس عاطفته في هذه الأيام على دنيا العدالة والإحسان لفقدت نعمة الحياة — من حيارى الوادى — في غياهب الظلم والعدوان ٥

شعر : (بيتان ، ترجمتهما)

- يا من يستظل الخلق بظل إقبالك
- ويجد أهل الفضل الأمن والاستقرار بأفضالك
- فلتكن أوقاتك في الدنيا كلها هائلة سعيدة
- ما دام الناس ينعمون بعدلك

ولا جرم في أن جماهير فضلاء القول ومشاهير المتكلمين — الذين اتسع نطاق فضيلتهم — يقومون بمهام الدعاء بالرفعة والتوفيق له في هذا المركز — دائرة الجاه والحلال — ويجعلون بوسائلهم المناسبة مآثره ظاهرة للعيان ، وبذلك تتحقق لهم مطالبهم — ولما كان محرر هذه الكلمات الطيبة وهو العبد الفقير والمخلوق الحقير غياث الدين بن همام الدين الملقب بخواندмир قد شاهد وفود مكارم أخلاق هذا الوزير الحدير بها وفقا لما تم تدوينه وسعد بتقبيل أنامله الفياضة ، وأمن في صحبته محنة الأيام فقد رغب في أن ينال بهديته هذه عين الرضا . . ويعرض عليه بضاعته القليلة وينال عنها النصيب الوافر من كيل إحسان جلالة عزيز مصر — وبعد تأمل وتدبر هداني تفكيرى إلى القيام بتحرير هذه الأوراق التي تشمل على ذكر بعض سير ومآثر الوزراء ذوى الفطنة اللامعة والمهابة الظاهرة .

[٨] ونظرا لأن أحوال بعض أفراد هذه الطبقة ذات المكانة الرفيعة — من قد تولوا الوزراء للسلطين ذوى الأمر المطاع قبل بعثة خاتم النبیین عليه صلاة الملك المنان —

لم استفد منها من كتب التاريخ ، لذلك فإن قلمي الأسود لم يتناول أخبارهم وأحوالهم .
وقام — بقصد التيمن والتبرك — يبدأ هذا الكتاب بذكر آصف (١) بن برخيا
وبزرجمهر (٢) الحكيم . ومن غرائب الصدف أنه في الوقت الذي بدأ فيه قلمي
البلغ في كتابة هذه الأجزاء اهتدى عقلى إلى تسميته « دستور الوزراء (٣) » نظرا
للسبب الذى لا يخفى على أهل الخبرة ، وحينما انتهى بتوفيق الله سبحانه تأليف دستور
الوزراء انصرف فكرى للبحث عن لفظ يرمز لتاريخ العام الذى أتممته فيه ..
وفجأة وبإلهام ملهم الغيب .. وبتلقين ملقن لاريب .. شع هذا المعنى من ضميرى
الكسير .. وهو أن أجعل الاسم الشهير لهذه الرسالة العزيزة يشير إلى تاريخ إتمامها ..

شعر : (بيتان ، ترجمتهما)

— هذا الكتاب الذى اشتهر باسمك

— حسن السمعة فى عالم السحر

— ولقد سألت سائل عن تاريخ إتمامه

— فقلت له احسب حروف عنوانه

ولأنى لأرجو برجاء الواثق .. ووثوق الصادق .. أن تلقى هذه الكمات المتفرقة
قبولا خيسنا لدى هذا الوزير العادل .. صاحب الطبع النقاد .. والذهن الوفاد ، كما
أرجو أن لا يسعى حضار مجلسه العالى فى البحث عن عيوب فيها ، وأن يقابوا
الأخطاء الموجودة فى هذه الأجزاء بالكرم ، ويعملوا على إصلاحها بالهوامش ..
اللهم احفظنى من شر كل بلجوج وحسود بحق ناصب لواء الحمد ، وصاحب
المقام المحمود ..

(١) اسم وزير سيدنا سليمان

(٢) اسم وزير كسرى أنوشيروان .

(٣) دستور الوزراء بحساب الجمل تساوى ٩١٥ وهو العام الذى فرغ فيه من تأليف الكتاب .

لمعرفة حساب الجمل انظر ٦٢٣ من الترجمة العربية لكتاب « راحة الصدور وآية السرور » للراوندى .

نقله إلى العربية كل من : د . إبراهيم الشواربى د . عبد النعيم حسنين ، د . فؤاد الصياد .

(داب العلم - القاهرة - ١٩٦٠)

[٩] ذكر بعض من مناقب ومفاخر آصف بن برخيا

ويذكر أئمة المؤرخين الذين سجلوا أخبار الأنبياء العظام .. ورواة آثار المصطفين الكبار - في مؤلفاتهم - أنه حينما أخذ عرش الرسالة ومسند الخلافة تمام زينته وجماله بوجود الملك سليمان - على نبينا وعليه السلام - قلد آصف بن برخيا منصب الوزارة .. ووضع في قبضته تدبير أمور الملك والأمة .. وامتاز آصف دون سائر علماء بني إسرائيل وأخيارهم بالإنصاف والنفطنة .. والتبحر في العلوم الربانية .. وانتخلق بالأخلاق الرحمانية .. وكلما كان يجلس الملك سليمان - عليه التحية والرضوان - في ديوان الخلافة كان آصف يأخذ مكانه بالقرب من عرش الخلافة على مقعد قدسى مشغولا بإنجاز مهام الرعية - وقد ذكر أصحاب الأخبار أن الحق سبحانه علم آصف الاسم الأعظم .. فكلما كان آصف ينادى بحجب الدعوات سبحانه بذلك الاسم فإنه يستجاب لدعائه كما توضح ذلك الآية الكريمة « قال الذي عنده علم من الكتاب (١) » .. والآيات التي تقع في قصة سليمان وبلقيس تتضمن هذا المعنى ومؤداها أنه حينما توجهت بلقيس لمقابلة سيدنا سليمان عليه السلام تركت عرشها - المصنوع من الذهب الأحمر والمرصع بالياقوت والجوهر - في منزل محكم ، غلقت أبوابه ثم سلكت طريقها . ولما صارت على بعد فرسخ واحد من معسكر الملك سليمان - وكان سيدنا سليمان قد اعتلى عرش الخلافة منذ الصباح في انتظار وصول [١٠] ملكة سبأ - خاطب طوائف الإنس والجن قائلا : من منكم يستطيع أن يأتيني بعرش بلقيس قبل وصولها ؟ « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من

(١) سورة النمل ، آية « ٤٠ » .

مقامك (١) » ونظرا لأن سليمان عليه السلام كان يجلس منذ شروق الشمس وحتى غروبها في مقر الخلافة لذلك قال لهم : أريد إحضاره بأسرع من هذا ؟ فقال آصف : أنا أتيتك بعرش بلقيس قبل أن تغمض عينيك وتفتحهما ! وعندئذ نادى آصف الحق سبحانه باسمه الأعظم والتمس منه حضور عرش بلقيس فاستجاب الله لدعائه . . وفي غمضة عين وصل ذلك العرش من مقره باليمن إلى مجلس سيدنا سليمان عليه السلام . .

ولاجرم في أن سليمان لسان الوحي والبيان قد قدم الشكر والحمد للمهيمن المنان وبفضل هذه الواقعة ارتفعت مكانة آصف لدى الملك سليمان « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (٢) » من الدعوات المستجابة الأخرى لآصف أنه — لحكمة أرادها الله سبحانه — ولد لسيدنا سليمان ابن له عين واحدة وأذن واحدة ويد واحدة وقدم واحدة . . ولهذا السبب سيطر الحزن العميق على سيدنا سليمان عليه السلام . . وفي إحدى خلواته التي لم يحضرها سوى أم الابن وآصف بن برخيا صرح سليمان بما يختلج في نفسه إزاء هذا الموضوع فقال آصف : تعالوا ليروح كل منا بشئ في نفسه لا يعرفه سوى عالم السر والخصيات ونسأل لهذا الطفل الشفاء . . ولربما يستجيب القادر لمثل ملتصنا هذا ؟ وقبل الجميع هذا الاقتراح . . وبدأ سليمان عليه السلام ينادى ربه قائلا : إلهي . . إنك تعلم أنني [١١] بالرغم من توفر هذا القدر من العظمة والمهابة الذي وهبني إياه فإنه يأتيني شخصان : يأتني أحدهما ومعه تفاحة يقدمها إلى كهدي . . والآخر خاو اليدين . وقد تعودت أن أجعل صاحب التفاحة محط عنايتي وحيي . . إلهي . . إن كنت صادقا في هذا القول فلا تردني في طلب الشفاء لابني ؟ ! وبعد ما ذكر سليمان هذا القول أنعم الواهب على الابن بعين وأذن آخرين . . ثم قال آصف : إلهي إنك تعلم أنني طلبت من سليمان عدة مرات أن يعفني من أعمال انوزارة ولم يكن قلبي يوافق قولي في هذا الطلب . . فإن كان هذا القول صادقا فاشمل هذا الطفل بعين رحمتك ؟ ! وعلى أثر هذا الدعاء من « الباري سبحانه على هذا الابن بيد أخرى . . ثم توجهت أم الطفل ناحية القبلة بالدعاء قائلا : يا إلهي . . إنك تعلم أنه بالرغم

(١) سورة النمل ، آية « ٣٩ »

(٢) سورة المائدة ، آية « ٥٤ » .

مما هو موجود بحضرة سليمان .. وبكل هذه المهابة والعظمة لزوجي .. فإننى كلما أرى شخصاً أكثر شباباً منه أتمنى أن يكون ذلك الشخص زوجاً لى .. فإن يصدق قولى هذا فاجعل الشفاء الكامل من نصيب ولدى ! . وبعد إعلان هذه الأسرار وهب الله سبحانه قدماً أخرى لذلك الابن .. وجعله صحيح الأعضاء :

ولما أصبح الابن سليم الأعضاء استولت المحبة المفرطة له على قلب سليمان .. وفكر فى أن يعهد يترتيبه وكفالاته إلى شخص عالم - وحسب رواية بعض المؤرخين فإنه جاء إلى سليمان جمع من الجن التمسوا منه القيام بمهمة الحفاظ على هذا المولود فقبل الالتماس .. وهذا الوضع لم ترض عنه العناية الإلهية . فلا جرم أن قبض ملك الموت - بإذن الحى الذى لا يموت - روح ذلك الفتى .. وألقى بجسده فوق العرش [١٢] السليمانى .. وفى ذلك قوله تعالى : « وألقينا على كرسيه جسداً (١) » وهو جسد ولده الميت ! .

شعر : (بيت ، ترجمته)

— سبحانه الخالق الذى طالما أعجزت

— صفاته المتصفة بالكبرياء عقول الأنبياء

ومما نقل عن عبد الله بن عباس رضى الله عنها أن المقصود بالجسد الذى ذكرته آية الجن ، أنه حكم جالساً فوق العرش السليمانى لمدة أربعين يوماً .. وكان سبب تلك الحادثة أنه حينما انتصر سليمان عليه السلام على صيدون - وكان ملكاً على إحدى الجزر - الذى اعتاد عبادة الأصنام ، تزوج سليمان ابنته التى كانت ذات جمال فائق وحسن لائق .. وأصبحت البنت غير قادرة على فراق والدها فطلبت - بإيعاز من الشيطان - من عمال الديوان أن ينحتوا صنماً من الحجر يشبه صيدون .. وبناء على ذلك كانت تعبد هذا الصنم قبل أن تسعد بصحبة سليمان .. ووضعت ذلك الصنم فى منزله وانشغلت هى وجوارىها بعبادته .. ولما أمضت أربعين يوماً على هذا الحال وذاع نبأ عبادة تلك المرأة ذلك الصنم بين الناس ، عرض جماعة من المقربين الصادقين كيفية وقوع هذه الحادثة على حضرة الوزير آصف .. وأبدوا قلقهم إزاء ذلك الموضوع فأمرهم آصف قائلاً : الزموا الهدوء وسوف أتولى نقل

(١) سورة « ص » ، آية « ٣٤ » .

هذا الكلام بأبلغ صورة إلى سليمان ! . وعلى الفور توجه إلى صاحب الأعتاب السماوية وعرض عليه قوله : إن ضعف الشيخوخة قد أثر على جسمي .. والتمس منك السماح لي بشرح مناقب الأنبياء ومفاخرهم عليهم التحية ولهم الغفران وذلك في مجمع يحضره الخاصة والعامة من الناس ليكون ذلك سببا في تقوية عقيدة العباد قبل أن تنقضى أيام حياتي ! وقبل سليمان عليه السلام هذا الالتماس وأصدر تعليماته على الفور بجمع طوائف الإنس [١٣] والجان .. وفي هذا المجمع أبدى آصف بن برخيا ضروب الفصاحة .. وعدد شرف وفضيلة كل نبي من الأنبياء .. ولما جاء دور الحديث عن سليمان عليه السلام ، قصر الحديث على فضائله وكمالاته على فترة شبابه ، فنقل هذا الحديث على سليمان .. ولما تفرق المجمع استفسر عن سبب ذلك من آصف قائلاً له : ما السبب الذي جعلك تتحدث عن خصائصي في الفترة السابقة ولم تتحدث عما حياتي الخالق الودود بعد وفاة داود ؟ فرد عليه آصف بقوله : إنني لا أستطيع أن أتحدث بمدح وثناء من تعبد الأصنام في بيته أربعين يوماً !! فقال له سليمان : في بيتي أنا !! قال آصف : نعم ، وقص عليه ما حدث . ومما لاشك فيه أن سليمان ذهب إلى منزله وحطم الصنم وعاقب عباد الأصنام .. واشتغل بعدها بالزراعة والاستغفار وهو جالس فوق أنراب الخشن — وحيثما كان يتوجه لقضاء حاجته كان يترك خاتمه لدى جرادة — وكانت إحدى جواري الحرم — وفي هذا الحين وبتقدير من رب العالمين ظهر لجرادة واحد من الجان في هيئة سليمان عليه السلام ، ويدعى المارد صخر .. وأخذ منها الخاتم واعتلى العرش السلیماني .. وبناء على ذلك طاعته طوائف الإنس والجان . ولما أتم سليمان عليه السلام تجديد وضوئه طلب الخاتم من جرادة ، فقالت له : لقد سلمته لصاحبه .. من تكون أنت ؟ .. أني لأعرفك ! .. وكان معنى صدور هذا الكلام من جرادة أن تغييراً طفيفاً قد حدث في هيئة سليمان عليه السلام . والخلاصة — بعد القيل والقال — أن حقيقة ذلك الوضع ظهرت على سيدنا [١٤] سليمان عليه السلام .. وسيطر الملل على خاطره النوراني ، وتوقف عن البحث عن الخاتم وانتقل إلى مكان آخر . وحسب الرواية التي راجت في ذلك العصر أنه في الوقت الذي كان فيه الجني صخرة قد اختار العرش السلیماني مقاماً له انضم سيدنا سليمان — مضطراً — إلى جماعة من الصيادين كانوا يعملون بصيد السمك على شاطئ البحر إلى أن أعاد إليه المهيمن المنان الخاتم مرة أخرى .. وكانت الطريقة التي عاد بواسطتها الخاتم

هكذا : كان إلخني صخر - في الفترة التي تولى خلالها الحكم - يتكلف الاختلاط بأبناء آدم ويختلط في أكثر الأحيان بأبناء جنسه .. وكانت تصدر الأحكام عنه بخلاف قوانين الشرع والعقل ، لذلك أبدى الناس سوء الظن بمثل هذه التصرفات المشينة .. وعرضوا على آصف صورة من سوء ظنهم به ، فقال آصف يبدو أن ذلك الشخص ليس بسلامان .. ولكي يثبت صدق هذا القول بعث شخصاً ليدلي زوجات وسراري الحضرة النبوية حتى يسألن عن حواله .. فقلن له : لا علم لنا منذ مدة بأخبار سلامان . فأوقف آصف علماء بني إسرائيل على هذا الأمر وقال لهم : إنه لشيطان خبيث ذلك الذي حل محل سلامان .. وعندئذ توجه إلى مجلس الماردين صخر .. وأخذ يرتل آيات من التوراة .. فلم يحتمل ذلك الملعون طاقة الاستماع لكلام المهيمن الجبار وهرب من فوق كرسي العرش ونزع الخاتم من يده وألقى به في البحر .. وبأمر إلهي ابتلعت الخاتم سمكة وقعت في شباك الصيادين الذين كان سلامان يعاونهم .. فسلمت تلك الطائفة السمكة المذكورة إلى سيدنا سلامان كأجر له .. ولا جرم أن عاد الخاتم مرة أخرى إلى يد سلامان .. وفي تلك الساعة تراحمت على عتبات الخلافة [١٥] طوائف المخلوقات . ولم يعرف عن آصف أكثر مما تم تحريره .. كذلك لم يعرف عنه أي شيء في كتب التاريخ .. وبناء على ذلك فقد اكتفى كاتب هذه الكلمات المتفرقة بهذا القدر .. وأطلق عنان جواده الأصيل ووجه قلمه صوباً آخر ..

بزرجمهر الحكيم :

كان بزرجمهر - حسب ما رواه أكثر المؤرخين - أعلم حكماء عصره .. وكان يتولى الوزارة الملك العادل أنوشروان .. وعن طريقة وصول ذلك الحكيم للعمل مع كسرى كتبت طائفة من رواة الأخبار ما يلي :

حدث أن رأى أنوشروان (١) ذات ليلة في منامه أن شجرة نبتت بالقرب من سرير عرشه .. وكانت تلك الشجرة غاية في الجمال .. وكان هو يحمل في يده

(١) حكم كسرى وبرز جمهر الحكاية رقم ٤٣٩ ص ٣١٩ ، الحكاية رقم ٥٠٢ ص ٣٦٧ في كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى - طبعة طهران عام ١٣٣٥ هـ . ش باهتمام محمد رمضان .

كأس الشراب وقبل أن يتناوله ظهر له خنزير الهم الشراب .. فحزن أنوشروان لوقوع هذه الحادثة لأنه رأى الخنزير يجلس على عرشه وانتزع كأسه والهم شرابه .. ولما استيقظ أنوشروان تملكته الأحزان .. وأمر بإحضار المفسرين وسألهم عن تفسير حلمه بعد أن قص عليهم الحادثة المذكورة .. فعجزت تلك الجماعة عن تفسير ذلك الحلم ، ولم يخالف الصواب تفسيراتهم .. فازداد شغف كسرى بمعرفة تفسير حلمه .. فأمر جماعة من قادة دولته لينتشروا في جميع الأقطار ليبحثوا عن شخص يميّط [١٦] اللثام عن حقيقة هذا الأمر الهام .. وكان من بين تلك الجماعة شخص يدعى «آزاد سرو» بلغ مرو ودخل مدرسة ، وسأل معلّمها بقوله : هل لديك دراية بعلم التفسير ؟ فأجابه المعلم بقوله : إننى لم أحظ بتعلم هذا الفن حتى الآن .. وهنا قال بزرجمهر - أحد تلاميذ ذلك المعلم وكان متصفا بحدة الذهن وصفاء الطبع - لآزاد سرو : اقصص الحادثة فلربما يمكننى تفسيرها ؟ فصاح الأستاذ فيه بقوله : الزم الهدوء ؟ ولكن «آزاد سرو» قضى على ظنون المعلم وقص عليه حلم كسرى .. فقال بزرجمهر : مصرع : « لن أفسر هذه الحادثة إلا أمام الملك ! » فاستحسن آزاد سرو قول الطفل وأعطاه تكاليف السفر ، وذهبا سويا إلى سراى الملك .. وبعد وصولهما عرض «آزاد سرو» على أنوشروان مسألة إحضاره بزرجمهر .. فأخذه كسرى واختلى به فى مكان خاص وطلب منه تفسير الحلم ، فقال له بزرجمهر شارحا إنه يوجد بقصر حريم الملك غلام أحب لإحدى بنات القصر .. وإذا أحب الملك كشف حقيقة هذا الأمر ، فإنه يصدر أمره بمرور الجوارى واحدة واحدة أمامه .. فأمر كسرى على الفور وجاءت الجوارى ومررن من أمامه واحدة واحدة. ولكنه نظرا لارتداء الغلام مثل أرديتهن لم تظهر الحقيقة ، وثار أنوشروان فقال بزرجمهر : لكى يتسنى اكتشاف ذلك التدبير لابد أن تصبح الجوارى عاريات ! وعلى الفور صدر أمر [١٧] ملكى بالتنفيذ على هذا النهج .

(بيتان ، ترجمتهما)

- ظهر بينهن غلام قامته
- كشجرة السرو ووجهه كوجه الملوك
- يرتجف جسمه كشجرة الصفصاف
- وقد تبدد أمله فى روحه الغالية

وبعد إتمام التفتيش اتضح أن ذلك الغلام نظراً لأنه كان متعلقاً بآبنة حاكم
 حاج منذ صغره فقد اصطحبها معه من منزل والدها وظل مخفياً في قصر الحريم
 الملكي . والخلاصة أن كسرى عاقب البنت والغلام على ذلك ، وجعل بزرجمهر
 من بين خاصته ، وأخذ نجم ذلك الحكيم العظيم يرتفع يوماً بعد يوم إلى أن وصل
 إلى منصب الوزارة الرفيع .. وأقوال بزرجمهر الحكيمة كثيرة وكلماته الفصيحة
 لا تحصى .. ولكنه خرفاً من الإكثار في هذا المجال فسوف نقتصر على ذكر اثنتي
 عشرة حكمة كان قد قالها في مجلس أنوشروان أمام أكابر ذلك الزمان :

روى أن كسرى عقد ذات يوم مجلساً عظيماً دعا إليه حكماء البلاد وعظمائها
 لحضوره وأمرهم بأن يقوم كل واحد — على قدر علمه — بإلقاء عدة كلمات تتضمن
 صالح الملك والرعية .. فتحدث حضار المجلس في هذا الغرض ولما جاء الدور على
 بزرجمهر عرض كلامه قائلاً : سوف أوفي بطلب الملك من خلال اثنتي عشرة
 حكمة !

فسأله أنوشروان : ما هي تلك الكلمات ؟ قال الحكيم :

- ١ — التعفف عن الشهوة والغضب وهوى النفس .
- ٢ — الصدق في الحديث والوفاء بالمواعيد والعهود والمواعيث :
- ٣ — التشاور مع العلماء في سوانح الأمور والمهمات .
- ٤ — [١٨] إكرام العلماء والأشراف والأمراء والكتاب على قدر مناصبهم
 ودرجاتهم :
- ٥ — الاهتمام بالقضاء وبحث أحوال العمال ومجازاة المحسنين والمسيئين على
 إحسانهم وإساءتهم .
- ٦ — بحث حالة المسجونين كل فترة فيترك المذنب ويعفى عمن يستحق
 الإعفاء .
- ٧ — الاهتمام بالطرق وتفقد الأسواق والأسعار وتجارة التجار .
- ٨ — حسن تأديب الرعايا على ارتكاب الجرائم وإقامة الحدود مع البرايا
 بسبب ارتكابهم المآثم .

- ٩ - إعداد السلاح وجمع أدوات الحرب ..
- ١٠ - إكرام الأبناء والأهل والأقارب .
- ١١ - إرسال الخوasisيس والمسؤولين حتى ينقلوا الأخبار الخاصة بالدولة في كل مكان .
- ١٢ - تفقد الوزراء والندماء والخدم .
- فأمر أنوشيروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب وقال :
- هذا كلام فيه جوامع أنواع السياسات المملوكية ..
- ولم يتضح مآل حال بزرجمهر فلا جرم أن القلم لم يشمل ذلك بالتحريير :

الوزراء فى العصر الأموى

مقدمة :

لأنه لا يخفى على مصرقى جواهر الكلم أن الوضوح والبرهان سوف يكونان معيار الأخبار الحديثة والقديمة عندهم ، فإنه طبقاً للحديث حضرة خير البرية حيث قال عليه السلام والتحية « الخلافة بعدى ثلاثون سنة » كان زمام الأمر والنهى وحمل قلادة الدين المبين والتكفل بأمر الشريعة المتين - بعد وفاة حضرة سيد الكائنات وسند المكونات عليه أفضل الصلاة وأكمل التحيات - فى قبضة الخلفاء الراشدين رضوان [١٩] الله عليهم أجمعين .. وكانوا لا يطلقون - فى تلك الأيام المباركة - لقب الوزارة على نوابهم وكتابهم عليهم التحية ولهم الغفران .. ومما لاشك فيه أن ذكر أحوال تلك الطائفة ضمن هذه الصفحات إنما هو أمر بعيد عن مقتضى الذوق والأدب .. وحينما انتهت الفترة المذكورة بناء على مضمون الحديث السابق - على قائله أشرف الصلوات وألطف التحيات - طوى القضاء والقدر بساط الخلافة .. ثم تولى حكام بنى أمية أمر أمة خير البرية ، وامتد حكم هذه الطائفة واحداً وتسعين عاماً .. ازدهرت أضواء الخلافة أيام أربعة عشر شخصاً منهم نوردتهم كما يلى :

١ - معاوية بن أبى سفيان (١) .

٢ - يزيد بن معاوية (١) :

(١) وردت عبارة « عليه اللعنة » فى النص الأصل بعد أسماء معاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، ومروان بن الحكم ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد بن مروان . ويقال إن الناسخ هو الذى أضافها من عنده .

- ٣ - معاوية بن يزيد . (١)
 - ٤ - مروان بن الحكم (١) .
 - ٥ - عبد الملك بن مروان .
 - ٦ - وليد بن عبد الملك .
 - ٧ - سليمان بن عبد الملك .
 - ٨ - عمر بن عبد العزيز بن مروان .
 - ٩ - يزيد بن عبد الملك .
 - ١٠ - هشام بن عبد الملك .
 - ١١ - وليد بن يزيد بن عبد الملك .
 - ١٢ - [ص ٢٠] يزيد بن وليد بن عبد الملك (١) .
 - ١٣ - إبراهيم بن يزيد بن عبد الملك .
 - ١٤ - مروان بن محمد بن مروان (١)
- ونظرا لأن كيفية أحوال وزرائهم وما آل إليه حالهم لم تتضح من كتب التاريخ فإننا سوف نكتفي بمجرد ذكر أسماء تلك الجماعة :
- الوزير سرجون بن منصور الروبي :**
- تقلد سرجون الوزارة أيام حكم معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية .
- الوزير صفين الأحول :**
- وكان يتولى أمر الوزارة أيام خلافة مروان .
- الوزير حفص بن ذؤيب :**
- كان يتولى أمر الوزارة أيام استيلاء عبد الملك بن مروان على الحكم .

الوزير قعقاع بن الجليل :

وكان وزير الوليد بن عبد الملك .

(١) انظر هامش الصفحة السابقة .

الوزير الليث بن أبي رقية

وكان يتولى تدبير شئون الوزارة في عهد سليمان بن عبد الملك .

الوزير سليمان بن نصيم :

وكان وزيراً لعبد العزيز بن مروان .

[٢١] **الوزير أسامة بن زيد :**

عمل بالوزارة ليزيد بن عبد الملك .

الوزير العالم

وكان يتولى الوزارة أيام هشام بن عبد الملك . . وهو حسب رواية أكثر المؤرخين كان غلاماً لسعيد بن عبد الملك .

الوزير سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عبد الملك :

وكان يعمل بالوزارة أيام حكم الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

الوزير سليمان بن سعيد :

أسند إليه منصب الوزارة في أيام خلافة يزيد بن وليد بن عبد الملك .

الوزير أبو جعدة (١) :

وكان وزيراً لمروان الحمار حسب رواية صاحب جوامع الحكايات ، وبعد زوال دولة المروانيين كان يلزم أبا العباس السفاح ، وروى أن أبا جعدة ذكر في يوم من الأيام كلاماً طيباً عن أمير المؤمنين مروان في مجلس أبي العباس ، وأغضب هذا الكلام الحاضرين من العباسيين فغزموه على قتل أبي جعدة ، وتحذثوا عن شقاوته أمام الخليفة ولكن السفاح لم يصغ بعين الرضا لكلامهم وقال لهم : إن هذا الكلام يدل على وفائه الكامل ورعايته لحق مخدمه ، وحينئذ أعلى من مكانة أبي جعدة وعامله بالعناية والالطف حتى آخر أيام حياته .

(بيت فارسي ، ترجمته

— كن وفيًا مع ولي نعمتك

— ، لأنك إذا وفيت علت مكانتك

(١) جوامع الحكايات لمؤلف — الحكاية رقم ٢١٦ باب ١٤ ص ١٨٧ .

[٢٢] الوزير عبد الحميد الكاتب

كان يتولى أيضا الوزارة في عصر مروان الحمار ، وكان يتصف بالعلم والفضيلة ويشتهر بصواب الرأي والتدبير ، وجاء في جوامع الحكايات أنه حينما أخذ نجم دولة بني العباس في الارتفاع قال مروان لعبد الحميد : عليك بالتوجه إلى العباسيين بحجة أننا ظلمناك وتخالطهم وتقف على أحوالهم و تعرف ما يجول بخاطرهم حتى أستطيع - عن طريق العلم واليقين - معرفة أسرارهم وأعمل على ردع المعارضين ! فرد عليه عبد الحميد بقوله : إن القيام بهذه الأعمال لا يكون لأمثالي لأنني حينما أقوم بملازمة العباسيين ويصبح لي نصيب من نعمهم الوفيرة وإحسانهم فلن أستطيع خيانتهم .. وإذا قدر لي القيام بهذا العمل الشنيع فإنك لن تعتمد على بعد ذلك .

(بيت فارسي ، ترجمته)

- كل من ذكر بين يديك عيوب شخص آخر وعدّها

- فسوف يذكر عيوبك لدى آخر يقينا

وبعد سماع مروان لمثل هذا الكلام تغاضى عن تنفيذ تلك المؤامرة .. ولما سقطت خلافة مروان أسر عبد الحميد في عهد أبي جعفر المنصور بعد أن اختفى فترة في بعض القلاع .

ونقل أنه حينما أحضروا الوزير عبد الحميد أمام أبي جعفر قال : يا أمير المؤمنين !! تغاضى عن سفك دمي لأن أمثالي من الكتاب في الدنيا قليل ! فرد عليه أبو جعفر قائلا : حقاً إنك كنت تعمل على [٢٣] هزيمتنا برسائلك الكاذبة ، وكنت تحاول إغلاق الأبواب السهلة أمامنا بتدبيرك !! ولكنه نظرا لأن أركان دولتنا كانت بفضل الله قد استحكمت فإن المروانيين لم ينجحوا سوى الحسران من حسن رأيك وتدبيرك !

(بيت فارسي ، ترجمته)

- إذا شاء تقدير الله خيرا

- فلن يستطيع تدبير البشر حجه

« العبد يدبر والله يقدر » .. وبعد هذه المناقشة حملوا عبد الحميد إلى مكان تنفيذ لإعدام وأعدموه بسيف بتار .

(بيتان فارسيان ، ترجمتها)

— قانون الفلك الدائر هكذا

— يغسل وجهه كل مساء بدماء الناس

— فلا ترج لديه الوفاء والمحاملة

— لأنه خلق والخفاء حرفته ، وحدة الطبع خلقه وشيمته

ولا يخفى أن القمعقاع بن عيسى والجراح بن عبد الملك بن عبد الله وبكير بن السماخ اللخمي قد عدهم صاحب جوامع التواريخ جلالى ضمن وزراء بنى أمية ولكنه لم يوضح مع من من حكام بنى أمية كانوا يعملون ، « والعلم عند الله تعالى » .

الحديث عن بعض أحوال وزراء الدولة العباسية

إنه لصحيح لدى الفضلاء العارفين والعلماء المبرزين أن ٣٧ شخصاً من الأبناء الأعمام لابن عم خير الناس عبد الله بن العباس رضى الله عنهما جلسوا على عرش الخلافة ، وظلت الخلافة في تلك الأسرة الكريمة مدة ٥٢٣ عاماً وبعض العام.. وهامى أسماؤهم نوردها كما يلي :

- ١ - أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .
- ٢ - أبو جعفر المنصور الدوانيقي شقيق أبي العباس السفاح .
- ٣ - [ص ٢٤] محمد بن جعفر المنصور الملقب بالمهدى .
- ٤ - الهادي موسى بن محمد المهدى .
- ٥ - هارون الرشيد بن محمد المهدى .
- ٦ - الأمين محمد بن هارون الرشيد .
- ٧ - المأمون عبد الله بن هارون الرشيد .
- ٨ - المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد .
- ٩ - الواثق بالله أبو جعفر هرون بن محمد المعتصم .
- ١٠ - المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن محمد المعتصم .
- ١١ - المستنصر بالله أبو جعفر محمد بن جعفر المتوكل .
- ١٢ - المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم .

- ١٣ - المعتز بالله أبو عبد الله الزبير بن المتوكل .
- ١٤ - المهتدى بالله أبو إسحق محمد بن الواثق .
- ١٥ - المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل .
- ١٦ - المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل .
- ١٧ - المكتفى بالله أبو محمد علي بن المعتضد .
- ١٨ - المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد .
- ١٩ - القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد .
- ٢٠ - الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر .
- ٢١ - المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر .
- ٢٢ - المستكنى بالله أبو القاسم بن عبد الله بن المكتفى .
- ٢٣ - المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر .
- ٢٤ - الطابع لله أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله .
- ٢٥ - القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر .
- ٢٦ - القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله .
- ٢٧ - المقتدى بالله أبو القاسم عبد الله .
- ٢٨ - المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدى .
- ٢٩ - المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر .
- ٣٠ - الراشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد .
- ٣١ - المتقى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر .
- ٣٢ - المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المتقى لأمر الله .
- ٣٣ - [٢٥] المستضىء بنور الله أبو محمد حسن بن المستنجد .
- ٣٤ - الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء .
- ٣٥ - الظاهر بأمر الله أبو الناصر محمد بن الناصر .

٣٦ - المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر .

٣٧ - المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر .

وفيا يلي ما أمكنني الحصول عليه من أخبار وزراء هذه الطائفة :

الوزير أبو سلمة بن سليمان الخلال

وكان يسمى حفصا عند بعض المؤرخين ، وسماه البعض الآخر جعفرا ، وكان أبو سلمة - بإجماع علماء الأخبار - من بين أكابر عصره ، وكان يكنى في قلبه دائما الحبة لأهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم . وعندما عين أبو مسلم المروزي بعض أمراء خراسان لإخضاع ممالك العراق كتب رسالة إلى أبي سلمة ليقبها فيها بوزير آل محمد ... ولما أخضع الأمراء العراقيين ووصلوا الكوفة انتفى حسن بن قحطبة - وكانت له إمارة جيش أبي مسلم - بأبي سلمة وأعطاه رسالة أبي مسلم ، فجمع أبو سلمة أكابر الكوفة وأشرفها في المسجد الجامع وقرأ تلك الرسالة على الناس ، وبعث بالعمال إلى جميع مناطق الولايات وزاول إدارة شئون الوزارة . وفي هذه الأثناء وصل أبو العباس السفاح وشقيقه أبو جعفر المنصور - وكانا يعيشان حتى ذلك الوقت محتفيين خوفا من بطش المروانيين - إلى الكوفة ، فأخفاهما أبو سلمة في مكان ما ولم يخبر [٢٦] أمراء خراسان بوصولهما لأنه كان يريد أن يعين أحد أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة ، وبناء على هذا كتب ثلاث رسائل يلتمس فيها قبول الخلافة وبعث بها إلى ثلاثة من أهل البيت ، أولهم جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن أمير المؤمنين الحسين عليهم جميعا السلام ، والثاني عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام ، والثالث عمر بن زين العابدين . ولكن أيا من هؤلاء الثلاثة العظام لم يقبل رجاء أبي سلمة بأن الإمام جعفر الصادق لم يقرأ رسالته وأحرقها ، ومن الغرائب أنه قبل عودة رسول أبي سلمة وقف أمراء خراسان على منزل العباسيين وأخرجوهما من معزلهما وأجلسوا أبا العباس السفاح على عرش الخلافة ، ولما تولى أبو العباس شئون المسلمين - ونظرا لميل أبو سلمة الخلال إلى أولاد علي عليه السلام وبسبب المعوقات التي كان قد أوجدها عند أخذ البيعة له - عزم على قتله . ولكنه لا يستطيع تنفيذ ذلك العمل دون التشاور مع أبي مسلم ، فلا جرم أن أرسل أخاه أبا جعفر

المنصور إلى خراسان بحجة الحصول على موافقة أبي مسلم على وزير آل محمد ، فلما أقرب أبو جعفر من مرو أعد أبو مسلم مراسم استقباله ، وقضى أبو جعفر بضعة أيام هنا وأبلغ أبا مسلم في أحد خلواته معه بحقيقة الأمر فأجاب أبو مسلم قائلا : أنا وأبو سلمة كلانا من أولاد أمير المؤمنين ، ولو نتعدى حدودنا ، لوجب علينا القتل . وعاد أبو جعفر موقفا من خراسان ، ولما أبلغ الكوفة كان أبو سلمة قد انتقل إلى رحمة الله ، ويقول البعض بأن السفاح كان قد قتله قبل وصول [٢٧] أبي جعفر : « والعلم عند الله الغفور الودود » .

الوزير أبو الجهم بن عطية :

تولى منصب الوزارة بأمر السفاح بعد مقتل أبي سلمة .. ولم يتضح شيء عن أحواله أكثر من هذا :

الوزير حميد بن قحطبة :

كان منتظما في سلك وزراء السفاح حسب رواية صاحب جوامع الحكايات :

الوزير الموراني :

عمل بالوزارة فترة أثناء خلافة أبي جعفر المنصور النوائبي ، وكان يسلك خلال توليه الوزارة مسلك الظلم والعدوان مع الرعايا ، وجاء في جوامع الحكايات (١) أن أبا جعفر كان له ابن أعرج اسمه صالح ، وكان أبو جعفر يناديه بالمسكين ، وذات يوم قال الخليفة : إن صالحا المسكين ضعيف جداً وعاجز ويجب الإنعام عليه بعدة مزارع حتى يشغل نفسه بعد وفاتي بعائلته ، ولما مر عام على هذا الكلام أحضر الموراني مبلغ ٢٥٠ ألف درهم ووضعها أمام الخليفة أبي جعفر وقال : سبق أن أمر أمير المؤمنين بضرورة تخصيص عدة مزارع للمسكين ، وخصصت بدوري المزارع المطلوبة له ، وهذه الدراهم من عائد تلك المزارع فسر المنصور وأثنى على الموراني . وقال له : اشتر أيضا بهذا المبلغ عددا من المزارع لصالح ؟ وحمل الموراني هذا المبلغ وأخذ يبيع في مزارع المسلمين بثمن بخس

(١) انظر جوامع الحكايات « عوف » ، باب ١٤ حكاية ٢٠١ ص ١٧٦ .

ومشقة كبيرة ، [٢٨] ويكتب العقود باسم صالح ، وكان بعض الملاك يعطونه مبالغ كبيرة ليتجاوز عن بيع أملاكهم .

ولما بلغت أخبار هذه التصرفات إلى خالد البرمكي الذي كان على عدااء معه أفضى ببعضها ضمن مقالات بعث بها إلى الخليفة ، فحققها أبو جعفر واتضح له صدق ما قاله خالد ، فلا جرم أن عزل المورياني وعاقبه . ومن ثم فإنه يجدر بالوزراء ذوى الخصال الحميدة أن لا يغرسوا أشجار الظلم والضلال في قلوب الرعايا مكسورى الحناح إرضاء للملوك والخلفاء وعملا على زيادة أموالهم الوفيرة ، بل يجعلوا برعايتهم روضة أمل المحكومين يانة ومخضرة بفيض من عدلهم وإحسانهم حتى يبقى ربيع مجدهم مصونا في الدنيا من قسوة الحريف الزائل وتكون دوحة آمالهم ثمرة السعادة الدائمة لهم في الآخرة .

(رباعى ، ترجمته)

- قلة الأذى للناس - وأنت في قمة المجد أفضل
- ومعاملتهم بالعدل والإحسان أفضل
- وحيث تعلم أنك تحصد كل ما زرعت
- ففعل الطيب في الدنيا أفضل

الوزير أبو الفضل الربيع بن يونس بن محمد :

كان محمد جد أبي الفضل من موالى أمير المؤمنين عليه السلام وذلك مايقول به صاحب جوامع الحكايات ، [٢٩] وتولى أبو الفضل الوزارة في عصر أبي جعفر المنصور بعد عزل المورياني ، فنشر العدل والإنصاف ، فلا شك أن ظل مدة طويلة متربعا على عرش الوزارة .

(مصراع ، ترجمته) :

« بالعدل تعلق الدولة ؟ »

الوزير أبو أيوب :

وكان أيضا وزيرا لأبي جعفر المنصور هـ

الوزير خالد بن سلطان :

وكان يتولى الوزارة كذلك في عصر أبي جعفر .

الوزير يعقوب بن داود بن طهمان :

لفت نظري أنا هذه الذرة الحقيمة في بعض الكتب الهامة أن داود كان من بين كتاب نصر بن سيار ، وبناء عليه كان يسلك طريق المحبة والإخلاص بالنسبة ليعحي بن زيد العلوي بل بالنسبة لأكثر سادات أهل البيت . ولما استشهد الإمام يحيى رضى الله عنه على يد أتباع نصر بن سيار وخرج أبو مسلم وطالب بمعاقة قتلة ذلك الإمام توجه داود للعمل مع صاحب الدولة ولكنه لم يجد ترحيبا كبيرا منه ، وبعد أن توفي توجه أبنائه - وكان أرشدتهم يسمى يعقوبا - للعمل مع أولاد أمير المؤمنين الحسن - سلام الله عليه ، وفي الوقت الذي خرج فيه إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن - عليه السلام على أبي جعفر الدوانيقي كان يعقوب في خدمته ، وبعد أن استشهد إبراهيم أسر يعقوب على يد أبي جعفر المنصور وسجن ، ولما اعتلى المهدي بن [٣٠] منصور عرش الخلافة أخرجه من السجن ، وجعله من بين خاصته ، ونظرا لأن يعقوب كان رجلا منادما ، حلوا الحديث ، أصبح خلال فترة قصيرة رئيسا للديوان ، وصار محسودا ومغبوطا به من أمثاله وأقرانه ، وفي تلك الأثناء ركله حصان فكسر ساقه وظل محروما بضعة أيام من لقاء الخليفة ، فلاعجب أن تحيّن الحساد الفرصة وغيروا نفس الخليفة عليه .

ويحكى على بن يعقوب فيقول ، قال والدي : حينما تحسنت قدمي نسيبا بعث المهدي شخصا في طلبي ، فجزرت قدمي وتوجهت للقائه ، ولما دخلت مجلس الخليفة شاهدت مجلسا في غاية من العظمة ورأيت جارية فاتنة ساحرة تجلس بالقرب من المهدي ، وأخذت الخليفة يلاطفني وقال لي : يا يعقوب ما حال هذا المجلس في نظرك ؟ قلت : أظال الله عمر أمير المؤمنين بالايوجد في الدنيا جميعها مثل هذا المجلس في جماله ! فقال لي المهدي : إني أهديتك هذا المجلس بالفرش والأواني والحارية ، فأخذت في الدعاء مرة أخرى للخليفة ، ثم قال لي المهدي : لي عندك حاجة ؟ فنهضت وقلت لحضرته : أي قيمة لي بحيث يخاطبني أمير المؤمنين بهذه العبارة ، فأبى حكم يصدره إنما هو فضل على وإرضاء ، فقال لي المهدي : بالله

عليك ستفعل ما أقوله ؟ فقلت : حقاً ، قال : ضع يدك فوق رأسي وأقسم ؟ فنفذت الأمر [٣١] وحينئذ أنعم علي بمائة ألف درهم وقال : أريد منك أن تقوم بقتل فلان العلوي وترينحني منه !! وأخذت الحارية والأثاث وانصرفت ثم طلبت العلوي فوجدته رجلاً عاقلاً متزناً في الحديث ، وخلال حوارهما معي قال لي : يا يعقوب أيليق بك أن تطالب يوم القيامة بدم ابن بنت رسول الله ؟ فقلت له : لا والله ولكن قل لي ما العمل ؟ قال : أتركني أخرج في منتصف الليل إلى مكان ما وأنجو من القتل ، وأبرم معي عهداً وميثاقاً بالألا أبيع في أي وقت للمهدي بما حدث ، وعندئذ أذنت للعلوي ورفيقه بالانصراف ، وعلمت تلك الحارية بحقيقة ما حدث وأرسلت سراً إلى المهدي شخصاً أطلعته على ماجرى ، فكلف المهدي في تلك الليلة جماعة قبضت على العلوي ورفيقه وأخذتهم إلى دار الخلافة . ويواصل يعقوب حديثه فيقول : ولما ذهب في اليوم التالي لملاقة المهدي سألتني بقوله : ماذا فعلت مع العلوي ؟ فأجبتة بقولي : أرجت أمير المؤمنين منه . قال : كلام رجل ! قلت : نعم . قال : بالله هذا ما حدث ؟ قلت : نعم . قال : ضع يدك على رأسي وأقسم ، ففعلت ما أمرني به . وبعدها صاح المهدي قائلاً : أيها الغلام ، أحضر الرجال الذين وضعتهم في هذا المنزل . ففتح الغلام المنزل وجاء بالعلوي ورفيقه إلى المجلس ، فغرقت أنا في بحر من الخجل ، وسقطت على الأرض . وبعد ذلك أمر المهدي بإيداع السجن فأتقوا بي في بئر ضيقة مظلمة ، وقضيت مدة كبيرة في هذا المكان الموحش فضعف بصري وأصبح شعري طويلاً خشناً كشعر الحيوانات . وفي النهاية أخرجني أحد الأشخاص وقادني [٣٢] إلى مكان ما ، وقال لي : ألق السلام على أمير المؤمنين ؟ ولما ألقيت عليه السلام ، قال لي : على من من أمراء المسلمين ألقيت السلام ؟ قلت : على المهدي . قال : لقد رحمه الله ! قلت : على الهادي . قال : لقد توفي هو أيضاً . قلت : على هرون الرشيد . قال : نعم ، اطلب الآن ما تريد ؟ قلت : أريد أن أعيش في مكة ؟ قال : لك هذا المطلب وماذا تريد غيرها ؟ قلت : لقد انتهى أمري ولا يليق بي أن أطلب شيئاً آخر ، وعندها أرسلوني إلى الحرم المكي . . ويقال إن المدة التي قضاها يعقوب في السجن كانت ستة عشر عاماً . . وبعد أن وصل مكة بفترة قصيرة انتقل إلى جوار ربه .

الوزير ابو خالد الاحول :

كان يتولى الوزارة في عهد الخليفة المهدي فترة من الوقت على حسب ما يرويه صاحب جوامع الحكايات . . وكان يهتم كثيراً بإحياء مراسم الجود والإحسان .

الوزير معاوية بن عبد الله الأشعري :

وكان أيضاً من وزراء المهدي .

الوزير عمرو بن تبع :

تولى الخلافة في عهد موسى الهادي .

الوزير ابراهيم بن ذكوان الحرقي :

جاء مايلي في جوامع الحكايات: ورد في كتاب الفرج بعد الشدة أن إبراهيم كان في بداية أمره [٣٣] الكاتب الخاص للخليفة المهدي ، ولما بعث المهدي ابنه موسى الهادي لتولي حكم ولاية جرجان عين إبراهيم بن ذكوان لمرافقته ، وحظي إبراهيم عند موسى — دون سائر أركان الولاية — بمزيد من التقرب والتفضيل . وأسند إليه إنجاز كثير من الأمور الهامة ، ونظراً لأن موسى الهادي كان ماجناً إلى حد كبير فإنه كان يقدم على ارتكاب أفعال مكروهة وتصرفات مشبوهة ، ووصلت حقيقة تلك الأمور المنكرة بانتظام إلى الخليفة المهدي فتصور أن ارتكاب تلك الأمور بسبب نيابة إبراهيم لابنه . . فلا عجب أن أرسل رسولا لاستدعائه ، ولكن الهادي منع إبراهيم من الذهاب للخليفة وبعث إليه برسالة اعتذار واهية ، فتسبب هذا التصرف في ازدياد غضب المهدي وكتب رسالة للهادي يقول له فيها مامضموه : إذا لم ترسل إبراهيم بن ذكوان إلى عرش الخلافة فسوف أعزلك من حكم الولاية ؟ ولما وصلت تلك الرسالة إلى موسى بعث إبراهيم مضطراً بصحبة جماعة من رجاله إلى بغداد وقال لهم : قيدوه حينما تصلون إلى أول منزل قبل دار السلام ؟

(بيتان ، ترجمتهما)

- دلَّله حيث لم يكن هناك خير عليه
- فلما رأى الضرر أسلمه
- فلتعلم أن وقت الشدة
- ينفض عنك الجميع

والخلاصة أن تلك الجماعة بعد أن طوت المنازل والمراحل قامت بتسليم إبراهيم للمهدي الذي عاتبه ، ثم أمر بقتله بعد أن عدد جرائمه وآثامه . ومما نقل عن إبراهيم أنه قال : حينما وصلت إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام التمسست من المنفذين قائلاً لهم : أعطوني الأمان قليلاً حتى أتوضأ وأصلي ركعتين لله ، [٣٤] فقبلت تلك الجماعة ما تسمى ، وتوجهت إلى رب العرش العظيم بالضراعة له والتماس المساعدة منه .. وقبل أن أنتهى من صلاتي علا الصياح والنواح من دار الخلافة .. وسأل الناس عن السبب فعرفوا أنه حدث في تلك اللحظة أن قدم للخليفة المهدي طعام مسموم ، تناول الخليفة بعضاً منه ، فبذت عاينه في الحال أعراض السم القاتل .. وخلاصة القول إنه بعد هذه الواقعة أفرج المنفذون للإعدام عن إبراهيم بن ذكوان ، وأرسلوا بسرعة في طلب الهادي ، وجاء الهادي بسرعة البرق من استرباد إلى دار السلام بغداد ، واعتلى عرش الخلافة وقلد إبراهيم منصب الوزارة ، ونجا إبراهيم بعناية الله الرحمن الرحيم من تلك الكارثة .. وظل يدير شئون الوزارة بحرية واستقلال خلال خلافة الهادي كما كان دائم الشكر لخالق الموت والحياة موفياً بالنذور والصدقات ، « والحمد لله والمنة لله الملك المعبود وهو الرحيم الغفور الودود .

الحديث عن بعض أحوال البرامكة

يجرى صيت فضل البرامكة وسخاؤهم على ألسنة مختلف الطوائف البشرية وأفواههم إلى درجة لا تحتاج إلى الشرح والتوضيح ، وإحسان تلك الفئة السامية وعطاؤها معروف ومشهور في جميع أنحاء العالم إلى درجة يستغنى فيها عن أصحاب اللسانين من أجل تحريرها وإثباتها .

(مصرع ، ترجمته)

— « أي حاجة للقمر الساطع من الليلة الصافية » .

فلا جرم أن نكتفي بالحديث عن جانب من جوانب أحوالهم :

[٣٥] أورد الثقة من الرواة أن نسب جعفر — والد خالد والملقب ببرمك — كان يمتد إلى ملوك الفرس وكان جعفر مجوسيا في بداية حياته يقوم بعبادة النار في معبد « نوبهار » ببليخ .. وفجأة وبالعناية الإلهية أضاعت شعلة الإيمان مصباح قلبه حسب قوله تعالى « ومن يهد الله فما له من مضل » (١) ، وهكذا تحلى بحماية الإيمان وتزين بزينة الإسلام وانتقل بأسرته وأمواله ومتاعه إلى دمشق التي كانت وقتها عاصمة خلفاء الدولة الأموية . ويذكر صاحب جامع الحكايات والتواريخ جلالى في كتابه أن مجيء جعفر إلى دمشق حدث في عصر عبد الملك بن مروان ، ويذكر آخرون أنه جاء إلى عاصمة الخلافة بالشام أيام سليمان بن عبد الملك ، وحيث إن الرواية الثانية أقرب إلى الصحة في نظرى فقد اعتمدت على صاحبها ، فيقول : حينما دخل جعفر

(١) سورة الزمر ، آية « ٣٧ » .

مجلس سليمان بن عبد الملك تغير لون سليمان وأمر رجاله بإخراجه من المجلس ، فتعجب جلساؤه مما حدث ، واستفسر أحدهم من سليمان عن سبب ذلك ! فقال له : هذا الرجل يحمل معه سماً !! قال : وكيف عرفت هذا ؟ قال سليمان : مثبت على ذراعى لؤلؤتين تتحركان تلقائياً كلما دخل عندى أحد يحمل سماً !! فدهش الحاضرون لقوله وبعثوا شخصاً إلى جعفر يستدعيه ، وسأله عن حقيقة ذلك !! فأجابهم بقوله : نعم يوجد قدر من السم تحت فص الخاتم الذى يبدى ! فقالوا له : لئى سبب تحمله معك ؟ قال أمتصه « برمكم »^(١) عند الشدة !! وبناء على ذلك لقب جعفر بالبرمكى .

[٣٦] والخلاصة أنه بعد هذه المحاورة أجلس سليمان بن عبد الملك جعفر البرمكى فى مجلسه وأظهر اللؤلؤتين حتى يجربها الحاضرون ويشاهدونها ، ووقتها سأل سليمان البرمكى قائله : هل سبق لك أن أطلعت على مثل هذا الأمر من قبل ؟ فأجاب البرمكى : لا . ولكنى كنت قد شاهدت أمراً فى غاية من الغرابة فى مجلس ملك « نخشب » ، مؤداه أن ملك نخشب كان يجلس ذات يوم على شاطئ النهر المحاور لقصره وفى يده قطعة ياقوت ثمينة ، وفجأة سقطت تلك الجوهرة النفيسة فى النهر ، فتأسف الحاضرون فقال لهم السلطان : لا تحزنوا ! وأمر خازنه بإحضار صندوق معين ! ونفذ الخازن الأمر ، ففتح السلطان الصندوق وأخرج منه سمكة ألقي بها فى النهر ، وفى الحال خرجت السمكة من النهر والياقوتة فى فمها ! فتعجب سليمان من سماع هذا الكلام ، وبعث برسالة إلى ملك نخشب طالبا منه تلك السمكة ، وبعد فترة عاد الرسول وقدم تلك السمكة والطبل الخاص بها إلى سليمان ، واختبر سليمان السمكة على الفور فاتضح له صدق قول البرمكى .. وأثناء ذلك قرع أحد الأشخاص الطبل فخرج منه ريح جعل الحاضرين يضحكون فقال البرمكى : هذه أصوات طبول الأمعاء !

(١) « برمكم » فعل فارسى فى صيغة المضارع الاتزامى للمتكلم ، من المصدر الفارسى « برمكىدن » بمعنى يمس أو يرضع .

وقد أطلق اللقب على خالد مستخدماً من ذلك الفعل الفارسى ، واشتهرت الأسرة جميعها بهذا اللقب وسوا « البرامكة » - المرجع السابق .

وعجوما فإن البرمكى وأبناءه العظام كانوا يعيشون معززين مكرمين أثناء خلافة الأمويين ، ولما سقطت دولتهم مصداقا لقوله تعالى « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » (١) وخلفهم العباسيون ، كانوا ينظرون هم أيضا الى البرامكة بعين الشفقة والاحترام .

[٣٧] الوزير خالد البرمكى (٢) :

كان خالد البرمكى وزيراً لأبى العباس السفاح بحسب ما ذكره صاحب جامع التواريخ .. وظل فترة يقوم بتدبير شئون الرعية .. كما كان أحد نواب بلاط الخلافة فى عهد أبى جعفر المنصور وكان أبو جعفر يستعين برأيه فى تدبير الصعب من أمور الرعية .

الوزير يحيى بن خالد :

عين يحيى أتابكاً لهارون الرشيد فى عهد المهدي بن منصور ، وكان هرون يستشيريه فى الصعب من أموره ، ولا يتردد عن الأخذ برأيه الصائب ، ومن المشهور عن المهدي بن المنصور أنه لما تمكن من عرش الخلافة قرر أن يخلفه ابنه الأكبر موسى الهادي على أن يتولى الخلافة هارون الرشيد بعد وفاة الهادي ، وبناء على ذلك أصبح الهادي خليفة بعد وفاة المهدي ، ولكنه أراد خلع هرون الرشيد من ولاية العهد ويجعل ابنه جعفر وليا للعهد ، وبعث برسول الى هارون أخبره بما ينتويه ، فتشاور هارون مع يحيى بن خالد فى هذا الموضوع ، فقال له يحيى : حذار أن توافق على هذا الأمر .. لاتحرم نفسك من نعمة الخلافة .. ولما بلغ خبر هذه المشورة الى مسامع الهادي قام بحبس يحيى . ويروى محمد بن يحيى على لسان والده أنه قال :

«حينما كنت مسجوناً بعثت بعريضة الى الهادي أقول له فيها : أرجو أن ألتقى بك على انفراد لأنى لدى نصيحة [٣٨] لك . فطلبنى الهادي وسألنى : ماهذه النصيحة ؟ فأجبتة بقولى : ياأمير المؤمنين ، لو تحدث لك الفاجعة - التى أدعو الله أن لا تراها عيني فى هذه الأيام فهل يطيع جعفر الناس بمختلف طبقاتهم وهو لم يصل بعد حد البلوغ ؟ فقال لى : إننى متردد فى هذا الأمر ! فقلت له : وإذا قدر وحديث هذا

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٢٦ » .

(٢) انظر جوامع الحكايات «عوفى» باب ١٤ حكاية ١٩٤ ص ١٧١ - طبع طهران ، ١٣٣٣ هـ . ش .

فربما يتطلع بعض كبراء بنى هاشم أمثال فلان وفلان إلى منصب الخلافة ، ويخرج الأمر من يد أولاد المهدي .. فرفع الهادي رأسه وهو غارق في التفكير ، فتجرات أنا مرة ثانية وقلت له : يا أمير المؤمنين ، إنه لمن الخير أن لا تقدم الآن على خلع الرشيد ، وأن تعهد لك أنه حينما يرشد جعفر سوف آتي بهارون حتى يبايعه ، فاستحسن الهادي هذا القول وأذن لي بالعودة .

والخلاصة أنه بعد أن مضى موسى الهادي في الخلافة عاما وشهرين توفي في عيسى آباد في عام مائة وسبعين من الهجرة ، وفي نفس الليلة التي حدثت فيها وفاته ، تولى هارون منصب الخلافة الرفيع بمساعدة يحيى بن خالد ، وفي اليوم التالي صلى هارون على أخيه ودفنه ، ثم جاء إلى بغداد من عيسى آباد وسلم إلى يحيى خاتمه وأسند إليه إدارة شئون الوزارة ، فرفع يحيى أعلام العدل والإنصاف وفتح أبواب الإحسان والإنعام على جميع طوائف بنى الإنسان .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد عمرت الدنيا بعدله وإنصافه

— وسعدت قلوب الناس باطفه وإحسان

وقد جاء في جامع الحكايات أنه أثناء خلافة هارون الرشيد حدث أن دب خلاف بين يحيى بن خالد البرمكي وبين [٣٩] عبد الله بن مالك الخزاعي ، وعلم الخليفة بحقيقة ذلك الخلاف ، فمهما حاول البرامكة القضاء على عبد الله لم يفلحوا .. وفي النهاية ولاه هارون الرشيد حاكماً على ولاية أرمينية ،

(بيت ، ترجمته)

— حينما يكون اللطف الإلهي عوناً وسنداً

— لن يصيبك أذى قط من تدبير الآخرين

وحينما تولى عبد الله الحكم في أرمينية حدث أن تصرف أحد العمال — بسبب البطالة وعدم التفات يحيى إليه — بمنتهى الذكاء ، فكتب رسالة مزورة على لسان يحيى تتضمن التوصية عليه وتوجه بها إلى أرمينية ، وقدمها إلى عبد الله ، فلما قرأها عبد الله ظن أنه كتبها زوراً بنحط يحيى بقصد المنفعة ، فلا جرم أن قال لحامل الرسالة : المنافع لا تتحقق أبداً بالغش والتزوير ، والأمور لا تنتظم مطامعاً بالكذب أو التضليل !!

(بيتان ، ترجمتهما)

- أئني يفيد الحديث الكاذب ! ؟
- وما مقدار الضياء لشعلة القشة ! ؟
- فعندما يصنع الزجاجي زجاجة ويعطيها اللون الأحمر
- فإن طبعه السليم لا يعطيها اسم الأفحوان

فأجاب ذلك الرجل برباطة جأش مطمئنا الى كرم يحيى بقوله : أيها الأمير :
تلفيق الكذب على الأموات [٤٠] ممكن ، أما يحيى فهو مازال بحمد الله بن
الأحياء .. ولو توجه أحد إلى دار الخلافة ، فاكتب له صورة الواقعة ، فإن صدق
يحيى قائلًا إن هذه التوصية صادرة مني فهو المطلوب ، وإلا فأحلوا بي ما يراه
زأيكم العالي ! فوافق عبد الله على هذا القول وبعث برسالة إلى يحيى للوقوف
على تلك القضية ، ولما قرأ يحيى تلك الرسالة ، عرف على أي نحو تسير الأمور ،
وكتب على الفور الرد عليها كما يلي :

طالما أننا بالتأكيد قد محونا من خاطرننا بهذا شقاق جنابكم ، واستبدلنا الكدر
والشقاق بالصفاء والوفاق ، وفتحنا باب التراسل بيننا ، فقد كتبنا لذلك الشخص
توصية ، وسوف تستوجب منتنا كل مكرمة تبدلونها له .
وحينئذ نظر يحيى إلى الحاضرين وقال لهم : لو أن شخصا يكتب رسالة مزورة
موجهة من ديوان أمير المؤمنين إلى أحد الأمراء فماذا يكون جزاؤه ؟ فقالوا : قطع
يده والقضاء عليه .. فقال لهم يحيى : هذا ليس من شيمة أهل اللطف والكرم ،
فالفقير الذي يذهب إلى أرمينية من بغداد أملًا في الكسب معتمدا على كثرة إحساننا
وكرمنا ، ويعد رسالتنا أنها سوف تكون السبب في وصوله إلى مقصده ، كيف لنا
أن نحرمه ونخيب أمله ؟

(بيتان ، ترجمتهما)

- مهما يرتكب من آثام
- فإنه يلجأ إلينا ويحتسب بنا
- وحرمان كل عاص
- كفر لدى أهل الإحسان

فقال تلك الجماعة : هكذا جبلت أنت على هذه الصفات الحميدة ، والناس جميعا بعيدون كثيرا عن مثل [٤١] هذه الصفات .

والخلاصة أنه حينما وصلت تلك الرسالة إلى عبد الله صدق ذلك الرجل وأنعم عليه بمائتي ألف درهم ولباس فاخر وعشرة رعوس من الجياد وخمسة من الإبل وخمسة من الغلمان .

ومن الثابت أنه كان ليحيى أربعة أبناء يصدق عليهم مضمون هذا المصراع :
« كلهم يحيى رسوم الفضل والجود » .

الوزير الفضل بن يحيى :

اشتهر الفضل بن يحيى بصفات الجود والسخاء وإحياء مراسم العدالة ، كما عرف عن جعفر — بالإضافة إلى الأوصاف السابقة — تمكنه في فن الكتابة والفصاحة إلى درجة أن رفع في هذا الفن راية « أنا ولاغير » ، وكذلك كان محمد بن يحيى معروفا بعلو الهمة ، وموسى بن يحيى فاق أمثاله وأقرانه في الشجاعة في الحديث .. وظلت إدارة شؤون الخلافة بأطرافها المترامية في معظم أنحاء العالم معقودة على الرأي الصائب ليحيى وأولاده الأجداد منذ بداية خلافة الرشيد وحتى عام ١٨٥ هـ الوقت الذي تغير فيه هرون على البرامكة . وقد اختص الفضل وجعفر دون سائر إخوتها بمزيد من السلطة والجاه فكانت لهما أياد بيضاء في البذل والعطاء .
(بيت ، ترجمته)

— كان نموذجاً في اللطف والكرم

— وكان فرداً في البذل والعطاء

[٤٢] ونقل صاحب الحكايات عن إسحق الموصلي أنه قال : توجهت ذات يوم إلى بلاط هارون الرشيد^(١) حتى أسعد بقلائه ، ولما علمت أن الخليفة في فترة الاستراحة ، هممت بالعودة دون شك ، وأثناء ذلك طلبني جعفر بن يحيى وقال لي : ماذا يحدث لو تواقفت اليوم ونجلس سوياً نتجاذب أطراف الحديث منفردين وتبادل اللعب وتناول الشراب ؟ فقبلت هذا العرض ، وأخذني جعفر إلى منزل منزول وأعد مجلساً في غاية من الحسن والجمال .

(١) أضيفت إليه عبارة « عليه اللعنة » في الأصل .

(بيت ، ترجمته)

— مجلس مزدان كجنة الخلد

— طيبة ترابه كرائحة العنبر

ثم ارتدى جعفر ثيابا من الحرير كما ألبسنى مثله ، وأمر الخواري بإحضار المغنية وقال لحاجبه : لا تأذن لأحد بالدخول علينا سوى عبد الملك ، واختص عبد الملك هذا وقتها بمزيد من التقرب دون سائر ندمائه الخصوصيين . والخلاصة أنه بعد أن دارت عليها عدة كثوس وترنحت رأساها من أثر الشراب النقي ،

(بيتان ، ترجمتهما)

— لقد حمى عزف الصنج والنأى من جهة

— وعلت أصوات الشراب من جهة أخرى

— مجلس كالجنة سقاته من الحور

— لم ينقصه أى شىء من الأشياء

دخل وقتها من باب ذلك المنزل فجأة عبد الملك بن صالح الهاشمى — وكان من بين أقارب هرون [٤٣] الرشيد ، ولم يكن مطلقا — لعظمته — يقدم على المناذمة أو المصاحبة فى مجلس الخليفة ، لأن الحاجب كان قد أخطأ بين عبد الملك هذا وعبد الملك ذلك نديم جعفر ، ولما وقعت عينا جعفر على عبد الملك بن صالح تغير كثيرا ، فلما شاهد عبد الملك آثار التغير بادية على وجه جعفر بدأ على الفور فى المباشرة وطلب الطعام ، وبعد أن تناول قدحا منه تناول قدحا من الشراب — رغم أنه لم يكن يتناول الشراب مطلقا فى مجلس الخليفة — واتهمه . ولا شك أن اطمأنت نفس جعفر وانتشع عن وجهه التغير ، وقبل يد عبد الملك وقال له : قل لى ماذا يضايقلك حتى أهب فى مثل تلك الحالة ؟ :

(بيت ، ترجمته)

— وأحزم روحى فى خدمتك

— بل اتخذ حزاما لنفسى فى طاعتك

فأجابه عبد الملك بقوله : ليس من المناسب أن أذكر بغيتى فى هذا المجلس ..

(بيت ، ترجمته)

- لا نسمع قصتنا لأنها أس الأحران

- وظلم أن تعرض على هذا الخاطر السعيد

وكرر جعفر سؤاله مرة أخرى فقال له عبد الملك : يبدو أن الخليفة قد تغير على !! يلزم أن يتبدل الخفاء بالصفاء ، فقال جعفر : إن هذا الأمر ميسور ! اطلب خدمة أخرى ؟ قال : إنني أقترض أربعة آلاف درهم وآمل سدادها بفضل كرم الخليفة ؟ فقال جعفر : هذا المبلغ جاهز ، ولكن ليس من ساطق أن آتي بهذه الأموال على الفور وأنعم بها عليك . وأما غداً فسوف أحصل بمشيئة الله تعالى على موافقة أمير المؤمنين [٤٤] على سداد تلك القروض . ويمكنك الآن أن تطلب خدمة أخرى ؟ فقال له عبد الملك : إنه لا يخفى عليك أن ولدي لجدير بالرعاية ، فلو تتوسط له لدى الخليفة ليشمله بعنايته ويسند إليه عملاً مناسباً ؟ قال جعفر : سوف أعمل على أن يشمل أمير المؤمنين ابنك بعين عنايته ويسند إليه حكم ولاية مصر ويزوجه ابنته عالية !! ويواصل إسحق روايته قائلاً : فظننت بيني وبين نفسي أن جعفر كان يهذي من أثر السكر . فكيف له أن يحقق تلك المطالب ؟ ! ولكنه في اليوم التالي وحينما أضاء الكون نور الخالق أسرع إلى بلاط الخليفة فوجدت مجلس الخليفة هرون مكتظاً بالعلماء والأئمة ، وعندئذ حضر عبد الملك إلى ذلك المجلس ،

(مصرع ترجمته)

« فلما وقعت عين الخليفة عليه »

بدأ يلاطفه وقال له : لقد بدلت جفائي لك بصفائي وأمرت أن تسدد قروضك من بيت المال ! عندئذ قال الخليفة أمام عبد الملك والأئمة : لقد زوجت ابنتي عالية لابن عبد الملك وعينته حاكماً على ولاية مصر فتمعجت أنا من حدوث هذا ، وبعد أن انفض المجلس توجهت إلى جعفر بن يحيى وسألته عن كيفية إنجاز هذه الأمور !! فقال لي : حينما ذهبت في الصباح إلى مجلس أمير المؤمنين عرضت عليه بالتفصيل ما حدث . في لقاء الأمس والموافقات التي كنت قد أعطيتها فقال لي الخليفة : إنني موافق على جميع الملتزمات هذه . وعندئذ - وبناء على موافقة الخليفة - أرسلت شخصاً لاستدعاء الأكابر [٤٥] والأشراف ونظمت

هذا المجلس . . وأنجزت هذه الأمور كما رأيت ! وفتح الله عز وجل - بسبي -
أبواب لطف أمير المؤمنين ورحمته على عبد الملك .

(شعر فارسي ، ترجمته)

- حينما يحظى وزير سعيد عاقل
- بمكانة عالية لدى الملك
- يجعل للناس من الإحسان نصيبا
- ويحقق للفضلاء آمالهم
- ويكون اهتمامه كثيرا لا ينقطع
- بتعظيم أهل العلم والكمال
- ويرعى جميع الفضلاء ، ويرشد
- الملوك إلى هذا الطريق
- ويسعى لتحقيق لكبار العظماء
- آمالهم من الألفاظ الملكية

ومن الثابت عند كبار المؤرخين أنه في عام ١٨٨ هـ - كعادة الأيام وطبيعة
الفلك الغدار يل بناء على قضاء الخالق وتقدير المنتقم الجبار - تغيرت نفس هارون
الرشيد (١) على البرامكة وابتلى كل منهم بنوع من البلاء فصار مألم إلى العدم
والفناء :

(بيتان ، ترجمتهما)

- هذه هي عادة الدنيا
- تقرن عطاياها بالأمها
- وعزها لا يدوم بلا تبديل
- وأحوالها سريعة التغير

والأسباب التي غيرت نفس الخليفة على البرامكة كثيرة ، ومن الواجب ذكر
بعض هذه الأسباب [٤٦] ضمن هذه الصفحات : فمن بينها قصة يحيى بن عبد الله

(١) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » في الأصل .

بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وتتلخص في أن ذلك السيد ثار بين الديالملة في ١٧٦ هـ والتف حوله خلق كثير .. ولما علم الرشيد بهذا النبأ كلف الفضل ابن يحيى بالتصدي ليحيى ، وبناء عليه توجه الفضل على رأس خمسين ألف فارس للقاءه ، وبعث إلى يحيى برسائل تتضمن تحذيره من العصيان وتشجيعه على الصلاح ، فجنح يحيى إلى الصلاح والصفاء ورد عليه برسالة يقول فيها : لو أنك تبعث إلى برسالة أمان من هرون تتضمن الموافقة على شروط الصلاح ، يمكنني التوجه معك إلى بغداد ؟ فأبلغ الفضل ملتتمس يحيى إلى الرشيد ، فسر هرون الرشيد وابتهج وأرسل بوثيقة كتبها تتضمن الموافقة على طلبات يحيى ، ولما وصلت تلك الوثيقة إلى يحيى سحب الفضل إلى بغداد ، وبذلك ارتفعت مكانة الفضل بسبب هذه الخدمة الجليلة ، ولكن من الموثوق بصحته أن هارون الرشيد شمل يحيى بن عبد الله برعايته - بمقتضى الوثيقة المذكورة - لفترة من الوقت ، ولكنه في النهاية قبض على هذا إلى السيد وسلمه جعفر بن يحيى واشترط على جعفر التحفظ البالغ عليه . وفي تلك الأثناء دخل جعفر ذات يوم على يحيى ونظرا لأنه كان يفهم أن هارون ينوى القضاء عليه قال ذلك السيد لجعفر : خف الله - سبحانه وتعالى - ولا تضع نفسك بين الأشخاص الذين يخاصمهم سيدنا محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة ؟ [٤٧] لأنني ما ارتكبت ذنبا استحق عليه القتل . . وقد أثر هذا القول في جعفر فأمر جماعة من رجالة ثقلوا يحيى إلى مكان آمن ، ونقلت صورة تلك الواقعة إلى هارون الرشيد الذي قال ذات يوم لجعفر : ما حال يحيى بن عبد الله ؟ فقال : مقيد في مكان ضيق مظلم فاستطرد الرشيد قائلاً : بحياتي هذا هو ما حدث ؟ ففهم جعفر بذلك كائنه الخارق أن كيفية تلك الواقعة اتضح للخليفة فلا عجب أن قال : بحياتك ما حدث له ، ولكنني حينما تيقنت أن يحيى أصبح شيخاً كبيراً ضعيفاً ولن يحدث منه ما يشغل بال أمير المؤمنين أخرجه من السجن ! فتقل هذا الرد على نفس الرشيد وقال متظاهراً : حسناً فعلت ! ولكنه قال هامساً أثناء خروج جعفر من المجلس : يقتلني الله لو لم أقتلك !!

ومن هذه الأسباب أيضاً أنهم جاعوا ذات مرة بحارية إلى هارون الرشيد كانت تنصف بالجمال العذرى والوجه الصبوح وبالأنوثة الفاتنة والصوت الحسن ..

(بيتان ، ترجمتها)

— حسناء وردية الوجه دقيقة الخصر ، هيفاء القوام

— طيبة الرائحة ، مثيرة الفتنة والفوضى في العام

— لطيفة الطبع تنهادى في رشاقة ودلال

— حسناء كالصنم ممشوقة القوام ، مشرقة الحين كالقمر

فأعجب الرشيد بجمالها وكمالها وأمر باستدعاء وليها، فلما حضر ذلك الشخص وسأله عن ثمن تلك الفتاة قال : لقد أقسمت ألا أبيع هذه الحارية بأقل من مائة ألف دينار . فأمر الرشيد بأن يعطوه [٤٨] المبلغ المذكور بغبر نقصان ، وتباطأ جعفر في أداء ذلك المبلغ وقال لو والده ولشقيقه : لو ينفق الخليفة أموال بيت المال بهذا الشكل فلن يبق — بعد فترة قليلة — فلس واحد من الدراهم والدنانير بالخزانة العامة : . وأرى أنه من الأنسب أن تنثر الآن المائة ألف دينار هذه في طريق الخليفة حتى يعلم كم من الذهب ثمن هذه الحارية !! وربما يستكثر ذلك المبلغ في نظره ويتغاضى عن شراء تلك الحارية . فاستحسن يحيى والفضل هذا الرأي ، وأمر جعفر الخازن بالتنفيذ على هذا الأساس .. ولما خرج الرشيد من غرفته ووصل إلى تلك النقود سأل الخازن : من أين جاءوا بهذه الخزنة ؟ فقال الخازن : هذا ثمن تلك الحارية التي صلد الأمر بشرائها ! فأمر الرشيد بأن يأخذ ذلك المال ويضعوه في خزائن مستقلة تسمى ببيت مال العروس . ومنذ تلك الحادثة تقريرا أمر بالتنقيش على الخزائن وجردتها ، فاتضح له أن البرامكة أنفقوا كثيرا من أموال الديوان بحق وبغير حق ، ومن هنا وجد التغيير مكانا له في نفسه .

ونقل عن إبراهيم بن المهدي بن منصور أنه قال : ذات يوم ذهبت — نظرا لصداقتي القوية بجعفر بن يحيى — لتقديم مراسم التهنئة له بالقصر الذي كان قد أقامه حديثا ، وأثناء الحديث معه قال لي : هل سمعت يا إبراهيم قول منصور بن زياد الذي قاله عن هذا القصر ؟ فقلت له : لا اشرح لي ماذا قال ؟ قال : لقد سألته ، هل ترى في هذا القصر عيبا قط ؟ فأجابني بقوله : نعم ، هذا القصر لا توجد به شجرة بلح !! ويقول إبراهيم إنني قلت له : عيب قصرك أنك أنفقت في بنائه ألف ألف درهم وأخشى أن [٤٩] لا يعجب هذا التصرف أمير المؤمنين ويقول

لك إن هذه أموالى الخاصة أنفقتها فى غير موضعها . فقال جعفر : لقد أنعم أمير المؤمنين على بأكثر هذه الأموال وتوفر لى الكثير منها خلال خدمته ، فقلت له إن الأعداء والحساد ينقلون هذه الصورة بوجه آخر ويقولون : إن الشخص الذى ينفق مائتى تومان فى بناء واحد كم تبلغ باقى مصروفاته !! ومثل هذه الأقاويل تؤثر فى الحكام ، فقال جعفر : لو سألتنى أمير المؤمنين عن السبب فى بناء هذا القصر ويقول لى مثل هذا الكلام فسوف أقول له : إن لأمر المؤمنين أموالا وهبات كثيرة أنعم بها على الكثيرين من رجال دولته وأعيان بلاطه ورغم ذلك فهم ينكرون نعمه ويخفونها ! وكنت أنا الرجل الذى جعل نعم خليفته العصر وإحسانه ظاهرة واضحه ناديت الناس جميعا قائلا لهم : هيا أقدموا وشاهدوا مقدار فضل أمير المؤمنين وحقه على ويقول إبراهيم : إننى قلت له : يمكنك قول كل ذلك فى حالة ما إذا كان أمير المؤمنين فى موضع المناظرة معك وإلا فسوف تبدو لك متاعب كثيرة .

ومن الأسباب الأخرى لتغير هارون الرشيد على البرامكة كانت قصة العباسية ، ومؤداها أن الرشيد كان يهوى كثيرا مجالس الأنس والطرب ، ولم يكن يحتمل الاختلاط بجعفر البرمكى ومجالسة شقيقته العباسية فى آن واحد - وكان كلاهما وحيد عصره فى الظرف وحسن الحديث - وبناء على ذلك فكر فى الجمع بين هذين النديمين الظريفيين فى مجلس واحد معه على ألا يكون هناك تعارض فى ذلك من الناحية الشرعية الشريفة ، وبعد أن فكر لجعفر :

[٥٠] إننى شغوف جدا بمجالستك وأنس كذلك بوجود العباسية وأرغب أن أجمعكم معى أحيانا فى مجلس واحد حتى أنعم بالجلوس معكم مجتمعين فى مجلس الأنس والطرب ، وسوف أعقد عليك الآن عقد الزواج بالعباسية شريطة أن لا تتحدثا سويا فى الخفاء فقط بل شريطة أن لا تتجمعا مطلقا فى غير مجلسى . ووافق جعفر على هذا رأى ، فعقد الرشيد له على العباسية ، وبعدها كان جعفر والعباسية يحضران مجلس هارون الرشيد دون مبالاة ويتبادلان الحديث سويا ، ونظرا لأن جعفر كان شابا جميلا فقد أحبه العباسية وطلبت منه الوصال ، ولم يحتمل جعفر أيضا البعد عن تلك العروس الفتاة ، وضرب بوصية الرشيد عرض الحائط ، وتحين الفرصة وأخذها بين أحضانها ، وبعد فترة قصيرة حملت العباسية وأنجبت منه ابناً ، وخوفا من هارون

الرشيد أودعت العباسية ابنها لدى مربية حملته إلى مكة المكرمة ، وبعد فترة من الوقت غضبت إحدى الحواري من العباسية فأبلغت الرشيد بكيفية ما حدث بالتفصيل . وجاء في روضة الصفا أنه في تلك الأيام التي وقف فيها هارون على حقيقة هذه الحادثة عزم على السفر إلى الحرم الشريف ، وبعث العباسية برسول إلى مكة لينقل ابنها من هناك إلى اليمن ، ولما وصل الرشيد إلى مكة - وبعد بحث وتفتيش دقيق - تأكد من صحة الحادثة المذكورة ، ووقتها صمم على استئصال البرامكة ، فبعد فراغه من أداء مناسك الحج عاد إلى بغداد ومنها إلى الأنبار ومن الأنبار بعث بسندی بن شاهك - الذي كان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا - إلى بغداد ، وقال له : عليك أن تقوم في اليوم الغداني بالقبض على البرامكة [٥١] وأقاربهم ، وتقوم بمجرد ممتلكاتهم !! وبقي هارون في الأنبار ، وعقد بها مجالس الطرب والشراب ، وكان جعفر وقتها يرافقه .

وقد ذكر أنه في الأيام التي تغير فيها هارون الرشيد على جعفر بن يحيى ، حدث أن فهم جعفر بعضا من هذا التغير ، وذات يوم أفضى به إلى إبراهيم بن المهدي ورجاه أن يصحبه إلى مجلس هرون ويلاحظ بنفسه مدى صحة ظنه من عدمه ! وبالفعل ذهب إبراهيم إلى مجلس الخليفة وجلس فترة ثم خرج من دار الخلافة قبل جعفر وذهب إلى خميلة من الأشجار كانت على رأس الطريق واختبأ بينها ، ولما انفض المجلس سار جعفر أيضا في طريقه ، فلما بلغ تلك الأشجار نادى إبراهيم ، واقرب منه إبراهيم فقال له جعفر : قل لي كيف وجدت شعور الخليفة نحوي ؟ فقال إبراهيم : قل لي أولا كيف عرفت أنني توقفت بين هذه الأشجار ؟ فأجابه قائلا : نظرا لأنني أحسست باهتمامك البالغ بأموري فقد عرفت بنحري أنك لن تعود إلى بيتك ما لم تخبرني عما لاحظته ، ولا يوجد مكان في هذا الطريق يمكن الاختباء فيه سوى هذه الأشجار !! فقال إبراهيم : حقا ماقلته هو ماحدث . وأما ما لاحظته أنا فهو أن الخليفة يبدي عدم اهتمامه بك كلية ، وربما يقبض عليك قريبا بسبب غضبه لأن كل كلام جاد كنت تقوله اليوم كان الرشيد يجيب عليه على سبيل المزاح ، وما كنت تقوله على سبيل المزاح كان يأخذه مأخذا الجد ، وهذا المسلك دليل قوي على عدم رضائه عنك . .

[٥٢] والخلاصة أنه حينما تعددت أسباب نكبة البرامكة طلب الرشيد خادمه ياسر في غرة صفر عام ١٨٧ هـ وقال له : إننى أكلفك بمهمة عليك بتنفيذها في الحال وإلا فسوف يلحقك غضبى ؟ فقال ياسر : يا أمير المؤمنين .

مصراع :

« واجب على أن أفعل ما تريد »

قال الرشيد : اذهب وائتنى برأس جعفر البرمكى ؟ فارتعدت ، فرائص ياسر بسماع هذا الكلام ودهش ، فشدد هارون القول مرة أخرى وقال : إذا لم تنفذ ذلك فسوف يحل عليك قهرى وسيخطئ . . وعند ذلك توجه ياسر إلى منزل جعفر ودخل مجلسه دون استئذان ، فدب الخوف فى نفس جعفر وسأله عن سبب مجيئه فأبلغه ياسر أمر الخليفة ، فقال له جعفر : كثيرا ما ترد بعض الأقوال على لسان الخليفة من أثر السكر والآن عد وقل له : لقد قتلت جعفرا ، وإن وجدته فى الصباح نادما فهو المطلوب ، وإلا عليك تنفيذ ما أمرت به ، فرفض ياسر قبول هذا الاتماس ! وذهب معه جعفر قريبا من مجلس الرشيد وقال لياسر : اذهب مرة أخرى لدى أمير المؤمنين فربما يندم على هذا الحكم فدخل ياسر المجلس فسأله الرشيد قائلا : ماذا فعلت ؟ قال : لقد أحضرت رأس جعفر ، وهى الآن بالخارج ، فقال له هارون أرفى إياها بسرعة وإلا أمرت بفصل رأسك . وعند ذلك عاد ياسر وفصل رأس إمام أهل الفضل والكرم عن جسده وحملها إلى الرشيد وألقى بها تحت أقدامه .

[٥٣] (ثلاثة أبيات ، ترجمتها)

- أين ذاك القلم الذى كان ينثر الدر فى كفه
 - وأين ذاك الحديث الذى كان من أنفاسه تيممة للروح
 - أين ذاك الشخص الذى كان الفلك الكهل
 - فى مدحج لسانا مستقيما كشعاع الشمس
 - كاد الخلق يوم وفاته أن يجترقوا حزننا عليه
 - فكانت زوارق النار تسبح فوق بحار الدمع
- وقد ذكر بعض المؤرخين أن هارون قال لياسر بعد مقتل جعفر : ائتنى بفلان

وفلان . ولما وصل هؤلاء الناس إلى الرشيد قال لهم : اقطعوا رقبة ياسر لأني لا أحتمل رؤية قاتل جعفر . فنقلوا أوامره .

وكان عمر جعفر سبعة وثلاثين عاما وكانت فترة عظمته ونيابته سبعة عشر عاما وبعض العام .

والخلاصة أنه حينما قتل جعفر ثم أسر يحيى والفضل بل تم أسر جميع البرامكة وتم حبسهم ، وفي رواية أخرى قد تم قتلهم أيضا ، ويقال إنهم حملوا جثة جعفر — بأمر الرشيد — من الأنبار إلى بغداد ، وعلقوها على رأس جسر ثم أحرقوها بعد بضعة أيام . ومن أغرب الوقائع التي أوردتها المؤرخون في مؤلفاتهم ما ذكر على لسان أحد الكتاب الذي يقول : لقد وقع نظري ذات يوم على دفتر مصروفات هارون الرشيد فرأيت في إحدى الصفحات أنه صرف في اليوم الفلاني — بأمر الخليفة — إلى أبي الفضل جعفر بن يحيى — أدام الله كرامته — الكثير من الذهب والفضة والكساء والفراش والعطور على سبيل الإنعام ، وبعد أن جمعت ثمنها وجدته ثلاثين ألف ألف درهم ، كما شاهدت في صفحة أخرى [٥٤] أن ثمن الغاز والوقود الذي أحرقوا به جثة جعفر بن يحيى قيمته أربعة دراهم ونصف لا غير « فاعتبروا يا أولي الأبصار » (١) .

(رباعى ، ترجمته)

— أيها الغر : لو قدر لك أن ترضع يوما من ثدى الحرص والطمع ..

— لبن الحناء والإقبال

— فلا تغتر بكمال مجدك في فراش العمر

— وتذكر عهد عظماء البرامكة !

وذكر في جامع الحكايات أن هرون الرشيد بعد قضائه على البرامكة أمر أن لا يتحدث أحد من الناس بمدحهم وأن لا يسجل إنسان مآثرهم وعطاياهم ، وبعد فترة جاء شخص يقول للخليفة إن هناك شيخا يأتي كل ليلة ويجلس على مقعد أمام منازل البرامكة ويتحدث بأفضالهم على مسمع من الناس ، فغضب هارون وأمر

(١) سورة الحشر ، آية «٢» .

بإحضار هذا الشيخ فأتى رجاله في الحال بالشيخ وقدموه له فأصدر الأمر بقتله ، فقال الشيخ الفقير للخليفة : أيها الخليفة إني آمل أن تعطيني فرصة أعرض عليك فيها بعضاً من أحوالي وعندئذ تحكم بما يقتضيه رأيك الصائب ، فقال له الخليفة : قل له قال الشيخ : أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، وكان آباءني وأجدادي من عظماء الشام ، ثم تبدلت عظمتي ومكانتي بالشام بسبب أحداث الزمن وتقلبات الأيام ، واضطرت للرحيل عن وطني مع أسرتي وأولادي وجئت إلى بغداد بعد احتمال شتى المحن والآلام ، وتركت أسرتي وأطفالي في أحد المساجد وخرجت على أمل أن أجد شخصاً يؤويني إلى جواره ، فلما بلغت وسط السوق رأيت [٥٥] جمعا من الكبراء يمرون كل بصحبة آخر ، فقلت لنفسي لا بد أنهم متوجهون لحضور حفل ما ، ونظرا لأنني كنت قد وصلت إلى درجة من الجوع ما وجدته قادر على احتمالها سرت خلف ذلك الجمع ، وفجأة وصلت إلى قصر عال ، وسمح لي الحارس بالدخول خلف هؤلاء الناس ، وبعد أن دخلت هذا القصر جلست في ركن من أركانه ، ثم سألت من كان بجانبني قائلاً له : من صاحب هذا المنزل ؟ وما سبب هذا الاجتماع ؟ فأجابني بقوله : هذا منزل الفضل البرمكي ، وسبب الاجتماع حضور عقد قران ، وبعد أن عقد العقد جاء الخدم بأطباق الذهب ووضعوا أمام كل شخص طبقاً وأعطوني أيضاً طبقاً ، وبعدها نثروا عقود الضياع والعقارات بحيث أن كل من يقع في يده عقداً ، تكون له المزرعة أو العقار المكتوب فيه ، فوقع في يدي عقدان ثم انفض المجلس ، ولما هممت بالخروج من ذلك القصر أمسك غلام بيدي وأعادني ، ففكرت بيني وبين نفسي أنه يريد أن يأخذ الذهب والعقود مني ولكنه أخذني على عكس ما توقعته إلى الفضل فاستقبلني الفضل استقبالا حسناً وقال لي : لقد رأيتك غريباً بين هؤلاء الناس فأردت أن أعرف بعضاً عن أحوالك ، فقل لي من أين أتيت ، وكيف دخلت هذا المجلس ؟ فقصصت عليه قصتي الأليمة من أولها إلى آخرها فقال الفضل : وأين يقيم أهللك الآن ؟ قلت له في المسجد القلاني ، فقال : لا تحزن فسوف أهيئ لك ما يريح نفسك !! وبعد ذلك نادى غلاماً وهمس له ببضع كلمات في أذنه ثم ألبسني لباساً فاخراً وشملني في ذلك اليوم ببالح عنيته ، وفي المساء رفضت كل [٥٦] محاولة لإبقائي . وقلت له : إن أطفالي عراة جياع في المسجد ، فلم يسمح لي بالرحيل ثم أذن لي بالرحيل في اليوم التالي ، وكلف خادماً بمرافقتي ، ولما طلبت

أن أذهب إلى ذلك المسجد منعني ثم أخذني إلى قصر عظيم حيث وجدت أسرتي هناك فسألهم : من أتى بكم إلى هنا ؟ فأجابوني قائلين : حدث أمس وعند صلاة الفجر أن جاءت جماعة إلى المسجد وأخذونا إلى هذا القصر وقدموا لنا مختلف الأصناف من المأكول والملبس ، فحمدت الله وشكرته ، وبعد ذلك كنت ألزم البرامكة وأشيد بكثرة إنعامهم وإحسانهم ، والآن أيها الخليفة لو لم أتناول هذه الجماعة بالمدح والثناء لكنت من الكافرين بالنعمة وحق على الخذلان في الدنيا والآخرة . فلما سمع هارون الرشيد هذه القصة سالت من عينيه الدموع وأنعم بألف دينار من الذهب على الشيخ ثم أفرج عنه ، وعند ذلك قبل الشيخ الأرض قائلاً : هذا أيضاً يا مولاي من بركات البرامكة .

ومن مضمون هذه القصة يتضح لأهل الخبرة والدراية أن كل عظيم — عندما تقبل الدنيا عليه بخيراتها — تجعل من الكرم والإحسان شعاراً له ، ويعمل بقدر ما يستطيع على مساعدة الفقراء والمساكين أن يمحى اسمه أبداً من سجلات الوجود مهما انقضت الشهور والأعوام ولن تزول ذكراه الطيبة في الدنيا بمرور الليالي والأيام .

(رابعي ، ترجمته)

- يامن أصبحت في مصاف النجوم برأيتك النصائب
- ويامن انتقلت شهرتك بجودك بين الناس كالرياح
- لن يغيب اسمك من سجلات الوجود
- مهما حدث من تقلبات الأيام والدهور

[٥٧] الوزير الفضل بن الربيع :

بعد غروب شمس دولة البرامكة بلغ كوكب الفضل بن الربيع الآفاق وعينه الرشيد في منصب الوزارة ، ولما جاء هارون مرض الموت في ولاية طوس ، وعجز وزيرها عن تدبير الموقف الطارئ استدعى هارون الفضل ، وقال له : كل ما يخصني من مال ومتاع وسلطان يثول كله للمأمون ، وعليك أن تعمل على تسليمه له دون نقصان ، ولكنه حينما توفي الرشيد جلس محمد الأمين على عرش الخلافة في بغداد ، وبعث إلى الفضل بن الربيع برسول يقول له : اجمع كل متعلقات الرشيد وتوجه بسرعة إلى بغداد . فنفذ الفضل هذا الأمر وأخذ طريقه إلى بغداد ، وبلغ المأمون

هذا الخبر في مرو فأرسل على وجه السرعة برسول إلى الفضل يقول له : لماذا تتصرف على خلاف وصية الرشيد وتأخذ حقوق مملكتك ؟ ولحق الرسول بالفضل في نيسابور ولكنه عاد بلا فائدة .. ولما دخل الفضل دار السلام ببغداد لقي الخطوة من الخليفة حيث وضع محمد الأمين زمام أمور المملك والمال في يديه الخبيرتين وتفرغ هو لمجالس النساء وركوب الخيل ولعب الصولجان ولم يهتم إطلاقاً بإدارة الحكم وكسب ثقة الجيش والرعية ، فلاشك أن جال بخاطر الفضل بن الربيع أنه ، لو يظل الأمر على هذا الحال فإن المأمون سوف يتمكن من الحصول على الخلافة في أقرب وقت وينتقم مني ، ولذلك أخذ يفكر ويدبر ثم انفرد بالأمين [٥٨] وقال له : إن مصلحتك هي في أن تستدعي المأمون والمؤمن لديك وتخلعهما من ولاية العرش وتجعل ابنك موسى ولياً للعهد !! فوضع محمد الأمين هذا الأمر موضع اهتمامه وعزم على تنفيذه ، ففي عام ١٩٤ هـ بعث رجاله في طلب الأخوين فأطاع المؤمن — وكان والياً على ولاية الجزيرة — أخاه الأكبر وذهب إلى بغداد ، ولكن المأمون رفض التوجه إلى بغداد ، ولهذا السبب بدأت الخلافات بين الأخوين وانتهى الأمر بمقتل محمد الأمين على يد طاهر ذي اليمينين الذي كان قد توجه إلى بغداد على رأس جيش بأمر المأمون ، وبهذا استقرت الخلافة للمأمون ، فكلف شاهك — وكان من عظماء دولته — بالبحث عن الفضل ، وكان الفضل بن الربيع يحتفى منذ مدة طويلة في أحد المخانيء لدرجة أن (شاهك) لم يوفق في الوصول إليه مع كثرة البحث عنه ، وفي تلك الأثناء حمل الفضل ذات يوم جوالاً على ظهره وخرج — على هيئة الخمارين — من مخبئه حتى ينتقل إلى مخبأ آخر ، وفي إحدى حوارى بغداد تصادف أن التقى به اثنان من الفرسان أحدهما مترجلاً والآخر راكباً ، فعرفه المترجل وأخبر الراكب ، فطمع الفارس في القبض على الفضل فتعقبه بفارسه ، ولما اقترب منه حرك الفضل الجوال فجفل الفرس من تلك الحركة وسقط الفارس على الأرض .

(بيت ، ترجمته)

— إذا لم تشملك عناية الله

— ، فإن تستطيع أن تحقق الآمال !!

وجملة القول أن الفضل أسرع كالبرق والريح وأخذ يجري في حوارى حتى

رأى عجوزاً كانت واقفة أمام باب منزلها فقال لها متوسلاً : أماه ، هل يمكنك أن تخفني يومين أو ثلاثة بمنزلك ؟ فقالت له العجوز : بكل سرور . وأدخلته منزلها وأجلسته في أعلى المنزل ، وبعد لحظة جاء نفس الفارس الذي كان يريد القبض على الفضل إلى ذلك المنزل وقال للعجوز : لقد قابلي اليوم الفضل بن الربيع ولما هممت بالقبض عليه - لسوء حظي - جفل حصاني واتخذ هو طريقه هرباً ، ولو أمكنني الإمساك به فسوف يكافئني الخليفة بالأموال الكثيرة وحينما سمع الفضل هذه القصة كادت روحه أن تفارق جسده وعطس فسأل الفارس العجوز : من يوجد في أعلى المنزل ؟ فأجابته : إنه ابن أخي جاء من سفر استغرق بضع سنوات ونظراً لأن قطاع الطرق هاجموا في أحد المناطق وسرقوا ملابسه فإنه يجلس عارياً في المنزل ويخجل أن يلقاك عارياً ، فقال لها الفارس : ألبسه جلبابي هذا وقولي له : يأتي للقائي ، فقالت العجوز : شكراً لك .. وأرجوك أن تأخذ خاتمي وترهنه بالسوق وتأتي له ببعض الطعام حتى تنطق نيران جوعه لأنه لم يذق الطعام منذ بضعة أيام ، وبعد ذلك يمكنه أن يأتي للقائك ، فقال الفارس : لا مانع وأخذ الخاتم وخرج ، وعند ذلك توجهت العجوز للفضل وقالت له : أيها الشيخ هل أنت الرجل الهارب ؟ قال : نعم . قالت اذن فانهض [٦٠] وغط رأسك واهرب . فخرج الفضل من عندها مضطرباً وأخذ يسير بلا هدف ويتجول في محلات بغداد فوصل فجأة إلى أبواب قصر عال ، ووقف هناك فترة ليستريح ، وكان ذلك القصر قصر شاهك الذي وصل في تلك اللحظة إلى هناك فرأى صيده المطلوب أسيراً في مصيدته فقال له : يا فضل كيف جئت إلى هنا ؟ فأجابه الفضل : لقد أخذني القضاء والقدر وأتى بي إلى هنا دون ما اختيار مني .

(بيت ترجمته)

— لو يستطيع المرء الهرب من العدالة

، — فإن يد القضاء والقدر تلحق به أينما ذهب

فأشفق شاهك على حاله وحده بهباشة وأدخله منزله وقدم له الطعام فقال له الفضل : بأي أمل أتناول هذا الطعام ؟ قال له شاهك : بأمل الفضل والرحمة ! ! وهنا تناول الفضل الطعام ، وبعد أن قضى ثلاثة أيام في ضيافة شاهك أذن له بالانصراف

فقصد تاجراً كان قد أنعم عليه الفضل بالكثير من المنافع عندما كان وزيراً ، وبعد وصوله أدخله التاجر منزله ووضعته في مكان مناسب ، وأسرع على الفور إلى دار الخلافة وأبلغ المأمون بما حدث ، وعلى ذلك توجه شاهك إلى منزل التاجر ممتطياً جواده وقبض على الفضل وقدمه للخليفة . ويقولون إنه حينما رأى المأمون الفضل ابن الربيع قام وصلى ركعتين لله ثم قال للفضل : يا فضل ، لقد أديت هذه الصلاة شكراً لله لأنه - سبحانه وتعالى - جاء بك إلى وهداني حتى عفوت عنك وتجاوزت عن جرمك .

[٦١] (بيتان ، ترجمتهما)

- لن أستل سيف الظلم من غمده
- ولن أنتقم أبداً من أى مذنب
- فالانتقام ليس من طبيعتي ، أما
- العفو عن المذنبين فهو شعاري

ثم قال : يا فضل اقصص على بعضاً من غرائب ما صادفت أثناء اختفائك ؟ فقص له الفضل قصته المذكورة بالتفصيل ، فأعجب المأمون بمروءة العجوز وبعث إليها بمبلغ من الذهب ، وشكر شاهك وأثنى عليه ، وضرب مثلاً بالتاجر حيث طرده .

(بيتان ترجمتهما)

- اسعد يامن صنعت اللطف والطيبة
- ويامن يشمل سلطانك الرفيع والوضيع
- وتجاوز دائماً بمروءتك عن ذنوب المذنبين
- فليس هناك أفضل من العفو والمروءة

وبعد أن تم العفو عن الفضل أخذ يمضي أيامه كسائر العباد في دار السلام بغداد حتى وافاه أجله الموعود . « ذلك فضل الله يؤتيه (١) من يشاء » .

(١) سورة الحديد ، آية « ٢١ » .

الوزير الفضل بن سهل :

نقل بعض رواة الأخبار بأن الفضل كان في بداية حياته يقوم بعبادة النار إلى أن أضاء الله سريره فجأة ، ونقله من بادية الظلمة والضلال إلى طريق النور والهداية وجعله يلازم أحد كبراء القوم الذي جعله ينطق - بفضل الله - بكلمة التوحيد الطاهرة . ونقل أيضا أنه في الوقت الذي تقلد فيه الفضل قلادة الإسلام كان اسائه لـ [٦٢] يردد بعض حركات الجوسس ، فسأل أحد الحاضرين قائلا له : لماذا تردد هذه الحركات ؟ فأجابه قائلا : لا أحب أن تنقضى طرفة عين من حياتي ولا أكون فيه ملتزما بدين .

وقصة الفضل كما يرونها المؤرخون العظام أنه كان يتصف بالفضل والحكمة ويعرف بالعقل والفطنة، ويشتهر بمعرفته علم دقائق النجوم بجانب الوقوف على حقيقة سائر العلوم . وعمل بخدمة المأمون في مرو ، واختار طريق ملازمته ، وبعد فترة قصيرة عينه المأمون وزيرا له ، وأخذ يعلى من مكانته يوما بعد يوم بفضل رأيه السديد وتدبيره الصائب ، فعلا جاهه وسلطانه ساعة بعد أخرى حتى تولى أيضا منصب الإدارة واستقل بإدارة الملك والمال ، ولذلك لقبوه بصاحب الرياستين .

ومن المقطوع بصحته حينما حمل الفضل بن ربيع جميع متعلقات هارون الرشيد إلى بغداد والتي كان يجب أن يسلمها للمأمون بناء على وصية الرشيد، ولم يعأبرسه المأمون أورسائه . قال الفضل بن سهل للمأمون : إنه لا يمكن لك الاعتماد بعد ذلك على عهود ومواثيق أهل بغداد لأنهم في البداية تنكروا لوصية الرشيد ، وتصرفوا في حقوقك ! ومن الحدير بك الآن أن تشمل أهل العالم جميعا بعدلك ، ومن أجل حبهم تبدل ما في وسعتك ، وتجلس كل يوم في ديوان المظالم بنفسك ! تأخذ للمظلوم حقه من الظالم حتى ترسخ محبتك في قلب الصغير والكبير والغنى والفقير إن شاء الله .

[٦٣] (بيت ، ترجمته)

- بهذه الطريقة يكون عدل الحكام وجودهم
- وترى بسببها كل عظيم في طاعة وولاء لهم

(١) نشر الدكتور أكرم بهرامى بحثا قيما عن أسرة سهل ودورها في العصر العباسى بمجلة « وحيد العدد رقم ١١١ ، ١١٢ لسنة ١٩٧٢ م .

وطبقا لهذا تصرف المأمون ، وجعل جميع الخلائق يتهجون بنعمه وإحسانه ،
وعمل من أجل نشر العدل والإنصاف ، وخصص جزءا من الخراج للإنعام به على
المستحقين من الرعايا .

(بيتان ، ترجمتها)

— لقد نعمت الدنيا بعدلته وإحسانه

— ، ووقف بنفسه على أمور رعيته

— وجعل الفقير غنيا بجوده وعطاءه

— ، وطرده الكراهية من القلوب بعدلته وإنصافه

وحينما صمم محمد الأمين على خلع المأمون — بغواية الفضل بن الربيع — وبعث
بالرسل والرسائل المتعاقبة إلى مرو لطلب المأمون ، وكان المأمون يتردد بين البقاء
والذهاب ، منعه الفضل بن سهل من التوجه إلى بغداد وقال له : يبذل من تحركات
الكواكب أنك سوف تنتصر على الأمين ، وتصبح جميع ممالك العالم تحت حكمك !!

(بيت ، ترجمته)

— انني أراك من طالعتك ،

— ، متقلدا عرش الخلافة

فاحذر أن تترك زمام الاختيار من بين يديك ، وابق في هذه الولاية ولا تفكر
في الذهاب إلى بغداد ! وبناء على نصيحة الفضل تصرف المأمون فكلما ألح الأمين
في طلبه لم يستجب له ، ولهذا السبب اشتد الخلاف والتزاع بين الجانبين وعلمت
أصوات السيوف وفي النهاية قتل الأمين على يد طاهر ذي اليمينين الذي كان قد
تحرك بأمر المأمون على رأس جيش إلى بغداد لمقاتلة الأمين . وبعد أن علم المأمون
بمقتل الأمين عين الحسن بن سهل شقيق صاحب الرياستين أميرا على العراقيين
وفارس واليمن والحجاز ، وفي عام ١٩٧ هـ وصل الحسن بن سهل إلى بغداد ،
وبعث بعالمه إلى الولايات ، انتشر في العراق خبر أن ذا الرياستين استولى على قلب المأمون
وتركه في مكان منعزل ولا يسمح لأحد من الأمراء بلقائه ، ويفصل هو في أمور
الملك والمال دون استشارة المأمون ، وبناء على هذا استنفر عظماء بني هاشم وأعيان

العراق والحجاز من خلافة المأمون ، وظهرت الفتن في كل مكان ، وثار محمد ابن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي يسمونه طباطبا وآخرون من السادات في ولايات العراق والحجاز ، ووجدت الفوضى طريقها في البلاد وبين العباد ، ونظرا لأن مختلف فئات الشعب كانوا يأثفون من الولاء للحسن بن سهل فقد أخذت عوامل الفتنة والفساد في الازدياد يوما بعد يوم ، وبسبب ذلك توجه هرثمة بن أعين - وكان من الأمراء العظام - إلى خراسان دون مشورة الحسن حتى يبلغ المأمون بأن أهل العراق - بسبب كراهيتهم للحسن - لا يقبأون إمارته ، ولذلك فهم يثيرون الفتن في كل لحظة . وخشى الحسن من هذا الأمر فبعث إلى أخيه بخطاب يتضمن رأيه ، فتصرف الفضل بنحبث عند المأمون وقال له : إن هرثمة اشترك مع بعض قادة العراق في العصيان ، فتغيرت نفس المأمون على هرثمة وسجنه في نفس اليوم الذي وصل فيه إلى مرو ثم قتل بعد ذلك بإيعاز من الفضل في نفس السجن .

[٦٥] وقد نقل أنه في عام ٢٠٠هـ حينما قدم هرثمة بن أعين من العراق الى خراسان كانت الأحوال في ممالك العرب قد ساءت أكثر من ذي قبل ، ورفع إبراهيم ابن موسى الكاظم عليه السلام راية العصيان وثار على نظام الحكم في اليمن ، كما استولى حسين بن حسن الأفطس العلوي على مكة وأجلس محمد بن جعفر الصادق حاكمها ، وقد ضاق الحسن بن سهل بهذه الأحداث فانتقل من بغداد الى المدائن . ولما انتقل خبر ماجرى لهرثمة إلى بغداد ثار الجنود والأمراء وأخرجوا عمال الحسن من المدينة ، ونصبوا المنصور بن المهدي أمير عليهم في عام ٢٠١هـ ، وأخرجوا عن طاعة الحسن ، ولم يعطوه الفرصة للبقاء في المدائن فغادرها مسرعا إلى واسط ، وهذه الأخبار وصلت على التوالى إلى مرو ولكن الفضل بن سهل لم يبلغ ما حدث لأخيه الى المأمون وكان يقول له : لقد تمرد العلويون في كل بلد من بلاد العرب مطالبين بالخلافة ، ولو لم يتم التصرف في هذا الأمر الخطير فإن الزمام سوف يفلت من يديك ، فتصرف المأمون بمقتضى الآية الكريمة « وشاورهم في الأمر (١) » في معالجة هذه الأحداث ، واستقر الأمر - حسب مارآه صاحب الرياستين - بأن

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٥٩ » .

يجعل أحد كبراء أهل فاطمة ولياً على العهد حتى يرضى جميع السادات ولا يعملوا بعد ذلك على إشعال جذوة الخلاف . وبعد دراسة الأمر وقعت القرعة على الإمام العظيم على بن [٦٦] موسى الرضا عليها السلام لتولى هذا المنصب ، فأرسل المأمون خاله رجاء بن أبي الضحاك إلى المدينة أو بغداد - وكانت موطناً للإمام الثامن - حتى يأتي بحضرته معززاً مكرماً إلى مرو .. وأخذ البيعة لذلك الإمام رفيع المقام في العام المذكور من معظم أكابر القوم وأسافلهم ، وقد سعد جميع ساكني المعمورة واغتبطوا لسماع هذا الخبر باستثناء جماعة من بني العباس وأتباعهم كانوا يسيطرون على بغداد ، فحينما علمت تلك الجماعة بهذه البيعة أنكروها على المأمون وقالوا له : إنه ليس ابن الرشيد ، وقد حرمت أولادك بهذا التصرف من نعمة الخلافة ! وعندئذ نصبوا إبراهيم بن المهدي خليفة وعقدوا البيعة له ، فدارت حروب كثيرة بين إبراهيم والحسن بن سهل انتصر إبراهيم فيها جميعاً ، ولما بلغ المأمون خبر البيعة لإبراهيم سأل ذا الرياستين قائلاً له : كيف تمت البيعة لإبراهيم ؟ فأجابه الفضل بقوله : إن الناس نصبوا إبراهيم للولاية وليس للخلافة .

ومن الثابت أنه لما استقر الأمر لإبراهيم في بغداد ، وحاول الفضل بن سهل كتمان ذلك الأمر اختلى الإمام الثامن عليه الصلاة والسلام في عام ٢٠٢ هـ بالمأمون وقص عليه أحداث العراق والحجاز بالتفصيل من بداية إمارة الحسن بن سهل حتى ذلك الوقت ، وأطلعته على حقيقة الخلافة وعصيان إبراهيم ثم قال له : إن الفضل يخفي عنك هذه الأمور لمصلحة أخيه . فلاشك أن توجه المأمون إلى بغداد ، فلما بلغ [٦٧] سرخس حدث أن دخل صاحب الرياستين ذات يوم الحمام وفصد نفسه لأنه كان قد عرف من حركة النجوم أن دمه سوف يسفك في ذلك اليوم ظاناً منه بأن التدبير الإنساني يمكن أن يدفع التدبير الإلهي ولكنه حدث ساعتها أن استل غالب بن الأسود السعدي وقسطنطين الرومي وفرخ الديلمي وموفق الصقلي سيوفهم وهوا بها على رأس الفضل وقتلوه وهربوا ، وتظاهر المأمون بالخرن وأمر بالقبض على القتلة فقبض عليهم أبو العباس الدينوري وسلمهم للمأمون فسألم المأمون : لماذا أقدمتم على ارتكاب هذا العمل ؟ فأجابوه بقولهم : خف الله أيها الخليفة .. إنك أنت الذي أمرتنا بهذا ! ولكن المأمون لم يعبأ بكلامهم ، وأمر بقتلهم ، وبعث برعوس

الأربعة إلى الحسن بن سهل ، وسأل والدته - وكانت عجوزا ضعيفة - التحلى بالصبر ، ونظرا لأن تلك العجوز كانت دائمة الحزن والبكاء والنواح فقد بصحبها بقوله : لقد نال الفضل رحمة الله - سبحانه وتعالى - فتوقفى عن الخزع والبكاء فأنا ابنك عوضا عنه ، وسوف أؤدى لك حقوق البنوة بدلا منه طيلة العمر ، فأجابته العجوز بقولها : كيف لا أفزع يا خليفة على وفاة لإنسان يكون لى بفقده ابن مثلك ؟ ! وفارقت الحياة بعد أن سمع المأمون قولها :

[٦٨] الوزير الحسن بن سهل :

بعد مقتل الفضل ووصول المأمون إلى بغداد تولى الحسن الوزارة وحل محل أخيه الفضل ، وذلك بناء على ما رواه صاحب جامع الحكايات وجامع التاريخ ، وفى عام ٢٠٩ هـ تزوج المأمون ببوران ابنة الحسن ، وأقام الحسن لذلك حفلا فى غاية من الروعة والجمال ، أعقد فى فيه النعم والعطايا الوفيرة على العامة والخاصة بصورة لا يتصور مثلها الخيال .. ثم توفى الحسن فى عام ٢٦٣ هـ فى عصر الخليفة المتوكل .

الوزير أحمد بن أبى خالد :

أحمد بن يوسف ، أبو عباد ثابت بن يحيى للرازى ، أبو عبد الله محمد (١) بناء على أصبح الروايات فإن المأمون فوض إلى أحمد بن أبى خاند إدارة شئون الوزارة بعد مقتل ذى الرياستين . وقد بلغ أحمد مكانة عالية خلال فترة وجيزة حيث اشترك أيضا فى شئون إدارة شئون الملك ، ولكن لم يتضح عن أحواله أكثر من هذا . وجاء أيضا فى جامع التواريخ أن أحمد بن يوسف وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازى وأبا عبد الله محمد كانوا من بين وزراء المأمون (٢) ، والله أعلم بالصواب :

الوزير الفضل بن مروان :

وصل الفضل بن مروان - حسب رواية بعض المؤرخين - إلى منصب الوزارة فى عهد المعتصم ، وقضى فترة من [٦٩] الزمن مضطلعا بإدارة ذلك المنصب الخطير . وجاء فى جامع الحكايات أن الفضل بن مروان أثناء توليه الوزارة . أراد أن يستضيف

(١) أصل النص بن يوسف بن أبى عباد وثابت بن يحيى الرازى ، وأبى عبد الله ابن محمد .

(٢) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » فى الأصل .

الخليفة لحضور وثاقه حتى تزداد بهذا منزلته وترتفع مكانته ، وعن طريق بعض المقربين من النواب أبلغ هذه الرغبة إلى الخليفة ، فقبل المعتصم ذلك الالتماس ، فأعد الفضل حفلا رائعا بمنزله زوده بكل ما أمكنه من ألوان الجمال مثل المفروشات المطرزة بالذهب والأواني الذهبية والفضية المرصعة بالدرر والآلى الثمينة .

(بيت ، ترجمته)

- وضع أمام المعتصم في ذلك الحفل
- ، كل ما كان معروفا من ألوان الجمال ؟

ولما وقعت عين الخليفة على تلك الأشياء النفيسة ظن - بينه وبين نفسه - أن الفضل قد أنفق من أمواله على ذلك الحفل الكبير ، واشتعلت نيران الغضب داخله فتعلل بسبب من الأسباب وركب على الفور وغادر الحفل ، وانتوى في نفسه القبض على الوزير ، وعندما رأى الفضل ماجرى غرق في بحار الحيرة ، وأفضى بصورة ماحدث إلى إبراهيم الموصلي - وكان أمام عصره في الفراسة والكياسة - فقال له إبراهيم : مصلحتك هي في أن تتوجه الآن وعلى الفور للقاء الخليفة ، وأقوم أنا بكتابة ورقة أبعث بها إليك في مجلسه ، وعندما يسألك الخليفة قائلا لك : ماهذه الورقة ؟ قل له : إن هذه الورقة كتبها خزنة بلاط الخلافة من أجل طالب مستلزمات الحفل والتي كنت قد أخذتها اليوم على سبيل القرض . وبالفعل تصرف الفضل [٧٠] على هذا الأساس ، ولما سمع المعتصم تلك القصة صدقها ، وصفت نفسه بفضل هذا التدبير الصائب ، وسارع الفضل بن مروان إلى منزله آمنا .

(بيتان ، ترجمتهما)

- لا غنى للوزارة عن المعرفة والحنكة
- ، فسعادة الحظ تتحقق بفضل تدبير الشيوخ
- وكل أمر يبدو عويضا
- ، يحل بسهولة بحسن التدبير

الوزير محمد بن عبد الملك الزيات :

وكان من مشاهير الوزراء العظام ، وزاول هذا العمل العظيم أيام خلافة المعتصم بالله ، ولما توفى وتولى الخلافة ابنه الواثق أسند أيضا منصب الوزارة إلى محمد ، ولما

توفى الواثق أراد محمد بن عبد الملك بالاتفاق مع أحمد بن أبي داود أن يجلسا محمد ابن الواثق على عرش الخلافة فقال لهما وصيفه التركي : ألا تشعرا أن بالخجل بمحاولةكما تنصيب خليفة لا تصح حتى الآن الصلاة وراءه ؟ ولقى هذا القول قبولا لدى الناس فعقد أكابر القوم البيعة لجعفر بن المعتصم ولقبوه بالمتوكل على الله ، وفي عام ٢٣٥ هـ قتل المتوكل محمد بن عبد الملك وأسند منصب الوزارة إلى الفتح بن خاقان .

الوزير الفتح بن خاقان :

في عام ٢٣٦ هـ لقي الفتح حظوة عظيمة لدى المتوكل وصار صاحب الأمر والنهي في شئون الملك والحال ، [٧١] وأصبحت أعتابه قبلة للكبار والصغار ، ولما مضى أحد عشر عاماً تقريبا في الرفعة والسلطان حدث مساء الأربعاء الموافق الرابع من شهر شوال عام ٢٤٧ هـ وفي مكان كان يجلس فيه مع الخليفة يحتسى كئوس الشراب أن دخل المجلس فجأة وقاء الصغير وموسى بن وقاء الكبير وباغر وبلغور ، حامدين سيوفا ماضية وتوجهوا بها ناحية الخليفة ، فنهض الفتح وألقى بنفسه فوق الخليفة ، فقامت الجماعة المذكورة بالقضاء عليها .. ويذكر صاحب تاريخ بناكتي بأن المتوكل كان له وزير آخر يدعى أباالوزير ، كما جاء أيضا في جامع الحكايات أن مرسى ابن عبد الملك كان من بين وزراء المتوكل .

الوزير أحمد بن الخصيب القاسمي :

حينما تولى المنتصر الخلافة أسند منصب الوزارة لأحمد بن الخصيب الذي كان من كبراء عصره ، وتولى أحمد هذا المنصب لمدة من الزمن في حرية واستقلال ، وجاء في جامع التواريخ أن أحمد بن الخصيب - الذي كان من كبراء عصره وكان يتصف بالفضل والجود والسخاء والشجاعة - كانت تسيطر عليه صفات الصرامة والتسرع والغضب ، وذات يوم كان يسير في أحد الأماكن الضيقة قابله سائل سأله حاجة وألح عليه في طلبها فغضب أحمد ، ولشدة انفعاله أخرج قدمه من الركاب وركل بها السائل الفقير على صدره ، وذاعت هذه الواقعة بين الناس ، فنظم أحد الشعراء بهذه المناسبة القطعة التالية :

[٧٢] قل للخليفة : يا بن عم محمد أشكل وزيرك إنه ركل
قد نال من أعراضنا بلسانه ولرجله عند الصلور مجال

ولهذا السبب تم عزل أحمد من منصب الوزارة .

فمن اللائق أن يجعل صاحب هذا المنصب شعاره الحلم والوقار ، ويتخلى عن صفات الخفة والصرامة وسرعة الغضب ، وألا يتجاوز - في أى حال من الأحوال - معنى الحديث « العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن » ، وأن يجعل دائماً نصب عينيه فحوى الآية الكريمة « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس (١) » .

(بيتان ، ترجمتهما)

- لا تكن حاداً صارماً مع السائلين
- لأن هذا المسلك غير محمود لدى الأخيار
- ولا يلقى أن يصدر عن المسؤولين
- سوى حسن الخلق ومداراة الناس

الوزير أحمد بن صالح بن شيرزاد وجعفر بن محمد :

وكانا من وزراء الخليفة المستعين بالله .

الوزير أحمد بن إسرائيل ، ومحمد بن تقي الشوارب البغدادي :

وكانا من وزراء الخليفة المعتز بالله .

الوزراء عبد الله بن يحيى بن خاقان ، وحسن بن مخلد ، وسليمان بن وهب ، وصاعد بن مخلد :

وكانوا من وزراء الخليفة المعتمد على الله .

[٧٣] الوزير عبيد الله بن سليمان :

وكان يتولى الوزارة للمعتضد بالله ، وكان يعرف بالتعقل والكياسة ويتصف بالفهم والفراسة ، وذكر أنه في عام ٢٨٤ هـ أراد المعتضد أن يأمر الخطباء بلعن معاوية بن أبي سفيان (٢) فأثناه عبيد الله عن تنفيذ هذا العمل ، وأقنع الخليفة بأدلة موضوعية أن تنفيذ هذا العمل سيتسبب في اختلال أحوال الخلافة ، وبناء على ذلك صرف المعتضد نظره عن تنفيذ تلك الفكرة .

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٣٤ » .

(٢) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » في الأصل .

ومن أطراف الحكايات الحكاية التي نقلها صاحب جامع الحكايات (١) عن عبد الله بن يحيى الكاتب ، ومؤداها : أنه في الفترة التي كان غيبه الله بن سليمان ابن وهب يدير خلالها شئون الوزارة دخل الديوان — ذات يوم — فتى تبدو على وجهه علامات الاضطراب وسلم عبيد الله شكوى ، فنظر عبيد الله في تلك الشكوى وقال لأحد خدمه اعن بهذا الشخص حتى أقضى حاجته في الوقت المناسب ، ولما انفض المجلس ، ولم يبق مع الوزير سوى خاصته وندمائه ، سأله قائلاً : هل تعرفون ذلك الشاب ؟ قالوا : لا . فقال لهم : إنه عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات ، وقد سجن محمد بن عبد الملك — عندما كان يتولى الوزارة — والدى ، وكان يرغمه على دفع أموال كبيرة لاطاقة [٧٤] له بها ، وذات يوم جاءوا بالسجين ليمثل أمامه في الديوان ، وأخذ يقسو عليه في طلب الأموال ويتهده بالقوة ، وعندئذ خرج أحد الخدم من قصر حريم الوزير وهمس للوزير في أذنه ، فنهض محمد على الفور وأسرع إلى قصر الحريم ، وفي غيبة الوزير قال الحسن بن وهب لوالدى : لقد من الله — سبحانه وتعالى — عليك بولد ، فاستبشر والدى واسماني عبيد الله ، وعاد الوزير في نفس الساعة وقال للحاضرين : هل عرفتم لأى سبب طلبوني ؟ قال الحاضرون : قل لنا من فضلك فقال : لقد وهبني الحق — جل وعلا — ابناً وأسميته عمر ! وعند ذلك خاطب والدى بقوله : إننى لأرى علامات الفرح بادية على وجهك ، فإذا حدث ؟ فرد عليه عمى قائلاً : لقد أخبروه في هذه اللحظة أنه قد رزق بابن أيضاً ، ثم قال والدى بعد ذلك في تضرع وخشية : اتعشم — بمناسبة قدوم نجل مخلومي — أن تغفر لى جرئيتى ، وتخصص مولودى لخدمة قرة عينك ليصحبه إلى الكتاب فتحقق السعادة لولدى في صحبته . فقال محمد : يا سليمان .. إنك تقول هذه الكلمات من أجل الخلاص من الحبس في الظاهر ، ولكن ما يدور بداخلك هو القول « إن ابنى سوف يصل بسرعة إلى منصب الوزارة الرفيع ، وسوف يحتاج إليه ابنك ! ! » وقد تفاعل والدى بهذا الكلام ، ورد على الوزير وقتها بما يرضيه .

والهدف من ذكر هذه الرواية لكم هو أن نتيجة ذلك التفاوض قد وضحت الآن وأوصلنى الحق — سبحانه وتعالى — إلى هذه المكانة وجعل عمر بن محمد يحتاج إلى .

(١) جامع الحكايات «عوق» باب ١١ ، حكاية ٣٢ ، ص ٢٣ .

طبع طهران ١٣٣٥ هـ ش .

[٧٥] (بيت ، ترجمته)

— كل تفاؤل يأتي عن غير قصد

— ، ويمر من النجوم يمكن له أن يتحقق

وعندئذ طالب عبيد الله عمر بن محمد واتخذ اللازم نحوه وأسبغ عليه الكثير من
نعمه وعطاياه .

الوزير قاسم بن عبيد الله :

وكان يشغل منصب الوزارة في عهد المكتنى بالله ، وتذكر رواية أخرى انه
اشتغل أيضا بالوزارة للمعتضد بالله .

الوزير عباس بن حسن :

وكان ذا شكيمة قوية وهيبة بالغة ، ومكانة تميزه على سائر الوزراء العظام ،
وبعد وفاة المكتنى — بإيعاز من عباس — عقد عظماء الدولة وأعيانها البيعة للحعفر
ابن أحمد المعتضد ولقبوه بالمقتدر بالله ، ولما كان المقتدر في الثالثة عشرة من عمره
في ذلك الوقت فقد أطلق العامة والخاصة ألسنتهم بالقبيل والقال ، وندم عباس هو
الآخر على فعلته ، وأراد أن يجلس أبا عبد الله محمد بن المعتضد على عرش الخلافة ،
ولكن الإرادة الإلهية لما كانت قد تعلقت بخلافة المقتدر فقد توفي محمد في ذلك
الوقت ، وعندئذ عزم عباس على أن يجعل أحداً أبناء المتوكل — وكان يسمى أبا الحسن —
خليفة ، ولكنه لحق هو الآخر — بقلبة من الله — سبحانه وتعالى — بمحمد . وفي
عام ٢٩٦ هـ قتل حسين بن حمدان — وكان من [٧٦] عظماء دولة العباسيين —
عباس بن حسن دون سبب واضح ، وتقرر — بمساعدة بعض الأمراء — إسناد الخلافة
إلى عبد الله بن المعتز ولقب بالموتضى بالله ، فبذل جهده من أجل التصدي للمقتدر
إلى أن تحارب مؤنس الخادم هو وجماعة أخرى من العظماء مع حسين وانتصروا عليه
وقتلوه هو ورجال المرتضى بالله والله أعلم .

الوزير أبو الحسن علي بن محمد الفرات :

وكان من كبار الوزراء العرب ، كما كان جامعاً لأنواع الفضل والأدب ،
وأُسند المقتدر إليه الوزارة بعد مقتل عباس ، ثم عزله في عام ٢٩٩ هـ وعين مكانه
أبو علي محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزيراً له .

الوزير أبو علي بن عبيد الله :

لم يستطع أبو علي القيام بأعباء هذا المنصب الخطير لسوء تدبيره وعدم وقوفه على دقائق الأمور ، فلاغربة أن تم عزله بعد فترة قصيرة .

الوزير علي بن عيسى الجراح :

وقد تولى الوزارة بعد عزل أبي علي محمد بن عبيد الله ، وكان يعتبر من أفاضل العلماء وأكابر أهل الجود والسخاء ، فكان يحصل كل عام - من ربيع أملاكه الخاصة - ما يقرب من ثمانين ألف دينار من الذهب كان ينفق نصفها على أهل العلم والفتوى والباقي ينفقه على أسرته وأولاده ، وكان علي بن عيسى - خلال توليه الوزارة [٧٧] يتعامل مع كافة الرعايا وعامة البرايا على أحسن وجه ، ولكنه كان يفكر كثيرا قبل البت في بعض الجزئيات من الأمور ولا يفصل في بعض المسائل بسرعة ، ولذلك أعفاه المقتدر من منصب الوزارة في عام ٣٠٥ هـ ، وعين مكانه ابن الفرات مرة أخرى ولكنه عزل ابن الفرات كذلك في عام ٣٠٦ هـ .

الوزير حامد بن عباس :

وقد تولى الوزارة في نفس العام الذي عزل فيه ابن الفرات ، وفي عام ٣٠٩ هـ - بإيعاز من الوزير حامد - استشهد الحسين بن منصور الحلاج الذي يعتبره معظم العلماء من كبار الأولياء . وفي ٣١١ هـ وبخ حامد وعوقب وتولى ابن الفرات منصب الوزارة مرة أخرى ، وفي عام ٣١٢ هـ سجن ابن الفرات وسلم المقتدر الوزارة لأبي القاسم عبيد الله بن محمد الخاقاني ، والله أعلم .

الوزير أبو القاسم الخاقاني :

بعد أن قضى أبو القاسم ما يقرب من عام في الوزارة عزله الخليفة المقتدر .

الوزير أبو العباس أحمد بن عبيد الله الخصيبی :

وتولى الوزارة بعد عزل الخاقاني . وكان يتصف بالهمة العالية والأخلاق السامية ، وبعد أن أمضى [٧٨] ما يقرب من عامين في الوزارة تغيرت والدة المقتدر عليه فعزله الخليفة إرضاء لوالدته .

الوزير أبو علي بن مقله :

وكان من بين أكابر الوزراء العظام ، كما كان من الفضلاء الجديرين بالاحترام ،

وأثناء توليه الوزارة رفع راية الجود والسخاء ، وكان يسعد كثيرا كل من يشاهد خطه من أهل البصرة ، حيث كان من مخترعى الخطوط ، وقد نسخ بقامه الذهبي الخلاق أعمال كبار الخطاطين في جميع أنحاء العالم والكتاب العظام .

(بيت ، ترجمته)

— يامن تمتاز بحسن خطك على الجميع

— ولا يوجد شبيه لخطك بين المخطوطات

وجملة القول أنه حينما أعفى أحمد بن عبيد الله الخصبى من منصب الوزارة قلد المقتدر — مرة أخرى — على بن عيسى ذلك المنصب الرفيع .. وفى عام ٣١٦ هـ أعفى منها أيضا لصحالة تفكيره ، وأسند الخليفة الوزارة إلى أبى على بن مقلة الذى ظل يدير ذلك المنصب الخطير لمدة عامين ثم عزل فى عام ٣١٨ هـ ، وبعد أن قتل المقتدر وخلفه [٧٩] القاهر بالله تولى ابن مقلة الوزارة مرة أخرى . وأخذ القاهر أثناء خلافته يقوم بأعمال الظلم والاعتداء فعزم مؤنس الخادم وابن مقلة ويلبى وآخرون من رجال الدولة على خلعه ، وانكشف هذا الأمر للقاهر فأصدر أمره بقتل تلك الجماعة ، فتم قتل مؤنس ويلبى ولكن ابن مقلة تمكن من الهرب وأخذ يختلط فى بعض الأحيان بالأمراء ويشجعهم على خلع القاهر إلى أن انتهى الأمر بقيام الأتراك بالقبض على القاهر وسملوا عينيه ونصبوا الراضى بالله خليفة ، فجعل الخليفة الراضى جميع الناس ترضى عنه بفضل عدله وإحسانه وأسند منصب الوزارة إلى ابن مقلة ولكنه عزله فى عام ٣٢٤ هـ بإيعاز من ابن رائق الذى كانت له اليد الطولى فى إدارة أمور الدولة وفى عام ٣٢٦ هـ رضى الخليفة عن ابن مقلة مرة أخرى وولاه الوزارة ، وبدأ الصراع بين ابن مقلة وبين ابن رائق وبلغ ذروته بالواقعة التالية :

كان يحكم الماكانى غلاما لمرداويج بن زياد ، واستولى على بعض بلاد العرب بعد قتل سيده فبعث إليه الوزير برسالة يطلب منه فيها القدوم إلى بغداد ويبشره بمنصب أمير الأمراء وعلم ابن رائق بهذا الخبر ونقله إلى الخليفة ، ونظر الآن الخليفة لم يكن يوافق على مجيء « بجكم »^(١) فقد استدعى إليه ابن مقلة وأبدى له اعتراضه

(١) فى الأصل بجكم ، وبجكم ، أو بجكم بكسر الأول وسكون الثانى وفتح الثالث وسكون الرابع لفظ فارسى بمعنى ذئب وكان يطلق على أسماء الأشخاص قديما .

فأنكر ابن مقله ما حدث وأظهر له الخليفة الرسالة المذكورة وأصدر الأمر بقطع يده ، وكان الوزير يستغيث بقوله : لماذا تأمرون بقطع يدي وهي [٨٠] التي ابتكرت أجمل الخطوط ونسخت العديد من المصاحف ؟ فإنه لم يجد جلودى من ضياعه :

وبعد : . فإنه لا يليق بشاغل منصب الوزارة بل لا يليق بسائر رجال البلاط أن يرأسوا أمراء الأقاليم على غير رغبة من الحاكم وعليهم أن لا يهتموا بمصلحة الدولة بسبب مصالحهم الشخصية :

(بيتان ، ترجمتهما)

— من يتصرف بما يخالف رأى الحاكم

— ، يكون عقابه القتل

— فلو يقول لك عن هذا النهر : إنه ليل ،

— ، وجب عليك القول : وفيه القمر والنجوم !

ومن أغرب المصادفات أن ابن مقله وزر لثلاثة من الخلفاء ، ونسخ ثلاثة من المصاحف ، وسافر ثلاث رحلات ، ودفن بعد ثلاث مرات :

الوزير سليمان بن حسن المظفر :

أصبح وزيرا للمقتدر بالله فى عام ٣١٨ هـ ونظرا لأنه لم يكن مؤهلا كثيرا لمثل هذا المنصب قد تم عزله بسرعة ، ولكنه وصل إلى منصب الوزارة أيضا أيام خلافة الراضى بالله تم عزل ، ولما تولى المتقى لله الخلافة جعل سليمان وزيرا له مرة أخرى .

الوزير أبو القاسم عبيد الله الكلموذاني :

وقد تولى منصب الوزارة أثناء خلافة المقتدر بعد عزله سليمان بن حسن ، تم عزل بعد بضعة أيام .

[٨١] الوزير حسين بن قاسم :

وكان من أحفاد سليمان بن وهب وتولى الوزارة سبعة أشهر للمقتدر بعد عزل أبي القاسم :

الوزير أبو الفتح فضل بن جعفر بن محمد بن الفرات :
وتولى الوزارة بعد عزل حسين بن قاسم ، وظل يشغل هذا المنصب حتى آخر
أيام الخليفة المقتدر :

الوزير محمد بن القاسم وأحمد بن أحمد بن عبد الله :
وتوليا الوزارة مرة واحدة أيام القاهرة بالله بعد عزل ابن مقله :

الوزير عبد الله بن عيسى الجراح :
وتولى الوزارة للخليفة الراضى بالله فى عام ٣٢٤ هـ لبضعة أيام ثم عزل :

الوزير أبو جعفر محمد بن قاسم الكرخى :
تولى الوزارة بعد عزل عبد الرحمن ، وكان قصير القامة ، فحينما كان يمثل
أمام الخليفة الراضى ، يعرض عليه الموضوعات تكون رأسه فى مستوى رتبة
الخليفة ، ونظرا لذلك فقد قصروا قاعدة عرش الخلافة شبرا ، فتشام الناس من
هذا التصرف . وجاء فى جامع التواريخ أن أبا جعفر الكرخى حينما وجد - بعد
فترة من توليه الوزارة - أن الأمور تسير على غير هواه دخل منزله ذات يوم ،
وجلس فى وعاء الماء ، وحمله واحد من خدمه على ظهره وخرج به من المنزل ،
ولم يعلم أحد إلى أين ذهب .

[٨٢] **الوزراء أحمد بن ميمون (١) ومحمد بن أحمد الطرايطى (٢) وأحمد
ابن عبيد الله الأصفهاني :**
وتولوا الوزارة أيام خلافة المتقى لله .

الوزير أبو الفرج محمد بن على ، وأحمد بن فضل بن عبد الرحمن السامري
وقد شغلا منصب الوزارة مرة أيام خلافة المستكنى ، كما تولى أحمد بن فضل
الوزارة بضعة أيام فى خلافة المطيع لله .

الوزير أبو الفضل الحاجب بن النعمان :
وتولى الوزارة أيام خلافة القادر بالله :

(١) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى هو « أبو الخير أحمد بن محمد بن ميمون » .
(٢) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى هو « أبو إسحق محمد بن إبراهيم الإسكافى القرايطى » .

الوزير ابو طلحة محمد بن ايوب :

وكان أول شخص تولى الوزارة في خلافة القائم بأمر الله .

الوزير عميد الدولة ابو طالب محمد بن (١) مسلمة :

وتولى منصب الوزارة الرفيع بعد عزل أبو طلحة ، ولقب برئيس الرؤساء ، وقد شب الخلاف بينه وبين البساسيري - أحد أمراء الديلمة - وخرج البساسيري مع أتباعه من بغداد ورفع راية الحرب والانفصال ، [٨٣] وطلب المدد من المستنصر العلوي حاكم مصر فوافق المستنصر على طلبه وحدث اضطراب عام بين أهل بغداد ودارت الحرب بين الحانيين ، فاستشهد رئيس الرؤساء وأنهزم جيش الخليفة واستولى البساسيري على بغداد ، ولما علم بهذه الأخبار طغرل بيك السلجوقي - وكان يسيطر في ذلك الوقت على بلاد خراسان والعراق العجمي - توجه إلى دار السلام ، وقضى ذلك الملك المهيب بسيفه الفتاك على فتنة البساسيري وفساده ، وأعاد الهدوء إلى بغداد .

الوزير ابو الفتح منصور بن داراسب الشيرازي :

وكان ممتاز ويتفوق على سائر كبراء فارس وعظماء شيراز بفضلله الزائد وكمالهِ البالغ ، كما كانت ميزته تتضح في فصاحته وبلاغته وجمال خطه ولطافة عبارته ، وفي ريعان شبابه - التي هي أفضل أيام العمر - عمل في خدمة الملك أبو كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة بن عضد الدولة ، ولسبب من الأسباب بغادر وطنه وتوجه إلى دار السلام ، ولما بلغ هذه المدينة العظيمة ، ووقف القائم بأمر الله على مدى فضلهِ وكمالهِ ولاه منصب الوزارة ولقبه بأمين الدولة مجد الوزراء ، وقد بلغ تقرب مجد الوزراء من الخليفة إلى درجة جعلت عميد الملك الكندري وزير السلطان طغرل بك السلجوقي يحقد عليه ، فدس له عند السلطان ، [٨٤] فتأثر السلطان بكلام عميد الملك ، وبعث برسالة إلى بغداد يلتبس فيها عزل الوزير ، ونظرا لأن الخليفة لم تكن لديه القدرة على رفض طلب السلطان فقد قام بعزل ذلك الوزير الصائب التدبير .

(١) اسم هذا الوزير في الكتب الأخرى على بن حسين بن أحمد بن محمد بن عمر بن مسلمة .

الوزير أبو نصر محمد بن جهمر الموصلى (١) :

وكان مشهوراً بالفصاحة والبلاغة والمهارة في فن الاستيفاء والسياس ، وكان كريماً سخياً على أهل العلم والفضيلة ، وفي بداية أيامه كان يتولى الوزارة للملك الملوك نصر الدولة أبو نصر بن مروان الذي كان حاكماً لديار بكر ، وقد حصل في تلك الدولة على أموال لا نهاية لها وعلى أملاك لا حدود لها ، وبلغ صيت كفاءته الآفاق ، ولما توفي ملك الملوك بعث القائم بأمر الله نقيب النقباء أبي الفوارس بن محمد الزينبي إلى ديار بكر ليقنع أبا نصر بقبوله الوزارة لدار الخلافة ، ويحثه على التوجه إلى بغداد ، ولما وصل نقيب النقباء إلى ديار بكر توجه على الفور للقاء أبي نصر وأخذ يحدثه بكلمات كلها شوق ومحبة عن الوزارة عند خليفة الأنام والتوجه إلى دار السلام ، فتقبل أبو النصر هذا الكلام قبولاً حسناً ، وتوجه إلى دار الخلافة ، واغتمم القائم بأمر الله مقدمه الشريف ووضع بين يديه الماهرتين أمر الاستقلال [٨٥] بمهام الوزارة ولقبه بفخر الدولة وأشرف الوزراء ، وحيثما وصل طغرل بك السلجوقي مشارف بغداد للقضاء على فتنة البساسيري أسرع فخر الدولة لاستقبال الموكب السلطاني ، وصار بهذا محل رعاية طغرل الذي خصه بمكافأة عظيمة . وأثناء حكم السلطان ألب أرسلان غضب خوواجه نظام الملك الطوسي على فخر الدولة بسبب دسائس المفسدين - وحرص السلطان حتى يبعث برسالة إلى دار الخلافة يطلب فيها عزله ، وقبل أن ينتشر هذا الخبر نقل البعض حقيقة الأمر إلى الخليفة فأرسل القائم بأمر الله الوزير بعيداً إلى الحلة وأسند الوزارة إلى علي بن الحسين الذي انتقل إلى جوار ربه في أوائل أيام توليه الوزارة ، وعندئذ طيب الخليفة والوزير خاطر نظام الملك وجاء فخر الدولة من الحلة إلى بغداد وتولى الوزارة مرة أخرى ، وقد نظم ابن الفضل البغدادى عدة أبيات مدح فيها فخر الدولة يستهلها بهذا البيت :

(بيت عربي)

الحمد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله

وفي ذلك الوقت بعث فخر الدولة ابنه الأكبر عميد الدولة برسالة من دار الخلافة إلى السلطان ألب أرسلان كما بعث بهدايا وتحف كثيرة للخواجة نظام الملك تعبيراً

(١) اسم هذا الوزير في الكتب الأخرى « أبو نصر محمد بن محمد بن جهمر »

عن الإخلاص والوفاء له طالبا خطبة ابنة نظام الملك ، فلقبت ملتزمات فخر الدولة
قبولا حسنا لدى نظام الملك .

[٨٦] (بيت ، ترجمته)

— حبذا عقد ينظم عقد الملك

— ، حبذا سوار يزدان به العالم ويتألق

وفي عام ٤٦٥ هـ حينما انتقل السلطان ألب أرسلان إلى جوار ربه وازدان عرش
السلطنة بالسلطان ملكشاه أسرع عميد الدولة إلى دار السلطنة مرة أخرى بأمر الخليفة .
وقدم السلطان هدايا الخليفة فلقى اهتماماً كبيراً ، وفي عام ٤٦٧ هـ توفي القائم بأمر الله
فبايع فخر الدولة وعميد الدولة المقتدى بالله في نفس الليلة التي حدثت فيها الوفاة ،
رتوجه عميد الدولة في اليوم التالي إلى أصفهان حتى يأتي بالبيعة للمقتدى من السلطان
ووافق على خلافة المقتدى بالله ، وعاد عميد الدولة بعد أن أدى مهمته بنجاح إلى
دار السلام ، واسند المقتدى بالله منصب الوزارة أيضا إلى فخر الدولة ذي الرأي
السديد ، وفي تلك الأثناء ذهب مؤيد الملك بن نظام الملك من قبل السلطان ملكشاه
إلى دار السلام ليتولى أعمال الديوان ، فرأى مؤيد الملك فخر الدولة في غاية من
الرفعة والاستقلال فاشتعلت نيران الحسد في داخله وصرف كل همته للعمل على
إبعاد ذلك الوزير الماهر والقبض عليه ، وفهم فخر الدولة هذا الهدف ، وبناء على
ذلك وحفاظا على نفسه طلب إعفائه من منصب الوزارة ، [٨٧] فقبل الخليفة
ملتزمه وعين عميد الدولة مكان والده ورغم ذلك لم يترك مؤيد الملك الوالد والولد :
(بيت عربي) :

كل العداوة قد يرجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد
وبعث نظام الملك بعض حجاب السلطان من أصفهان إلى بغداد للقبض على
فخر الدولة تطييبا لخاطر مؤيد الملك وتسليمه لدار السلطنة ، فلما علم فخر الدولة
بهذا الخبر أثر الحرب على البقاء ، وفجأة وصل فخر الدولة إلى أصفهان وعرض على
السلطان — بواسطة أحد النواب — قوله : إنني لدى معلومات كافية عن أوضاع
ديار بكر وفي استطاعتي أن أدخل تلك المملكة في حوزة السلطان ، فلقى هذا
الاقتراح قبولا لدى السلطان ملكشاه واختص فخر الدولة بالنعم والعطايا وأرسله إلى
هذه المنطقة مصحوبا بالطبول والأعلام والخيول والرجال ، وبذل فخر الدولة

جهداً مشكورة من أجل فتح ديار بكر ، وسخر تلك الولاية خلال فترة قصيرة من الزمن واستولى على خزائن ملوك بني مروان وحملها إلى السلطان ، وبعد أن مضى مدة ٨٥ عاماً في الجاه والعظمة ودع الدنيا الفانية وانتقل إلى دنيا الخلود ، كما يقولون :

(بيت ، ترجمته)

— سواء عشت مائة عام أو أقل

— سوف ترحل يوماً عن هذه الدنيا الخادعة

الوزير مظفر بن رئيس الرؤساء :

[٨٨] تقلد منصب الوزارة بعد فرار فخر الدولة من بغداد ، ولسبب من الأسباب عزله المقتدى بالله بعد توليه ذلك المنصب لفترة قصيرة

الوزير ظهير الدين أبو شجاع محمد بن أبي الحسن (١) :

تقلد الوزارة في رجب عام ٤٧٥ هـ بأمر المقتدى بالله ولقب بمؤيد الدولة صني أمير المؤمنين ، ومضى عدة سنوات في غاية السعادة والإقبال ، وفي النهاية ثار خلاف بين مؤيد الدولة وتاج الملك أبي الغنائم الذي كان من المقربين للسلطان ملكشاه ، فدرس تاج الملك لمؤيد الدولة عند السلطان ، وطلب السلطان من الخليفة عزل مؤيد الدولة ، وانزوى الوزير في ركن الأحران ، ولكن الخليفة منح الوزير المعزول عدة مزارع مكافأة له .

وجاء في جامع التواريخ أنه بالرغم من تحسن أحوال الوزير أبي شجاع بتوفر أسباب الوزارة له حيث كانت تزدان بفضلته وكفاءته وفهمه وفراسته وسموه وفرط شهامته ، فقد تغلب البخل والإمساك على طبيعته بحيث أصبح كصائم الدهر يتناول فطوراً في المساء في مكان ضيق ومظلم ، ومما نقل أيضاً أن الوزير أبا شجاع ذهب إلى مدينة طيبة في آخر أيام حياته ليقضى بها أوقاته في الطاعة والعبادة إلى أن وافاه أجله الموعود في جمادى الآخرة عام ٤٨٨ هـ ودفن في مشهد إبراهيم بن النبي — صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

(١) اسم ونسب هذا الوزير في الكتب الأخرى « أبو شجاع ظهير الدين محمد بن حسين الحمداني » .

[٨٩] الوزير اشرف الدين عميد الدولة محمد بن فخر الدولة

في الوقت الذي توجه فيه فخر الدولة بأمر السلطان ملكشاه إلى ديار بكر ، بقي عميد الدولة ملازماً لدار السلطنة ، وكان موضع الرعاية السلطانية لفرط ذكائه وقوة فراسته وأدائه للأعمال المحمودة واجتنابه الأفعال المذمومة ، وقد فاق والده بتوفر عناصر الجاه والشهرة فيه ، واستكمال أسباب الجلال والتوفيق له ، وفي العام المذكور أرسل المقتدى بالله كمال الدين الخادم وأبا محمد رزق الله التيمي المنشي وأبا نصر الموصل يحمولون رسالة السلطان ملكشاه طالباً فيها إرسال عميد الدولة ، فوافق السلطان على مطلب الخليفة ، وعاد عميد الدولة معززاً مكرماً إلى دار السلام بغداد ، فتشرف مرة ثانية بتقلد منصب الوزارة ، وفي شوال عام ٤٨٥ هـ جاء السلطان ملكشاه إلى بغداد ، وتوفي تلك الأيام ، ثم لحق به الخليفة المقتدى في شهر المحرم من نفس العام ، وجلس ابنه المستظهر بالله على عرش الخلافة فأبقى منصب الوزارة كما كان أيام والده في يد عميد الدولة ، وفي أواخر صفر عام ٤٨٨ هـ توجس عميد الدولة خيفة من الخليفة ولجأ إلى سيف الدين صدقه صاحب الحلة ، وأخذ المستظهر بالله يبعث بالرسائل والرسائل الكثيرة إلى الحلة لاستمالته ، وكان من بينها رسالة أرسلها بخط يده ، فاطمأن عميد الدولة برسالة الخليفة ، وسعدت بغداد مرة [٩٠] أخرى بيمين مقدمه الشريف ، وتولى منصب الوزارة ، وفي النهاية قبض الخليفة على ذلك الوزير الماهر بسبب دسائس عبد الجليل الدهستاني وحبيه في دار الخلافة ، وبعد أن ظل سجيناً لمدة شهر ، أخرجوه ميتاً من السجن ، وكانت مدة اشتغاله بالوزارة - من البداية حتى النهاية - ثلاثة عشر عاماً .

الوزير أبو المعالي النحاس الاصفهاني

وكان يتصف بشتى ألوان الفضل والآدب ، كما كان يعرف بالمهارة الفائقة في فن الكتابة والاستيفاء ، وكان أبو المعالي في بداية حياته نائباً لمحمد بن غيلان عارض ديوان السلطان ملكشاه ، ولما أفل نجم محمد بن غيلان آل منصبه إلى أبي المعالي ، وظل عارضاً خلال الفترة الأخيرة من حكم السلطان ملكشاه وجانباً من فترة حكم السلطان بركيارق والسلطان محمد ، وقد استطاع خلال هذه المدة أن يجمع أموالاً كثيرة . وفي تلك الفترة التي حُمي فيها الخلاف والتراخ بين الأخوين آثر أبو المعالي

فرار على البقاء ولجأ إلى صاحب الحلة سيف الدين صدقه وبذل صدقه في رعايته جهوداً مشكورة ، واستطاع أن يحصل له على منصب الوزارة للمستظهر بالله ، فغادر أبو المعالي الحلة إلى بغداد واشتغل بتدبير شئون الوزارة للخليفة ، ولكنه بعد مضي شهر واحد من تقلده الوزارة اتخذ رجال الدولة وأعيان الأمة موقف العداء والخصام منه وذلك بسبب خسته البالغة ، وإمساكه الشديد ، فعوقب أبو المعالي وسجن بأمر الخليفة ، ولكنه هرب من السجن ولجأ إلى معسكر السلطان بركيارق وظل يعيش حزيناً مغموماً في همدان إلى أن فارق الحياة في عام ٥٠٧ هـ والله اعلم .

[٩١] الوزير مجير الدولة أبو القاسم علي بن فخر الدولة

بعد حادثة شقيقه عميد الدولة ظل يعيش في السجن لفترة طويلة عانى فيها أشكالا من الحزن والشقاء ، وفي عام ٤٩٩ هـ انتقل طالع أبو القاسم من حضيض الوبال إلى أوج الشرف والإقبال ، وجعله المستظهر بالله موضع رعايته وعنايته وخلع عليه منصب الوزارة ، فأبلى مجير الدولة بلاء حسناً في إنجاز شئون الخليفة ، وبعد أن أمضى حوالي تسع سنوات مضطرباً بهذا الأمر الخطير رحل في شهر صفر عام ٥٠٨ هـ عن عالم الفناء إلى عالم البقاء .

الوزير هبة الله بن محمد بن علي المعروف بابن المطلب :

تولى الوزارة بأمر المستظهر بالله بعد وفاة مجير الدولة ولقبه الخليفة بلقب ولى الدولة . وجاء في جامع التواريخ أن ولى الدولة اتهم بمذهب التشيع والرافضة ، وبناء على ذلك لم يوافق السلطان محمد ملكشاه على وزارته ، وأرسل إلى دار الخلافة بالرسائل يقول فيها : كيف يكون وزير خليفة الزمان رافضياً ؟ لاشك أن عزله المستظهر ، فتوجه الوزير إلى بلاط السلطان واسترضاه بواسطة سعد الملك الأوجي الذي [٩٢] كان وزيراً للسلطان ، وأسند إليه السلطان محمد مرة أخرى منصب الوزارة للخليفة مشروطاً عليه عدم العدول مطلقاً عن مذهب أهل السنة والجماعة متجنباً ارتكاب الظلم والاعتداء ، وإلا يترك أهل الذمة من اليهود والنصارى في أعمال الديوان ، فتوجه هبة الله من أصفهان إلى بغداد مراعيًا الالتزام بالشروط المذكورة ، وتولى الوزارة لفترة من الزمن ، وفي النهاية تغير عليه الخليفة ، ففهم هبة الله هذا الإحساس وهرب من بغداد إلى أصفهان وظل يمضي بقية أيامه في ديوان السلطان محمد بن ملكشاه .

الوزير جلال الدين ابو علي صدقه :

وكان يتصف بالفضائل ، وكان يحقق قصب السبق في فن الإنشاء والاستيفاء على أقرانه وأمثاله ، وتولى الوزارة بأمر المسترشد عام ٥١٣ هـ . واشتغل فترة بهذا الأمر الخطير في حرية واستقلال ، ولم تتضح نهايته .

الوزير أبو القاسم علي بن طراد الزينبي :

وتولى هو أيضا الوزارة أثناء خلافة المسترشد ، وفي عام ٥٢٩ هـ حينما وقعت الحرب بين الخليفة والسلطان مسعود السلجوقي ووقعت الهزيمة بجيش بغداد بقي أبو القاسم ملازماً ، ثم اسر ، والله اعلم .

الوزير شهاب الدين الاسفراييني :

وكان يتولى الوزارة للراشد بالله :

الوزير عون الدين بن هبيرة (١) :

كان أفضل الوزراء العظام ، وأكمل أصحاب الاحترام ، وكانت له ايداد بيضاء في توضيح أحكام الدين المبين وتعاليم شريعة سيد المرسلين - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وقد اكتملت له صفات الورع والتقوى والزهد والعفة ، واثبت هو مدلول عبارة « انا ولاغير » في تدبير وتسيير امور المملكة ، وتقلد منصب الوزارة أثناء خلافة المقتضى بأمر الله ، وبفضل رأيه الصائب استقرت أوضاع جميع ولايات خلافة بغداد إلى درجة لم يبق مجال لتدخل سلاطين السلاجقة في شئون دار السلام ، ولما توفي المقتضى وانتقلت الخلافة للمستنجد بالله ظل يعمل بسنة والده ، فأبقى منصب الوزارة لعون الدين صاحب الرأي السديد ، وظل عون الدين - مستهديا ببصيرته الطاهرة - يدير ذلك العمل الخطير إلى ان رحل عن عالم الفناء.

الوزير شرف الدين أبو جعفر بن أحمد (١) :

تولى الوزارة المستنجد بعد وفاة عون الدين ، ولما أشرف على هذا المنصب عدة أيام اتروى في ركن العزلة والنسيان - كسائر أبناء جنسه .

(١) انزوى

(٢) اسم هذا الوزير في الكتب الأخرى « شرف الدين أبو جعفر محمد بن أبي الفتح البلدي » .

الوزير عضد الدين بن رئيس الوزراء :

[٩٤] وتولى منصب الوزارة في أوائل أيام خلافة المستضيء بنور الله ، وبعد فترة من الوقت حكم عليه كما حكم على الوزراء السابقين وترك هذا العمل الخطير برغبة منه أو رغبا عنه :

الوزير ظهير الدين أبو بكر العطار (١)

حينما حرم منصب وزارة المستضيء من كفاءة عضد الدين تكفل ظهير الدين العطار بذلك الأمر ، وبلغ صيت عدالته جميع سكان البلاد والديار ، وفي تلك الأيام التي بدأ العطار يصرف فيها شئون مختلف فئات الشعب تولى قطب الدين قيمانز (٢) منصب أمير الأمراء ، وأصبح صاحب التصرف في أمور الملك والمال ، فبدأ الخلاف والتزاع بين قطب الدين وظهير الدين ، وفي عام ٥٧٠ هـ أراد قيمانز - دون استشارة الخليفة - القبض على العطار وإيداعه السجن ، ولما بلغ هذا الخبر العطار لحا إلى دار الخلافة فقام قطب الدين بعد أن نهب وخرب منزله - بالتوجه هو وبعض الأمراء وحشد كبير من الناس إلى قصر الخلافة للقبض على ظهير الدين ، وحينما سمع المستضيء أصوات المتجمهرين ، وعرف المتسبب في هذه الفتنة ، وكيفية علاجها ، صعد سطح قصره وتوجه ناحية الناس ورفع صوته قائلا لهم : أيها الناس : لقد تجاوز قيمانز الحدود فأمواله الآن أصبحت حلالا وأصبح سفك دمه حلالا علينا أفوجه جميع من سمعوا هذا الكلام فرحن إلى قصر قطب الدين ودخل قيمانز منزله بضعوة شديدة ، وحاول الإغارة عليه ولكنه لم [٩٥] يفلح ، بل انه لم يستطع الخروج من منزله بسبب الازدحام ، وأخيرا قام بثقب الحائط ، وخرج منه ، متوجها إلى الموصل ، فتوفي في الطريق ، وسلم ظهير الدين من شروره وأخذ يحضى أيامه مطمئنا في زمن المستضيء ، كما تولى الوزارة أيضا أيام خلافة الناصر لدين الله . وبعد وفاته تولى كل من جلال الدين أبو المظفر ، وجلال الدين علي ابن هبة الله البخاري ، وابن أبي الحديد الوزارة مرة للناصر لدين الله ، ولم يعرف أكثر من هذا عن أخبارهم مما تجلر الإشارة إليه في هذا الكتاب .

(١) اسم هذا الوزير في الكتب الأخرى « ظهير الدين أبو بكر منصور بن أبي القاسم نصر بن العطار

(٢) وضيبط في الكتب الأخرى باسم « قيمانز »

الوزير مؤيد الدين أبو عبد الله بن محمد بن علي المعروف بالقصاب : (١)

كان يتصف بالتهور والتكبر وقلة العقل وسوء التدبير ، وقد أسند إليه الناصر لدين الله في عام ٥٩٠ هـ منصب الوزارة وأرسده على رأس فوج من جيش بغداد إلى خوزستان فأعاد تلك الولاية إلى حوزة الخليفة ،

ومن الثابت أنه حينما أخرج تكش خان بلاد العراق من حوزة السلاجقة وأخضعها ، طمع الناصر لدين الله في أن يقوم خوارزمشاه بتسليم جزء من دله لته لديوان الخلافة ، ومن أجل هذا الهدف بعث رسلا ورسائل [٩٦] إلى تكش خان ، ووافق تكش على مطالب الخليفة فأرسل الخليفة مؤيد الدين محمداً بالخلع والهدايا الثمينة إلى العراق العجمي لتقديم العظمى الاعتذار لتكش ، ولما وصل الوزير قليل التدبير إلى أسد أباد طلب من أكراد العراق وجنود العرب - الذين بلغوا العشرة آلاف رجل تقريبا - أن ينضموا إليه ، وزاد الغرور في رأسه وبعث إلى تكش خان يخبره أنه جاء من دار الخلافة ومعه أوامر الحكومة ، ونظرا لقدم المشول عن مصالح البلاد ومنظم الجيوش والرعية - أي خباب الوزير - حاملا البشري فيجب على خوارزمشاه أن يحضر طائعا صاغرا لاستقباله وتقديم الشكر له ، مصحوبا بعدد قليل من رجاله ، سيرا على الأقدام ، ولما علم تكش خان بما عليه ابن القصاب من قلة عقل وبلاهة كلف جماعة ممتازة من جنوده لتأديبه ، فتوجهت تلك الجماعة إلى أسد أباد ولكن ابن القصاب لم ينتظر الاشتباك مع جنود الخوارزميين وأثر الهرب كما يهرب الثعلب خوفاً من الأسد .

(بيت ، ترجمته)

- وانهار ذو الوجه الأصفر أمام فتك السيوف

- كما تنهار أوراق الأشجار أمام رياح الخريف

والخلاصة أنه بعد أن فرغ تكش خان من فتح ولايات العراق وآذربيجان عين يونس خان وهو أحد أولاده [٩٧] حاكما على تلك البلاد ثم عاد ، وقد استمر يونس خان فترة في الحكم ثم قرر العودة إلى خوارزم بسبب ضعف إبصاره وعين مياجي نائبا عنه ، وعاد هو . وأثناء غياب يونس خان انتهز مؤيد الدين بن القصاب

(١) اسم هذا الوزير في الكتب الأخرى « مؤيد الدين أبو المظفر محمد بن أحمد بن القصاب » .

الفرصة وتوجه من دار السلام بغداد على رأس جيش كبير بأمر الناصر لدين الله قاصداً العراق العجمي ، ولم يتوقف في أى مكان إلى أن وصل همدان ، ولما بلغ هذا الخبر تكش خان تحرك من خوارزم لمحاربته ، وسار نحو همدان ، وبعد أن طوى مسافات طويلة حط رحاله في « مزدقان » ، وشاعت إرادة الله أن يتوفى ابن القصاب في هذا الوقت ، وأخفى أهل بغداد خبر وفاة الوزير واشتبكوا في الحرب مع تكش خان ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم ، وبعد أن حقق تكش الفتح والنصر أمر بأن يخرجوا ابن النصاب من قبره ويفصلوا رأسه عن جسده ، ويحملوها إلى خوارزم . وهذه الفعلة لا تليق برجل ، ولا تناسب مع مكانة سلطان ويوضح صاحب الحكايات في سياق الكلام أن الوزير الذي كان على خلاف مع ملك خوارزم أيام الناصر لدين الله هو أبو الفضل علي بن أحمد الملقب بابن البيضاني ، ولكن الرواية الأولى أقرب إلى الصحة ، والله أعلم .

الوزير مؤيد الدين محمد القمي :

تقلد الوزارة بعد موت مؤيد الدين بن القصاب ، ولما توفى الخليفة الناصر واعلى ابنه الظاهر بالله عرش [٩٨] الخلافة أسند ذلك المنصب إلى مؤيد الدين كما كان في عهد والده ، كما شغل مؤيد الدين الوزارة لبضعة أيام أيضا أيام خلافة المستنصر بالله .

الوزير نصير الدين محمد بن الناقه (١) :

أصبح وزيرا أيام المستنصر بالله بعد عزل مؤيد الدين محمد القمي ، وقد ادى مهام ذلك المنصب على أحسن وجه ، ولما توفى المستنصر أبى المستعصم بالله زمام أمور الملك والمال في يديه الخبيرتين كما هي ، وفي عام ٦٤٢ هـ توفى نصير الدين محمد - وقد ذكر اسمه في بعض الكتب باسم شمس الدين أحمد - وأصبح ذلك المنصب من نصيب أبى طالب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد العلقي .

الوزير أبو طالب مؤيد الدين محمد بن العلقي :

اجتمعت في ابن العلقي جميع أنواع الفضائل والكمالات والكرم ، وكان عالما بالفلسفة والمنطق وبقنون الشعر والنثر ، وكان الخليفة يشركه دائما معه في وقت

(١) اسم هذا الوزير في الكتب الأخرى « نصير الدين أبو الأزر أحمد بن محمد بن الناقه » .

جده وهو سواء بالليل أو النهار ، ورغم أنه كان خليفة حقا وكان إماماً مطلقاً إلا أنه لم يقدم على ارتكاب أية ضلالة أو بدعة في وقت من الأوقات ، ورغم أنهم كانوا يعتبرون ابن العلقمي صاحب التصرف في أمور الملك والمال في بغداد إلا أن الخاصة والمقربين لدار الخلافة لم يكونوا يكتفون له أي احترام ، ولا يتحدثون معه بما يليق بمركزه وكان هو يتألم كثيرا لهذا السبب ، وفي النهاية [٩٩] أفلت الزمام من يده ، فتخلى عن ولائه لدار الخلافة مرة واحدة ، وكان السبب القوي الذي أدى إلى ذلك هو أن قد حدثت فتنة في بغداد عام ٦٥٠ هـ بين أتباع المذهب السني والمذهب الشيعي واستعلت بينهما نيران الخلاف ، وأغار الأمير أبو بكر بن المستعصم (١) على رأس جيش على كرخ بغداد الذي كان سكانه من أهل الشيعة وذلك لحماية أهل السنة والجماعة ، وأسر في هذه الغارة الكثير من سادات الشيعة ، ووبخ كل مغال منهم ، ولما كان الوزير قمي الأصل وكان يغالي في التعصب للمذهب الشيعي ، فقد لوى عنان إرادته عن سلوك طريق الطاعة للخليفة مستعملا أساليب المكر والخداع وبعث برسالة مطعنة بهذا المعنى للسيد تاج الدين بن نصر الله الحسيني - وكان من أكابر سادات عالم الشيعة - أفرغ فيها ما كينة ضميره مستعملا أسلوب المكر والتدنير الذي كان قد عزم عليه ، وفي تلك الأيام كان الحكيم نصير الدين الطوس يعمل في مجلس ناصر الدين محتشم وإلى قهستان ، وعلى حسب مقتضيات العصر بعث بقصيدة من قصائده يمدح فيها الخليفة المستعصم إلى دار الخلافة ، فأخذ ابن العلقمي القصيدة وأرسلها إلى ناصر الدين محتشم بعد أن كتب على ظهرها ما يلي :

« لقد اعتاد مولانا نصير الدين أن يرسل إلى أمير المؤمنين رسائل و منظومات ، ويازم معرفة العواقب التي ستترتب على هذه التصرفات ، وملاحظة فوائدها المسألة وهضارها !!! وهذه الخيلة تغير ناصر الدين على علامة العصر ، وسجنه بعد أن كان من أقرب المقربين لديه »

[١٠٠] وحدث أن توجه هو لاكوخان في عام ٦٥١ هـ من الولايات الشرقية قاصدا فتح الولايات الغربية ، ففرغ من أمر الملاحدة في سنة ٦٥٤ هـ ، ورفع راية النصر متوجها لفتح دار السلام بغداد وكان نصير الدين قد نجح في تلك الظروف من حبس

(١) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » في الأصل .

ناصر الدين والتحق بخدمة هولاكو خان ، وصار من المقربين إليه خلال فترة قصيرة وشمله هولاكو بعنايته ، وكان ابن العلقمي قد أخبر هولاكو بأمر الداعية نصر الدين وطلب منه الحثي أولاً للقضاء على العباسيين ، وبعث بالرسول إلى هولاكو معبراً له عن كراهيته للخليفة وبطانته ، موضحاً له ظلمهم للناس ، وبأن عروس البلاد بغداد سوف يكتمل لها رونقها بمقدم الخان ، ولكن هولاكو خان لم يعتمد على هذا الكلام المهلهل ولم يعره اهتماماً لأن حصانة بغداد واستحكاماتها معروفة ومشهورة في جميع أنحاء أقاليم العالم السبع ، واستمر ابن العلقمي يسير الرسل إلى هولاكو بتعجل مجيئه كما ذكر ضمن بعض الرسائل قوله له هولاكو : « سوف أقطع بعد وصولك عن جنود بغداد رواتبهم ، وأنهى خدمة الخذر في البلاد وفاء لك وعهداً .. » وفي النهاية توجه هولاكو خان إلى بغداد عن طريق صحراء همدان الجميلة وأخذ يطوى المسافة على رأس جيش كبير ذي هيئة وروعة لاحداً ، وحينما تأكد ابن العلقمي من أن سهام غدرة قد أصابت أهدافها فكر في خدعة جديدة حيث عرض على الخليفة وهو منفرد به قوله :

[١٠١] « إن جميع ملوك العالم الآن في طاعة تامة للخليفة كما أن أوامره ينفذها رجال حضرته بكل حب وإخلاص ، وأبواب الخزائن مفتوحة يصرف رواتبهم وهباتهم ، وهذا أمر بعيد عن التدبير والتفكير البعيد والرأى السديد ، فلو أن جناب الخليفة أمعن النظر في هذا الاقتراح ، لكانت نتيجة تنفيذه أفضل ، وهذا الاقتراح هو أن يأذن الخليفة لوزيره بأن يعين قادة الجيش والمحاربين الشجعان كل في طرف من أطراف الخلافة ويشغل كلا منهم في عمل ، ويصرف لهم بعض الأموال بحيث يعيدون إلى بيت المال ما قد يزيد على معيشتهم . » ، ولما كانت إرادة الله قد شاءت بأن يرحل الخليفة ويهجر الدنيا فقد وافق على تنفيذ ذلك العمل الخطير الذي درره الوزير زوراً وبهتاناً .

(مصرع فارسي ، ترجمته)

— « واحسرتاه على الشخص الذي يجلب الهموم لنفسه »

وحينئذ تصرف ابن العلقمي على مبدأ « أحببت فالزم ، ووجدت فاغتم » ، وبدأ بعمل على تفريق جموع الحند ، وفي أقصر وقت وزع ابن العلقمي جنود بغداد

في أطراف البلاد والولايات وأبعدهم عن عاصمة الخلافة ، وعلم هؤلاء كوخان حدث إجمالا وتفصيلا ، فتوجه إلى دار السلام بغداد على رأس جيش جرار كجيش بهرام الفتاك ، ولما وصل خبر قدوم ذلك الجيش الفتاك إلى بغداد وسمع الأمراء والمقربون للخليفة ، بل سمع سائر الرعايا [١٠٢] بتفاصيل هجوم هؤلاء الجنود الذين لاحصر لهم « طالب المخلصون لدار الخلافة والمقربون من حضرة الإمامة الخليفة — الذي كان غارقا في غفلته — باليقظة ، ولكنهم مهما حاولوا إيقاظه من سكرته فإثمهم لم يصلوا إلى نتيجة طيبة ، وكثيرا ما كانوا يعرضون على المستعصم قولهم :

« إن جنود التتار معروفون جيدا في جميع بلاد العالم ولدى جميع السلاطين ، ففي كل ولاية يتزلون فيها يخلفون وراءهم التراب والدمار ، وهادم عقود العزم ، واستعدوا للحرب ، وتوجهوا لفتح هذه البلاد ، والاستيلاء عليها ، فلو تحقق هذا الكلام وأصبح حقيقة فلن يمكننا مقاومتهم بدون جيش منظم واستعداد تام للقاتلهم ، فيجب علينا البدء في ترتيب عناصر الانتصار والظفر قبل وصول الجند وحلول الشرور والجن ، كما أنه لا يجب الاعتماد في هذا على الوزير صاحب المكر والخديعة أولا يجب الاعتماد عليه إطلاقا ، ولكن الخليفة استسلم لأحلام الغفلة والغرور ، وآثر الاستراحة والركون لمجالس الطرب والسرور ، ولم يلق بالانصائح أبنائه وأقاربه ، ونصائح المصلحين ، وفضل التشاور والتدبير في أمر هذا الخطب الكبير مع الوزير الخائن ، وأطلعه على نصائح خاصته وأقربائه ، وأقوال أهل الرأي والمصلحين — الذين كانوا يقولونها فقط من أجل الصدق والحقيقة — فهون ابن العلقمي من نتيجة تلك الأقوال وأنسى الخليفة ما حدث بأمور السحر والشعوذة وقال له :

« أي قهر وغلبة لجنود المغول أن يضروا بها جيش بغداد » .

[١٠٣] (بيت ، ترجمته)

— أنى لفريسة تملك قوة

— تقف بها أمام الأسد وتقاومه

وفجأة — أثناء هذه الظروف — جاء الخبر من البادية بأن مقدمة جيش هؤلاء كوخان توجهت من الناحية الغربية إلى بغداد بقيادة سوغو نجاق وبايجو باسليغ فبعث

الخليفة بفتح الدين ومجاهد الدين ومجموعة أخرى من المحاربين ومعهم عشرة آلاف فارس لمحاربة الخارجين القادمين إلى بغداد ، ودارت بين الجانبين معركة في نواحي دجيل قتل فيها فتح الدين وحلت الهزيمة بمجد بغداد ، ووصل جيش هولاكو خان الياسل عن طريق « يعقوبا » في شهر ذي الحجة عام ٦٥٤ هـ بقصد انزال العقوبة بالمنهزمين واصطفوا كجبل من الفولاذ حول بغداد مستهدفين أعمال الظلم والجور والعداء ، ولقد نفذ الصبر وضاعت السكينة من قلب خليفة الاسلام وقلوب العامة والخاصة من الناس ، وضاع النوم من العيون ، واختفى الرأى السديد بسبب الاضطراب والتهديد ، ونظرا لأنه لم يعد بالصحرَاء رجل يقاتل جيش التتار أمر المستعصم بإحكام الحصار حول القلعة وفوقها وقد امتد الحصار خمسين يوماً ، وصار أناس كثيرون من الداخل والخارج صيداً ثميناً لسيوف التتار الفتاكة ، وقد حاولوا جميعاً الخلاص بأرواحهم في المعارك الحربية ، ولكنهم تركوا متاعهم الوحيد وهو أرواحهم ، وفي النهاية بدت آثار العجز واليأس على وجوه أهل بغداد فطلب الخليفة من ابن العلقمي - عدوه الخفي وصديقه الظاهري - لإبداء الرأى السديد ، [١٠٤] لايجاد مخرج لهذه الواقعة العويصة، ودليل الخلاص من هذه الطامة الكبرى ، فعرض عليه الوزير تحليلاً جذاباً للموقف قائلاً : « إن جند المغول الذين لا حصر لهم لا يستطيع التهوين من شأنهم ، ولم يبق بالمدينة جند كثير يمكنهم صد هجوم التتار المنتصرين ، كما أنه لا يوجد أيضاً لدى الأهالي ذلك القدر من الحرأة والمثابرة الذي يجعلهم يتوجهون لميدان المعركة بعد ذلك ، وحرصاً على المصلحة العامة وضماناً لسلامة العواقب على الخليفة أن يأمر بتنفيذ ذلك الرأى ، وهو أن يترك خليفة الإسلام بوابات دار السلام مفتوحة ، وينحى النزاع جانباً ، ويعرض عليه قبول الصلح والاتفاق ، ويقدم بأسرع ما يمكن على الصلح مع هولاكو دون ، ما تردد أو تأخّر محملاً بالهدايا النفيسة والأموال الكثيرة ، وسوف يسعد هولاكو بلقائه ، وبعد تقوية أواصر الصداقة وكثرة الاختلاط والمجالسة - بفضل هذا التدبير - يمكن عقد مصاهرة قوية بينها ، ويتم زواج خلف صدق الخليفة (ولـى ههده) بإحدى بنات البيت الخاني ، وبذلك يمكن الافتخار والمباهاة ، وبما لاشك فيه أنه لهذا السبب سوف تأخذ جميع الولايات زينتها مشاركة منها في هذه الأفراح وتلتئم وتتجدد عظمة السلطنة وهيبة الخلافة تيمناً بهذه المصاهرة : »

وهكذا قضى على طوفان الخوف والرعب الذى كان قد استولى على الخليفة ، بحيث أصبح لا يمكنه التمييز مطلقاً بين الحق والباطل ومعرفة الفرق بين الصدق والكذب ، ولما كان ظاهر هذه الكلمات يدل على أن الموافقة عليها ستكون بداية الخير والصلاح فقد ترك المستعصم سبيل المنازعة وأسلم زمام الآمال لمقتضيات الظروف والأحوال ، وتوجه لمقابلة هولاكو خان فى يوم الأحد الموافق الرابع من صفر عام ٦٥٦ هـ بصحبة ابنه أبى بكر [١٠٥] وعبد الرحمن وكثير من العلويين والعلماء ، وخرجوا من بوابة دار السلام قاصدين قصر هولاكو خان .

مصرع عربى : « آه من عزيمة بغير إياب » .
ولما وصلوا سمح للخليفة وولديه ونفر من الخدم بالدخول ، وأوقفوا الباقين ، وتدقق جنود هولاكو بحماسة كالببحر الهائج رافعين أصوات الظفر كالرعد الهادر إلى بغداد للإغارة على هذه البلدة الجميلة ، ونهب ما فيها وتخريبها ، فاعملوا القتل فيمن يعترضهم والتخريب فى الديار والقصور التى تقابلهم ، إلى أن سوا دار السلام بالأرض كلية ، ثم تشاور هولاكو خان مع رجاله حول موضوع إبقاء خليفة العصر أو القضاء عليه ، فاتفقوا جميعاً على قتل الخليفة ، فلفقوا المستعصم فى قطعة من القماش ، وألقوا بجسمه الرقيق على الأرض ، وفصلوا بقسرة الارتطام أجزاء جسمه عن بعضها .

(بيت ، ترجمته)

— لم يلحق الظالم به وحده

— ، بل شمل بنفسه الطريقة الكثيرين

والخلاصة أنه حينما هب نسيم انتصارات هولاكو خان ، وعلا صوته وانتشر وانتشر سلطانه فى البلاد ، وانطفأت شموع دولة العباسيين . وطلب ابن العلمقى (١) من هولاكو خان أن يوليه حاكماً على بغداد وعربستان مقابل جهوده فى الخديعة والمكر والتروير الذى أدى إلى سقوط دولة ولى نعمته ، فقال له هولاكو خان : إن كل من يسعى من أجل زوال دولة ولى نعمته ويفضله ، فمثله لا ينفع قوات السلطان ، ولا يليق أن يلتحق بخدمتنا ، ويصدق عليه قول القائل :

(١) مناقشة موضوع خيانة ابن العلمق من عدمه انظر

(بيت ، ترجمته)

— صاحب الذى يتنكر لسيده

— تكون نهايته بمثل ما فعل

[١٠٦] وحينئذ أسند هولاكو خان منصب الوزارة إلى على بهادر الذى كان أول من دخل دار السلام، وأنعم بمنصب الحاكم على ابن عمران الذى لم يفقد طوال عمره الأمل فى تحقيق تلك الأمنية ، وأمر ابن العلقمى بالخدمة تحت إمرة ابن عمران مبطلا وطاويأ كل ما كان قدمه له من حب وتضحية . وقد تحدث المغول الأقوياء وأهالى دار السلام جميعهم بدم وتقبيح ابن العلقمى ، وكان الجميع من العامة والخاصة يسبونه علنا حينما كان يسير — خجولا مضطربا — فى الحوارى والأسواق .

(بيت ترجمته) :

— حينما تفعل سيئة لا تنتظر حسنة

— لأن الورود تخلف الورود وتخلف الأشواك الأشواك

وظلت العبارة التالية مكتوبة على الأبنية ، وقد كتبها المتتبعون لتصرفات ابن العلقمى والمنتمون منه وهى « لعن الله من لا يلعن ابن العلقمى » ، وقد حذف أحد أصدقائه حرف « لا » من تلك العبارة ، فقبض عليه الناس وضربوه سبعين عصاً أدبا له لأرتكابه تلك الفعلة السيئة وهكذا أخذ يعضى ابن العلقمى بقية حياته — والى كان يفضل الموت عليها — إلى أن توفى . وبعد . . فيلزم على من يعملون فى بلاط الحكام أن يطهروا أنفسهم من صفات المكر والخديعة ، متجنبين نكران الحميل ، محترسين من الانسياق وراء أمور الغدر والخيانة حتى لا يعاقبوا فى الدنيا ولا تعاقبوا فى الآخرة مهتدين بقوله — تعالى — : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد (١) »

بيتان وترجمتها

— كل شر يصدر من البشر

— لا يكون أسوأ من الكفر بالنعمة

— فلا تغتر ولا تجاهر بالكفر بالنعمة

— لأنك ترى مضاره هكذا من الزمن

(١) سورة إبراهيم ، آية (٧) .

[١٠٧] الحديث عن وزراء السلاطين

لقد حان الوقت الآن لنبدأ الحديث عن بعض أحوال وزراء السلاطين ، ونظرا لأن ملوك الدولة الطاهرية كانوا يتبعون دار الخلافة ولم يستقلوا بالحكم ، ونظرا لأن مدة حكم الدولة الصفارية - التي حققت استقلالاً نسبياً - لم تتجاوز الثلاثين عاماً ، ونظراً لأن أخبار وزراء هاتين الدولتين لم تتضح في كتب المتقدمين ، فسوف نبدأ بالحديث عن أحوال وزراء الدولة السامانية ، ونطلب من الله الإعانة والتوفيق .

وزراء سلاطين الدولة السامانية

يمتد نسب ملوك السامانيين - الذين تولوا الحكم في ما وراء النهر وخراسان - إلى بهرام جوبين ، وبلغ تسعة منهم مرتبة السلطنة الرفيعة ، وامتد حكم تلك الطائفة ١٠٢ عاما وبضعة أشهر وأسماءهم كما يلي :

١ - إسماعيل بن أحمد الساماني

٢ - أحمد بن إسماعيل

٣ - نصر بن أحمد

٤ - نوح بن نصر

٥ - عبد الملك بن نوح

٦ - منصور بن نوح بن نصر

٧ - نوح بن منصور بن نوح

٨ - منصور بن نوح بن منصور

٩ - عبد الملك بن نوح بن منصور

وفيا يلي ما اتضح من أخبار وزراءهم :

[١٠٨] الوزير أبو الفضل البلعمي

وتولى الوزارة أيام الملك العظيم الأمير إسماعيل ، وقام بإدارة هذا العمل الكبير كما يجب وينبغي ، ثم انتقل إلى العالم الآخر - بسبب سعاية خيارتكين - في عصر الأمير نوح .

الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد :

وكان يقوم بتنظيم أمور الدولة أيام سلطنة الأمير أحمد بن إسماعيل ، ولما توفي الأمير أحمد قام أهالي بخارى بتنصيب ولده الأمير نصر - وكان حديث السن - على عرش السلطنة ، ولكن سكان ما وراء النهر جميعهم رغبوا في تنصيب عم والده اسحق الساماني - وكان يتولى حكم سمرقند - ولم يعثوا بالأمير نصر . أما أبو عبد الله فقد تكفل بإدارة مهام الحكم ، وبذل جهدا كبيرا في تنظيم الدولة واستمالة الجيش والسهر على راحة الرعية إلى أن هزم الأمير اسحق -بقدره الله سبحانه وتعالى - وأدخل جميع المخالفين للأمير نصر في طاعته ، وفاقت منزلته منزلة آباءه وأجداده .

الوزير أبو الفضل محمد بن أحمد الحاكم :

حينما اعتلى الأمير نوح بن نصر الساماني عرش السلطنة أسند منصب الوزارة إلى أبي الفضل ، وبذل أبو الفضل جهدا كبيرا في جمع أموال السلطنة ، ولكنه أغلق أبواب المنفعة أمام الأمراء والجنود ، [١٠٩] فحققت تلك الجماعة عليه ، ولما تمرد أبو علي بن محمد بن محتاج - حاكم خراسان - على الأمير نوح ، وتوجه الأمير نوح بجيش ما وراء النهر وعبر نهر آمو لمحاربته ، قال له قادة الجيش :

« لقد رأس أبو علي عصاة العصاة بسبب تصرفات الوزير الخاطئة ، كما أن الوزير أنقص قدرا كبيرا من مئوتتنا ، فلو سلمه السلطان لنا فإننا سوف نستمر في خدمته ، وإلا فسوف ننضم إلى أبي علي » ، فسلم الأمير نوح أبا الفضل - مضطرا - إلى الأمراء ، فقاموا بقتله في جمادى الأولى عام ٣٣٥ هـ . وبعد . فيجب على شاغل منصب الوزارة أن يخصص جزءا من أموال الديوان للمستولين الكبار ، وأن لا يسلك سبيل العناد مع المربين للسلطان ، ويفتح أمامهم أبواب المنافع والفوائد ، ويبذل ما في وسعه من أجل إرضائهم . ومن الأقوال الحكيمة للنبي إدريس - عليه السلام - قوله : « لا تغتر بحب السلطان حينما يكون المقربون منه أعداءك » .

(رباعى ، ترجمته)

- يامن سكنت بيت الوزارة
- ازرع فيه محبة السلطان لك
- ولا تغتر بحب السلطان
- حينما يكون المقربون منه أعداءك

الوزير أبو جعفر العتبى :

وكان يعرف بكثرة الفضل والأدب ويتصف بعلو الأصل والنسب ، كما كان ذا خبرة فى إدارة الوزارة ، ومعرفة أسرار الدولة ، وتولى الوزارة أيام حكم عبد الملك بن نوح بن نصر السامانى ، فعمر خزانة السلطان [١١٠] بحسن كفاءته ، وفى النهاية استشهد بسبب دسائس الأمير مظفر بن محتاج .

الوزير أبو الحسين العتبى :

وكان وزيرا عظيما ذا رأى سديد ، وكانت له أياد بيضاء فى تسيير أمور السلطنة وتدير شئون الدين والدولة ، ولما اعتلى الأمير نوح بن منصور السامانى عرش السلطنة قلده ذلك الحكيم منصب الوزارة الخليل ، وقد أشم أبو الحسين رائحة الخلاف من أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور — وكان حاكما على ولاية خراسان — وأبلغ هذا الأمر إلى الأمير نوح ، فقام الأمير نوح بعزل أبي الحسن ، وقلده حسام الدولة أبو العباس تاش ذلك المنصب ، وأثناء حكم حسام الدولة هرب فخر الدولة الديلمى وقابوس بن وشمكير وجاءوا إلى خراسان — عن طريق العراق وجرجان — خوفا من بطش مؤيد الدولة ، فقام حسام الدولة بأمر من الأمير نوح بجمع جيش واصطحبهم فى عام ٣٧١ هـ إلى أسر أباد لمقاتلة مؤيد الدولة ، ولكنه رجع مهزوما من تلك الحملة إلى نيشابور ، وبعث برسول إلى بخارى أخبر الأمير نوح بوقوع هذه الحادثة الكبرى ، فأمر الأمير نوح أبا الحسين العتبى بجمع الجنود والتوجه لنصرة حسام الدولة ، وخلع على ذلك الوزير الخلع الفاخرة ، فتكملت حملة الوزير بالنجاح وعاد بكثير من الغنائم ، وبذلك أصبح أبو الحسين [١١١] صاحب فضيلة وسيف وقلم ، ولكن حينما بلغت مكانة الوزير — بما تحقّق له من نجاح

وانتصار - حد الكمال ، أخذت في التراجع بمقتضى الحكمة القائلة « إذا تم أمر دنا نقصه » فكان حصوله على تلك الخلع والغنائم قرينا لزواله ونهاية حياته ، وتوضيح هذا الكلام هو أن أبا الحسن سيمجور - الذى كان قد عزل من حكم خراسان - قام بالاتصال بفائق - أحد الأمراء العظام - وأخذ يروى له فصولا كثيرة كلها لإساءة وتقبيح للوزير ، وأثر ذلك الكلام فى فائق ، فحرض بعض الغلمان على قتل الوزير ، واتفقوا على تنفيذ هذه المهمة ، وأخذوا يتحينون الفرصة للتنفيذ ، وقد علم أبو الحسين بهذا الأمر فخشى على نفسه ، وعرض هذا الأمر على الأمير نوح ، فكلف الأمير نوح طائفة من خدمه الخصوصيين بحراسة الوزير ، ولكنه نظرا لأن القدرة الإلهية لا يرددها تدبير البشر ، فقد حدث حينما كان الوزير خارجاً من منزله متجها إلى قصر الإمارة أن وجد الأعداء فرصتهم ، وضربوا ذلك العظيم عدة ضربات أجهزت عليه ، وكان حسام الدولة وفخر الدولة وقابوس ابن وشمكير فى ذلك الوقت ينتظرون مقدم الوزير فى نيشابور ، وفجأة بلغهم هذا النبأ الأليم ، فتفرق جمعهم واستولى الحزن والأسى عليهم ، فتوجه حسام الدولة إلى بخارى حتى يقف على حقيقة تلك الحادثة ، وبعد وصوله أرشد عن بعض قتلة أبى الحسين فأعدموا ، وتفرق الباقون فى البلاد والأقطار .

الوزير أبو الحسين المزنى :

[١١٢٦] كان فى بداية حياته يعمل مستوفيا لديوان الأمير نوح الساماني ، ثم تكفل بمنصب الوزارة بعد استشهاد أبى الحسين العتبي ، ولما علم أبو الحسن سيمجور بهزيمة أبى العباس تاش ، ومقتل أبى الحسين العتبي ، تحرك إلى خراسان قادما من ولاية سيستان - التى كان يعيش فيها بعد عزله من حكم خراسان - دون الحصول على إذن بذلك من السلطان ، وحينما علم أبو الحسين المزنى بهذه الحركة أرسل رسولا إلى ابن سيمجور حاملا إليه رسالة يقول له فيها :

« من الواجب عليك أن لاتتعرض لولاية خراسان ، وعليك بالتوجه إلى ولاية قهستان ، حيث إقطاعاتك ؟ » . ووافق أبو الحسن على ملتصق الوزير ، فأضاف الوزير مقاطعتي بادغيش وكنج رستاق إلى إقطاعاته ! ولكن هذا التصرف لم يعجب

حسام الدولة ، فلا غرابة أن قام — عندما توجه من بخارى إلى خراسان — بعزله
أبي الحسين المزني من ذلك المنصب .

الوزير عبد الرحمن الفارسي :

وكان من رجال حسام الدولة ، وأسند إليه حسام الدولة الوزارة بعد عزل
المزني ، ولكنه حينما وصل أبو العباس إلى خراسان ، قام الأمير نوح بعزل الفارسي
وقلد عبد الله عزير ذلك المنصب .

الوزير عبد الله عزير :

[١١٣] كان من مشاهير وزراء الفرس ، كما كان مرجعاً وملاذاً لأصحاب السيف
والقلم ، وحينما تقلد الوزارة أو عز إلى الأمير نوح الذي عزل حسام الدولة من
حكومة خراسان ، وأسند ذلك المنصب مرة أخرى إلى أبي الحسن سيجمور ، ولما
يئس حسام الدولة من الأمير ، لجأ إلى فخر الدولة الديلمي ، فقام فخر الدولة
بعمل اللازم نحو تاش ، وأمدّه بالرجال والعتاد ، ولكن شيئاً لم يتحقق له بهذا ،
ولم يستطع حسام الدولة الظفر بحكم خراسان مرة أخرى . وفي عام ٣٧٧ هـ عزل
عبد الله عزير من الوزارة وذهب إلى خوارزم ، ولكن الأمير نوح طلبه بعد فترة
وقلده الوزارة مرة أخرى ، وحينما استولى الأمير ناصر الدين سبكتكين على الدولة
السامانية ، ولسبب من الأسباب أمر سبكتكين بسجن عبد الله عزير ، وظل يعيش
في ذلك السجن حتى توفي .

الوزير أبو علي الدامغانى :

وقد تقلد الوزارة حينما أبعد عنها عبد الله عزير وذهب إلى خوارزم ، وعندما
وجدت الاضطرابات طريقها في أنحاء دولة الأمير نوح ، واستولى بغراخان ومجموعة
أخرى من المعارضين على أملاك السامانيين ، عجز عن تدبير الأمير فعزل عن
ذلك المنصب بسرعة .

الوزير أبو علي البلعمي :

تولى الوزارة لبضعة أيام بعد عزل الدامغانى ، ونظرا لأن درجة الاختلال والاضطراب فى تلك الدولة كانت قد وصلت إلى درجة لا يمكنه مواجهتها فقد استدعى الأمير نوح عبد الله عزير من خوارزم ، وكلفه [١١٤] مرة أخرى بتولى ذلك المنصب . وقد جاء فى تاريخ كزیده أن أبا على محمد بن محمد البلعمي كان وزيرا لمنصور بن عبد الملك بن نوح ، وقام بترجمة تاريخ محمد بن جرير الطبرى .

الوزير أبو نصر أبو زيد :

كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء لمدة طويلة أيام الدولة السامانية ، ولما سجن الأمير ناصر الدين سبكتكين عبد الله عزير أسند وزارة الأمير نوح إلى أبي نصر ، وكان يتصف بالصفات الحميدة والطباع الحسنة ، وقد بذل - أيام توليه الوزارة - بذور الجود والسخاء والبذل والعطاء فى قلوب الفضلاء والأحياء وسعى بكل جهده فى تدبير مصالح الدولة وإرضاء الجيش والرعية ، وفى أخريات أيامه استشهد بطعنة خنجر على يد بعض غلمان الدولة السامانية .

الوزير أبو المظفر محمد بن ابراهيم :

وكان معروفاً ومتصفاً بصفاء الطبع ، ونقاء الذهن ، وتولى الوزارة - بناء على تعليمات الأمير ناصر الدين سبكتكين - بعد استشهاد أبي نصر ، ولما توفى الأمير نوح السامانى واعتلى الأمير أبو الحارث منصور بن نوح عرش السلطة استقال محمد بن ابراهيم من منصب الوزارة ، وذهب إلى جوزجانان (١) ، وأقام هناك فترة ثم توجه إلى نيشابور واستقر بها حتى نهاية عمره ، وقضى بها ثلاثين عاماً فى القراءة والإطلاع وتأليف الرسائل .

(١) جوزجانان أو جوزجان اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان ، وهى بين مرو والروذ وبلخ ، ويقال لقصبها اليهودية ، ومن مدائنها الأنبار وفارياب وكلاز ، وبها قتل يحيى بن زيد بن على ابن الحسن بن أبى طالب (رضى الله عنه) فتحها الأحنف بن قيس عام ٥٣٣ هـ .

(انظر معجم البلدان - ياقوت الحموى ، المجلد الثانى ج ٦ ص ١٨٢ ، بيروت ط ١٣٧ هـ

الوزير أبو الحسن الحموي :

وكان في بداية أمره أحد المقربين من السلطان محمود الغزنوي ، فلما اعتلى أبو الحارث منصور بن نوح الساماني عرش السلطنة ، أرسل السلطان محمود أبا الحسن إلى بخارى محملاً بالتحف والهدايا الكثيرة لطلب الموافقة على ولايته على خراسان مؤكداً الالتزام بالعقد والميثاق ، وقد وصل الحموي إلى بخارى بعد طيه المنازل والديار ، فبشره بكتوزون وفائق - اللذان كانا على عدااء وخلاف مع السلطان - بالوزارة ، وقد سر أبو الحسن واغتر بتولى ذلك المنصب ، ومكث ناسيا ما كلفه السلطان به ، وبعد ذلك وبعد أن مر عام ونصف على هذا الوضع ، قام بكتوزون وفائق بالقبض على الأمير أبي الحارث وسملا عينيه ، وعزلا الحموي من منصب الوزارة .

الحديث عن وزراء الديالة

يعتقد بعض المؤرخين بأن نسب أبي شجاع بن بويه — والد سلطان الديالة — يمتد إلى بهرام كور ، والبعض الآخر يعتقد بأن بويه من نسل ديلم بن ضبه ، ولكن الأمر الذي يتفق عليه المؤرخون هو أن سبعة عشر شخصاً من آل بويه بلغوا مرتبة الاستقلال بالسلطنة ، وامتدت فترة حكمهم في العراق وفارس إلى ١٢٧ عاماً ، وأسماءهم كما يلي :

- ١ — [١١٦] عماد الدولة علي بن بويه
- ٢ — ركن الدولة حسن بن بويه
- ٣ — معز الدولة أحمد بن بويه
- ٤ — عضد الدولة بن ركن الدولة
- ٥ — مؤيد الدولة بن ركن الدولة .
- ٦ — فخر الدولة بن ركن الدولة
- ٧ — شرف الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة
- ٨ — صمصام الدولة بن عضد الدولة
- ٩ — بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة
- ١٠ — مجد الدولة بن فخر الدولة
- ١١ — سلطان الدولة بن بهاء الدولة
- ١٢ — شرف الدولة بن بهاء الدولة

- ١٣ - أبو كاليجار بن سلطان الدولة
 ١٤ - جلال الدولة بن بهاء الدولة
 ١٥ - قوام الدولة أبو الفوارس بن بهاء الدولة
 ١٦ - خسرو فيروز بن أبي كاليجار
 ١٧ - أبو منصور فولاد ستون بن أبي كاليجار
 [١١٧] وفيما يلي ما اتضح لي من أخبار وزرائهم :

الوزير أبو الفتح بن عميد :

بلغ مرتبة الوزارة في عهد السلطان ركن الدولة ، وقد علا شأنه كثيراً ، وأصبح مرموقاً إلى حد كبير لدرجة أنه في تلك الأيام التي كان قد تغير فيها ركن الدولة - وكان يلزم فراش المرض - على ولده الأكبر عضد الدولة ، وظن عضد الدولة أن والده ربما يتوفى وهو غير راض عنه ولا يتمكن من الحصول منه على الوصية بخلافته ، قام عضد الدولة - بعد تأمل وتفكير - بإرسال رسول إلى أبي الفتح يحمل له رسالة يقول فيها : « أرجو أن تطيب خاطر ركن الدولة من ناحيتي حتى يستدعيني ويرضى عني ! » ، فوافق أبو الفتح وبذل جهداً مشكوراً في هذا الغرض ، وأرسل يستدعي عضد الدولة على وجه السرعة من شيراز ، وحينما وصل عضد الدولة عند والده العظيم في اصفهان - وكان ركن الدولة قد أحضر بقية أولاده أيضاً - رتب أبو الفتح احتفالاً كبيراً لهم ، واجتمع ركن الدولة وأبنائه الأجداد في منزل الوزير ، وقسم ركن الدولة في ذلك الاجتماع الولايات التابعة له بين أبنائه ، وأمر فخر الدولة ومؤيد الدولة بإطاعة وتنفيذ أوامر عضد الدولة ،

الوزير محمد بن حسن المهلبى :

وكان يتولى الوزارة لمعز الدولة ، وقد حظى بمكانة عالية ، وكان سخياً .
 ذا همة عالية ، وتوفى عام ٣٥٢ هـ .

الوزير أبو جعفر محمد صيمرى :

وتولى الوزارة أيضاً أيام معز الدولة ، واشتهر بالتعقل وحسن التدبير .

الوزير نصر بن هارول النصراني

تولى الوزارة أيام عضد الدولة ، وبذل جهوداً كبيرة في تعمير كنائس التنصاري ومعابد الرهبان ، ولما توفي عضد الدولة ، وجلس ابنه أبو الفوارس على عرش السلطنة ، بادر بقتل نصر بن هارون ، فالحكم والبقاء لله .

الوزير الصاحب الكافي اسماعيل بن عباد :

كان وحيد عصره وزمانه في العلم والفضيلة ، والفهم والفتنة ، كما كان إمام الوزراء العظماء في صواب الرأي ، والتدبير ، وفي نورانية الخاطر وصفاء الضمير .

(بيتان ، ترجمتها)

— لقد سد برأيه السديد طريق الفتن في الدولة

— وكانت طلعتة البهية فاتحة نصر على الرعية

— وفتح أبواب السعادة حيثما توجه

— وأمر الزمن بأن يطيع أوامره

وقد تولى الوزارة لمؤيد الدولة الذي كان حاكماً على بعض ولايات العراق ، فلما توفي مؤيد الدولة أخذ [١١٩] أركان الدولة وأعيانها يتشاورون حول أى من أولاد آل بويه يولونه مكانه ، فقال لهم الصاحب الكافي :

« ليس هناك من يتساوى من ملوك الديلمة — ممن يستحقون السلطنة — مع فخر الدولة ، لذلك يلزم استدعاؤه من خراسان ليقوم بتنظيم أمور الدولة » ، فأجمعت آراء الأمراء على هذا الاختيار ، وبعثوا رسولا بسرعة إلى نيشابور ، وبشروا فخر الدولة — الذي كان يعيش في كنف حسام الدولة أبي العباس تاش — بالسلطنة ، فتوجه فخر الدولة بسرعة البرق والرياح إلى العراق ، وفي شهر رمضان عام ٣٧٣ هـ وصل إلى ولاية الري وتمكن من الجلوس على عرش السلطنة ، وفوض الوزارة للصاحب بن عباد . وقد وصل الصاحب إلى مكانة عالية لدى السلطان خلال فترة قصيرة جداً بفضل خصاله الحميدة ، وأفعاله الحجيذة ، وخبرته الوفيرة ، وكفاءته الكبيرة ، وصار صاحب الأمر والنهي في إدارة شئون الملك والمال . وفي سنة ٣٧٧ هـ توجه الصاحب بن عباد إلى طبرستان بأمر فخر الدولة ، وبذل جهداً

كبيراً في جمع وتنظيم أموال تلك الولاية ، وهزم وأدب الجماعات المتمردة ، كما قام بفتح عدة قلاع هامة ، ثم عاد في نفس العام ، وفي عام ٣٧٨ هـ أمر ذلك الوزير الهمام بأن يضربوا عدة عملات في جرجان ، كل قطعة تزن ألف مثقال من الذهب ، نقشوا على أحد جانبي كل قطعة سبعة أبيات من الشعر أحدهما البيت التالي :

شعر عربي :

واحمر يحكى الشمس شكلاً وصورة فأوصافه مشتقة من صفاتها
[١٢٠] كما نقش على الجانب الآخر للقطع سورة الإخلاص ولقب فخر الدولة
ولفظ جرجان ، وفي عام ٣٨٥ هـ حل مرض الموت على صاحب ، وفي تلك
الثناء زاره فخر الدولة فحدثه صاحب قائلاً له :

« لقد سمعت خلال عملي بالوزارة في رواج دولتكم بكل جهدي ، وجعلت
اسم السلطان يقرن — في العالم — بالطيبة والعدل والإحسان ، والآل لدى الناس
أرجو قبوله وهو أن يستمر السلطان على هذا المنوال حتى تؤتي جهودي أكلها في
أيامه المباركة ، فأنا لأأمل إلى الشهرة ، وراضٍ تماماً بأن يشتهر السلطان بالسمعة
الطيبة دون أن يذكر اسمي ، وإذا جاء أحد رجال السلطنة بأمر على خلاف
ماقلته ، وأعلن على الناس بأن هذا من صنعي — ويكون هذا الأمر فيه ضرر بالدولة
سبباً في اختلالها — فإنني أرجو أن لا يأخذ السلطان بقول المغرضين وأهل الفتنة ،
ولا ينحرف عن جادة الصواب »

فقبل فخر الدولة هذه النصائح من الناحية الظاهرية ، ولكنه بعد وفاة صاحب
تصرف فخر الدولة في ممتلكاته وحرم أبنائه منها ، كما صادر ممتلكات المقربين
والمتصلين به واستولى على أموالهم . وجاء في روضة الصفا أنه حينما حملوا نعش
الصاحب بن عباد إلى المسجد للصلاة عليه كان أعيان الديالة يقبلون الأرض أمام
نعشه بسبب الهيبة والجلال التي كان عليها ، وقد علقوا تابوته في سقف المنزل ، وبعد
فترة حملوه إلى إصفهان حيث دفنوه ، وقد استمر الصاحب في الوزارة مدة ثمانية
عشر عاماً ، وذلك العدد الهائل من الكتب النفيسة التي جمعها ، لم يتيسر جمعها
لوزير قط ، بل لم يتيسر [١٢١] لصاحب عرش وسلطان ، فحينما كان مسافراً في
إحدى السفريات كان أربعائة جمل يحملون كتبه ، والعهد على الراوى .

الوزير أبو العباس الضبي ، وأبو علي بن الحموي الأصفهاني :

بعد وفاة صاحب بن عباد ، دفعا مبلغ عشرة آلاف دينار ، وأصبحا وزيرى
فخر الدولة ، وقد قاما بمصادرة أموال الأغنياء ، وانزال المظالم بالأبرياء طوال
حياة فخر الدولة ، ولم تتضح نهايتها .

الوزير « خطير أبو علي » :

وكان وزيراً لمجد الدولة بن " فخر الدولة " ، وبعد أن تولى هذا الأمر الخطير
فترة حدث أن اختلفت « سيدة » والدة مجد الدولة مع ابنها ، ودارت الحرب بين
الأم والابن كتب فيها النصر للأم ، وأسر مجد الدولة مع خطير أبي علي وانفردت
« سيدة » بالحكم ، ولكنها بعد فترة صفت لابنها وأما الوزير فلم يتحدث عنه أحد
بعد ذلك .

الوزير ابن سهلان :

كان من بين وزراء سلاطين الديلمة ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة من فنون
والتزوير إلا واستعملها ، وقد قامت منازعات وحروب كثيرة بسببه بين سلطان
الدولة بن بهاء الدولة وأخيه مشرف الدولة ، وفي النهاية تصالح الأخوان واتفقا
سويًا ألا يعين أى منهما ابن سهلان وزيراً له ، وتولى مشرف الدولة إمارة العراق
العربي نائباً لأخيه ، واختصت ولاية فارس والأهواز بسلطان الدولة ، وعلى هذا
الأساس توجه سلطان الدولة من العراق العربي إلى الأهواز [١٢٢] ، فلما وصل إلى
« تستر (١) » عين ابن سهلان وزيراً - مخالفاً بذلك ما تم الاتفاق عليه - وجهز له
جيش وأرسله لمحاربة مشرف الدولة ، واشتبك مشرف الدولة في الحرب مع

(١) تستر : بالضم ثم بالسكون ، وفتح التاء ، وراء ، أعظم مدينة بخوزستان اليوم ، وهى
تعريب شوشتر ، قال حمزة الأصفهاني : « الشوشتر مدينة بخوزستان تعريب شوشر باعجام والطيب
واللطيف ، فبأى الأسماء وسمتها من هذه جاز » . قال : وشوشتر معناه معنى أفنها ، فكانه قال : أنزه
وأطيب وأحسن ... وبخوزستان أنها كثيرة ، وأعظمها نهر تستر وهو الذى بنى عليه سابور الملك ،
شاذروان بباب تستر حتى ارتفع ماؤه إلى المدينة لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض . وهذا الشاذ
وران من عجائب الأبنية ... وقيل إنه ليس فى الدنيا بناء أحكم منه . وقال ابن المقفع : أول سور
وضع فى الأرض بعد الطوفان سور السوس وسور تستر .
(انظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الثانى ج ٩ ، ص ٣١ . بيروت ١٣٧٥-١٩٥٦) .

الوزير ، وبعد انتهاء الحرب هزم بن سهلان ، وتوجه إلى واسط فحاصره مشرف الدولة ، وواجه ابن سهلان مجاعة شديدة خلال الحصار ، لدرجة أنه لم يبق هناك أثر لكلب أو قط ، وبناء على ذلك خرج ابن سهلان من القلعة مستسلماً لمشرف الدولة ، وفي عام ٤١١ هـ انضم إلى مشرف الدولة أخوه الآخر جلال الدولة - الذي كان حاكماً على البصرة وعلى خلاف مع سلطان الدولة أيضاً - وقضى الأخوان على ابن سهلان وسملاً عينيه .

الوزير فخر الملك .

كان يشغل منصب الوزارة فترة من الوقت لبهاء الدولة وسليمان الدولة ، وكان من أجلة وزراء آل بويه ، كما كان معروفاً بالفضل وعلو الهمة ، وقد نشر العدل ورعى الرعية أثناء توليه الوزارة ، ووضع ابن الحاسب كتابه « الخزن في الجبر والمقابلة » باسمه ، وحسب رواية الياقيني فإن ذلك الوزير العظيم توفي عام ٤٠٧ هـ . وجاء في بعض الكتب الأخرى بأن أبا غالب في أواخر (١)

الوزير أبو غالب بن محمد بن علي :

كان وزيراً لمشرف الدولة ، ولما أمر مشرف الدولة بأن يذكر اسمه في الخطبة ، طلب جماعة من [١٢٣] الديلمة - كانوا يميلون إلى سلطان الدولة - من مشرف الدولة الإذن لهم بالتوجه إلى الأهواز ، حاملين معهم متعلقاتهم في بغداد ، فأذن لهم مشرف الدولة ، وأمر بأن يرافقهم أبو غالب حتى لا ينقضوا عهدهم ، ولما وصل الديلمة إلى الأهواز أظهروا معارضتهم لمشرف الدولة ، وبادروا بقتل أبي غالب .

الوزير أبو علي بن مأكولا :

عمل بالوزارة لجلال الدولة بن بهاء الدولة ، وفي عام ٤١٩ هـ بدأ بعض الأتراك وجنود بغداد - الذين كان أبو علي قد أهمل وصول مرتباتهم إليهم عن اضطراب أو عمد - بحملة من القوضى والتخريب ، وأغاروا على منزل أبي علي وخربوه ، كما حبسوا جلال الدولة أيضاً في قصره حتى يبيع ممتلكاته ، فرضخ أمام تلك الجماعة ، وفي عام ٤٢٢ هـ تمرد أيضاً بعض الأشخاص من الأتراك وأغاروا مرة أخرى على

(١) الجملة ناقصة هكذا في النص الأصل .

قصر ذلك الوزير المسكين ، وفي ٤٢٥ هـ توفي جلال الدولة ، فاستراح بذلك أبو علي من غارات الأتراك .

الوزير صاحب العادل :

كان وزيراً لأبي كاليجار مرزبان سلطان الدولة ، وبعد وفاة أبي كاليجار قتل ابنه أبو منصور فولادستون صاحب بتحريض من والدته ، والعظمة والبقاء لله الملك المعبود .

مقال عن أحوال الشيخ أبو علي بن سينا :

لما كان - أعلم علماء المتقدمين ، وأستاذ حكماء المتأخرين - الشيخ أبو علي ابن سينا قد تولى منصب الوزارة أكثر من مرة ، فإنه من اللائق أن نورد بعضاً من أخبار ذلك الشيخ العظيم ضمن هذا الكتاب والإعانة من الله الودود .

كان والد الشيخ أبي علي عبد الله بن سينا من عمال وكفاة بلخ ، وبتقدير من الله - سبحانه وتعالى - رحل إلى بخارى في عهد الأمير نوح بن منصور الساماني ، وأرسله وزراء بخارى للعمل بقرية « أفشنة (١) » ، فتروج عبد الله بامرأة من تلك القرية اسمها « ستاره » وأنجب منها في شهر صفر عام ٣٦٣ هـ الشيخ أبا علي ، ولما بلغ الخامسة من عمره عاد والده إلى بخارى من أفشنة ، وبعث بأبي علي إلى معلم ، وخلال خمس سنوات تعلم الشيخ قواعد اللغة العربية وآدابها كما ينبغي ، وذلك بفضل نضوجه المبكر ، وشدة إقباله على تلتى الدروس .

(بيتان ، ترجمتها)

- الغصن الذى يقدر له الارتفاع
- ينمو دائماً فى البداية ويزدهر
- ويصبح برعمة يمكن وصفها بقولك
- هذه وردة ممتحة سوف تثمر كثيراً !

(١) أفشنة : بفتح الهمزة ، وسكون الفاء ، والشين معجمة مفتوحة ، ونون ، وهاء : من قرى

بخارى .

(انظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، ج ٢ ص ٢٣١ ، بيروت ١٣٧٥ هـ)

- ١٩٥٦ م .)

وبعد ذلك تعلم الحساب على يد محمود المساح الذي كان بقالوماهراً في علم الحساب ، ثم حملة والده إلى منزل الشيخ أبي عبد الله الناطلي الذي كان من كبار حكماء عصره ، فاستقبله الشيخ استقبالا طيبا ، وفتح أبواب الخير أمامه ، وقد نقل عنه أبو علي علم المنطق والفلسفة والرياضة ، ثم درس الفقه على يد إسماعيل الزاهد .

[١٢٥] وبعد ذلك انشغل الشيخ بقراءة العلوم الطبيعية والإلهية ، وحقق مسائل وفكرات تلك العلوم ، ثم تولدت لديه الرغبة في دراسة علم الطب فوصل - خلال فترة قصيرة من الزمن - إلى مرتبة عالية في هذا الفن لا يتصور أن يكون هناك أعلى منها ، وخلال فترة تحصيل الشيخ أبي علي لم يتم الليل كله مطلقا ، وبالنهار لا يقوم بأى عمل سوى القراءة أيضا ، وكان يجلس بين الأوراق والكتب ويكتب المقدمات القياسية لكل مسألة مع مراعاة شروط قواعد المنطق حتى يتبين له مدى صحة تلك المقدمات أو العكس ، وحينما كان يشك في إحدى المسائل كان يتوضأ ويذهب إلى المسجد ويصلي لله ركعتين سائلا منه المعونة والتوفيق حتى تظهر حقيقة تلك المسألة ،

والخلاصة أن الشيخ أبا علي بن سينا قد نال مهارة فائقة في جميع الفنون والعلوم وهو لم يزل بعد في الثامنة عشرة من عمره .

وقد جاء في الوقت الذي كان الشيخ مشغولا فيه بالدرس والتحصيل في بخارى ، حدث أن ألم بالأمير نوح مرض عضال ، وعجز جميع أطباء بخارى عن معالجته ، فلما أشرف الشيخ على علاجه شفى الأمير نوح خلال فترة قصيرة ، ولازمه بعد ذلك أبو علي ، وحينما كان الشيخ يلزمه طلب من الأمير أن يأذن له بالذهاب إلى مكتبة بخارى والتي كانت تضم بين جوانبها كتب الأولين والآخرين حتى ذلك الوقت ، فاطلع على جميع تلك الكتب النفيسة والغريبة ، وحفظ كل ما فيها من حقائق ودقائق ، وتصادف في ذلك الوقت أن اشتعلت النيران في تلك المكتبة ، فقالت جماعة من أعداء أبي علي إن الشيخ قد أشعل النار عمدا في المكتبة حتى يمكنه أن ينسب ما بها من علوم إلى نفسه .

وبعد ذلك اشتغل الشيخ أبو علي بالتأليف ، ولما بلغ الشيخ الثانية والعشرين توفي والده ، واضطربت [٢٦] أحوال الدولة السامانية ، فذهب أبو علي إلى خوارزم عند علي بن مأمون بن محمد الذي كان يسمى بخوارزمشاه ، فخصص له عملا ،

وكان يوجد في خوارزم في ذلك الوقت أبوسهل المسيحي وأبو الريحان البيروني وأبو نصر العراف وأبو الخير البخاري وكان خوارزمشاه يرعاكم جميعا رعاية تامة ، ومن الأقوال الثابتة أنه حينما بلغت دولة السلطان محمود الغزنوي مكانة عالية قال له جماعة من الأشرار والمفسدين إن الشيخ أبو علي يعشق مذهبا فاسدا - وكان السلطان محمود في منتهى التعصب - فأرسل أبا الفضل حسين بن ميكال إلى خوارزمشاه حيث سلمه رسالة من السلطان يقول فيها « لقد نما إلى علمي أن جماعة من الأفاضل الذين لا مثيل لهم يقيمون في خوارزم ، فيلزم أن تبعث بهم إلى دار السلطنة حتى يتشرفوا بحضور مجلس السلطان » ، ولما علم خوارزمشاه بحقيقة نوايا مجلس السلطان استدعى الجماعة المذكورة - قبل أن يستقبل حسين بن ميكال - ووضع حقيقة الأمر أمامهم ، وقال لهم إنني لا أريد أن أبعث بكم إلى السلطان رغما عنكم ، فإذا كنتم لا تريدون الذهاب إليه ، فعليكم أن تدبروا أمركم ، وتصرفوا قبل أن يراكم مبعوثه في خوارزم ، فاختار أبو ريحان وأبو الخير وأبو النصر الذهاب إلى السلطان محمود ، وغادر أبو علي وأبوسهل خوارزم على وجه السرعة ، وهربا ، وتحملا كثير من المشاق أثناء سيرهما في الصحراء التي بين خوارزم وأبيورد ، وبعد تعب شديد وإجهاد توفي أبوسهل في تلك الصحراء ووصل أبو علي مريضا منهكا إلى أبيورد ، وانتقل من هناك إلى استو ومن [١٢٧] استولى جرجان حيث نزل منزل استراحة قوافل السفر وأخذ يعمل بالتطبيب ، وحينما نجحت جميع وصفاته العلاجية نال شهرة فائقة ، وفي تلك الأثناء مرض ابن أخت قابوس بن وشمكير - وكان حاكما على جرجان - مرضا شديدا ، عجز الأطباء عن معرفة حقيقة مرض ذلك الشاب ، وكان صيت أبي علي في ذلك الفن قد بلغ مسامع قابوس ، فأمر أن يأتوا به لرؤية المريض وألقى عليه نظرة دقيقة فاحصة قال : « هذا الشاب ليس عنده مرض سوى العشق » ، ولكن الشاب المريض أنكر هذا الكلام ، فطلب أبو علي من أهله قائلا لهم « آتوني بالشخص الذي يعرف أسماء جميع مناطق استرباد » فأحضر خدم بلاط السلطنة شخصا يدعى « عسس » كان معروفا بهذه الصفات ، فوضع الشيخ أصبعه على نبض المريض وقال لعسس : « اذكر أسماء مناطق المدينة » ففعل عسس ما أمره به ، وحينما ورد على لسان عسس اسم المنطقة التي بها مطلب المريض ، اختلف

نبضه ، وحينئذ قال الشيخ لعسس : « اذكر أسماء حوارى هذه المنطقة » وبنفس الطريقة جاء ذكر اسم حارة معينة اختلف نبضه أيضا ، وبعد ذلك طلب منه ذكر أسماء أصحاب منازل تلك الحارة ، ومرة أخرى اختلف نبضه حينما جاء ذكر صاحب منزل معين ، وعند ذلك قال الشيخ : آتوني بالشخص الذى يعرف جميع سكان هذا المنزل : ولما نفذوا ماطلبه ، بدأ يعدد ذلك الشخص - بناء على طلب أبى على - أسماء ساكنى ذلك المنزل ، وعندما ذكر اسم مايريده المريض تغيرت حالة المريض تغيرا واضحا للدرجة لم يجد معها مجالا للإنكار .

[١٢٨] (بيت ، ترجمته)

— بلاء عشق العاشقين له صفة عجيبة

— فكأما حاولت إخفائه أكثر يصبح أكثر وضوحا

وعندئذ قال الشيخ للسلطان : « لقد أحب ابن أختك فلانة ، وعلاجه ينحصر فى وصل معشوقته » ، فدهش قابوس من مهارة أبى على الفائقة ، واهتم اهتماما زائدا برعايته .

ومما يذكر أنهم قالوا : لما رجع أبو الفضل حسين بن ميكال من خوارزم - وكان قد ذهب إليها لطلب الشيخ والأربعة العظام الآخرين الذين ذكرت أسماؤهم من قبل - ومثل أمام السلطان محمود وشرح له كيفية عدم تمكنه من لقاء الشيخ أمر السلطان محمود بأن ينقشوا صورة أبى على على لوحات وأوراق كثيرة ، ويبعثوا بها إلى جميع الولايات ، ويبلغوا تلك الولايات أمر السلطان بأنهم حينما يجدون فى أى مكان شخصا بهذا الشكل عليهم أن يرسلوه إلى دار السلطنة ، وكانوا قد أرسلوا صورة أيضا لقابوس ، وبناء على ذلك فحينما أمعن قابوس النظر فى وجه الشيخ ، عرفه ، ونهض واقفا احتراما وتعظيما له ، وأجلس الشيخ فى صدر مجلسه ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة فى سبيل رعايته والحفاظة عليه إلا وفرها ، وبعد مرور فترة من الزمن توجه أبو على صوب بغداد بسبب الكساد الذى حل بولاية أستراباد ، فلما بلغ مدينة الرى التى كان حاكمها وابنه مجد الدولة قد سمعا بمكانة أبى على الرفيعة ، فقد بذل مجهودا كبيرا من أجل استرضائه والعمل على إبقائه ، وفى تلك الأيام ظهر مرض المالبخولياعلى مجد الدولة وبذل الشيخ جهدا طيبا فى معالجته فشفي مجد الدولة ،

ابن كاكويه عن همدان وأخذا الشيخ معهما من القلعة إلى همدان . وأنزلا أبا علي في قصر عظيم ، فألف في ذلك القصر كتابه عن الأدوية القلبية ، وفي ذلك الوقت توجه بمصاحبة شقيقه محمود والفقير أبي عبد الله وغلّامين ، متخفين في لباس الصوفية إلى إصفهان ، فلما وصلوا إلى طبرستان استقبلهم رجال علاء الدولة مرتبين لهم جميع مراسم الاستقبال من جياذ مطهمة وملابس نفيسة كملابس الأمراء ، وأنزلوا الشيخ في منزل يليق بمكانته ، وكان الشيخ يحضر مجلس علاء الدولة في ليلى الجمعة ، وكان مجلسه هذا مليئاً بالعلماء من كل مكان للاستفادة من حديث الشيخ . وقد أكمل كتابه الشفاء في ثلاث الولاية .

[١٣١] وفي عام ٤٢٠هـ حينما قدم السلطان محمود الغزنوى وابنه السلطان مسعود بلاد العراق كان الشيخ أبو علي يشغل منصب الوزارة لعلاء الدولة ، وقد خشى الملك والوزير بطش السلطان فتوجهوا مسرعين إلى نيشابور ، ولما رجع السلطان محمود ترك التصرف في يد السلطان مسعود ، فبعث علاء الدولة ابنه محمداً بالتحف والهدايا إلى السلطان مسعود ، فرضى السلطان مسعود ومنحه حكومة أصفهان وبعد فترة من تولى علاء الدولة حكم أصفهان نائباً عن السلطان مسعود استتماله بالحكم ناقضاً عهده مع السلطان ، ولما علم السلطان مسعود بهذا الموضوع ، توجه بسرعة إلى أصفهان على رأس جيش كبير ، فهرب علاء الدولة ووقع ابنه في يد السلطان مسعود ، وقد كتب الشيخ أبو علي إلى السلطان مسعود من أجل المحافظة على شرف وكرامة علاء الدولة قائلاً له : « إن شقيقة علاء الدولة تليق بك ، فلو تعقد عليها زواجك تصير لك الولاية على أصفهان » . فسر السلطان مسعود من كلام الشيخ وتزوج تلك المرأة ، وبعد ذلك علم مسعود بأن علاء الدولة يعد العدة لقتاله ، فتضايق كثيراً وغضب لسماع هذا الخبر ، فبعث برسالة إلى علاء الدولة يقول له فيها : « سوف أضع أختك بين أيدي المعربدين والأوباش من الجند » . فطلب علاء الدولة من الشيخ الرد على هذه الرسالة ، فكتب الشيخ للسلطان مسعود يقول : [١٣٢] « إذا كانت هذه المرأة هي أخت علاء الدولة ، فإنها الآن زوجتك وفي عصمتك ، وحتى لو تطلقها فإنها تصبح مطلقتك ، وتنتظر عدتك ، والغيرة واجبة على الأزواج لأعلى الأخوة » . فوقع هذا الرد موقع التأثير ، وأرسل السلطان مسعود أخت علاء معززة مصونة إلى أخيها ، وقد عاد السلطان

وفي الوقت الذي وصل فيه حكم السلطان محمود الغزنوي إلى العراق ، انتقل الشيخ من الري إلى قزوین ومن قزوین إلى همدان ، وفي تلك الأثناء مرض شمس الدولة بن فخر الدولة - وكان [١٢٩] حاكماً على همدان - بمرض التهاب الكبدی فشفي من ذلك المرض بفضل أبي علي ، وأسند شمس الدولة منصب الوزارة للشيخ ، وبعد أن تولى الشيخ الوزارة بعدة أيام قامت اضطرابات في همدان ، وأغار بعض الجنود على منزل أبي علي ، وحاولوا قتله ، ولكن الشيخ هرب منهم ، واختفى أربعين يوماً في منزل أبي سعيد نامی ، وفي تلك الأيام عاود المرض شمس الدولة ، فبحث عن أبي علي ووجده بعد مجهود كبير ، واعتذر له عما حدث ، وبالغ في تكريم أبي علي وإجلاله ، وولاه الوزارة مرة ثانية ، وطلب الفقيه أبو عبيد في ذلك الوقت من أبي علي أن يشرح له كتب أرسطو ، فأجابه الشيخ قائلاً : ليس عندي مجال لذلك العمل ، ولكن لو تقبل فإنه يمكنني تأليف كتاب من معلوماتي في علوم المناظرة والمجادلة ، فقبل أبو عبيد الفقيه هذا العمل ، فبدأ الشيخ بتأليف كتاب الشفاء وكذا تأليف المجلد الأول من القانون ، ومنذ أن اشتغل أبو علي بإدارة شؤون الوزارة في همدان فإنه كان يجتمع في منزله كل مساء جمع غفير وكان يقوم الشيخ في أول الليل بالتدريس ، ثم يأتي بعد ذلك بالمغنين والموسيقيين ، ويجلس لتناول الشراب [١٣٠] وفي تلك الأثناء توجه شمس الدولة للحاربة بهاء الدولة فعاوده المرض بسبب عدم محافظته وسوء تدبيره ، فأعاده جنوده إلى همدان ، وأثناء العودة توفي في الطريق ، فعين الجنود ابنه حاكماً مكانه ، وبعثوا بشخص لطلب الشيخ ليتولى الوزارة لذلك الابن ، فرفض أبو علي قبول ذلك المنصب ، واختفى في منزل أبي علي بن العطار ، وخلال فترة اختفائه كتب موضوعات الطبيعيات والإلهيات في كتابه الشفاء ، دون الاعتماد على أي كتب لآخرين ، كما وضع بداية كتابه منطق الشفاء ، وفي هذه الأثناء قبض تاج الملك - وكان من بين كبراء دولة ابن شمس الدولة - على الشيخ ، واتهمه بالاتصال بأبي جعفر علاء الدولة بن كاكويه - وكان حاكماً على أصفهان - وسجنه في إحدى القلاع ، فأكمل الشيخ كتابة منطق الشفاء في ذلك السجن ، وخلال تلك الظروف توجه علاء الدولة من أصفهان على رأس جيش قاصداً همدان ، ولما لم يقو ابن شمس الدولة وتاج الملك على المقاومة ، لحق الاثنان إلى القلعة المذكورة ، وبعد أن رحل

مسعود إلى خراسان بعد وفاة السلطان محمود ، وعين أبا سهل الحمدوني نائباً عنه في العراق ، ودارت حرب بين علاء الدولة وأبي سهل ، هزم فيها علاء الدولة ودخل أبوسهل أصفهان ، وضاعت أمتعة الشيخ وكتبه أثناء هذه الحرب ، ولكن علاء الدولة عاد مرة أخرى إلى أصفهان وأدخل تلك الولاية في حوزته .

وما نقل أن شره المجاعة قد سيطر على مزاج الشيخ ، فكان يزاول ذلك الأمر كثيراً ، فلا شك أن ضعف قوته وساءت صحته في العام الذي تحارب فيه علاء الدولة مع تاش ، حلت بأبي على آلام مرض القولنج ، فكان يحقن سبع مرات في اليوم الواحد ، واضطر للرحيل في تلك الأيام ، وأصيب الشيخ بمرض الصرع بسبب آلام القولنج ، فأشار على خدمه بأن يعدوا له حقنة ويضعوا بها مثقالين من بذر الكرفس ، فضم الشخص الذي قام بتركيب الحقنة - إمام سهواً منه أو عمداً - خمسة دراهم من الكرفس مع باقي المواد الداخلة في تركيب الحقنة ، ولهذا [١٣٣] السبب ألم به مرض السحج أيضاً ، كما خافه آخر من خدمه ممن كانوا يشرفون على علاجه - بأن خلط مادة الأفيون على معجون « مرديطوس »^(١) الذي كان يتعاطاه لمنع الصرع ، فاشتد عليه المرض بسبب ذلك ، ودخل الشيخ - بعد تلك الرحلة - إلى أصفهان فوق محفة لأنه لم يكن يقوى على الوقوف ، ورغم هذا المرض الشديد فقد بذل الشيخ جهداً كبيراً في المداومة على العلاج ، وفي النهاية تم له الشفاء ، وانضم لمجلس علاء الدولة مرة أخرى ، وتوجه علاء الدولة بعد ذلك إلى همدان وأخذ معه الشيخ ، فعادته آلام القوانج في الطريق ، فلما وصلا همدان وتأكد أبو على من أنه لا يمكن وقف ذلك المرض ، نفخ يديه من العلاج ، واغتسل وطلب التوبة عن جميع المحرمات ، وتصدق بكل ما كان معه على الفقراء ، وأعتق غلامه ، وأنهمك في قراءة القرآن ، وبعد أن أتم قراءته بثلاثة أيام توفي يوم الجمعة من جمعات شهر رمضان عام ٤٢٨ هـ ، وقال بعض المؤرخين إن وفاته حدثت عام ٤٢٧ هـ وكان عمره ثلاثة وستين عاماً شمسياً وسبعة أشهر .

(١) مرديطوس أو مثروديطوس تعريب لكلمة ميتريداتس Mithridates بحسب الضبط اليوناني واللاتيني . وكلمة « ميتريدات » كلمة فارسية قديمة سميت بالفارسية الحديثة « مهرداد » بمعنى واهب الحب وقد سمي عدد من الملوك الاشكانيين بهذا الاسم . وهذا المعجون سمي بهذا الاسم نسبة إلى ميتريدات الساج المعروف بميتريدات الكبير ملك إقليم Pont المشهور - الذي وضعه على سواحل البحر الاسود - وكان مشهوراً بمعرفة أنواع الاعشاب والسموم في الأزمنة القديمة ، وظل يحكم من عام ١٢٣ حتى عام ٦٣ قبل الميلاد .

ونقل الكثير من غرائب حالات الشيخ ، وعجائب أموره ، ومن ضمنها مايلي :

حينما وصل كتاب الشيخ « المنطق » إلى شیراز ، اشتغل أئمة فارس بقراءته وتمحيصه فاستخرج أحدهم [٢٣٤] - وكان أعلم القوم - عدة شبهات في الكتاب وكتبها في جزء وبعث بها إلى الشيخ مع أبي القاسم القرمانى ، فوصل أبو القاسم عند غروب الشمس إلى الشيخ في بلدة أصفهان ، وعرض عليه ذلك الجزء ، فتحدث الشيخ مع أبي القاسم إلى أن حان وقت صلاة العشاء ، ثم أخذ بعد ذلك في قراءة ذلك الجزء ، وبدأ كتابة الرد على الشبهات ، وفي تلك الليلة - وكانت في أوائل ليالى الصيف - كتب الشيخ خمسة أجزاء كل منها عشر ورقة في ذلك الباب ، وبعدها توجه إلى فراش النوم ، وحينما أدى صلاة الفجر ليلتها سلم تلك الأجزاء إلى أبي القاسم وكانت تشتمل على حل مشكلات أهل شیراز والرد على الشبهات ، وقال له : « استعجلت في الجواب حتى لا يملكث القاصد » فدهش أكابر شیراز حينما سمعوا هذه الحادثة الغريبة .

كما ذكروا أنه ذات يوم ، وفي مجلس علاء الدولة أثرت مسألة في علم الألفاظ ، وتحدث الشيخ فيها على قدر ما عنده ، فرد عليه أبو منصور - وكان أحد كبار العلماء في أصفهان ومن بين الحاضرين في المجلس - وخاطبه قائلاً : « لا يستطيع أحد أن يتحدث في حكمتك وفطانتك ، ولكن علم الألفاظ يرتبط بالسمع وحضر تكلم لم تزاووا هذا الأمر » فتأثر الشيخ أبو على من هذا القول ، وبدأ على الفور في دراسة كتب الألفاظ ، والاطلاع على أفضل النسخ التي كانت قد كتبت في ذلك الفن ، حتى وصل علمه في فن الألفاظ إلى درجة لا يعلى عليها ، [١٣٥] ثم نظم ثلاث قصائد تضم في ثناياها الألفاظ الغريبة ، وأمر بنسخ تلك القصائد وتجليدها ، وقام هو بعمل بعض التصرفات فيها حتى تبدو وكأنها قديمة ، وحملها إلى علاء الدولة وهو منفرد به وقال له : « حينما يأتي أبو منصور لمجلسكم أطلععه على هذه القصائد ، وقل له إننا وجدنا هذه الرسالة يوم الصيد بالصحراء ، ونريد أن نعرف معنى أبياتها » . ونفذ علاء الدولة ما تم الاتفاق عليه ، ولكن أبا منصور مهما حاول قراءة تلك الأشعار فإنه لم يفهم فيها شيئاً ، وبعد ذلك حضر الشيخ إلى المجلس وقام بشرح معنى كل لفظ يصعب فهمه على أبي منصور ،

موضحاً الكتاب الذى ورد به هذا اللفظ ، وفى أى فصل من فصول هذا الكتاب
 فعرف أبو منصور ، — بذكائه وفراسته — أن هذه القصائد من نظم أبي على ،
 وقام واعتذر له فى الحال ، وألف الشيخ فى تلك الأيام «كتاب العرب» وفيما يلى
 بيان مفصل ببعض مؤلفات الشيخ :

- ١ — المختصر الأوسط فى المنطق . ٢ — من المبدأ إلى المعاد .
 - ٣ — كليات القانون (فى أربع مجالات) ٤ — مختصر مجسطى .
 - ٥ — الحاصل والمحصل (فى ٢٠ جزءاً) ٦ — الانصاف (فى ٢٠ جزءاً) .
 - ٧ — كتاب النجاة (سبعة أجزاء) . ٨ — الهداية .
 - ٩ — الإشارات . ١٠ — الغفران (جزآن) .
 - ١١ — الشفاء (١٨ جزءاً) . ١٢ — علائى .
 - ١٣ — الفوائح . ١٤ — الأدوية القلبية .
 - ١٥ — الموجز فى حكمة أهل المشرق . ١٦ — الحكمة العرشية .
 - ١٧ — اثمان وجواب . ١٨ — المعطيات .
 - ١٩ — رسالة فى القضاء والقدر . ٢٠ — رسالة فى الأجرام العلوية .
 - ٢١ — رسالة فى آلات الرصد . ٢٢ — رسالة فى الشعر .
 - ٢٣ — مختصر إقليدس . ٢٤ — رسالة فى النبض .
 - [١٣٦] ٢٤ — رسالة فى حدود أقسام الحكمة . ٢٧ — رسالة حى بن يقطان .
 - ٢٦ — فى النهاية واللانهاية . ٢٨ — رسالة فى الأبعاد والأجرام .
- اللهم اغفر له ولجميع المؤمنين ، وصل على الأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين
 وسلم تسليماً كثيراً كثيراً .

الحديث عن جانب من أخبار بعض وزراء سلاطين الدولة الغزنوية

كان الأمير ناصر الدين سبكتكين أول شخص من الغزنين تولى أمر السلطنة وكان سبكتكين غلاماً تركي الأصل ، ومملوكاً لألبتكين ، وألبتكين اشتغل فترة بحكومة خراسان زمن السامانيين ثم اختلف معهم بسبب من الأسباب ، فأتجه إلى غزنين ، وسخر تلك الولاية وتولى حكمها ، وبعد أن توفي هو وابنه آلت حكومة تلك المنطقة إلى ناصر الدين سبكتكين ، وقد امتد حكم الدولة الغزنوية ١٧٨ عاماً ، وكان عدد حكامها أربعة عشر شخصاً فيما يلي ذكرهم على التوالي :

- ١ - الأمير ناصر الدين سبكتكين .
- ٢ - الأمير إسماعيل بن الأمير ناصر الدين سبكتكين .
- ٣ - السلطان محمود بن الأمير ناصر الدين .
- ٤ - السلطان مسعود بن السلطان محمود .
- ٥ - السلطان محمد بن السلطان محمود .
- ٦ - السلطان مودود بن السلطان مسعود .
- ٧ - [١٣٧] السلطان علي بن مسعود .
- ٨ - عبد الرشيد بن مسعود .
- ٩ - فرخزاد بن مسعود .
- ١٠ - أبو الظفر إبراهيم بن مسعود .
- ١١ - السلطان مسعود بن إبراهيم .
- ١٢ - السلطان أرسلانشاه بن مسعود بن إبراهيم .
- ١٣ - السلطان بهرامشاه بن مسعود بن إبراهيم .
- ١٤ - السلطان خسرو شاه بن بهرامشاه .

وفيما يلي نورد أخبار اثني عشر من الوزراء البارزين هؤلاء السلاطين :

الوزير أبو العباس الفضل أحمد الاسفراييني :

وكان يعمل في بداية حياته نائباً وكاتباً لفائق الذي كان بين كبار دولة سلاطين السامانيين ، ولما أفل نجم فائق ، تصرف أبو العباس حسب مضمون بيت الشعر التالي :

بيت ، ترجمته :

- إذا سقطت الدولة أسرع هارباً كالسهم
- واتخذ لك موطناً عند صاحب دولة آخر

والتحق بخدمة الأمير ناصر الدين سبكتكين ، وبعد أن توفي الأمير ناصر الدين سبكتكين ، وجلس ابنه السلطان محمود على عرش السلطنة ، شمل أبا العباس بعنايته ، وأسند إليه منصب الوزارة .

[١٣٨] وجاء في كتاب جامع التواريخ أنه برغم أن الفضل بن أحمد كان عديم الفضل والأدب ، خالياً من التبهر في لغة العرب ، إلا أنه كان ماهراً ، في ضبط أمور السلطنة ، وإنجاز مهام الجيش والشعب ، وقد منحه الله — سبحانه وتعالى — ابناً اسمه الحجاج ، اجتمعت في هذا الابن جميع الفضائل الشخصية ، وأصبح من فضلاء عصره ونظم أشعاراً عربية في غاية من الفصاحة والبلاغة ، كما أبدت أيضاً ابنة الفضل بن أحمد — حسب ما رواه بعض المحدثين — مهارة فائقة في علم الحديث . وبعد أن انقضت عشر سنوات على وزارة أبي العباس ، تغير طالعه ، وتبدلت أحواله ، وانتقلت من أوج الشرف إلى حضيض الوبال ، وذكر بعض المؤرخين السبب في عزله بقوله : « كان السلطان محمود شغولاً جداً بشراء الغلمان لخدمته وكان الفضل بن أحمد أيضاً يسير على هذا المنوال عملاً بالقول القائل « الناس على دين ملوكهم » وعلم الفضل ذات مرة بوجود أحد الغلمان — وكان غاية في الجمال — في إحدى الولايات التركية ، فبعث بأحد رجاله إلى تلك الولاية لشراء ذلك الغلام الجميل ، وجاء به رسول إلى غزني عن طريق الحریم ، وعلم السلطان بهذه الحادثة ، وبعث بغلام يطلب ذلك الفتى الجميل من الوزير ، ولكن الوزير أنكر بشدة ما حدث ، فمضى يمين الدولة السلطان محمود

وبكل ماله من هيبة واحترام - وذهب إلى منزل الوزير فاستقبله الوزير استقبالا رائعا ، وأدى له جميع مراسم الضيافة ، وفي تلك الأثناء دخل على السلطان غلام [١٣٩] حورى الطلعة ، وبدأ فى الغناء والطرب ، فأمر السلطان بالقبض على الوزير وسلب ونهب منزله ، وخلال هذه الظروف توجه السلطان إلى الهند ، فقام بعض الأمراء الأشرار بتعذيب أبى العباس إلى أن فارق الحياة .

(بيت ، ترجمته)

- لا يمكن لأحد أن ينجو من غدر الدهر

- ، ولا يمكن لأحد أن يعتبر الدهر وفياً

الوزير أحمد بن حسن الميمندى :

وكان أخا للسلطان محمود فى الرضاغة ، كما كان شريكه فى المكتب أيضاً ، والدة حسن الميمندى كان يعمل فى منطقة بست (١) فى تنظيم تحصيل أموال الديوان وذلك أثناء حياة الأمير ناصر الدين سبكتكين ، وقد ظن فيه الأمير ناصر الدين - بسبب رسائل المفسدين - ظناً سيئاً ، ففقد عليه ، وهناك بعض الناس اعتبروا حسن الميمندى أحد وزراء السلطان محمود وهذا خطأ كبير ، فهذا الخبر ليس له أى أساس لدى علماء التاريخ .

والخلاصة أنه حينما أصبح أحمد بن حسن إماماً لفضلاء عصره ومحبوها لدى العظماء - بفضل جمال خطه ووفور فضله وكمال فصاحته وكثرة كياسته - شمله السلطان محمود بعين عنايته ، وعينه رئيساً لديوان الرسائل والإنشاء ، وأخذت العناية والرعاية السلطانية - شيئاً فشيئاً - ترفع مكانة ذلك السيد الفاضل درجة تلو درجة إلى أن أسند إليه منصب مستوفى الولايات وشئون الهند بالإضافة إلى أعماله السابقة

(١) بست : بالضم مدينة بين سجستان وغزني وهرارة ، وأظنها من أعمال كابل ، فان قياس مانجده من أخبارها فى الاخبار والفتوح كذا يقتضى ، وهى من البلاد الحارة المزاج ، وهى كبيرة . ويقال لها فيها اليوم كرم سير ، ومعناه النواحي الحارة المزاج وهى كثيرة الأزهار والبساتين . . . وقد خرج منها جماعة من أعيان الفضلاء ، منهم أبو الفتح على بن محمد ويقال ابن أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد العزيز البستى الشاعر الكاتب صاحب التجنيس .

(انظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الثانى ، ج ٤ ص ٤١٤ ، ٤١٥ ، بيروت

• (١٩٥٦ - ١٣٧٥ م)

الذكر ، وبعد ذلك [١٤٠] بفترة أضيف إليه أيضاً مهمة تنظيم جميع أموال بلاد خراسان وقد أبدى الميمندى مهارة فائقة في إدارة وإنجاز جمع هذه المهام بطريقة لا يمكن تصور أفضل منها ، ولما تغيرت معاملة السلطان الحسنة لأبي العباس الاسفراييني قرر وضع منصب الوزارة وإدارة جميع شئون السلطنة في يد أحمد بن حسن الخديرة وقبضته الخديرة ، وظل ذلك الوزير يقوم بتدبير أمور الملك والمال مدة ثمانية عشر عاماً ، وبعدها قام جماعة من الأمراء العظام مثل التوتناش الحاجب والأمير على خويشاوند بالدس لذلك الوزير الماهر فتقولوا عليه زورا وبهتاناً في مجلس السلطان وحسب قول القائل « من يسمع يُخَلَّ » وجد هذا الكلام المهامل مكاناً في قلب السلطان فأصدر أمره بعزل الوزير الكفء ، وسجنه في إحدى قلاع الهند ، ولما توفي السلطان محمود بن سبكتكين ، وتمكن ابنه السلطان مسعود من اعتلاء عرش السلطنة في خزنين ، أخرج أحمد بن حسن من تلك القلعة وأسند إليه مرة ثانية منصب الوزارة ، وظل يديرها فترة بعد ذلك ثم توفي في عام ٤٢٤ هـ

« بيت » ترجمته :

— هذا هو مصير الجميع

— ، ولن تدوم لأحد

[١٤١] الوزير أبو علي حسن بن محمد :

كان أبو علي مشهوراً ومعروفاً باسم « حسنك ميكال » ، وكان يلزم السلطان محمود منذ بداية نشأته وأوائل صباه ، وقد وصف بحلاوة الحديث ، وحسن التصريف ، كما يتصف بحمد الطبع ، وثراء الذهن ولكنه لم يكن صاحب مهارة في فن الكتابة والإنشاء أو في علم السياق والإستيفاء .

وجاء في كتاب روضة الصفا أنه أثناء توجه السلطان محمود بطلب من نوح ابن منصور الساماني — إلى خراسان لقتال أبي علي مسيمجور قال له رجاله عند وصولهم إلى منطقة من المناطق التي يمرّون عليها : « يوجد بالقرب من هنا درويش يتصف بالزهد والتعبد ، وبإظهار الكرامات والحوارق ، وهو زاهد يتخذ لباسه من جلد الغزال » ونظراً لأن السلطان كان لديه اعتقاد قوى في الصوفية والدراويش فقد أبدى رغبته في لقاء هذا الزاهد وقال لحسنك ميكال — الذي لم

يكن يعتقد كثيراً في هذه الطائفة؟ — « رغم أني أعلم أنك لا تألف اللقاء بالصوفية وأهل الطريق ، فإنني أريد أن توافق على مرافقتي لزيارة الزاهد ! ! » فوافق حسنك وسار في صحبة السلطان ، وبكل خشوع واحترام التقى السلطان بالزاهد ، وأخذ الزاهد مبيتاً أسرار المعرفة فازداد اعتقاد السلطان بالصوفية بسمع ذلك الكلام ، وقال للزاهد : « لقد أمرت الخزنة أن يعطوك كل ماتريده من النقود والمتاع ! » فرفع الزاهد يديه في الهواء وملاً قبضتيه بالذهب المسكوك ووضعها في يد السلطان وقال له : « كل من يستطيع الحصول على مثل هذه الأموال من خزانة [١٤٢] الغيب ، أى حاجة له بما للخلق ؟ ! » فسلم السلطان تلك النقود الذهبية إلى حسنك ، ولما نظر فيها حسنك وجدها جميعاً من النقود المسكوكة باسم على سيمجور ، وفي الطريق قال السلطان لحسنك : « لا يمكن إنكار مثل هذه الكرامات » ، فرد عليه حسنك قائلاً له ، : « حقاً فكل ماجرى على لسان الزاهد هو عين الصدق والصواب ، ولا يليق بك أن تتوجه لحرب شخص يضرّبون النقود باسمه في عالم الغيب » ، فاستفسر منه السلطان عن حقيقة هذا الكلام ، فأطلعه حسنك على تلك النقود المسكوكة ، فتحير السلطان وتأثر .

والخلاصة أن الأمير حسنك ميكال كان يلزم السلطان دائماً ولم يغتبه لحظة في سفره أو حضره ، وفي الفترة التي عزل فيها أحمد بن حسن من منصب الوزارة ، أشار السلطان بأن يقوم الوزراء العظام بتعيين أحد أكابر الأمة في ذلك المنصب ، فكتب أمراء الدولة أسماء أبي قاسم العارض ، وأبي الحسين العقيلي ، وأحمد ابن عبد الصمد ، وحسنك ميكال وبعثوا بها إلى السلطان ليعين من يختاره عظمتهم وزيرا ، فقال السلطان : « لو أسند منصب الوزارة إلى أبي القاسم لأهمل عمل العرض ، وأبو الحسين العقيلي قروى ولا يناسبه منصب الوزارة ، وأحمد بن عبد الصمد يستطيع القيام بهذا العمل ولكن شئون خوارزم في عهده ، وأما حسنك فهو يتفوق عليهم جميعاً بعلو النسب وكمال الحسب والوقوف على دقائق الأمور ، ولكن حداثة سنه وعنفوان شبابه يمنعه من تولي منصب الوزارة » ، فلما [١٤٣] سمع الأمراء أقوال السلطان عرفوا أن السلطان يميل إلى تنصيب حسنك ، وعلى الفور اتفقوا وعرضوا عليه قولهم : « ليس هناك أنسب من الأمير حسنك لتولي منصب الوزارة » ، فلقى هذا القول قبولاً حسناً في نفس السلطان ، وقلد حسنك ذلك

المنصب الرفيع ، وظل الأمير حسنك يقوم بأعمال ذلك المنصب وحتى آخر أيام حياة السلطان ، ولما توفي السلطان ، اعتلى عرش السلطنة ابنه الأصغر السلطان محمد ، وأبقى منصب الوزارة في يد حسنك استمراراً لأمر والده السابق ، وفي تلك الأوقات تعود حسنك ارضاء للسلطان محمد — أن يقول بأقوال غير مهذبة على السلطان مسعود الذي كان بالعراق وقتها — مثلاً قال ذات يوم أمام موظفي الديوان : « حينما يصبح مسعود سلطاناً ، عليه أن يتخذ حسنك شقيقاً له » ، وحينما جاء السلطان مسعود إلى خراسان ، وانتزع الملك من السلطان محمد ، طلب حسنك وقال له :

(بيت ، ترجمته) :

— يجب أن لا يتشاءم أحد في العشق
— ولو يتشاءم فعليه ألا يتشاءم على نفسه !
فيجب على خدام دار السلطنة والعاملين ببلاط الخلافة ألا يعتمدوا على جاه السلطان وجلاله وعظمته ، وألا يغتابوا ويطعنوا ويلعنوا الإخوة وأقاربهم سرّاً أو علانية — مهماختلفوا — لأنه ربما ينتقل عرش السلطنة [١٤٤] والملك إلى ذلك الشخص الذي اغتیب عملاً بفحوى الآية الكريمة « تؤذي الملك من تشاء وتترع الملك ممن تشاء » (١) ، ويسمع ذلك الطعن واللعن والغيبة ، وينقلب مزاجه ، ولا يتحكم في غضبه ، ويقع منه أمر مثل ذلك الذي صدر عن السلطان مسعود بالنسبة لحسنك ميكال .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا يحسن بمثل العارفين التجرؤ على ذم العظماء
— فامسك شفيتك عن طعن أصحاب الدولة
— لأن ذلك يجلب لك الضرر

الوزير أبو نصر أحمد بن عبد الصمد الشيرازي :

كان في بداية حياته رئيساً لديوان التوتناش الحاجب وابنه هارون في مملكة

(١) سورة آل عمران ، آية « ٢٦ » .

خوارزم ، ولما توفي أحمد بن حسن الميمنى ، استدعى السلطان مسعود أبا نصر أحمد من خوارزم وأسند إليه منصب الوزارة ، فأدار أبو نصر أحمد مهام السلطنة ودبر أمور الجيش والرعية بأسلوب أصبح - بواسطته - دستوراً لوزراء العالم وقانوناً لمدبرى أمور الدنيا ، وقد شغل ذلك المنصب عشرين عاماً فى عهد السلطان مسعود ، وعامين أثناء حكم ابنه مودود ، ثم دخل السجن بتدبير من الأمراء ووضع له أعداؤه السم فى الشراب ، فتسبب ذلك فى وفاة الوزير الماهر .

الوزير طاهر المستوفى :

تولى فترة منصب مستوفى ديوان السلطان محمود ، وأسند إليه السلطان مودود منصب الوزارة بعد سجن أحمد بن عبد الصمد ، ثم أقيل طاهر بعد توليه ذلك المنصب بمدة شهرين بسبب ضعف رأيه وسوء تدبيره ، وقضى بقية حياته فى زاوية العزلة والفراغ .

[١٤٥] الوزير عبد الرازق بن أحمد بن حسن الميمنى :

حينما ترك طاهر المستوفى أمور الديوان ، تولى عبد الرازق بن أحمد - بأمر السلطان مودود - منصب الوزارة ، وقد ازدان جمال حاله بالعقل والتدبير ، وحسن قدره بالوجاهة والحدود والسخاء ، ولما أكمل سبع سنوات فى إدارة منصب الوزارة حدث أن توجه السلطان مودود فى منتصف رجب عام ٤٤١ هـ لمحاربة السلاجقة ولكنه عند أول منزل ابتلى بمرض القولنج فعاد إلى غزنین ، وأمر عبد الرازق - على رأس جماعة من الجيش - بالتقدم صوب سيستان التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة السلاجقة ، وقد توفي السلطان مودود أثناء غياب الوزير ، فأجلس أمراء الدولة على بن مسعود على عرش السلطنة ، وبلغ هذا الخبر مسامع الوزير - وكان بالقرب من قلعة بين بست وغزنین - فألغى سفره إلى سيستان ، وأخرج عبد الرشيد بن مسعود من الحبس - وكان قد حبس أثناء تلك الحملة بأمر السلطان مودود - ودعا الجنود إلى طاعته ، فوافقوا على ذلك ، وعاد الوزير مع عبد الرشيد إلى غزنین ، فهرب على بن مسعود ، واعتلى عبد الرشيد عرش السلطنة ، وأبقى منصب الوزارة فى يد عبد الرازق حتى آخر حياته .

الوزير حسن بن مهران :

وكان يتولى الوزارة والإنبابة للسلطان محمد - فى حياة السلطان محمود - ولما توفى السلطان توجه حسن - بنجرته لمساعدة [١٤٦] السلطان مسعود ، واعتذر عن الاستمرار فى إدارة الوزارة ، وترتب على ذلك أنه حينما وصل السلطان مسعود إلى غزنین ، أسند إليه أمر الإشراف على أمور الخزانة ، وبعد أن قتل عبد الرشيد بن مسعود ، وتولى فرخزاد السلطنة ، أسند منصب الوزارة إلى حسن ، واستمر حسن فى إدارة مهام هذا المنصب لمدة عامين ، ثم عزل وسجن وظل سجيناً إلى أن توفى فى سجنه :

الوزير أبو بكر صالح :

تولى الوزارة لفرخزاد بعد عزل حسن بن مهران ، وكان قبل ملازمة فرخزاد - حسب ما رواه صاحب جامع التواريخ - حاكماً فى بلاد الهند لمدة ثلاثين عاماً . وقد اكتشف فى تلك البلاد آثاراً عظيمة ، كما كان يتقن جيداً قواعد الفروسية والرماية ، وكان مقداماً فى المبارزة وألعاب القوى . والحلاصة أنه حينما وصل من بلاد الهند إلى غزنین تولى منصب الوزارة لفرخزاد ، وظل يعمل بتدبير ذلك الأمر حتى آخر أيام حياة ذلك الأمير ذى الأصل العريق ، ثم استشهد بضربات سيوف بعض الغلمان الأشرار ، وذلك فى أوائل عهد السلطان إبراهيم .

(بيت ، ترجمته) :

— هكذا قانون الفلك الدائر

هـ — سمه دائماً قربنا لشهده

الوزير أبو سهل الخجندى :

اشتغل فترة كاتباً لبلاط السلطان محمود والسلطان مسعود ، ولما تولى السلطان إبراهيم بن مسعود [١٤٧] عرش السلطنة ، فوضه أمر الوزارة ، وبعد فترة تغير السلطان إبراهيم على ذلك الوزير الفاضل :

مصراع :

وشمل عينه البصيرين « .

الوزير عبد الحميد بن أحمد بن عبد الصمد :

ظل يشغل منصب الوزارة لمدة طويلة أيام السلطان إبراهيم بن مسعود وأخيه السلطان أرسلان شاه . وقد فاق والده العظيم في نشر العدل والإنصاف والقضاء على الظلم والطغيان . ويقول الأستاذ أبو الفرج الروني في مدح ذلك الوزير العظيم :

(بيت ، ترجمته) :

— لقد أرسى عبد الحميد أحمد بن عبد الصمد

— ، أسس الفضل وقواعد الجود ورمى العدل

وزراء السلاجقة

ذكر ناظم كتاب « ملك نامه » أن والد سلجوق - المسمى بالدقاق والملقب بـ « تمر باليغ » - كان من بين أركان دولة ييغو حاكم التراكمة في صحراء الخزر ، ولما توفي الدقاق رحل ابنه سلجوق مع قومه وعشيرته - بسبب دسائس أعدائه - من صحراء الخزر إلى تركستان .

وقد بلغت ثلاث طبقات من أبناء سلجوق إلى مرتبة رفيعة في الحكم ، الطبقة الأولى : وحكمت في [١٤٨] جميع أنحاء خراسان وأكثر ممالك العراق ، الطبقة الثانية : وحكمت في بلدة كرمان ، الطبقة الثالثة : وحكمت في بلاد الروم .

وكان سلاطين الطبقة الأولى أربعة عشر شخصا ، دامت سيطرتهم واستمر نفوذهم مدة ١٦١ عاما ، وأسماء هؤلاء السلاطين المشهورين هو كما يلي :

- ١ - طغرل بيك محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق
- ٢ - ألب أرسلان بن جغريبك داود بن ميكائيل بن سلجوق
- ٣ - السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان
- ٤ - السلطان بركيارق بن ملكشاه
- ٥ - السلطان محمد بن السلطان ملكشاه
- ٦ - السلطان سنجر بن ملكشاه
- ٧ - السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه
- ٨ - السلطان طغرل بن السلطان محمد

- ٩ — السلطان مسعود بن السلطان محمد
- ١٠ — السلطان ملكشاه بن محمود بن السلطان محمد
- ١١ — السلطان محمد بن محمود بن السلطان محمد
- ١٢ — السلطان سليما نشاه بن السلطان محمد
- ١٣ — السلطان أرسلان بن طغرل بن السلطان محمد
- ١٤ — السلطان طغرل بن أرسلان .

وفيما يلي بيان لأحوال وزرائهم :

الوزير عميد الملك أبو نصر الكندري :

[١٤٩] وكان معروفاً بالذكاء والفراصة ومشهوراً بالفضل والكياسة، وكانت له أياد بيضاء في الكتابة والفصاحة ، وفي فن الاستيفاء والسياس ، وكان دائماً يبذل جهداً فائقاً وسعيًا مشكوراً من أجل إحياء مراسم الخود والسجاء ، ونشر خلال فترة وزارته العدل والإنصاف ، وقد استقل الكندري بإدارة شئون الوزارة لمدة عشرين عاماً أثناء فترة حكم السلطان طغرل بيك ، ولما انتقلت السلطنة إلى السلطان ألب أرسلان ، عاقب ذلك الوزير الماهر وسجنه ، وخشى الوزير نظام الملك الطوسي من مهارة عميد الملك وذكائه ، فاتفق هو وجماعة من الأمراء على العدل على قتله ، فدسوا له عند السلطان ، وحصلوا منه على الإذن بقتله ، وذكر أنه في الوقت الذي استسلم فيه الكندري لتلقي مشيئة الله ، خاطب السياف قائلاً له : « عندما تفرغ من تنفيذ هذه المهمة ، أبلغ ألب أرسلان على لساني مايلي : إنني بفضل رعاية عملك طغرل بيك وصلت إلى مرتبة عالية في هذه الدنيا ، وحكمت العالم الفاني ، كما وصلت بسبب عدم رحمتك إلى مرتبة الاستشهاد والقوز بجنة الخلود ، لذلك فقد تحقق لي — بواسطتك — السعادتين ، السعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، ونلت آمالي المادية والمعنوية ، ثم قل للوزير صاحب التدبير الصائب مايلي : لقد سننت في أسرة السلاجقة سنة قبيحة ، وبدعة مرذولة ، وسوف يقع لأعقابك وأسلافك — بسرعة — كل ما دبرته لي » .

وفي النهاية وقع بالفعل — بالنسبة لأولاد وأحفاد الوزير نظام الملك — ما قاله عميد الملك .

(بيت فارسي ، ترجمته) ،

— حينما تسير يا عزيزي في جنازة عدوك

— لا تفرح ! لأن ما أصابه سوف يصيبك يوماً ما !

[١٥٠] الوزير نظام الملك أبو علي حسن الطوسي :

كان والد نظام الملك يسمى علي بن اسحق الطوسي (١) — عند أغلب المؤرخين — ولكن صاحب جامع التواريخ يقول : إن والد الوزير نظام الملك كان يسمى محمداً ، وقد تتبع كاتب هذه الكلمات وقارن ما ذكره كبار المؤرخين ، فيقول : كان علي بن اسحق الطوسي أحد عمال ديوان سلجوق ، وقد اشتهر كثيراً بالجلود والسخاء والكرم والمروعة ، وحينما رزقه الله بهذا المولود السعيد ، قصر كل جهده على الاهتمام بتربيته ، ففرغ ذلك الابن الذكي من حفظ القرآن المجيد وهو في الحادية عشرة من عمره ، وبعدها صرف كل أوقاته السعيدة في ملازمة العلماء ، وأهل الدرس والفتوى ، وفي تحصيل العلوم ، وكسب الفضائل إلى أن أصبح بعد فترة قصيرة إماماً لفضلاء عصره ، وأبدى مهارة فائقة في فقه الإمام الشافعي . وبعد ذلك عزم على الترحال ، واختلط بأهل السياق وأصحاب الأقلام ، فبرز أيضاً في ذلك العلم ، ثم عمل بعد ذلك فترة في خدمة ابن شادان عميد بلخ ، وكان العميد كلما شعر بأن نظام الملك جمع شيئاً من متاع الدنيا ، كان يقول له : « لقد صرت غنيا يا حسن ! » يأخذ منه كل ما جمعه ، ولما حدثت هذه الفعلة المذمومة — التي هي من طبيعة اللثام — من ابن شادان مرات عديدة : [١٥١] كره نظام الملك العمل في خدمته ، وهرب إلى مرو ، واتصل بجغريك السلجوقي ، وقص عليه بعضاً من أخباره ، فلقى حديثه الطيب قبولا حسنا في نفس جعفر بيك ، واشتم فيه علامات الرفعة والإقبال ، فأرسله للعمل مع ألب أرسلان ، مصحوباً برسالة منه يقول فيها لألب أرسلان : « عليك أن تعين هذا الشخص كاتباً ومستشاراً لك ، ومسئولاً عن تدبير أمورك ! » وفي تلك الأثناء وصلت إلى مرو شكوى من ابن شادان يقول فيها « لقد هرب كاتب بلخ ، وعمل في خدمتك ، وترك أعمال

(١) كتبت هذه العبارة التالية في حاشية النص الأصلي « حدثت ولادة الوزير في عام ٥٤٠٩ هـ على حد قول صاحب مجمل فصيحى .

هذه الولاية مهمة ومعقدة. والمرجو أن يأمره السلطان بالعودة ، فضرِب جفر بيك بيده على صدر رسول العميد وقال له : « إن نظام الملك يعمل مع ألب أرسلان ، ولا يجب أن يتحدث معه ابن شادان » . فعاد رسول العميد دون أن يحقق مطلبه . وقد روى أنوشيروان خالده في كتابه « نفثة المصدور » قائلا :

لقد سمعت عن لسان الوزير نظام الملك قوله : « في بداية حياتي - ولسبب من الأسباب لا مجال للحديث عنه بالتفصيل - أخذ المسئولون ينقلونني من مكان إلى مكان ، وكنت أركب جوادا نحيفا متعبا ، ومن شدة الاضطراب وعدم توفر وسائل السفر المريحة ، صار النهار الساطع في عيني كالليل الخالك السواد ، فكنت أقطع المسافة في غاية من الحزن والملل ، إلى أن اعترضني في تلك الصحراء شخص يمتطي جوادا قويا سريعا - ولم أكن قد رأيت ذلك الشخص من قبل كما أن المسئولين لم يكونوا يعرفونه أيضا - ولما اقترب مني ذلك الفارس ، قال لي : « يا حسن ، هل توافق على أن استبدل حصاني بحصانك ؟ » فقلت له : « أيها الشاب ، لم السخرية والاستهزاء ؟ » قال : « والله أني لا أهزل » ، ونزل على الفور ، [١٥٢] وبذل سرجي الجوادين وأركبني على جواده ، وركب هو على جوادى ، ثم غاب عن أعين الجميع ، فتعجبت أنا والمسئولون من ذلك الموقف ، وظلت عيناي تشتاقان لرؤية ذلك الشخص - خلال فترة حالى - لكي أتمكن من تقديم شكري له ، ولكن عيني لم تره أبداً .

(بيتان فارسيان ، ترجمتهما) ،

- الشخص الذى يكون مرشده العمل السليم
- فإن المدد يأتيه من عالم الغيب
- وحينما يكون التأييد الإلهي حليفه
- فإنه ييسر له جميع أموره ويحفظ له مكانته

وقد روى أنه قبل أن يتولى الوزير نظام الملك أعمال الوزارة ، تصادف أن واجه السلطان ألب أرسلان سفرا مفاجئاً فقرر أن يصحبه نظام الملك في ذلك السفر ولكن نظام الملك في ذلك الوقت لم تكن لديه المقدرة المادية لتحمل تكاليف ذلك السفر ، فأخذ يفكر من أين يأتي بتكاليفه ، وأثناء هذا التفكير توضحاً

وذهب إلى مسجد مجاور له ، وأخذ في الدعاء ، وفجأة دخل المسجد ضرير وقال :
من بالمسجد ؟ فلم يرد نظام الملك . . ! فتنقل الضرير - على سبيل الاحتياط -
مستعياً بعصاته داخل المسجد ، ولما لم يسمع صوتاً لأحد ، توجه ناحية المحراب
وحفر الأرض وأخرج كوزاً مليئاً بالذهب المسكوك ، ونثر الذهب وأخذ يداعبه
لبضع لحظات ثم أضاف إليه بضعة دراهم ، ثم وضع الكل مرة ثانية بالكوز ودفنه
في نفس المكان . . . وحينما خرج الضرير من المسجد ، أطمأن نظام الملك ، وحمل
ذلك الذهب ، وتهيأت له أسباب السفر ، وتوجه مدمراً مرافقة السلطان .

(بيتان فارسيان ، وترجمتهما)

— الشخص السعيد الحظ

— ، لا تتعقد مطلقاً أموره

— فلو صادفته آلاف العقد

— فإن خالقه يحلها له بسموله

[١٥٣] وبعد أن وصل الوزير نظام الملك إلى منصب الوزارة الرفيع
— وحينما كان يتجول في السوق بصحبة موكب مهيب — وقع نظره فجأة على
ذلك الضرير فعرفه وقال لأحد مرافقيه : « أوصِل هذا الضرير إلى منزلي وتحفظ
عليه !! » . ولما رجع نظام الملك إلى منزله ، قدموا إليه الضرير ، فهمس في أذنه
قائلاً : « هل وجدت الكوز المليء بالذهب والذي كنت تحفّيه في المسجد وفقد
منك ؟ » فمد الضرير يديه الطويلتين وأمسك بأطراف ثوب نظام الملك وقال
« نعم وجدته » . فرد نظام الملك عليه قائلاً « ما هذا الكلام ؟ » قال الضرير :
« إنني لم أسأل أحدا قط منذ أن فقد الذهب ، والآن عرفت — بعد أن سمعت كلام
جنابكم — كيفية ما حدث ! ! فاستغرق نظام الملك في الضحك وأمر رجاله بأن
يعطوا الضرير ضعف ذلك الذهب ، كما أهداه كذلك قرية عامرة من ممتلكاته »

(مصرع وفارسي ، ترجمته) :

وهكذا يعمل العطاء ما ينبغي أن يعمل

والخلاصة أنه حينما قتل السلطان ألب أرسلان الوزير عميد الملك الكندري ،
فوض نظام الملك الاستقلال بمنصب الوزارة والحقيقة أن أمور الملك والأمة

استقامت بفضل رزائه ذلك الرجل العظيم ، ومثانة تفكيره ، فقد أنجز أمور الدين والدولة كما يجب ، وعم عدله وإنصافه الجميع في كل مكان ، واخضر غصن آمال أهل الفضل والكمال وأثمر بفضل نسيم لطفه وإحسانه ، كما كان يطمئن بنفسه على أطراف الرعايا والضعفاء والعجزة من الأمة في كل مدينة وولاية ، وكان يجالس الزهاد وأهل العلم والفتوى ، كذلك كان يقضي الساعات الطوال وأوقاته السعيدة مستغرقاً [١٥٤] بين رجال الصوفية والعباد ، وأقام الكثير من مؤسسات البر والخير في بغداد واصفهان ، وسائر أقطار وأطراف البلاد ، وأوقف على هذه المؤسسات الخيرية مزارع وضياعاً عامرة وأسواقاً ومستلزمات نافعة ، ولا شك أنه أصبح كما تقول الآية الكريمة : « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض (١) » ، مؤثلاً لأمانى الناس وآمالهم مدة ثلاثين عاماً خلال سلطنة السلطان ألب أرسلان والسلطان ماكشاه ، وتفوق على جميع العطاء والفضلاء وأهل الدولة والسلطان بجمعه لأسباب المكينة والحشحة ، وأدوات القوة والآبهة ،

(بيت فارسي ، ترجمته) :

— لقد أصبح اسمه الجليل مقروناً بالعدل على كل لسان
— وتجاوز كرمه وإحسانه قدر النجوم والأفلاك
فأوامره وأقواله في جميع الأقطار والأمصار — مطاعة كأحكام القضاء والقدر ،
وأحكامه وتوجيهاته منفذة في جميع الأطراف والآفاق
(بيت فارسي ترجمته) :

— يصبح كل عرش بوجوده عرشاً جديراً بالسلطنة
— ويصبح كل عقد يشهده تاجاً يليق بالملوك
ولقد ورد في بعض الكتب القيمة التي اطلعت عليها أنه أثناء حكم السلطان ألب أرسلان ، توجه ملك الروم على رأس جيش كبير لإخضاع ممالك إيران ، فبادر السلطان لملاقاته على رأس جيش مدرب قوى ، والتقى الجمعان في ملازجرد ، ودارت محادثات الصلح بينهما ، وفي تلك الظروف ذهب السلطان

(١) سورة الرعد ، آية « ١٧ » .

ألب أرسلان يوماً بصحبة نفر من رجاله للصيد، وفجأة وصل فوج من الروم إلى مكائهم ، والتفوا حولهم وقبضوا عليهم — ماعداً شخصاً واحداً — وأخذوهم [١٥٥] إلى معسكر القيصر ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شخصية تلك الجماعة ، أما الشخص الذى كان قد هرب من مكان الصيد فقد سلم نفسه للوزير نظام الملك ، وقص حقيقة ما جرى ، فتحفظ على الفور الوزير المخنك على ذلك الشخص وأمر جماعة من رجاله المخلصين — بعد صلاة المغرب — بأن يدخلوا المعسكر بسرعة من ناحية ميدان الصياح ، ونزلوا فى الخيمة السلطانية ، وعندئذ رفع نظام الملك صوته قائلاً : « لقد رجع السلطان من رحلة الصيد » . وفى صباح اليوم التالى أسرع الوزير السعيد بصحبة جماعة من الأمراء إلى القيصر وأنهموا موضوع الصباح ، وعند ذلك خاطب القيصر الوزير بقوله : « لقد أسرنا بالأمس مجموعة من رجالكم » فرد عليه الوزير بقوله : « لا بد أنهم من المجهولين من رجالنا ، لأن هذا الخبر لم ينتشر فى معسكرنا ! ! » فأمر القيصر بإحضار الأسيرة إلى مجلسه ليتسلمهم الوزير ، فوجههم الوزير أمام القيصر ، ووجه إليهم كلاماً قاسياً ثم استأذن بعد أن أنهى مهمته ، وتوجهوا جميعاً صوب معسكر السلطان ، فلما قطعوا جزءاً من المسافة ، نزل الوزير من على ظهر جواده وقبل السلطان وقدم له مراسم الاعتذار عن الكلام الذى كان قد قاله — لمقتضيات المصلحة — فى مجلس القيصر . ويقال بأن حرباً نشبت بعد هذه الواقعة بين السلطان وقيصر الروم ، انتصر فيها السلطان وأسر القيصر فعامله السلطان معاملة طيبة وعفا عنه وفوضه مرة أخرى حكم مملكة الروم .

ولا يخفى أن صاحب كتاب « تاريخ كزیده » قد نسب هذه الحكايات إلى السلطان ملكشاه ، ولكنه لما كان كبار الرواة [١٥٦] والمؤرخين قد سجلوا فى مؤلفاتهم الرواية الأولى ، فقد قمت أنا أيضاً باتباعهم والاعتماد عليهم والعلم عند الله — سبحانه وتعالى :

وجاء فى روضة الصفا أنه بعد النصر المذكور فإن السلطان ألب أرسلان قد رفع من مكانة ذلك الوزير المخلص أكثر من ذى قبل ، وأوكل إليه منصب المرئى للسلطان ملكشاه ، كما قرر أن يسموا الوزير بالمرئى والرسول ، وكانت له ألقاب كثيرة قبل ذلك :

ومن الثابت أنه في عام ٤٦٥ هـ توفي السلطان ألب أرسلان ، واعتلى السلطان ملكشاه العرش بمعاونة ذلك الوزير الماهر ، فبذل جهداً من أجل إرساء قواعد العدل والإنصاف . وفي عام ٤٨١ هـ عزم السلطان ملكشاه على إخضاع دار الملك سمرقند ، وحاصر سليمان خان الذي كان حاكماً على تلك البلدة العظيمة ، وفتحها خلال بضعة أيام ، وبعث بسليمان خان مقيداً إلى أصفهان . وأثناء العودة من بلاد ما وراء النهر ، كتب الوزير نظام الملك بأن يؤخذ أجر ملاحى نهر جيحون من أموال أنطاكية بالشام ، فشكا الملاحون فسأل السلطان الوزير المخلص قائلاً : « ما هي الحكمة في هذا الإجراء ؟ فأجابه الوزير بقوله : « لقد اتخذت هذا الإجراء حتى يتحدث الجميع على مر السنين عن اتساع الملك التي يحكمها السلطان » فأعجب السلطان جداً من هذا التصرف ، وأمر الوزير بأن يجعل الصيارفة يدفعون أجور الملاحين بالنقد الذهبي .

[١٥٧] وفي عام ٤٧٩ هـ ذهب السلطان ملكشاه إلى دار السلام بغداد ، وتشرف بلقاء الخليفة المقتدى بالله ، وحاول أن يقبل يد الخليفة ولكن الخليفة لم يوافق ، وعند ذلك تناول السلطان خاتم الخليفة وقبله ، فأهداه الخليفة للسلطان ، وغادر السلطان دار الخلافة سعيداً مسروراً ، أما الوزير نظام الملك فقد بقى هناك حتى يدخل الأمراء واحداً واحداً ليتشرفوا بلقاء الخليفة ، وقد قدم الوزير كل واحد منهم للخليفة فكان يقول : فلان هذا يشغل درجة كذا !! وذلك مرتبة كذا ، موضحاً للخليفة عدد فرسان كل منهم ومصروفاته . وبعد ذلك خلع الخليفة على الوزير خلعة فاخرة ثم غادر الوزير مجلس الخليفة .

وقد ذكر الوزير نظام الملك في وصاياه قائلاً : « في تلك الأوقات التي كان فيها السلطان ملكشاه في بغداد ، أراد أن يخطب لنفسه إحدى فتيات دار الخلافة وكانت جميلة تقية - ولما تمت له الموافقة على المصاهرة ، وتوطدت العلاقة بينه وبين الخليفة ، أمر السلطان بأن يحضر العقد جميع الأكابر والأشراف من شتى بلاد العرب والعجم ، فبعث برسله على وجه السرعة إلى جميع الممالك في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد الشام والروم وفارس والعراق وخراسان وما وراء النهر وغيرها ، أحضروا حكام تلك الولايات إلى بغداد ، وعقد في تلك المدينة اجتماع قلما حدث

مثله في العهود الماضية ، وكانت مخيمات السلطان في الجانب الغربي من المدينة وكانت دار الخلافة في الجانب الشرقي ، ولما كانت تقاليد التركمان تحتم بأن يتوجه أهل العريس - عند العقد - بتقديم مراسم الخضوع والخشوع لوالد العروس فإنه حدث يوم العقد أن طلب السلطان من جميع الأكابر والأعيان - الذين كانوا قد حضروا من جميع أنحاء البلاد - [١٥٨] أن يتوجهوا إلى دار الخلافة للحصول على رضا الخليفة وموافقته ، وعلم الخليفة بهذا الموضوع ، فبعث برسول من عنده إلى المكان الذي تجمع فيه الأشراف والعظماء ، وقال : « تعليمات الخليفة هي أن يأتي الأشراف والعظماء إلى دار الخلافة مترجلين يتقدمهم الوزير الملك راكباً » ، وحينئذ ركبت جواداً أصيلاً ، وسارت خلفي جميع أعيان الدنيا مترجلين ، ولما وصلت إلى دار الخلافة ، أجلسوني على مقعد في غاية العظمة ، ثم جلس سائر الناس عن يمين وعن شمال ، وتم إهداء كل واحد من العلماء والعظماء خلعة من دار وكانت خلعتي مطرزة بعبارة : « باسم الوزير العادل الكامل نظام الملك رضى الخليفة » ، ولم يحظ أحد بمثل ما حظيت به من الخليفة وذلك منذ بداية ظهور الإسلام حتى الآن » والهدف من شرح تلك الحالات أنه حينما تحرك شيطان ذلك الزمان في نفسى ، وأخذ تنى العظمة والكبرياء ، بدأت أتأمل غدر الدنيا ومتاعها القليل . وأرى عجزى وضعفى بالرغم من كل ما توفر لى . وتأكدت جيداً من أن تلك المكانة ، ومئات الآلاف مثلها ، لا يستطيع الصمود أمام نازلة أوكارثة بسيطة ، وكنت أقول لاحول ولا قوة الا بالله . ولما عدت من دار الخلافة وجاء الليل ، رأيت في المنام نفس المقعد - الذى جلست عليه عند الخليفة - موضوعاً في مكان أكثر رفعة وأنا جالس عليه متقلداً نفس الخلعة ، واكنى شعرت وقها بخوف ووحشة كاملة من العزلة والوحدة ، وفجأة ظهر لى شخص قبيح كريبه الرائحة ، وجلس بالقرب منى [١٥٩] لدرجة أننى خشيت هلاكى من رائحته الكريهة ، ثم ظهر آخر أكثر منه كراهة وقبحاً مئات المرات وجلس على نفس المقعد ، وظل يظهر لى أمثالهما الواحد بعد الآخر ، وكل منهم أقبح من سابقه ويجلسون إلى أن ضاق على المكان إلى درجة انقلبت فيها من على مقعدى ، وأوشكت روحى أن تفارق جسدى من شدة رائحتهم الكريهة ، وبعدها استيقظت من شدة الانزعاج فحمدت الله وأخرجت الصدقات عند الفجر ، ولم أقص ما حدث لى على

أحد ، وقد شاهدت نفس الواقعة في الليلة التالية ، واضطربت أيضاً لدرجة تملكنتني فيها الرعدة بحيث أنني لو لم استيقظ لأدى بي الانزعاج إلى نوم أبدي ، والحقيقة أنني في الليلة الثالثة لم أتوجه إلى فراش النوم من شدة الخوف ، ولكن النوم غالبني في آخر الليل ، فرأيت أيضاً نفس الجماعة القبيحة ، جاءوا وجلسوا واقربوا مني الدرجة أو شك نفسي فيها على الانقطاع ، ولكن ظهرت لي فجأة جماعة حسنة الطلعة ، طيبة الرائحة ، جميعهم كالملائكة ، كلما يأتي واحد منهم ويلقى السلام على ويجلس كان يختفي واحد من الجماعة القبيحة إلى أن اختفت الجماعة كلها وقد شعرت براحة تامة بوجود الجماعة الثانية يعجز لساني عن وصفها ، وفي تلك الأثناء خاطبت أحدهم قائلاً له : « من أنتم ؟ ومن هم أفراد تلك الجماعة السابقة ؟ » فأجابني قائلاً : « نحن نمثل الجانب الطيب من صفاتك ، وهم يمثلون الجانب السيء وكلانا على استعداد للملازمة إلى مالا نهاية ، وستكون ملازمتهم لك مؤبدة ، أما ملازمتنا لك فستكون مغلدة ، فإذا كانت لديك القدرة على مجالسة تلك الجماعة اتركنا ! وإذا كانت لديك الرغبة في مجالستنا اتركهم ! » والحقيقة أنني وجدت البهجة والسعادة التامة بمجالسة ومصاحبة الجماعة الثانية ، ولم أر بعد ذلك رؤى سيئة أبداً لأنهم أيقظوني .

[١٦٠] وقد كتب نظام الملك في أسفل هذه الحكاية ما يلي : « وهكذا يجدر بمن يتولى هذا المنصب - أي منصب الوزارة - أن يعرف جيداً أن التخلق بالأخلاق الحميدة أمر ضروري له ، كما أن اجتنابه للسيئات واجب حتمي عليه .

(بيتان فارسيان ، وترجمتهما) :

- أخلاقك الطيبة هي ربيعك وبستانك فاجعله رقيقاً باسمها
- والقناعة والرضا هما عينتك ومصباحك فتمسك بهما وحافظ عليهما
- وإذا كانت هذه الصفات والعياذ بالله ليست فيك
- فلا تحرم نفسك من هذه الصفات واستيقظ وتنبه !

وقد أورد سديد الدين البخاري في مؤلفاته أن نظام الملك أرسى منشآت للخير والبر في هراة وبغداد والبصرة وأصفهان وفي بلاد العرب وبلاد الروم ، وأتمها وأعدها للعمل ، ومن بينها مدرسة أقامها في بغداد يسمونها المدرسة النظامية ،

وكانت المدرسة الشريفة مفيدة ونافعة جداً لأن أحداً قط من طلبة تلك المدرسة لم يكن يسمح له بالانتظام بها ما لم يكن له نصيب وافر من مختلف العلوم والفنون وقد سكن في تلك المدرسة الكثير من كبار العلماء ، وقاموا بالتدريس بها والتعليم ، أمثال حجة الإسلام الإمام الغزالي والإمام أبو اسحق الشيرازي - رحمهما الله . وقد ذكر أنه حينما فرغ نظام الملك من بناء المدرسة النظامية أسند وظيفة أمين المكتبة إلى الشيخ أبي زكريا الخطيب التبريزي ، فكان الشيخ يقوم كل ليلة بتناول الخمر ومجالسة الشباب الماجن ، وقد نقل بواب المدرسة ذات مرة بعضاً مما حدث إلى نظام الملك ، فرد عليه نظام الملك بقوله : « إنني أثق ثقة كاملة في الشيخ أبي زكريا ولا أصدق هذا الكلام مطلقاً » ولكن الوزير فكريته وبين نفسه وذهب وحده ذات ليلة إلى المدرسة ، وارتقى سقف المكتبة وأخذ يراقب الشيخ أبا زكريا من خلال فتحة احتياطية [١٦١] بالسقف ، فشاهد صدق ما كان قد سمعه ، ثم عاد إلى منزله العامر وفي اليوم التالي طلب إدارة الوقف وأمر بمضاغفة مرتب الشيخ أبي زكريا . وتم صرفه ثم سلمه لأحد نوابه وقال له : سلم هذه الأموال للشيخ ، وأبلغه سلامي ، وقل له إن نظام الملك يقول : « إنني لم أكن أعرف والله أن الشيخ يتحمل كل هذه مصروفات الضرورية ، والا ما رضيت في الوقت الذي كنت أخصص فيه مصروفات الوظائف - أن أخصص هذا الأجر الضئيل باسم الشيخ في إدارة الأوقاف » وحينما التقى مبعوث نظام الملك بالشيخ زكريا وسلمه الرسالة فهم الشيخ أن نظام الملك قد وقف على ما خفي من أسرارهِ ، وكان هذا التصرف - من جانب نظام الملك - سبباً في خجل الشيخ وتأثره ، فرفع يديه بالتوبة والاستغفار ، ولم يجر وراء هذه المعاصي والملهيات طوال حياته بعد ذلك . كما روى أن نظام الملك كلف أحد رجاله وكان يسمى أبا سعيد أحمد بن محمد الصوفي النيشابوري بالإشراف على بناء نظامية بغداد ، فلما انتهى بناء المدرسة أبلغ المسئولون نظام الملك أن أبا سعيد ارتكب أعمالاً تتسم بالخيانة وتصرف في كثير من مواد البناء ، ولما علم أبو سعيد بما حدث هرب إلى البصرة ، ثم شعر بعد فترة من هروبه بالندم ، فعاد إلى بغداد ، وتوجه إلى نظام الملك وقال له في تضرع وابتهاال : « ياسيدي . لقد أمرت ببناء هذه المدرسة لوجه الله تعالى ، فاترك محاسبة كل من ارتكب أعمال خيانة فيها للحق - سبحانه وتعالى - حتى

تنال الثواب ، ويعاقب الخائن يوم القيامة على ما فعل » ، فرد عليه نظام الملك قائلا له : « يا أحمد ليس المهم عندى المال الذى تصرف فيه ، ولكن ما يؤلمنى هو أننى كنت أحب أن يكون مبنى هذه المدرسة فى منتهى القوة والمتانة ، حتى لا تتفكك قواعدها [١٦٢] وتهدم وتتخرب على مر الشهور والأعوام ! أما الآن فقد ضاعت الفرصة وليس فى الإمكان تدارك ما كان » ولم يقل نظام الملك لذلك الخائن أكثر من هذا .

كما ذكر فى بعض كتب التاريخ المشهورة أنه أثناء خلافة الناصر لدين الله قام بعض الناس بإبلاغ الخليفة قولا بلا استحياء ، وهو أن طلبة المدرسة النظامية يقومون دائما بارتكاب أعمال غير مشروعة حيث يقضون أوقاتهم فى مصاحبة الصبيان الأبرياء ! فأعرض الخليفة عن الرد على هذا القول وعزم بينه وبين نفسه على أن يقوم بالتأكد بنفسه من هذا الموضوع . ولما كان الخلفاء فى ذلك الوقت لا يظهرون بين الناس - خوفا من خناجر فدائيي الملاحدة - ولم يكن يعرفهم أحد ، فقد ذهب الخليفة ذات يوم وحده إلى المدرسة متخفيا فى ثياب أهل الموصل البيضاء ، وكان الناصر فى غاية من الجمال - وأخذ يتجول فى فناء المدرسة ، فأثر الخليفة - بجمال وجهه واعتدال قامته - فى أحد طلبة العلم حيث خرج هذا الطالب على الفور من فصله ، وأخذ يعاكس الخليفة الناصر ويدعوه لمرافقته ، وبعد أن شاهد الخليفة هذه الأحوال عاد إلى دار الخلافة ، وأمر فى اليوم التالى بطرد طلبة المدرسة النظامية على أن يحل محلهم اسطنبول للعرجية ، وهكذا جعلوا تلك المدرسة الشريفة اسطيلا ، وبعد ذلك بفترة قليلة شاهد الناصر فى المنام الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى تلك المدرسة مع نظام الملك ، فاقترب الخليفة فى أدب جم من سيد الأئام - عليه الصلاة [١٦٣] والسلام - وألقى عليه التحية والسلام ، فأعرض حضرة النبي عن الرد عليه ، وأدار وجهه المبارك إلى ناحية أخرى ، وسارع الناصر مرة أخرى أمام خير البرية لتحيته ، فحدث من حضرته نفس ما حدث ، وفى المرة الثالثة قال الخليفة الناصر فى عجز واستكانة للرسول : يا رسول الله . . أى عمل صدر منى لا يرضاه رسول الله ؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم - : ما دمت لا ترضى نظام الملك عنك ، فلن أرد سلامك ، ولن أتحدث معك !! وحينئذ توجه الناصر إلى نظام الملك وطلب منه إبداء رأيه فى الجريمة التى ارتكبها ، فأجابه نظام الملك بقوله : « لقد شيدت

مدرسة لطلبة العلم حتى يتعلموا فيها العلوم الدينية وأصول العقيدة ، وأصبح ثوابها في الآخرة السبب في علو مكانتي ، وأنت بسبب خطيئة ارتكبتها أحد المقيمين هناك ، قمت بالقضاء على التعليم والتعلم في ذلك المكان الشريف ، وجعلته اسطبلًا ! فقال الناصر بنخشوع : « أقسم لك بأني سأعيد لتلك المدرسة رواجها السابق ورونقها ، وأزيد في وقت الدراسة بها ، وأقيم مكتبة بجوارها ، وأخصص لتلك المدرسة الميمنة الكتب النفيسة » ، وهنا رضى نظام الملك عليه فضم الرسول عليه الصلاة والسلام الخليفة الناصر بن أحضانه ، وأظهر له عنايته به والإشفاق عليه ، ولما استيقظ الناصر من ذلك الحلم ، أصدر أمره بخروج العربية من تلك المدرسة وقام الفراشون بتنظيف تلك البقعة الطاهرة ، وتنفيذًا للعهد الذي كان قد أخذه على نفسه في الحلم ، فقد قام في اليوم التالي بوضع أساس المكتبة وخصص لها الكتب النفيسة :

(مصراع فارسي) :

« ما أطيب الأحلام التي تكون أفضل من الصحو » :

وروى أيضا أحد فضلاء عصر السلطان ملكشاه أنه في الوقت الذي كان فيه السلطان في بغداد ، خطر على [١٦٤] بال نظام الملك خاطر الحج والطواف بالروضة المقدسة لخير الأنام - عليه الصلاة والسلام - وطلب الإذن من السلطان ، فأذن له ، وحمل خدم نظام الملك أحماله وأثقاله إلى الجانب الغربي من دار السلام ، وقد ظل المكان لبضعة أيام منزلا لخيام الوزير المهيب ، وذات مرة توجهت للقاء نظام الملك ، فلما اقتربت من قصر صاحب الوزارة ، رأيت شخصا تبعد عليه إمارات الصالحين والأولياء ، فأعطاني ورقة وقال لي : « هذه أمانة للوزير . . أرجو أن توصلها إليه » ، فأخذت تلك الورقة ولم أقرأها ، وذهبت إلى خيمة الوزير وسلمتها له ، وعرضت عليه ماحدث ، فاستغرق نظام الملك في البكاء بعد قراءة الورقة ، واستولى عليه البكاء لدرجة أنني ندمت على ما فعلت ، ولما هدأ قال لي : « أرجو أن تحضر إلى صاحب هذه الورقة » ، فخرجت على الفور من خيمته لاحتضار صاحب الورقة ، ولكنني لم أجده ذلك الدرويش برغم كثرة بحثي عنه ، وعدت مضطرا وأخبرت نظام الملك بعدم وجود الدرويش ، وحينئذ وضع الوزير الورقة أمامي ، فشاهدت ما كتب بها وكان : « رأيت أمس الرسول - صلى الله عليه - وسلم

في المنام وقال لى : اذهب إلى حسن وقل له : حجبك هنا فلن تذهب إلى مكة !
 أليس أنا الذى قلت لك : كن ملازماً لهذا التركى ، وحقق بسرعة مطالب أصحاب
 الحاجات ، وقف على صراخ المعوزين وآلامهم » ويقول [١٦٥] الراوى : فألغى
 نظام الملك سفره إلى الحجاز ، وقال لى : « حيثما تجد صاحب الرؤيا الصالحة عليك أن
 تأتى به إلى ! » وبعد فترة رأيت ذلك الشخص ، فقلت له : الوزير فى شوق للقياك ،
 وإن تكن لك حاجة فإنه يحققها لك !! فأجابنى بقوله : « كان عندى أمانة للوزير ،
 أوصلتها إليه ، وبعدها ليست لى به وليس له بى حاجة قط ! ! »
 (بيتان ، ترجمتهما) :

— ما أسعد ذلك الذى يحرر نفسه من قيد الوجود

— ويتخذ من زاوية الفناء مأوى له

— ولا يتخذ له طريقاً عند أهل الجاه

— ولا يبحث عن مأوى له بجوار إنسان

ومن الثابت أن السلطان ملكشاه فى أواخر أيامه قد تغير على الوزير ذى المنزلة
 الرفيعة ، وكان السبب فى هذا أن تركان خاتون زوجة السلطان كانت ترغب فى
 أن يكون ابنها محمود ولياً للعهد ، وكان نظام الملك يرغب فى أن يعين السلطان
 بركيارق — الذى كان أكبر أبناء السلطان 'ملكشاه — ولياً على العهد ، وبناء على
 هذا ثار خلاف بين نظام الملك وتركان خاتون ، فكانت تركان تقوم بتقبيح وضم
 أفعال وتصرفات نظام الملك صاحب التحصيل الحميدة وذلك فى خلوتها مع السلطان ،
 وتعدد له الزلات والعثرات ، الصادق فيها والكاذب ، وكانت تقول له : « إن
 لنظام الملك اثنى عشر ابناً فهم بمثابة الأئمة الاثنى عشر ، وهذا جعله محبوباً فى نظر
 الناس ، وقد قسم حكومة الولايات على تلك الجماعة .. وأغلق أبواب المنفعة أمام
 باقى الخواص والمقربين » . أ

وحسب الحكمة القائلة « من يسمع يُخَلَّ » ، أثرت هذه الكلمات فى السلطان ،
 فأرسل رسالة إلى نظام الملك يقول له فيها : « إذا كان لديك ما يثبت اشتراكك

معى فى الملك فأظهره (١) ؟! وإلا فلماذا توزع على أولادك حكم [١٦٦] الولايات دون إذن منى ، وتستقل بالتصرف فى أمور السلطنة؟ فلو تقلع عن هذا المسلك فهو المطلوب ، وإلا فإنى أمر برفع الدواة من أمامك ، والعمامة من فوق رأسك (٢) ! « فأجابه الوزير قائلاً له : « لقد منحني الله الدواة والعمامة واختص السلطان بالتاج ، وقد استحكمت العلاقة بين هذه الأجناس الأربعة المختلفة لأن دوام ذلك منوط بسلامة هذا ، وقوة هذا مرتبطة بتدبير ذلك ! » وقد أضاف الناقلون كلمات قبيحة - نسبوها إليه - عن تركان على هذه الأقوال وأوصلوها للسلطان فغضب السلطان من رد الوزير الخاف ، وأصدر أمره إلى تاج الملك القمى - وكان رئيساً لديوان تركان خاتون وعلى عدااء مع نظام الملك - بالقيام بعمل ذلك الوزير البار ، وعقب ذلك مباشرة توجه السلطان من اصفهان إلى بغداد ، فتوجه نظام الملك وراءه كذلك ، ولما وصل إلى أحد مزارع القصب ، اعترضه أبو طاهر الأوابى ، وكان من بين فدائيي حسن الصباح - الذى أشار عليه بذلك بتحريض من تاج الملك أبى الغنائم - وذلك فى زى المتصوفة عندما كان يسير من عاصمة السلطنة إلى الحرم الشريف ، وقدم له ورقة ، انشغل نظام الملك بقراءتها ، وطعن أبو طاهر اللعين نظام الملك طعنة قاتلة بنحجر ، وقد توفى نظام الملك فى اليوم التالى متأثراً بجراحه ، ويقول الحكيم الأنورى (٣) فى رثاء ذلك الوزير العظيم :

(١) راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى ، ص ٢٠٨ من الترجمة العربية وهو كتاب مؤلف بالفارسية نقله إلى العربية عام ١٩٦٠ م :

الأستاذ الدكتور - إبراهيم أمين الشواربى .

الأستاذ الدكتور - عبد النعيم حسنين .

الأستاذ الدكتور - فؤاد عبد المعطى الصياد .

(٢) كناية عن عزله من منصبه .

(٣) وهو الأنورى الخوارانى شاعر السلطان سنجر السلجوقى ، ولد فى قرية « مهنة » من قرى (أبيورد) فى صحراء « خاوران » ، ولذلك فقد تخلص فى البداية بكلمة (« الخاورى » ، ثم غيرها فيما بعد إلى « الأنورى » وتاريخ ميلاد الأنورى غير معروف حتى الآن بالتحديد كذلك تاريخ وفاته غير معروف بشكل قاطع ، والأرجح أن وفاته قد حدثت فى عام ٥٨١ هـ ، أو بين سنتي ٥٨٥ ، ٥٨٧ هـ (١١٨٩ - ١١٩١ م) كما أشار بذلك المستشرقان « زوكوفسكى » ، « إتيه » .

(بيتان ، ترجمتهما)

- لقد رحل حامى العالم من ظلم الأفلاك
 - ورحل وحيد عصره وفريد زمانه
 - ورحل منظم ومدبر العالم
 - ورحل برحيله السرور والصفاء عن العالم
- [١٦٧] وقد ذكر أنه بعد طعن نظام الملك ، أنشأ نظام الملك هذه القطعة الشعرية وأرسلها إلى السلطان :

(قطعة فارسية ، ترجمتها) :

- لقد اشتغلت فترة طويلة بعك أيها السلطان
 - فمحوت الظلم من على ظهر الأرض
 - وحملت ثوقياتك المباركة وأوامرك السعيدة
 - إلى جميع الملوك وأصحاب العروش
 - ولقد بلغت الثالثة والتسعين من عمرى
 - ثم مت بضربة خنجر أثناء سفرى
 - وتركت ذلك العمل الأخير لولدى
 - معتمدا على الله وعليك فى رعايته
- وقد حمل جثمانه الطاهر إلى أصفهان ودفن فى مكان يليق به ،

= والأخبار المتصلة بحياة الأنورى مختصرة جدا ، فتذكر أنه حصل علومه فى المدرسة المنصورية بمدينة « طوس » وأنه كان طالبا جادا ، فى معرفة علوم النجوم والهندسة والمنطق والموسيقى والإلهيات والأحكام ، بل إنه برز فى كل علم نظرى أو عملى يعرفه واحد من معاصريه .
التحق الأنورى ببلاط السلطان سنجر السلجوق ، وأصبح من كبار شعرائه ويعتبر الإيرانيون الأنورى واحدا من ثلاثة شعراء أكبر ، يعتبرون أكبر من أعجبهم إيران على الإطلاق ، وهم : الفردوسى ، والأنورى ، والسعدى .

(انظر ، براون ، التاريخ الأدبى لإيران ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ - ٤٩٤ ، الترجمة العربية ، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م القاهرة) .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كل حفنة تراب تحت قدم جاهل

— ربما كانت ذؤابة فائنة أو وجه حبيب

— وكل لبنة في شرفة إيهوان

— ، ربما كانت إصبع وزير أو رأس سلطان

وجاء في كتاب « روضة الصفا » أن نظام الملك كان رقيق القلب ، حسن العقيدة ، فكان خوفه من الآخرة — أثناء عظمته وعلو مكانته — أكثر من آلام الدنيا وأحزانتها ، وبناء على هذا الشعور خطر بفكره مرة أخرى أن يكتب سجلا بمقدمه في الحياة للرعايا والعاملين تحت إمرته ، ويزينه ويحليه بتوقيعات الصالحين والعلماء من الأمة ، والأعيان والأشراف في الدولة ، على أن يوضع ذلك السجل معه في قبره بعد وفاته ، ورغم أن هذه الصورة كانت غير مألوقة فإن أئمة الدين ، سالكى طريق اليقين ، وضعوا توقيعاتهم على ذلك السجل بناء على رجاء [١٦٨] نظام الملك ولما حملوا ذلك السجل إلى الشيخ أبى إسحق المدرس بالمدرسة النظامية ببغداد — وكتب عليه : « خير الظلمة حسن ، كتبه أبو إسحق » ولما رأى نظام الملك ما كتبه الشيخ بكى كثيرا وقال : « لم يكتب أحد قط من الأكابر بصدق مثلما فعل الإمام أبو إسحق » ، ورأى أحد الفضلاء نظام الملك في المنام بعد وفاته فسأله عن أحواله فأجابه نظام الملك بقوله : « لقد شملنى الحق — سبحانه وتعالى — برحمته بسبب كلمة الحق التى كان قد كتبها الإمام أبو اسحق » .

ومن المعروف أن السلطان ملكشاه وصل إلى بغداد فى الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ٤٨٥ هـ ، ولما علم بوفاة نظام الملك ، أسند منصب الوزارة إلى تاج الملك ، وذهب هو للصيد ، وفى الثالث من شهر شوال من نفس العام مرض السلطان فى ميدان الصيد ، وعاد إلى بغداد ، فتوفى فى منتصف الشهر نفسه — أى

بعد استشهاده نظام الملك بثمانية عشر يوماً - ويقول الشاعر معزى (١) في هذا الغرض :

(بيتان ، ترجمتهما)

- « ولحق به السلطان الشاب في الشهر التالي
- « وفي الحال انضح عجز السلطان أمام قهر الخالق وعظمته
- « فتمعن في قدرة الخالق ، واعتبر بعجز السلطان

الحديث عن حسن بن الصباح :

[١٦٩] كان الحسن بن الصباح - على حد قول بعض أئمة المؤرخين - من أبناء محمد بن الصباح الحميري ، ولكن نظام الملك - رحمه الله - ذم في نسبه كما يتضح من مضمون كلامه الذي ذكره في وصاياه ، وفيما يلي ما رواه نظام الملك عن الحسن ابن الصباح : « كان الإمام موفق النيشابوري - روح الله ووجهه - من كبار علماء خراسان ، وكان معززا جدا ومباركاً ، وقد تجاوز عمره الشريف خمسة وثمانين عاماً ، وحظي بشهرة فائقة لدرجة أن كل صبي كان يقرأ القرآن والحديث على يديه ، لا بد له أن يبلغ مكانة عالية ، وبناء على ذلك بعثني والدي مع الفقيه عبد الصمد من طوس إلى نيشابور ، حتى أحظى بالاستفادة والتعلم في مجلس ذلك العظيم وكان يشملني بعطفه وعنايته ، وأبدت أنا إخلاصاً تاماً في خدمته والاستفادة

(١) الأمير معزى هو شاعر السلطان سنجر السلجوقي ، ولكنه استطاع قبل ذلك - في أيام السلطان ملكشاه - أن يفوز بشهرة واسعة في نظم الشعر ، وقد استمد تخلصه الشعري من أحد ألقاب السلطان وهو « معز الدين » كما ذكر الشاعر نفسه .

يذكر عوفى في كتابه « لباب الألباب » أن ثلاثة من الشعراء استطاعوا في ثلاث دول متوالية أن يبلغوا مراتب العز والإقبال بحيث لم يتيسر ذلك لغيرهم ، فأما الأول فهو الشاعر « رودكى » في عهد السامانيين ، والثاني « عنصرى » في عهد الغزنويين ، والثالث « المعزى » في عهد السلاجقة ، ونهاية المعزى كانت حزينة ، إذ قتله سهم انفلت خطأ من قوس « سنجر » عندما كان يقوم بالرمية ، وذلك في عام ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م .

انظر براون ، التاريخ الأدبي لإيران ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، ٤١٣ - ٤١٧ ، الترجمة

العربية ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م)

منه ، وقد أمضيت على هذه الحال أربع سنوات في صحبته ، وكان معي الشابان ، الحكيم الحيام ، والمخدول ابن الصباح ، وكانا في مثل سني ، كما كانا يتصفهان بحسن الطبع ، وسرعة الفهم ، وكانا يحضران مجلسه ويتنافسان معي ، وحينما أهم بالخروج كانا يخرجان أيضا ، ثم نجلس في ركن من الأركان ونراجع الدرس السابق ، وكان الحكيم الحيام نيشابوري الأصل ، وكان والد حسن بن الصباح اسمه علياً ، وكان شخصاً زاهداً فاسداً المذهب ، خبيث العقيدة ، وقد عاش في ولاية الري ، وكان أبو مسلم الرازي حاكم تلك الولاية يعرف بصفاء السيرة وحسن العقيدة ، ولهذا السبب كان دائم العداء لذلك المفسد ، الذي كان يذهب كثيراً إلى أبي مسلم محاولاً تبرئة نفسه من سيئ الأقوال والأفعال بالآيمان الكاذبة والأقوال الملفقة ، ولما كان الإمام موفق النيشابوري يذهب مذهب أهل السنة والجماعة فقد قام ذلك المخادع بمحاولة إبعاد تهمة الرفض على نفسه بأن أحضر ابنه من نيشابور لتلقى العلم والمعرفة في [١٧٠] مجلس الإمام ، وأما هو فقد اختار لنفسه زاوية الزهد والاعتكاف ، وكانوا يروون عنه أحياناً أقوالاً عن الاعتزال والإلحاد وأحياناً أخرى كانوا ينسبون إليه الكفر والزندقة ، وكان يشير هو إلى انتمائه للعرب بقوله « إنا من آل الصباح الحميري ، وجاء والدي من اليمن إلى الكوفة » ومن الكوفة إلى قم ، ومن قم إلى الري ، ولكن أهالي خراسان وخصوصاً أهل طوس أنكروا عليه هذا النسب ، وكانوا يقولون : « كان آبؤه من مزارع هذه الولاية » .

و خلاصة القول إن ذلك المخدول قال ذات يوم لي وللخيام : إنه لمن المشهور جداً أن تلاميذ الإمام موفق يبالغون مرتبة عالية ، وهما لا شك فيه الآن أنه إذا لم نصل جميعاً إلى تلك المرتبة ، فإن واحداً منا سوف يصل ، فكيف يكون عهدنا وميثاقنا ؟ فقلنا له : نقسم على أي اقتراح تقترحه ؟ فقال نقسم على أنه إذا تيسرت لأحدنا مرتبة الحكم والجاه نشترك معه فيها بالتساوي ! ولا يميز صاحب تلك المرتبة نفسه بميزة علينا ! ، فقلنا : موافقون على هذا ، وتم التعاهد على هذا الأساس ، إلى أن انقضت فترة على هذا الاتفاق ، وتنقلت أنا من خراسان إلى ماوراء النهر وغزني وكابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة في عهد السلطان ألب أرسلان ، وجاءني الحكيم الحيام فعرضت عليه ما يقتضيه حسن العهد والوفاء به ، واستقبلته بكل تكريم وإعزاز ، وبعد ذلك قلت له : « إنك والحمد لله تتحلى بحلية الفضل

الكمال، ويجب أن تلازم السلطان، ونقتسم منصب الوزارة بناء على العهد الذى بيننا، ويمكننى وصف فضيلتك ودرايتك للسلطان بحيث أوضح له ضرورة اعتمادى عليك»، فقال لى الحكيم: «إن نفسك الشريف [١٧١] ونفسك الكريمة تتوقان دائماً لإظهار المكارم، وتصل إلى حد أن ضعيفا مثلى يصفه وزير المشرق والمغرب بكل هذه الصفات، وليس هناك أى شك عندى فى أنك صادق غير متكلف فى صدقك، وهذا يرجع إلى علو همتك، وطهارة منبتك، وأما ما أتمناه الآن، هو أن أكون دائماً مطيعاً لك، وعند حسن ظنك، والعمل الذى تريد إشرأكى فيه معك ليس هناك داع له لأن طمعى فيه — فى ظنى — يعتبر كفراً بالنعمة، وأعوذ بالله من هذه الصفة، وأرى أن تكلفنى بعمل مناسب فى دولتك، اعتكف فيه وقت الفراغ، وأشتغل بالبحث العلمى»، ولما عرفت أنه يقول ما فى نفسه دون تكلف خصصت له مائة مثقال وألفاً من الذهب من عائد أملاك نيشابور، ينفق منها كل عام على معيشته، وأذنت له بالرجوع إلى وقته شاء، وقد أتم الحكيم عمر بعد ذلك معرفته بالفنون المختلفة، وبلغ شأواً عالياً فى علم الهيئة، وأما ابن الصباح فكان مجهولاً أيام حكم السلطان ألب أرسلان، وظهر فى نيشابور أيام السلطان ملكشاه فى العام الذى فرغ فيه السلطان من أمر قاورد بن جغريبك وجاءنى، فقدمت له من الإعزاز والإكرام كل ما فى وسع المحافظين على العهد والوفاء، والمتوخين الصدق والصفاء، واستمر على هذه الحال بضعة أيام، وفى يوم من الأيام — فى ذلك الوقت — قال لى: «يانظام الملك.. إنك رجل حكيم، وتعرف قول الحق — سبحانه — وتعالى فى كتابه «قل متاع الدنيا قليل»^(١)، فهل يليق بك أن تنقض العهد والميثاق بسبب حب الدنيا ومتاعها، وتصبح من زمرة «الذين ينقضون عهد الله»^(٢)». !

[١٧٢] (بيت، ترجمته)

— كن وفياً بعهدك

— وحاول ألا تصبح ناقضاً للعهد !

(١) سورة النساء، آية «٧٧»

(٢) سورة البقرة، آية «٢٧»

فقلت له : حاشا لله ! قال : إنك حقاً تقدم لى مكارم لا نهاية لها ، وألطافاً لا حدود لها ، ولكنك تعلم جيداً أن المعاهدة التى كانت بيننا لم تكن كذلك ! فقلت له : سنعاً وطاعة ، فلنقسم الجاه والمنصب بل كل ما هو موروث ومكتسب ! وبعد ذلك أخذته إلى مجلس السلطان وعرفته عليه فى الوقت المناسب ، وعرضت عليه الأمور السابقة التى كنا قد اتفقنا عليها ، وقصصت للسلطان كثيراً عن علمه الوفير ، وسيره الحميد ، وخلقه الكريم ، إلى أن حاز مرتبة القبول والثقة ، ولكنه مصداقاً للحكمة القائلة « الولد سر أبيه » كان هو أيضاً كوالده ، إنساناً مشعوذاً ومزوراً ومحتالاً ومديراً ، يلبس نفسه لباس الأمانة والصيانة ، لدرجة أنه أحدث تغييراً كبيراً فى نفس السلطان خلال فترة قليلة ، ووصل إلى تلك المرتبة التى أصبح فيها ضالماً فى كثير من الأمور والأعمال التى تتعلق بالعقيدة والدين ، واعتمد السلطان على آرائه وأقواله ، وصير الأمور بمقتضاها .

والهدف من سردى كل هذه المقدمات هو أنى أوصلته إلى هذه المرتبات ، وكانت النتيجة أنه ارتكب كثيراً من المفساد ، بسبب قبح سيرته ، وبلغ به الأمر أن أضاع بسرعة قواعد وأسساً استغرق تنظيمها عدة سنوات وجعلها هباءً منثوراً وبعبارة أوضح فإنه بدأ يستعمل أسلوب النفاق معى ، وأخذ يستعمل شتى ألوان المكر والخداع حتى تحصل بعض الهنات والهفوات التى كانت تحدث فى الديوان إلى السلطان ، فتثيره وتجعله يستفسر منه عن صحتها ، فيثبت فسادها للسلطان بلسان الموجه ، وتقرير العاقل المفكر . »

[١٧٣] وبعد أن كتب نظام الملك - رحمه الله - هذه المقدمات ، كتب من بين ما كتب من قصص الحسن بن الصباح هذه القصة : « كان يوجد فى حطب نوع من الرخام يصنعون منه الأوعية والأواني ، وحدث ذات مرة أن جاء على لسان السلطان فى تلك البلدة قوله : « لأنه يلزم نقل مقدار منه إلى أصفهان » وكان واحد من أهالى سوق العسكر قد سمع هذا الكلام ، فقام بعد عودة السلطان باختيار اثنين من الأجراء العرب وقال لهما : « لو توصلا خمسمائة من هذا الحجر الرخامى إلى أصفهان ، فسوف أضاعف لكما أجركما المعتاد » ، وكان لأحد الأجيرين ستة جمال وللآخر أربعة جمال ، وكان مع كل منهم أيضاً خمسمائة من خاصة به وقد أضاعفا الخمسمائة

من هذه على أحاطهم الخاصة، وقسمها على الجمال المذكورة بالتساوى ، وأوصلا أحجار الرخام إلى أصفهان، وحينما عرض السوق هذا الخبر ، ابتهج السلطان ومنح السوق خلعة وأنعم على الأجيرين بألف دينار، فقال لى الأجيران : نرجوك أن تقسم بيننا هذا المبلغ ، فأعطيت لصاحب الجمال الستة ستمائة دينار ، وأعطيت لصاحب الأربعة أربعمائة دينار، وبلغ خبر هذه القسمة إلى ذلك المخدول، فقال: لقد وقع فى التقسيم خطأ ، وأنفق مال السلطان فى غير موضعه ، وظل حق المستحق باقياً فى ذمة السلطان ، فكان يجب إعطاء صاحب الجمال الستة ثمانمائة دينار ، وماتى دينار لصاحب الجمال الأربعة ، وفى نفس اليوم عرض هذا الكلام على السلطان ، فطلبى السلطان وذهبت إليه فوجدت ذلك المخدول واقفاً، ولما رأى السلطان ضحك وسأل عن القصة فامتعض ذلك المخدول وتغير لونه وقال هذا القول: لقد أنفقوا أموال السلطان فى غير موضعها وبقي حق المستحق لم يأخذه !

[١٧٤] فقال له ندماء المجلس وحضاره: أوضح ! فقال : إن جميع أجمال هذه الجمال العشرة تنقسم إلى ثلاث حصص ، كل حصة خمسمائة من^١ ، وعدد الجمال عشرة فتكون جملة الأنصبة ثلاث حصص تضرب فى عشرة جمال، ويكون الناتج ثلاثين نصيباً ، وأربعة جمال فى ثلاث حصص تساوى اثنى عشر نصيباً ، وستة جمال فى ثلاث حصص تساوى ثمانية عشر نصيباً ، ونظراً لأن كل حصة يخصها عشرة أنصبة ، فإنه يتبقى الآن لصاحب الثمانية عشر نصيباً—وهو مالك الجمال الستة—ثمانية أنصبة ، ويتبقى لصاحب الاثنى عشر نصيباً — مالك الجمال الأربعة — نصيبان ، والمتبقى هذا هو ما يخص حصة نقل رخام السلطان ، وحيث ان الألف دينار تنقسم على هذه الحصة فقط فتتول بذلك ثمانمائة دينار إلى الأنصبة الثمانية ، وتكون المئتا دينار للنصيبين .

والخلاصة أنه شرح هذه المعينات ، والألغاز بهدف لإغاضى وإعجاز الآخرين فقال له السلطان: وضح بطريقة أفهمها !! فقال: « المسألة أنه يوجد عشرة جمال وألف وخمسمائة من^٢ ، فتكون حولة كل جمال مائة وخمسين من^٣ ، وعلى هذا فصاحب الجمال الأربعة — يحمل ستمائة من^٤ ، منها خمسمائة من^٥ من الرخام ملكاً خاصاً له ، ومائة من^٦ الرخام للسلطان ، والآخر صاحب الجمال الستة يحمل تسعمائة من^٧ ، يمتلك

منها أيضاً خمسمائة من^١ ، ويمتلك السلطان أربعمائة من رخام ، وكل مائة من^٢ ينحصرها مئتا دينار من الألف دينار ، يأخذ هذا ثمانمائة دينار ويأخذ ذلك مائتي دينار ، فإذا تم هذا من الناحية الحسابية فليس هناك قانون غير هذا ، والا لما لزم الأشراف على العطايا وتقسم^٣ مناصفة^٤ » :

ولما فعل ذلك المخذول هذا الفصل ، تظاهر السلطان بالتلطف من ناحيتي ، ولكنني عرفت أنه تأثر تأثراً كبيراً في داخله ، وكان هذان أمثلة الخيانات الكثيرة التي كانت تصدر عن ابن الصباح .

وكان المفسد الكبير هذا يتولى تنظيم عملية تحصيل أموال الولايات وأوجه إنفاقها ، وقد تعهد ذلك المفسد الكبير بعمل سجل ينظم عملية تحصيل أموال الولايات وأوجه الإنفاق ، وذلك في خلال فترة تساوى عشر مدة [١٧٥] المهلة التي طلبها لأقوم أنا بهذا العمل ، وفي الحقيقة كانت له أياد بيضاء في ذلك العمل ، وأنجز مثل ذلك العمل الخطير في فترة قصيرة ، ولكنه لما كانت أحواله وأعماله دائماً تقوم على أساس الحقد والحسد ، وتقض الميثاق ، فإنه لم يؤيد بالعناية الإلهية ، وينصر من الله — سبحانه وتعالى — ، وقد شعر بالخيال الشديد أثناء تقديم ذلك السجل ، لدرجة أنه لم يجد الفرصة بعد ذلك للبقاء في البلاط السلطاني ، ولو أن ذلك المخذول — والعياذ بالله — وجد تشقّقاً وتفكّكاً في ذلك المجلس ، فإنه لم يكن ليجد أمامه طريقاً آخر غير الذي سلكه في النهاية .

ويقول كاتب هذه السطور إن الكلام الذي كان قد ذكره نظام الملك عن حسن بن الصباح في كتابه الوصايا قد تم . وأما ما قاله بعض المؤرخين فهو مايلي :

في الوقت الذي كان حسن بن الصباح فيه ملازماً السلطان ملاكشاه ، استطاع أن يحدث تغييراً بسيطاً في نفس السلطان من ناحية نظام الملك ، فبعد حدث ذات يوم أن سأله السلطان مستفسراً بقوله : كم من الوقت تحتاج لعمل سجل يشتمل على تنظيم جمع وإنفاق أموال جميع الولايات ؟ فأجابه نظام الملك بقوله : عامين فقال السلطان ؛ : كثيراً فتعهد حسن بن الصباح أمام السلطان بإنجاز ذلك العمل خلال أربعين يوماً شريطة أن يلازمه جميع الكتاب في المدة المذكورة ، فوافق السلطان على هذا التعهد ، ووفى حسن بوعده ، وانتهى في أربعين يوماً من عمل سجل

منظم يشتمل على عملية جمع وإنفاق أموال الولايات ، فانزعج نظام الملك بسماع الخبر وقال لأحد غلمانه - حسب رواية الغلام نفسه الذى [١٧٦] كان صديقاً لخادم حسن - قال : « لوتفكر فى حيلة تمزق بها سجل حسن وتجعله أبتر ، فسوف أعنقك وأعطيك ألف دينار !! فانفرد غلام نظام الملك بخادم حسن وغافله ومزق السجل ، وقالت جماعة من المؤرخين ما يلى :

فى صباح اليوم الذى أحضر فيه حسن بن الصباح السجل إلى الديوان لعرضه ، كان نظام الملك موجوداً داخل ديوان السلطان ملكشاه ، وقال لخادم حسن - الذى كان يحمل السجل المذكور فى يده - أرنى هذا السجل لأتبين كيف رتب هذا السجل؟ ومنع الخادم حياؤه من رفض هذا الطلب ، فسلم السجل لنظام الملك ، فنظر نظام الملك فى السجل ووقف على طريقة تنظيمه وترتيبه ثم ألقى به على الأرض ، فتفرقت أوراقه وقال : أكثر ما كتب فى هذا السجل ناقص ومهمل وجمع تلك الأوراق دون مراعاة لترتيبها ، ولم يفض هذا الكلام لحسن خوفاً منه ، وعند العرض وجد حسن السجل ممزقاً ، وأوراقه متفرقة ، وبدأ السلطان يسأله عن أموال محاصيل الولايات ، فكان حسن يرد بردود بطيئة من (عندياته) ، ولما لم يجد السلطان الجواب مطابقاً للسؤال ، تضايق وانتهر نظام الملك الفرصة وقال : « العمل الذى يلتبس فيه العارفون مدة عامين لإتمامه ، ويدعى الجهلة لإنجاز ذلك العمل العظيم خلال أربعين يوماً لا بد أن تكون إجابة كاتبه بطيئة غير دقيقة » .

ويذكر بعض آخر من المؤرخين ما يلى :

[١٧٧] « لما وجد حسن السجل ممزقاً أمام السلطان ، شغل نفسه بتنظيمه واستعجل السلطان وسأله عدة أسئلة ولم يستطع حسن الإجابة عليها مضطراً ، إلى أن مل السلطان طول انتظاره فى الرد وقال : ما سبب كل هذا التأخير فى الإجابة ؟ فقال حسن : لقد تمزق السجل » ، وحينئذ قال نظام الملك : « لقد سبق لى أن قلت إنه أهوج ولا يجب الاعتماد على كلامه » ، ولاشك فى أن السلطان تضايق وأراد تأديب حسن ومعاقبته ولكنه نظر الآن نظام الملك كان هو المربى لدولته ، عمل تأخير التنفيذ .

والخلاصة أن حسن بن الصباح لما لم يستطع أن يحقق فى بلاط السلطان ملكشاه ،

آثر الهرب على البقاء، وأخذ ينتقل في البلاد، وحينما كان يبحث عنه رجال الملك مصرع :

« كان هو يطوى المنازل والبلاد ليل ونهار »

إلى أن وصل إلى مصر ، ووجد الخطوة لدى الخليفة المستنصر بالله العلوى ، ولقيت أقواله وأفعاله قبولا حسنا لدى المستنصر ، فكان يزيد في إجلاله وإكباره يوماً بعد يوم ، إلى أن وصل إلى مرتبة حسده عليها أمراء الخليفة وحاشيته ، وفي النهاية حدث خلاف بين حسن وأمير الجيوش ، ولم يجد حسن في تلك الولاية مجالا لإقامته ، ففر عن طريق البحر ، وظل مدة طويلة ينتقل متخفياً من مدينة إلى مدينة ، ومن ولاية إلى ولاية ، داعياً الناس لاتباع مذهب الإسماعيلية ، إلى أن تمكن من الاستيلاء على قلعة الموت في [١٧٨] عام ٤٨٣ هـ ، وبذل كل جهده من أجل قتل نظام الملك - رحمه الله ، فكلف فدائياً بهذه المهمة ، وكما هو مذكور يمكن ذلك الفدائي من قتل نظام الملك في عام ٤٨٥ هـ ، وفي عام ٤٨٨ هـ توفي حسن - بتقدير الحى الذى لا يموت - في قلعة الموت - المكان الذى اختاره لنفسه في تلك الدنيا - فالبقاء والدوام لله وحده سبحانه وتعالى .

الوزير عز الملك بن نظام الملك :

تولى منصب الوزارة عدة أيام في أوائل عهد السلطان بركيارق ، ولكنه نظراً لأنه كان يقضى أكثر أوقاته في شرب الخمر ، ومجالسة الغتيان الوجهاء ، ولم يستطع أن يخلص نفسه من قيود ذلك الأمر الخطير ، فقد عزله السلطان وعين أخاه مؤيد الملك مكانه .

الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك :

كان معروفاً بعلو الهمة ومشهوراً بالكرم والسخاء ولما تولى الوزارة عدة أيام للسلطان بركيارق ، أخذ أخوه فخر الملك يتطلع للعمل في بلاط السلطان ، وبواسطة تقديمه مختلف ألوان الهدايا والتحف التى لاتعد ولا تحصى - أصبح مقبولا ومقرباً من السلطان ، واعترافاً من السلطان بهذه الخدمات الجليلة ، فقد قام بعزل مؤيد الملك وعين فخر الملك وزيراً ، وفي تلك الأثناء دارت حرب بين

بركبارق وعمه تنش ، قتل فيها تنش [١٧٩] وتقدم بركيارق إلى خراسان للقضاء على عمه الآخر أرسلان ، وفي أثناء طريقه علم بخبر انتقال أرسلان إلى العالم الآخر :
(مصراع ، وترجمته) :

« أصاب السيف رأس الخربة وانتصر دون عراق »

وبذلك خضعت تلك الولاية لسلطانه .

وأما مؤيد الملك المعزول فقد اتصل ؛ ي « أتر » — وكان أحد الخدم الخصوصيين للسلطان ملكشاه — وقال له :

« أنت الغلام المحبب للسلطان ، والمقرب منه ، وهيبتك في نفوس الكبار والصغار أقوى من مهابة أبنائه الذين هم من صلبه ، ومصلحتك هي أنه بمجرد اعتلائك عرش السلطنة أن تعمل على التفاف الجيش حولك ، وكسب حب الرعية بواسطة جودك وكرمك ، وتنظم أمور العراق وفارس وكرمان » .

(بيتان ترجمتهما) :

— اليوم هذه فرصتك لحكم العالم

— ، فضع قدمك في الميدان بغزم صادق

— لأن الجيش قد التف حولك

— ، كما تلتف الفراشة حول الشمعة

فاغتر (أتر) بهذا الهراء والدجل ، ووضع يده على خزائن السلطان ، وأعد جيشاً جراراً ، توجه به إلى الري ، وعندما وصل إلى ساوه ، قتل بخنجر أحد فدائيي قلعة الموت ، ولما لم يقدر النجاح بتدبير مؤيد الملك ، فقد سارع بالتوجه خائباً خاسراً إلى گنججه ، وكانت مقراً لإقامة محمد بن ملكشاه ، وحرصه هو أيضاً على رفع راية العصيان لأخيه ، والمطالبة بملك والده ، وقد لقي هذا القول قبولا في نفس محمد الذي أمر [١٨٠] بإعداد الجيش ، ونادى بمحاربة بركيارق ؛ وشرح ماسبق هو أن أبا الفضل مجد الملك القمي كان يتولى رئاسة ديوان الاستيفاء للسلطان بركيارق ، وكان يتحكم في جميع أمور الولايات ، وأغلق أبواب المنفعة أمام الأمراء وكبار رجال الدولة ، وفي الوقت الذي وصل فيه خبر تمرد السلطان محمد وتوجه

السلطان بركيارق صوب العراق لمحاربته ، بعث الأمراء برسالة إلى السلطان بعد وصوله إلى قهستان بالعراق يقولون فيها : « عليك أن تسلمنا أبا الفضل لنقتله ، وإلا فإننا سوف ننضم للسلطان محمد »

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا ترفض الآن طلباتنا

— ، وإلا فسوف نبتعد ونلوى العنان

— ونلجأ إلى مكان آخر

— ، وتنبع بدلا منك طريق الغلمان

وضرب السلطان بملتصم الأمراء عرض الحائط ، ولما كانت تلك الجماعة قد ضاقت بتسلط مجد الملك ، فقد علت وارتفعت راية عصيانهم في الميدان ، وتوجهوا دفعة واحدة إلى خيمته ، وعلم مجد الملك بنيتهم وهرب إلى خيمة السلطان ، وتعبه الأمراء واصطفوا حول خيمة السلطان ، وبعثوا برسول إلى السلطان لطلب مجد الملك ولما وجد مجد الملك أن تصرفات الأمراء تجاوزت الحد قال للسلطان : لو تسمح لي بأن أقابل الأمراء حتى لا تزداد الفتنة « وقبل أن يرد السلطان عليه كانت نيران غضب الأمراء — من أولاد بركيارق وأتباعه — قد زادت تأججاً ، فقد هتكوا حرمة خيمة السلطان واندفعوا مسرعين داخلها وقطعوا [١٨١] مجد الملك إرباً إرباً أمام السلطان ، وقد ترك السلطان الخيمة من شدة هذه الواقعة وخرج قاصداً منزله « أخريبيك » — أحد أعيان الدولة — وطلب منه التوجه لمقابلة الأمراء المتمردين ، والعمل على إخماد الفتنة . فتظاهر أخريبيك بالموافقة على هذا التصرف وذهب مسرعاً إلى الأمراء ، وحيث أنه كان متفقاً معهم ، فقد عاد بسرعة وعرض على بركيارق قوله : « إنني مهما نصحت العصاة بالإقلاع عن عصيانهم فإنهم لم يستجيبوا ، ومصلحة السلطان الآن هي في أن يخرج من بين هذه الطبقة ومعه غلماناه » وبالفعل توجه السلطان بركيارق إلى الري بصحبة عدد من الغلمان كان قد اشترأهم بالذهب ، واعتلى السلطان محمد عرش السلطنة دون عناء ، وتولى مؤيد الملك الوزارة بلا منافس ، واشتغل بتدبير شئون الدولة ، وبعد أن وصل بركيارق إلى الري ، جهز جيشاً وتوجه لملاقاة أخيه ودارت معركة بين الجانبين في عام

٤٩٣ هـ ، هزم فيها بركيارق ، ولكن نيران الحرب اشتعلت مرة أخرى بين الأخوين في جمادى الثانية عام ٤٩٤ هـ ، وكان الانتصار والظفر هذه المرة من نصيب بركيارق ، وفر السلطان محمد ، وأسر الوزير مؤيد الملك الذى كان قد استمال الأمراء ولقت نظرهم إليه وعطفهم عليه أثناء وجوده بالسجن ، وعن طريقهم عرض على السلطان قوله : « لو أن السلطان يعفو عني ، ويتجاوز عن جرائمى ، ويسند إلى منصب الوزارة الرفيع مرة أخرى ، فإننى أهديه مائة ألف دينار » . ونظرا لطبيعة بركيارق الكريمة فقد وافق على التماس مؤيد [١٨٢] الملك وقرر أن يتولى الوزارة بعد أن يسلم المبلغ المذكور ، ولكنه خلال الفترة التى كان مؤيد الملك يجهز فيها الأموال ، حدث ذات يوم من الأيام أن اشتدت حرارة الجو للدرجة كبيرة ، وظن مؤيد الملك أن السلطان مستغرق فى النوم ، فأخذ يتحدث مع شخص آخر خارج خيمة السلطان قائلا له : « إن السلاحقة قوم لا توجد بينهم صلة رحم ، وليست عندهم حية مطلقاً ولا غيرة ، فثلا شخص صدرت عنه كل تلك الأعمال الدالة على الكفر بالنعمة ، وتحير السلطان مدة واربتك بسبب عصيانه ، يجعلونه بعد ذلك وزيرا طمعا منهم فى الأموال ، ويقبلون إعادته » فلم يحتمل السلطان هذا الكلام وعلا غضبه ، وخرج من الخيمة يحمل سيفاً مسلولا ، وأمر بإحضار مؤيد الملك ، وأودى بحياته بضربة واحدة .

ويتضح جليا من مضمون هذه الحكاية « كالشمس فى وسط السماء » ، بأن الغدر والترويعاقتبه وخيمة جدا ، وأمور الغش والخداع من أجل الجاه والمنصب أمور مذمومة ، ويجدر بالإنسان العاقل المفكر أن يظهر نفسه من التلوث بهاتين الصفتين القبيحتين ، ويترك الأمور الدنيوية فى القبضة القوية لحاكم القضاء والقدر عملا بالآية الكريمة (١) « وأفوض أمري إلى الله » ، ولا يقحم نفسه فى مشكلات لا فائدة من ورأها :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— حظك ليس يبذل القليل أو الكثير
— ، لأن مصيرك الذى ستبلغه مقدر منذ البداية

(١) سورة غافر ، آية « ٤٤ »

— فأرح نفسك لأن ما كتبته لك القدر
—، لن يبتعد عنك لا بالسحر ولا بالأموال

الوزير سعد الملك الأوجي

قبل أن يصل السلطان محمد إلى مرتبة السلطنة ، كان سعد الملك نائبه وكاتبه ومدير شؤنه ، ولما اعتلى السلطان [١٨٣] عرش السلطنة ، أسند منصب الوزارة لسعد الملك ، وكان متواضعا وعلى خلق كريم ، وبدأ يدبر أمور الوزارة بقدرة وكفاية . ويقول صاحب جامع التواريخ « حينما أوشكت شمس دولة سعد الملك على الغروب ، خالفه صدر الدين الحجندی قاضى اصفهان ، وأبو سعيد هندو وشمس الدين عثمان ابن نظام الملك ، وعرضوا على السلطان قولهم « لقد وافق الوزير على دعوة الملاحدة واتفق معهم على العمل ضد جناب السلطان » ، فأثر هذا الكلام في السلطان وقتل سعد الملك :

ومحرر هذه الكلمات يقول : الرواية الصحيحة في هذا الموضوع هي كما يلي : في الوقت الذى وقع فيه خلاف وجدال بين السلطان بركيارق والسلطان محمد ، قام أحمد بن عبد الملك بن عطاش — وكان من الملاحدة — بدعوة الناس في إصفهان سرّاً إلى اعتناق ذلك المذهب الباطل ، فخدع الكثيرين من أهالى إصفهان وبجحة أنه معلم للأطفال ، ألقى بنفسه في القلعة التى كان السلطان محمد قد أقامها في نواحي اصفهان والمسماة « دزكوه » ، وتبعه أغلب سكان القلعة ، وقد علا أمر أحمد في الوقت الذى كان قد ذهب السلطان محمد إلى دار السلام بغداد ، وبادر بإعلان تمرده على السلطان ، وتحصن في هذه القلعة نفسها ، ولما عاد السلطان من بغداد ، أمر بتشديد الحصار على القلعة ، وتضييق الخناق على الملاحدة ، واستمرت فترة الحصار عدة سنوات حتى قاربت مؤن القلعة على النفاد ، وأصبح موقف أحمد ابن عطاش بلاشك [١٨٤] في غاية الحرج ، فبعث برسول إلى سعد الملك الأوجي ، التقي به خفية ، وسلمه رسالة تقول كلماتها : « لم يبق أثر لعتاد الجنود في القلعة ، ولا بد من تسليم القلعة خلال يومين أو ثلاثة » ، فرد سعد الملك بقوله « تحمل أسبوعاً واحداً حتى أقضى على هذا الكلب » ، وكان يقصد بالكلب السلطان . وحيث إن السلطان كان في غاية الغيظ والانفعال ، فإنه كان يطلب فصده مرة كل شهر .

وبناء على ذلك ، فإنه حينما قرب موعد الفصد ، قام سعد الملك الأوجي بإعطاء الفصاد مبلغ ثلاثة آلاف دينار من الذهب الأحمر ولباس فاخر ليقوم الفصاد بحققن السلطان بسم قاتل . وقد علم أحد الحجاب برسالة أحمد بن عطاش وتدير الوزير السي ، وأخبر زوجته بهذا السر ، فقصدت تلك الزوجة هذه الحكاية لعشيقها في إحدى ليالى الوصال . وبناء على الحكمة القائلة « كل سر جاوز الاثنين شاع » ، بلغ هذا الخبر إلى السلطان ، فتظاهر بالمرض في اليوم التالى وبعث في طلب الفصاد ، وحينما أمسك الفصاد بذراع السلطان ليحققه ، نظر إليه السلطان بحدة ، فارتعدت جميع أوصال الفصاد هيبة من السلطان ، وأفضى إليه بالسر ، وحينئذ أمر السلطان بأن يحققوا الفصاد بنفس الحقنة ، فمات الفصاد على الفور ، وأهلكوا سعد الملك مع أتباعه وملازميه في سوق اصفهان بأمر من السلطان ، وسلموا امرأة الحاجب - التى كانت السبب في إفشاء هذا السر - إلى عشيقها ، ولما علم أحمد بن عطاش بهذه الأخبار ترك القلعة وهرب .

[١٨٥] الوزير ضياء الملك أحمد بن نظام الملك :

تولى الوزارة في عهد السلطان محمد ، واستقل بتدير أمورها عدة سنوات ، وحينما قاربت شمس دولته على الغروب ، وقعت لسبب من الأسباب -عداوة بينه وبين سيد أبى هاشم الهمدانى ، الذى كان في الثراء قارون الثانى ، وكان الوزير يتحدث دائما مغتابا هذا الرجل الشريف أمام السلطان ، معدداً عيوبه ومساويه ، الصادق منها والكاذب ، ولما تغير السلطان على سيد أبى هاشم الهمدانى ، أبدى الوزير موافقته على أنه إذا سلمه سيد مبلغ خمسمائة ألف دينار ليودعها خزانة الدولة فإن السلطان لهذا السبب سوف يرضى عنه ، ويجعله ملازماً له ، وعلم أبو هاشم بتفاصيل هذه الواقعة وسافر من همدان إلى اصفهان مدة أسبوع ، وذلك عن طريق فرعى وغير مشهور ، والتوى في نفس ليلة وصوله بأحد خاصة السلطان واسمه « قراتكين » وأهداه مبلغ عشرة آلاف دينار وقال له : رجائى هوأن تهبى لى مقابلة السلطان الليلة ، لأعرض عليه أمرا لن يستغرق عرضه كثيراً . ونظرا لأن قراتكين كان من أقرب المقربين لدى السلطان ، وله جرأة خاصة عليه ، فقد جعل سيد يقابل السلطان على الفور ، وأخذ سيد فى الدعاء بالخير للسلطان ، وقدم للسلطان

جواهر ثمينة لا تقدر بثمن ، قال له في غاية من الخشوع والاحترام : « إن الوزير ضياء الملك منذ مدة وهو يفكر في القضاء على ، والاستيلاء على أموالى ، ولقد سمعت في هذه الأيام أنه قد اشترانى بخمسمائة ألف دينار ، وليس من المناسب أن يشتري السلطان - حامى الدين - ابن أولاد رسول الله ، [١٨١] وينتج عن ذلك أن تلحق به السمعة السيئة إلى الأبد ، والآن مصروفات الجيش ضئيلة وعلى أن أودع مبلغ ثمانمائة ألف دينار بالخزانة العامة شريطة أن يسلمنى السلطان الوزير ! » فتغلب على السلطان حب المال وآثره على الاحتفاظ بالوزير واستجاب لطلب سيد ، وخرج سيد من مجلس سلطان الاسلام مسرورا بتحقيق مطلبه ، وتوجه إلى همدان ، ثم توجه في إثره غلام من خزنة السلطان ليتسلم ذلك المبلغ ، ولما وصل الغلام إلى همدان ، طلب أن يتزل بقصر سيد ويقضى يوما في ضيافته ، فبعث إليه سيد برسالة يقول له فيها : « منزلك في بيت الغرباء أو في الصحراء ، ومقامك في همدان لفترة حتى يتم إحصاء المبلغ وتسليمه لك ! » ، فغضب الغلام بسماع هذا الخبر ، وتوجه إلى منزل سيد وأراد أن يتناول عليه ! فرد عليه أبو هاشم بقوله : « إياك وقلة الأدب ، وإلا أمر بأن يعلقوك على باب القصر ، وأودع مائة ألف أخرى بخزانة العبيد ليشتروا بها ألف غلام أجمل منك وأفضل ! » ، فسكت الغلام ، وخلال أسبوع - ودون أن يقترض أو يضطر لبيع أى شئ من متاعه - سلم سيد المبلغ للغلام ولم ينعم عليه بفلس واحد ، وعاد الغلام على وجه السرعة وسلم السلطان الأموال ، وسلموا ضياء الملك لرجال أبى هاشم حسب الاتفاق . وذكر بعض المؤرخين : « لقد تصرف سيد مع الوزير بمقتضى مايعنيه بيت الشعر القالى :

(بيت ، ترجمته) :

— من السهل معاملة المسمى* بمثل ما فعل

— ولكن إذا كنت كريما فأحسن إلى من أساء إليك !

وذكر بعض آخر أنه عامله بمقتضى الحكمة القائلة « جزاء سيئة بمثلها » .

[١٨٧] ويتضح جليا من مضمون هذا الكلام - لدى العقلاء - بأن معاداة

السادات العظام ، والمتممين لآل سيد الأنام - عليه الصلاة والسلام - تلحق المصائب بصاحبها في الدنيا ، وتجلب له العقاب في الآخرة . ، لذلك يجب على

أصحاب الدولة والسلطان ، أن يسلكوا إزاء هذه الطائفة الرفيعة المرتبة والمكاثرة ، طريق المحبة والإخلاص^(١) ، لأن الآية الكريمة « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً^(٢) » ، قد نزلت من أجلهم ، كما يجب عليهم ألا يدنسوا قلوبهم ببغضهم وعداوتهم ، طلباً في عرض الدنيا ومتاعها الزائل^(٣) ، وأن يعملوا دائماً ليس على تنفيذ مطالب هذه الجماعة الطاهرة فحسب ، بل على تنفيذ مطالب أمة خير البرية كلها ، ويسعوا لتوفير الراحة والاطمئنان لأهل العلم والكمال ، وينشروا روح المحبة والمودة بين الجميع .

(بيتان ، ترجمتها) :

- حيثما تجد تراباً تجد الجميع أصدقاء لك
- لأن الحجر الصلد لا يصادق أحداً
- والعمل الصالح ينبغي أن يكون جزاؤه الجنة
- وما أسعد من يغرس بذور الطيبة والمحبة

الوزير مجير الملك :

لم يكن لمجير الملك شبيه ولا مثيل في تدبير أمور الوزارة ، ومعرفة أبواب الكفاية ، وقد بلغ مرتبة عالية في اكتساب المعارف ، وتحصيل أسباب الجاه والعظمة ، وتولى الوزارة فترة للسلطان معز الدين سنجر ابن ملكشاه ، أدار خلالها شؤون الوزارة على خير وجه ، فنال شحنة طيبة ، وفي النهاية [١٨٨] طمع فخر الملك ابن نظام الملك في ذلك المنصب ، واستطاع بمختلف الأنواع من الخدمات والأعمال كسب حب أم السلطان والأمير « أرغوش » ، فاتهم مجير الملك بكثرة المساوى الصادق منها والكاذب ، وأمر السلطان ببقيدته وحبسه . وبعد ذلك تم الاستيلاء على كل ما يملكه مجير الملك ثم بعثوا به إلى السلطان بهرامشاه الغزنوى ، وظل مجير الملك يعيش في بلاط بهرامشاه إلى أن وافاه الأجل الموعود ، « إنا لله وإنا إليه راجعون^(٢) » .

(١) سورة الأحزاب ، آية « ٣٣ »

(٢) سورة البقرة ، آية « ١٥٦ »

الوزير فخر الملك مظفر بن نظام الملك :

كان فخر الملك ثمرة شجرة الجلالة ، وزينة برج الوزارة ، وقام - بعد عزل مجير الملك - بتدبير مهام الملك والمال والرعية ، وبذل سعيًا مشكورًا من أجل نشر ألوية العدل والإنصاف ، ورفع آثار الظلم والطغيان ، كما أبدى جهودًا طيبة لتسهيل أمور أصحاب العلم والتقوى ، وتقوية أحكام الشريعة الغراء ، وتنفيذًا لمضمون الآية الكريمة « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ^(١) » ، فقد حلّ موعد رحيل فخر الملك إلى دنيا الخلود ، واستشهد بضربة خنجر أحد فدائيي الملاحدة .

(بيتان ، ترجمتهما) :

- الوجه الذى يتأذى من ملامسة الورود - لرقته -
- والجسم الذى يضيق بحمل شعره - لضعفه -
- قتل بغتة بسيف الظلم
- وغرق فى دمائه والحكم لله

الوزير صاى الدين محمد بن فخر الملك :

رعاية لحقوق فخر الملك واعترافًا بفضلِهِ ، فقد عين السلطان سنجر ابنه صدر الدين محمد فى منصب الوزارة مكان والده ، وكان صدر الدين يتصف بصفة الكبرياء والنخوة كما كان جريئًا جدًا فى الاستيلاء على الأموال السلطانية ، وفى الوقت الذى [١٨٩] فتح فيه السلطان دار الملك ودخلها ، وأخذ رجال السلطان يعملون بجد وحصر خزائن آل سبكتكين ، اختص صدر الدين نفسه بالكثير من الجواهر والآلى ، وعلم بعض أعدائه بما حدث ونقلوا بعضها منه إلى السلطان ، فاشتعلت نيران غضب السلطان ، وأصدر حكمه بالقضاء على الوزير ، فأهلكته جماعة من رجال البلاط بعدة ضربات بالقضبان الحديدية والآلات الحادة .

(بيتان ، ترجمتهما)

- لا تتخلى عن صفة الأمانة
- ولا تخون السلطان فى أمواله

(١) سورة الأعراف ، آية « ٣٤ » ، سورة النحل ، آية « ٦١ » .

— لأن أمانتك تسعدك

— وخيانتك تودى بك

الوزير شهاب الدين عبد الرازق الطوسي :

وهو من أقارب نظام الملك ، وكان في بداية حياته يشتغل بدراسة العلوم الشرعية ، وصرف أكثر أيام شبابه في تحقيق مسائل وأحكام دين المصطفى - عليه الصلاة والسلام - وحفظ الكثير من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعمق في معانيها ، وأخرجه السلطان سنجر من المدرسة ، ووضع زمام الوزارة في قبضته الحكيمة ، كما ترك في يده الطاهرة مفاتيح مصالح الدولة ، ورغم أن شهاب الاسلام كان من بين العلماء البارزين ، إلا أنه حينما تقلد منصب الوزارة ، تملكه الغرور ، واستن [١٩٠] قواعد وتصرفات مذمومة ، وأقدم على تناول الشراب في مجلس السلطان ، ورحل شهاب الاسلام سيّ السمعة مكروها إلى العالم الآخر في نفس العام الذي توجه فيه السلطان سنجر على رأس جيش إلى العراق للقضاء على ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد عاش فترة ورحل وأصبح لا شيء

— ثم ضحكك النساء وقلن : إلى أين ذهب !

الوزير شرف الدين أبو طاهر بن سعد الدين بن علي القمي :

لقد فضل شرف الدين السفر في أوائل حياته من مسقط رأسه قم واتجه إلى بغداد ، وعمل مع عارض السلطان ملكشاه ، وفي عام ٤٨١ هـ تظلم أهالي مرو من حاكمهم لدى السلطان فأسند الوزير نظام الملك ذلك العمل إلى شرف الدين ، وأصدر أمر تعيينه حاكماً ولقبه بـ « وجيه الملك » ، وظل يشغل ذلك المركز في بلدة مرو لمدة أربعين عاماً تقريباً ، وبعد ذلك عمل رئيساً لديوان والده السلطان سنجر ، وعندما توفي شهاب الاسلام ، انتقل كوكب إقبال شرف الدين إلى أوج الشرف والعظمة وتولى منصب الوزارة للسلطان . وكان في غاية التدين ، شديد الالتزام بأصول الشريعة ، وأخذ يصرف شئون الوزارة بكل حلم ووقار ، ولكنه لم ي

نداء ربه بعد ثلاثة أشهر من توليه ذلك المنصب ، « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية (١) » ، واتخذ له مكانا في الجنة عند رب العالمين .
(بيتان ، ترجمتهما) :

- هذه هي طبيعة الفلك الغادر .
- لا يسقى أحدا شرابا بغير سم
- فهو يسقى أحيانا العطشى شرابا حلوا
- ولكنه عندما يسقيهم بهم في التراب

[١٩١] ويذكر صاحب « جامع التواريخ » ما يلي : « يوجد قبر شرف بجوار الروضة الطيبة للإمام الثامن علي بن موسى الرضا — عليه الصلاة والسلام — كما توجد قرية في نواحي مشهد المقدسة موقوفة على مزار ذلك الوزير العظيم ، والله سبحانه تعالى — أعلم .

الوزير تغاريك محمد بن سليمان الكاشغري :

كان تغاريك معروفا بعدم الفضل ، والحمق وسوء الخلق ، ومشهورا بشدة البخل والإسك ، وظل يشغل في بداية حياته بالتجارة لعدة سنوات في ديار تركستان ، وبعد ذلك وصل إلى منصب الوزارة لأحد حكام تلك الولاية ، وبعد أن تكفل بهذا الأمر بفترة قصيرة ، تمت معاقبته ومحاسبته وتم الاستيلاء على أمواله وأمتعته ، وعندئذ ذهب من تركستان إلى مرو وعمل مع السلطان سنجر ، وقد شمله السلطان بعنايته واهتمامه بسبب معرفته للغة التركية ، وتقديره الهدايا على سبيل الرشوة ، وبعد ذلك مكث فترة في مرو ثم توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وبعد أداء الفريضة عاد ، وأسند إليه أمر ضبط أموال بلخ من قبل ديوان السلطان سنجر ، فأسرع محمد بن سليمان إلى تلك الولاية ، وقدم خدمات جليلة إلى الأمير قاج — الذي كان حاكما على تلك الولاية ، كما كان أيضا من أقارب المقرئين من الأمراء للسلطان — ولما توفي شرف الدين أبو طاهر ، اشترى الأمير قاج منصب وزارة السلطان بألف ألف دينار نيسابوري ، وذلك من أجل

(١) سورة الفجر ، آية « ٢٧ »

محمد بن سليمان ، وفي شهر المحرم عام ٥١٦ هـ ، تقلد محمد بن سليمان [١٩٢]
قلادة الوزارة وأمر بأن يقرعوا الطبول أمام منزله ، وقد نظم الأمير معزى هذه
القطعة الشعرية مهتاً إياه بالوزارة :
(قطعة ، ترجعها) :

- ذلك الوزير السعيد الطالع محمد بن سليمان
- المتعبد كمحمد والمتدين كسليمان
- انتظمت شئون الدنيا بحسن إدارته
- ونسقت أحوالها وأصبحت لوحة جميلة بفضل قلمه وحكمته
- وبفضل ما استنته من رسوم أثر بستان الأمة
- وجعل الدولة في ربيع دائم بعدله وإنصافه

وقد استمرت وزارته أكثر من عامين ، ولكن بسبب سوء خلقه ، وشدة
طمعه ، وقبح منظره ، ونقض عهوده ، وعدم فضيلته ، عقد الخاصة والعامّة
العزم على معاداته . وجاء في جامع التواريخ مايلي : « لقد جعل محمد بن سليمان
هذه العبارة « الحمد لله على نعمه » توقيعاً له مقلداً بذلك الوزير نظام الملك ، وذات
يوم قال على مشهد من الحاضرين في الديوان « إن اسم محمد وأحمد في اللغة العربية
لا يعنيان معنى واحداً ، ورغم ذلك يجوز أن يطلق الاسمان على الرسول - صلى الله
عليه وسلم ! » فرد الحاضرون عليه : أجل ، فقال : إذن أغير توقيعى وأجعله
« محمد الله على نعمه » ، فأبدى حضار المجلس استحسانهم لكلامه - وذلك على
سبيل الاستهزاء به - وضحك معين الدين الأصم - الذي كان من كبار الفضلاء
كما كان كاتب ديوان السلطان - وتفوه بكلمات ممزوجة بالهزل والمزاح ، فوجه
محمد بن سليمان كلاماً قبيحاً إلى معين الدين وشتمه بقوله : « إنه ابن فاجرة » ،
فغضب [١٩٣] معين الدين وذهب إلى منزله واعتكف به عدة أيام ، ولما بلغ هذا الخبر
السلطان سنجر ، استدعى الوزير وقال له : اعتذر لمعين الدين الكاتب ! وبناء على
أمر السلطان اعتذر محمد بن سليمان لمعين الدين . كما ذكر أيضاً في كتاب جامع
التواريخ : « ذات يوم أخذوا كشوف المرتبات إلى محمد بن سليمان ليعتمدها ،

فغضب وقال: سبق أن قلت مرات كثيرة عليكم أن تكتبوا مرتب « الضائع » على ظهر الكشف ، فلماذا لا تعملوا بما أمرت به ؟ وأظرف من هذا كله أن محمد ابن سليمان الكماشغرى - رغم كل هذه العيوب والمساوى - كان يعيش خلال فترة توليه الوزارة فى غاية من المهابة والاحترام ، وذلك بسبب حسن طالعہ وضخامة ثروته ، ولم تصب سهام الأمراء وأركان الدولة - التى وجهوها إليه - الهدف المنشود .

(بيت ، ترجمته)

— لو أن السماء تمطر سهماً وخنجر

— فان توتى مفعولها مالم يكن قضاء وتقديرا

ولكنه حينما قدر لشمس دولته الغروب ، جاء الأمير فخر الدين « طغان بيك » ، يحمل رسالة من السلطان محمود إلى بلاط السلطان سنجر ، وعرض عليه فى خلوة حقيقة محمد بن سليمان ، ولقى كلام طغان بيك قبولا لدى السلطان ، فقبض على تغاربيك وعنفه ، ثم أفرج عنه بعد الاستيلاء على جميع ممتلكاته ، وفوضه مهمة ضبط وتنظيم أموال بعض بلاد تركستان التى كانت قد ضمت حديثاً لديوان السلطان ، ونظرا لأن محمدا كان ضعيفاً جداً ، فقد [١٩٤] ركب على ظهر جمل ، وتوجه إلى مقر عمله ، ولكن الجمل سقط من مكان مرتفع فى الطريق ، فتسبب ذلك فى وفاة محمد بن سليمان .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— دائماً ما يكون شراب هذه الدنيا سما

— ، فما يبدو لك بلسماً شافياً هو فى الحقيقة لدغة مميتة

— فلا تأمن جانب الدنيا المتقلبة

— ، لأن أولها وآخرها لاشئ قط !

الوزير معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاشى :

كان معين الدين يتحلى بجميع أنواع الفضائل والكمالات الإنسانية ، وكان يتجنب الأفعال الرذيلة والأوصاف الدنيئة ، كالعجب والنخوة والكبرياء والخسة ،

وكان خاله ناصح الملوك عزيز الحضرة أبو طاهر إسماعيل من بين كبار مشاهير كاشان وقد زرع المحبة له في قلوب الدولة والسلطان ، وذلك بسبب جوده الوفير وسخائه ، وبكثرة عطاياه ومروءته ، وفوضه الوزير نظام الملك — في عصر السلطان ملكشاه — النيابة للأمير قباچ الذي كان من بين أعيان الدولة ، وأخذت مرتبة عزيز الحضرة تزداد يوم بعد يوم ، وترتفع من درجة إلى درجة إلى أن عم إنعامه الوافر جميع ولايات كاشان ومنح خراج أربع سنوات للرعية ، كما أنعم على أصحاب البيوتات القديمة بالأشياء الثمينة ، والمعاملة الكريمة وسدد ديون المدنيين ، وأقام الكثير من المستشفيات والمدارس في كاشان وأبهر وزنجان وكنجه ولما توفي السلطان ملكشاه ، واعتلى السلطان بركيارق عرش السلطنة ، طمع [١٩٥] الأمير اياز في أموال كاشان — وكان يمتاز على جميع أركان الدولة بمزيد من التقرب — فأودى بعزيز الحضرة وألحقه إلى جوار ربه ، ورغم أن والد معين الدين أبي نصر كان يقضى أغلب أوقاته في أداء جميع أنواع الطاعات والعبادات لربه ، كما كان يمنع أولاده دائماً من الاشتغال في الديوان وملازمة البلاط السلطاني ، إلا أن معين الدين اشتغل بملازمة السلاطين عملاً بالحكمة « الولد الحلال يشبه بالخال » فكان كاتباً ومستوفى الولايات في عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، وازداد تقربه وارتفعت مكانته يوماً بعد يوم ، وفي الوقت الذي عاد فيه السلطان سنجر من ولاية العراق إلى خراسان ، أسند حكم بلدة الري إلى معين الدين ونظروا لأن معين الدين كان صاحب خبرة فائقة وأسلوب سليم في تحصيل الأموال من الرعية فقد أرسل أموالاً لا حصر لها وأمتعة عديدة إلى خزائن السلطان كما كان يجذب إليه الخواتين والأمراء بإرسال التحف والهدايا . ولما عزل السلطان الوزير محمد بن سليمان . كلف فخر الدين طغان بيلك بإحضار معين الدين ، وذهب فخر الدين لحكم ولاية أخرى ، وجعلت عناية السلطان ورعايته وجهه معين الدين قوياً ومرفوقاً وتوجه معين الدين إلى خراسان تنفيذاً لأمر السلطان ، وكلما يمر على ولاية من الولايات ، كان [١٩٦] أهلها يغمرونه بالحب والإحسان وبعد وصوله إلى مرو اجتلى به السلطان واستشاره في بعض أمور ومصالح الدولة فأجاب معين الدين — بمهارته الفائقة — عليها جميعاً إجابة صائبة ، وقد قوى هذا الموقف إيمان السلطان بصلاحيته ،

(بيت ، وترجمته) :

— حينما ضحكت ياعزيزى وافتر ثغرك
— فإنك قد أضفت إلى الصداقة مزيدا من الكرم والحب

وصدر فى اليوم الثالث أمر السلطان بتولى معين الدين منصب الوزارة ، فاعتذر معين الدين عن القيام بذلك المنصب الخطير ، وبعث إليه السلطان بنظام الدين محمود برافقوش ، ومقرب الدين جوهر الخادم ، يحملان إليه رسالة منه يقول فيها : « يبدو أنك تعتذر عن تولى منصب الوزارة بسبب ما حدث من غضبي على بعض الأمراء والوزراء السابقين ، وتوضيحا لهذا ، إننى فى بداية تقلدى عرش السلطنة ، قد أسندت هذا المنصب إلى فخر الملك بن نظام الملك ، ووضعت زمام أمور الملك والمال فى قبضته الماهرة ، ولكن فخر الملك يستشير من الله — سبحانه وتعالى — استشهد على يد فدائى الإسماعيلية الذين لا إيمان لهم ، ورحل إلى دنيا الخلود ، وقد حزنت جداً لوفاته — وبعد ذلك عينت ابنه صدر الدين محمد مكانه ، وتركت ذلك المنصب له مستقلا ، بإدارته لمدة اثنى عشر عاماً ، ولما ظهرت خيانه وخصوصاً فى خزائن آل سيكتكين ، وضعت الأقدار نهايته ، وحينئذ عهدت بهذا الأمر إلى شهاب الإسلام عبد الرزاق الطوسى [١٩٧] أحد أقارب الوزير نظام الملك وقد أقدم — برغم ما كان عليه من فضيلة وعلم — على اقتراف أخطاء كثيرة خلال توليه الوزارة لا يقترب مثلها أى شخص قط من الأجلاف والعوام ، ومع ذلك فقد عفوت عن عبد الرزاق ، وأغمضت عيني عما اقترفه إلى أن توفى ، وبعد ذلك أسندت هذا العمل إلى شرف الدين أبى طاهر الذى كان مشهوراً بالأمانة والتدين ، وقد توفى هو أيضاً ووزارته فى عتفوان مجدها ثم عينت تغريبك محمد بن سليمان وزيراً ، وحيث إنه واضح جلياً عدم تقبل الناس له فقد وجب على عزله ، والآن بحمد الله — سبحانه وتعالى — فإن أهليتك لتولى هذا المنصب كافية جداً ، ولدى ثقة لاحد لها فى أمانتك وتدينك ، وكفاءتك ودرابتك وعليك أن تكون متعاملاً ومؤملاً بعنايتنا بك وتقديرنا لك ، ولا تدع للتردد والتشاؤم مجالا فى نفسك !! »

(بيت ، ترجمته) :

— السعيد الطالع الذى يقبل هذه الأعتاب

— سوف يرفعه الفلك سريعاً إلى أعلى المراتب

وبعد أن سمع معين الدين كلمات السلطان الصداقة ، قبل هذا المنصب ، وفى اليوم التالى تقلد منصب الوزارة ، وجعله السلطان يزهو ويفتخر بالإنعام عليه بدواة ذهبية وطبل وعلم ، وبدأ معين الدين يستقل بتنظيم أمور الملك والمال ، وقام بإعلاء أعلام العدل والإنصاف ، وخفض رايات الظلم والاعتساف بكل ما أوتى من قوة ، وأمر ببناء المدارس الخوانق والأربطة والمؤسسات الخيرية فى جميع البلاد والأقطار ، وأوقف عليها القرى [١٩٨] العامرة والمزارع الوافرة التى اشتراها من ماله الخاص ، وفى أواخر أيام حياته ، أمرهم أن ينادوا فى جميع الولايات والأمصار بهذا القول : كل من أعطى معين الدين الوزير أموالاً نقدية أو أمتعة عينية على سبيل الرشوة أو لآى سبب آخر ، عليه الرجوع إلى وكلائه ليأخذ عوضاً عنها » ثم طلب قضاة الولايات وكبراءها ورجاهم أن يبذلوا مساعيهم المشكورة حول هذا الموضوع ، ولما كان ذلك الوزير السديد الرأى شديد التمسك بمذهب أهل السنة والجماعة ، فإنه كان دائماً يحث السلطان ويحرضه على قمع المعارضين والقضاء عليهم ، وخشى الإسماعيلية من بطش السلطان ، وتدير الوزير ، فبعثوا باثنين من الفدائيين إلى اسطبل معين الدين للقيام بخدمة وتربية حيوانات الوزير لقتله ، حينما تحين الفرصة ، واستمر هذان الملعونان يعملان فترة فى اسطبل الوزير إلى أن اطمأن إليهما ، وفى يوم عيد التبروز الذى تعود الوزير أن يجهز فيه التحف والهدايا لتقديمها للسلطان ، أمر الكلايين بأن يعرضا عليه الجياد الخاصة ليختار الأفضل منها ويرسلها إلى اسطبل السلطان ، فأحضر هذان الملعونان حصانين أمامه من النوع الشرس الجامح ، فاشتبك هذان الحصانان مع بعضهما فى معركة ، ولما انشغل خدام الوزير بتفريق الحصانين أنهال الفدائيان على ذلك الوزير العادل طعنًا بالخنجر فقتلاه .

(أربع أبيات ، وترجمتها) :

— ذلك الذى طالما أحبه الفلك

- ها هي نهايته داخل قصره
- [١٩٩] فكل من اعتمد عليه
- وتخلي عنه وأصابه بسهامه
- كما أنه جرح الآلاف ولم يعالجهم
- بل لم يخزن أبداً على ضحاياه
- ولم يترك أحداً يحيا لحظة بلا آلام
- يحس من خلالها بالسعادة والانسجام

الوزير نصير الدين المظفر الخوارزمي :

كان نصير الدين متبحراً جداً في العلم العقلية والنقلية ، وخصوصاً في فقه الإمام الشافعي ، وكان يفتخر ويتباهى بمعرفة سائر أقسام الفضيحة وفن الاستيفاء والسياق ، كما كان يرفع دائماً أهل الفضل والكمال ، وقد ألف القاضي عمر بن سهلان الساجي كتابه « بصائر نصيري » في المنطق والحكمة باسمه . وذكر في جامع التواريخ أن نصير الدين محمود كان يعمل في بداية أمره بمهمة الإشراف على مطبخ واسطبل السلطان سنجر ، وحيث أنه أدار هذا العمل على الوجه الأمثل فقد جعله السلطان مشرفاً على جمع وإخراج أموال الولايات ، وبعد ذلك تولى منصب الوزارة الرفيع ولكنه نظراً لما كان في طبيعته من جبن وخوف ، فإنه لم يستطع إدارة مهام الوزارة كما ينبغي ، فأعفاه السلطان من القيام بذلك الأمر ، وأسند إليه مرة أخرى مهمة الإشراف على جمع وإخراج أموال الولايات ، فترك نصير الدين إدارة ذلك العمل لابنه شمس الدين علي ، وفي تلك الأثناء حرصه بعض أمراء الدولة وأعيانها على مهاجمة مقرب الدين جوهر الخادم الذي كان من بين كبار الأعيان في بلاط سنجر ، فاغتر بتحريرض الأمراء ، وبدأ التفكير والتدبير ، وأبلغ السلطان على يد بعض [٢٠٠] النواب — قوله : « لقد تصرف جوهر في الكثير من الأموال السلطانية ، ومخصصات الديوان دون وجه حق ، وأقدم على كثير من أعمال الخيانة خلال فترة عمله » ، فأمر السلطان بأن يعقد الأمراء العظام وجميع أعيان الدولة مجلساً يناقشون فيه ذلك الأمر الخطير ، فلما انعقد ذلك المجلس عدد بعض تصرفات جوهر الخادم ، ورد عليه ثقة الدين أبوجعفر — وكان وزيراً

لجوهر ونائباً له — وأخذ يتحدث قائلاً : « إن ألقى غلام يعيشون في كنف مخدومي ، وكان عليه أن يأخذ مضطراً من أي باب يتيسر له منه شيئاً لتوفير ما تحتاجه تلك الجماعة ، لأن التأخير والإهمال في عمل اللازم للغلمان يؤدي إلى اختلال أحوال السلطنة ، وأنت الذي كنت قد وضعت الدواة الذهبية المرصعة من الأمام ومن الخلف في مقعد الوزارة الحليل ، كان يجب عليك العمل على ضبط أموال الولايات بحيث لا يتبقى فيها شخص مقصر لا يحسن التصرف فقال نصير الدين : « إن حكيم لم يكن نافذاً عند قيامي بأعمال الوزارة ، ولم يكن لتوقيعي تأثير يذكر » ، فرد عليه ثقة الدين بقوله : « التقصير الذي فعلته عند توليتك الوزارة لا يمكن تلافيه وقت إشرافك ! » .

والخلاصة أنه حدثت مجادلة شديدة بين الجانبين في ذلك اليوم ، ولما بلغت الأسئلة التي دارت في المجلس والرد عليها إلى السلطان ، ووصلته صورة الطريقة التي تم بها الحوار ، بعث برسول يستكشف ذلك الوضع وقال له : أبلغ المتنازعين بأن يجعل المناظرة أمامي ، ليتضح لي مدى صدق أي منهما ، ويصدر بذلك حكم السلطان مقروناً بالعدل ! » فغرق جوهر الخادم بسماع هذا الكلام — في بحر من الاضطراب ، ولجأ إلى الأمير على خيرى — وكان يتولى منصب الحجابة وقد [٢٠١] صار جريئاً جداً بسبب ظرفه ومناذمته للسلطان — وطلب منه المشورة لإصلاح ذلك الأمر ، فقال له على خيرى :

« مصلحتك هي في قيامك بتنظيم حفل ملكي حتى أحضر أنا السلطان بطائف الحليل إلى منزلك ، وعندئذ سوف يكون موقف الأعداء منك ضعيفاً ، ويأتون عندك ومعهم الهدايا والأموال ، وبذلك يمكنك إعداد هدية قيمة للسلطان ، وأغلب ظني أنه بهذا الحفل سوف تقصر السنة الأعداء ، وتظل مكانتك وشهرتك قوية ثابتة » ، فسمع جوهر هذا الكلام وعمل به ، ونظم حفلاً كبيراً ،

(بيت ، ترجمته) :

لقد أعدت حفلاً رائعاً

يطول الكلام في وصفه

وفي اليوم التالي عليه سارع على خيرى لمقابلة السلطان ، وأخذ يرد له كلمات

ما أمكنه الحصول عليه ، وأهداه كل ما عرف أنه يليق بعظمته ، وكان من بين تلك الهدايا ثمانون جارية ومننية ذوات قوام معتدل ، وصوت جميل لامثيل له ..

(بيتان ، ترجمتهما) :

- كن فتيات ربين على العجب والدلال
 - نصفهن أقمار وكلهن شمس
 - يحدثن فنة أقوى من سفك الدماء في صحون
 - ويبدين شباباً أقوى من الظالم في نومهن
- وقد ارتاح السلطان لجوهر الخادم ، وأمر بعض النواب بأن ينقلوا إلى نصير الدين قوله : « لقد تأكد لي أن كل ما كنت تقوله عن جوهر كان صحيحاً ، ولكن طبيعة السلاطين تمنعهم من معاتبة ومحاسبة خدامهم القدامى لأتفه الأسباب ، ويجب عليك الآن أن تصفو وتتصالح مع جوهر ! ولا تثير بعد ذلك معه غبار [٢٠٣] التراع والخصام ! » وعلى ذلك تصالح نصير الدين وجوهر مع بعضهما صلحاً على خداع ومكر ، وبعد انقضاء فترة قصيرة ، تهم جوهر شمس الدين على ابن نصير الدين بالاتصال ببعض سيدات الأمراء ، ولهذا السبب تم القبض على الوالد والابن وأدخلوا السجن ، ونظم شمس الدين على هذا الرباعي وهو في السجن :

(رباعي ، ترجمته) :

- كان والدي أمس الوزير الأول للسلطان
 - واليوم أنا ووالدي أسيران ذليلان
 - ولأني شاب ، والشباب قادر على التحمل
 - اشمل يا إلهي هذا الشيخ العاجز برحمتك
- ولقد انتهت حياة الأب والابن في ذلك السجن .
- وهكذا فيجدد بصاحب هذا المنصب أن يبعد عن ذهنه عوامل التراع والخصومة إزاء المقررين لدار السلطنة ، وأن يسعى قدر ما يستطيع لاسترضائهم

وَألا يستعمل أسلوب الدس لهم ، لأنه حسب تجارب الأمم ، وأخبار العالم الصادقة والثابتة ، فقد اتضح وتأكد أن مهام اللماز والغااز لاتتحقق كلية وكما ينبغي لها ، فلو أن السلطان يستمع يوماً بعين الرضا لبعض أقواله من أجل مصلحته وقتها ، فإنه بعدتحقق مقصده يتغير عليه ، ومن الروايات الثابتة أن أحد خلفاء الدولة العباسية كان قد قبض على رجل نهماز وسجنه ، وبعد فترة تحين أحد أصدقاء ذلك الغماز الفرصة ، وعرض على الخليفة قوله : يمكننى وضع مبلغ مائة ألف دينار بخزانة الخليفة العامرة ، لو أن الخليفة [٢٠٤] يأمر بإطلاق سراح صديقى ! فقال له الخليفة : إذا اتضح أنك مثل ذلك الشرير فسوف أجنبك وأنعم عليك بمبلغ المائة ألف دينار !

(رباعى ، ترجمته)

— يامن أصبحت وزيراً للملوك والسلطين

— اعقد لسانك عن اللمز والغمز

— لأن نتيجة هذا العمل تعود

— بقدرة الله إلى فاعلها فى النهاية !

الوزير قوام الدين أبو القاسم بن حسن الدركزنى :

كان أبو القاسم معروفاً بعلو الهمة والكرم كما كان مشهوراً بالظلم والتهور ، وكان على علم تام ببعض فنون الفضائل مثل الشعر والإنشاء ، وكان أبو القاسم فى بداية أمره يعمل نائباً لأحد حجاب السلطان محمد بن ملكشاه ، وتولى وزارة ولاية العراق فى عهد السلطان محمود بن محمد ، وارتفعت مكانته على الوزراء السابقين لجوده وسخائه الوفير ، وبذله وعطائه الكثير ، وبعد عزل نصير الدين ، استدعى السلطان سنجر أبا القاسم من العراق وأسند إليه منصب الوزارة ، وكانت أوامر قوام الدين نافذة فى شرق العالم وغربه كأحكام القضاء والقدر ، وتظم الفضلاء والشعراء أشعاراً غراء فى مدحه ، فشمل تلك الطائفة بعنايته وإحسانه .

وقد جاء فى جامع التواريخ أن قوام الدين كان جريئاً جداً فى الإقدام على قتل الأكابر والعظماء ، فكان يقدم على قتلهم لأقل خطأ يحدث منهم كما حدث ذات يوم فى مجلسه فى الدمان بينه وبين عز الدين الأصفهانى ، وكان يعمل مستوفياً

على ولايات السلطنة - إذ قال شيئاً على الهامش سمعه قوام الدين ، فأمر على الفور بالقبض على عز الدين وسجنه ، دخل المسكين السجن ونظم هذا [٢٠٥] الرباعي وأرسله للوزير على سبيل الاعتذار :

(رباعي ، ترجمته) :

- إذا كنت قد علمت بذنبي
- فإنك تصورت أن ماحدث هو ماحدث من ذنب عزيز مصر !
- وأنا ذنب عزيز مصر فاعقد
- أيها الوزير صلحاً شكلياً مع ذنب عزيز مصر !
- فرد عليه قوام الدين بهذا الرباعي :
- (رباعي ، ترجمته) :

- حيث إنك ملأت نفسك حقداً على
- وأغفلت البحث عن الصلح أثناء المعركة
- فإنني أرى الآن الزمان يذكرني دائماً
- أن عدم الصلح أفضل من الصلح الخادع معك !
- وظل عز الدين الأصفهاني في السجن إلى أن توفي .

وهناك حكاية أخرى كهذه وهي أن الوزير قوام الدين أمر بأن يعلق عين القضاة الهمداني - وكان أعلم علماء عصره - من حلقة على باب المدرسة التي كان يقوم بالتدريس بها ، وذلك لسبب تافه - حول فساد المذهب - كان قد نسبته إليه جماعة من حساده . وفي النهاية فإن شؤم الدماء التي سفكها الوزير قوام الدين بغير حق قد حلت عليه ، وعزله السلطان سنجر ، ثم قتله طغرل بن محمد بن ملكشاه بعد ذلك .

والرجل العاقل هو الذي لا يجعل الظن والغرور يسيطران عليه حينما يتولى أمراً هاماً في هذه الدنيا ، أو حينما يرتقى مرتبة عالية في هذا العالم ، فعليه أن يفكر في عذاب يوم الحساب وعقاب الآخرة ، ولا يقدم على إراقة دماء الخلق دون سبب شرعي .

[٢٠٦] (بيت ، ترجمته) :

- لا تلوث يديك بدم الخلائق
- لأنه توجد يد أقوى من يديك

الوزير ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك :

كان من كبار رجال الوزارة ، وبعد عزل الوزير قوام الدين الدرگزيني تولى الوزارة السلطان سنجر ، وقد وقع السلطان أسيراً في يد قبائل الغز ، ورحل ناصر الدين عن الدنيا الفانية قبل أن يتمتع بذلك المنصب .

(بيت ، ترجمته) :

- لقد ابتلى سلطان الدنيا
- فحلت البلية بالوزير كذلك

الوزير كمال الدين علي السهمري :

كان كمال الدين يتصف بالعقل والكياسة ، وبالفهم والفراسة ، وكان يتولى الوزارة في عهد السلطان محمد بن ملكشاه ، ولما توفي السلطان محمد ، وخلفه ابنه السلطان محمود ، أسند منصب الوزارة إلى كمال الدين ، وقد بذل كل جهده في إدارة ذلك المنصب ، وفي تلك الأثناء نشب خلاف حاد بين السلطان سنجر والسلطان محمود ، وتوجه السلطان سنجر على رأس جيش كبير صوب العراق ، وفي نواحي بلدة ساوة تحارب السلطان محمود مع عمه الأكبر ، فهزم وهرب إلى أصفهان ، ومن هناك أرسل وزيره كمال الدين إلى السلطان سنجر لتقديم الاعتذار [٢٠٧] له ، فلما دخل كمال الدين مجلس السلطان سنجر ، سأله السلطان بقوله : « أين ولدي محمود ؟ » فأجابه قائلاً : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ! » وسأله مرة أخرى بقوله : « أين علي بار قائد جيشه ؟ » قال : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ! » فاستحسن السلطان أقوال الوزير اللطيفة ، وتغاضى عن جريمة السلطان ، ورجع الوزير محققاً بغيته ، وأتى بالسلطان محمود وعلى بار إلى السلطان سنجر ، فلقى السلطان سنجر ابن أخيه بدلال السلاطين ، وزوجه ابنته خاتون وولاه على العراق كما كان ، وكان ما أحدث سبباً في علو مكانة الوزير ، ولكنه حدث في هذه الظروف أن قتله أحد فدائيي الملاحدة .

(ثلاثة أبيات ترجمتها) :

- هذه هي طبيعة الفلك
- تارة يسر وتارة يضر
- ويلقى بهذا في بئر دون ماذنب جناه
- ويرفع مكانة ذاك دون ما توقع أو انتظار
- وفي النهاية يستقر الطرفان في التراب
- وتجمعهما ظلمة القبور

الوزير خطير الملك ابو منصور اليزدي :

كان خطير الملك خالياً من الفضائل والكمالات، كما كان غافلاً تماماً عن تدبير وترتيب أمور الملك والدولة ، [٢٠٨] ولكنه كان حسن الحظ حيث استمر يعمل خمساً وأربعين عاماً في دواوين السلاطين ، متنقلاً بين رئاسة ديوان الرسائل وديوان الأشراف وديوان الاستيفاء ، إلى أن تولى منصب الوزارة الرفيع في عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ،

(مصراع ، ترجمته)

— قدر قليل من الحظ أفضل من أكوام من العلم والفضل

وقد جاء في جامع التواريخ أن خطير الملك أثناء توليه منصب الوزارة توجه ذات يوم إلى دار السلام بغداد بأمر من السلطان ، وأخذ يتحدث في الطريق مع جمع من فضلاء العصر والمشاهير ، وفي ذلك الوقت سأل خواجه أبي العلاء — وكان واحداً من صناديد العالم وفضلاهم — يقول له : هل اللواط عادة قديمة أو حديثة ؟ فأجابه أبو العلاء قائلاً : هي عادة قديمة وكان قوم النبي لوط يرتكبون هذه الفعلة ، ثم سأل الوزير سؤالاً غريباً بقوله : وهل كان الأسبق نبينا أم النبي لوط ؟ فقال أبو العلاء : لك الله أيها الوزير نبينا هو خاتم النبيين ثم قال خطير : وماذا قال الحق — سبحانه وتعالى — عن قوم لوط ؟ فقرأ أبو العلاء هذه الآية « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون^(١) » ، أي أنكم لقوم

(١) سورة الأعراف ، الآية «٨١»

[كانت الآية مكتوبة بالنص الأصلي «تأتون الرجال شهوة... إلخ» صححتها من المعجم]

جهلة لأنكم ترتكبون أعمال اللواط . فقال خطير : هذا تهديد ووعيد بسيط !
والخلاصة أن هذه المحاورة قد ذاعت بين أهل الفضل والكمال ، وكانت السبب
في عزل خطير الملك ، وقد توفى ذلك الوزير الجاهل حزناً على منصب الوزارة ،
ولنا لله ولنا إليه راجعون .

الوزير شمس الدين بن نظام الملك :

وصل شمس الدين في عهد السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى منصب
الوزارة ، ونظراً لأنه كان يحرص [٢٠٩] كثيراً على جمع المال ، ويعمل على
مصادرة أموال الأغنياء والتجار ، ولم يقلع عن هذه الطريقة المذمومة المتبعة بالظلم
والاعتساف ، واستمر يخرب في البلاد ، ويعذب في العباد وقام أعيان العراق
بإرسال شكاوى عديدة ضده إلى السلطان سنجر ، وبعث السلطان سنجر شكاوى أهل
العراق مؤيداً قولهم إلى ابن أخيه ، فقام السلطان محمود بقتل شمس الدين عثمان ،
وبعث برأسه إلى خراسان .

لذلك فيجب على صاحب هذا المنصب — من أجل^١ صالح الدنيا والآخرة —
ألا ينحرف أبداً عن جادة العدل والإنصاف ، ولا يلوى العنان عن إشاعة اللطف
والرحمة إلى طريق الجور والاعتساف ، وأن يجعل دائماً نصب عينيه مضمون الآية
الكريمة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان^(١) » ولا يؤذى خلق الله بالطلبات
المجحفة بهم ، ولا يستولى بغير حق على أموالهم .

(بيت ، ترجمته) :

— لاتؤذ الناس بالظلم والاستبداد!! —، بل اجعلهم ينعمون بالعدل والإنصاف!

الوزير شرف الدين علي بن دجاء :

وصل شرف الدين إلى منصب الوزارة في عهد السلطان طغرل بن محمد بن
ملكشاه ، وقد كانت بضاعته وخبرته قليلة غير كافية في هذا المجال ، ولكن قبل
أن يعزله السلطان طغرل ، كانت سلطنة الأخير قد بلغت نهايتها ، فتوجه شرف

(١) سورة النحل ، الآية «٩٥» .

الدين إلى أذربيجان، وانضم إلى رجال السلطان داود بن محمود ، وحينما توجه
خوارزمشاه على رأس جيش إلى العراق ، قام بقتل شرف الدين .

(مصراع ، ترجمته)

— « لا يدوم في دنيا الفناء أحد »

[٣١٠] الوزير شرف الدين أنوشيروان بن خالد الكاشي :

كان شرف الدين أنوشيروان وحيد عصره في معرفة فنون الفضل والأدب ،
والتبحر في لغات العرب ، وقضى أغلب أوقاته في قراءة العلوم المنقولة والمعقولة ،
وظلت قدمه ثابتة طوال حياته على طريق الشرع والأمانة والتقوى ، ولم يقرب
حدود العجب والنخوة مطلقاً رغم علو شأنه ، واشتغل فترة من الوقت وزيراً
للسلطان محمود بن ملكشاه ، ورفع علم الوزارة سبع سنوات ، ولكنه نظراً لبخله
وحسده ، وكثرة تواضعه وبساطته ، فإن عظمة منصبه لم تكتمل لها أبداً القوة
والهبة والأبهة والرواق ، وبلغت خفته ، وعدم هيئته إلى درجة أنه كان لا يتحاشى
القيام لأى شخص وهو جالس على مقعد الوزارة في صدر الديوان ، وقد أنشأ
أحد فضلاء عصره هذين البيتين حول ذلك المعنى :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد رزئنا برئيس عنيد لا ينجل

— ولا يعرف العدو من الصديق

— وينهض واقفاً لكل شخص

— فكأنه أنوشيروان خالد

و ذات يوم استهزأت به جماعة ، ولكنه نظراً لتواضعه الجرم وسلامة نفسه ،
لم يرد عليهم بما يستحقونه ، فقال له نواب ديوان الوزارة : أليست لنا الحمية
والغيرة الكافية فأجابهم بقوله : لقد عشت هكذا طوال أربعين عاماً في ظل عدم
الحمية وعدم الغيرة هذه

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كن صبوراً مثل الأرض في جميع الحالات

— حتى تغلب على ما يواجهك كما تغلب ظلك على ما يعترضك

- [٢١١] واجعل فوائذك تعم الجميع

- حتى يمتد نفوذك وتعلو كلمتك

والخلاصة أن أنوشيراون ظل يعيش فارغ البال حتى آخر أيام حياته إلى أن انتقل إلى العالم الآخر بنفس راضية مطمئنة ، وكان من بين مؤلفاته « نفثة المصدور » ، كما ألف الإمام أبو القاسم الحريري كتابه « رسالة في المقامات » باسمه .

الوزير عماد الدين أبو البركات :

يمتد نسب عماد الدين من ناحية والده إلى بني سلمة الذين اشتهرت آثارهم في العراقيين وأمه كانت ابنة أخت قوام الدين أبي القاسم الدرگزینی ، ولما دخل جنون حب الوزارة في رأس عماد الدين ، توجه من العراق إلى خراسان ، وقدم خدمات جليلة إلى للسلطان سنجر وإلى أمراء دولته وأعيانها ، وباح لهم بما يعمل في نفسه ، فأصدر السلطان أمره بأن يكون وزير السلطان مسعود - وكان في ذلك الوقت حاكماً على العراق - فعاد عماد الدين محققاً حاجته وهو في منتهى الغرور إلى بلاط السلطان مسعود ، واشتغل بإدارة شئون الوزارة ، ولكن نجمة لم يتألق لسبب عدائه مع كمال الدين ثابت بن محمد القمي وموئيد الدين مرزبان الكاتب - وكانا من قدامى العاملين مع السلطان - بل إن السلطان مسعود عزله بعد فترة قصيرة من الزمن وعين كمال الدين محمد الخازن وزيراً له .

[٢١٢] الوزير كمال الدين محمد :

كان كمال الدين في بداية أمره خازناً للسلطان سنجر ، وأخذ السلطان يهتم بتربيته ورعايته يوماً بعد يوم إلى أن أسند إليه حكم ولاية الري ، ولما توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، واعتلى أخوه السلطان مسعود عرش السلطنة ، عقد العزم على استرجاع الري ، وتوجه بجيش قوى إلى تلك المنطقة واستقبل كمال الدين محمد السلطان بنفس غير راضية ، ودخل السلطان الري فاتحاً منتصراً ، ووقع كمال الدين محمد أسيراً في قبضته ، فسجنه في قلعة «سرجاهان» ، ونظر الآن السلطان مسعود كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بذكاء وقوة فهم كمال الدين محمد وفراسته فقد أخرجه من القلعة بعد عزل عماد الدين ، وأسند إليه منصب الوزارة ، وقام كمال الدين

بتنظيم شئون الدولة وإرضاء الجيش ، وإنجاز مصالح الشعب كما يجب ، وأدار أمور السلطنة بطريقة لم تتوفر لأى وزير بعد الوزير نظام الملك - رحمه الله ، وعمل أكثر مما ينبغى فى ضبط وتنظيم صرف أموال الديوان ، وقضى على منافع أمراء الدولة وكبار رجالها . فلا عجب أن أسر الجميع فيما بينهم على اتخاذ موقف العداء من ذلك الوزير البار ، وأخذوا يترقبون الفرصة للإيقاع به ، وأثناء تلك الظروف نما إلى علم السلطان أن والى فارس قد ركب الغرور ، ورفع [٢١٣] راية التمرد والعصيان ، فأمر السلطان بأن يتوجه الأتابك قراستقر بمصاحبة أخيه سلجوقشاه إلى شيراز ، ويظهر تلك الولاية من قلاقل واضطرابات المتمردين ، فتوجه اتابك قراستقر ومعه سلجوقشاه إلى شيراز ، وأقام معسكره فى أحد المناطق وبعث للسلطان بهذه الرسالة : إذا لم يبعث إلى السلطان برأس وذراع محمد الخازن ، فمن المحال أن أتقدم خطوة واحدة ، وأخشى أن أصير من المتمردين لو لم يتحقق مطلبى ؟ ، وبلغ إلحاح قراستقر من أجل تحقيق هذا المطلب درجة أخرج فيها السلطان مسعود ، وأقدم على قتل ذلك الوزير الكفء .

(بيت ، ترجمته)

- لو لم يكن القضاء والقدر هو مغير أحوال الخلق

- فلم تسير الأمور على غير هواهم !

الوزير عز الملك بن مجد الدين اليزيدى :

نظراً لشدة حرص عز الملك ، قبل تولى منصب الوزارة وهو فى سن السبعين ، وكان يتصف بسوء الخلق وكثرة الطمع ، والحديث السخيف والمعيب ، ولما تولى هذا المنصب نشر الظلم والاعتساف ، وقد أسر كمال الدين ثابت القمى - وكان ذا مكانة عالية فى بلاط السلطان مسعود - العداء لعز الملك ، وعمل على إسقاطه ، وكان يتصدى لجوره وظلمه للناس ويقلل منهما ، وبناء على ذلك قدم عريضة للسلطان سنجر يقول فيها : « غالباً ما يكون تعيين الوزراء مفوضاً إلى رأى العلماء من نواب البلاط السلطاني ، وأما الآن فالأتابكة هم الذين ينصبون الوزراء ، وهذا لا يقبله العاملون بذلك [٢١٤] البلاط » . وبلغ خبر هذه العريضة الأتابك آقستقر فقام بقتل كمال الدين ثابت فى قلعة همدان ، وقوت هذه الحادثة من مكانة عز الملك ،

فأقدم بعد ذلك — حسب ما ذكره الكثيرون — على التماهى فى أعمال الظلم والطغيان ، ولما توفى الأتابك آقسنقر ، أمر السلطان بالقبض على عز الملك وسجنه ، وبعد ذلك قتل عز الملك فى السجن بعد مصادرة كل ما حصل عليه خلال فترة توليه الوزارة ، (مصراع ، ترجمته)

— « لا يمكن لأحد النجاة من سيف الأجل »

الوزير مؤيد الدين موزبانى :

عمل مؤيد الدين فترة كبيرة كاتباً للسلطان مسعود ، ثم أسند إليه الوزارة بعد عزل عز الملك ، وكان مؤيد الدين معروفاً بالنسب الطيب ، ومشهوراً بالفضل والأدب الزائد ، ولكن الأتابك « بوزابه » عزله بعد شغله لمنصب الوزارة مدة عامين ، وأسند ذلك المنصب إلى نائبه تاج الدين أبى طالب الشيرازى .

الوزير تاج الدين أبى طالب الشيرازى :

كان الشيرازى من أكابر الوزراء من أبناء منطقة فارس ، ولكنه لم يكن لديه القدر الكافى من العقل والكياسة ، وطريقة إدارة مهام الوزارة ، فلاغربة أن أعفى من ذلك المنصب بعد قتل الأتابك بوزابه ، وعاد إلى شيراز .

الوزير شمس الدين أبو النجيب الدركزى :

كان شمس الدين ابن شقيقة أبى القاسم الدركزى ، وهذه هى الميزة الوحيدة التى كانت له ، حيث كان [٢١٥] خالياً من صفات الكمال الشخصى . وكان شمس الدين يعمل فى بداية أمره نائباً للأمير « أياز » الذى كان يحظى بمزيد من التقرب لدى السلطان دون سائر أركان الدولة . وقد بلغ شمس الدين مكانة عالية فى الوزارة بفضل الأمير المذكور ، ونظراً لأنه كان مشهوراً بالحدود والكرم والمروءة ، فقد ظل يشغل منصب الوزارة مدة طويلة فى عهد السلطان مسعود رغم عدم توفر الفضائل له ، وعدم قابلية الناس إليه وبعد وفاة السلطان مسعود أسند أيضاً ابن أخيه السلطان محمد بن محمود ذلك المنصب إلى شمس الدين . وجاء فى جامع التواريخ أن شمس الدين أبى النجيب كان خالياً من الفضائل الشخصية لدرجة أنه ذات مرة قال لكمال الدين أبى شجاع الزنجانى — الذى كان قد جاء من بغداد إلى العراق العجمى — قوله : « يبدو أنك جئت عن طريق جعده ! » فقال له كمال الدين : « جئده ياسيدى

وليس جعده ! » فقال شمس الدين ثانية مؤكداً جهله : « فعلا كما تقول أنت ولقد أخطأت فجعده هي التي يضعون فيها القوس » فرد عليه كمال الدين قائلاً : « تلك هي الجعبة ويضعون فيها السيف ! » وحينئذ سكنت شمس الدين عن الكلام وهو في غاية من الغضب .

وقد تصادف أن حدثت وفاة السلطان محمد بن محمود والوزير شمس الدين أبي النجيب في أسبوع واحد في همدان .
(بيت ، ترجمته) :

- عندما تأتى الوفاة سيمر الجميع
- تبعاً من هذا الطريق ملوكاً كانوا أم فقراء

الوزير جلال الدين بن قوام الدين أبو القاسم الدرگزینی :

كان جلال الدين معروفاً بعلو الهمة والفصاحة ولطف الحديث ، ومتصفاً بحسن التصرف وجمال الصورة وطيب الخلق ، [٢١٦] وكان يصدق على الناس جميعاً البذل والعطاء وخاصة العلماء والفضلاء ، فلا غرابة أن كثّر الإقراض خلال وزارة ذلك الوزير الكريم ، فكان طالبو القروض يتجمعون دائماً في الديوان ، ويشغلون جانباً كبيراً من وقته الثمين .

والخلاصة أن جلال الدين تولى الوزارة في أوائل حكم السلطان محمد بن محمود ، وبعد أن ظل فترة يدير شؤون الدولة ، حدث أن استمال شمس الدين أبو النجيب بخدماته الكثيرة — أمراء الدولة وأركانها فعزلوا جلال الدين ، وعينوه في ذلك المنصب الرفيع مرة أخرى . وقد نقلوا أنه في تلك الأيام التي استطاع فيها شمس الدين أبو النجيب — عن طريق الرشوة — أن يستميل إلى جانبه الأكابر والأصاغر ، قام جلال الدين بنظم هذه القطعة وأرسلها إلى السلطان :

(بيتان ، ترجمتهما)

- لقد خدع خصمي الناس بالكثير من
- الذهب والفضة من أجل عزلى وتعيينه مكاني

- فإذا كان خصمى واثقاً فى الذهب والفضة
- فأنا واثق فى سيدى وفى الله — سبحانه وتعالى
- ولكنه لم يحقق فائدة بذلك وتم عزله ، كما نظم هذه القطعة أيضاً :
- [٢١٧] (بيتان ، ترجمتهما) :
- لقد أطعمتنى ثم بعتنى ، فلا غرابة
- أننى كمن يمسك بالهواء فى يده
- وأغلقت أمانى قلبك وبابك وأصبحت
- لا أعرف هل يلزم على أيضاً أن أقطع أملى فى الله ! !
- وقد نظم قاضى شروان هذه الأبيات بعد عزل جلال الدين يواسيه فيها ويمدحه :
- (بيتان ، ترجمتهما) :
- قال لى أمس فى المنام مقعد وزير
- العالم ألا يتذكرنى جلال الدين !
- فقلت له : أسعد لأنك سوف تقترن
- به غداً ، ويفرح قلبك
- والخلاصة أن جلال الدين فضل العزلة والاعتكاف إلى أن رحل إلى العالم الآخر .
- (بيت ، ترجمته) :
- لا يعرف الفلك دائماً غير هذا الأسلوب
- منح الأحزان وأخذ الأرواح
- الوزير شهاب الدين ثقة الجامدى .
- كان شهاب الدين وزيراً كاملاً النسب ، وافر الحسب ، وصاحب ثروة وكان كريماً كما كان معاصروه جميعاً يعترفون بتقدمه عليهم ، وقد استشهد على يد جماعة من الأمراء بعد أن قضى أربع سنوات وزيراً للسلطان سليما ن شاه ، واختار مسكنه جنات عدن .

(مصراع ، ترجمته) :

— « كيف يمكن لأحد الخلاص من الأجل الموعود ! »

الوزير فخر الدين بن الوزير معين الدين الكاشي :

تولى فخر الدين الوزارة في عهد السلطان أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وقد أنجز مصالح الناس ، وجعل أمور الدولة تستقيم وتنتظم ، واهتم بإرساء قواعد العدل والإنصاف .. وفي تلك الأيام جاء الأمير أمير بن علي بار حاكم ولاية الري ومعين الدين الساوجي المستوفى بحجة مقابلة السلطان ، وأخذ يدسان ويكيدان للأتابك شمس الدين ايلدگز — الذي كان والده السبب في تولى السلطان عرش السلطنة — فعلم الوزير فخر الدين طاهر بحقيقة نواياهما وعرض على السلطان وهو منفرد به كيفية تدبير المعاندين وحقيقة حسدهما وما يضممرانه من شر ، فأصغى السلطان بعين الرضا إلى كلام الوزير الماهر وأمر بأن يقيدوا الأمير في قلعة نخجوان ، كما عنف معين الدين الساوجي وعاقبه وصادر جميع ممتلكاته ، ولهذا السبب ارتفعت مكانة الوزير ، وأمضى فترة طويلة مستقلاً تماماً بتدبير شئون الوزارة ، ولكن عين الكمال أصابته وهو في ريعان شبابه وفي أوج مجده ، فودع الحياة الدنيا ورحل إلى الحياة الأخرى .

[٢١٩] (بيت ، ترجمته) :

— في هذا البستان الذي لا يوجد به مكان خال من الحزن

— فيه تبقى الحشائش وتندوم أكثر من الإنسان

الوزير قوام الدين بن الوزير قوام الدين أبو القاسم :

تولى قوام الدين الوزارة بعد وفاة فخر الدين ، وكان على علاقة طيبة ، بأهل العلم والفضلاء ورجال الجيش ، لأنه كان معروفاً ومتصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، وكانت تبدو عليه علامات العظمة وسمات الرياسة والرفعة واضحة جليلة ، ولكن السلطان عزله في النهاية لعدم إرضاء الأتابك محمد بن ايلدگز عنه ، فاعتكف قوام الدين بعيداً ، ولم يفكر بعد ذلك في الوصول إلى ذلك المنصب .

الوزير كمال الدين أبو شجاع الزنجاني :

كان كمال الدين من كبار الكتاب والعارفين والكرماء ، وقد تولى الوزارة بعد عزل قوام الدين ، وبعد أن قضى عامين في هذا المنصب - نشر خلاهما العدل والإنصاف - رحل مشكوراً محموداً عن هذه الدنيا الفانية إلى جنة رضوان .

الوزير كمال الدين أبو عمر الأبهري :

كان أبو عمر معروفاً بالأصل الطيب ، والأدب والفضل الزائد ، ومشهوراً بحسن النية وصدق العقيدة والزهد والتعب ، وقد تولى أبو عمر - لعدة سنوات - الإشراف على أعمال عظيمة في دواوين السلاطين الأقوياء ، ولما توفى [٢٢٠] كمال الدين أبو شجاع ، أسند إليه السلطان إرسال الوزارة ، وبعد وفاة السلطان إرسال ، أسند إليه أيضاً ابنه السلطان طغرل ذلك المنصب ، ولما شاعت الاضطرابات والفتنة في دولة السلطان طغرل ، خاف أبو عمر من أعدائه ، فحلق شاربه وتوجه إلى بلاد العرب متخفياً في لباس الصوفية ، وقد نظم هذا الرباعي وهو في صحراء الحجاز وأرسله إلى أبهر :

(رباعي ، ترجمته) :

- لم يجد قلبي المسكين من يحفظ له سره .
- ولم يجد كذلك معيناً له في هذه الدنيا
- وقد سمرته ذوابة حسناء ولكنه
- في ليلة ظلماء لم يجد رفيقته

الوزير عز الدين الكاشاني :

كان يتصف عز الدين بالبرورة وعلو الهمة ، وشيد خلال أيام حياته بقاعاً للخير وأبواباً للبر ، وعرف بالسمعة الطيبة ، كما كان على قدر كبير من المهارة في علم السياق والاستيفاء ، وقد شغل عز الدين الوزارة في عهد السلطان طغرل ، ونظراً لأن السلطان كان يكره الأتابكة ، ونظراً لما كان بين عز الدين وهذه الجماعة من حب وإخلاص ، فقد تغير السلطان على الوزير وقتله هو وابنه في قلعة همدان .

(مصرع ، ترجمته) :

« لتسعد روحهما في جنة الخلود »

تلوزير أبو منصور المورياني :

كان أبو منصور - حسب رواية صاحب جامع الحكايات - من وزراء السلطان طغرل ، وكان يؤدي دائماً مراسم [٢٢١] الطاعة والعبادة لله - سبحانه وتعالى - ويجلس كل صباح بعد أداء صلاة الفجر على سجادة الصلاة يقرأ أوراد الصلاة حتى شروق الشمس ، وبعد ذلك يركب لمقابلة السلطان . وذات يوم واجه السلطان أمراً هاماً فبعث شخصاً وقت السحر يطلب الوزير ، فوجد أبا منصور مشغولاً بقراءة الأوراد ولم يعط الرسول جوابات شافياً ، ولما طال الانتظار لأبي منصور أكثر من اللازم بدأت جماعة من الغازين والدسائين يفتابون الوزير وقالوا للسلطان : « نظراً لغرور أبي منصور وعدم اكتراثه ، فإنه لا ينهم كثيراً بأوامر السلطان ، ويؤخر البت في الموضوعات الموكلة إليه ، ويحضر متأخراً إلى الديوان ! » فغضب السلطان بسماع هذا الكلام ، وعندما وصل الوزير إلى دار السلطنة قال له السلطان بصوت مرتفع : لم لم تأت إلينا في الميعاد المطلوب ؟ » فرد عليه أبو منصور بقوله : « إنني عبد رب العالمين ، وخدام سلطان الدنيا ، وقد عاهدت نفسي أن لا أشغلها بعمل سوى التضرع لله والتوجه إليه بالدعاء وذلك حتى شروق الشمس ! ولم أجعل نفسي من بين تنابلة السلطان ! » ، فهذهت أثرة غضب السلطان بسماعه هذا الكلام الصريح وزاد في الاهتمام والعناية بأبي منصور .

قطعة (بيتان ، ترجمتهما) :

— ما أسعد ذلك العالم الذي يصحو قبل السلطان

— ويحدثه عن موضوع طيب وهو في سورة غضبه

— فيهدئه بكلام لطيف لطف الماء

— ويصب ماءه على غضب السلطان

[٢٢٢] الوذير معين بن الوذير فخر الدين :

كان معين الدين معروفاً بالمهارة، ومتصفاً بحسن الإدارة وإنجاز شئون الوزارة وقد بلغت دولة السلاجقة في نهايتها أوائل توليه الوزارة حيث استولى السلطان تكش خوارز مشاه على العراق ، واستشهد السلطان طغرل في معركة القتال ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس (١) » .

وأنة لا يخفى على العارفين وأهل الفضيلة أن أحوال بل أسماء وزراء تلك الطبقتين الآخرين من السلاجقة اللتين حكمتا في ولايتي كرمان والروم ، لم تذكرها كتب التاريخ ، وذلك بسبب عدم استقلالهما ، فلا عجب أن بدأ قلبي في تحرير بعض أحوال وزراء السلاطين الآخرين ، ونرجو من الله الإعانة والتوفيق :

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٤٠ »

وزراء وخلفاء وحكام طائفة الاسماعيلية

لانه لايجنى على أهل الفضل والمحققين أن الإسماعيلية كانوا طبقتين ، طبقة
منهما حكمت في ولايات المغرب ، والأخرى حكمت في بلاد رودبار ،
وقهستان ، والطبقة الأولى والتي يرجع نسبها - حسب ما أورده أكثر المؤرخين
إلى إسماعيل بن جعفر الصادق كان عدد خلفائها وحكامها أربعة عشر شخصا
ترتيب أسمائهم كما يلي :

- ١ - أبو القاسم محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى
- ٢ - القائم بأمر الله بن المهدي
- [٢٢٣] ٣ - المنصور بالله بن القائم بأمر الله
- ٤ - المعز لدين الله بن القائم بأمر الله
- ٥ - العزيز بالله بن المعز لدين الله
- ٦ - الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز بالله
- ٧ - الظاهر لدين الله بن الحاكم
- ٨ - المستنصر بالله بن الظاهر
- ٩ - المستعلي بالله بن المستنصر
- ١٠ - الأمر بأحكام الله بن المستعلي
- ١١ - الحافظ لدين الله أبو ميمون عبد الحميد بن المستنصر بالله
- ١٢ - الظافر بالله بن الحافظ
- ١٣ - الفايز بنصر الله بن الظافر بالله
- ١٤ - العاضد لدين الله بن الفايز بنصر الله

وقد امتد حكم هذه الطائفة ٢٦٠ عاماً ، ولم تتضح — عند المؤرخين — أسماء وأحوال وزراء أكثر خلفاء الإسماعيلية ، وأما ما عرف فهو كما يلي :

الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل :

كان الأفضل أميراً للجيش أيام خلافة المستعلى بالله بن المستنصر بالله ، وكان مستقلاً بتدبير أمور الملك والمال ، [٢٢٤] وفي عهد الأمر بأحكام الله قتل أمير الجيش على يدي فدائيي التزارية حيث توفي متأثراً بإصابته من تلك الجماعة . ولما تولى الحافظ لدين الله عرش الخلافة جعل أبا علي أحمد موضع اهتمامه ورعايته ، وأسند إليه منصب الوزارة ، فأدار أبو علي ذلك المنصب بكفاءة عالية ، لكن الفدائيين ألحقوه بوالده بعد فترة قصيرة ، وعين شخص آخر مكانه ، فقتل أيضاً ذلك المسكين بعد بضعة أيام بضربة خنجر من الفدائيين الأشرار ، وحينئذ أسند الحافظ لدين الله منصب الوزارة إلى ابنه حسن ، ونظراً لأن حسن كان سفاكاً وجريئاً ، كما كانت تتوفر فيه الكثير من علامات الجنون ، فقد قام في ليلة واحدة بقتل أربعين شخصاً من أمراء والده ، وخشى الحافظ من أعز أبنائه ، فسلط سراً جماعة لقتله ، وقد وقف الحسن على هذا التدبير ، فقتل أيضاً تلك الجماعة ، وبعد ذلك توجه بقية الأمراء والعسكر إلى الحافظ وقالوا له : إن تسلمنا الحسن فهو المطلوب ، والا فسوف نقتلك ؟ فهذا الحافظ تلك الجماعة وأمر طبيباً بدس السم للحسن وأنهى حياته .

(مصراع ، ترجمته) :

— يلحق الشر بالشرير كذلك

الوزير عباس :

كان عباس يتولى تدبير شئون الوزارة أيام الظاهر بالله ، وكان موفقاً جداً في إدارة ذلك العمل .

وجاء في روضة الصفا أن عباساً كان له ولد في غاية من الحسن والجمال يسمى نصراً ، وقد توله الخليفة الظاهر بحب ذلك الشاب ، ولم يكن يرضى بالبعد عنه لحظة واحدة ، وذاع هذا الكلام [٢٢٥] بين الناس ، وفي ذلك الوقت أهدى

الظافر إلى نصر قلعة عامرة ، وكان بعض الظرفاء يرددون قولهم بأن حب نصر أكثر من هذا ! وحرك هذا الكلام عرق الحمية في عباس ، فوجه الدعوة للظافر مع بعض خاصته لاستضافتهم بمنزله ، وعندئذ خرجت جماعة من خدم عباس من كمين ، وقتلوا الخليفة ومن معه من خاصته ، ودفن عباس القتلى في منزله ، وجمع أموالا ورحل من مصر حتى ينجو بنفسه من الهلاك ، وفي الطريق اعترضه جماعة من الفرنج سلبوه ما معه وتركوه مقيداً في الصحراء .

الوزير دنك صالح :

حينما فارق الخليفة الظافر الحياة في منزل عباس ، جلس ابنه الفايز بنصر الله على عرش الخلافة ، ووضع زمام أمور الوزارة في قبضة ملك صالح الماهرة ، وظل ملك صالح صاحب التصرف في أمور الملك والمال حتى آخر أيام حياة الفايز ، ولما توفي الفايز في عام ٥٥٥ هـ ، خلفه العاضد لدين الله الذي قام بعزل ملك صالح .

الوزير شابور (١) :

كان شابور وزيراً للعاضد لدين الله آخر خلفاء الإسماعيلية ، وخلال توليه الوزارة ، تواجه جيش جرار من الفرنج إلى مصر للإغارة عليها ، ولما اقربوا من تلك المملكة ، استولى الخوف والرعب على نفوس المسؤولين فيها ، فطلبوا الصلح ، وبعد الاتصالات وقع السفراء قرار الصلح على أساس دفع مبلغ ألف ألف [٢٢٦] دينار ، وجاء محصلو الفرنج إلى مصر لاستلام ذلك المبلغ ، وكان لهذا الأمر وقع أليم في نفوس المسلمين ، فعزموا على اللجوء إلى والى الشام نور الدين محمود ليخلصهم من عار النصارى ، فسلم شابور لمحصى الفرنج مبلغ مائة ألف دينار وأخر دفع باقى المبلغ ، وبعث بكتاب إلى نور الدين محمود - بموافقة العاضد - مستنجداً به في صدر خطر استيلاء الفرنج ، ولما وقف والى الشام على حقيقة الأمر ، كلف أسد الدين شيركوه بقيادة جيش جرار مكون من ثمانين ألف رجل لصعد المعتدين ، وعند اقتراب شيركوه من مصر ، خاف الفرنج من قتاله وهربوا مثل الثعلب وعادوا إلى بلادهم ، ووصل أسد الدين القاهرة في شهر ربيع الآخر عام ٥٦٤ هـ ، فبعث

(١) يكتب « شاور » في المصادر العربية .

إليه العاضد بخلعة ووثيقة الموافقة بدخول القاهرة ، كما بشره بتولى منصب الوزارة له ، وفي تلك الأثناء توجه شابور ذات يوم إلى مقر أسد الدين شيركوه للتشاور معه في بعض المسائل ، ولحق بشابور في الطريق صلاح الدين يوسف - ابن شقيق شيركوه - هو وجماعة من أمراء الشام وقبضوا عليه ، وعلم العاضد بهذا الخبر ، فبعث - نظراً لأنه كان يكن في نفسه من الآلام من شابور - برسول إلى الشوام طالب منهم رأس الوزير ، فقام صلاح الدين في الحال بقتله .

(مصراع ، ترجمته) :

« لم يسلم هو كذلك من فتك السيوف

الوزير أسد الدين شيركوه :

تولى شيركوه الوزارة بعد قتل شابور ، ولكنه توفي بعد أن قضى ستين يوماً في إدارة ذلك المنصب .

(مصراع ، ترجمته)

— سواء أفضى سنة أو ستين أوسمائة فحاله إلى زوال ! »

[٢٢٧] الوزير صلاح الدين يوسف :

تولى صلاح الدين الوزارة للعاضد بعد وفاة أسد الدين ، وقد تمت له السيطرة التامة على ولاية مصر لمساعدة بهاء الدين قراقوش ونحى أركان دولة العاضد جانباً ، ولما بلغ هذا الخبر نور الدين محمود ، بعث برسالة إلى صلاح الدين يوسف يقول له فيها : « إنه لمن المناسب أن تكون الخطبة على المنابر وسك العملة في تلك الولاية باسم ولقب الخليفة العباسي المستضيء بنور الله ، وذلك كما هو متبع في بلاد الشام ، ولم يجد صلاح الدين - لمصلحته الشخصية - فائدة من الامتثال لذلك الأمر ، فبعث يرد عليه بقوله : « لقد انقضت فترة طويلة والمصريون يسلكون طريق الطاعة والولاء للعلويين ، وإن تعلموا بمثل هذا الأمر ، فربما نواجه بفتنة لا يمكن تداركها بسهولة ! » فلما وصل رد صلاح الدين إلى نور الدين محمود ، تضايق وغضب وأرسل إليه مرة أخرى قائلاً له : « لا بد أن يعمل صلاح الدين على ألا تقرأ الخطبة بعد ذلك باسم العاضد ! » ونظراً لأن صلاح الدين لم تكن لديه

القدرة على مخالفة نور الدين فقد تشاور مع خاصته ورجاله في هذا الموضوع، فحذرتهم جماعة منهم من خطر جماهير المصريين، ودفعته جماعة أخرى إلى إطاعة نور الدين محمود وتنفيذ تعليماته، وفي تلك الأثناء ابتلى العاضد بمرض خطير، وفي الجمعة الثانية من شهر محرم عام ٥٥٧ هـ، رفع شخص من الشوام صوته بالدعاء للمستضيء بنور الله العباسي. قبل أن يعتلي الخطيب المنبر، فلم يعارضه أحد من الحاضرين، وفي الجمعة التالية قرأ جميع خطباء مساجد مصر - حسب تعليمات صلاح الدين - الخطبة باسم الخليفة المستضيء بنور الله، وكان العاضد [٢٢٨] قد توفي في العاشر من نفس الشهر وقبل أن يسمع بهذا الخبر الأليم.

ولا يوجد شيء من أخبار تلك الطائفة غير ما ذكرناه سوى الخرافات، ولما بلغ خبر الدعاء للمستضيء بالله - على منابر مصر إلى دار السلام ببغداد، قام الخليفة بإرسال الهدايا القيمة والأموال الوفيرة إلى نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف، وقد ظل صلاح الدين يوسف يعيش في مصر حتى آخر يوم في حياته معزراً مكرماً ذا شأن كبير.

الضبة الثانية من الاسماعيلية :

وكانت عبارة عن الحسن بن الصباح وأتباعه، وقد حكم هؤلاء في منطقة رودبار وقهستان، وهم ثمانية أسماءهم كالتالي :

- ١ - الحسن بن الصباح
- ٢ - كيازرگك أميد
- ٣ - محمد بن كيازرگك أميد
- ٤ - حسن بن محمد المشهور بين الناس بلقب « على ذكره السلام »
- ٥ - محمد بن على ذكره السلام
- ٦ - جلال الدين حسن بن محمد
- ٧ - علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن
- ٨ - ركن الدين خورشاه بن علاء الدين محمد

[٢٢٩] واستمر حكم هذه الطائفة مدة ١٧٢ عاماً، نتحدث فيما يلي عن اثنين من زرائهم :

الوزير دهدار أبو علي :

كان أبو علي من بين خاصة الحسن بن الصباح ، وحينما كان الحسن بين مكرات الموت وأوصى كيا بزرگك أميد بأن يسند إلى أبي علي منصب الوزارة : ولما تولى كيا الحكم عمل بوصية الحسن ، ووضع زمام أمور الديوان في قبضة دهدار أبي علي الكفاء ، وتولى دهدار ذلك المنصب طوال حياته :

الوزير شمس الدين كيلىك :

كان شمس الدين وزيراً لركن الدين خورشاه آخر حكام الإسماعيلية ، وحينما عبر هولاء كان نهر جيحون ، بعث رسولا من عنده لطلب ركن الدين ، وحيث إن انتصارات هولاء كانت قد وصلت إلى نواحي دماوند ، أسرع شمس الدين بالتوجه - تنفيذاً لأوامر ركن الدين - إلى قلعة « كردكوه » حتى يوصله قائد تلك القلعة إلى هولاء ولما كانت ولاية رودبار قد أصبحت مضرباً لخيام جند التتار ، أوصل قائد قلعة « كردكوه » شمس الدين هولاءوخان ، فرحب به الخان وشمله بعنايته ، وفي تلك الظروف أسرع أيضاً ركن الدين خورشاه لمقابلة هولاءوخان وبهذا طوت الأقدار بساط حكم الملاحدة ودخلت جميع ولايات إيران في حوزة هولاءوخان « توثى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء (١) » .

(١) سورة آل عمران ، آية ٢٦٥ .

وزراء الدولة الخوارزمية

يقولون إن جد الخوارزميين هو نوشتكين غرجه غلام بلكاتكين - الذى [٢٣٠] كان من مماليك السلطان ملكشاه - وكان نوشتكين يعمل بوظيفة الطشتداريه ، وبعد وفاة بلكاتكين ، وتولى مناصب رفيعة وذلك بفضل تعقله وكفاءته وخبرته ، فنظرا لأن مهمة ديوان خوارزم كانت فى ذلك الوقت تتعلق بالطشت خانة ، أسند إليه السلطان ملكشاه مهمة شحنة خوارزم ، وبعد وفاة نوشتكين ، أصبح ابنه الأكبر قطب الدين محمد حاكماً لتلك الولاية ، وأطلقوا عليه لقب خوارزمشاه ، وكان الخوارزميون تسعة أشخاص :

- ١ - قطب الدين محمد بن نوشكتيكن
- ٢ - أئسر بن قطب الدين محمد
- ٣ - أيل أرسلان بن أئسر
- ٤ - السلطان جهانشاه بن أيل أرسلان
- ٥ - تكش خان بن أيل أرسلان
- ٦ - قطب الدين محمد بن تكش خان
- ٧ - السلطان جلال الدين مينكبرتي بن قطب الدين محمد
- ٨ - السلطان غياث الدين بيرامشاه بن قطب الدين محمد
- ٩ - السلطان ركن الدين غور سانجى بن قطب الدين محمد

[٢٣١] وقد استمر حكم هؤلاء الملوك الأقوياء مدة ١٣٨ عاماً ، أمكن لي معرفة أحوال خمسة وزراء من وزراءهم أتحدث عنهم كما يلي :

الوزير نظام الملك سعد الدين مسعود بن علي الأبهري :

كان نظام الملك إماماً لمشاهير الوزراء العظام ، وذلك بفضل لإصابة رأيه ، وعلمه وانسراح صدره وصفاء ضميره ، قد أسند إليه تكش خان إدارة منصب الوزارة الرفيع بإعزاز تام وإكرام عام ، والحقيقة أنه بفضل تدبير سعد الدين مسعود السليم ، ونظرة الثاقب ، حل العمار والتآلف محل الخراب والاضطراب - الذي كان قد استشرى في جميع الولايات بسبب الأحداث السابقة - ووفر العدل والإنصاف للصغار والكبار في جميع البلاد والديار ، وبذل جهوداً مشكورة لتقوية أحكام الشريعة النبوية ، وكان يحرض تكش خان دائماً ويشجعه على قلع وقمع الملاحدة الذين لا دين لهم ، وترتيباً على ذلك بذل تكش خان كل همه في إعداد جيش كبير لاستئصال تلك الجماعة ، ورفع راية الفتح للاستيلاء على قلعتهم القوية الموجودة بالقرب من قزوين ، وبعد وصوله استمر حصاره لها مدة أربعة أشهر ، وفي النهاية استقر الرأي على إجراء الصلح ، وخرج الملاحدة وأتباعهم من تلك القلعة وتوجهوا إلى قلعة الموت :

ولما علم هؤلاء الملاحدين بأن المتسبب في عداء السلطان لهم هو الوزير سعد الدين مسعود ، أرسلوا [٢٣٢] جماعة من الفدائيين لقتله ، فتحينت تلك الجماعة الفرصة وعند خروج نظام الملك من قصره طعنوه بالخنجر وقتلوه . وقد جاء في كتاب روضة الصفا ما يلي :

« من غرائب الصدف أن سعد الدين مسعود نظراً للعداوة التي كانت بينه وبين الحاجب الكبير شهاب الدين مسعود الخوارزمي وحيد الدين العارض ، فقد نسب إليهما أموراً غير لائقة في مجلس تكش خان ، وحصل على الإذن بقتلهما ، فأمر رجاله بقتل حميد الدين على باب قصره ، وكان يريد الوزير أن يلحقوا الحاجب به إلا أنهم فجأة بحسب تصرفات الزمن الغادر بل بناء على مشيئة المنتقم الجبار - سفكوا دماء الوزير ونجا الحاجب من تلك الحادثة :

(بيت وترجمته)

- مهما تحركت سيوف العالم من أماكنها
 - فلن تستطيع أن تقطع عرقاً واحداً ما لم يرد الله ذلك
- « إن الله يفعل ما يشاء » (١)

الوزير نظام الملك صدر الدين علي بن سعد الدين مسعود :

تولى علي بن سعد - بأمر السلطان تكش خان - تدبير أمور السلطنة وإدارة شؤون الديوان وذلك بعد استشهاد والده العظيم ، وقد اقتدى بصفات والده الحميدة ، واهتم بتوفير العدالة . وتحسين أحوال الرعية ، ولم يقصر مطلقاً في رعاية أهل العلم والفضيلة ، ولما توفي تكش خان واعتلى ابنه الأكبر قطب الدين محمد عرش السلطنة ، أبقى [٢٣٣] منصب الوزارة في يد صدر الدين علي ، وهكذا تكفل ذلك الوزير الحكيم بالاستمرار في إدارة ذلك العمل الخطير ، وفي النهاية وحسب إدارة الخالق آلت الوزارة إلى محمد بن صالح .

الوزير نظام الملك محمد بن صالح

كان محمد بن صالح - حسب رواية صاحب جامع التواريخ - من أبناء غلام ترکان خاتون - والدة السلطان محمد خوارزمشاه - ولم يكن له مثيل في ذلك الوقت في حسن خطه وفرط جوده وكرمه ، ولكنه لم يكن له حظ ولا نصيب من الفضائل الشخصية والكمالات الإنسانية ، ولما أمضى محمد بن صالح مدة سبع سنوات مستقلاً بإدارة الوزارة ، اتهم بالتصرف في أموال الديوان وعزل ، فتوجه إلى خوارزم وترك العمل مع السلطان ، فجعلته ترکان خاتون محل عنايتها ورعايتها - كسابق عهدها به - وأسندت إليه منصب الوزارة ، وصارت أوامر محمد بن صالح نافذة مرة أخرى في خوارزم ، فتضايق السلطان من هذا التصرف ، وتغير وغضب ، ولم يشرف أحداً بهذا المنصب رغم وجود العديد من العظماء من أصحاب القلم ، وكبار أهل الفضل والكرم في بلاطه - أمثال تاج الدين كريم الشرق النيشابوري وضياء الدين السمناني والشریف محمد النسوی ونجم الدين گيلا بادی ومجير

(١) سورة الحج ، آية « ١٨ »

الدين المنشى - فغرق الناس في بحر الخيرة لأنهم لم يجلوا من يرجعون إليه في تدبير شئون الديوان ، وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية حكم السلطان محمد ، وفي الوقت الذي كان أمراء جنكيرخان يحاصرون فيه [٢٣٤] قلعة أيلال ، كان محمد بن صالح موجودا داخل هذه القلعة بصحبة والدته السلطان . وبعد أن تم إخضاع القلعة حمله الأمراء إلى الخان وقالوا له : « ان هذا الوزير كان مطروداً ومغضوباً عليه من قبل السلطان محمد ! » وألخوا عليه أن يجعله من بين رجال الخان ، وبناء على ذلك اعتمد جنكيرخان محمد بن صالح كواحد من رجاله وكان يكلفه أحياناً بتنظيم حسابات بعض الولايات ، وخلال تلك الظروف حدثت علاقة بين محمد بن صالح وبين ابنه « زنيگيجة جنكى » التي اشتهرت بحسن الصوت وجمال الصورة ، وعلم بهذه العلاقة زين الدين الكحال - وكانت تلك المطربة حسب تعليمات الخان تحت رعايته فأخبر الخان ببعض جوانب تلك العلاقة ، واشتعلت نيران غضب الخان بسماع ذلك الكلام ففضى على محمد بن صالح . وجاء في كتاب روضة الصفا ما يلي : « أن الوزير الذي أسره أمراء جنكيرخان من قلعة إيلال كان يسمى ناصر الدين ، ولما مثل ناصر الدين أمام الخان قتله على الفور »

الوزير شرف الملك فخر الدين على الجندي :

تولى فخر الدين رئاسة ديوان ولاية جنبد (١) أيام حكم السلطان محمد خوارزمشاه ولم يترك شاردة ولا واردة من أعمال الظلم الا وارتكبها ، وبناء على ذلك توجهت جماعة من أهالى تلك الولاية إلى السلطان يستصرخونه بالله أن يخلصهم من ظلمه ، واشتعلت نيران غضب السلطان لشدة [٢٣٥] تظلم المظلومين المطالبين بالعدل ، فأمر رجاله بأن يسحبوه كما يسحب الطائر على السيخ ويلقوه في النار ، وبلغ هذا الخبر الأليم فخر الدين فهرب كما يهرب الخفاش من ضوء الشمس واختفى ، وفي الوقت الذي هزم فيه السلطان جلال الدين مينكبرتي من جيش جنك خان ، وعبر نهر

(١) جنبد أو جنبد ، بضم أوله وتسكين ثانيه ، وضم ثالثه ، من قرى نيسابور بمنطقة خراسان - وقع الآن في أفغانستان - والعجم تقول كنبد بالكاف ومعناه عندهم الأزعج المدور كالقبة ونحوها .
[انظر ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الثاني ، ج ٥ ص ١٦٨ ، بيروت ١٩٥٦ م]

سيجون ، قدم فخر الدين نفسه لذلك الملك العظيم وأبدى له رغبته في العمل معه بإخلاص فقبله ، وحينما عاد السلطان من ولاية هندوستان أدخل في حوزته ولايات العراق وأذربيجان وأسند منصب الوزارة إلى فخر الدين وبالرغم من أن فخر الدين كان خالياً من زينة الفضائل واستقامة المزاج إلا أنه كانت له أياد بيضاء في الحل والعقد ، والرتق والفتق ، والفتح والغلق في شئون الديوان ، كما يتحدث التركية بطلاقة ، وكان ماهراً جداً في قيادة الجيوش ، وقد أنفق فخر الدين الكثير من الأموال خلال فترة مجده وارتفاع مكانته ، وكان متصفاً برقة القلب وصفاء العقيدة لدرجة أنه حينما كان يقرأ القرآن كانت الدموع تنهمر على خديه .

والخلاصة أنه بعد بلغ استقلال فخر الدين بإدارة الوزارة مرتبة الكمال ، تسرب الغرور إلى رأسه حسب مضمون الآية الكريمة «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى (١)» ، وقام بمصادرة ممتلكات أكثر أركان الدولة وأغنيائها ، ولهذا السبب تغير عليه السلطان ، وأحس الوزير بذلك التغير فأعلن العصيان ، وتحصن في إحدى القلاع ، وقبض عليه السلطان جلال الدين بخدعة وسجنه ثم قتله بعد ذلك بثلاثة أيام أو [٢٣٦] أربعة تقريباً .

(١) وردت بالأصل «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» سورة العلق ، آية «٦» .

وزراء سلاطين السلغرى

■ كان سلغرى من الأمراء التراكمة ، وبسبب تقلبات الأيام رحل عن وطنه الأصلى مصطحباً معه خيله وحشمه ، وكان دائماً ما يغير على أطراف ولايات خراسان ، ولما أدخل السلاجقة ولايات إيران فى حوزتهم ، انضم إليهم وتولى منصب الحجابة لهم ، وكان من أولاده سنقر بن مودود السلغرى الذى خرج على ملكشاه ابن محمد بن محمود بن مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقى ، واستولى على ولاية فارس ، وقد تولى حكم تلك الولاية أحد عشر شخصاً من السلغريين ترتيب أسمائهم كما يلى :

- ١ - الأتابك مظفر الدين سنقر بن مودود
 - ٢ - الأتابك مظفر الدين زنگى بن مودود
 - ٣ - الأتابك مظفر الدين تكله بن زنگى
 - ٤ - الأتابك مظفر الدين طغرل بن سنقر
 - ٥ - الأتابك مظفر الدين أبو شجاع سعد بن زنگى
 - ٦ - الأتابك مظفر الدين أبو بكر بن سعد
 - ٩ - الأتابك محمد شاه بن سلغرى شاه بن الأتابك سعد بن زنگى
 - ١٠ - الأتابك سلجوقشاه بن سلغرىشاه
 - ١١ - الأتابك آبش خاتون بنت سعد بن أبى بكر
- [٢٣٧] وفيما يلى ذكر ما أمكن معرفته من أحوال وزراء الأتابكة :

الوزير تاج الدين الشيرازي :

كان تاج الدين وزيراً لمظفر الدين سنقر مودود ، كما كان يقوم بأعمال الوزارة أيضاً أثناء حكم السلطان مسعود السلجوقي .

الوزير أمين الدين الكاذروني :

تولى أمين منصب الوزارة أثناء حكم الأتابك مظفر الدين تكله بن زنكي ، وكان يفوق حاتم الطائي في كثرة جوده وسخائه ، ووفرة بذله وعطائه ، وكان هناك اعتقاد بين أهالي شيراز بولاية الوزير أمين الدين ، فكانوا يتحدثون عن كراماته وخوارق العادات التي صدرت عن حضرته ، وقد أقام الوزير أمين الدين أثناء توليه الوزارة مدرسة وخانقاه للصوفية بالقرب من مسجد شيراز العتيق ، واهتم اهتماماً كبيراً برعاية العلماء وأهل التقوى والصلاح ، رحمه الله رحمة واسعة .

الوزير ركن الدين صلاح القرمانى :

تولى ركن الدين منصب الوزارة في أوائل حكم مظفر الدين أبوشجاع سعد بن زنكي ، ثم عزل بعد فترة من توليته ذلك المنصب ، وعين مكانه عميد الدين أبو نصر أسعد .

الوزير عماد الدين أبو نصر أسعد :

كان عميد الدين معروفاً بالعلم والفضيلة ومتصفاً بالجلود والسخاء وصفاء الذهن والطبع ، وكان يقوم [٢٣٨] أحياناً بنظم الأشعار القوية واللطيفة ، وجاء في روضة الصفا ما يلي :

بعث الأتابك سعد ذات مرة برسالة إلى السلطان محمد خوارزمشاه — كان قد كتبها أسعد — عرف بواسطتها السلطان مقدار لطافة ذلك الوزير الفاضل ، فقربه منه وجعله موضع عطفه وعنايته ، وطلب حضور أسعد — مرات كثيرة — مجالس طربه ، وفي تلك الأثناء ألقى السلطان ذات يوم وهو في مجلس الشراب هذا البيت^(١) على وزن الرباعي :

(١) البيت بالفارسية :

دردزم جو آهنيں ودرېزم جوموم بردوست مبادكيم وبردشمن شوم
بقية الرباعي :

اذ حضرت ما برند انصاف بشام وزهيبث ما برند زناں بروم

(بيت ، ترجمته) :

- نكون في الحرب كالحديد ونكون في السلم كالشموع
- فنكون بركة على أصدقائنا وشوماً على أعدائنا
- وقال لأسعد : أكمل الرباعي ؟ فقال أسعد على البديهة :

(بيت ، ترجمته) :

- ونقلوا عنا العدل والإنصاف إلى بلاد الشام
 - وهرب عبدة النار خوفاً منا إلى بلاد الروم
- فأبدى السلطان محمد إعجابه به وسقاه في ذلك اليوم - لنظمه هذا البيت - شراباً صافياً ، وأسند إليه منصب الوزارة ، ولكن أسعد تردد بين الرضا والقبول ، وفي النهاية قرر العودة إلى شیراز ، ولما كان الأتابك سعد قد توفي وتولى ابنه الأتابك أبو بكر الحكم وبدأ ينظم شئون الرعية ، اتهم عميد الدين أسعد باجراء مفاوضات واتصالات مع رجال خوارزمشاه ، فأمر الأتابك أبو بكر بسجنه هو وابنه تاج الدين محمد في قلعة « أسكيوان » . وقد نظم عميد الدين هذا الرباعي في سجنه وبعث به إلى الأتابك :

[٢٣٩] (رباعي ، ترجمته)

- يا وارث تاج الملك ، ولاكليل سعد
 - اعف عني بحق روح ورأس سعد
 - لأنني منذ وجدت وحتى الآن ،
 - قد وقفت (حياً وإخلاصاً) مثل « الألف » أمام رأس سعد (١)
- ولكنه لم يجد فائدة من هذه الشفاعة ، وظل الأتابك يحبس ذلك الوزير العظيم - كما يحبس الطائر في القفص - إلى أن صعدت روح ذلك الطائر إلى السماء .

(١) نورد الرباعي بالفارسية حتى يتضح مغزاه :

أى وارث تاج ملكى وافر سعد بخشای خدای راى بجان و سر سعد
بر من كه جوتام خويشتن تاهستم همجو الف ايستاده ام بر سر سعد

(بيت ، ترجمته) :

- كان هناك طائر يغرد في قفصه ويقول باننا حينما
- نرحل ، ستكون أيامنا القليلة في الدنيا السبب في سعادتنا أو شقائنا

الوزير نظام الدين أبو بكر :

تولى أبو بكر الوزارة أثناء حكم الأتابك محمد بن سعد ، وقد توجه إلى معسكر هولكوخان حاملاً الرسائل والتحف والهدايا الثمينة ، وجاء للأتابك محمد بمرسوم تفويضه حاكماً على ولاية فارس ، ولم يرد في كتب التاريخ أى شيء عن أحوال ذلك الوزير أو عن أحوال سائر وزراء أتابكة فارس أكثر مما ذكرته : وأرجو قراء هذه الأخبار المتفرقة ألا يرجعوا إلى العبد الفقير هذا النص أو التقصير .

الحديث عن الملك العظيم الأمير الشيخ أبو اسحق

كان الأمير الشيخ أبو اسحق — بكثرة فضله وعلمه — خلاصة سلاطين الدنيا ، وكان من الأبناء العظام [٢٤٠] للأمير شاه محمود أنجو ، وكان يتولى الأمير محمود شاه حكم ولاية شيراز في عصر السلطان أبي سعيد بن خداينده ، وبعد وفاة الأمير محمود شاه ، تولى ابنه الأكبر الأمير مسعود شاه الحكم في تلك الولاية ، ولما توفي السلطان أبو سعيد ، عم المهرج والمرج ، جميع الولايات فاستولى الأمير الشيخ أبو اسحق على ولاية شيراز ، وأمر بقراءة الخطبة وسلك العملة باسمه ، واستمر حكمه ما يقرب من السنة عشر عاماً .

(بيت ، وترجمته)

— حقيقة أن خاتم نصر أبي اسحق

— قد تلاً ساطعاً ولكن دولته زالت بسرعة (١)

وقد أمكنتي الحصول على أخبار ثلاثة أشخاص من وزراء الأمير الشيخ أبي اسحق سأحدث عنهم كما يلي :

الوزير مولانا شمس الدين صاين القاضي :

كان شمس الدين في بداية أمره أحد أعيان دولة الأمير بير حسين جوباني الذي كان حاكماً على شيراز لبضعة أيام ، وحينما توجه الملك بصحبة الأمير الشيخ أبي اسحق لتسخير شيراز ، رافق مولانا شمس الدين الأمير جلال الدين — طبيب الملك —

(١) هذا البيت من نظم الشيرازي .

وتخلى عن ملازمة الأمير بير حسين وانضم للملك أشرف والأمير الشيخ أبي إسحق ، ولما لم يقو الأمير بير حسين على صد ذلك الجيش أثر الهرب وغادر شيراز ، وحينئذ قال الأمير الشيخ أبو إسحق للملك أشرف : « حيث إن والدى العظيم ، وأخى الشهير كانا يحكمان [٢٤١] شيراز مؤخرأ ، فاني أرجو أن تأذن لي بالتوجه قبلكم إلى تلك الولاية لأعد احتفالاً ملكياً لحضرتكم » فأذن له الملك أشرف ، ولما وصل الأمير الشيخ إلى شيراز ، جمع حوله أهالي تلك البلاد ، ودق طبول الفرح على الملك أشرف ولم يسمح لأحد من رجاله بدخول تلك الولاية .

ولم ير الملك أشرف فائدة في محاصرة تلك المدينة ورجع يائساً ، وبعث برسول في ذلك الوقت إلى الأمير مبارز الدين محمد مظفر - الذي كان حاكماً لولاية يزد - يطلب مقابلته ، فأجابه الأمير محمد بقوله :

« لو أن جنابه لديه الرغبة في أن يكون اللقاء معه على أساس من الصدق والصفاء ، فعليه أن يبعث إلى مولانا شمس الدين صابن القاضي كان يغتائنا دائماً في مجلس الملك أشرف » ، فقام الملك أشرف - إرضاء للأمير محمد مظفر - بالقبض على مولانا وأرسله إلى يزد مقيداً ، فلما وصل إلى تلك الولاية طلب الشفاعة والعفو من الأمير ، فغفر له وصار موضع عطفه وإحسانه ، وعندئذ توجه الأمير محمد مظفر من يزد إلى كرمان ، واستحكمت العهود والمواثيق بين الأمير ومولانا شمس الدين واتفق على أن يسلم مولانا قلعة سيرجان - التي كانت تحت سيطرة ابنه - إلى وصال الأمير محمد ، على أن يتولى مولانا تدبير الأمور في الولاية ، ويأخذ كل عام مبلغ مائة ألف دينار ،

وبعد ذلك بذل مولانا جهداً عظيماً ، وتفانياً في خدمة الأمير مبارز ونظراً لأن هذا الوضع لا يسر خواجة [٢٤٢] تاج الدين العراقي وبعض أعيان ولاية كرمان ، لذلك فقد أغروا مولانا شمس الدين بأن يطلب من الأمير مبارز الدين أن يبعثه برسالة يدعو الخلفاء بين الأمير مبارز الدين والشيخ أبي إسحق ، ويذيب الثلوج المتجمدة في مملكة فارس ويدخلها ضمن ولايات الأمير محمد مظفر ، ويحكم أسس المودة بالاتصال ، وعرض مولانا هذا الاقتراح على مبارز الدين فوافق عليه ، ورتب ووفر أسباب السفر لمولانا ، وتوجه مولانا معززاً مكرماً إلى شيراز ، ولما وصل ،

قبل تولى وزارة الأمير الشيخ أبى إسحق بالاشتراك مع سيد غياث الدين على اليزدى ونسى أفضال الأمير مبارز الدين محمد عليه :

(مصراع ، ترجمته)

— « يا من تركت أملى وعهدك تذروهما الرياح جميعاً ! »

وبعد أن زاول هذان الوزيران العظيمان إدارة شئون ولاية فارس بضعة أيام، :
والله أعلم :

الوزير الأمير ظهير الدين إبراهيم صواب :

كان الأمير فى بداية أمره يلزم الأمير ببر حسين جوبانى وفى الفترة التى كان يعمل فيها فى خدمة مبارز الدين ، استأذن منه وتوجه إلى شیراز ، فعزل الأمير الشيخ مولانا شمس الدين صابن وسيد غياث [٢٤٣] الدين على ، وعين مكانهما الأمير إبراهيم مستقلاً بإدارة شئون الوزارة ، وقام الأمير إبراهيم بسبب كفائته الزائدة - بل بسبب جهالته - بغلق الفوائد والمنافع أمام أركان الدولة ، فلاعجب أن أغوت تلك الجماعة أحد الأشقياء ، فتحين الفرصة وقتل الأمير إبراهيم بضربة سهم ، ومرة أخرى تولى مولانا شمس الدين صابن وسيد غياث الدين منصب الوزارة ، ونظراً لكثرة المنازعات التى كانت تقع دائماً بين الوزيرين ، وضيق الشيخ بذلك ، بعث بمولانا شمس الدين إلى ولاية هرمز بحجة جمع أموال تلك الولاية ، ولكنه بعد أن أشعل نيران الظلم والاستبداد فى جميع أطراف تلك الديار ، توجه إلى منطقة كرمان الحادثة مصطحباً معه الآلاف من الرجال الأفغانيين والجرمان ، وكان كلما طلب حاجة من الأمير مبارز الدين محمد ، يحققها له مادامت من أجل صالح ولايته ، وخلال تلك الأوقات أرسل حميد الملك - ابن مولانا شمس الدين صابن - رسائل إلى والده يقول فيها إن سيد غياث الدين فى غاية من الرفعة والسعادة والانفراد بالإدارة ، وليس فى مصلحته عودتك إلى شیراز وعليك أن تعمل من أجل تسخير كرمان ، وبهذه الوسيلة تتفوق على عدوك ! » :

فاغتر مولانا شمس الدين بهذه الأقوال ، وقاد ألف فارس من الخدم الخصوصيين للأمير الشيخ أبى إسحق وألفين من المغول والأفغان والجرمان وعدداً كبيراً من

الأوباش الموجودين في كل مكان ، وتوجه بهم إلى كرمان ، ولم يطق الأمير محمد مظفر سماع هذا الخبر ، ونهض للقاء العدو رغم الآلام التي كان يعاني منها في قدمه - [٢٤٤] على رأس ألف وخمسمائة من الرجال المجهزين للقتال ، فلما التقى الجمعان ، فر مولانا شمس الدين في بداية المعركة يجر أذيال الهزيمة ، وتم أسر عدد كبير من قادة جيشه ، وبعث الأمير محمد مظفر بجماعة تعقبت مولانا شمس الدين ، وقد حلت بمولانا لعنة الكفر بالنعمة حيث أمسكت به تلك الجماعة وقدمته للأهـير محمد مظفر فأمر بقتله على الفور .

(بيت ، ترجمته) :

- من عنده الشجاعة على الكفر بالنعمة
- هو من لم يكب جواده بعد

والإنسان العاقل هو الذي يعمل بمقتضى نص الآية الكريمة « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد (١) » ، ويفكر دائماً في نتيجة الكفر بالنعمة ، ويكون مخلصاً وشاكراً باستمرار لأصحاب الفضل عليه ، وألا يبدل الإخلاص بالعصيان من أجل تحقيق منفعة في الدنيا حتى لا يلام ، ويعاتب في الدنيا ، ويعذب ويعاقب في الآخرة .

(بيت ، ترجمته) :

- لو تمرد على ولي نعمتك
- فموتك تسقط حتى لو كنت سماء !

الوزير سيد غياث الدين على اليزدى :

وقد استقل بتدبير شئون الوزارة بعد قتل مولانا شمس الدين صابن ، ولكنه في ذلك الوقت كانت [٢٤٥] دولة الشيخ أبي إسحق قد قاربت حد الزوال ، وتم أسر غياث الدين على يد الأمير محمد مظفر ، ثم استشهد بعد ذلك في يوم الأربعاء الأخير من جمادى الأولى عام ٧٥٨ هـ

(١) سورة إبراهيم ، آية « ٧ »

وزراء آل مظفر

كان أول شخص حظى من آل المظفر بالانتصار والإقبال وتولى عرش السلطنة هو الأمير مبارز الدين محمد ، وكانوا يسمون جده الأكبر - وكان من ولاية خواف - غياث الدين حاجي الخراساني ، وقد توجه غياث الدين حاجي مع أبنائه الثلاثة أبي بكر ومحمد ومنصور أثناء هجوم جيش جنگيز خان - من خراسان إلى يزد ، وظل يعيش في تلك الولاية إلى أن توفي ، ولم يبق أحد من نسل أبي بكر ومحمد ، ولكن منصور له ثلاثة أبناء هم الأمير محمد والأمير علي والأمير مظفر ، ورغم أن الأمير مظفر كان أصغرهم سنًا ، إلا أنه بفضل كياسته وشجاعته ، حاز قصب السبق على أمثاله وأقرانه ، وأصبح في أواخر عام ٩٦٤ هـ موضع اهتمام ملك الإسلام السلطان محمود غازان ، ورفعته إلى درجة الإمارة وأنعم عليه بطبل وعلم فاخرين ، ولما توفي الأمير غازان خان اهتم السلطان محمد خواينده - أكثر من أخيه - برعاية الأمير مظفر ، وعندما توفي الأمير مظفر ، صار ابنه الأكبر محمد موضع عناية ورعاية السلطان أبي سعيد بهادر خان ، وبعد موت السلطان العظيم ، تمكن الأمير محمد من تسخير ولايتي فارس والعراق واستقل بحكمهما ، وقد وصل إلى مرتبة السلطنة سبعة أشخاص من أسرة الأمير مظفر :

[٢٤٦] ١ - الأمير مبارز الدين محمد بن الأمير مظفر

٢ - شاه شجاع بن الأمير محمد

٣ - شاه محمود بن الأمير محمد

٤ - شاه يحيى بن شاه مظفر بن الأمير محمد

٥ - السلطان عماد الدين أحمد بن الأمير محمد

٦ - السلطان زين العابدين بن شاه شجاع

٧ - شاه منصور بن شاه مظفر بن الأمير محمد

ولكن دولتهم لم تدم أكثر من خمسة وأربعين عاماً ، وفيما يلي ما تيسر لي جمعه عن أحوال وزراء آل مظفر :

الوزير تاج الدين العراقي :

كان تاج الدين من أعيان ولاية كرمان ، وكان من الذين لا يستغنى عنهم - لصواب رأيه وحسن تدبيره - الصغير ولا الكبير ، وفي الوقت الذي تمرد فيه الملك قطب الدين على الأمير مبارز الدين محمد مظفر ، وتحصن في بلدة كرمان ، وتوجه الأمير مبارز إلى تلك المدينة وحاصرها ، تمكن تاج الدين من تخليص نفسه من الحصار ، وتوجه إلى الأمير محمد ، مقدماً له فروض الطاعة والولاء فاهتم به الأمير محمد وقربه إليه وأسند إليه منصب الوزارة ، وفي الوقت الذي استقل فيه مولانا شمس الدين صاين القاضي بالتصرف في دولة الأمير محمد ، ضعفت مكانة الوزير تاج الدين ، وكما ذكرنا من قبل قام تاج الدين بإغواء مولانا شمس الدين [٢٤٧] حيث توجه برسالة إلى شيراز ، ولما نقض مولانا العهد ، وانشغل بوزارة الشيخ أبي إسحق ، وثبت للأمير محمد مظفر بأن ذهابه كان باغواء من الوزير تاج الدين ، أمر الأمير بإعدام تاج الدين فارتجل تاج الدين هذا البيت :

(بيت ، ترجمته)

بحلمك ولطفك اصفح عن تاج العراقي

، حتى يسموك الملك الواهب للتاج !!

فصفح الأمير مبارز الدين محمد عن الوزير تاج وتولى تاج الدين الوزارة مرة أخرى لفترة من الوقت ، ولكنه استشهد في النهاية بأمر الأمير محمد

الوزير برهان الدين :

كان برهان الدين وزيراً صائب التدبير صافي الضمير ، وكان يتولى شئون الوزارة أثناء حكم الأمير محمد مظفر ، وفي الوقت الذي هزم فيه الأمير مبارز الدين من

الأفغان والجرمان وعاد إلى كرمان ، وقام برهان الدين بتجهيز الكثير من الجبال
والبغال والأواني والذهب والفضة - من مملكاته الخاصة - وأهداها إلى الأمير
مبارز الدين ، فوقع هذا التصرف موقعاً حسناً في نفس الأمير ، وأعلى من مكانة
برهان الدين وقرر أن تظل الوزارة له مدى الحياة .

الوزير قوام الدين محمد صاحب عياد :

لما تولى ملك العالم المطاع جلال الدين شاه شجاع السلطنة ، أسند منصب
الوزارة إلى قوام الدين ، وخلال فترة [٢٤٨] قصيرة علا شأن قوام في إدارة الوزارة
إلى درجة أنه لم يعد هناك لأى واحد قط من أمراء الدولة وأركانها تدخل في أمور
السلطنة ، بل إن الوزير نفذ بعض الأمور على غير رغبة من الشاه شجاع أيضاً .
وعندئذ انتهزت جماعة من أعدائه الفرصة وقالوا للشاه شجاع : « إن الوزير يزور
بعض الأمور ، وينتوى ثمة الغدر » ، وبعد الفحص والتدقيق اتضح للسلطان
صدق تلك الجماعة في قولها ، فعنف الوزير وسجنه في ذى القعدة عام ٧٦٤ هـ
ثم مزقه رجاله قطعاً قطعاً بعد ضربه وتعذيبه ، وبغثوا بكل قطعة من جسده إلى
ولاية من الولايات .

(قطعة ، لرجلها)

— كل من يزيد أن يقف في وجه السلاطين

— فإنه لن يستطيع — كالشمعة — الثبات أمامهم

— ومن الأدب إذا ما وضعوا السلطة في يديه

— ألا يفكر قط في خيانتهم

— وقل له — حيناً تغلو مكانته عندهم — لا تفتر

— فلربما يسحبونها منه في لحظة

الوزير الأمير كمال الدين حسين الرشيدى :

تولى كمال الدين الوزارة بعد مقتل الوزير قوام الدين ، ثم عزل بعد فترة
قصيرة من مباشرته ذلك العمل ، وهرب من شيراز إلى أصفهان والتحق بخدمة
الشاه محمد ، ثم التحق مرة أخرى بخدمة الشاه شجاع بعد وفاة الشاه محمود .

[٢٤٩] الوزير جلال الدين تورانشاه :

كان تورانشاه في بداية أمره يتولى حكم ولاية « أبرقوه » بناء على أوامر الشاه شجاع ، وفي الوقت الذي ذهب فيه ذلك السلطان من شیراز إلى أبرقوه - بسبب استيلاء الشاه محمود على شیراز - قام تورانشاه بخدمته كأحسن ما تكون الخدمة ، وأرسل القواعد المثينة للدولة ، وأدار الأمور في الولاية إدارة حكيمة ، ولذلك عمل الشاه على إعلاء منزلة تورانشاه وأنعم عليه بمنصب الوزارة ، وقد ظل الوزير تورانشاه - واحداً من الوزراء العظام طوال حياة ذلك الملك العظيم ، كما تولى الوزارة لبضعة أيام أيضاً في عصر السلطان زين العابدين :

الوزير قطب الدين سليمانشاه بن خواجه محمود كمال :

في الوقت الذي انتزع فيه الشاه شجاع شیراز - عاصمة ملكه - من أخيه الشاه محمود ، وتمكن من اعتلاء عرش السلطنة مرة أخرى ، وأنعم بمنصب الوزارة على قطب الدين سليمانشاه ، وبعد أن مرت بضعة أشهر على هذا الحال - بسبب جريمة ارتكبتها ابنته غياث الدين محمود - سمل الشاه شجاع عيني غياث الدين محمود وسجن والده ، ولكن الوزير قطب الدين سليمانشاه هرب من سجنه وتوجه إلى أصفهان ، فأسند إليه الشاه محمود منصب الوزارة له رغباً عن أخيه .

[٢٥٠] الوزير شاه ركن الدين حسن بن معين الدين اشرف :

لقد جمع الوزير ركن الدين بين شرف النسب وكمال الحسب ، ولكن صفات الغرور والتكبر والظلم والتعجب كانت متأصلة في نفسه ، فلم يكن يبدي أى احترام لأى واحد من الأشراف والأعيان ، بل لأى من سلاطين العالم ، وقد احتضن الشاه شجاع شاه ركن الدين حسن - بعد حبس الوزير قطب الدين سليمانشاه - شمله بفضله وإحسانه ، وجعله وزيراً له ، وبعد أن بدأ ذلك الوزير في إدارة مهام هذا المنصب لبضعة أيام ، وبسبب خوف استشرعه من الوزير جلال الدين تورانشاه وخواجه همام الدين محمود ، كتب رسالة وقدمها للشاه شجاع على أن المشار إليهما كانا قد كتبها للشاه محمود ، ومضمون هذه الرسالة هو : « حينما فصل أعلام الملك المنتصرة إلى شیراز ، فسوف نفتتح نحن عبيدك أبوابها أمامكم ، ونجمع الأنصار لاستقبالكم » وكانا قد التسانم أن يكتب على ظهر هذه الرسالة ، فكتب الشاه

محمود على ظهرها ما يلي : « سوف يصل موكب الملك إلى شیراز في اليوم الثلاثاء وعسى أن يسعد أهل شیراز بمجيئنا ، ويوفوا بالعهد الذي كانوا قد قطعوه لنا ويتخذوا اللازم نحونا » . وعلى الفور استدعى الشاه شجاع الوزير تورانشاه وخواجه همام الدين وسألهما عن حقيقة الرسالة ، فأخى الاثنان البريثان أمامه وأسيهما وأقسماه قائلين : والله لا علم لنا بهذه الرسالة فسألهما الشاه شجاع بقوله : هل هذه الرسالة كتبت بخطكما ؟ فأجاباه : كتبت بخط يشبه خطنا إلى حد كبير لدرجة أننا لا نستطيع الإنكار ولكننا لا نعلم شيئاً عن هذه الواقعة « ، فتملك السلطان الغضب وقال لهما إنكما تقرأن هذا هو [٢٥١] خطكما فكيف لا تعرفان الحقيقة ؟ فقالا له : إننا رضىنا بالقتل ولكننا نأمل أن يتحقق السلطان كما يجب من حقيقة هذا الأمر ، وكان الوزير شاه حسن في ذلك اليوم مريضاً في بيته بسبب آلام قدمه ، فبعث الشاه شجاع إليه بشخص سألهم قائلاً : من أين جاءتلك هذه الرسالة ؟ فرد عليه الشاه حسن بقوله : لقد أعطيت مبلغ ألني دينار إلى كاتب الوزير تورانشاه ، وأخذت منه هذه الرسالة ، فاجاموا إليه على الفور بالكاتب وعذبوه ، ولكنهم مهما بالغوا في تعذيبه ، فإنه لم يعترف لهم بشيء ، وأرسل الشاه شجاع مرة أخرى إلى الشاه حسن يقول له : « لقد عذب الكاتب بكل ألوان التعذيب التي يمكن تصورها ولكنه لم يعترف فأجابه الشاه حسن قائلاً : ما ذنب الغلام ! يجب تعذيب السيدين حتى يعترفا بجريرتهما ؟ فقال الشاه شجاع : لا بد أن هناك خدعة في هذا الموضوع فلا يعقل أن يعطى شخصاً رسالة كهذه لغلام يضعها في مكتبه ، وعندئذ أمر بأن يتوجه الأمير اختيار الدين حسن قورجى إلى منزل الوزير شاه ركن الدين حسن ويعرف منه بأسلوب الضغط والتعنيف حقيقة الأمر ، وأخذ الأمير حسن يتشدد مع الوزير شاه حسن ، ولما ضغط الأمير على الوزير اعترف قائلاً : « لقد أغويت الكاتب حاجي عمر فكتب هذه الرسالة مقلداً خطهما لأبني كنت دائماً أشك في هذين الشخصين ، وكنت أتمنى أن يقضى عليهما ليهدأ بالى ، والأمر مفوض للسلطان ! » [٢٥٢] ولما باغت حقيقة مكر الوزير وترويره السلطان ، اشتعلت نيران غضبه وأمر بقتله ومصادرة ممتلكاته :

وجاء في كتاب روضة الصفا أنه حينما سمع سيد معين الدين أشرف والد الشاه

حسن بهذا الخبر ، فإنه لم يحضر الصلاة على جثمان ابنه وقال : « كل شخص لا يسمع كلام والده ، ولا يسلك سلوك جده الأكبر ، فلا بد أن يبتلى بمثل هذه البلايا ! وأى صلة لأهل البيت بالظلم والغدر والفسق لقد بعث جدينا رحمة للعالمين ، والابن الذى يكون صيباً فى إبداء الناس ، لابد أن يكون مصيره العقاب فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة كما يقول الشاعر :

(بيت ، ترجمته) :

— الابن الذى لا يسمع نصيحة والده

— سمه غريباً ولا تسمه ابناً

الوزير صدر الدين محمد أنارى :

وكان وزيراً للشاه محمود ، ولكنه نظراً لما كان يكتنه من حب أكثر للشاه شجاع ، فقد قلل مؤن جيش الشاه محمود عندما توجه الشاه شجاع للاستيلاء على إصفهان وبلغ هذا الخبر الشاه محمود ، فأثرت تلك الخيانة فى نفسه وقام بعزل صدر الدين .

الوزير تاج الدين مشيرى :

[٢٥٣] كان مشيرى ماكرآ كثير التزوير ، وقد ظل يعمل فترة طويلة وزيراً ونائباً للشاه محمود ، ومن الثابت أنه فى عام ٧٧٠ هـ فكر الشاه شجاع فى مضاهرة السلطان أويس — وكان حاكماً على آذربايجان وبغداد — وأوكل تنفيذ ذلك الأمر للأمير اختيار الدين حسن قورجى وكان يمتاز على جميع أفراد الدولة باللباقة وحسن التصرف ، وبناء على هذا توجه الأمير إلى تبريز ، ولما بلغ هذا الخبر الشاه محمود فكر هو أيضاً فى مضاهرة السلطان أويس ، وقرر أن يتولى تنفيذ هذا الأمر وزيره تاج الدين ، فقال له تاج الدين :

« لو أن الملك يتواضع فى مخاطبته أيضاً للسلطان أويس ويتبعه عن أسلوب التكبر والعظمة ، فلنأتى أتعهد بالألا أترك للأمير اختيار الدين حسن الفرصة للحصول على العروس المطلوبة ، وآتى أنا بابنة السلطان أويس من آذربايجان إلى أصفهان عروساً للملك ! » فأكد الشاه محمد بأنه سوف يوقع على أية رسالة يكتبها الوزير

تاج الدين ، ولن يعدل مطلقاً فيما سوف يكتبه حول ذلك الموضوع ، وحينئذ كتب الوزير رسالة على لسان الملك مصلرة بهذه العبارة « انعبد فما في يده كان لمولاه »

وما نحن فيه من خيرك ، وكل ما نملكه ملكك ، وهكذا في كل موضع من رسالة الشاه محمود تعبيراً ينم عن الطاعة والولاء والتواضع وضمناً عبارات مناسبة ، كما خله معه ألوان التحف والهدايا ، واتخذ سبيله لأداء هذه المهمة وبعد وصوله إلى بلاط السلطان أويس ، قدم الرسالة بعبارات لاثقة ، وبطريقة مهذبة ، وأثر في [٢٥٤] أمراء الدولة وأعيانها بقوله : « إن هدف الشاه شجاع من هذه الزيجة هو التدخل في شئون ولاية أذربايجان والسيطرة عليها بأسرع ما يمكن وأما هدف الشاه محمود فهو أن يظل طيلة عمره محتفظاً بولائه وإخلاصه للسلطان ، ويعمل بمساعدته على السيطرة على ولاية فارس وإدخالها في حوزة الديوان الأعلى » وظل تاج الدين يلازم الأمراء دائماً والقريبين إليهم بعود جذابة ، ولكن الأمير اختيار الدين حسن - لأصالة منية ، واعتداده بنفسه - لم يكن يخلط بالأمراء إلا قليلاً كما كان الشاه شجاع قد بدأ رسالته أيضاً التي كتبها للسلطان أويس بقوله : « مني إلى أخى » : « وقد حال الجميع في بلاط السلطان أويس إلى كلام الوزير تاج الدين والرغبة في مصاهرة الشاه محمود ، فحينئذ تشاور السلطان أويس مع الأمراء والأعيان في هذا الموضوع وقالوا له تجميعين : « رغم أن الشاه شجاع يتفوق على الشاه محمود في القوة والهيبة واتساع الدولة ، إلا أن الشاه محمود - لتواضعه وولائه ولجأورة ولايته لأذربايجان - يكون الارتباط معه أفضل ! » وحازت هذه الكلمات القبول في نفس السلطان ، ورحب بالوزير تاج الدين وأحسن استقباله ورعايته ، وعاتب السلطان أويس الأمير اختيار الدين حسن وقال له : لقد استهل الشاه شجاع رسالته بقوله « مني إلى أخى » ، فلو أنه تواضع في رسالته لما نقص شيء من سلطته ، وأنا الآن لن أزوج ابنتي لأخى ، وسأزوجها لغلاي وتابعى » فلا عجب أن عاد الأمير اختيار الدين بعد ذلك يائساً ، وتمكن الوزير تاج الدين بحسن تدبيره - من [٢٥٥] العقد على ابنة السلطان أويس زوجاً للشاه محمود ، وعاد إلى إصفهان مقضى المرام ، وقد نظم الشاعر سلمان الساوجي هذه الأشعار في تلك المناسبة :

(سبعة أبيات ، ترجمتها) :

- لقد أقامت السماء عرساً في الآفاق
- وأى عرس هذا الذى سعدت به أطراف الممالك
- حبذا العرس والسرور الذى لو نظرتَه
- وجدت هالة كوكب الزهرة برجاً من ذلك العرس العالى
- وهكذا شاء القدر أن يلتقى القمر بالشمس
- ويفصل الملاك بالخور
- فكأنما أعاد الزمن نفسه ولعل عرش بلقيس
- إلى قصر الملك !
- قطب الدين شاء محمود الرفيع المكانة كالملاك
- الذى هو حصيلة السيرة المحمودة والمحامد المذكورة
- ولقد بذل الوزير تاج الحق والدين محمد
- مساعى كثيرة فى هذا الموضوع يحمد عليه
- حيث أتى إليك بجمهرة من بحر العظمة
- لا يمكن العثور على مثلها على مر الدهور والأيام ؟
- وإخلاصة أن الشاه محمود قد جعل الوزير تاج الدين موضع عنايته وإهتمامه
- أكثر من ذى قبل السبب هذه [٥٢٦] الخدمة الجليلة وأعلى مكانته إلى عذان السماء
- وفى عام ٧٧٦ هـ توفى الشاه محمود ، وبوفاته انتهت وزارة تاج الدين : وحقاً
- فلا بد لكل بداية من نهاية ، ولكل عرس من مآتم ؟

وزراء سلاطين المغول

أنه لمن الثابت عند كبار المؤرخين أن نسب السلطان الفاتح جنكيز خان يتصل
بـ يافث - أكبر أبناء سيدنا نوح عليه السلام - ومنذ وفاة يافث إلى يومنا هذا وحكم
ديار المشرق وتركستان يرتبط بتلك الأسرة العظيمة، وفي عصر منغوكا آن بن
تولى خان بن جنكيز خان عبر هولاكو نهر جيحون في شهر ذى الحجة عام
٦٥٢ هـ ، وسبطر في أقصر وقت على ولايات خراسان وسيستان ومازندران
وشروان وأران وفارس وأذربيجان والعراق العربي والعجمى وبلاذ الروم، وقد
تولى الحكم في تلك الدولة ستة عشر شخصاً من أسرة تولى خان أسماؤهم كما يلي :

- ١ - هولاكوخان بن تولى خان
- ٢ - أباقا خان بن هولاكوخان
- ٣ - السلطان أحمد بن هولاكوخان
- ٤ - أرغون خان بن أباقا خان
- ٥ - كيخاتوخان بن أباقا خان
- ٦ - بايدوخان بن طرغاي بن هولاكوخان
- ٧ - السلطان محمود غازان بن أرغون خان
- ٨ - الجايو سلطان بن أرغون خان
- ٩ - [٢٥٧] السلطان أبو سعيد بن محمد خان بن الجايو سلطان

- ١٠ - أربا خان الذي كان من نسل أريق بوكا بن تولى خان
 ١١ - موسى خان بن علي بن بايدو خان
 ١٢ - محمد خان بن يولقتق بن التيمور بن أنبارجى بن منكوتيمور
 ابن هولاكو خان
 ١٣ - طغا تيمور خان
 ١٤ - ساقى بيك بنت السلطان محمد خداينده :
 ١٥ - سليمان خان الذي كان من أولاد يشمت بن هولاكو خان
 ١٦ - أنوشيروان خان
 وفيما يلي ما تيسر للعبد الفقير - كاتب هذه السطور - الإلمام به من أخبار
 وزراء السلطان جنكيز خان فاتح العالم وخلفائه الأجداد .

الوزير صاحب محمود بلواج :

كان صاحب خوارزمى الأصل ، ثم رحل عن وطنه الأصلي في عصر السلطان
 محمد خوارزم شاه والتحق بخدمة جنكيز خان ، وبعد فترة من الوقت توجه بناء على
 أوامر جنكيز خان - بصحبة جماعة من رجال البلاط حاملا رسالة إلى السلطان محمد
 لتمهيد طريق الصالح معه ، فقدم الرسالة للسلطان بأطيب الكلمات ، وخص السلطان
 الرسل بترحيب بالغ ثم طلب صاحب محمود واختلى به وقال له : إنك رجل مسلم
 ويلزم أن تجيئني بصدق وإخلاص عما سوف أسألك عنه ولا تخف منه شيئا ؟
 [٢٥٨] حينئذ أخرج من الخزانة جوهرة ثمينة وقدمها لمحمود ثم سأله قائلا :
 هل استولى سلطانكم على بلاد الخطا أم لا ؟ فأجابه محمود بقوله : بعزة الله سبحانه
 وتعالى - استولى جنكيز خان على بلاد الخطا ، وسوف يظهر قريبا جذاً لجلالتكم صدق
 حديثي « كالبدر في الدجى والشمس في الضحى » فقال له السلطان : يا محمود
 « إنك تعلم إلى أى مدى وصلت حدود دولتي ، وإلى أى درجة بلغت قوتي
 وسطوتي ، فمن يكون سلطانك هذا الذى يكتب إلى بقوله « يا بنى » ويتحدث إلى
 من مركز الأقوى ! وضع لي مقدار جيشه وعتاده ؟ فخاف محمود بلواج بسماع
 هذا الكلام ، ورد على السلطان ببعض الكلمات الملفقة الكاذبة حيث قال له : إن

جنود جنكيز خان بالنسبة لجنود سلطان العالم - التي لاحصر لها - مثل ضوء الشبعة أمام ضوء الشمس التي تنير العالم ، ومثل ظلام الليل أمام نور النهار .
(أربعة أبيات ، ترجمتها) :

- إنك مثل الشمس ، حينما تبرز
- تختفي النجوم خلف الحجاب
- ومثل الأسد ، حينما يهجم للصيد
- يقتنص قريسته أينما كانت
- وهو مثل العصفورة ، يتقاتل مع
- الصقر فيجلب على نفسه الهلاك
- ومثل الحمامة ، تحاول التصدي
- للعقاب الكاسر فيلتهما بسرعة

فهذا غضب السلطان بقوله هذه الكلمات ، وبذلك أمن محمود بلواج بطشه وغضبه ، وتم إبرام [٢٥٩] عقود الصلح والاتفاق بين الجانبين ، وعاد محمود بلواج محققاً هدفه هو وباقى الرسل ، فجعل جنكيز خان محموداً موضع عنايته واهتمامه ، وأسند إليه منصب الوزارة . وبعد وفاة جنكيز خان أسند أوكتاي قاآن أيضاً ذلك المنصب للصاحب . وجاء في روضة الصفا ما يأتي : حينما تيسر لأوكتاي قاآن فتح ولاية خطا ، أسند إلى الصاحب محمود حكم تلك الولاية ، وبعد وفاة قاآن ، بادر كيوك خان بالتصديق على أمر والده العظيم كما كلف أيضاً منقوفاآن - حسب الأوامر السابقة - الصاحب بحكم تلك المدينة ، وظل الصاحب يدير دفة الحكم في تلك الولاية إلى أن رحل إلى العالم الآخر .

التوزير مسعود بيك بن محمود بلواج :

كان مسعود بيك يتولى الحكم في ولايتي مازندران والنهر وتوكرمتان ، ولما استولى المغول على جغتاي خان - على هاتين الولايتين - أسند من قبل الوزارة إلى مسعود بيك ، فنشر مسعود بيك العدل والطمأنينة ، وبذلك جهزاً آمناً أجل راحة الرعية وإقامة المبادئ وزيادة الرقعة الزراعية .

بيت ، (وترجمته) :

— لقد كافح كثيراً في سبيل العدل والإحسان

— ولم يشك منه أحد في البلاد

وفي عام ٦٦٠ هـ أوفد براق خان الأمير مسعود بيك رسولا إلى أبا قاخان حتى يؤكد له إخلاصه واتحاده معه [٢٦٠] في الظاهر ولكن الهدف الحقيقي من إرساله هو جنوده والإطلاع على مسالك تلك الولايات

وقد عبر مسعود بيك نهر آمو بعزم قاطع ، وقلب جريئ قوى ، وطوى المنازل والديار بأسرع ما يمكن ، وترك في كل منزل من المنازل — من قبيل الخزم والاحتياط — حارساً وجوادين سريعين ، ولما اقترب من الوصول إلى المكان المقصود سارع الوزير شمس الدين محمد — رئيس ديوان أبا قاخان — بصحبة الأمراء والنواب لاستقباله ، وعند ملاقاته هبط الوزير من على ظهر جواده — برغم تكبره — وقدم له واجبات التحية والاحترام ، أما مسعود فقد ظل راكباً كما هو وتجاهل تحية رئيس الديوان وقال له على سبيل الاستهزاء : هل أنت رئيس الديوان ؟ فتألم الوزير شمس الدين كثيراً من هذا المسلك لأنه كان يظنه أنه سيكون واحداً من رجاله الأكفاء ، ولكنه نظراً لأن المجال لا يسمح بالأخذ والرد ، فقد أثر السكوت : وعندما دخل مسعود بيك مجلس السلطان أبا قاخان ، نظر إليه السلطان بعين الاهتمام ، وأجلسه في مكان مقدم على جميع الأمراء ، وقدم مسعود الرسالة للسلطان بعبارة طيبة وبطريقة محببة ، فحظى بمزيد من العناية السلطانية ، ونظراً لأن مهمته كانت قائمة على المكر والخديعة ، فإنه لاحظ بعد مرور بضعة أيام أثر مكره السيئ ، فسارع بطلب الإذن له بالعودة ، فأذن له أبا قاخان ، وامتنى مسعود بيك على الفور ظهر جواده الذي هو كالبرق في سرعته ، ولم يتوقف — كفلك الأفلاك عن المسير [٢٦١] لحظة واحدة ، وفي اليوم التالي جاء خبر من خراسان يفيد بأن براقا يجهز نفسه للحرب والقتال ، وكانت مهمة مسعود بيك بقصد التجسس ، فلا جرم أن أرسل أبا قاخان — على وجه السرعة رسولا للحاق به وإحضاره ، وهيئات أن يجده أحد : فكان مسعود بيك قد ركب الجياد المجهزة الواقعة في كل منزل يصل إليه لأنه كان رجلاً عاقلاً مدبراً ، لم يعط فرصة للتأني أو التأخر وسار بسرعة

يعجز عن مثلها الفلك . وقد وصل مسعود إلى شاطئ نهر جيحون - على قول صاحب تاريخ الوصاف - في ظرف أربعة أيام ، ولما عبره كالريح ووصل إلى براق عرض عليه كل ما كان قد رآه ، فقرر براق فتح خراسان والعراق وأمر بتخريب ونهب بخارى وسمرقند لتدبير لوازم الجنود وضروريات السفر ، فقال له الوزير مسعود بيلك : « إن تخريب ولاية تابعة للسلطان من أجل فتح ولايات أخرى ، إنما هو أمر بعيد عن مقتضى العقل والكياسة فالواجب رعايتها حتى إذا - لا قدر الله - حدثت هزيمة ، أمكن لرعاياها ترتيب استقبال الجنود وخدمتهم ! »

(بيت ، ترجمته) :

- اسع كى تستطيع تحقيق كل ما تتمناه

- وعليك أن تعمل على تحسين أحوال الرعية

فغضب براق من هذا الكلام وأمر رجاله بأن يضربوا مسعوداً سبع ضربات بالعصا ، ولكنه صرف النظر عن نية النهب والسلب ، وبعد أن دارت الحرب بين آباقا خان وبراق وهزم فيها براق ، تركه [٢٦٢] مسعود بيلك وانضم إلى قيدوخان ، وفي النهاية مثل براق أمام قيدوخان فقتله ، وحينئذ نشب خلاف بين قيدوخان وأبناء براق ، ولهذا السبب أعملوا التخريب في بلاد ماوراء النهر وخصوصاً بخارى ، وبلغت هذه الأخبار إلى آباقاخان ، وقام شمس الدين محمد رئيس الديوان - لما كان في نفسه من حقد على مسعود بيلك - بتحريض السلطان على إرسال جيش قوى بقيادة « أفسك التركمانى » إلى ماوراء النهر ، فعبأ أفسك بجيشه من نهر آمويه ، وأعمل الحرائق والظلم في ولاية بخارى ، وأحرق مدرسة مسعود بيلك - وكانت أكبر بقاع بخارى - بمكتبتها النفسية ، ولما عاد هؤلاء الجنود ، فظهر أناس في تلك البلاد وبدعوا أعمال الزراعة والتعمير وظهر لهم - مرة أخرى - أولاد براق وأكثروا جراح هؤلاء المساكين ، وبلغ تخريبهم في تلك الولاية - هذه المرة إلى درجة أنه لم يظهر أثر بعد ذلك لساكن أو حتى في تلك البلاد لمدة سبع سنوات ، وفي ذلك الوقت أرسل قيدوخان مسعود بيلك إلى بخارى لتعميرها ، فقام بتجميع رعاياها المشتتين - بفضل كفاءته وخبرته وصارت بخارى - بعدله وإنصافه - مجمعا للأشراف والعلماء مرة أخرى ،

(بيت ، ترجمته) :

— لقد هرع الناس إلى ذلك الحاكم
حيث وجدوا عنده الأمان من الظلم
وهكذا ظل مسعود بيك معزراً دائماً عند سلاطين ما وراء النهر إلى أن انتقل
إلى بجوار ربه .

[٢٦٣] : توذير الأمير أحمد البناكتي : (١)

كان أحمد البناكتي وزيراً لقبولا قآن بن تولى خان بن هولاكو خان (٢) ،
وكان يبدى اهتماماً كبيراً بتقوية المسلمين ، ورعاية شئون أمة خير الأنام — عليه
الصلاة والسلام — وقد جاء في كتاب روضة الصفا ما يلي : لقد وضع قوبلا قآن
زمام أمور الوزارة في قبضة أربعة أشخاص أكفاء ، لم يكن أى منهم يتفق مع آخر
في المذهب ، حتى لا يتم الاتفاق فيما بينهم — بسبب اختلاف — العقيدة ويكون
في ذلك ضمان لصون أموال الدولة وحراستها من الخيانة ، وكان من بين الوزراء
الأربعة الأمير أحمد البناكتي وآخر من أهل خطا . ونظراً لامتياز الأمير أحمد
وتفوقه على سائر الوزراء ، كان القآن ينظر إليه نظرة إعزاز وتقدير ولم يكن
يتجاوز حدود رأيه الصائب في الفصل من أمور الدولة ، فحقد عليه الوزير
الخطائي ، وأخذ يتحين الفرصة للعمل على عزاه ، وفي الوقت الذي ذهب فيه قآن
من عاصمة ملكه إلى المصيف وترك الوزراء يدبرون أمور الدولة في العاصمة
اتفق الوزير الخطائي مع أتباعه على القضاء على الأمير أحمد في الخفاء ، وعام رجال
الأمير أحمد بحقيقة الأمر ، وأخبروه بذلك ، فأخذ الأمير أحمد في نفس الليلة
أربعين جواداً — أسرع من الريح — من اسطبل قآن ، وخرج بها من المدينة ،
وحيثما وصل إلى مكان يقف عنده خراس الطريق — وكان لا بد من عبور أحد
البحسور متعوه من العبور ، وأخذوا يتحاربون معه ، وأثناء هذا الجدل
كان الوزير الخطائي يجري في أثر الأمير أحمد ، فلحق به وأمسك بعنان جواده
[٢٦٤] وقال له : لقد تركنا قآن لإدارة شئون الديوان ، وأنت الآن إلى أين

(١) نسبة إلى بناكت أو فناكت وهي إحدى مدن ما وراء النهر .

(٢) هذا الاسم خطأ والصواب جنكيز خان .

تذهب دون أخذ المشورة ؟ فأجابه الأمير أحمد بقوله : إني ذاهب للملاقاة قآن بناء على طلبه ! وفي تلك الأثناء كانت هناك جماعة من رجال قآن قادمة من المعسكر إلى المدينة ، ووصلت إلى نفس الجسر ، فاستغاث بهم الأمير أحمد ، وخلصته تلك الجماعة من مخاب الوزير الخطائي ، وتوجه الوزير أحمد مسرعاً إلى معسكر السلطان ، وكان معه طبق أسود مليء باللؤلؤ الأبيض ، وضع فوقه خنجرأ وغطاه بالحرير الأحمر وقدمه للسلطان العادل ، فسأله قآن بقوله : ما السبب في ترتيب هذا ؟ فأجاب قائلاً : عندما التحقت بخدمة قآن كانت لحيتي سوداء مثل هذا الطبق ، ومكثت في خدمته حتى صارت بيضاء مثل هذا اللؤلؤ ، والآن يريد الوزير الخطائي بهذا الخنجر أن يجعل حليتي مثل هذا الحرير الأحمر ، فاشتد غضب قآن بسماع هذه الأقوال وأمر باستدعاء الوزير الخطائي - وكان الرسل قد أخبروا الوزير الخطائي بما حدث قبل مجيئه - فلجأ إلى قلعة كانت تحت سيطرة نواب أمير أطور الصين فاستبشر أهالي القلعة بمقدمه وتقووا بوصوله . فأمر قآن أن تقوم جماعة من الأمراء بمحاصرة تلك القلعة ومعهم طالب المنجنيق - الذي جاء في ذلك الوقت من بعلبك وكان صاحب مهارة فائقة في ذلك الفن - وتوجه الأمراء حسب أوامر السلطان إلى ذلك الحصن الحصين ، وأقاموا استحكاماتهم حوله ، وبعث الوزير الخطائي - سرا - برسالة إلى الأمراء يقول فيها : « إني لم أرتكب ذنباً جسيماً . وكل ما هناك أنه نظراً للعداوة التي غالباً ما تكون بين أصحاب المناصب ، كنت أنا والأمير [٢٦٥] أحد يحاول كل منا دائماً الإيقاع بالآخر ، وقد واثته الفرصة وجعل السلطان قآن يتغير من ناحيتي والآن لو يضمن لي الأمان ، فأنني يمكنني تسليمه هذه القلعة التي يتحصن بها جماعة من أهل الصين » وبعث الأمراء برسائله على الفور إلى قآن ، فبعث قآن برسالة أمان وسيف إلى الوزير الخطائي ، فاطمأن الوزير وتحين الفرصة ، وفتح ثغرة في حائط سور القلعة ، ولما علم حاكم القلعة بهذه المكيدة ولى هارباً يجر أذيال الهزيمة ، ودخلت تلك القلعة في حوزة رجال قآن ، ولما وصل الوزير الخطائي إلى السلطان ، أسند إليه السلطان مرة أخرى منصب الوزير بالاشتراك مع الأمير أحمد . وبعد مرور تسع سنوات على هذه الحال ، اشتعلت نيران حسد الوزير مرة أخرى واتفق مع أحمد مترهدي الخطأ على قتل الأمير أحمد وانبت حياته هو أيضاً في تلك الواقعة .

(بيت ، ترجمته)

— يقبض الشر والأذى دائماً — فى نفس الشرير

— مثل العقرب قلما يشاركها أحد فى بيئها

وتفصيل هذا الخجل هو أنه فى ذلك الوقت كان قد ظهر مارق فى ولاية
خطا ، صير — بأساليب المكر والشعوذة — جمعاً غفيراً من أهالى تلك الولاية
مريدين وأتباعا له ، واتفق معه الوزير الخطائى على القضاء على الأمير أحمد وتقرر —
فى الوقت الذى كان فيه قآن فى المصيف — أن يذهب ألفا شخص من أتباع ذلك
المتزهد إلى واد على بعد أربعة فراسخ من مدينة « خان باليق » على أن يدخل ألف
منهم المدينة متابعين [٢٦٦] يصيحون قائلين : « إن الأمير جيمكيم بن قوبلا قآن
لقدام ! » وذلك حتى يخرج الأمير أحمد لاستقباله فيتربصون له فى الطريق .
والقصة أن الوزير الخطائى ذهب مسرعاً إلى ذلك الوادى متخفياً بين هؤلاء
الأئمة جاهل ، وأخذ يرسل بكل جماعة منهم تلو الأخرى ، ليشيعوا خبر وصول
الأمير جيمكيم ، كما قالت جماعة — من أهل النفاق والتزوير — للأمير أحمد — :
إن السلطان قآن قد رحل إلى دنيا الخلود وسوف يصل الأمير جيمكيم ، وقد
بعث بنا إليك لتعد مراسم العزاء على ألا تبوح بهذا السر الخطير أمام أحد » فانشغل
الأمير أحمد بتجهيز ما يحتاجه العزاء ، وكان كلما يبعث بأشخاص ليأتوا إليه
بميعاد جيمكيم حتى ينهض لاستقباله ، كان الخطائيون يقتلونهم ، ولما لبس
الجميع ملابس العزاء وانقضى جزء من الليل ، وأضيئت الشموع والمشاعل ،
ونقل الناس خبر قدوم جيمكيم جالساً فى محفته ، خرج الأمير أحمد لاستقباله ،
وعندما اقترب من الخطائيين ، التفوا حوله ، وقتلوه ، فأطلق خدام الأمير أحمد —
وكانوا يسرون خلفه مسلحين — سهامهم ، فأصاب سهم منها الوزير الخطائى فى
مقتله ففضى عليه هو الآخر .

(بيت ، ترجمته)

— الحقير الذى اللدغ الناس بلسانه

— كثيراً ما يهلك من كثرة اللدغ !

ولما سمع قآن بهذه الحادثة غضب ، وبعث وهو فى المصيف : بجماعة من

رجاله قبضت على [٢٦٧] مؤيدي الوزير الخطائي وقتلهم ، ثم كفنوا جثة الأمير أحمد ودفنوه في مكان مناسب به .

الوزير صاحب السعيد شمس الدين محمد الجويني :

كان من الأبناء العظام لإمام الحرمين حجة الإسلام عبد الملك الجويني ، كما كان يتولى — أبا عن جد — المناصب الرفيعة ، ويتقلد المراتب السامية وقد اشتغل جده الشهير خواجه شمس الدين محمد مستوفياً لديوان السلطان محمد خوارزم شاه ، وبقي له ذلك المنصب أيضاً أيام حكم السلطان جلال الدين ، ونال شهرة فائقة ، كما تولى والده العظيم صاحب دنيا العز والجلال وشمس تمام الفضل والأفضال خواجه بهاء الدين محمد — أسكنه الله سجنانه وتعالى الجنة — نفس منصب والده في بلاط سلاطين المغول ، وتوفي بعد ذلك مشكوراً له أعماله وآثاره ، ولما عبر هولاكو خان نهر جيحون ، ودانت له جميع ولايات إيران حتى حدود مصر ، أسند منصب الوزارة إلى شمس الدين محمد ، والحقيقة أن جمال حال ذلك الوزير كان قد زينه بأخلاقه الكريمة وصفاته الحميدة مثل كرمه الوافر وسخائه ، وفطنته الزائدة وفصاحته ، وإصابة رأيه وتديره وانسراح صدره وانفساح ضميره ، كما كانت له أياد بيضاء في إدارة مهام الوزارة ، وإضفاء طابع الرونق والانتعاش على دار السلطان ، مثل الوزير آصف بن برخيا ، ووضع نصب عينه في عهد هولاكو خان — بداية استيلاء المغول على ولايات إيران — المحافظة على [٢٦٨] الدين المبين والعمل على تقوية شرعة سيد المرسلين

(بيت ، ترجمته) :

— لقد أصبحت الشريعة النبوية

— قوية بفضل سعيك وكفاحك

ولما توفي هولاكو خان ، عتلى العرش الخاني آباقا خان ، فأحاط هذا الوزير العظيم بمن يضمن العناية والرعاية أكثر من ذي قبل — وأنعم عليه بالعبادة والإقبال ، وترك له للانفراد بتدبير أمور الوزارة قدير رأيه الصائب وفكره المستنير . وكان الوزير بالرغم من قوته وهيبته — يتملق أهل العلم والفضيلة ويتواضع معهم كثيراً ،

كما كان يبالغ جداً في احترامهم ، فأينعت براعم خميلة هذه الطائفة بفيضه وإنعامه ،
ونمت وترعرعت أمانتهم ورغباتهم في بستان الدنيا ، وظهرت واتضحت - خلال
وزارته مكانة الفضلاء على الوضعاء ، والعلماء على الجهال ، وبفضل عنايته وحسن
رعايته امتنع الفلك الغادر كلية عن إيذاء الفضلاء ، ومجافاة العلماء .

(بيت ، ترجمته)

- اتمد أينعت بساتين السعادة في
- ، عهده وانتهت المؤامرات والمحن

[٢٦٩] وعين نواباً كافين في جميع أنحاء ولايات دولة المغول لضبط أموال
وممتلكات الديوان ، وأمرهم بفتح أبواب الصدقات والمساعدات ، للمستحقين
وأصحاب الحاجات ، فلا عجب بعد ذلك أن جعله أمراء وحكام العالم وأعيان
خراسان والعراقيين وأهل فارس وأذربيجان وبلاد الروم والشام ملجأ وملاذاً
لهم ، واعتبر الجميع أعتابه السعيدة مقصداً لقضاء الحاجات ، وكعبة لتحقيق
الطلبات ، وملاذاً لذوى الأسرار ، وقبة لكل محتاج .

بيت عربي :

جنابه مثل روضات الجنان ومنه ينال غايات الأمانى
وكل من عصاه من عظماء الدين وساداتها وخرج عن طاعته ، أغرقته قوة
الصاحب في بحار الحيرة ، وأنزل به العقاب جزاء ما فعل .

(بيت ، ترجمته) :

- كل من لا يكون معك مستقيماً كالسهم
- كانت عاقبته الإصابة بسهمك الفتاك

وقد تولى علاء الدين عطا ملك - شقيق الوزير شمس الدين محمد صاحب
وكان فريد عصره في العلم والمعرفة ، ومن مؤلفاته كتاب « تاريخ جهانگشاي »
- الحكم في ولاية بغداد بأمر السلطان آباخان ، وقد غمر تلك البلدة في فترة
قصيرة من الزمن ، وكانت قد خربت بعد قتل المستعصم إلى درجة يصعب على
القلم التعبير عنها .

[٢٧٠] (بيت وترجمته)

— لقد عمرت مدينة بغداد

— بمقدمه خلال فترة قصيرة من الزمن

وأبناء الوزير شمس الدين محمد هما خواجه بهاء الدين محمد وخواجه شرف الدين هارون ، وقد بذلا جهداً كبيراً في بداية حياتهما وعنفوان شبابهما في تحصيل الفضائل والكمالات الإنسانية ، ولكن خواجه شرف الدين هارون تفوق على أخيه وأصبح ماهراً في شتى العلوم . ومتبحراً في معظم الفنون ، وتلقى علومه الموسيقية على يد الأستاذ صفي الدين عبد المؤمن ، وكان الأستاذ لا يفارقه وظل ملازماً له ، وقد ألف « الرسالة الشرفية » في ذلك الفن باسمه الشريف . وأما خواجه بهاء الدين محمد فقد تولى في بداية نشأته الحكيم في إصفهان . ويزد — بأمر السلطان — فتجاوز بطشه وإظهاره لمقدرته وسطوته حدود العقل في بوسون ، وأغلق تماماً أبواب العقول والمعدرة في وجوه أهالي تلك الولاية ، وسلك معهم مسلك الغلظة ، وحطم قلوب المظلومين بتحميلهم مالا يطيقونه ، ولو أن قولاً بسيطاً — لا يؤثر في صغيرة ولا كبيرة — يصل إلى مسامحه ولا يكون على هواه . فإنه كان يدمر الديار ويجعل أموال المسلمين وأرواحهم هباء منثوراً . وحينما كان أركان الدواة ونواب الديوان وسائر أعيان أصفهان يركنون للراحة لحظة من الليل ، فانهم كانوا يهبون مرتعدين خائفين على أرواحهم عند أول نسمة من نسائم السحر مثل أوراق الصفصاف الخائفة من الرياح الصرصر العاتية ، قائلين بينهم وبين أنفسهم : « بأى وسيلة يمكن لنا اليوم النجاة من قهره وجبروته ! ومن هو المسكين — من أهالي هذه [٢٧١] الديار — الذي سيكون عليه الدور ليحرق بنيران غضبه ! » وقد كان الأسد الجسور يلعب — في أيامه — مع الثعلب المسكين خوفاً من عقابه ، كما استقام عتاة أصفهان خوفاً من خنجره الفتاك ، وقالوا عنه :

(رباعى ، ترجمته) :

— كانت الدنيا ترتعد خوفاً من عقابه

— كما كان الزمن يرتعد أيضاً من فرط مهابته

— وكانت الشمس ترتجف من سيفه الفتاك
 — كما ترتجف أوراق الأشجار أمام رياح الخريف العاتية
 وكان صاحب الديوان كثيراً ما ينهى ولده — من قبيل الشفقة الأبوية عليه —
 عن التماذى في سفك الماء، ويوضح له بطرق مختلفة العواقب الوخيمة التى سوف
 تنجم عن تلك التصرفات غير اللائقة، ولكن بهاء الدين لم ينته أبداً ولم يتخلّ مطلقاً
 عن سياسة التدمير وسفك الدماء :

(مصراع ، ترجمته) :

— « دعاء الأب لا يمنع تمزق الجنين فى بطن أمه »
 وفى النهاية طوى الدهر مواهبه ، وحطمت الأمراض المختلفة صحته ، وانتقل
 وهو بعد لم يتجاوز الثلاثين من عمره من عالم الفناء إلى دنيا الخلود والبقاء :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— وا أسفاه من شدة هذا الألم القاتل
 — وا أسفاه من تقلب هذه الدنيا المحبة للجور
 — فقد تجلّت عن الشخص الذى احتضنته طويلا
 — وحطمت الجواهر التى نظمتها على مر السنين

وقد جاء فى كتاب روضة الصفا « أن الجهد الذى بذله خوواجه بهاء الدين محمد
 فى تطبيق أسلوب العقاب والانتقام ، قد بذل ضعفه فى نشر الجود والسخاء بل إنه
 لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أجل [٢٧٢] تعظيم الفضلاء والعلماء إلا واهتم بها
 وكان يقسم أوقاته كالتالى : يجلس لتناول الشراب من الصباح حتى الضحى
 بصحبة جماعة من أصدقائه وإخواته ، ثم يقضى بعد الظهر ساعة يتعاطى خلالها
 كتوس الحمر الحمراء مع أفاضل زملائه ، ثم يقضى أوقاته فى تدبير أمور البلاد
 والتعرف على أحوال العباد . » والخلاصة أنه لما بلغ خبر وفاة خوواجه بهاء الدين
 محمد مسامع صاحب الديوان ، قام بنظم هذا الرباعى يرثى فيه قرّة عينه :

(رباعي ، ترجمته) :

- ابني محمد يا حازم الفلك !
- لا أرى الآن في الدنيا ما يساوى شعرة منك !
- فلقد كنت ظهر والدك لذا فقد انجنى
- من بعدك فصار كحاجب الحسنات !

ومن الموثوق في صحته أنه بعد وفاة خواجه بهاء الدين محمد ، أخذت أحوال صاحب الديوان تضحل ، وفتح الدهر الغادر أبواب التشمت والعذاب أمام الصاحب وأخيه علاء الدين عطا ملك .

(بيتان ، ترجمتهما) :

- لم أجد على جدول روضة الأمل طيلة حياتي
- غصنا أخضر أو يابعا
- ولم أجد قمراً منيراً ولا نجماً ساطعاً
- وإلا أصابته وصمة الزوال

والواقعة التي أصابتهما هي كما يلي : كان مجد الملك اليزدي بن صفى الملك أبي المكارم - أحد وزراء أتابكة يزد - قد غضب لسبب من الأسباب من الأتابك يوسف شاه اليزدي وتوجه إلى أصفهان ، [٢٧٣] وعمل مع خواجه بهاء الدين محمد ولكنه حينما وجده مدلاً حاد الطباع سارع للعمل مع الوزير شمس الدين محمد ، فعهد إليه الصاحب ببعض أعمال الديوان ، وقام مجد الملك بتسيير تلك الأعمال على ما يرام ، وفي النهاية لاحظ الصاحب في تصرفاته علامات النفاق ، وزاد عليها سعايات الحساد ، فتغير عليه الوزير ولم يصفح عنه مهما توسط له الشفعاء ، ومهما قدم إليه من التماسات ، ولم يحظ مجد الملك بعد ذلك برعاية الصاحب وعنايته .

(قطعة بيتان ، ترجمتهما) :

- لا تجعل لك من أهل الفتنة صديقاً ولا جليلاً !
- والدين ينظرون إليك بعين الفتنة يمكن أن تقيهم من نظرك ، كما يقول المثل :

والخلاصة أن مجد الملك أخذ يصل الليل بالنهار والنهار بالليل بين اليأس والحرمان وأخذ يتردد على الأمراء يشكو إليهم حاله ، ويوطد علاقته بهم . وكان دائماً يلم بأحوال الملك والمال ويحفظ تفاصيلها في ذاكرته ، وذات يوم خلال تلك الأوقات كان مجد الدين بن الأثير - نائب علاء الدين عطا الملك - قد ذكر جانباً من عظمة حاكم مصر وكثرة جند تلك الديار ، فسلك مجد الدين الملك سبيل الخيانة وأبلغ آبا قاخان - بواسطة أحد المسؤولين - بأن مجد الدين بن الأثير أحد خاصة شقيق صاحب الديوان ، يقوم بالاتصال بالمصريين بناء على تعليمات الأتخوين وبموافقتهم ، ويتحدث في المجالس دائماً بالثناء على سلطان مصر ، فاشتعلت نيران غضب السلطان بسماع هذا الحديث وأمر بالقبض على مجد الدين بن الأثير وتعذيبه ولكنهم مهما كانوا يعذبونه فإنه لم يعترف بشيء مما ادعاه مجد الملك وعندئذ سلموه للصاحب .

ولما رأى الصاحب لإصرار مجد الملك وعناده ، عينه مسئولاً عن ضبط أموال ولاية سيواس وأنعم عليه بمبلغ من المال ولكن مجد الملك - من جراء الفعلة الدنيئة التي كان قد ارتكبها - لم يأمن من جانب الصاحب بهذا التعيين ، وبدأ يفكر في أعمال المكر والخديعة ، ويتحين الفرص ويعقد الصداقات ، ويقوم بالصلوات مع أعداء الصاحب إلى أن جاء الأمير أرغون خان لمقابلة والده ، فتمكن مجد الملك بمساعدة آبا جى - أحد نواب الأمير - من مقابلة أرغون خان وقال له : « إن الأموال الكثيرة التي ترد للخزانة العامرة من مختلف أرجاء المعمورة ، إنما هي من عائد الأملاك الخاصة بنواب صاحب الديوان التي اشتراها - بطريق الخيانة بأموال السلطان ، ورغم ذلك فهو ينكر النعمة ويسلك سبيل الحبة والإخلاص مع سلاطين مصر والشام ، كما تصور شقيقه علاء الدين عطا ملك بأن ملك بغداد والعراق العربي ملكاً خالصاً له ، وأعد لنفسه - كعادة الملوك العظام - تاجاً مرصعاً . فلو يسمح لي السلطان فإنه يمكنني أن أثبت على [٢٧٥] صاحب الديوان أنه اشترى لنفسه أملاكاً ما يقرب من أربعة آلاف تومان من أموال السلطان . بالإضافة إلى ما يقدر بمبلغ ألفي تومان أخرى في حوزته من النقود والجواهر والأغنام ، ونظراً لأنه يعلم أنني أقف على عيوبه ، فهذا هو منشور أصدره باسمي لتولى ضبط أموال ولاية سيواس ، كما أنه بعث إلى مبلغ من المال كرشوة »

وقد أصغى الأمير أرغون خان لعدة الأقوال المختلفة بعين الرضاء وتقل بعضاً منها إلى أبيه وهو منفرد به ، فقال له آباقا خان : لا تفش هذا السر حتى تتضح حقيقته تدريجاً .

(بيتان ، وترجمتهما) :

- لا تتسرع في أمر يهلك
- ولا تبعد عن سبيل الأناة والتعقل
- لأنه في التأني السلامة
- وفي العجلة الندامة

وبعد فترة قليلة من هذه المحادثة وجد مجد الملك طريقه إلى مجلس السلطان وقال له الأقوال المذكورة مباشرة ، وقد استقرت أقوال مجد الملك في نفس السلطان فتغير السلطان على وصاحب ، وصار مجد الملك موضع رعايته وعنايته وقد ناوله آباقا خان بنفسه كأساً في ذلك المجلس وسأله عن أحوال جميع الولايات الخرب منها والعامر ، فأجابه عن أحوالها بعبارات منمقة استطاع بها جذب انتباه السلطان ، وقد أمر السلطان بأن يشرف مجد الملك على أموال السلطنة ويراجع حسابات السنوات الماضية ، على أن لا يتدخل في عمله أحد قط من الأمراء أو المقرئين .

وخلاصة القول أن مجد الملك الذي شملته عناية السلطان ، قد ارتفع في لحظة واحدة من حضيض الانحطاط إلى أوج الارتفاع ، وخصص له السلطان الغلمان الحسان بملابسهم المراكشة ، والفرسان بجيادهم العربية والشامية والحجازية السريعة ، كما خصص له أربعين خيمة كبيرة لمسكره ، ومفروشات حريرية لبلاطه ، وأقام له قصرًا يناطح السحاب .

(قطعة ثلاثة أبيات ترجمتها) :

- هذه حالة من حالات الدهر
- رأيت الطبيب والردى يمر بها
- ورأيت كلاماً نقش كماء الذهب
- بقلم الشمس فوق هذه الصفحة البيضاء كالمناء

— ويقول له : يا من صرت قويا بالجاه بضعة أيام —

— لا تغرر لاني رأيت أعظم منك !

وقد سارع الرسل كالرياح ثلاثين بوكلاء ونواب صاحب الديوان الذين كانوا في تبريز وعلم الصاحب ورجاله بأن سهم الأعداء قد أصاب هدفه بمجىء مجد الملك ، فلا جرم أن استولى الحزن على نفس الصاحب الطاهرة ، وفترت همته عن تدبير أمور الديوان ، وإنجاز لهم السلطان ، وفي تلك الأثناء نظم مجد الملك هذا الرباعي وبعث به إلى الصاحب :

[٢٧٧] (رباعي ، ترجمته) :

— أريد أن أغوص في بحر أحزانك

— ، فلما أن أغرق ولما أن آتى بالجواهر

— فأنت الخصم القوي إما

— ، أن تقتلني وإما أن أقتلك

ولما قرأ صاحب الديوان ذلك الرباعي ، نظم هذا الرباعي رداً عليه :

(رباعي ، ترجمته) :

— لا يليق بي التهمج على السلطان

— . وعليك مواجهة تقلبات الزمان

— فهذا العمل الذي أسنده إليك

— إما أن تقتله وأما أن يقتلك !

والخلاصة أنه حينما التقى صاحب الديوان — والحزن والغربة بادية عليه — بالسلطان آبا قاخان ، عاتبه السلطان قائلاً له : إنك في خدمتنا منذ سنوات طوال ، وقد رعاك والدنا وصرت موضع عطفه وعنايته ، ولما ازداد عرش السلطنة بنا أظهرنا نحوك عطفنا — أكثر من ذي قبل — وعهدنا إليك بضبط أموال جميع ولايات السلطنة كما أننا

(بيت ، ترجمته) :

— احترمناك أكثر من الجميع

— ووليناك منصب الوزارة الرفيع

واليوم يؤكد مجد الملك أن إهمالك وتقصيرك كثير ، والخراب دب بدولة
السلطان ، وتسببت في ضياع أمواله بصورة لا حد لها .

وقد فهم صاحب الديوان — بماله من خبرة وحنكة — دقة الموقف وصعوبته
مستدلاً على ذلك من خشونة حديث السلطان ، ووجد أن تكذيبه الآن من
الاحمال ، فرد عليه — بتلقين من ملهم الغيب والسعادة ، وبتأييد من مرشد
العقل [٢٧٨] وفصيح البيان — بقوله : « لتكن رأسى ومالى وشخصى وروحى
ومتاعى وعائلى فداء للسلطان كيف يمكن لأحد — بأى شكل من الأشكال — إنكار
أيادى السلطان الكريمة ، ومن يجرؤ على التفكير فى إطفاء أنواره الساطعة !

فكل حبة أهديت إلينا أنا وأخى رابى أو نملكناها أو وضعناها أو أكلناها
أو أخذناها أو حرقناها — أثناء العمل فى خدمة السلطان — أو أخرجناها على سبيل
الصدقات ، أو مافى حوزتنا اليوم من ضياع وعقار وأملاك وأموال ، ودواب
واماء وعبيد إنما كله فيض من إنعام السلطان ! ولذلك فكل ما يرضى السلطان
فإننا راض عنه وموافق عليه من كل قلبى !

(بيت ، ترجمته) :

— سواء أرهبتنى أو بشرتنى بالآمانى

— فإن كل ما تريده هو مرادى

وكلما تأمر بشىء وكلما تنادى المصلحة ، فإن أمرى ينفذ على الجميع ،
وما علينا الا الاستسلام لأمرى ، وليس لنا أن نبدى بأى وجه من الوجوه أو فى
أى ظرف من الظروف ألوان التباطؤ أو الإهمال ، ومادامت فى أجسادنا قطرة
واحدة من ماء الحياة ، فإننا نشد بها عزمنا مسرعين لخدمتك ودايين لك ،

(بيت ، ترجمته) :

- مادام الموت لم يلحقني

- فلأنني معك وتابعك مدى حياتي

ولما استمع آباقاخان - الذي كان مشهوراً ببلاغة الحديث - هذا الكلام أشيق ، هبت نسائم الرضا على نفسه فمحت آثار الخلاف المستقر فيها ، وجدد مداعباته الملكية وملاطفاته للوزير شمس الدين محمد وأسند إليه [٢٧٩] منصب الوزارة كما كان ، فتبوأ صاحب مرة أخرى مكانة عالية ، وأخذ يسجد لله شكراً ووزع الصدقات والنذور التي سبق أن نذرها ، كما بعث بالرسائل إلى جميع الأقطار للإعلان عن تجديد آباقاخان الثقة فيه والعناية به ، وبعث بإحدى الرسائل إلى أخيه المخلص الخواجه علاء الدين عطا الملك « بدأها بهذه الآية « ياليت قومي يعملون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (١) » كما ذكر البيت التالي بعد هذه الآية :

(بيت ، ترجمته)

- اليوم بحمد الله قد فرغ بالي من عدوى

- ولا يحمل قلبي الآن سوى الحبة

وقد جاء في كتاب روضة الصفا : « أنه رغم أن صاحب أمن سخط السلطان ، وتولى منصب الوزارة مرة أخرى ، إلا أن مجد الملك بما له من مكانة عالية ظل يعمل على الإيقاع به ، ولكن صاحب بما يمتاز به من طيب النفس وعلو الهمة ، لم يتقاعس لحظة واحدة عن ملازمة آباقاخان ، وذات يوم جاء آباقاخان بالصاحب ومجد الملك اليزدي عنده وأمرهما بأن يحدث كل منهما الآخر مشافهة وحيث إن المراسم كانت تقضى بأن يجلس كل منهما بجانب الآخر إلا أن آباقاخان أمر بأن يجلس الوزير شمس الدين محمد في مكان متأخر عن مكان مجد الملك ، فذاق صاحب أمام عدوه ذلك الكأس المر المذاق على يد السلطان الذي أظهر قلة العناية به ، وصاغ إجاباته الصادقة بأسلوب بليغ » : كما يروون

(١) سورة ، يس ، آية « ٢٧ » .

كذلك أن الصاحب جلس ذات يوم ثلاث مرات في مجلس الطرب والشراب ،
كان يقدم في كل مرة منها كأساً إلى آباقا خان ، ولكن السلطان رفض في كل مرة
قبول تلك [٢٨٠] الكأس ، وكرر الصاحب ذلك الأمر في المرة الرابعة فأعطى
السلطان الصاحب قطعة شقها بالسكين من لحم حرمه الله ، فأكل الصاحب تلك
القطعة ، وقبل الأرض أمام السلطان ، وبعد ذلك قبل السلطان كأس الشراب من
الصاحب وشربه ، وقال للحاضرين « إن هذا الإيراني لرجل ذو صبر وجلد
لقد رفضت قبول كأسه عدة مرات ، ولكنه لم ييأس وظل يقدم الكأس إلى ،
وقد ذكرت بيني وبين نفسي أنه لو رفضت تناول القطعة - حفاظاً منه على دنته -
لأخرجت عينيه من مكانهما بهذه السكين » .

وخلاصة القول أنه حينما شاهد مجد الملك أن دسائسه ومكائده في حق الصاحب
لم تحقق هدفها بدأ يكيد لأخيه علاء الدين عطا ملك وخدع نائبه مجد الملك بن الأثير
حتى أفضى ببعض الأقوال عن علاء الدين ، فأمر آباقا خان بالقبض على عطا
ملك وإيداعه السجن ، ونظراً لأن الوزير محمد كان قد شاهد تدبير ذلك العمل ،
فإنه بعث على الفور برسالة إلى أخيه قائلاً له « أقبل كل ما يقوله لك الرسل ،
ولا تعترض بأى وجه من الوجوه على كلامهم » ، وبعد مناقشة طويلة قبل علاء
الدين دفع مبلغ ثلاثمائة تومان ، ورغم ذلك لم يرض ذلك المعاندين وبلغ الأمر
إلى حد أن قام الرسل بإحضاره إلى بغداد مقيداً بالسلاسل والأغلال وكانوا
يعذبونه بمختلف الطرق والأشكال حتى اضطروه إلى بيع كل ما كان يحتفظ به
وسلمهم قيمتها ، ولم يكتف المعاندون بكل هذه الأمور [٢٨١] وأتهموا علاء الدين
بمصاحبة حكام مصر والشام والولاء لهم ، وبهذه التهمة لحق النذل بذلك العزيز ، وفي
ذلك الوقت كان آباقا خان قد سافر إلى همدان ، فبعث مجد الملك - الذى كان في غاية
الاعتبار والمكانة - بعض الرسل إلى بغداد ليحضروا علاء الدين إلى معسكر السلطان
فأصطحبه الرسل مقيداً إلى همدان ، وفي تلك الأثناء توفي آباقا خان في العشرين
من ذى الحجة عام ٦٨٠ هـ ، وفي ربيع الأول ٦٨١ هـ اعتلى عرش المغول تكودار
ابن هولاكو خان الملقب بالسلطان أحمد ، فعمت عدائته المسلمين ، وكان أول أمر
أصدره أن بعث بالرسل إلى همدان لتخليص علاء الدين عطا ملك من حبسه ، وإحضاره
إليه ، كما أسند الوزارة إلى الرجل الكفاء الصاحب شمس الدين محمد وشمله

بكثير من العناية والاهتمام - أكثر من ذى قبل فاشتعلت مرة أخرى نيران الحقد والحسد في نفس مجد الملك ، وقدم عريضة إلى أرغون خان يقول فيها : لقد قتل صاحب الديوان والد الأمير بالسم ، ونظراً لأنه يعلم أنى عرفت ذلك السرفهو الآن بهدف إلى قتلى ! » ، وقد اطلع سعد الدين - ابن شقيق مجد الملك - على هذه العريضة ونظراً لأنه كان قد أودى من عمه والتحق بخدمة الوزير شمس الدين محمد ، [٢٨٢] قام بأخذ صورة العريضة وعرضها على السلطان أحمد ، فأصدر السلطان أمره بأن يكبلوا مجد الملك بالأغلال ، وأمر أيضاً برد كل ما أخذ ظلماً من علاء الدين عطا ملك خلال حكم آباقا خان ، وقد تحدث خواجه علاء الدين إلى السلطان بقوله : « إن كل ما حصلنا عليه نحن الإخوان خلال فترة خدمتنا بدار السلطنة إنما هو من صدقات حضرة السلطان ، وإننى الآن أفضل أن ينفق كله في هذا الغرض ، وأشار بتوزيع تلك الأموال الكثيرة التى أعادها إليه على المحتاجين من المترددين على بلاط السلطان ، وبعد ذلك أمر السلطان الأمراء العظام بالتحقيق مع مجد الملك فنفذوا ما أمروا به ، وأثناء قيامهم بهذا العمل وجدوا بين ملابس مجد الملك قطعة من جلد الأسد مكتوب عليها بضعة أسطر بماء الزعفران ، ونظراً لأن الأتراك يتشاءمون من السحر يخشى السلطان من تلك الكتابات - وقد ترددت أقوال كثيرة حول ذلك الموضوع - وفي النهاية وبلاستعانة بأراء العارفين والمنجمين تقرر أن توضع تلك التعويذة فى الماء ويشرب مجد الملك عصارتها حتى تعود عليه تتيجتها وقد رفض مجد الملك تنفيذ ذلك لأنه ظن أن تلك التعويذة قد دسها الشيخ عبد الرحمن دوست صاحب الديوان بين أمتعته مضمناً لإيائها مكيدة له ، وبعد الانتهاء من التحقيق ثبت على مجد الملك ما اتهم به ، ولكن السلطان لم يرض بقتله ، وفى تلك الأثناء مرض [٢٨٣] السلطان فذهب الشيخ عبد الرحمن لزيارته ، وأثناء ذلك أقنعه بالموافقة على قتل مجد الملك ، وحينئذ سلمه لرجال خواجه علاء الدين عطا ملك ، ونظراً لما اتصف به علاء الدين من سلامة النفس وحسن الخلق ، فقد عامله بمقتضى القول المأثور « العفو عند الاقتدار من علو الأقدار » وعفا عن مجد الملك .

(بيتان ، ترجمتهما) :

- حيث إن الملك العادل وهبك العدل

— فامنح العدل بكرمك ولطفك ! —

— وكل مذنب يقف أمامك . —

— يطمع في عدلك وإنصافك —

ولكن جماعة من أنصار الصاحب وأعوانه المخلصين قالوا « لقد ثبت للجميع أن هذا المتآمر لم يتخل — خلال حكمه — دقيقة واحدة عن انتهاج سياسة الإيذاء ولم يراع مطلقاً جانب الحق والخلق الكريم ، ولو تحقق له الخلاص اليوم فإن يسلم العالم من ظلمه وشروره ، فلا ينبغي أن تضيع فرصة القضاء عليه واجتثاث العدو من أساسه . »

(بيت ، ترجمته) :

— الحجر في يدك والحية على قمة الحجر —

— فلا تترك الفرصة للتحسر على معرفتك بذلك والتأخر في التنفيذ ! —

وفجأة أخرج أعوان الصاحب مجد الملك اليزدي من محبسه ، وفي طرفه عين ضربوه بالسيف وقطعوه إرباً إرباً بالخنجر ، وبعثوا بكل عضو من أعضائه إلى ولاية من الولايات . وكان ذلك عزاء لقلوب الرعايا والمظلومين الذين كانوا قد امتد ظلمه إليهم ، وقد وصلت رأسه إلى بغداد وظلت معلقة على سبيل العظة والاعتبار — [٢٨٤] مدة كما أرسلت قدمه المشثومة إلى شيراز وحملت يده إلى العراق ، ونظم أحد الفضلاء هذا البيت :

(بيت ، ترجمته) :

— كان يريد أن يمتد بالتآمر إلى العراق —

— فوصلت يده ولم تصل سلطته —

وجاء أن شخصاً اشترى لسان مجد الملك بمائة دينار من حاكم تبريز ، وقد نظم أحد الشعراء هذا الرباعي حول هذا الموضوع :

(رباعي ، ترجمته) :

— لقد صرت لبضعة أيام تعيث برئاسة الديوان —

— وأصبح هدفك هو البحث عن الملك والمال والسلطان —

- والآن أخذ كل أقليم من الأقاليم عضواً من أعضائك
 - فصرت بذلك في ظرف أسبوع حاكماً على جميع البلاد !
- والرجل العاقل هو ذلك الذي لا يلقى بنفسه في شرك الهلاك رغبة منه في السلطة والجاه ، ولا يجعل نفسه الغالية هدفاً للملامة في الدنيا وعرضة للعذاب في الآخرة .

(قطعة بيتان ، ترجمتهما) :

- ب افترض أنك قد بلغت ماتطلبه
 - وافترض أنك أصبحت كما تحب أن تكون
 - فهذا ليس معناه أن كل ما وجدته كان ناقصاً قبلك
 - وليس كل ما أخذته بالعدل سوف يسلبه الفلك منك !
- وخلاصة القول أنه بعد مقتل محمد الملك بعث السلطان أحمد با لصاحب علاء الدين لتولي حكم بغداد مرة أخرى ، ورغم أن خواجه عطا ملك كان قد قرر بينه وبين نفسه الاعتكاف بقية عمره في مكان بعيد وعدم السعي وراء [٢٨٥] المناصب .
- (بيت ، ترجمته) :

- انتهز الفرصة بضعة أيام في هذه المرحلة
 - لأنها أفضل أيام العمر التي لا يوجد كثيراً بمثلها
- لكنه نظراً لأن العواطف السلطانية والفضائل الملكية كانت قد أنقذته من محبتين ، الأولى شماتة الأعداء والثانية هلاك النفس ، ونظراً لأن السلطان قضى كذلك على خصمه العنيد وعدوه البغيض ، ورد له كل ماله ولم ينقص منه شيئاً ، فإنه بناء على ذلك لم يستطع الهرب - من قبول ذلك المنصب الخطير ، والخلاصة أن الوزير شمس الدين محمد صاحب الديوان وأخوه قد توليا مرة أخرى تدبير شئون الملك والمال بقوة واستقلال وبذ لا جهداً كبيراً من أجل نصرة الدين المبين وتيسير مهام علماء شريعة سيد المرسلين ، وأبديا اهتماماً كبيراً بأهل الفضل ، وسعد الرعايا واغتبطوا بكثرة عدلهم وإحسانهم . ونعموا بالأمن والسلام في أيامهما .

(بيت ، ترجمته) :

- لقد وجد الحيوان المفترس والطير الضعيف الراحة في كنف عدله
- ولقى الإنسان والجان الهدوء والسكينة في ظل أمنه

وفي تلك الأثناء بعث الأمير أرغون برسول من عنده إلى بلاط السلطان أحمد، سلمه مذكرة بخصوص واقعة التحقيق [٢٨٦] مع مجد الملك ، وشدة غضب آياقخان بسبب ذلك ، وكذلك عن عودة صاحب الديوان وعلو نجمه .

وخلاصة ما جاء بالمذكرة قوله : « لقد أعطاني الوزير شمس الدين محمد وثيقة تفيد بأن كل ما يمتلكه من مال ومتاع وضياع وعقارات وخلافة جميعه ملك السلطان ، وحينما تقتضى المصلحة - وبإشارة واحدة سوف يتم تسليمها دون ما تأخر منى أو إهمال ، وإنى التمس الآن من السلطان أن يبعث إلى بالصاحب بصحبة رسول حتى يستفسر منه الكتبة عن ذلك الموضوع ولكن السلطان فهم بعد سماعه هذه الكلمات أن أرغون خان لا يقصد أموال صاحب الديوان وإنما هو يقصد إزهاق روحه ، فقال في رده عليه أنه بفضل الوزير - صاحب التدبير الصائب - نعمت جميع أرجاء الدولة بالكفاية والعادل والرخاء ، ولو تغيب عن البلاط فسوف يصيب مصالح الملك والمال الخلل والإهمال ، ولم يعر السلطان الرسول أو الرسالة أى قدر من الاهتمام ، فعاد الرسول يائساً غير سعيد إلى ولاية أرغون ، وكانت هذه الواقعة سبباً في الشكوى وكشفت الغطاء عن حقيقة عداة أرغون للسلطان .

(قطعة بيتان ، ترجمتهما) :

- لقد صار صاحب الديوان وحيداً في الدنيا
 - حيث توفي علاء الدين الدولة والدين سيد الدنيا والزمان
 - فى مساء السبت الرابع من ذى الحجة عام
 - واحد وثمانين وسبعمائة وورى التراب فى أران
- [٢٨٧] وانتقل من الدنيا الفناء إلى جنة الخلود ، وبموته دفن عالم الفضل والأدب معه فى قلب التراب .

(مصراع ، ترجمته) :

« أتعلم أيها التراب ما تحتويه بداخلك !! » .

وقد ترك الوزير لشمس الدين محمد مقعد الوزارة وأخذ يتقبل العزاء ،
وطلع النهار عليه وهو يرتعد وثيابه ممزقة وقد غسلت دماء قلبه وجهه من
شدة الأحزان .

(بيت ، ترجمته)

— كانت دموعه الطاهرة تتصبب من مآقيها من شدة الحزن

— ولا تقل دموعه بل كانت دماؤه الطاهرة تتصبب

وقد أدى السلطان أحمد مراسم العزاء ، وخلع على صاحب الديوان
خلعة خاصة ، وأخذ يخفف عنه أحزانه بمختلف أنواع العناية والرعاية .
وفي تلك الأثناء بعث الأمير أرغون إلى جميع الولايات بتعليمات مؤداها :
« تؤدى الضرائب الخاصة بالصاحب إلى نوابه هو ، وأن يمتنع عمال الصاحب
كلية عن التصرف فيها » .

ونظراً لأن الأمير أرغون كان يقيم بالقرب من العراق ، خاف العراقيون
وترك كل واحد منهم من وكلاء الصاحب ما في حوزته تحت تصرف أرغون
خان ، وتوجه الأمير مزهوا بكثرة النفائس إلى مدينة بغداد ، وأغرق عليه
العمال والمتصرفون الكثير من أموال تلك البلاد . وفي أوائل عام ٦٨٢ هـ توجه
على رأس جيش مجهز إلى بلاد الشرق ، وكان دائماً مشغولاً بالتفكير في أى
وسيلة تمكنه من الاستيلاء على عرش السلطنة وانتزاعه [٢٨٨] من قبضة عمه ، ولم
تهدأ نفسه ليلاً أو نهاراً من التفكير في كيفية القضاء على السلطان أحمد ، ولما أحس
السلطان بهذا الموضوع بعث رسله إلى بغداد في أواخر السنة نفسها للقبض
على رجال الأرغون ، وانشغل صاحب الديوان بإعداد الجند ، وجهاز الكثير
من أدوات الحرب وآلات الطعن والضرب ، وأما الأمير أرغون فقد توجه
في غرة صفر عام ٦٨٣ هـ إلى آذربيجان ، ودارت معركة في صحراء راخوجاه
بينه وبين أليناق قائد مقدمة جيش السلطان — هزم فيها جيش أرغون خان —

وقرر الأمير الشجاع التوجه إلى قلعة كلاه ، وسار أليناق إلى تلك المنطقة ورأى الأمير الذي كان قد جاء من أسفل القلعة ، فأوقفنا الحرب ودخلا القلعة سويا وأخذنا يتبادلان الحديث ، فجعل أليناق - بنصائحه المختلفة - أرغون خان يأمن جانب السلطان ، ونظرا لأن الأمير لم يجد أمامه سوى التسليم ولا ملجأ له سوى التوكل على الله ، فإنه سار بصحبة أليناق إلى المعسكر ووصل إلى مقر السلطنة في غوجان القديمة ، وبعد فترة كبيرة من الانتظار أذن له السلطان بالدخول ، واستقبله بالحناء والترحيب ، . وأستبقاه في معسكره ومناه بحكم ولاية [٢٨٩] خراسان وخصص لإقامة ابن أخيه خيمة كبيرة ، وأمر أودوق - شقيق بوقا - بحراسة تلك القلعة بأربعة آلاف فارس وفي اليوم التالي رغب السلطان في لقاء حرمه المصون وتوجه لاداء هذا الغرض ، وكلف أليناق - بحجة إشرافه على المعسكر - بقتل الأمير أرغون خان .

(بيت ، ترجمته) :

- وكان غافلا عما يحببته القدر

- ، ويخفيه خلف الحجاب

فبعد رحيل السلطان أقنع بوقا - بالاستعانة بقوة أخيه صاحب المكانة القوية -

النبلاء والأمراء قائلا :

« لقد أسقط السلطان أجد أسرة جنكيز خان وقوض بنيانها ، ورفع راية عزة المسلمين بتوجيهات صاحب الديوان - عالية خفاقة إلى عنان السماء » ، وأوضح لهم بأن المطلوب الآن هو تنصيب هلاجوب سلطاناً وإقصاء أحمد عن العرش على أن يبدأ تنفيذ هذا الأمر حينما يخرجون أرغون خان من الحبس مثلاً يخرجون الدر من الصدف ، فأقر الجميع على هذا الرأي الصائب على أن تخرج الفكرة إلى حيز التنفيذ حينما تصبح الدنيا - كقلوب العصاة - مظلمة .

وعلى هذا الأساس توجه بوقا ، (مصراع ، ترجمته) :

« حينما أظلمت الدنيا »

ناحية مخدع أرغون خان ورفع كالحجاب - خجلا واستحياء - باب خيمته فنهض أرغون خان من فوق مخدعه مضطرباً مدعورا - لأنه تخيل أن في ذلك

نهاية لحياته - ولكن بوقا أمسك بيديه وأخرجه من الخيمة ، وأفضى إليه بالخطبة التي تم الاتفاق عليها ، وفي نفس اللحظة تجمع المؤيدون لها وامتطوا ظهور جيادهم السريعة وساروا إلى معسكر ألبيناك ، ووجدوه [٢٩٠] في فراشه فمزقوه إربا إربا. وقد شاهدت صحراء الأفغان في تلك الليلة يوماً كيوم المحشر والفرع الأكبر حيث قتلوا معظم رجال السلطان أحمد والمقربين إليه ، وقد تمكن واحد من تلك الجماعة من الهرب وسار مسرعاً خلف السلطان ولحق به - بعد تجاوزه مدينة أسفرايين بأربعة فراسخ - وشرح له حادثة خروج أرغون والدماء التي سفكت في تلك الليلة وتقلبات الأيام المفاجئة ، وقتل الأعوان والأنصار ، فحزن السلطان واضطرب بسماعه هذه الأخبار المؤلمة ، ولوى عنانه صوب معسكر والدته قوتى خان ، وكان يتخلى عنه - في كل منزل يصل إليه - فوج من الأمراء والقادة ، وينضمون للجانب الآخر .

(بيت ، ترجمته) :

- فكان كلما تجرع كأساً يزيد ابتعاده عن أمه
- ، ويواجه صفحة جديدة من صفحات المأساة

ولما وصل صاحب الديوان إلى « جاجرم » تمكن من الحصول على بعض الخيول وتوجه مسرعاً إلى أصفهان فاستقبله أشرافها وأعيانها استقبالا طيباً وقدموا له الخدمات اللائقة به ، وبعث الصاحب ببعض الرجال إلى مختلف الجهات لمعرفة الأخبار ، ولما تأكد أن أرغون خان تمكن من القبض على السلطان أحمد في معسكر قوتى خان وقضى عليه ونصب نفسه سلطاناً على عرش المغول ، فكر صاحب الديوان في مغادرة أصفهان إلى شیراز ، ومن [٢٩١] شیراز يتوجه إلى هرمز ثم يصل - عن طريق البحر - إلى بلاد الهند ويقضى بقية أيام حياته خالئ البال في تلك البلاد ، ولكنه بعد أن فكر في شدة بطش المغول ، جال بخاطره المنير مايلي : « لو أنني استطعت أن أنقذ نفسي من محنة الفناء هذه ، فإنه لن يمكنني إنقاذ أبنائي وعشيرتي ونوابي من نيران الخطوب ، وبوتقة الأذى والعذاب ، وأنا الذي قضيت ثلاثين عاماً في غاية من العظمة والسلطان ، هاهو صبح يوم نشاطي وقوتي ينتهي مغربه بالآسى والأحزان ، فلو أن الفلك الغادر

كعاقبته - أبدى لى عدم وفائه وأظهر لى - فى البداية - علامات جفائه ، لا تضح لى بفضل تدبيرى الصائب ورأى المستنير كيف أحل وكيف أربط ! ولكن مايناسبنى الآن هو أن أقوى أملى بالتوكل على الله وأعتمد على كرم السلطان ، وأتجنى إلى بلاطه ، وأفرغ من التفكير فى الأحزان وأستريح من الملل والنزول والترحال ، فرمما يهب نسيم العناية السلطانية على ، ويتجاوز أرغون خان عن جرميتى التى لا ذنب لى فيها . (مصرع ، ترجمته) - فليس هناك أبدع من رائحة المسك ولان نور الشمس ، الا فلا أقل من أن أستطيع إنقاذ كثير من الناس من محنة الألم والعذاب .

وعندئذ تتم بالآية الكريمة ، وأفوض أمري إلى الله^(١) ، ونتوجه سرب معسكر السلطان ، وفى الطريق التقي به الأمير «خمارى» والأتابك يوسف شاه ، وملك إمام الدين القزوينى - وكان قد أرسلهم أرغون خان لاستمالة صاحب الديوان - وقالوا له : إن السلطان الأعظم يقول : « لقد وهبى الله سبحانه النصر على الأعداء ، وقلدنى تاج المغول ، ووفقنى إلى نيل عرش السلطنة ، والمالك فقد عفوت عن [٢٩٢] المذنبين جميعا ، ووقعت مرسوم العفو عز خطايا الجميع ، فلو أن صاحب الديوان يعود للخدمة ، فسوف يلقى أطيب معاملة وأفضل تكريم » ، وأظهروا له دليلا على صحة هذه الأقوال ، فاطمأن الصاحب لسماع هذه الكلمات وأخذ يطوى طريقه إلى السلطان بسرعة البرق والرياح إلى أن وصل إلى معسكره فى يوم الجمعة العاشر من رجب عام ٦٨٣ هـ ، ونزل فى مقر الأمير بوقا ، وفى اليوم التالى صحبه بوقا إلى مجلس السلطان ، فاستقبل أرغون خان الصاحب استقبالا حسنا وبشره بتولى منصب الوزارة ، فقبل الصاحب الأرض أمام السلطان مرددا الدعاء له بدوام دولته ولساطاته ، ثم عاد إلى منزله . وبعد أن مرت بضعة أيام على هذه الواقعة ، واتضح للجميع أن خواجه شمس الدين محمد سوف يتولى مهام الوزارة ، قال فخر الدين المستوفى وحسام الدين^٢ الصاحب - اللذان كانا على عداء شديد مع الصاحب - لبوقا : « إن نفوذك لن يستمر قويا منتعشا مادام للصاحب تدخل فى أمور الملك والمال » لأن الصاحب سوف يسلك سبيل التملق لبضعة أيام ،

(١) سورة غافر ، آية « ٤٢ » .

وبعد أن يتمكن من تثبيت أقدامه سوف يسلبك سلطانك أيضا مثلما فعل مع سائر
الأمراء » ،

(رباعي ، ترجمته) :

— حينما ينتصر العدو وتجد لك عملا عنده

— ، فاحذره لأنك لن تفلت من يديه

— ولو تفلت فأتك لن تجد عنده

— ، سوى الأحزان الدائمة والهموم

فلا عجب أن عاتب الأمير يوقا أرغون خان كثيرا وهو مختل به وقال له : —
« إن الشخص الذي كان ينوي شرا لوالد السلطان ، ويكفر بنعمته ، ويدس له
السم ، كيف يمكن توقع إخلاص منه في الخدمة ! [٢٩٣] واستقرار دولة
السلطان الآن مرهون بانقضاء على الوزير الخائن ، ولا يجب أن يترك حيا ! »

(بيت ، ترجمته) :

— إذا وجدت فرصة تمكنك من عدوك الغادر

— ، فافض عليه ولا تردد

وعلى ذلك أمر أرغون خان بالتحقيق مع صاحب الديوان ، وأوكل إلى
الأمراء القيام بهذه المهمة ، وعندئذ كبلوا الصاحب بالأغلال — تنفيذًا للتعليمات —
وأثوا به إلى الديوان ، فصاح الناس وعلت صرخاتهم إلى عنان السماء قائلة : « لماذا
قيدوا أرزاق الخلائق ؟ ولأى سبب من الأسباب حطموا قلوب العجزة والمساكين
والفضلاء بالقبض على الوزير ؟ » ، وفي التحقيق قال الوزير شمس الدين محمد
محييا على أسئلة أهل البغض والحسد : « إنني لدى مئات الاعترافات حول تقصيري
فيما عرضه أصحاب الأغراض والطامعون ، ولكنني لاعلم لي مطلقا بأمور الغدر
والحياة بالحناب ولي نعمتي ! »

(بيت ، ترجمته) :

— إنني ما ذكرت هذا على لساني أبدا

— وما فكرت فيه وليس من عقيدتي !

ولكن طلاقة لسانه وفصاحة بيانه لم تفده قط ، (مصراع ، ترجمته) :

« ماذا يفيد دم المسيح مع حكم القضاء والقدر »

وأمر السلطان رجاله بتدمير أسس المضائل والمعالي ، وتحويل ينبوع الجود والإحسان إلى سراب فلما تيقن الصاحب أن خلاصه من المستحيل ، توضأ وأدى ركعتين لله ، وفتح مصحفاً [٢٩٤] كان يحمله — على سبيل التفاضل — فكانت هذه الآية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (١) » ، ولا عجب أن نفص نفسه من هموم الدنيا وقال راضياً : مصراع :

« كل شيء يأني منك فهو طيب ، سواء فيه الجفاء أم فيه الآلام »

وبعد أدائه صلاة الظهر في بلدة « أهر » يوم الاثنين الرابع من شعبان من نفس السنة المذكورة ، فاز بالشهادة على يد جلاد ظالم ، وودع الحياة الدنيا إلى روضة الجنات .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— إن هذا الفلك المحدودب يحمل سيفاً مسلطاً على الجميع

— ، قتل به ظلماً مئات الآلاف من الملوك والفقراء

— ونظراً لأن الفناء عاقبة كلا النوعين في الدنيا

— ، فقد أصبح قضاؤه على الطيب والردى أمراً سهلاً وميسوراً

كما نظم أحد الفضلاء هذا الرباعي في رثاء ذلك الرجل العظيم :

(رباعي ، ترجمته) :

— لقد انهمرت الدماء من السماء برحيل شمس الدين

— ، واختنى القمر ومزقت الزهرة ذواًبها

— وارتنى الليل السواد حزناً عليه حتى الصباح

— ، وتنفس الصعداء ثم شق الجيوب

(١) سورة فصلت ، آية « ٣٠ » .

ونظم شخص آخر هذه القطعة في هذا الغرض :

(قطعة سبعة أبيات ، ترجتها) :

- لقد كان سيد الأرض والزمان ووحيد الدهر والأوان
- ، وكان كريما سعيدا رحيما وسيدا على الأنام
- وكان حاميا للدنيا وصاحب أصل عريق وقدر عال
- ، وكان حاميا لقوة الإسلام وصاحباً للديوان
- [٢٩٥] وقضى في عهده على الدهر الغادر
- ، بفضل سخائه كالسلطان محمود وعدله كعدل أنوشروان
- ثم استشهد في يوم الاثنين الرابع من
- شهر شعبان عام ٦٨٣ هـ
- ولم تشهد مثله الأفلاك في الجود
- ، والهمة العالية والفضل والسخاء والإحسان
- فواحسرتاه من تقلب الفلك وغدر الزمان
- ، الذي دفن عين الشمس تحت التراب
- فاجعل ياإلهي بحق ذاتك مسكنه ومأواه
- ، في جنة رضوان بلا حساب !

الوزير جلال الدين مخلص السمناني :

كان جلال الدين من أسرة حاكمة ، ومن عائلة فاضلة . وكان جده الأمير ضياء الدين يلازم السلطان محمد خوارزمشاه ، وفي الوقت الذي كان فيه أرغون خان يتولى الحكم في خراسان ، نهض جلال الدين مخلص للالتحاق بخدمته ، فنال خلال فترة قصيرة من الزمن مكانة عالية عنده ومزيدا من التقرب إليه ، ثم أسند إليه الأمير بوقا - وكانت له اليد الطولى في تنظيم شئون الدولة - منصب الوزارة للسلطان أرغون خان بعد استشهاد الوزير شمس الدين محمد . ولما ارتكب الأمير بوقا جريمة الكفران بالنعمة ، وظهر منه الغدر بالسلطان أرغون خان ، وعلم

السلطان بجريمته وقتله ، تم القبض أيضا على جلال الدين مخلص - نظرا للعلاقة القوية التي كانت بينه وبين الأمير بوقا - وقضى بعدها عاماً من الزمن وهو في غاية من الاضطراب والسوء إلى أن قضى عليه بإيعاز من سعد الدولة اليهودي .

توثيق سعد الدولة بن صفى الدين الأبهري :

وصل سعد الدولة إلى منصب الوزارة وحقق مكانة عالية ، وتفصيل ذلك فيما يلي :
كان سعد الدولة اليهودي واحداً من أطباء اليهود أيام أرغون خان ، وفي عهد أرغون خان أيضا ضم نفسه إلى أطباء الأسرة المغولية وجعل إقامته في دار السلام بغداد ، واختلط بالأتراك والإيرانيين في كل البلاد والديار وصار عارفاً بكل اللغات ، وتيسر له الوقوف على حقيقة أحوال العمال والمتصرفين في أموال بغداد وعرف نواحي قصورهم وإهمالهم . وفي تلك الأثناء انتهز جماعة من نفس دينه من الملازمين دائماً لدار السلطنة الفرصة وقالوا لأرغون خان : « إن سعد الدولة يعصى أوقاته في فراغ دون عمل في ولاية بغداد وقد ضرب عرض الحائط بالخدمة في بلاط السلطان ، ونظرا لأنه يتقاضى تكاليف معيشته من أموال السلطان ، فإنه من المناسب أن يعمل مثلنا من الصباح حتى المساء ، ولا يسمح له بالتغيب عن معسكر السلطان » . وكانت هذه الوشاية سببا في تحقيق آمال سعد الدولة حيث استدعى بناء على أوامر أرغون خان لملازمة بلاط السلطان .

(بيت ، ترجمته)

- كل ما فيك من حسنات ومساوىء

-، لو تتمعنها صلح أمرك !

وقد مرض - صدقة - السلطان أرغون خان في تلك الأوقات ، فاهتم سعد الدولة بعلاجه ووصف له نوعا من الدواء أفاده وخفف من آلام المرض عليه . وأثناء نقاهة أرغون من مرضه طلب من سعد [٢٩٧] الدولة أن يقص عليه حكاية تبعد عنه الملل ، ونظرا لأن سعد الدولة كان قد عرف شغف السلطان بجمع الكثير من الأموال فقد قص عليه بأسلوب رائع قصة توضح إسراف النواب والكتاب في جميع البلاد والديار ، وخصوصا الموجودين منهم في ولاية بغداد ، وقال : « إن الأمير بوقا وأقاربه يسيطرون على جميع أموال الدولة ، ولا يتركون - عن قصد -

شيئا منها يصل لخزانة السلطان ، كما فتح أخوه « أروق » في ولاية بغداد أبواب الظلم والعداء على مصراعيها أمام الناس ، وأصبح العدل والرفاهية بالنسبة لأهل الفضل في تلك الولاية في تراجع ونقصان .

(بيّتان ، ترجمتهما) :

— لقد سرى ظلمه بين الناس

— ، فضاقوا بمظالمه وصرخوا جميعا

— شاكين للسماء ظلمه واعتسافه

— ، وقد تقوس ظهر المظلوم وصار كالمخلب لثقل أعبائه !

وبناء على هذه القصة صدر حكم السلطان بأن يتوجه سعد الدولة بصحبة « أردوقيا » و « بيان شكورجي » إلى بغداد ليبدلوا ما في وسعهم من أجل تحصيل الأموال ومعرفة أحوال الحال وصرف مطالبات الديوان ، والقضاء على أعمال التخريب والإهمال . وذهب سعد الدولة بصحبة المذكورين — إلى دار السلام في أواخر عام ٦٨٦ هـ فجمع الأموال الطائلة خلال مدة وجيزة وذلك بتحصيله ما تبقى من أموال العام السابق وضرائب العام الجديد ثم عاد إلى معسكر السلطان . فلما قدم تلك الأموال — التي لاحتصرها والبضائع التي لاحت لها إلى السلطان أرغون خان ، خلع عليه السلطان الكثير من الهدايا وعينه مشرفاً [٢٩٨] على جمع وإنفاق أموال ولاية بغداد . وعاد سعد الدولة مرة أخرى إلى بغداد وأدخل للخزانة — بكل الطرق — أضعاف المرة الأولى من الأموال . ثم توجه إلى قنغور الملاك — التي يطلقون عليها الآن السلطانية — وقبل البساط السلطاني وسلم تلك الأموال . وقد زاد اعتقاد أرغون خان بخبرته وحسن كفاءته إلى حد كبير ، كما تحدث كذلك أردوقيا كثيرا أمام السلطان عن إخلاصه وكفاءته وأبدى إعجاباً كبيراً بتنظيم أعماله وقال :

لقد أدخل سعد الدولة كل هذا المال إلى الخزانة العامرة على دفعتين وذلك من ولاية واحدة وخلال فترة قصيرة جداً ، وانتهى من مراجعة وتنظيم حساباتها ومعاملاتها بمنتهى الدقة ، كما عمر أيضاً تلك الولاية ، فلو توكل إليه مهمة الإشراف على جمع وتنظيم أموال جميع ولايات السلطنة ، لأوصل أحوال الخزانة والدولة إلى درجة يختار العقل الخبير أمامها ويعجز — من حيث تنظيمه أمور الرعية وتوفيره

الرفاهية لأهالى كل مدينة وولاية . وقد صدق السلطان هذا الكلام وأمر بتعيين « طاجار نوئين » ، « وارد قيارجوشى » فى منصب الإمارة وعين سعد الدولة فى منصب الوزارة ومسئولاً عن شئون الملك والمال ، على أن لا يعرض الأمراء أمراً على السلطان دون مشورته ، أما سعد الدولة فله أن يعرض — فى أى وقت يرغبه وفى أى مكان — مالدیه من أمور دون الانتظار للمشورة .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— ما أطيب المال الجالب للشهرة

— ولا حرمت الدنيا من هذا المال !

— فالشخص الذى يريد أن يرتفع فى الدنيا

— ، [٢٩٩] هو الخبير بتدبير أمور العالم

والحقيقة أن كوكب إقبال سعد الدولة بلغ أوج الاستعلاء والاستقلال ، وفوض إليه أرغون إدارة جميع مصالح الولايات — بكفاءته وعبقريته — ورعاية شئون المخلوقات ، وقد فاقت راية عظمته — فى الدولة — أعلى الأفلاك ارتفاعاً فى السماء وعززه النافذ قد أوصد الطريق أمام أعنى الرياح .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد أطلقت الدنيا لوزارته العنان بالطاعة

— ، كما وهب الفلك لسعادته الضمان بالانتصار

وقد أسند سعد الدولة إلى أقاربه حكم أكثر ولايات السلطان أرغون خان ، فبعث أخاه فيخر الدولة — وكانت نسبة الجهل فيه بنسبة الحكمة فى إفلاطون — حاكماً على بغداد ، كما عين شقيقه الآخر حاكماً على ديار بكر وربيعة ، وعين كذلك لبید بن أبى ربيع فى بعض مناطق آذربيجان ، وولى حكم ولاية فارس شخصاً آخر من أقربائه وهو شمس الدولة ، ولو لم يكن الأمير كيخاتوخان والأمير غازان خان يحكما فى بلاد الروم وخراسان ، لكان سعد الدولة قد أسند الحكم فيها أيضاً إلى أقاربه . وخلاصة القول إنه فى ظل وزارة سعد الدولة كانت جميع الولايات عامرة ومنتعشة ، ولم يستطع أحد قط من أمراء أرغون خان أو المحيطين به أن يظلم الرعايا والمزارعين فى أى مجال من المجالات .

(بيت ، ترجمته) :

— في عهده لم تترعج مياه الأنهار من العواصف
— ، كما لم تقع الزهور أو تهتز بسبب الرياح !
[٣٠٠] وقد تمكن سعد الدولة خلال عامين — استقل فيها بإدارة تلك الأعمال —
من تخزين الآلاف من النقود الذهبية في الخزانة العامرة ، كما كرس جهوده لتنظيم
الخلل الذي حدث خلال عدة سنوات سابقة .

ولاشك أن اهتمام السلطان وتقديره له قد زاد ، فكان يحقق كل يوم المزيد
من الرفعة والكمال واتساع النفوذ ، إلى أن وصل الأمر إلى درجة أنه كان يوماً يلعب
الترد منفرداً مع السلطان ، ولشدة تقربه منه ترك قدميه ممدودتين وكان يحركهما
بلا أدب ، وعندئذ دخل عليها « قججبال » فنادى عليه وقال له :

مهما يكن من عناية السلطان بك ، وحبه البالغ لك ، فإنه لا يجوز جلوسك
هكذا في حضرته !!

(بيت ، ترجمته) :

— مهما زاد كرم السلطان ونسأحه
— ، فيجب على الإنسان أن يعرف حدوده
فقال سعد الدولة له مجيباً بقوله : « إن السبب في جلوسى هكذا يرجع لألم
في مفاصلى ، وكل ما يقال غير كلام السلطان العادل ، إنما هو من تصرفات
الجهال ! » !

(بيت ، ترجمته) :

— ابتعد فإن قوته مستمدة من السلطان
— ، وإن يهزم بسبب آلاف من هذه الأخطاء !
ونظراً لأن مكانة سعد الدولة كانت قد وصلت إلى هذا الحد ، فقد اشتعلت
نيران العداوة له في نفوس أمراء الدولة ورجائها ، وتمكن طوغان — الذى لحقه
الضرر منه أكثر — أن يجعل جميع أعيان البلاط يتفقون على التخلص منه ، كما
ناقش مع النبلاء — أصحاب البيعة — طريقة القضاء عليه ، ولكنه نظراً لعدم مناسبة
الظروف وقتها ، فقد أخفى ذلك السر في أعماق نفسه حتى تواتيه الفرصة ويتمكن من

[٣٠١] القضاء عليه. ومن الثابت أن سعد الدولة كان يتظاهر — في بداية اشتغاله بالوزارة — بالعمل على نشر شريعة سيد الأبرار — صلى الله عليه ما دار الفلك الدوار — في شهر رمضان من عام ٦٨٨ هـ بعث برسالة إلى دار السلام بغداد يوصى فيها برعاية الحجاج وتقديم المساعدة لهم ، ولكنه اغتر بعد ذلك بسبب علو مكائمه واستقلاله بإدارة دفة الأمور في البلاد ، وقد زاد جبروته واستبداده وتكبره وخيلاؤه عن الحدود ، ووضع اليهود — الذين لاقية لهم — أقدامهم على مدارج العظمة والاستعلاء ، وتفوهوا بعبارات الاستهزاء والإهانة لأمة حضرة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وعرض سعد الدولة — أكثر من مرة — على أرغون خان بمنتهى التبجح قوله : « إن النبوة موصلة بالميراث من جنكيز خان إلى حضرة السلطان ، وقديسرت العناية الإلهية لحضرة السلطان إرساء قواعد الملك والملة ، وتشيد مباني الدين والدولة على خير وجه ، وحيث إن النبي العربي صلوات الله عليه هو وأصحابه وأنصاره قد رفعوا راية النصر متحدين ، وقضوا على الكثير من المخالفين لهم والمعارضين ، ووضعوا قلادة القبول والاعتناق لأركان الإسلام في رقبة الخاصة من الناس والعامّة ، فلو أن سلطان العالم يتصرف بما تقتضيه همته العالية ويسلك غاية اللطف مع المؤيدين له ومنتهى العنف مع المعارضين ، لأمكنه أن يخلق أمة جديدة في هذا العصر ، ويقضى على عادات ورسوم السابقين ، وعلى قواعد وأطوار المتأخرين »

[٣٠٢] وكان أرغون خان عدواً للمسلمين بسبب حبه للأموال ، فبعد سماعه لهذا الكلام المهلهل ، أخذ يقدم على قتل الأبرياء لأي سبب من الأسباب ، وأمر بأن لا يعمل أحد من المسلمين في الديوان مطلقاً . وكان يمنع أفراد تلك الطائفة من التردد على المعسكر السلطاني ، كما اتفق سعد الدولة مع أرغون خان على تحويل الكعبة إلى معبد للأصنام وتحويل المسلمين وسائر الخلق من عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان وبهذا المفهوم بعث برسائل ومكاتبات إلى اليهود — اصناع الأوثان — من الأعراب يخبرهم باستعدادهم لصناعة أعلام الضلال للتوجه بها إلى مكة . وفي تلك الأثناء بعث نجيب النحال — وكان من نفس طائفة ذلك الشرير — إلى ولاية خراسان ، وسلمه قائمة مفصلة بأسماء مائتين من أعيان وأغنياء تلك البلاد ليتولى القضاء على حياتهم ، ويحول أموالهم وما يملكونه إلى ديوان السلطان ، كما كلف أيضاً شمس الدولة بقتل سبعة عشر شخصاً من أئمة اصفهان العظام الذين لم يكن لهم ذنب قط

سوى أنهم كانوا يتمتعون بالسمعة الطيبة بين الجميع ، ويعرفون بعلو النسب وكثرة البذل والعطاء ، ولما زادت تصرفات سعد الدولة اليهودى غير اللائقة وأفعاله غير الواجبة عن حد الاعتدال ، خرج سهم البلاء فجأة من يد القضاء وأصابه فى مقتله ، وأنزل بأرغون خان مرضاً عضالاً لم يشف منه قط ، ومهما حاول الأطباء وصف العلاج له والدواء ، لم يأت ذلك بفائدة على الإطلاق .

[٣٠٣] (بيت ، ترجمته) :

— لقد اشتد عليه مرض الصفراء

— ، وأصبح لونه كلون الزيت

واحترار الأمراء والمقربون بسبب صعوبة تلك الحال ، وقدموا المساعدات والصدقات للفقراء والمحتاجين ، وأطلقوا سراح الكثير من المحبوسين ، وكان سعد الدولة يتجرع نيران الألم أكثر من الآخرين ، وصار نادماً بسبب نواياه السيئة وخطاياها ، فكان يخرج من كبده المحترق الآهات وبلغ به اليأس غايته بمشاهدة حالة السلطان وصحته ، وتملكه الرعب والارتعاش — كشجرة الصفصاف — خوفاً من وخامة عاقبة أعماله السيئة .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد انشطر قلبي اليوم نصفين بسبب هموم الدنيا

— ، ولكنى مازلت أخشى أن يتسرب الخوف إلى روحي

وبعث بالأوامر الرسمية إلى كل مكان ، لعمل اللازم نحو رفاهية الرعية واستمالة الناس فى جميع الولايات . وقد أرسل فى يوم واحد سبعين مرسوماً — إلى كل ولاية تشتمل جميعها على إظهار العدل ورفع الظلم والفساد ، ولكنه حسب ما جاء بالآية الكريمة « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ^(١) » ، فمن المحال أن يكون لحكم الله المحكم ولقضائه المبرم صفة التأخير أو التقديم ، أو يكون لدعاء الكافرين شرف الاستجابة أو القبول « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ^(٢) »

(١) سورة يونس ، آية « ٤٩ » . قد وردت الآية بالنص الفارسى هكذا « إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

(٢) سورة الرعد ، آية « ١٤ » ، سورة غافر آية « ٥٠ » .

ولم يأت إخراج الأموال الكثيرة، وإظهار العدل والإحسان بفائدة، فقد اشتد مرض أرغون خان اشتداداً كبيراً، وخرج الأمر عن نطاق محاولات الشاب والشيخ والصغير والكبير، ولم يكن يسمح لأحد بدخول خيمة السلطان غير سعد الدولة والجوشي، [٣٠٤] وقد بعث أسراً بالرسول إلى الأمير غازان في خراسان ليحضر بسرعة ويكون بالقرب من عرش السلطنة، وكان هدفها الحقيقي هو أن يجلسه على العرش قبل أن تقع الواقعة، ويخلصها بذلك من سيوف الأمراء، وقد علم الأمراء والنبلاء بهذا الأمر، فاجتمعوا في منزل طغاجار وقبضوا — في البداية — على جماعة من رجال سعد الدولة وأعوانه وأجهزوا عليهم. ونظروا لأن نجم سعد الدولة قد أفل فقد ألقوا عليه القبض أيضاً وظل محبوساً لمدة يومين تقريباً أو ثلاثة في منزل طغاجار وبعد ذلك أدرك — بعين اليقين — أنه مقضى عليه، فبعث ذات ليلة وهو في غاية من الحزن والتعب بورقة إلى أحد الأشخاص^(١) مكتوب فيها هذه العبارة: « بحق الله — سبحانه وتعالى — فإن هذا المسكين كان دائماً صديقاً لأصدقائهم، كما كان عدواً لأعدائهم، ولو يمتد به العمر — « والله على ما نقول وكيل (١) » — فإنه سوف يظل على هذا النمط ويسلك معهم طريق الإخلاص»، ولكن « المعلق بالشيء الخال محال » ففي اليوم التالي أجهزوا على صاحب الطالع المنحوس، وصاحب النجم المقلوب بضربة سيف فتاك.

وبعد موته وجه المغول والمسلمون متحدين — الصلوات الطيبات صوب الروضة المنورة في أرض يثرب، ولبس أتباع دين محمد — من لطف الله بهم — لباس البقاء، وأما أعداء الأمة المحمدية فقد شربوا — بسبب غضب الله عليهم كأس الموت والفناء.

[٣٠٥] وقد فتح أرغون خان — الذي كان في ذلك الوقت في غاية الضعف والعجز عينه واستفسر عن سبب تغيب سعد الدولة والملازمين له، فرد عليه أحد الحاضرين معللاً ذلك بعذر غير مقبول، فأدرك السلطان حقيقة الأمر، ثم فارق الحياة في الثالث من شهر ربيع الأول عام ٦٩٠ هـ.

(١) سورة يوسف، آية « ٦٦ ».

(مصرع ، ترجمته) :

— « وكانت هذه الحادثة نهاية الطريق كله »

ونظم الإمام العابد الزاهد زين الدين على بن الصاعد قصيدة غراء حول هذه الواقعة مطلعها البيت التالى :

شعر عربى :

نحمد من دار باسمه الفلك هذا ليهود قرود قد هلك (١)

الوزير صدر الدين أحمد الخالى الزنجاني :

كان صدر الدين من أبناء أحد قضاة ولاية زنجان ، والتحق وهو فى عنفوان الشباب بخدمة الأمير طغاجار وقبل النيابة له ولما أصبح طغا جار أمير آلالوس فى عهد أرغون خان — واستقل بحكم تلك البلاد ، جعل صدر الدين أحمد مسئولا عن تنظيم أموال هذه البلاد ، فنظم صدر الدين أعماله تنظيما كاملا .
والحقيقة أن صدر الدين أحمد تفوق على صاحب الرى وحاتم الطائي فى الساحة والكرم ، فكان كلما حصل على شئ أنفق على السادات والعلماء والمشايخ والفضلاء .
وقد نظم أحد شعراء تلك البلاد هذه القطعة يمدحه :

(قطعه أربع أبيات ، ترجمتهما) :

— لا يستطيع شخص أن يصير صدرا فى الآفاق بمجرد صدره

— ، فالصدر الشهير فى أرجاء العالم

— هو ذلك الشخص الذى يكون أمام جوده

— ، الجوهر والذهب مثل تراب الطريق سواء بسواء

— [٣٠٦] فإذا لم تكن تعرف كيف تصير صدرا

— ، فتعلم من الصدر (الوزير) طغاجر !

(١) هذا البيت غير صحيح فى الأصل الفارسى وصحته :

محمد من دار باسمه الفلك هذى اليهود القروود قد هلكوا
« انظر تاريخ وصاف ، ص ٢٤٧ ، طبع بمبای »

— سماء المكارم أحمد الذى انتزع

—، تاج العظمة من فوق هام الفلك الأخضر

ولما اعتلى كيخاتو خان عرش السلطنة ، أخذ الأمراء والنبلاء يتشاورون فيما بينهم حول اختيار الوزير ، وأعدوا قائمة بأسماء جماعة من أكابر العصر ممن كانوا ملازمين للسلطان أو للخواتين والأمراء ، ورغم أن اسم الوزير صدر الدين لم يكن ضمن تلك القائمة ، إلا أن محرر الغيب لما كان قد حرر منشور الوزارة باسمه العظيم ، فقد حدث أثناء عرض قائمة الوزارة على السلطان أن جال بخاطره فجأة ودون تفكير سابق أنه يجب عليه أن يعين صدر الدين أحمد الزنجاني وزيرا لتدبير أمور السلطنة وإدارة شئون الديوان ، ووافق الأمراء والخواتين والنبلاء على هذا التعيين ولقي قبولا واستحساناً من الجميع .

واختص كيخاتو خان الوزير صدر الدين أحمد الزنجاني بمنصب صاحب الديوان العالى وأسبغ عليه لقب « صدر الدنيا » كما أعطاه خاتماً ذهبياً وأطواقاً وطبلاً ، وخصص له عدداً من العسكر ، ووضع في يدي صاحب الديوان مهمة التصرف في جميع مهام الوزارة والإدارة ، وبلغ كوكب إقبال صدر الدنيا — في نفاذ أمره وعلو شأنه ومزيد اقتداره وكمال اختياره — أوج الرفعة والشرف ، فغرق في ماء الحجل لكثرة ما خصه به السلطان من جواهر — وكان يتوقف الدم في عروقه بسبب رفع السلطان عنه جبال الأحزان بكثرة الجواهر والأنعام ، وكانت صورته تبدو كنجم من الياقوت القاني الإحمرار .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لم يكن صدر الدنيا يرد سائلاً قط

—، مهما كانت الطريقة التي يطلب بها

— وكان يعطى كل السائلين

—، [٣٠٧] من قبل أن يبدوا نية الطلب أجمعين

وفي بداية إشتغاله في الوزارة قلل من تدخل الأمراء والنبلاء في أمور الملك والمال وكان يفصل في أمور الدولة ومصالح الجيش والرعية ودون مشورتهم ،

وبناء على ذلك ألب عليه أمراء جماعة من الحاسدين في شهر ذى القعدة عام ٦٩٢ هـ فوضعوا له سهم المكر والخديعة في قوس الغدر والخيانة ، ووشوا به لدى السلطان بقولهم :

« إن صاحب الديوان يتفق الأموال الكثيرة حسب هواه ، ولذلك أصبحت مصلحة العسكر وإمدادات الجيوش ومعداتهما مهملة ومختلة » ، ولكن السلطان صاحب المهمة العالية لم يصغ إلى تلك الوشاية المذمومة وجدد الالتزام بتنفيذ أوامره قائلاً إن دولته — الممتدة من شاطئ نهر جيحون وحتى حدود مصر ، تدار بفضل بصيرة صدر الدين وكفاءته ، وأعطاه حق التصرف في أمر جماعة الأعداء الحاسدين ، فشكره صدر الدنيا معبراً له عن إخلاصه في خدمته وانصرف من مجلسه ثم قيد هذه الجماعة بقيود ثقيلة ، وبعد مرور بضعة أيام — حذرهم خلخالها كثيراً وأنهم — ثم عفا عنهم وتغاضى عن جرائمهم لأن شعاره كان العفو والرحمة ، ولما انتقل كيخاتون خان إلى الحياة الأخرى بسبب غدر الأمراء والنبلاء — في شهر جمادى الأول عام ٦٩٤ هـ ، واعتلى عرش السلطنة . بايدوخان ، وأخذ في تنظيم شئون البلاد عزل صدر الدنيا وعينه في مهمة ضبط وتنظيم أموال مملكة الروم ونظراً لأن صاحب الديوان لم يكن يعتبر هذه المهمة تليق حتى بأقل واحد من كتابه ، فضل السكوت والانتظار على السفر والارتحال ، ولكن [٣٠٨] جماعة من الأعداء والحساد دست له ، وفهم صدر الدنيا بأن توقعه من الحال ، وفي النهاية توجه إلى بلاد الروم مرغماً ، وفي الطريق لوى عنان جواده صوب جيلان فاغبت ملك تلك الولاية وأمرائها يمين مقدم الصاحب ، وقدموا التحية التي تليق بمثل ذلك الضيف الكبير ، وفكر صدر الدنيا في التوجه من هناك للالتحاق بخدمة الأمير غازان وسار إلى خراسان ، وبالقرب من سيزوار أنضم إلى معسكر الأمير وقدم له فروض الطاعة والولاء ، فاحتفى الأمير بالصاحب الذي عرض عليه رغبة جميع أهالي العراق الانضواء تحت لواء أمير الدنيا ، وقال له : « لو أن أمير العالم ينفص عن نفسه الطاهرة أقوال الواشين ، ويتوكل على الله — بعد هزيمة العدو والاستيلاء على العرش — وينوى السعي والاجتهاد من أجل تقوية الدين الحمدي ، ورعاية شئون الأمة الإسلامية بكل ما أوتي من قوة ، ويجعل الأوقاف والصدقات التي — قررها السلاطين والخواتين السابقين — محفوظة ومصونة من النفقات ، ويعيد

أملاك الطائفة التي قتلت إلى أولادهم - وأن لا يدمى قلوب هؤلاء المساكين بالتصرف في تلك الأملاك والممتلكات - فأننى أتعهد بارسال الأمير نوروز على رأس جيش فتاك للاتقضاض على «بايدو» وذلك عن طريق جيلان وأبعده بالقوة عن [٣٠٩] عرش المغول ، فجعل أمير العالم أمر قبول ذلك الكلام - الباعث على الهداية - أمراً واجباً ولازماً عليه ، وتحرك بعزم راسخ وقوة صوب أذربيجان ، وجعل نوروز يسير - وقد رفع راية الانتصار - على رأس خمسة آلاف فارس في المقدمة ، وجعل صدر الدنيا ملازماً لمركبه - مثل الفتح والانتصار - في ليلة الرابع عشر من شهر ذى الحجة عام ٦٩٤ هـ - وبعد مسيرة يومين - نزل بالقرب من معسكر بايدو وذاع هذا الخبر في المعسكر وتوجه ، أمراء الدولة مسرعين نحوه ، ولوى بايدو عنانه صوب الهزيمة ، فتعقبه نوروز ولحق به في منطقة نخجوان ، وقضى على حكمه الذى دام ستة أشهر :

والخلاصة أنه في شهر ذى الحجة المذكور ، وفي يوم العيد الموافق أيضاً يوم عيد النوروز وضع السلطان محمود غازان تاج السلطنة فوق رأسه ، ووضع زمام أمور الوزارة ومهام الجيش والرعية في قبضة صدر الدنيا الخبيرة ولكنه ، بعد فترة قصيرة - بسبب سعاية المفسدين - تغير الأمير نوروز - وكان هو المتصرف في شئون الملك والمال - على صاحب الديوان ، فعزل ذلك الوزير ذى التدبير الصائب والضمير المستنير ، وفي تلك الظروف اتفق جماعة من الأمراء الأشرار على التآمر ضد غازان خان والأمير نوروز ، وبلغ خبر تلك المؤامرة سلطان الإسلام [٣١٠] والأمير الهمام ، وبعد محاربتهم ، انتصر عليهم وأرجأ أمر معاقبة الأشرار . وعند التحقيق في هذه القضية انضم بعض المسئولين والعمال في الديوان - الذين كان صدر الدنيا قد قلل من تدخلهم في أعمال السلطنة لخياتهم الزائدة - إلى جماعة مأكرة من المتريين ، وعرضوا على السلطان قو لهم : «لقد كان صدر الدنيا متفقاً مع أعداء الدولة في هذه المؤامرة»

(بيت ، ترجمته) :

- إننى يمكننى ألا أقول - طيلة عمرى - إن فلانا شرير
-، ولكن لا يمكننى أن أجعل الآخرين لا يقولون عنى ذلك .

وبسبب هذه التهمة تم القبض على الوزير صدر الدين أحمد ، وسلم لرجال السلطان الأشداء الذين أنزلوا به شتى صنوف العذاب وجميع أنواع التعنيف والعتاب ، وقد أمر السلطان باقتلاع جميع مكارسه ومعالیه من الأساس ، وهدم بناء حياة ذلك السيد الحكيم بالقهر والظلم ، ولكن « هرقداق نوئين » أوضح براءة صدر الدنيا للسلطان وشرح له هدف الأشرار وغرضهم ، وبعد أن تأكد غازان خان - صاحب الضمير الحى المستنير - من صدق ذلك الكلام ، أصدر أمره النافذ بإطلاق سراح صاحب الديوان . وقد جاء فى كتاب روضة الصفا مايلي :

[٣١١] « نقل عن صدر الدنيا أنه قال : حينما كنت فى الحبس ، تغلب النوم ذات ليلة على فرأت عيني فى المنام أنهم أخذوني يوم الجمعة إلى مكان الإعدام ، ووضعوني داخل غابة مخيفة ، وفجأة ظهر لى شخص نورانى من داخل الغابة خلصنى من رجال السلطان وقال لى : توجه إلى أى مكان تحبه وأفض بهذا السر إلى سبعة أشخاص من المخلصين لك ! ثم قال صدر الدنيا : وفى اليوم التالى قصصت الواقعة لسبعة أشخاص من المخلصين الحقيقيين لى ، وظللت أنتظر من الله العطف وأسلمت مصيرى لخالى !

(بيت ، ترجمته) :

- حيث إن العناية الإلهية ليست فى مقدورنا

- ، فلنتظر ماذا سوف تفعل كراماتها !

ولما جاء يوم الجمعة حملنى رجال السلطان بالفعل على ظهر جواد وأخذوني إلى غابة ، واكنهم نظرا لما كنت قد قدمته فى عهد كيخاتون خان من الأفضال فإتهم كانوا يتمهلون فى تنفيذ الحكم ، وفى تلك الأثناء وقع نظرى على صورة الذى كنت رأيته فى المنام فغشى على ، وكان هو « هو رقداق نوئين » عائدا من رحلة صيد وجاء إلى ذلك المكان وعرف بحقيقة الحكم الذى كان قد صدر ضدى ، فعين شخصين لحراستى ، ولما أفقت من تلك الغشية ، بشرنى هذان الرجلان بالخير والطمأنينة ، ومنعاً رجال السلطان من قتلى واستمرا يحرسانى فى تلك الليلة حتى الصباح :

(بيت ، ترجمته) :

— لانيأس وقت الشدة

—، لأن السحاب الأسود بمطر ماء أبيض

[٣١٢] وفي اليوم التالي عرض « هورقداق » براءتي على السلطان وأنقذني من القتل وأطلق سراحى « كما نقل أنه فى ذلك الوقت شمل غازان خان صدر الدنيا مرة أخرى بألوان اللطف والإحسان أسند إليه منصب الوزارة كسابق عهده .

(رباعى « ترجمته) :

— حينما تبسم الفلك لصدر الدنيا

—، طار إليه طائر السعادة

— ليقدم له تهتة الأيام والشهور والأعوام

—، فقد رجع إليه الإقبال من أبواب المصلحين

وقد أقبلت طوائف الخلق مرة أخرى على ملازمة الصاحب ، وطابت نفوس الرعية ، بفضل عدلته واسترضيت ضمائرهم ، ولكنه نظراً لأن الزوال مقرر لكل أمر يكتمل والانتقال مقدر لكل خط يرتفع ، فإن صدر الدنيا بعد أن أمضى مرة أخرى بضعة أيام فى العظمة والسعادة ، وشى به تورين نويين وقتل قشاه — وهما من أمراء الدولة — بالباطل لدى السلطان ، فتم القبض على الصاحب وإيداعه السجن ، ولم تنفعه هذه المرة فصاحة البيان وطلاقة اللسان وحسن التدبير ، ووضعت الأقدار نهاية ذلك الفاضل العالم الكريم فى يوم الأحد الموافق الثانى والعشرين من شهر رجب عام ٦٩٩ هـ .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كانت الورود تقول للرياح

—، ماذا حدث فى البداية حتى تكون النهاية هكذا !

— فتقول الرياح للورود : يامن

—، أنت راحة قلوبنا ، لاشيء ، فهذه طبيعة الأيام !

[٣١٣] الوزير كمال الدين استجردانى :

كان كمال الدين يتحلى بمختلف الكمالات والفضائل الإنسانية ، كما كان ذا مهارة فائقة فى فن الكتابة وإدارة شئون الديوان ، وقد تولى الوزارة فى عهد بايدوخان ، ولما توفى بايدوخان - بعد حكم ستة أشهر - اعتلى عرش السلطنة غازان خان بطريق الإرث والاستحقاق وعزل وقتها صدر الدنيا من منصب الوزارة لعدم رضا الأمير نوروز عنه ، وارتفع مرة أخرى نجم الوزير كمال الدين إلى الآفاق وتولى الوزارة ، ولكنه فى أواخر عام ٦٩٥ هـ أراد الدهر الغادر - كشيئته المذمومة - استرداد عطايه حيث أصبح الوزير كمال الدين من المغضوب عليهم من قبل غازان وقتل .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— أيها الفلك ! لقد خرجت الدنيا بسبب حقدك

— ، وعاداتك العتيدة ظالمة !

— وأنت أيها الأرض : لو أنهم يشقون صدرك

— ، لوجدوا فى باطنك الجواهر الثمينة !

الوزير سعد الدين محمد الأوجى :

كان سعد الدين وزيراً فاضلاً وراعياً للفضيلة والفضلاء ، ولم يكن له مثل فى علم السباق والاستيفاء ، أوفى فن الكتابة والإنشاء ، وبعد استشهاد الوزير صدر الدين أحمد الزنجاني أسند إليه - بناء على أمر غازان - منصب الوزارة وتدير أمور الدولة بالاشتراك مع الوزير رشيد الدين الطيب ، ومرة أخرى [٣١٤] أخذت روضة الأمل للدنيا وللشعب رونقها ونضارتها بفضل انتشار العدل والإحسان وكثرة البر والامتنان . وبعد مرور بضعة أيام على هذه الحال ، أقدمت جماعة من الحساد - أمثال القاضى صاين الدين السمناني وشيخ المشايخ محمود وسيد قطب ومعين الدين غانجى - على أعمال المكر والتدبير ، وعقدوا اجتماعاً وضعوا فيه أساس الموافقة على الوزراء وأجروا القرعة فيما بينهم ، ولما بلغ خبر هذه الواقعة إلى غازان خان ، غضب وأمر بقتل معظم المدبرين .

(بيت ، ترجمته) :

— حينما أخبر سيف العدالة بالخبر

—، أطاح بالكثير من المشتركين في التدبير

وفي الحادى عشر من شهر شوال عام ٧٠٣ هـ توفى غازان خان ، واعتلى فى شهر ذى الحجة من العام نفسه عرش السلطنة السلطان الجايتو — المعروف بالسلطان محمد خدابنده — فترك — كما كان فى عهد أخيه العظيم — تدبير شئون الوزارة وإدارة مصالح الجيش والرعية فى أيدي الوزيرين العظيمين رشيد الدين وسعد الدين . وطوال الفترة التى كان الوزير سعد الدين متفقاً فيها مع الوزير رشيد الدين ظلت ، مكانته ومرتبته مصونة ومحفوظة من النقص والزال .

(بيت ، ترجمته) :

— مادام لم يخرّب ورود البستان

—، فلن يدعى الدهر قلبه بالأشواك

ولما تبدلت تلك الموافقة باخلافه ، قام الوزير سعد الدين بتحريض تاج الدين الأوجى وجاعة أخرى من نوابه بالكيد للوزير رشيد الدين ، وتقاضوا مقابل ذلك خمسمائة تومان . وقد طلب السلطان محمد الوزير سعد الدين [٣١٥] وتلك الجماعة للتحقيق معهم ، وبعد أن ثبتت عليهم تلك الجرائم أمر السلطان بالقضاء على الوزير سعد الدين وجاعة المدبرين ، وتم تحصيل مبلغ الخمسمائة تومان — التى كانوا قد تقاضوها — من ممتلكاتهم ، وتم القضاء على الفتنة بفضل السياسة السلطانية الحكيمة .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد ابتلت الأرض فى عهده بدم كل ندام

—، وقل هبوب غبار الفتنة والتدبير

(الوزير رشيد الدين الطبيب : (١)

كان رشيد الدين يتصف بفطنة أرسطو وحكمة أفلاطون ، وقد وفق فى أو اخر

(١) لمزيد من المعلومات حول الوزير رشيد الدين ، انظر « مؤرخ المغول الكبير . رشيد الدين فضل الله الهمزاني » للدكتور فؤاد الصياد . الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة عام ١٩٦٧ م .

حياته من إكمال دراسته لأقسام العلوم المختلفة ، فتعمقت معرفته بدقائق الفنون العقلية والنقلية وأصبح كما يقول الشاعر :

(بيتان ، ترجمتهما)

— لقد أعادت حكمته البالغة

—، السماع إلى الأصم

— ودرمى العلوم الطبيعية كلها . :

—، فعرف مر المولود والعنصر ولأجرام

وكانت رياض الفضل والفصاحة — بفضل كتابته القيمة — ناضرة مزدهرة ،

وكانت حدائق الإنشاء والبلاغة مليئة بالجواهر المتلألئة من قطرات قلمه .

(بيت ، ترجمته) :

— كان قلمه ينثر الجواهر

—، وكانت كلماته تنظم اللؤلؤ والمرجان

ومن بين مؤلفات ذلك الوزير الحكيم كتاباه « جامع التواريخ رشيدى » ،

« توضيحات » ، وهما معروفان [٣١٦] بين الناس ومشهوران ، وحكاياتهما الغربية وموضوعاتهما الطريفة مذكورة ومترددة على ألسنة جمهور الفضلاء .

والخلاصة أن ذلك الوزير العظيم كان من حكماء المغول في عصر آباقاخان ،

كما صار موضوع الرعاية والاهتمام في عهد أرغون خان وشملت العناية السلطانية .

ولما أصبح كيخاتوخان سلطاناً قلده منصب الوزارة ، ولكن رشيد الدين — لأمر

اقتضته مصلحته في ذلك الوقت — لم يتشرف بمرسى الوزارة بوجوده .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد ذكروا هذه الحكمة منذ الأزل

—، حقاً لكل وقت عمل ولكل عمل وقت !

— فيجب توفير الوقت للأعمال

—، فأى عمل — دون توفير الوقت اللازم له يصبح ضعيفاً واهناً !

وبعد أن اعتلى غازان خان عرش السلطنة ، استشهد الوزير صدر الدين

الزنجاني ، فتحول اهتمام السلطان المغولي إلى رشيد الدين وجعله متصرفاً في مصالح الناس برأيه الصائب ، ومنظماً لأُمور الرعية بفكره المتفتح .
(بيت ، ترجمته) :

— لقد ارتعدت قلوب الأعداء خوفاً من قوته وجبروته
— ، وتيسرت أُمور الأصدقاء أملاً في لطفه وعنايته

وعاش الوزير رشيد الدين في غاية من السعادة والرفعة حتى آخر أيام السلطان غازان . ولما تولى السلطان محمد خواربندة مهام السلطنة ، قدم لذلك الوزير الحميد شتي أنواع العناية والاهتمام — أكثر مما قدمه له أخوه من قبل — وجعل [٣١٧] مكانته أعلى من مكانة جميع رجال الدولة ، وفتح ذلك الوزير العادل أبواب الإنصاف أمام الخواص والعوام ، كما جعل أهل العلم والفضيلة موضع رعايته المباشرة ، وأقام لهم يقاع الخبر لسكنائهم . ولا زالت آثار خيراته ذلك الرجل العظيم واضحة وباقية حتى يومنا هذا في ولايات العراق ، وآذربيجان ، ولا يزال الشعراء والكتاب يتحدثون بمدحه والثناء عليه لوفرة نعمه وعطاياه .

بيت عربي :

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ولما وضع القضاء والقدر نهاية الحياة الوزير سعد الدين — على يدي السلطان البخايو — أشرك السلطان خواجه عليشاه البخيلاني في الوزارة مع الوزير رشيد الدين . وقد قرب السلطان البخايو — في أواخر أيامه — الوزير عليشاه كثيراً ، فأخذ يفصل في بعض الأمور دون علم من الوزير رشيد الدين ، ولهذا السبب سيطر الحزن والملل على نفس رشيد الدين وشكا إلى السلطان قتيلاً له : « حيث إنني أسبق من الوزير عليشاه في منصب الوزارة ، فإنه يلزم عليه أن يتبعني ! وإذا كان هو قد استقل بإدارة هذا المنصب فإنه يلزم على أن انتقل إلى إدارة عمل آخر ! والآن على الوزير عليشاه أن يختار بين واحد من هذه الأمور الثلاثة ، ومن جانبي فأنا موافق عليها مقدماً : الأمر الأول ، يتعهد بإنجاز جميع شئون الديوان وأتفرغ أنا لعمل حسابات السنوات السابقة . الأمر الثاني ، يترك جميع الأمور المتعلقة بالوزراء حتى أقوى بالعناية السلطانية [٣١٨] وأفرغ من تدبيرها ، الأمر الثالث ، تقسم ولايات

السلطنة إلى قسمين ، ويقوم كل منا بالإشراف على قسم منها ونظهر كفاءتنا كل بقدر ما نستطيع ! » فرد عليه السلطان الجايتو بقوله : « إن الوزير رشيد والوزير عليشاه كلاهما رجل كفء ، فرشيد الدين رجل محنتك عالم وعليشاه شاب مدرب عاقل ، ومصلحة الدولة هي في أن يقوم الاثنان منفقان بالبت في أمورها على أن ينظر الشيخ للشاب بعين الشفقة والرحمة وينظر الشاب للشيخ بعين التعظيم والاحترام ولا يخرجان عن دائرة الاتفاق »

وبناء على أوامر السلطان تصالح كل من الوزيرين العظيمين واشتركا في إدارة الأمور مرة أخرى ، ولكنه بعد أن توفي السلطان محمد خدابنده واعتلى السلطان أبو سعيد عرش السلطنة ، دب الخلاف مرة أخرى بين الوزيرين . ومهما حاول الوزير عليشاه أن يتصيد للوزير رشيد الدين خطأ أو تقصيرا فإنه لن يصل إلى هدفه .

وفي تلك الأثناء توجهت جماعة من عمال الديوان إلى رشيد الدين وقالوا له : « بعد إذن جناب الوزير جئنا من أجل أمر يدين الوزير عليشاه ، لقد ثبت عليه مبلغ من المال ! » ولكن رشيد الدين - لطيب نفسه وطهارة منبته - لم يهتم بكلامهم وقال لهم : سوف أقول لعليشاه أن يسترضيكم فخاب أمل تلك الجماعة عند رشيد الدين ، لكنهم عند عليشاه قدموا الرشاوى للنواب والأمراء حتى تغيروا على [٣١٩] رشيد الدين ونسبوا إليه المعاييب أمام السلطان أبي سعيد بهادرخان ، فعزله في أواخر شهر رجب عام ٧١٧ هـ .

وبعد انقضاء خمسة أوسنة شهور تقريباً على هذه القضية ، طلب الأمير جوبان رشيد الدين وقال له : « إن وجودك في بلاط السلطان مطلوب ولازم ازوم الملح للطعام ، وتدبير شئون الجيش والرعية بدون الاستعانة برأيك الصائب إنما هو تدبير خاطيء ولا بد لك أن تعود مرة أخرى إلى الخدمة ، وتقوم بالبت في أعمال السلطنة » فأجاب رشيد الدين قائلاً : « لقد قضيت أيام عمري في الخدمة ، وقد ولى شبابي الآن وبدأت أستقبل أيام الشيب وانتهى عهد الشباب وعهد التطلع إلى العظمة والسعادة - وضعف غصن آمال الشباب بسبب تقلبات الأيام وهبوب رياحها العاتية !

(بيتان ، ترجمتهما)

— لقد أصبح ظهري بسبب ذلك العمل — كالقوس

— ، ونفذ السهم من عمري الجليل

— وأمسك الدهر بي وهو يقول لي :

— ، انهض ، فما نزلت به ليس منزلك

وما حققته أنا في الوزارة لم يتيسر لغيري ، وقد بلغ الآن ثلاثة عشر من أولادي رشدهم ، والأولى أن يكونوا هم عوضاً في الخدمة ، أما أنا فعلى أن أتدارك ما فات ، وعلى سادتي أن يطووا صفحة النسيان على حالي »

[٣٢٠] . (بيت ، ترجمته) :

— إنه ليجب على الأسياد

— ، أن يعتقدوا ذلك الشيخ الكبير !

ولكنه رغم ما أبداه رشيد الدين من إسهاب أكثر في مجال الندم والاستغفار فإن الأمير جوبان صمم على تكليفه بقبول منصب الوزارة ، فرضي رشيد الدين في النهاية . ولما بلغ هذا الخبر عليشاه والجماعة التي كانت قد أوقعت بالوزير ، تملكهم الاضطراب وخذعوا أبا بكر أقا — وكان مقرباً جداً من الأمير جوبان — بكثرة الأموال حتى يغير نفس الأمير على الوزير المخلص . ورغم أن الأمير جوبان كان طيباً جداً مع الوزير إلا أنه كان ذا عقل ساذج لدرجة أنه كان يحقق لكل شخص ما يطلبه حسب مايقوله ، وقد بلغ الأمر إلى درجة أن أعداء رشيد الدين قالوا له : « إن إبراهيم بن رشيد الدين — وكان ساقياً للسلطان الجلايتز — قد دس السم للسلطان بتحريض من والده وقد توفي السلطان محمد خوابنده بسبب ذلك ! » ونقل الأمير جوبان هذا الحديث إلى السلطان أبي سعيد بهادرخان وشهد بذلك أميران آخران كانا قد تقاضيا رشوة — فصدر الحكم بقتل ذلك الوزير الطيب وابنه إبراهيم . وكان استشهادهما في السابع عشر من جمادى الأولى عام ٧١٨ هـ ، وقد سجل مولانا جلال الدين العتيقي تاريخ تلك الواقعة في هذا البيت :

(بيت ، ترجمته) :

— حينما رحل رشيد الأمة والدين إلى الدار الآخرة

—، سجل كاتبها تاريخ رحيله وهو عام ٧١٨ هـ

[٣٢١] ومن المقطوع بصحته أن معظم أفراد تلك الجماعة التي أوقعت
برشيد الدين — رحمه الله يشاء القدر أن يقتلوا في نفس العام الذي قتل فيه
ورحلوا إلى دار العقاب .

(بيت ، ترجمته) :

— دع المسيء إليك تحكم عليه الأيام

—، فسوف تجعله الأيام تابعا وعبدًا لك !

الوزير تاج الدين عليشاه الجيلاني :

كان عليشاه وزيراً فاضلاً ذا تدبير صائب ، وكان شعاره العدل ورعاية
الشرع . وكما ذكر من قبل فإن السلطان محمد خدابنده أسند إليه الوزارة بالاشتراك
مع الوزير رشيد الدين وذلك بعد مقتل الوزير سعد الدين محمد الأوجي .
وقد جاء في كتاب جامع التواريخ ما يلي :

« كان الوزير عليشان في أو ثل أيام اشتغاله بالوزارة في غاية من علو الهمة ، وقد
أقام حفلاً للسلطان ولأمراء الدولة في بغداد ، قدم في ذلك الحفل هدية للسلطان
عبارة عن درع مرصع باللائع الساطعة والجواهر الزاهرة يزن أربعة عشر رطلاً ،
وتاجاً مكالاً عبارة عن قطعة من الياقوت تزن أربعة وعشرين مثقالاً ، وكذا تسعة
غلمان حنفي الطلعة بمعاجم ذهبية ، وتسعة جياذ عربية أصيلة أسرجتها وألحمتها
كانت جميعها ذهبية ، ولما استشهد الوزير رشيد الدين في شهر جمادى الأولى عام
٧١٨ هـ ، انفرد عليشاه بإدارة الوزارة ، وسلك سبيل العدل والإنصاف ، وأقام
أبنية رفيعة من مدارس وخوانق وأربطة [٣٢٢] ومساجد ، وأوقف عليها
أوقافاً طيبة ، وفي عام ٧٢٣ هـ داهم الوزير تاج الدين عليشاه مرض شديد لدرجة
أن الأطباء المهرة عجزوا عن علاجه وتوقفوا عن وصف الدواء له ،

(مصراع ، ترجمته) :

— « ما فائدة العلاج إذا انتهى الأجل »

ولقد دميت قدما السلطان أبي سعيد بهادرخان من كثرة زيارته للوزير
وعيادته ، ورغم ذلك لم يتوان عن زيارته . وقد انتقل ذلك الوزير صائب التديير
من دنيا الفناء إلى عالم الخلود ، وحملوا نعشه حسب شريعة سيد المرسلين —
صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، ونقلوه إلى منطقة تبريز ودفنوه بجوار مسجد
كان قد أقامه :

(بيت ، ترجمته) :

— ليغفر له الله من فضله

— ، وليهنأ ويسعد في رياض الجنات

ومن أغرب الحالات أن السلطان أبا سعيد بهادرخان كان يكرم ابني الوزير
عليشاه الجيلاني كثيرا ، وأراد أن يسند منصب الوزارة إلى أحدهما ، وفي تلك
الأيام تنازع الأخوان فيما بينهما وكادا لبعضهما ، ودخلا في خصومة كبيرة حتى عزلها
من المناصب ، وصادر ما كانا قد جمعا طوال العمر .

(بيت ، ترجمته) :

— إنني لا أشكو من الغرباء لأن

— ، كل غم وصل قلبي إنما هو من الأقرباء

وعندئذ تصالح الأخوان وتصافيا مع بعضهما ، وأخذوا يفكران ليل نهار
في كيفية حصولهم على ما يسد رمقهما .

(بيت ، ترجمته) :

— من الأفضل أن يظل الكلب جائعا طالبا للخبز

— ، لأنك لو أشبعته تحول إلى عدو !

[٣٢٣] الوزير ركن الدين صاين :

كان ركن الدين أحد أبناء ضياء الملك محمد بن مودود ، وضياء الملك كان
يعمل في وظيفة عارض الجيش في عهد السلطان محمد خوارزمشاه ، وفي الوقت

الذى هزم فيه السلطان جلال الدين - عند شاطئ نهر السند - على يد جيش الفاتح جنكيزخان وتوجه إلى الهند ، كان ضياء الملك في صحبة السلطان . ولاشك أنه لما عاد السلطان من هذه البلاد ، قدر خدمات ضياء الملك السابقة وجعله موضع عنايته ورفع قدره ومزلته إلى عنان السماء ، ولكن ضياء الملك توفى وهو في قمة المحجد والسلطان ، وأما ركن الدين صاين فقد نال لقب « نصرة الدين العادل » وزفع لواء الاستقلال ونسى أفضال الأمير جوبان عليه ، فكان يتحدث دائماً عن معاييه هو وأولاده أمام السلطان أبى سعيد . ولما علم الأمير جوبان بتغير السلطان عليه ، ونجى الوزير السوء التدبير ، اصطحب معه ركن الدين صاين بحجة قيامه بتنظيم العمل في ولايات خراسان ، وتوجه مسرعاً إلى تلك البلاد .

وأثناء غياب الأمير جوبان اتهم ابنه « دمشق خواجه » - وكان صاحب تصريف أمور الملك والمال - بإحدى محظيات السلطان أوجليتو ، فأصدر السلطان أبو سعيد خان - الذى كان قد ضاق بتسلط الجوبانيين - الأمر بقتله ، وطوى القدر بساط حياة دمشق خواجه ، ولما وصل هذا الخبر إلى الأمير جوبان في خراسان - الذى كان يتصور بأن تغير السلطان إنما هو بسبب وشاية وكيد الوزير نصرة الدين العادل - استدعى [٣٢٤] الوزير وأمر الجلاد بقتله في الحال ، فتحير ركن الدين صاين ولم يجد فرصة للمناقشة ورجا الجلاد قائلاً له :
أقطعني نصفين !! فسأله الجلاد عن هذه الحكمة من هذا الرجاء . فأشار الوزير إلى الأمير .

(بيتان ، ترجمتهما) :

- وقال له : لأن الظهر الذى يجعل

- ، اعتماده عليك في الدنيا

- يلزم أن تكون نهايته بضربة سيف

- ، وهذه تكون عاقبته أيضاً

الوزير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد

كرس غياث الدين همته العالية وهو في عنفوان الشباب - أطيب فترات العمر - في تحصيل الفضائل النفسانية ، والترود بالكلمات الإنسانية ، وأصبحت

ذاته المحمودة الصفات - خلال فترة قصيرة - محالة بحلية الكمال والفضيلة .
كما أبدى مهارة فائقة في أكثر الفنون والعلوم واشتهر بطلاقة اللسان وفصاحة البيان ،
وحسن الخلق ولطف الطباع ، وسلامة النفس وتفتح الذهن . وقد سعد وهو
في أوائل أيام شبابه بأداء فريضة الحج والطواف بروضة خير الأنام عليه الصلاة
والسلام ، وعصم نفسه عن ارتكاب المنهيات ، ولما قتل السلطان أبو سعيد بهادرخان
الأمير دمشق خواجه بن جوبان ، أسند إلى غياث الدين محمد مقاليد الأمور وإدارة
مهام الملك والمال ، وأشرك معه في الوزارة خواجه علاء الدين محمد - من
أعيان خراسان ، ولكن الوزير علاء الدين محمد تولى ديوان الإستيفاء بعد مرور
[٣٢٥] ثمانية أشهر ، وانفرد غياث الدين محمد بالوزارة ، وجلس ذلك الوزير
صافي الضمير على عرش السلطنة بالإرث والاستحقاق ، فعمل على إحياء مراسم
العدل والإحسان ، وتوفير الأمن والأمان ، وكسب حب الجيش والرعية ،
والاهتمام بالزراعة والعمارة ، كما بذل جهداً كبيراً - من أجل تدعيم أركان الدين
المتين ، وتثبيت شريعة سيد المرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين ، ونمت وترعرعت
أغصان آمال أهل الفضل والكمال من رشحات كرمه وأفضاله وأخذت رياض
أمانى علماء الدين والسعداء في الحياتين رونقها ونضرتها من قطرات فضله وإحسانه ،
(رباعى ، ترجمته) :

- حينما صاح هاتف دولتك في العدل
- ، فتح العدل أبواب الرحمة على الناس
- فطمع العجوز في العيش في هذه الدنيا البالية
- ، لأنه أصبح بفضل شبابك شاباً
ونعمت الأمم جميعاً بالراحة بفضل رعايته ، وعمت الرفادة والسعادة جميع
الناس بيمين عدلته
(بيت عربى) :

عاد الزمان إلى جميل صفاته . ويفوح رياح المسك من نفحاته
وقد عم غمام إنعامه العامة والخاصة ، وامتدت يده الكريمة إلى كل محتاج
ورام ،

(بيت ، ترجمته) :

— لقد سقا كأسه الطاهر الأزهار في كل مكان

— ، فكل قطرة تنزل على الأرض إنما هي من إنعامه

وقد شيد غياث الدين مدرسة في منتهى الجمال والاتساع ، تبرز ، سميت
تلك المدرسة بالغياثية وأوقف عليها مزارع طيبة ومشروعات نافعة .

[٣٢٦] فلا عجب أن ألف أعلام العلماء وأفاضل الناس كتباً قيمة ورسائل
مفيدة باسم ذلك الوزير العظيم ، ونالوا بذلك قسطاً وافراً من نعمه وإحسانه ،

(بيت ترجمته) :

— لقد تحدث الخلق جميعاً بمدحه

— ، كما تفانوا في خدمته وطاعته

فكتاب المختصر لابن الحاجب ، وكتاب مواقف وفوائد غياثية لفخر العلماء
المتبحرين القاضي عضد الدين الإيجي ، وشرح المطالع وشرح الشمسية لزبدة الفضلاء
المتأخرين مولانا قطب الدين الرازي ، وكتاب تاريخ كزیده لحمد الله المستوفى القزويني
وقصيدة المصنوع والمنظوم لسلطان الساجي ، جميعها أدلة وبراهين صادقة على
ما ذكرناه ومن الكلمات المضيئة لبعض الكبراء العظام — الذين لا يشك في صحة
رواياتهم — سمعوا مايلي : « في يوم من الأيام سأل الأمير الشيخ أبو إسحاق —
الذي كان قدوة لسلطين الآفاق وحاكماً لولايي فارس والعراق — القاضي عضد
الدين الإيجي قائلاً له : هل لقي أهل الفضل والفضيلة في عهد السلطان أبي سعيد
بهادرخان رعاية واهتماماً أكثر أم في عهدي ؟ فابتسم القاضي وأجاب بقوله :
سوف أقص لك حالي أنا العبد الفقير وهو أن غياث الدين محمد وزير السلطان
أبي سعيد بهادرخان حينما أنعم علي بعطاياه ثلاث مرات خلال مجلس واحد تحقق لي هذا
القدر من المال ، الذي يأخذ عنه نواب ديوانكم الآن سنوياً [٣٢٧] مبلغ ثلاثين ألف
دينار عراقي وهو ما يوازي عشر أملاكى (١) ، وعندئذ طلب منه السلطان توضيحاً
لذا الكلام ، فقال القاضي : كان من عادة الوزير السعيد أن يلتقي مساء كل جمعة

(١) إشارة إلى زكاة العشر التي تؤخذ من الأموال التي يمر عليها عام دون أن تتحرك في تعامل

حسب الشريعة الإسلامية .

بالعلماء والفضلاء ، ويحكى لهم من عنده أربع مسائل ويجلس ، ثم يعطى الفرصة لتلك الجماعة يتحدثون على اختلاف مشاربهم ، وبعد عمل المناظرة العلمية ، كان يقرب إليه الشخص الذى يستحسن كلامه ، وفى أحد مجالس المناظرة هذه لنى كلامى قبولا لدى ذلك الراعى لأهل الفضل والكمال ، ونادانى للجلوس بالقرب منه ثلاث مرات وأجلسنى بجانبه مباشرة ، ولما علم أركان الدولة بهذا الاهتمام بى من جانب الوزير ، شملونى هم أيضا برعايتهم فلما سمع الأمير الشيخ أبو إسحق هذه الحكاية أهدى القاضى الأموال التى كان يأخذها عمال ديوانه منه كل عام وذلك فى صورة هدية من أملاك السلطان . وطبقاً للكلمة المأثورة : هذا من بركات البرامكة ، فاز ذلك الفاضل بهذه العظيمة فجرد نقله لإحدى السير الحميدة لذلك الوزير العظيم .

(رباعى ، ترجمته) :

— يامن أصبح عرش الإقبال مقامك ومقعذك

— ، يامن نظمت برأيك الصائب شئون البلاد

— إذا أردت أن تصبح محمودا فى العالمين

— ، داوم على الاهتمام بأهل الفضل ؟

والخلاصة أن مكانة الوزير غياث الدين محمد قد تغلبت فى القوة والاعتدال على الفلك الدوار ، وقد [٣٢٨] خشيت منه جماعة كانت قد أساءت إلى أسرة رشيد الدين ، ولكن ذلك الوزير الحميد — على عكس ما ظنته فيه تلك الجماعة — جعلهم جميعاً موضع حطفه وإحسانه .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كل شخص يضع الخالق فى

— ، يده تدبير أمور الخلائق

— الأفضل له أن يعمل على تحقيق

— ، السمعة الطيبة لأنها هى التى تبقى تذكارا للعظماء

كما يحكون كذلك عن حلم الوزير غياث الدين محمد وسلامة نفسه فيقولون :

كان نارى طغاي من الأمراء العظام للسلطان أبى سعيد بها درخان ، وقد أسند إليه السلطان لفترة حكم خراسان، وبعد ذلك أعمل الفتنة والظلم والفساد في ولايات خراسان ، ثم توجه إلى قصر السلطان بهدف قتل الوزير غياث الدين محمد ، ونظرا لأن السلطان كان قد سمع عن ظلمه وطغيانه ، وما يتوبه بالنسبة للوزير ، فقد تجاهله ولم يسمح له بلقائه ، فسلح نارى طغاي مجموعة من خدمه وجهزهم وأوقفهم على باب مدرسة كانت تقع بجوار منزله وحمل هو سلاحه وتوجه إلى منزل الوزير ، وطلب الدخول مع عدد من الخدم بحجة قيام الوزير بالفصل في مشكلة تخصهم ، فقال له ، شقيق الوزير غياث الدين محمد : إن أوامر السلطان تقضى بأن لا يدخل على الوزير أى شخص مسلح ! فترك نارى طغاي سلاحه مضطرا ودخل بمفرده ، ولما وجد أن سهم تدبيره لم يصب هدفه أبدى التواضع [٣٢٩] للوزير والاحترام ورجاه أن يعمل على تطيب خاطر السلطان من ناحيته ، ويسعى بأى شكل من الأشكال ليجعله يتشرف بلقائه ، فوافق الوزير على هذا الملتمس وقال له : عليك أن تركب الآن لأننى سوف أخرج أنا أيضاً لمقابلة السلطان وأعرض أمرك عليه ؟ فركب نارى طغاي وانضم إلى الرجال الذين كان قد أوقفهم أمام باب المدرسة ووقف معهم متحينا فرصة تنفيذ فكرته السيئة ، ولكن الوزير خرج من باب آخر وتوجه لمقابلة السلطان ، وقد حدث الوزير السلطان ببيانه الفصيح عن ملتصق نارى طغاي الشرير .

(بيت ، ترجمته) :

— القمر ينشر الضياء وتغوى الكلاب

— ، وكل شخص يحب طبيعته وطيبته يتصرف

فتعجب السلطان من سلامة نفس الوزير الزائدة وقال له : ألا تعلم قط ماذا يمكنه لك نارى طغاي ؟ فقال الوزير : أنا عبد هذه الحضرة ومحاط برعاية السلطان وكل شخص ينتوى لى شراً دون ما سبب فسوف يحقق به حتى بمقتضى الآية الكريمة « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله (١) »

(١) سورة فاطر ، آية «٤٣»

(مصراع ، ترجمته) :

— « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » .

فأمر السلطان على الفور بالقبض على نارى طغاي وهرب نارى حينما علم بصدور هذا الحكم لكنه فى النهاية وقع فى الفخ وقتل فى غرة شوال عام ٧٢٩ هـ وصدق عليه معنى القول المأثور « من حفر بئراً لأخيه وقع فيها »

وقد ظل الوزير غياث الدين محمد يعمل وهو فى غاية من الحرية والاستقلال ينشر العدل والإنصاف ، ورعاية أهل [٣٣٠] الفضل الأشراف حتى آخر أيام حياة السلطان أبى سعيد بهادرخان ، ولما توفى السلطان أبو سعيد فى الثالث عشر من شهر ربيع الآخر عام ٧٣٢ هـ ، اتخذ الوزير غياث الدين محمد برأيه الرزين وعقله الخبير الإجراءات اللازمة وجعل أركان الدولة يتفقون على تولي أرباخان السلطنة ، فى الرابع عشر من الشهر المذكور اعتلى أرباخان عرش السلطنة ، فعمل على إقامة مراسم العدل والإنصاف بمشورة الوزير الهام ، ولكن الأمير على بادشاه - خال السلطان الراحل والذي كان يتولى الحكم فى ديار بكر - رفع راية العصيان ونادى بتنصيب موسى خان سلطاناً ، وأعد جيشاً كبيراً ورفع راية الحرب والجidal ، فاستعد أرباخان للقائه ومحاربتة . وفى تلك الأثناء جاءته رسالة من قبل المتمردين تقول : أو يمنح السلطان الأمير على بادشاه منصب أمير الأمراء فإنه سوف يترك العصيان وينهض لمقابلة السلطان ، فلم يقل الوزير غياث الدين محمد ذلك العرض وقال :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لن يتم الرضوخ للعدو مطلقاً

— ، حتى لو اتخذ له السماء مسكناً !

— فهل تتلقى الصقور الأوامر من العصافير !

— ، وهل تخضع الأسود للثعالب !

وفى تلك الأثناء أراد أرباخان القضاء على جماعة من العسكريين اتهموا بالمولاة لموسى خان والأمير على بادشاه فاعتبر الوزير غياث الدين محمد - من بالغ غروره - وجودهم وعدمهم سواء وقال :

(مصراع ، ترجمته) :

« أى داع لهذا الأمر والفكرة لاتصم الآذان ! »

والخلاصة أن الجيوشين التتقيا بالقرب من نفتوان فى يوم السبت السابع عشر من شهر رمضان عام ٨٣٦هـ [٣٣١] ودارت بينهما حرب طاحنة ، كذب فيها للأمير على بادشاه الظفر والانتصار مصداقاً لنص الآية الكريمة « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله (١) » وأما أرباخان والوزير فقد هرب كل منهما إلى ناحية وتعقبهما جند موسى خان وقبضوا على الوزير غياث الدين محمد فى قباب مراغة الثلاث وحملوه إلى الأمير على بادشاه - ورغم أن الأمير على ما كان يحمل فى نفسه الكثير من الآلام للوزير ، إلا أنه قدم له مراسم الإعزاز والاحترام ونادى بمعاملته بتمتى المروعة والإنسانية ، لكن ساءر الأمراء اتفقوا جميعاً على قتل ذلك الوزير العالم العادل ذى الأخلاق الحميدة . واستشهد الوزير غياث الدين محمد بن رشيد الدين فى الحادى والعشرين من شهر رمضان من العام نفسه ، كما تم القبض فى تلك الأيام كذلك على أرباخان ولحق بالوزير ، وقد نظم أحد الفضلاء هذه الأبيات فى رثاء ذلك الوزير الفاضل :

(مرثية أربعة أبيات) :

- من كانت مرتبته اليوم كمرتبة النجوم
- ، قضى عليه الفلك وواراه التراب
- وأخذ الخزانى بمزقون ثيابهم
- ، حزناً عليه وتعلقاً به حتى الصباح
- ويصيحون الغياث الغياث ، ويردد
- ، المغمومون النواح والآنين !
- لأنهم يهلكون وزيراً له تلك المكانة
- ، الرفيعة . بهذه الطريقة الوضيعة

(١) سورة البقرة ، آية « ٤٩ » .

الوزير علاء الدين :

كان الوزير علاء الدين من أعيان خراسان ، وكما ذكرنا من قبل فقد اشترك في الوزارة غياث الدين [٣٣٢] محمد مدة ثمانية أشهر للسلطان أبي سعيد بهادرخان ، وبعدها رأس ديوان الاستيفاء ، ثم أسندت إليه وزارة ولايات خراسان فتوجه علاء الدين إلى تلك المنطقة وظل يعمل بضبط وتنظيم أموال تلك المنطقة حتى وفاة السلطان . وبعد موت السلطان توجه إلى طغا تيمورخان الذي كان حاكماً على عرش المغول في منطقة جرجان وأصبح موضع عنايته واهتمامه وأُسند إليه كما كان - منصب الوزارة في منطقة خراسان .

وفي الوقت الذي تمرد فيه الأمير عبد الرزاق أول ملوك السربدرايين في قرية باشتين ، كان الوزير علاء الدين محمد في قرية فريومن وتقدم للقضاء على فتنة الأمير عبد الرزاق ، وقد نشب القتال بين الجانبين ، فاستشهد الوزير في تلك الحرب « يفعل الله ما يشاء » ، ويثبت ما يريد أنه حميد مجيد »

الوزير الأمير جمال الدين بن تاج الدين الشرواني

حينما بلغ الأمير على بادشاه مرتبة عالية ووصل إلى مركز قوى أسند منصب الوزارة وإدارة الديوان إلى الأمير جمال الدين الشرواني الذي كان والده حاكماً لفترة من الوقت على بعض ولايات عربستان ، وقد فتح ذلك الرجل العاقل عين بصيرته خلال فترة توليه الوزارة - لأنه لم تكن لديه ثقة في تلك الدولة - فلم يتسع لإلحبة الناس ولم يقدم على تنفيذ عمل قط دون إرضاء العدو والصديق ، لأن :

(بيت ، ترجمته) :

— الراحة في الدنيا والآخرة هي في معنى هذين اللفظين :

—، المروعة مع الأصدقاء ، والمداواة مع الأعداء (١) !

وحدث في ذلك الوقت أن نادى الأمير الشيخ حسن نويان - وكان ابن عمه السلطان أبي سعيد بهادرخان - [٣٣٣] بسلطنة محمدخان ، وتحرك من بلاد

(١) هذا البيت من نظم حافظ الشيرازي .

الروم لقتال الأمير على بادشاه وموسى خان ، ودارت معركة بين الطرفين في منطقة « قره دره » من توابع « اله ثاق » وذلك في الرابع عشر من شهر ذى الحجة عام ٧٣٦هـ ، انتصر فيها رجال محمد خان على رجال موسى خان وقتل بادشاه وانتهت وزارة الأمير جمال الدين ولكنه نجا من تلك الكارثة بفضل سلوكه الحميد :

(مصرع ، ترجمته) :

— « لقد أنقذته طبيته من الهلاك ! »

الوزير شمس الدين زكريا :

حينما وضع الأمير الشيخ حسن نوبان — وكان من أولاد أقبرقلاء جلایر ومشهور عند المؤرخين بالأمير الشيخ حسن الأكبر — محمد خان على عرش السلطنة وانتصر على الأمير على بادشاه والسلطان موسى خان وأدخل مملكتي العراق وآذربايجان في حوزته ، وأسند منصب الوزارة إلى خواجه شمس الدين زكريا ابن أخت به صهر الوزير غياث الدين محمد — وقد ظل الوزير شمس الدين يدير ذلك المنصب طوال فترة سيطرة الأمير الشيخ حسن وولديه السلطان أويس والسلطان حسين ، ونشر لواء العدالة والإنصاف خلال وزارته ، وعندما وافاه الأجل توفي على فراشه وترك السمعة الطيبة تذكاره .

الوزير غياث الدين محمد عليشاهي :

في الوقت الذي ولي فيه الأمير الشيخ حسن جوباني — المعروف بين المؤرخين بالشيخ (حسن كوجك) — سليمان [٣٣٤] خان سلطانا وأخضع مملكة آذربايجان ، أسند منصب الوزارة إلى خواجه غياث الدين محمد ، وظل غياث الدين يشغل ذلك المنصب حتى آخر أيام حياة الأمير الشيخ حسن ، وبعد أن :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— زال عصر الشيخ حسن جوباني

— ، بحكم القضاء والقدر الإلهي

— وقضى عليه على يد امرأته

—، في يوم المعراج عام ٧٥٤ هـ (١)

ونادى شقيقه ملك أشرف، بسلطنة أنوشيروان نامى — وهو من نسل جنكيزخان — وتوجه إلى سليمان خان ، فهم الوزير غياث الدين محمد بأن أسنس سلطنة سليمان خان في سبيلها إلى الزوال ، ولا جرم أن ترك الوزير الوزارة وانضم إلى ملك أشرف وقضى — دون ماتدخل في شئون الديوان — بقية أيام حياته في كنفه .

الوزير عبد الحى :

كان عبدالحى وزيرا للسلطان أنوشيروان خان وملك أشرف ، وبعد أن تولى ذلك العمل فترة طويلة وبذل فيه جهدا طيبا ، قبض عليه الملك أشرف وأرسله إلى كيا — اسماعيل رودبای — ليحبسه في قلعة « الموت » ، ولكن كيا اسماعيل نظر إلى الوزير نظرة إعزاز واحترام وزوجه ابنة أحد أئماره ، وبدأ الوزير [٣٣٥] عبدالحى يرسل ماوك كيلا ، وبعث برسالة إلى الملك أشرف يقول له فيها : « سوف أدخل ملوك كيلا في حوزة نفوذك عن قريب ! » ولما عرف ملك بأن الوزير يقضى أوقاته في فراغ وبلا عمل ، ندم على إرساله إلى الموت ، ورأى أنه لو يطالب استدعاء الوزير فإن كيا سوف يرفض مطلبه ، وأخذ يفكر في حيلة توصله إلى هدفه ، فأخرج عن أبناء الوزير عبد الحى وعمن كان قد قبض عليهم من أقاربه ، وأسبغ عليهم الكثير من النعم والحسنات ، فبعثت تلك الجماعة إليه قائلة : « إن السلطان يهتم برعايتنا وينبغى عليك العودة » ، وأثناء ذلك كتب ملك أشرف رسالة وأرسلها إلى الوزير مع « بحرى الفراش » — أحد رجاله المخلصين — يلتبس فيها حضوره ، فما وقعت عينه الوزير عبدالحى على تلك الرسالة تملكه القلق وأخذته الخفة حبا في الجلوس على كرسي الوزارة ، ولوى عنانه صوب تبريز ، ومهما نصحه كيا اسماعيل قائلا له : « لاتعول على أقوال وأفعال ملك أشرف وابق في هذه الولاية خالى البال » ، لم تجد نصائحه ، وصحبه بحرى وترجه مسرعا لمقابلة

(١) من شعر: شاه مظفر الدين محمد الخالدي القزوینی .

— كتب التاريخ بطريقة حساب الجمل — لمعرفة طريقة حساب الجمل ارجع الى

— كتاب « راحة الصدور وآية السرور » للراوندى ، نقله من الفارسية إلى العربية :

الدكتور إبراهيم الشواربي ، الدكتور — عبدالنعم حسين ، الدكتور — فؤاد الضهاد . الترجمة العربية ، ح ٢٢٣ ، دار القلم ، القاهرة .

ملك أشرف هـ وأخبر بحرى أشرف بمجيء عبد الحى ، فقال أشرف لبجرى :
« أنزله فى منزلك وقل له بأن الأسير سيطلبك غداً ويقلدك الوزارة » ، ونفذ بجرى
ما أمر به هـ ، وفى اليوم التالى أركب جناب الوزير حصاناً هزيباً وأخذه إلى قلعة
أنجق - بأمر ملك أشرف - وسلمه لحاكمها . وبعد بضعة أيام بعث ملك أشرف
بعادل - رئيس الأسطول - أخرج الوزير من قلعة أنجق وحبسه فى قلعة من قلاع
کردستان [٣٣٦] . كان حاكمها يدعى موسى حيحى . وقد احترم موسى عبد الحى كثيراً ،
وظل الوزير يعيش معه معزواً مكرماً . وفى تلك الأثناء بعث الوزير عديم التدبير
بعريضة إلى ملك أشرف ذكر فيها أن موسى يهمل المحافظة على القلعة وربما يستولى
عليها الأكراد !

(بيت ، ترجمته) :

- حينما يغضب الدهر على أحد

- ، فاله لا يوفقه فى أى عمل يقدم عليه

فطلب أشرف موسى على الفور وعنفه هـ ، وما استفسر ذلك المسكين منه عما
جناه ، قدم له عريضة عبد الحى ، فطمأنه موسى بأدلة موضوعية بما بثبت أنه لم
يقصر مطلباً فى حراسة القلعة ، وحصل منه على مرسوم تجديد رئاسته للقلعة ثم عاد هـ
وعندئذ قيد موسى ذلك الوزير وحبسه فى غرفة مظلمة ، سد بابها بالأحجار والجص
وخرف ثقباً فى سقفها ، كان يلقى كل يوم منه برغيفين من الخبز للوزير الجاهل ،
وظل حل الوزير على هذا المنوال إلى أن انتقل من ذلك السجن إلى سجنه الأخير .

الوزير مسعود الدامغانى

أصبح مسعود وزيراً لملك أشرف بعد عزل الوزير عبد الحى ، وكان صهر الوزير
المذكور ، كما كان ذا خط جميل وإنشاء بليغ . وبعد أن عمل فترة قصيرة بإدارة
ذلك المنصب الخطير ، قبض عليه ملك أشرف فى [٣٣٧] أوائل محرم عام ٧٥١ هـ وسجنه
فى قلعة « روثين دز » . وفى ذلك الوقت سمع الملك العادل « جاني بيك خان » من
القاضي محيى الدين البرادعى بأنباء ظلم وتحسب ملئت أشرف هـ ، ورأى أنه من الواجب
عليه دفع شر أشرف « الحمار » وظلمه ، فتوجه على رأس جيش كبير صوب آذربايجان
وتمكن من أسر أشرف هـ ، وبذلك نعمت تلك المملكة بالعدل والإحسان ، وأسند

« جائى بيبك خان » حكم آذربايجان إلى أمير العالم « بيردى بيبك خان » وعاد هو إلى عاصمة ملكه. وبعد أن حقق هدفه — بعد فترة قليلة من الزمن — انتقل إلى جوار ربه ، وترك بيردى بيبك خان حكم تلك المملكة مضطرا وتوجه إلى عرش والده العظيم ، فاستولى شخص يدعى « أخى جوق » بمساعدة جماعة من أمراء أشرف على آذربايجان ، وأسند منصب الوزارة إلى خواجه عماد الدين محمود الكرمانى والأمير أبى بكر بن خواجه على شاه الجيلانى. وفي عام ٧٥٩ هـ قاد السلطان أويس بن الأمير الشيخ حسن الأكبر جيشا من بغداد إلى تبريز ، وهزم « أخى جوق » ، وبذلك انتهت وزارة الوزيرين المشار إليهما .

الوزير نجيب الدين :

حينما تولى السلطان أويس الحكم في تبريز ، أسند منصب أمير الأمراء إلى سليمان نامى ومنصب [٣٣٨] الوزارة إلى نجيب الدين — وكان شقيقا الأمير شمس الدين زكريا — وقد نظم مولانا إلياس قلندر — وكان على عداء مع صاحبي هذين المنصبين — هذه القطعة يهجوها :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد تفررت الإمارة لسليمان

—، والوزارة لنجيب الحيران

— فكان الفلك يقول للدنيا دائما عنها :

—، ها هو آصف وذلك سايمان

وبعد فترة قصيرة من الزمن عزل الوزير نجيب الدين .

الوزير علاء الدين :

لقد جلس الوزير علاء الدين على كرسي الوزارة بالاسم فقط حيث مرض في أوائل أيام إسناد الوزارة إليه وتوفى. كما توفى السلطان أويس في جمادى الأولى عام ٧٧٦ هـ وخلفه ابنه السلطان حسين الذى قتل بعد بضعة أشهر على يد أخيه، السلطان أحمد . وأثناء تلك الشهور القليلة بلغت انتصارات الفاتح الأمير تيمور كور كان إلى تلك الديار وأخضع وفتح جميع ممالك العراق وآذربايجان وفارس :

وزراء قطب الدين الأمير تيمورگوركان

وأولاده المشاهير

يرجع نسب السلطان الموفق الأمير تيمورگوركان - حسب ما ذكرته الكتب الشهيرة - إلى « قراجارنويان » الذي كان - في عهد الفاتح جنكيز خان - رأس قبيلة برلاس. وقد أصبح الأمير تيمورگوركان [٣٣٩] حاكماً على العالم في عام ٧٧١ هـ ، وظلت السلطنة في أسرته مدة ١٤٢ عاماً .

وفيما يلي أسماء طائفة من أولاده الذين ألقيت الخطبة وضربت العملة بأسمائهم :

- ١ - ميرزا خليل سلطان بن ميرزا ميرانشاه گوركان بن الأمير تيمورگوركان خلد الله ظله .
- ٢ - ميرزا پير محمد بن ميرزا جهانكير بن الأمير تيمورگوركان .
- ٣ - ميرزا شاهرخ بن الأمير تيمورگوركان .
- ٤ - ميرزا پيراشاه بن الأمير تيمورگوركان .
- ٥ - ميرزا أبوبكر بن ميرزا ميرانشاه .
- ٦ - ميرزا عمر بن ميرزا ميرانشاه .
- ٧ - ميرزا الاسكندر بن ميرزا عمر شيخ بن الأمير تيمورگوركان .
- ٨ - ميرزا ألغ بيك بن ميرزا شاهرخ .
- ٩ - ميرزا علاء الدولة بن ميرزا پايسنقر بن ميرزا شاهرخ :
- ١٠ - ميرزا سلطان محمد بن ميرزا پايسنقر :

- ١١ - ميرزا أبو القاسم بابر بن ميرزا بايسنقر .
- ١٢ - ميرزا عبد اللطيف بن ميرزا ألغ بيك .
- ١٣ - ميرزا عبد الله بن ميرزا إبراهيم سلطان بن ميرزا شاهرخ .
- ١٤ - ميرزا إبراهيم بن ميرزا علاء الدولة .
- ١٥ - ميرزا شاه محمود بن ميرزا أبي القاسم بابر .
- ١٦ - ميرزا سلطان أبو سعيد بن ميرزا سلطان محمد بن ميرزا ميرانشاه كوركان .
- ١٧ - [٣٤٠] ميرزا يادكار محمد بن ميرزا سلطان محمد بن ميرزا بايسنقر .
- ١٨ - أبو الغازي ميرزا سلطان حسين بن ميرزا منصور بن ميرزا بايغر ابن ميرزا عمر شيخ بن الأمير تيمور كوركان .
- ١٩ - ميرزا سلطان أحمد بن ميرزا سلطان أبي سعيد .
- ٢٠ - ميرزا سلطان محمد بن ميرزا سلطان أبي سعيد .
- ٢١ - ميرزا عمر شيخ بن ميرزا سلطان أبي سعيد .
- ٢٢ - ميرزا ألغ بيك بن ميرزا سلطان أبي سعيد .
- ٢٣ - ميرزا سلطان سعود بن ميرزا سلطان محمود .
- ٢٤ - ميرزا بايسنقر بن ميرزا سلطان محمود .
- ٢٥ - ميرزا سلطان علي بن ميرزا سلطان محمود .
- ٢٦ - ميرزا محمد حسين بن ميرزا سلطان حسين .
- ٢٧ - ميرزا بديع الزمان بن ميرزا سلطان حسين .
- ٢٨ - ميرزا مظفر حسين بن ميرزا سلطان حسين .
- ٢٩ - ميرزا أبو المحسن بن ميرزا سلطان حسين .
- ٣٠ - ميرزا محمد محسن بن ميرزا سلطان حسين والمشهور بـ «كبك ميرزا» .
- ٣١ - ميرزا بابر بن ميرزا عمر شيخ بن ميرزا سلطان أبي سعيد .

وكان من عادة هؤلاء السلاطين أنهم كانوا يقومون بتعيين الوزراء وعزلهم بسرعة جدا ، كما كانوا يعينون الرجال الأثرياء في هذا المنصب الجليل ، فلا شك أن وصل إلى منصب الوزارة في عهدهم عدد [٣٤١] كبير جدا ، والحديث عن جميع تلك الفئة يستوجب الإطالة ، ولذلك فسوف نكتفي بالحديث عن بعض أحوال المشاهير منهم ، ومن الله الإعانة والتوفيق .

الوزير عماد الدين مسعود السمناني :

كان عماد الدين من أعيان سمنان ، وظل يعمل فترة طويلة بالوزارة للأمير تيمورگوركان ، وفي تلك الأوقات التي كان يحاصر فيها ذلك السلطان القوى مدينة بغداد ، ترك الوزير مسعود على رأس القوة المحاصرة ، وشاء القدر أن أصابه سهم القضاء ، ففاز الوزير بغز الاستشهاد .

الوزير جلال الاسلام :

كان يتولى جلال الاسلام الوزارة مدة طويلة في عصر السلطان صاحب التأييد الأمير تيمورگوركان ، وكان يؤدي شئون الخدمة وواجبات الديوان كما يلزم وينبغي ، وفي الوقت الذي فرغ فيه الأمير تيمورگوركان من مهمة بغداد ، وسافر إلى تبريز ، التحق بخدمة ذلك السلطان السعيد خواجه على السمناني من هراة وخواجه سيف الدين تونى من سبزوار . وقد جعلها الأمير تيمورگوركان موضع عنايته وإحسانه ، وأسبغ على كل منها منصب صاحب الديوان ، وبدأت جماعة من كتاب الوزير مسعود السمناني في تحريض هذين السيدين للوشاية بجلال الاسلام ، وبالفعل نقل السيدان الحديث عهد بالخدمة وشاية الواشين إلى الأمير تيمورگوركان ، ولكن الأمير لم يصغ إليهما بعين الرضا والقبول . وفي اليوم التالي أخذ يناقش [٣٤٢] ذلك الكلام مع الوزراء العظام . وقد اعتمد جلال الاسلام على الموقف الذي كان قد لمسه في اليوم السابق ، ولم يهتم بما يدور في المناقشة فاستنفل السلطان مسلكه هذا ، وفي الحال عزل جلال الاسلام وسجن فانتهر الراشون الفرصة ونسجوا خيوط الكذب والصدق ببعضها وحصلوا مبلغا كبيرا من ممتلكاته وممتلكات عماله . وفي تلك الأيام أثر جلال الاسلام الانتحار على تعذيب الجلادين له ، فطعن نفسه بخنجر ، ولكنه نظرا لأن طعنة الخنجر لم تحقق الهدف منها ، فقد تحسنت صحته

في غضون يومين أو ثلاثة ، وأصبح مرة أخرى موضع عناية السلطان الذي أصدر أمره النافذ بإسناد قيادة جيش الايرانيين إليه على أن لا يتدخل مطلقاً في أمور المال . وفي عام ٨٠٥ هـ حينما أسر السلطان السعيد « ايلدرم بايزيد » قيصر الروم وأخذ جنوده المظفرون في فتح الولايات وتسخير القلاع في تلك البلاد ، أصاب سهم من قلعة « ألغ براخ » صدر جلال الإسلام واستشهد .
(بيت ، ترجمته) :

— الموت حق مهما تنوعت الأسباب

— ، فتارة يكون سببه الحجر وتارة يكون سببه السيف

وقد نظم أحد الفضلاء هذا البيت مثبثاً تاريخ حادثة استشهاد جلال الإسلام :
(بيت عربي) :

— كان تاريخه بنصف رجب

— « طيب روح وطاب مثواه » (١)

الوزير خسرو شاهي :

كان خسرو شاهي من عمال ماوراء النهر ، وفي الوقت الذي وقع فيه خلاف بين ميرزا أبي بكر وميرزا عمر من أولاد ميرزا ميرانشاه ، في آذربايجان والعراق أغار ميرزا أبو بكر على خزانة ميرزا عمر — وكانت موجودة في السلطانية — فجاء الشيخ خسرو شاهي من سمرقند وانضم إلى ميرزا عمر وتولى منصب الوزارة ، وقد تكفل بجمع ما يساوي الأموال والأمتعة التي سلبها ميرزا أبو بكر من خزانة السلطانية ، ولذلك فقد دفع عماله إلى مصادرة أموال الرعية ، كما أثقل كاهل تجار تبريز بالضرائب الباهظة .

وفي خلال فترة قصيرة من الزمن لحق بالسلطان والوزير نتيجة ظلمهما للناس ، وهرب الشيخ بصحبة بعض الأمراء ولجأ إلى ميرزا أبي بكر فأسره ثم قتله جزاء الأعمال السيئة .

(١) هذه الجملة بحساب الجمل توازي عام ٨٠٥ هـ . انظر المرجع السابق لمعرفة حساب الجمل .

الوزير كمال الدين محمود شهاب :

كان كمال الدين من بين الوزراء العظام لصاحب الجلالة ، وقد رفع راية الوزارة ومنصب صاحب الديوان مدة طويلة أثناء حكم صاحب القران الموفق..

الوزير غياث الدين سالار السمناني :

كان غياث الدين يتولى دائماً إدارة عظام المسائل الديوانية ، وكبار الأعمال السلطانية في عصر السلطان [٣٤٤] تيمور كوركان ، وفي العام الذي كان السلطان صاحب القران الأمير تيمور كوركان قد وجه جيشاً إلى بلاد الروم ، كان غياث سالار مشغولاً بتنظيم دار العبادة يزد ، وكان يشيد سوقاً لتجارة المنسوجات - في منتصف سوق المدينة الرئيسي - وذلك على نفقة الديوان الأعلى ، وعندما أشرف ذلك البناء على الانتهاء جاء خبر فتح بلاد الروم ، فأسمها « دار الفتح » ، والحقيقة أن أحداً لم يجد قط في شتى أنحاء العالم داراً لتجارة المنسوجات بمثل تلك في تكاليفها ونظامها ، وسارع غياث الدين سالار بعد وفاة السلطان صاحب القران الموفق للعمل في خدمة السلطان العظيم شاهرخ ميراز ، وقد شمله ذلك السلطان بعطفه وعنايته ، وفي عام ٨١٠ هـ كاد لسيد فخر الدين ، فعزل سيد وآل منصب الوزارة لغياث الدين سالار ، وبعد أن تولى شئون ذلك المنصب ، شمل الرعايا والمرعوسين بالعدل والإنصاف ، ولكنه ضايق الأمراء والمقربين للسلطان بكثرة النكير معهم والمساءلة لهم . وعند ذلك أعد قائمة يوضح فيها تصرفات وأوجه إنفاق جماعة من كبار الأمراء ، وأحصى عليهم كل بيضة دجاجة ، وكل دجاجة خروفاً وكل خر وف قطعاً ، وكل ذرة هالة وكل قشة جبلاً ، كما بالغ كثيراً في ضبط ميزانية الأثراك ، فجعل كل دائق ديناراً . ولما اكتمل تقييم الممتلكات في ذلك العام ، وتوقع الأمراء وأصحاب المناصب أن الديوان سوف يحملهم بأعباء ثقيلة ، أبدى جمع من مشاهير الأمراء أمثال جهان ملك وحسن جاندار ووالده يوسف خليل وولد تيمور تاش وبهلول بن تيمور وسلطان بايزيد عثمان - حينما عرض المحصلون القائمة عليهم - استياءهم من تلك التقديرات ، وأخذوا يفكرون في التآمر على [٣٤٥] السلطان السعيد شاهرخ ميرزا . ولما بلغ خبر تأمرهم إلى السلطان ، فضاخوا الهرب على البقاء وتوجهوا إلى سيستان ، فتعقبهم الأمير « مضراب حاكى » ،

ودارت بين الجانبين حرب طاحنة ، ابتلى فيها بعض العاصيين بشؤم الكفران بالنعمة ،
والبعض الآخر تم القبض عليهم بعد ذلك بوقت قصير وأعدوا .
(بيت ، ترجمته) :

— لا تمرد على ولى نعمتك والا . حق القتل عليك بسيف قاطع !
والخلاصة أنه بسبب هذه التصرفات أصبح أكثر الأمراء والمقربين عطشى
للشرب من دماء غياث الدين سالار كالمتعطش للشرب عن الماء الزلال . وبعد
مضى عام واحد من توليه الوزارة أثبت سيد فخر الدين على الوزير غياث الدين
مبلغ ثلاثمائة تومان ، كما أثبت الكثير من الخيانات فى أعمال الديوان عليه وعلى
عماله ، فاستل الأمراء العظام سيف الانتقام من نعمه وأودوا على الفور بحياة الوزير
غياث الدين سالار .
(بيتان ، ترجمتهما) :

— تمزق جسده على الفور إربا إربا
— بعمود ثقيل وحجر ويسيف حاد
— وهذه هى طبيعة الدنيا الغادرة
— ، فلم ير أحد وفاء من الفلك المتقلب

أوزير سيد فخر الدين محمد :

كان فخر الدين يتصف بعلو الهمة وسمو الرتبة ، وكان يزرع اللطف والإحسان
فى قلوب السادات والعلماء ، ولكن طبيعته كانت مجبولة على صفات العجب والنخوة
والكبرياء والأنانية ، وكثرة الظلم وقلة [٣٤٦] الرحمة ، وإلحاق الضرر بالناس ،
وقد اعتلى منصب الوزارة فى أوائل أيام حكم السلطان السعيد شاهرخ شيرازا —
وأدار ذلك المنصب منفردا ، كما نال حظاً وافراً من السلطنة — أكثر من ذى قبل —
بعد مقتل الوزير غياث الدين سالار ، وأخذ فى إيذاء واستئصال بعض العمال الذين
عادوا للعمل تحت رئاسته وحصل منهم بطريقة تعسفية ومؤذية مبلغ ثلاثمائة تومان
(بيت ، ترجمته) :

— لا تكن شجاعا فى إيذاء الناس .
— ، حتى لا تؤذى من الدهر العتيق

و أخذت مكانة سيد و منزلته ترتفع يوما بعد يوم إلى أن بلغت أعلى مراتب العظمة والجاه ، ونفذت أوامره - كأوامر القضاء والقدر - في جميع أنحاء البلاد وأصبح بلاطه محط آمال الصغار والكبار من شتى البلاد والديار ، ووفد على أعتابه أنصار وأشرار الممالك والأمصار .

(بيت ، ترجمته) :

— أصبحت مكانة الملك تستمد من مكانته

— ، وأصبح الملك تابعاً لسلطانه

وعندما كان أعيان الدولة وأشراف البلاد يذهبون للقائه فإنه لم يكن يأذن لأحد منهم بالدخول إلا بعد طول انتظار ، وبعد أن يأذن لهم كان يتحتم عليهم بعد ذلك أن يمروا على مئات الأبواب المغلقة ، ثم لا يسمح بعد ذلك بالدخول إلا لعدد قليل من المشاهير الذين كانوا يعرفون من أكثر اللقاءات دون ما شئ أنجزوه .

(بيت ، ترجمته) :

— ولم يكن يهتم بأمور المظلومين

— ، ولم يكن يسأل في شكاوى الشاكين

[٣٤٧] وبعد أن قضى الوزير ما يقرب من عشر سنوات في غاية الجبروت والاستقلال ،

هبط كوكب عظمته وإقباله من أوج الشرف والكمال إلى حضيض النكبة والزوال .

(بيتان ، ترجمتهما)

— هكذا طبيعة الدنيا القاسية

— ، تجعل عالمها سافلها أحياناً وتجعل سافلها عالمها أحياناً أخرى !

— وتجعل مآسيتها بعد عطاياها

— ، ومحنها بعد راحتها !

وتفصيل هذا الكلام هو أنه في خلال شهر عام ٨١٩ هـ أمر السلطان ميرزا

شاهرخ بهادر بتعيين ابنه الرشيد ميرزا بایستقر في منصب رئيس الديوان السلطاني

على أن يبحث مشكلات الفقراء والضعفاء وييسر بساط العدل والإنصاف ويأخذ

حقوق المظلومين من الظلمة والأشرار .

(بيت ، ترجمته) :

— لميسعد نفوس الناس بالإحسان

— ، ويعمر الدنيا بالعدل والإصاف

فلما زين الأمير بشرف جلوسه مقعد إمارة الديوان السلطان ، ووجه عناية خاصة — بفضل خبرته وذكائه — بتجسيم السائل وضبط وتنظيم الأموال ، وقف على صورة كاهلة لمسلك الوزير المذموم ، ولحياته غير المحمودة وطمعه في أموال المسلمين وسوء تصرفه في عائدات الدواوين .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد أثبت غياث الدين والدولة بايسنقر

— ، للسلطان تهوره البالغ

— ومسلكه المذموم ، وأن الناس

— ، أضيروا جميعا بسبب ظلمه !

[٣٤٨] ولاجرم أن كرس الأمير همته العالية من أجل دفع شره وأشرك الضاحك السعيد خواجه نظام الدين أحمد بن خواجه داود مع سيد فخر الدين في الوزارة ، فوقف الوزير نظام الدين أحمد — وكان متصفا بالذكاء الشديد وصباء الذهن — على حقيقة الأمور خلال فترة قصيرة ، وكان يردد — بالحد تارة وبالهزل تارة أخرى — بعض اللطائف الغريبة والكلمات العجيبة عن سيد فخر الدين ، وقليل بدكائه وقوته من تدخل سيد في الأمور ، وقد تضائق سيد من هذا التصرف .

(بيت ، ترجمته) :

— ماذا أفعل في عشقك فليس عندي حيلة على الصبر !

— ، وماذا أفعل إن كنت أقدر أو لا أقدر !

ورغم هذا الوضع فإن عمال الديوان الذين لمسوا أخطاء سيد فخر الدين كانوا يرتعدون خوفا من بطشه كما ترتعد أوراق الصفصاف من الرياح العاتية ، وكانوا يعتقدون باستحالة الاختلاف معه .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد بدا للعمال بسبب شدة بطشه
—، أنه لا يوجد أحد يجروء على مخالفته

ولكنه حينما وضح للجميع تغير ميرزا بايسنقر عليه باستمرار ، وقف الأمير على شقائي — وكان قد أودى كثيرا من سيد — موقف المعارضة منه ، وكتب للأمير قائلا له : « هل يخصص لسيد مبلغ مائتي تومان أم يخرجها من عهده ! » فأمر ميرزا بايسنقر بالتحقيق في هذه القضية ، فقال له الأمير على : « إن الوزير سيد صرف المبلغ كله من أموال الخزانة العامة » ، وأنكر سيد هذا الكلام ، وقد صدر الأمر بجر دالخزانة فار بعد الخازن [٣٤٩] واضطرب وقال للذين كانوا قد أخذوا مبالغ باسم سيد : أعيدوا إلى الأموال التي كنتم قد أخذتموها مني وإلا فإنكم سوف تعاقبون جميعا !! ، وكان من بين هؤلاء خواجه بير على بن خواجه محمد بايزيد — كاتم أسرار سيد ، وتوجد باسمه مستندات لدى الخازن أخذ على أساسها مبالغ سلمها لسيد — الذي قاضاه الخازن وطلب منه الذهب ، فأخذ يماطل كل يوم إلى أن بلغ الأمر حد الخشونة معه في الطلب واستغرق ذلك وقتا طويلا ، فانكشف الأمر ، وعرضت حقيقة هذه الأوضاع على ميرزا شاهرخ . وقد قام السلطان بنفسه بإجراء التحقيق ولما أصر سيد على الإنكار أمر السلطان بأن يسلم بير على ، أخذه من الخازن إليه كما يسلمه أيضا كل واحد ما أعطاه لسيد . وبناء على هذا حبسوا بير على وجماعة أخرى كانوا يتصرفون بتلك الطريقة ، وقوى سيد بهذا الاهتمام به وثبتت على مقعد الوزارة ، وأما تلك الجماعة التي وقعت في الحبس فكانت تتحدث فيما بينها بصوت مرتفع يسمع في الخارج لأنهم لم يكونوا يستطيعون التماس خوفا من عقابه .

(بيت ، ترجمته) :

— حينما لا يجد الإنسان فرصة للهرب

—، ما عليه إلا أن يمسك السيف القاطع بيديه !

وقد قدمت جموع من كل مكان كانوا قد قدموا رشاوى إلى الوزير سيد صائحين نادمين ، فتأمل سيد الموقف واعتقد أن مصلحته الآن هي في أن يعترف

بقبوله مبلغ المائتي تومان ولا يواجه أقوال المعارضين له ! فتعهد كتابه برد المبلغ المذكور خلال عام .

[٣٥٠] وحينئذ وضع الأمراء وعمال الديوان - حسب الأمر الصادر إليهم - قيداً ثقيلاً في قدمي الوزير سيد وسلموه للجلادين ، وقد بلغ الأمر أن أرسل سيد مضطراً رسالة إلى ميرزا بايسنقر تشفع فيها بروح حضرة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وأدرج هذا البيت ضمن الرسالة :

(بيت ، ترجمته) :

- إن كبدي لفي محنة وإن قلبي لغارق في الدماء

- ، فإن كنت تود أن تشملني بالرحمة فالآن وقتها !

فأجاب عليه الأمير بقوله : ليس عندي شك مطلقاً في أن الروح الطاهرة لحضرة خير البرية - صلوات الله عليه وسلامه - غير راضية عن هذه الأفعال البذيئة التي صدرت عن سيد ، ومع ذلك فإنني ليس في نفسي ضغينة له أو لأي شخص آخر من الناس وذلك الذي يحدث له الآن إنما هو نتيجة مظالمه ومساوئه !

(بيت ، ترجمته) :

- إن تظلم وتطمع في العدل ، ذلك محال !

- ، فما أسقيته للناس ، اشرب أنت منه الآن !

ولما استمع سيد لهذا الرد - الذي كان أمر من السم الزعاف - يش من ناحية الأمير ولجأ إلى والدته المرحومة « كوهر شاد بيكم آغا » التي تأثرت بضرعه وابتهاله وتشفعت له عند ابنها . ولا شك أن [٣٥١] تم الإفراج عنه لكن المحصلين ظلوا يذهبون لمقابلة سيد كل يوم - تنفيذا للأوامر - طالبين منه سداد القسط المقرر من المائتي تومان ، وكان سيد يجهز ذلك المبلغ بأي شكل من الأشكال ، ويقترض نقداً وعينا من الناس بشتي الحيل والأساليب ويسدد القسط لنواب الديوان الأعلى . ورغم حالته هذه فإنه لم يستقر له قرار ليلاً أو نهاراً حباً في الوزارة ، وقد سدد أذن عقله بغفلته فكان خياله يخلق في سماء الجاه والسلطة ويحدث نفسه دائماً فكان يقول مثلاً :

« إنه يمكنه أخذ أموال كثيرة من فلان ! كيف يمكنه تحصيل الأموال من هذا ومن ذاك ! »

(بيت ، ترجمته) :

— إنه لمسلك قبيح استقر في طبيعته

— ، ولن يفارقه إلا إذا فارق الحياة

وفي تلك الأثناء استولت عليه — من كثرة الأحزان والهموم — الأمراض المختلفة والعلل المعقدة ولزم الفراش وعجز مهرة الأطباء عن علاجه ، وكان يتنفس الصعداء بصدر مليء بالحقد وبقلب دام — من هول الانتقام وبجسم عاجز — تحسراً على الوزارة — إلى أن فارق الحياة في أواخر شهر جمادى الأولى عام ١٢٠٨ هـ . وكان مشاهير خراسان والعراق ، الذين كانوا في اضطراب دائم خوفاً منه وأصبحوا بعد وفاته آمنين على حياتهم ومستقبلهم — يتبادلون في مجلس الغزاء التهتهة ، (مصراع ، ترجمته) :

— « كانوا يبشرون الخاصة والعامة بلأئن والسلام ! .. »

ويقول خواجه مرشد المكاتب في تاريخ وفاة سيد فخر الدين :

[٣٥٢] (قطعة ثلاثة أبيات ترجمتها) :

— الوزير فخر الدين مشهور العصر وسيد الآفاق

— الذي تجاوزت هيئته عنان السماء

سقط من شدة صدمة القضاء مساء الأحد

وقضى عليه الفلك بصرخة قادمة من السماء

— فتأمل تاريخ وفاته من هذه الحملة :

« وأمن الناس من بطشه وجبروته ! »

الوزير الأمير نظام الدين أحمد داود :

ارتقى نظام الدين مقعد الوزارة بمساعدة ميرزا پايسنقر في شهر عام ١٢١٩ هـ فعقد العزم على الإخلاص في خدمة صاحب التاج والسرير ، وعلى العناء للوزير

سيد فخر الدين . وقد أدار شئون الوزارة منفردا لبضعة أشهر بعد عزل سيد فخر الدين . وفي عام ٨٢٠ هـ أصبح غياث الدين بير أحمد وزيرا كذلك ، فاستمر الوزير أحمد داود فترة أخرى يدير شئون الوزارة بالاشتراك مع ذلك الوزير . وقد روى أن الوزير أحمد داود كان حسن الطبع حلو الكلام حاضر الجواب ، وكان على علاقة طيبة بالوزير بير أحمد كما كان يمزح دائما معه . وقد وصفوا الوزير بير أحمد بالأقرعية ، ووصفوا الوزير أحمد داود - بسبب لونه المائل إلى الخضرة - بالأزرقية .

[٣٥٣] وبناء على هذا كان الوزير بير أحمد يرسل أثناء الاحتفالات - كلما كان هو المسئول عن إعداد الطعام - أطباق الكشرى^(١) إلى الوزير أحمد داود . وكما كان الوزير أحمد يتولى إعداد الطعام ، كان يرسل أطباق القرع المقل^(٢) إلى الوزير بير أحمد . وذات يوم كان الوزير أحمد داود قد جلس بمفرده في الديوان ، فجاءه أهالي قرية « شادى تبره » متظلمين ، وأخذوا يلقون بين يديه ما لديهم من قول . وفي تلك الأثناء وصل الوزير بير أحمد كذلك ، وسأل قائلا ماذا يقول رعايا شادى تبره ؟ فأجاب الوزير أحمد داود بقوله : يقولون هراء . ويروى أن الوزير أحمد داود كان قد لبس ذات مرة حذاء أحمر ونزل إلى الحديقة ، فخطبه ميرزا بایسنقر بقوله : يا إلهي ! لبست حذاء أحمد !! فأجاب قائلا : لو ألبس حذاء أسود ، فإن الناس يتصورون أن قدمي عارية !

وسائر أحوال وتاريخ وفاة الوزير بير أحمد داود لم تبد واضحة أمامي في الكتب التي كانت في متناول يدي أثناء تأليف هذا الكتاب ، وبناء على ذلك فقد اكتفيت في الحديث عنه على ماتم تحريره .

الوزير غياث الدين بن أحمد الخوافي :

في أواخر عام ٨٢٠ هـ عندما كان السلطان السعيد ميرزا شاهرخ بهادر

(١) طعام الكشرى يطهى في الهند وأفغانستان وإيران من خليط من الأرز والماش ، والماش مادة تشبه العدس الذي يضاف إلى طعام الكشرى الذي يصنعه أهالي مصر . مادة الماش هذه تكسب الكشرى اللون الأزرق . هذا لون من المطايبه أثناء إقامة الموائد في تلك البلدان .

(٢) إشارة إلى أن الوزير بير أحمد كان يوصف بالقرع .

متوجها صوب ولاية قندهار ، جمل منصب الوزارة وزيته بتقليده لغيث الدين بير أحمد الذى كان إمام أبناء عصره فى كثرة الحسب وعلو النسب وإصابة الرأى والتدبير وانشرأح الصدر وصفاء الضمير ، وذلك على شاطئ نهر « هيرمن » ، ووضع فى قبضته الخبيرة زمام [٣٥٤] حل وعقد وقبض وبسط أمور الملك والمال . وقد بدأ الوزير فى إدارة ذلك المنصب بكياسته وخبرته بطريقة نسخت أسطورة عدل وكفاءة آصف بن برخيا ونظام الملك الطوسى .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد وفر العدل لتجميع خلال وزارته

— ، وعمر الدنيا نبذله وعطائه

ولقد توفرت لجميع البلاد طوال ثلاثين عاما تقريرا روثق الجينات العلية وعظمة وجمال النقوش الصينية وذلك بفضل تدبير ذلك الوزير العالم . ورغم أن بعض الأشخاص قد اشتركوا معه فى منصب الوزارة أكثر من مرة فى ذلك الوقت ، إلا أن عظمة ذلك الوزير — صاحب النسب العالى — لم تسمح لأحد بالوصول إلى ذروة التصرف والاعتبار .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— نظراً لأن نوره الساطع يجعل الشمس أكثر لمعانا ..

— ، فقد اختفت الكواكب عن الأنظار

— ولم يحاول النسر الكاسر فى عهده افتراس ..

— ، الطائر المترلى الوديع مراعيآ آداب الطيران

وقد بذل الوزير غياث الدين بير أحمد خلال توليه الوزارة جهوداً من أجل رعاية الرعية ورفاهية الفقراء فى كل مدينة وولاية ، كما أقام البنيات — الرفيعة وأسس بقاع الخير فى جميع أرجاء خراسان . وما العمارات الموجودة بجوار مزار فايز الأنوار قطب السالكين ، هادى الخلائق إلى طريق اليقين زين الملة والدين الشيخ محمد الخوافى والمدرسة الواقعة فى ولاية خواف إلا بعض آثار ذلك الوزير العظيم ، والأوقاف الموقوفة على تلك المنشآت كثيرة وموجودة فى جميع أرجاء خراسان .

وقد ظل الوزير غياث الدين بير أحمد متربعا على عرش الوزارة معززا مكرما وحتى آخر أيام حياة ميرزا شاه رخ ، ولما [٣٥٥] طوى السلطان السعيد بساط الحياة في منطقة « بساوري » وانتقل إلى جوار ربه في صباح يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة عام ٨٥٠ هـ الموافق أول شهر فروراين من السنة الإيرانية

(مصراع فارسي ترجمته) :

— « لا لا يدوم غير الله فهو الحى الذى لا يموت »

ونظم ميرزا عبد اللطيف جيش السلطان وتوجه إلى خراسان ، هرب الوزير غياث الدين بير أحمد مضطرا بصحبة خواجه شمس الدين على السمناني . وبعد أن وصل ميرزا عبد اللطيف إلى ولاية سمنان سارع الوزير لملاقاته وتولى الوزارة كما كان ، ولما بلغ خبر وفاة السلطان السعيد ومحاولة استقلال ميرزا عبد اللطيف إلى مسامع ميرزا علاء الدولة - وكان قد رفع راية الحكم في دار السلطنة هراة - كلف جماعة من الأمراء والعسكريين للقيام بطرد ميرزا عبد اللطيف ، فتدفقوا أثناء الليل على معسكره ناحية نيشابور ، فحالفهم الانتصار وقبضوا على ميرزا عبد اللطيف وقدموه لميرزا علاء الدولة . أما الوزير غياث الدين بير أحمد فقد شمله ميرزا علاء الدولة برحمته في بلدة هراة الفاخرة وولاه منصب الوزارة . منصب الوزارة كسابق عهده . ولكنه حينما دب الخلاف بين ميرزا ألغ بيك وميرزا علاء الدولة ودارت الحرب بينهما في منطقة « ترقاب » وهزم فيها ميرزا علاء الدولة وهرب وسار الوزير غياث الدين بير أحمد ، وكان وقتها في دار السلطنة هراة ، بصحبة الأمير محمد صوفي طرخان وسلطان أبي سعيد ليكون حاكما مع العراق . وقد ألقوا القبض على سلطان أبي سعيد في الطريق أما الأمير محمد صوفي والوزير غياث الدين فقد وصلا بسلام إلى العراق ، وانتظما ضمن أركان دولة [٣٥٦] ميرزا سلطان محمد بن ميرزا بایسنقر . وفي أواخر عام ٨٥٣ هـ عندما رفع ميرزا سلطان محمد راية الفتح لإخضاع خراسان ، شمل ذلك الوزير الحكيم بعطفة وإحسانه في منطقة « كندمان » وشرفه بمنصب أمير الديوان . ولما عاد ميرزا من خراسان ونزل بالعراق . طلب منه الوزير غياث الدين بير أحمد لسبب من الأسباب - السماح له بأداء فريضة الحج وتوجه إلى الحرمين الشريفين . ونقد دارت معركة في أواخر عام ٨٥٥ هـ بين ميرزا سلطان محمد وميرزا أبي القاسم بابر

في منطقة « جناران اسفرايين » وحالف النصر فيها ميرزا بابر وقتل ميرزا سلطان محمد ، فتوجه ميرزا بابر مظفر مؤذرا إلى العراق . وبعد أن وصل إلى دار العبادة يزد في عام ٨٥٦ هـ ، كان الوزير غياث الدين بير أحمد - الذي فاز بنعمة أداء فريضة الحج والطواف بالروضة المطهرة لخير الأنام - عليه الصلاة والسلام - قد رجع وانضم إلى بلاط السلطان ميرزا بابر . وفي عام ٨٥٧ هـ أمر ميرزا أبو القاسم بابر - لما بحمله في نفسه من ذلك الوزير العظيم - بالقبض عليه وتقييده . وبذلك سقط الوزير [٣٥٧] بير أحمد في فخ البلاء وورطة الألم والعناء . وقد أخذوا منه بعد ذلك مبلغ مائتي تومان ظلماً وجوراً ثم بلغ مرتبة الشهداء لكثرة الآلام النفسية وغيرها من الأمراض ودفن في إحدى الأبنية التي كان قد شيدها عند مزار فايز الأنوار ولي الله زين الملة والدين الشيخ الخوافي قدس الله سره .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— أيتها الدنيا : إنك لم تبق حبيبا لأحد .. والقلوب فيك أسرى القيود لا غير !

— فلا تعتمد على أموال الدنيا وجاهها ..

— ، لأنها كثيرا ما احتضنت مثلك ثم قتلتك !

« كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون »

الوزير غياث الدين سيدى أحمد بن نظام الدين أحمد اندخورى :

كان سيدى أحمد يمتاز على أقرانه وأمثاله بالذكاء وشرف القدر وعلو النسب ورفعة منزلة الآباء . وقد اشترك في عام ٨٣٨ هـ في الوزارة للسلطان ميرزا شاهرخ مع الوزير غياث الدين بير أحمد ، فرفع راية العدل والإنصاف ، كما كان معروفا وموصوفا بمكارم الأخلاق ورعاية الفضلاء ، وكان يكسب أيضا حب الناس بالسخاء والكرم وإيثارهم بالدينار والدرهم . وقد جاء في كتاب روضة الصفا ما يلي :

« في يوم من الأيام توجه الوزير سيدى أحمد إلى منزل مولانا فصيح الدين محمد الخوافي وكان رئيسا لديوان ميرزا [٣٥٨] بايستقر لأمرهما ، وقدم مولانا عدة أطباق من طعام السماك المخلوط بدهن الخراف . ولما كان للوزير سيدى أحمد عناية خاصة واهتمام

بالمأكولات ، نظر إلى تلك الأطباق نظرة اعتبار وقال لمولانا فصيح الدين : الناس آكلون للحرام ، وهكذا يأكلون الحرام . وفي تلك الأثناء دفعت يده الوزير إحدى الأطباق فسال مقدار من الحساء على مفرش المائدة . وفي اليوم التالي أخذ مولانا فصيح الدين يتحدث في الديوان مع بعض الناس بحضور الوزير سيدى أحمد قاتلا : لقد جاء إلى منزلنا أمس الوزير سيدى أحمد وأغرق مفرش المائدة ! وسمع الوزير هذا الكلام فرد عليه قاتلا : لا تضلل أفكار الناس فإنه لم يكن هناك ما يكفى من الزيت على الطعام يغرق مفرش المائدة بسكبته ! »

والخلاصة أنه بعد أن قضى الوزير سيدى أحمد فترة في إدارة شؤون الوزارة انتقل إلى رحمة الله في العشرين من شعبان عام ١٨٣٩ هـ في منطقة « قرا باغ أران » ، ونقل ابنه شمس الدين محمد نعشه إلى هراة ودفنه بجوار مزار بير خواجه أبى الوليد أحمد قدس الله سره .

الوزير الأمير علاء الدين على شقائي :

كان علاء الدين شريكا للوزير غياث الدين بير أحمد في وزارة ميرزا شاهرخ لعدة سنوات . وقد دارت الخلافات بينهما أكثر من مرة وترددت حولهما الأقاويل عن تقصيرهما وإهمالهما ، ووصلت أخبار الخلاف [٣٥٩] إلى ميرزا شاهرخ ، فأصدر أمره إليهما بما يلي : « يقوم الوزير غياث الدين بير أحمد بالتفتيش على أعمال الأمير على كما يقوم أيضا الأمير على بالتفتيش على أعمال الوزير غياث الدين بير أحمد » ، وكان الوزير بير أحمد قد حصل وقتها مبلغا إجمائيا من قرية يحيى آباد من توابع هراة - وأعطى جزء منه لصفي الدين ولد خواجه عبد القادر كوينده - وكان رجلا مضحكا يمازح أكثر الأمراء وأركان الدولة في مجلس ميرزا شاهرخ - وقد علم الأمير على بحقيقة ذلك الأمر فبدأ بالتفتيش على قرية يحيى آباد . وفي القرية المذكورة أنزل صفي الدين ذلك الوزير المدلل في منزله فأخذ في إعداد الطعام ، وقدم له وليمة طيبة كان قد خلط على بعض منها مسكرات كثيرة ، فامتنع الأمير على عن تناولها قائلا : ربما يحتويها مسكرات ! فأقسم له صفي الدين بالطلاق ، قائلا : بأن هذا الطعام لا يحتويه مسكرات ! وأشار إلى قسم من المائدة لا يحتويه مسكر ورفع قطعتين منه والتهمة . وبناء على هذا

اطمأنت نفس الأمير على ، وقبل أن يشبع بقليل أسكره ذلك الخليط فترنح ووضع رأسه على أوراقه في نفس المكان الذي يجلس فيه ، ثم ركب صفي الدين على الفور وقابل ميرزا شاهرخ وقال له . « إن الوزير الذي كلفته بالتفتيش على أعمال الوزير بير أحمد جاء أولاً إلى المزرعة التي استأجرها أنا الفقير وتناول قدراً من المسكرات لدرجة أنه لو يقطع عضو عضو من أعضائه ، فإنه لن يفيق ، فاستبعد السلطان التقي العادل حدوث هذا الأمر ، وبعث برسول من عنده إلى ذلك [٣٦٠] المكان ليرى ما جرى الأمير على . وقد توجه ذلك الرسول ، حسب أمر السلطان - إلى قرية يحيى آباد ووجد الأمير على فاقد الوعي فعاد وقص للسلطان ما رآه بعين اليقين فاشتعلت بلا شك نيران غضب السلطان وأرسل إليه رئيس الأسطبل لإحضاره ، فوجد رئيس الأسطبل الأمير على في قرية يحيى آباد في حالة تصدق عليه وقتها كلمة « لا يموت فيها ولا يحيى »^(١) ، فحمله على جواد وأوصله إلى العرش السلطاني وقد عوتب الأمير على وأنب ودفع مبلغاً من المال عقاباً له ، وهبطت مكانته كثيراً وبعد هذه الواقعة التزم الأمير على برأى الوزير غياث الدين بير أحمد في البت في جميع الأمور ، ولم يسلك معه طريق الخلاف بعد .

وقد روى أنه في يوم الأربعاء آخر صفر ٨٤٥ هـ كان الوزير غياث الدين بير أحمد والأمير على يتحدثان مع السلطان عن ميزانية ولاية جام ، ودخل وقتها خواجه شمس الدين على باليجه والذي كان قد اطلع على تنظيم أموال الولاية المذكورة - وتحدث عن بعض جوانب تلك الميزانية ، واستفسر منه ميرزا شاهرخ عن جميع نواحي تلك الميزانية ، فقص له خواجه شمس الدين على بأسلوب شيق الوقائع التي كان قد عزمها ثم قال :

إنني لدى كلام مع الأمير على شقاني ، فأصدر ميرزا شاهرخ أمره بقيام الأمير جلال الدين فيروز شاه بمراجعة أعمال أهل الديوان ، فشق هذا الأمر كثيراً على نفس الوزير غياث الدين بير أحمد و غرق في بحر من [٣٦١] التفكير والاضطراب . والخلاصة أن خواجه شمس الدين على السمناني أثبت تهمة التقصير - خلال مجلس

(١) سورة الأعلى الآية : « ١٣ » .

أو مجلسين - على الأمير على شقائي وأبلغ صورة التهمة إلى ميرزا شاهرخ فأمر بعزل الأمير على .

الوزير شمس الدين على باليجه :

وكان من أعيان سمنان وأنصف بالفضائل والكمالات ، وكان يبذل همه دائماً لرعاية أهل العلم والفضيلة . وقد تقلد شمس الدين منصب الوزارة في عام ٨٤٥ هـ بأمر السلطان بعد عزل الأمير على شقائي ، ولما كان هذا الأمر على غير رغبة الوزير غياث الدين بير أحمد ، فإنه ذهب على إثره إلى بيته حزيناً مغموماً ولم يحضر إلى الديوان لمدة ثلاثة أيام . وفي تلك الأثناء وزدت إلى الديوان السلطاني نضعة مذكرات من منطقة شيراز ، عرض مضمونها الوزير شمس الدين في غياب الوزير بير أحمد ودون علمه لدى السلطان ، وكتب الرد عليها وختمها بخاتمه وبعث بها إلى الوزير بير أحمد . ورغم أن ذلك التصرف قد آلم نفس ذلك الوزير صائب التدبير ، إلا أنه خشي غضب السلطان شاهرخ وختم تلك الردود بخاتمه أيضاً وحضر إلى الديوان في اليوم التالي . وقد ظل الوزير شمس الدين السمناني يشغل منصب الوزارة معزواً مكرماً حتى آخر أيام حياة السلطان ولكن نهايته لم تتضح ، وبناء على ذلك فإننا لم نتعرض لها .

الوزير نصير الدين نصر الله الخوافي :

[٣٦٢] كان معروفاً بعلو الهمة مشهوراً بكفاءة والكياسة . وقد ظل يشغل منصب الوزارة عدة سنوات لميرزا ألغ بيلك في مملكة ماوراء النهر ، ثم مرض في عام ٨٤٥ هـ وعجز الأطباء عن معالجته رافتم إلى رحمة الله .

الوزير سيد عماد الدين محمود جنابدي :

كان عماد الدين موصفاً بمعرفة مختلف أنواع المعارف والعلوم ، ومعروفاً بوقوفه على أسرار العقول والمفهوم ، وكان والده سيد زين العابدين يشغل منصب الوزارة لفترة في عهد السلطان تيمورغوكان وميرزا شاهرخ . وقد التحق سيد عماد الدين بعد وفاة والده بخدمة ميرزا شاهرخ ، ولمع نجمه بسرعة وأخذ يلقى عناية ورعاية أكثر يوماً بعد يوم . وفي عام ٨٤٧ هـ عين الأمير جلال الدين

فيروزشاه - وكان صاحب التصرف في أمور الملك والمال - سيد عماد الدين للقيام بالتفتيش على أموال ولاية بلخ . ورغم أن سيد طلب إعفاءه من تولى ذلك العمل ، إلا أنه لم يجد جدوى من طلبه . ورغم أن السلطان شاهرخ قد أوصى بإسناد عمل أفضل إلى سيد من مهمة الإشراف على بلخ ، إلا أن سيد عماد الدين قد توجه على غير رغبة منه إلى قبة الإسلام لأنه لم يكن هناك من يستطيع أن يغير من رأى الأمير فيروزشاه .

ونظرا لأن ميرزا شاهرخ كان قد سمع بأن وكلاء الأمراء وخاصة وكلاء الأمير فيروزشاه يعربدون كثيرا ويحملون في ولاية بلخ ، فقد أمر سيد عماد الدين محمود - خلال إجازة الأمير فيروزشاه - بالانتهاء من مراجعة حسابات تلك الولاية عن ثلاث سنوات بحضور ميرزا جو كى - وكان يقضى الشتاء [٣٦٣] هناك في ذلك العام - ولما وصل سيد إلى قبة الإسلام بلخ وبدأ في التفتيش على معاملات الديوان وأموال السلطان ، أثبت خلال تفتيشه على أموال الديوان مبالغ كبيرة صرفت إلى أقارب الأمير فيروز وحاشيته .

وبعد أن عاد سيد من ذلك السفر بصحبة الأمير ووصل إلى بلاط ميرزا شاهرخ ، أخذ ميرزا جو كى - وكان يكره الأمير فيروزشاه - سيدا والسجلات التي كان قد أكملها وأطاع السلطان على كيفية تصرفات وكلاء الأمير فيروزشاه ، فالتفت السلطان شاهرخ إلى الأمير فيروزشاه وطلب منه الرد على تلك التقارير ، ولم يكن يحظر ببال الأمير فيروز قط أن يتوقع مثل هذه الأسئلة من السلطان . فلا جرم أن نهض وخرج من المجلس وتغيب بضعة أيام عن الديوان ، إلا أنه ندم في النهاية على ذلك التصرف غير المهذب وحزن كثيرا ثم مرض ، وبسبب ذلك المرض .

(رابعى، ترجمته)

- لقد رحل كل شخص - لسبب من الأسباب - عن دار الغور
- ، وتوجه إلى الدار الباقية المليئة بالاحترام والسرور
- : فلا يدوم أحد في هذه الدنيا الفانية ،
- : سوى سبحانه الفرد الصمد ، الحى الغفور

وبعد وفاة السلطان شاهرخ ، ولما تيسر لميرزا ألغ بيك فتح خراسان ، أصبح سيد عماد الدين محمود موضع اهتمامه ورعايته ، وقلده منصب الوزارة . وقد ظل قائما بذلك العمل حتى آخر أيام حياة ميرزا ألغ بيك ، ولم يتيسر لنا معرفة أكثر من هذا القدر عن أحوال ذلك الوزير ، وبناء على ذلك لم يسطر صاحب اللسانين أكثر من ذلك .

الوزير وجيه الدين محمود بن اسماعيل السمناني :

كان وجيه الدين شقيقا للوزير شمس الدين على باليجه ، وظل يشغل منصب الوزارة لميرزا بايسنقر وميرزا علاء الدولة مدة طويلة ، ولما اعتلى ميرزا أبو القاسم بابر عرش السلطنة ، بذل كل همته لرعاية الوزير وجيه الدين والعناية به ، وأخذ يرفع من مكانته يوما بعد يوم إلى أن ولاه إمارة الديوان السلطاني . وبعد وفاة ميرزا بابر وضع ابنه ميرزاشاه محمود — كما فعل والده من قبل أيضا — زمام أمور الملك والمال في قبضة الوزير وجيه الدين الخبيرة . ولما هرب ميرزاشاه محمود أمام قوة ميرزا إبراهيم بن ميرزا علاء الدولة ابتلى الوزير وجيه الدين بتهمة عدم الوفاء ، وقبض عليه ميرزا إبراهيم وسجنه ، ثم فارق الحياة بعد أن لاقى الكثير من ألوان التعذيب .

(بيتان فارسيان ، ترجمتهما) :

— حينما يفقد قلبك الوفاء

— ، فإنه سوف يبتلى بالكثير من الحزن والآلام

— فكن وفيا مع كل واحد من أولياء نعمتك

— ، لأن عدم الوفاء فيه للكثير من الإيذاء !

الوزير كلان تركش والوزير على ابن الأمير خواجه :

وقد وصلا إلى منصب الوزارة بمساعدة الأمير الشيخ أبي سعيد الذي كان صاحب التصرف في شئون ميرزاشاه محمود . ونظرا لأنها كانا يتصفقان بالصرامة والغلظة فلما بدءا أعمالهما بجمع الأموال ، وقاما :

أولا : [٣٦٥] بإلغاء ناتج الموقوفات عن المساجد والمدارس والخوانق وعن سائر

بقاع الخير ، وتصرفاني تلك الأموال الحرام جميعها والتي كانت حقاً
للمساكين والفقراء ، وحطما قلوب الضعفاء بكثرة الأعباء والأثقال .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— جعلنا جميع الأوقاف ملكاً لها

— ، واجتثنا أساس الديانة

— ولم يبق مسجداً في أى مكان ولا خانقاهاً

— ، وساءت أحوال الناس من ظلمها

وثانياً : فرضنا ضريبة على محلات دار السلطنة هراة حميت عن الآفات ،

وافتتحت سجلات لتحصيلها ، وبدأ المحصلون الغلاظ والشداد في

جمعها . ولمالم يكن من الممكن تحمل تلك الأعباء فقد اشتعلت نيران

الظلم والاعتساف ، وعلا دخان الحزن والآلام من منازل الرعايا ،

وبدا وكأن يوم الفرع الأكبر قدوقع . وأن يوم القيامة قد قام ، وأن

النجاة سوف تكون إذا اختفت العنقاء . وقد ارتفع غياث الرجال

والنساء إلى عنان السماء ،

(بيت ، ترجمته) :

— لقد سمع النواح من اليمين ومن الشمال

— ، كما تردد الصباح قادماً من عنان السماء

ومهما حاول أمراء الأمير الشيخ أبى سعيد منع هذين الوزيرين الشريرين من

القيام بمثل هذه التصرفات لم يفلحوا [٣٦٦] ، وهرب من الناس من استطاع الهرب

تاركاً أمواله وأهله وأولاده .

(بيت ، ترجمته) :

— حينما ضاق الأمر بالناس

— ، سلكوا طريق الفرار !

وفى النهاية استجاب الله لدعاء المظلومين حسب وعده لهم بقوله (١) « أمن

(١) وردت الآية بالنص الأصل : « أم يجيب المضطر إذا دعاه فيكشف السوء .

يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء^(١)» ، ودارت الدائرة على الظلمين ، فقد أدخل الأمير حاجي - وهو من عطاء الدولة - ميرزا شاه محمود إلى المدينة عن طريق بستان الغربان ، وأمر المتادين بأن ينادوا قائلين « لا يدفع أحد ضريبة المحلات ، وكل الذين دفعوا شيئاً يسردون مادفعوه ! وعلى الخدم أن يغيروا على الشيخ أبي سعيد ! » ولا شك أن عامة الناس وبعض رجال الأمير قاموا بالإغارة على الأمير والوزيرين المكروهين . وفي اليوم التالي هرب الشيخ أبو سعيد فتعقبه الأمير شير حاجي بصحبة أناس كثيرين من عامة الشعب وقتلوا ذلك البائس في موضع يقع شمال جبل المختار ، ونجت بذلك نيران شره هو والوزيرين الخاسرين .

وبناء على ماسمعه فإنه بعد هذه الحادثة حوكم الوزير كلان تركش سجنه محمود طرخان وعذبه . وقد آتى الوزير كلان بسبب حالته السيئة بالفعل الكبرى ، فنظم مولانا السالكى الشاعر قطعة شعرية في هذا الغرض ، ولما نجا الوزير كلان من تلك العقوبة ، أخذ يعاتب ذات يوم السالكى ، قائلاً له : [٣٦٧] هل يجوز لك أن تنظم قطعة شعرية في أمر ألم بي ! ونشرت بذلك تلك الحادثة ؟ فقال له السالكى : إننى لا ذنب لى لأننا جميعاً خدام في هذه الحضرة !

والخلاصة أنه عند مقتل الأمير الشيخ أبي سعيد ، توجه ميرزا إبراهيم لتسخير دار السلطنة هراة ، فهرب ميرزا شاه محمود ، واتضح للصغار والكبار صدق القول المأثور « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم »

الوزيران شمس الدين محمد البخارى ومحمد سعد الدين :

حينما أخضع ميرزا إبراهيم دار سلطنة هراة ، جعل كلا من هذين الرجلين رئيساً للديوان وذلك في أواسط شهر رجب عام ٨٦١ هـ . ولكن مدة سلطنة ميرزا إبراهيم لم تدم أكثر من عام واحد أضاعت بعدها أنوار عدالة السلطان السعيد سلطان أبي سعيد على أحوال أهل خراسان :

الوزير شمس الدين محمد بن خواجه سيدى احمد الشيرازى :

كان شمس الدين إماماً لوزراء الدنيا بعلو نسبه وحسبه ، وحسن شيمه ومكارم

(١) سورة النمل ، آية « ٦٢ » .

أخلاقه . وقد أبدى اهتماماً كبيراً خلال توليه الوزارة بتمهيد بساط العدل والإنصاف والعمل على تحسين أحوال الجيش والرعية ، كما راعى مراسم الإعزاز والاحترام البالغين في معاملة السادات والعلماء وأهل الفضل والتقوى . وكان يبذر دائماً بذور [الإنعام والإحسان في قلوب سائر طوائف الشعب .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد رفع راية العدل والإحسان

—، واجتث جذور الظلم والطغيان

[٣٦٨] وقد عين السلطان السعيد ميرزا سلطان أبو سعيد في أوائل أيام سلطنته — ذلك الرجل الحميد الخصال في منصب الوزارة ، فصرف الوزير شمس الدين محمد همته في إدارة ذلك المنصب الرفيع ، وأدى فروض الطاعة والولاء لصاحب العرش والسريـر . وأخذ ميرزا سلطان أبو سعيد يزيد من الاهتمام بالوزير يوماً بعد يوم إلى أن جعله في عام ٨٦٥ هـ جليسه الخاص ونديمه المفضل أثناء الطرب والشراب ، وشمل ذلك الوزير بعنايته السلطانية وهمته الملكية . وفي عام ٨٦٨ هـ عرض خواجه نعمة الله القهستاني . وكان من بين وزراء السلطنة — كلاماً يؤكد فيه للوزير شمس الدين محمد ، فاستفسر ميرزا سلطان أبو سعيد من الوزير عن حقيقة ذلك الكلام فأجابه الوزير شمس الدين محمد قائلاً : « إنني أخذت الكثير من الناس مقابل أعمال أديتها لهم ، ولكنني لم أتصرف قط في أموال الديوان ، ولم أرض أبداً بأى تقصير في الأعمال التي كانت مسندة إلي ! وما عدا ذلك فالحكيم فيه لحضرة السلطان ! » . فقال له السلطان أبو سعيد : « لقد وهبتك كل ما أخذته وصرفته ! ولكنني عزلتلك من منصب الوزارة ! لأنه حينما كان يحدث مثل هذا ، فإن الوزراء كانوا يصيرون موضع غضبي وحتى — أحياناً — وأنا لأحب أن أؤذيك ! » فنهض الوزير شمس الدين محمد ومشى [٣٦٩] خطوات قليلة ثم خلع الخاتم من أصبعه ، ووضع على ركن من أركان العرش وعاد وجلس في مكانه هذا ولم يعرف قط في أى وقت من الأوقات بأن وزيراً تم عزله بهذه السهولة ! . وفي ٨٧٢ هـ حينما رفع السلطان السعيد الرايات لإخضاع العراق وأذربيجان ، سير الوزير شمس الدين محمد من حدود كالبوش إلى إصفهان ،

فسارع شمس الدين إلى إصفهان وأخضع تلك المنطقة وتحارب مع ميرزا قاسم بن ميرزا جهانشاه - الذي كان قد توجه إلى إصفهان - وهزمه . ولما بلغ خبر هذه الخدمة الطيبة ميرزا سلطان أبي سعيد ، ظهر عليه الفرح والسرور وشمل شمس الدين بعنايته وعطفه . وفي الوقت الذي كان يخرب فيه ميرزا سلطان أبو سعيد « قرا باغ أران » ، استشهد على يد الأمير حسن بيك ، فأسرع خواجه شمس الدين محمد لالتمحاق بخدمة ذلك الأمير وصار محل اهتمامه وعنايته واشتغل فترة في ديوانه . وفي النهاية تخلى الدهر الغادر - كعادته - عن رعايته :

(بيتان ، ترجمتها) :

— الفلك ملتف حولنا كالحيات

— ، ويلاحقنا رنجاً عنا بالأضرار

— . ويجعل حقه قريناً لحبه دائماً

— ، كما تصاحب المذلة إعزازه وإقباله

[٣٧٠] وتوضيح ذلك فيما يلي : حينما اقتربت شمس إقبال ذلك الوزير من الزوال ، حدث خلاف بينه وبين الوزير مجد الدين - أحد وزراء حسن بيك - واتهم خواجه مجد الدين إسماعيل بالاتفاق مع جماعة من أهل النفاق والتزوير ذلك الوزير العظيم عند حاكم أذربيجان والعراق بالتصرف في أموال الديوان ، وصدق حسن بيك على هذا الاتهام وأمر بقطع يد الوزير شمس الدين محمد . وبعد وقوع هذه المصيبة كان ذلك الوزير الطاهر الصفات يقضي أوقاته في العبادات وكتابة كلام حضرة الملك العلام إلى أن وافاه الأجل الموعود ورحل إلى العالم الآخر .

(مصراع ، ترجمته)

— « لتكن الجنات العلى مأواه ومستقره »

الوزير معز الدين الشيرازي :

وكان من وزراء السلطان السعيد ميرزا سلطان أبي سعيد . وفي تلك الأيام التي توجه فيها ميرزا سلطان أبو سعيد - بسبب تمرد السلطان صاحب القران السلطان حسين ميرزا - إلى استراباد ، ترك الوزير في دار السلطنة هراة لصرف مرتبات

الجند والمشاهير ، فأخرج الوزير معز الدين مبلغاً كبيراً من تلك الأموال على [٣٧١] خاصته وجاد على العجزة والرعايا . ولما عاد السلطان السعيد متتصراً من تلك الرحلة ووقف على حقيقة ظلم وحيف الوزير معز الدين ، اشتعلت ثائرة غضبه وأمر رجاله بتقييد الوزير معز الدين وإلقائه في ماء يغلي . وبذلك أحمدوا نيران ظلمه وعدوانه بماء العدل والإحسان .

لذلك يجب على صاحب هذا المنصب أن لا يشعل نيران الظلم والضرر من أجل الحصول على زينة الحياة الدنيا ، والتي هي كظلال الغمام لا ثبات لها ولا دوام . وعليه أن يسلك طريق اللطف والإكرام مع الجميع من خواص وعوام ، ويزين رياض الملك بتوفير العدل والإحسان ولا يؤذى نفسه العزيزة بالتفكير في الظلم والعدوان من أجل جمع الكثير من الأموال . وأن يصقل عقله الساذج الذي يتصور قدرته على الحصول على غاية المراد ونهاية المرام ويجمع عنانه حتى لا يوضع في الماء المغلي في الدنيا — بسبب غضب السلطان عليه — ولا تصرخ روحه في الآخرة بسبب العقوبات التي سيلقاها .

(مثنوى سبعة أبيات ، ترجمتها) :

- الوزير الذي بسط العدل والإحسان
- واجهت جنود الظلم والفساد
- حظى في الدنيا بالتوفيق والسداد
- وحظى في الآخرة بالغفران من الله
- والوزير الذي عمل على جمع الأموال
- ورفع راية الظلم والضلال
- لم يكن له نصيب من السعادة في الدنيا
- وسوف يكون جزاؤه في الآخرة الخسران
- فيأبىها العقل العظيم
- الزم طريق العدالة عند توليك الوزارة
- [٣٧٢] وارفع أعلام العدل والإنصاف

— ، واجعل قلوب الناس سعيدة بالإحسان

— لأنه بهذا الملك ستدوم دولتك

— ، وليس هناك أفضل من هذا الكلام والسلام !

الوزير مظفر الدين مختار السبزواري :

وصل مظفر إلى منصب الوزارة الرفيع في أواخر شهر ربيع الأول عام ٨٦٥ هـ وكان مفضلاً على أكثر وزراء ميرزا سلطان أبي سعيد ، ولكن الوزير مظفر كان خالطاً من حلية الفضائل النفسية وعارياً من معرفة شئون الحساب وإدارة مهام الديوان إلى درجة كبيرة . فلا شك أن وشى به بعد فترة قصيرة من تولية الوزارة من قبل عماله وأثبتوا عليه تهمة التقصير وسوء التدبير وعزل من منصبه .

الوزير مظفر الدين مختار السبزواري :

قضى نعيم الدين أكثر أيام شبابه في تحصيل مختلف العلوم والفنون ، وسعى كثيراً من أجل اكتساب الكمالات وحفظ مسائل المحسوس والمعقول . ولسبب من الأسباب — سوف يأتي ذكره — رغب نعمة الله في تعلم علم الاستيفاء فأصبح في ذلك الفن إماماً لنظرائه وأقرانه ، وبدأ تنظيم شئون الوزارة .

وكان والده خواجه علاء الدين علي ، قهستاني الأصل ، وقدم إلى خوارزم لسبب من الأسباب ، وتصادف أن تمت ولادة الوزير نعمة الله هناك . ولما أقيمت الدنيا على صاحب القرآن محمود الحصال الأمير تيمورگوركان سارع خواجه علي للالتحاق بخدمته ، فأُسند إليه منصب الخازن . وبعد وفاة صاحب القرآن ، قام [٣٧٣] نواب ديوان السلطان شاهرخ بحاسبة خواجه علي ، وأثبتوا عليه مبلغ ألفي تومان ، فتحير خواجه علي وفي تلك الأثناء توجه نعمة الله — الذي كان حتى ذلك الوقت مشغولاً بتحصيل العلوم — إلى والده في السجن ووقف منه على حقيقة الأمر ، وبعد ذلك طلب أوراق الحاسبة ، ورغم أنه لم يكن أكمل استيعابه بعد لعلم الحساب والاستيفاء ، إلا أنه وقف بدكائه وتمكنه من علم الرياضة والحكمة على خطأ تلك الحاسبة وقال للمستوفى : « لم يبق علي والذي أكثر من مائتي تومان » فتعجب حضار المجلس من قوة فهم وفراصة ابن خواجه علي ، وأوصلوا صدى التعريف به وإنشاء عليه إلى كل مكان . ولما وصل إلى شاهرخ ميرزا بأنه أثبت

أن الباقي على خواجه هو مبلغ مائتي تومان بدلا من ألفي تومان ، شمله بعين عطفه وعنايته وتغاضى عن المطالبة بذلك المبلغ وأمر بإطلاق سراح خواجه على .

ويتضح من هذه المقدمة ظهور ميل وإقبال نعمة الله على تعلم علم الحساب ، فلما أجاد ذلك الفن وكل إليه منصب مستوفى أملاك شاهرخ ميرزا الخاصة . وفى العام الذى جاء فيه ميرزا ألغ بليك كوركان من بلاد ماوراء النهر بمقابلة والده العظيم فى منطقة خراسان ، طلب نعمة الله من السلطان شاهرخ أخذه معه إلى سمرقند وأسند إليه منصب مستوفى ولاية ماوراء النهر . وقد لقي نعمة الله الكثير من الخطوة [٣٧٤] فى تلك البلاد فكان يقضى أكثر أوقاته فى اللهو والطرب ، وأصبح الكأس والقدر فى يديه دائما كالوردة وشقائق النعمان ، وكان يقوم بشرب الخمر الحمراء وبسماع نغمات الناي .

[بيت عربى] :

إذا انقادت لك الدنيا وجادت بالمناشير

تشرب بن أزهار على صوت المزامير

وفى تلك الأوقات أقام نعمة الله حفلا ذات يوم فى غاية من الحسن والجمال ، وأحضر فيه خواجه محمد كنكر الذى كان وحيد العصر فى الظرف وحسن الصوت ودعا إليه ميرزا ألغ بليك .

(بيت ، ترجمته) :

— أى محفل هذا ! إنه لحفل ملكى

—، أحيته البلابل الفاتنة وغمرته النعم !

وفى نفس اليوم أقام ميرزا ألغ بليك أيضا حفلا ملكيا حضره المشار إليه . وخلال الحفل قال ألغ بليك للحاضرين : هل يوجد فى الدنيا حفل فى حسن وجمال هذا الحفل ؟ فرد عليه أحد الحاضرين — وكان على عداء مع نعمة الله — قائلا : كان هناك اليوم بالمدينة حفل أجمل من هذا الحفل ! فسأله السلطان بقواه : حفل من ؟ قال : حفل نعمة الله المستوفى الذى كان يحضره خواجه محمد كنكر ! فتضايق ميرزا ألغ بليك جدا لهذا وأمر بالقبض [٣٧٥] على نعمة الله بل أمر بقتله ، ولكنه بعد لحظات هدأت نيران غضبه وتغاضى عن تنفيذ هذا الأمر . ولكن

نعمة الله لم يأمن البقاء في سمرقند وعاد إلى دار السلطنة هراة ، فأنشأ له شاهرخ ميرزا ديوانا للطرب . وبعد أن عمل فترة بالإشراف على ذلك الديوان ، جاء ميرزا أنغ بيلك مرة أخرى من سمرقند إلى تلك المدينة الجميلة ، وأخذ نعمة الله مرة أخرى معه إلى سمرقند . وقد بقي نعمة الله في تلك البلدة حتى وقت طلوع كوكب إقبال السلطان الحميد الخصال السلطان أبي سعيد ميرزا ، وعندما قاد ذلك السلطان جيشاً من ماوراء النهر إلى خراسان ، جعل نعمة الله في صحبة معسكر السلطان . وفي أواخر شهر ربيع الأول عام ٨٦٥ هـ شملت عناية السلطان أحوال نعمة الله ووصل إلى منصب الوزارة الرفيع .

(بيت ، ترجمته) :

— يالها من بشرى ! لقد أصبح الدهر وفيّاً

— ، ووهبه ذلك المنصب الذي طالما تمناه !

وفي تلك السنوات التي أدار خلالها الوزير نعمة الله شئون الوزارة في دار السلطنة هراة ، بلغت بعض الأقاويل عن طريقة جمع أموال ولاية فوشنج ، فتوجه بنفسه للتحقيق على تلك الولاية . ونظراً لأن رعايا تلك الولاية كانوا يدخرون الأموال ، فقد قبلوا دفع المبالغ المتأخرة عليهم على أساس العشرة خمسة عشر ، وضبط الوزير الأموال على هذا الأساس . وقد أبلغ أحد الأشرار [٣٧٦] طريقة جمع الأموال هذه على أنها نوع من الظلم — إلى السلطان العادل ، فاشتعلت نيران غضب السلطان وقبض على الوزير وعاقبه . ولكن السلطان خلال نفس الأيام وقف على حقيقة ذلك الأمر ، وجعل الوزير نعمة الله مرة أخرى موضع عنايته ورعايته ، وأسند إليه منصب الوزارة في ولاية استراباد . وقد عاش في تلك الولاية معزواً مكرماً حتى آخر أيام حياته ، ففي عام ٨٧٢ هـ عندما قاد السلطان أبو سعيد جيشاً من مملكة خراسان متوجهاً إلى العراق وأذربيجان ، وأخضع جانباً من تلك الولايات ، أمر كتابه العظام بنسخ مرسوم وزارة العراق باسم الوزير نعمة الله ، وبعشوا بالمرسوم إليه في استراباد . ولما بلغ ذلك المرسوم السلطاني الوزير ، شرع في التوجه إلى العراق تنفيذاً لما جاء به . ولكنه بمقتضى الكلمة

الطيبة « وما تدرى نفس بأى أرض تموت (١) » ابتلى الوزير فى أول الطريق
بمرض الموت وانتقل إلى جوار الله ..

(مصراع ، ترجمته) :

— « لتها روحه فى الجنة المنورة »

الوزير المظفر مختار السبزواري :

حظى خواجه مظفر— فى نفس اليوم الذى وصل فيه خواجه نعمة الله إلى
منصب الوزارة — أيضا بذلك المنصب الرفيع ، ولكنه نظرا لخلوه من حلية
الفضائل النفسية وعدم إلمامه الكافى بأعمال المحاسبات وإدارة الشؤون الديوانية
فقد وشى به بعد ذلك جماعة من العمال ، وأثبتوا عليه تهمة التصرف فى الأموال
والتقصير فى الأعمال . فلاجرم أن عزل من ذلك المنصب ، والله أعلم .

[٣٧٧] **الوزير مولانا أمير السمرقندى :**

كان أمير السمرقندى صاحب نفس طيبة جدا ، كما كان حلما قليل الإيذاء .
وقد أسند إليه السلطان أبو سعيد فى أوائل أيامه منصب الوزارة ، ودامت وزارته
مدة بفضل صدقه وعدله . ولما حان أجله الموعود رحل إلى العالم الآخر فى عام (٢) ..

الوزير اسماعيل الخوجانى :

فى الوقت الذى عزل فيه الوزير مظفر مختار من منصب الوزارة ، أنعم السلطان
أبو سعيد على خواجه اسماعيل بمنصب الوزارة ، وكان الوزير اسماعيل يلقب
بالذئب . وقد تولى الوزارة بالاشتراك مع خواجه قطب الدين طاووس ، وبناء
على ذلك نظم أحد المعاصرين لها قطعة شعرية عن واقعة اشتراكهما فى الوزارة .
وفىما يلى البيت الأخير من القطعة :

(بيت ، ترجمته) :

— وخلت الدنيا من بنى الإنسان

— ، لأن هذا عصر الوحوش والطيور والشياطين

(١) سورة لقمان ، آية « ٣٤ » .

(٢) هكذا جاءت العبارة ناقصة فى النص الفارسى .

وقد عزل الوزير إسماعيل الخوجاني لاثتهامه بالتصرف في أموال الديوان وأودع السجن ، وأنفق ما كان قد جمعه على المصائب التي حلت به ، ولم يتول منصب الوزارة مرة أخرى .

الوزير برهان الدين عبد الحميد الكرمانى :

وكان إماما لوزراء العراق العربى في علم الاستيفاء والحساب ، وكان والده خواجه حاجى محمود [٣٧٨] يتولى رئاسة ديوان الاستيفاء في عصر شاه رخ ميرزا . وقد قدم برهان الدين عبد الحميد في عهد السلطان السعيد ميرزا سلطان أنى سعيد من دار الأمان كرمان إلى ولاية خراسان ، وأصبح موضع رعاية السلطان . ولما علم السلطان السعيد بمدى نبوغه وخبرته ، جعله صاحب الأمر والنهى في الديوان السلطاني . وبعد فترة قصيرة صار برهان الدين من المقربين للسلطان ، فكان يعرض عليه ما لديه من أعمال دون ما توسط من الوزراء ، ثم علت مكانته أكثر في أواخر ذلك السلطان العظيم ووصل إلى منصب الوزارة الرفيع . ولما استشهد ميرزا سلطان أبو سعيد في قراباغ ، وقع الوزير برهان الدين أسيرا في يد رجال حسن بيك التركمانى ، وأسلم حاله - لفترة - إلى الأيام وأخذ يمضى أوقاته على أمل الإفراج عنه . وقد سمع كاتب هذه الكلمات من بعض الناس أن حسن بيك عقد يوماً مجلساً في بلدة قم ، وطلب خواجه شمس الدين محمد وخواجه قطب الدين طاووس وخواجه برهان الدين عبد الحميد ، وكانوا جميعاً وزراء السلطان السعيد الذى كان ينوى وقتها أن من يجده منهم يليق بالوزارة فسوف يسندها إليه . ولما اجتمع المذكورون في مجلس ذلك السلطان العظيم ، يتحدثون بمقتضى الكلمة المأثورة « كل حزب بما لديهم فرحون (١) » ، تحدث خلال المناقشة خواجه شمس الدين محمد - الذى كان يتصف ببراعته في فن الإنشاء والفضيلة وحسن الخط - إلى الحاضرين كثيراً عن تلك الموضوعات .

[٣٧٩] ولما كانت طبيعة خواجه قطب الدين طاووس مجبولة على أعمال العمارة والزراعة فقد أخذ يستميل حسن بيك وحضار المجلس في ذلك اليوم إلى تلك الأعمال . وأما خواجه برهان الدين عبد الحميد الذى كان ماهراً في علم

(١) سورة المؤمنون ، آية « ٥٣ » .

السياق والاستيفاء فقد تحدث في ذلك الفن . ولما كان الأساس في إدارة مهام الوزارة يرجع إلى المهارة في علم الاستيفاء والسياق ، فقد قرر حسن بيك مايلي :

يتولى خواجه برهان الدين عبد الحميد منصب الإشراف على ديوان الوزارة ، ويعين كل من خواجه شمس الدين محمد وخواجه قطب الدين طاووس في درجة وزير على أن يكون توقيعها أقل درجة من ذلك الوزير . ونظرا لأن المشار إليها كانا يتقدمان - في عهد السلطان السعيد - على خواجه برهان الدين عبد الحميد ، فقد رفضا قبول هذا التعيين . وفي النهاية وافق خواجه شمس الدين محمد على تقديم ذلك الوزير عليه ، وأما خواجه قطب الدين طاووس - نظرا لاشتياقه إلى موطنه - توجه إلى بلاد خراسان . وقد بدأ خواجه برهان الدين عبد الحميد بإدارة مهام ذلك المنصب ، فأعلى علم الحشمة والأبهة . وفي عام ٨٧٧هـ حينما قاد حسن بيك جيشاً إلى بلاد الروم جعل الوزير برهان الدين محل عنايته واهتمامه أكثر من ذي قبل ، ووضع في قبضته الخبيرة زمام حكم ولاية العراق وفوضه سلطة تعيين [٣٨٠] وعزل رؤساء تلك البلدان . ولما وصل حسن بيك إلى حدود بلاد الروم نما إلى علمه عن إبراهيم البتليسي - وكان قد تولى بالوراثة حكم مملكة بتليس لفترة من الزمن وكان في ذلك الوقت يعيش في بلدة قم - أنه ربما يتحين الفرصة ويهرب إلى موطنه الأصلي ، ويحدث فتنة طمعا منه في تولي الحكم . وبناء على ذلك بعث حسن بيك برسالة إلى الوزير برهان الدين عبد الحميد ليقيم بتدبير قتله ، فتوجه برهان الدين من ساوه إلى قم ، ونزل في إحدى المدارس واستدعى إبراهيم الذي وضع خنجرًا تحت إبطه لأنه كان قد عرف السبب في استدعائه من مستدعيه ، وتوجه لمقابلة الوزير . وأثناء المناقشة استل ذلك الخنجر فجأة وطعن به الوزير ، فقام حراس الوزير وخدمه على الفور بتقطيع جسم إبراهيم بسيف حاد إرباً إرباً . ونظرا لأن جرح الوزير كان جرحاً قاتلاً ، فقد رحل إلى جوار ربه هو الآخر بعد يومين .

(بيت ، ترجمته) :

— إن الأجل لا يبق على إنسان قط

—، فملك الموت لا يحابي أحدا مطلقا !

الوزير قطب الدين طاوس السمناني :

لقد عاد القلم ذو السن العنبري - الذي حلق في سماء ذكرى ذلك الوزير العظيم - وأخذ يحكي حصيلة [٣٨١] رحلته كما يلي : توجد بدار الوزارة سمنتان قبيلتان تمتازان عن سائر أهل ذلك المكان المبارك بعلو الشأن وعراقة الأصل ، إحداهما قبيلة برهام التي تمتد نسبها إلى بهرام گور - الذي حاز شهرة أكثر من جميع ملوك الساسانيين في الشجاعة والإحسان ، والأخرى قبيلة باليجه وكان أهلها يستجيبون دائما لسكان تلك الديار ، بل كانوا ملجأ الضعفاء صغارهم وكبارهم الذين أخفى عليهم الدهر . وكان والد ذلك الوزير العريق النسب من ضمن أكابر قبيلة برهام ، كما كانت والدته إحدى البنات المكرمات لأحد عظماء قبيلة باليجه . وهكذا فرد الوزير قطب الدين طاوس بقوة أصالة نسبه - جناح الإقبال ، وأخذ يحلق في السموات العلى . كما كان موصوفا بكثرة الحسب فكان ينزع قصب السبق في ميدان الامتحان من أمثاله وأقرانه .

(بيت ، ترجمته) :

— من نسبه كذلك وحسبه هكذا

—، يكون دائما قرين المحمد والعظمة .

وكان ذلك الوزير دائما من بين عظماء أرباب القلم وأهل اللطف والكرم : وقد اعتلى كرسي الوزارة في عصر السلطان ميرزا أبي القاسم بابر ، فبسط أجنحة العدل والإنصاف ، وعمل كما ينبغي في إدارة مهام السلطنة وكسب حب الجيش والرعية . وقد شمله ميرزا بابر بمزيد من العناية والاهتمام دون سائر من تولوا منصب الوزارة . وذات يوم أقام الوزير قطب الدين طاوس وليمة فداء لنفسه ومكانته ، [٣٨٢] وأمل أن يحضرها ميرزا بابر ، وأعد لذلك حفلا ملكيا رائعا ، فاستجاب ميرزا أبو القاسم بابر للتمس الوزير ، وتوجه إلى منزله . وقد أدى ذلك الوزير المحظوظ في ذلك الاحتفال مراسم الاستقبال وقدم ما يليق تقديمه من هدايا وخلافه ، وذبح من أنواع الطيور ما يساوي مبلغ ثلاثين ألف دينار ، وقدم من أنواع الطعام والخلوى والفواكه الطيبة ما يصعب وصفه ويستحيل على الحاسبين الأكفاء إحصاؤه .

- (مشوى ثمانية أبيات ، ترجمتها) :
- ومن الشراب المختلف الألوان النقى
 - ، كالنور يشق الظلام بطلعته
 - ملئت الكتوس البلورية عن آخرها
 - ، وعطرت بماء الورد !
 - وقد فرش مكان الطعام بالموائد الذهبية
 - ، وازدان بالكتوس الفضية المتلألئة كالنجوم
 - وأصبحت تلك الموائد والكتوس
 - ، من حيث طيب الطعم والرائحة - غذاء للأجساد وحياة للأرواح !
 - ففيها من الأطعمة ما تشهى نفسك
 - ، من الطيور والأسماك
 - كما ضم موائد من أنواع الحلوى الملونة
 - ، ما قيمته تشيد قصرا عاليا
 - وجاء بأنضج الفواكه النادرة
 - ، وأمر البستاني بوضعها في أوان مملوءة بالماء
 - وأصبحت لا تتصور شيئا نادرا قط
 - ، لأنه يأتي من الماء ويؤخذ من تلك الأواني الكثيرة
- وقد احتفى الوزير قطب الدين طاوس في ذلك اليوم بأمراء الدولة وأعيانها
احتفاء عظيما . وقد شمل أيضا [٣٨٣] ميرزا أبو القاسم بابر ذلك الوزير
الهامم بمزيد من الإنعام والاهتمام .
- (بيت ، ترجمته) :
- لقد سعد الوزير وثياهم بالطعام الوافر
 - ، وذلك بسبب حضور السلطان ذلك المجلس
 - وعلاوة على الإنعامات فإنه قد منحه ولاية سمنان - الموطن الأصلي للوزير -

وذلك هدية له من أموال السلطان الخاصة ، ونظر الآن تلك الولاية كانت من ممتلكات الديوان السلطاني وضعها في حوزة ذلك الوزير الحكيم دون ماخلل فيها أو نقصان ، وليس لأحد قط من أمثاله وأقرانه سلطة التدخل في أمورها .

وبعد وفاة ميرزا بابر وحيدا أنضج السلطان السعيد ميرزا سلطان أبو سعيد مملكة خراسان ، شمل أيضا ذلك الرجل الفاضل بعنايته وأسند إليه منصب الوزارة وقد بدأ الوزير قطب الدين طاوس في إدارة شئون ذلك المنصب معوجيا سبيل العدل والإنصاف ، فبسط جناح الرحمة والإحسان على الرعايا والمزارعين الذين هم وديعة الثمان في وقاب الحكام والرؤساء ، كما عمل على زيادة الرقعة الزراعية وإقامة البساتين وكسب حب الخواص والعوام بكثرة للعتاء والإنعام .

(يفتان ، ترجمتهما) :

لقد عجز الدنيا بالإنصاف

— وأسعد الناس جميعا بالإحسان

— وزرع أغصان المحبة في قلوبهم

— ووفر لهم راحة البال ببذل الأموال

[٣٨٤] وقد ظهرت عناية السلطان السعيد واهتمامه البالغ واضحة جليلة على ذلك الوزير السعيد ، وفاقت منزلته منزلة سائر الوزراء ، فلا عجب أن اشتعلت نيران الحقد والحسد عليه في نفوس الجميع ، واهتموا الوزير العظيم بسوء التصرف في الأموال لدى السلطان ، فعزله ، ولكن حقيقة وشاية الواشين انضجت وقتها للسلطان فكلفه مرة أخرى بإدارة شئون الوزارة ، وقد استمع كاتب هذه السطور من بعض الصادقين من الناس مايلي :

كان السلطان السعيد يعشاور أحيانا في شئون الملك والملة وتثبيت قواعد الدين والدولة مع حضرة ولي الله صاحب الكرامات ، المتوجه دائما إلى الله شيخ الملة والدين محمد شاه المنتسب إلى ولاية قراه ، وكان يتصرف بناء على الرأي السديد لذلك الشيخ العظيم ، وأثناء عزل الوزير قطب الدين طاوس ، استفسر السلطان من الشيخ عن سبب سعادة جميع مخلوقات الله ، فذكر الشيخ بطريقة الأولياء اسم الوزير قطب الدين طاوس ، فتسببت مشورته في اهتمام ذلك السلطان بالوزير

مرة أخرى ورعايته : ورغم أن الوزير كان يود الاعتذار عن قبول الوزارة إلا أنه لم يجرؤ على مخالفة الشيخ وقبل مضطراً ذلك المنصب مرة أخرى .
[٣٨٥] وقد أتى هذه المرة - أكثر من ذي قبل - عناية واهتماماً من جانب السلطان ، وفاقت مرتبته مراتب وزراء عصره .

(بيت ، ترجمته) :

- وعادت مياه إقباله إلى مجاريها
--، وصعد عرش الوزارة مرة أخرى
ولقد وجد لديه الدراويش والعلماء الخطوة والاعتبار ، ووجه همه الناس
جميعاً صوب الزراعة والفلاحة ، كما كان ينثر كل عام سبعة آلاف حمل
من البذور في أراضي ولاية خراسان . والحقيقة أن إنتاجه الزراعى لم يحققه أى
من الوزراء مطلقاً فى أى ولاية من الولايات .

(بيت ، ترجمته) :

- لقد كان مغرمًا جداً بالزراعة
--، ولم يعن أحد بالزراعة أكثر منه
ومن بين الآثار العظيمة لذلك الوزير العظيم « جدول السلطان » الذى مده
من نهر باشتان شمال دار السلطنة هراة ، بفضله خلق آلاف الحدائق والبساتين
والحظائر فى كازرگاه وفى سفح جبل زنجيرگاه والمختار وحتى عين ماهيان ،
وحولها من صحراء جرداء إلى جنات النعيم ، وكانت كل منها مثل جنة رضوان
فى نضرتها ، ومثل ساحة السماء فى خضرتها ، وكانت البيعاوات الفصيحة تتغنى
بخضرة وجمال تلك الحدائق الغناء التى ينطبق عليها الوصف الوارد بالعبارة المأثورة
« روضة من رياض الجنة » ، كما كانت البلابل البليغة تردد الألحان فى وصف
حسن تلك الحدائق .

[٣٨٦] (مصراع عربى) :

- « روضة ماء نهرها سلسال »

(بيتان ، ترجمتهما) :

- أصبح الجميع في سعادة مثل الربيع
- ، لأنه رسم في عيونهم صورة الربيع
- وأخجل الحداثق الخضر بأيامه المزهرة
- ، وغطى على المنتزهات الطيبة بجناته الياضعة !

وقد نقل أنه حينما أخبر الوزير قطب الدين طاوس السلطان السعيد بعزمه على إنشاء ذلك النهر العذب ، بعث إليه السلطان بمائتي فلاح وعامل أقوياء من مزارعه وأمره بأن يحفر نهرا في جبل بيستون وذلك بشق الصخور بالفئوس والمعاول . وقد تحملت تلك الفرقة مشقة إنجاز ذلك العمل لمدة عامين ، حتى شاهدت في النهاية مياه الأمانى والآمال تجري في نهر صاحب الدولة والسلطان . ولما تدفقت المياه ووصلت إلى سفح جبل المختار ، حمل الوزير قليلا من الماء ووضعها في إناء وأرسله مع رسول إلى معسكر السلطان - الذى كان قد توجه في ذلك الوقت إلى العراق - ولما وقعت عيننا السلطان هناك على تلك المياه . شكره كثيرا ، وقال : « إن شق نهر السلطان أفضل عندى من فتح العراق ! فبفضله سوف يعمر شمال دار السلطنة هراة » ، وفي الواقع :

[٣٨٧] (بيت ، ترجمته)

- فإن هواء كازرگاه ومياه النهر السلطاني
- ، ستمنح أكسير الحياة وتعيد الشباب
- والخلاصة أنه بشق هذا النهر - الذى تم بفضل عناية الوزير قطب الدين طاوس - عمل ميززا سلطان أبو سعيد على ازدياد مكانة الوزير ، وجعل قدره ومرتله أكثر علواً وارتفاعاً .
- (بيت ، ترجمته) :

- لقد أبنعت في خميلة دولته ورود الإقبال
- ، بفضل النهر الملى بفيض المهيمن المتعال !
- فوصلت أوامر السلطان إلى دار السلطنة هراة المتضمنة تقدير السلطان وإعجابه

بالوزير الحكيم تقضى بأن يجهز الوزير فرقة جيش خراسان المشاه ويتوجه على رأسها للالتحاق بموكب السلطان . وقد نفذ الوزير قطب الدين طاوس ما أمره السلطان وامتطى جواداً أصيلاً وتوجه على رأس جيش مترجل لمقابلة السلطان . وفى الطريق اعترضته جماعة من المخالفين المنحرفين - الذين كانوا يطمعون فى منصب الوزارة - وصمموا على القتال معه ، فتصدى لهم الوزير قطب الدين طاوس وانتصر بعون الله عليهم ، وواصل طريقه مظفراً منصوراً ، وأسرع للقاء السلطان العظيم . وبعد وصوله إلى العرش السلطاني أبلغ السلطان بواقعة محاربته للمخالفين ، فقدم له ميرزا سلطان أبوسعيد مراسم العناية والتقدير ، [٣٨٨] ولقب ذلك الوزير الخلفى بلقب صاحب السيف والقلم ، وترك له مهمة تدبير شئون ولايات العراق وسلمه الخاتم الأعظم ليتصرف فى أمور الجماهير حيث يشاء ، ورفع ذلك الوزير لواء عدلته على أهالى البلاد المظلومين من قبل التركمان . ولكنه بعد أن هزم السلطان السعيد فى قراباغ آران ، وقتل على يد الأمير حسن بيك التركمانى ، رفض الوزير قطب الدين طاوس تولي الوزارة لحسن بيك ولوى عنانه عائداً إلى خراسان .

وعندما كان السلطان الراحل حسين ميرزا قد سيطر فى المرة الأولى على بلاد خراسان ، فإنه كان قد شرف الوزير العظيم بمنصب الإشراف على الوزراء وهو واسطة العقد بين الأمراء والوزراء . وفى أواخر ذى الحجة عام ٨٧٤ هـ حينما أخضع ميرزا يادكار محمد بن ميرزا سلطان محمد بن ميرزا باي يستقر منطقة خراسان بمساعدة الأمير حسن بيك بهادر ، اهتم كذلك بأحوال الوزير قطب الدين طاوس وأسند إليه منصب [٣٨٩] وزارة الديوان ولكن عمر سلطنة ميرزا يادكار محمد لم يمتد كعمر الزهور أكثر من أربعين يوماً حيث انقضى بعدها السلطان صاحب القرآن أبو الغازى السلطان حسين ميرزا - فجأة وفى جنح الظلام - على ذلك السلطان الغافل فى « باغ زاغان » وقضى عليه وعلى حكمه .

(رباعى ، ترجمته) :

لقد ارتعدت وردة فى الصباح الباكر وبكت

— ، وقصت لرياح الصبا قصتها وانتهت !

— فانظر إلى طبيعة الدهر الغادر الذى غرس الورد

—، ونماها وأزهرها خلال عشرة أيام وأفناها !

ورغم أن الوزير قطب الدين طاموس صار مرة أخرى مشمولاً بالعطف والإحسان فى عهد السلطان صاحب القران ، إلا أنه مهما أغراه بالتكفل بمهام الديوان ، كان يرفض تولى ذلك المنصب فى قوة وإصرار ، ولم يسع مطلقاً للحصول عليه وتغاضى كلية بمحض اختياره عن قبول أى منصب أو حكم . وقد قضى عدة سنوات فى دار السلطنة هراة فارغ البال ، ونفض ذهنه من التفكير فى أعباء الوزارة وشغل نفسه بأعمال الزراعة والعبادة . ولكنه فى العام الذى اعتلى فيه الوزير مجد الدين محمد عرش الوزارة ، فتح أبواب النزاع والجدال — طمعاً فى الأموال — ضد [٣٩٠] قطب الدين حميد الخصال ففكر قطب الدين طاموس فى النجاة بنفسه ولوى عنانه صوب العراق وآذربايجان ، فلقى فيها شتى ألوان الإعزاز والاحترام . وفى عام ٩٠٠هـ — وكان قد بلغ من العمر ٧٢ عاماً — سمعت آذانه صوت ملك الموت ، وحسب قوله — تعالى — : « كل نفس ذائقة الموت (١) » ، حطمت روحه الطاهرة قفصاً .

(بيتان ، ترجمتها) :

— وألقت بحسم طاموس هناك

—، بعد أن أتم للدنيا جهالها وروقةها

— وكل واحد فى الدنيا سلطاناً كان أم فقيراً

—، لا بد له من أن يمر من هذا الطريق !

الوزير عبد الله أخطب :

وكان يعمل فى بداية أمره باكتساب الفضائل وتحصيل العلوم ، ثم مال إلى العمل مع السلاطين فأُسند إليه السلطان أبوسعيد أعمال الوزارة ، وقد تصرف الوزير عبد الله فى إدارة ذلك المنصب بتمكن واقتدار لاحتل لهما ، وخلال فترة قصيرة من الزمن ، سطع نجمه وعلا شأنه .

(١) سورة آل عمران ، آية (١٨٥) .

وقد سمعت من صديق عزيز صادق القول مايلي : لقد حدث خلال وزارة الوزير عبد الله أخطب أن وشى أحد الأشرار بخواجه كمال الدين حسين كيرنكى — وكان في ذلك الوقت من كبار أعيان ولايات خراسان وتولى الوزارة في عهد السلطان المظفر سلطان حسين ميرزا كما وشى بأخيه خواجه عبد الله ، وكان هذا الأخوان يتصفان بكثرة [٣٩١] الأسباب ووفرة الأموال ، وأدخل ذلك الشرير في روع ميرزا سلطان أبي سعيد أنهما يتهربان دائما من دفع الضرائب ، ولا يسجلان الأموال التي في حوزتهما بصدق أبداً . فلا شك أن صمم السلطان على أن يعاقبهما ويدخل مبلغا كبيرا إلى خزانة السلطنة من أموالهما . وقد أوكل مهمة التحقيق في ذلك الموضوع إلى الوزير عبد الله أخطب ، ولكن الوزير مهما فتش وراجع فإنه لم يثبت — من الناحية الحسابية — شيئا على الأخوين . واعتبر ميرزا سلطان أبو سعيد هذه النتيجة على أنها نوع من المداينة ، فبعث برسالة إلى الوزير عبد الله يقول له فيها : « لقد أشفقت على الأخوين كيرنكى ولم تثبت تهربهما ، وإنني سوف آمر بسخ وجاهك ! » ولكن الوزير عبد الله بفضل همته العالية وعزة نفسه لم يحزن مطلقا . ولم يتشرب الخوف والتردد إلى نفسه بسبب هذا ، وانتزع خاتم الوزارة من إصبعه وأرسله إلى السلطان قائلا له : « ما دمت ستساخ وجهي بسبب هذا الخاتم فها هو الخاتم أرسلته إليك وتركت رئاسة ذلك المنصب » فأعاد ميرزا سلطان أبو سعيد الخاتم له وبعث إليه برسالة كلها حب ومودة ، ولهذا السبب علت مكانة الوزير عبد الله . ولما طوى القضاء والقدر بساط سلطنة السلطان السعيد وأصبح ميرزا سلطان حسين ملكا على خراسان ، أستاذ منصب الوزير أيضا إلى خواجه عبد الله . وفي الوقت الذي توجه فيه [٣٩٢] ذلك الملك العظيم صوب جناران لصيد ميرزا يادكار محمد ، ظل الوزير عبد الله — بناء على أمر السلطان في دار السلطنة هراة ، ففتح أبواب الظلم والاعتداء على الرعايا والمحكومين وبدأ في إحصاء ممتلكاتهم وجردها ، وكان يقسم للمساكين بالطلاق والإيمان المغلظة قائلا لهم : « اذكروا تفاصيل كل ما تملكونه من نقد وجنس ، واحضروها إلى الديوان حتى يتم تقييمها بالذهب ! » فلا جرم أن نفذ الصغار والكبار أوامره مضطرين .

وقد بلغت آهات المغومين وقتها أوج السماوات .

(بيت ، ترجمته) :

— لقب ارتفعت الأصوات والصرخات

—، فارتفعت أصداؤها بالسموات

وفي النهاية اجتمع عدد من الناس عامة وعملوا تجمهراً كبيراً شاملاً، وفي الصباح عندما كان الوزير عبد الله متوجهاً — لإشعال نيران الظلم — إلى دار عدالة ميرزا شاهرخ ، أمطروه بالأحجار من جميع جهات السوق ، ولكن الوزير أنقذ نفسه بلطائف الحيل من تلك المهلكة واختفى في مكان ما، ولما بلغ هذا الخبر السلطان حسين ميرزا أصدر أمره بالقبض على الوزير عبد الله الذي أثر الهرب على البقاء عندما علم بهذا الأمر وتوجه مسرعاً إلى قلعة شادمان : فأُسند إليه ميرزا سلطان محمود — أمير تلك البلاد — منصب الوزارة ، وبذلك يجلس نخواجه عبد الله مرة أخرى على مقعد الوزارة ، وقد ظل مدة طويلة يدير ذلك المنصب وهو في منتهى [٣٩٣] العظمة والأبهة ، وفي أواخر أيام حياته وبسبب خلافه مع أحد الوزراء — كان قد قام بضبط ومراجعة أموال ولاية ترمذ ، توجه إلى تلك الولاية حتى يظهر خطأ في ضبط أموال ترمذ ويثبت على خصمه الاختلاس والتقصير ، وبذلك ترتفع أعلام قدرته وكفاءته .

وقد غرق الرعايا والمزارعون — في تلك المنطقة — في بحر من الحيرة والاضطراب بسماعهم خبر قدومه المفجع ، فأخذ الفقراء والمساكين يبتلون بالدعاء إلى الله أن يقضى على هذا الوزير ، وقد استجاب الله لدعائهم في نفس الوقت ، فقبل أن يصل الوزير عبد الله إلى ترمذ غرق في بحر الفناء وكانت تلك الواقعة كما يلي : حينما وصل الوزير عبد الله — أثناء طريقه — إلى إحدى فروع نهر آمويه ، طلب أن يعبر ذلك النهر بحصانه ، ونظراً لأن النهر كان هادئاً جداً وكانت بعض قطع الحليد تطفو فوق سطحه ، فإن بعض المرافقين للوزير حاولوا منعه من العبور ، وحيث إن مشيئة الأقدار شاءت أن تطفئ شعلة حياته — في ذلك اليوم بماء الفناء — فإنه لم يعبأ بكلامهم وقذف بجواده في ذلك النهر ، فأغرق صفيحة حياته في محيط الفناء

(رباعى ترجمته) :

— كل شخص يرحل بأحد الأسباب عن دار الفناء هذه

— ، قاصداً دار البقاء والخلود !

— ولا يخلد في الدنيا أحد

— سوى ذات الله التي لا مثيل لها !

[٣٩٤] توزيع نظام الدين بختيار السمناني :

وهو من أهل ولاية سمنان ، وكان في عصر السلطان السعيد جاييا لولاية بادغيس ، وفي عهد السلطان حسين ميرزا اشترك في الوزارة ، وأصبح مسئولاً عن تحقيق الأموال الضائعة ، وتعهد بأن يدخل مبلغ ثلاثة آلاف تومان من هذا الباب إلى الديوان ، ونظراً لأنه لم يكن يتيسر تحصيل نصف ذلك المبلغ ، فقد انتهت مهمة نظام الدين رغماً عنه خلال فترة قصيرة ، ودأب المسئولون على إبدائه والإصرار به ، وذات يوم على مرأى وسماع من الموجودين بالديوان قال الوزير نظام الدين — نظراً لقلّة عقله وإدراكه — مايلي : « حيث إن الحديقة البيضاء وحديقة الغربان وكل الحدائق السلطانية تدخل جميعاً ضمن الموارد الضائعة فإنه يجب تسميتها وحسابها ضمن المبلغ المذكور. حتى يتحقق ماقلته ! » وقد بلغ هذا الهراء السلطان فأمر بعزل نظام الدين وتم تأنيبه وسجنه وفي سجنه انتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء لا بسبب كثرة الأمراض النفسية عليه بل بمحض القضاء والقدر .

(مصرع ، ترجمته) :

— « يجب أن لا يتحمل أحد على نفسه من أعباء الدنيا » .

الصاحب السعيد الوزير شمس الدين محمد مرواريد :

كان شمس الدين يمتاز على معظم أكابر كرمان بعلو النسب وكثرة الحساب وعظم الشأن والقدم . وقد [٣٩٥] رحل ذلك الرجل عن وطنه الأصلي في عصر ميرزا جهانشاه التركماني .

بسبب ظلم التراكمه وتعسفهم ثم توجه إلى دار السلطنة هراة ، وبعد وصوله أصبح موضع عناية ورعاية السلطان السعيد ميرزا سلطان أبي سعيد وتولى الوزارة له ، وبذل في تلك الأيام كل جهده للسهر على راحة العامة والخاصة ، وفتح

أبواب العدل والإنصاف أمام الجميع . وعندما توجه السلطان السعيد إلى العراق قصد ذلك الوزير تنفيذا لأوامر السلطان سمرقند ، ولكنه نظرا لأن يد القضاء والقدر قد طوت بساط حياة ميرزا سلطان أبي سعيد أثناء ذلك السفر وجلس السلطان صاحب القمran على عرش السلطنة في خراسان ، فإن الوزير شمس الدين محمد قد رجع من تلك الولاية إلى دار السلطنة هراة وأخذ مكانة في خدمة ذلك السلطان ، وصار خلال فترة وجيزة موضع عنايته ، وبدأ في إدارة شؤون الوزارة وبذل جهودا لاحد لها من أجل إراحة نفوس كافة الرعايا وعامة البرايا . وكان ذلك الوزير الخالص - دون ما تكلف أو إسهاب - سليم النفس ، قليل الضرر ، طاهر العقيدة ، ودليل ذلك أنه قد تخلى باختياره عن ذلك المنصب في عام (١) ، وسلك طريق الفقر والمسكنة . وعند ذلك أسند إليه السلطان منصب شيخ وحارس موقوفات هزار فايز الآثار قطب الأقطاب المختار [٣٩٦] من رب الأرباب ، المقرب لحضرة الله إلى إسماعيل خواجه عبد الله الأنصاري قدس الله سره - وكما هو متوقع من حسن كفاءة وقدرة ذلك الرجل فإنه ظل فترة طويلة في إدارة ذلك العمل وبذل جهداً كبيراً وسعيّاً مشكوراً في تنمية الأوقاف وتعمير تلك المنطقة وتنظيم الرواتب والضيافة . ولكنه في النهاية طلب إعفاءه من ذلك العمل أيضا ، وأخذ يقضى أيامه السعيدة في أداء مختلف الطاعات والعبادات كما شغل جزءا من أوقاته في نسخ المصاحف فنسخ اثنين وعشرين مصحفا على الورق ، ثم وافاه أجل الموعود حسب قول - تعالى - : « كل شيء عمالك إلا وجهه » (٢) في الباشر من شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، وقد قام ولداه الكبيران شهاب الملة والدين عبد الله سلمه الله وأبقاه الذي لم يكن له في صفاته الملكية والذي بلغت شهرته في وفرة الفضائل والكمالات وكثرة المحاسن ومكارم الأخلاق شتى الأطراف والآفاق ، وحضرة الغاضل خواجه محي الدين يحيى - وحيد عصره في محامد السير ولطائف الأعمال - بإقامة مراسم العزاء اللازمة لوالدهما العظيم ، وقرأ على روحه الطاهرة الكثير من كلام رب العالمين ، وأطعما الفقراء والمساكين ، وقد أساهما السلطان الرحيم السلطان حسين [٣٩٧] ميرزا ، وقدم لهما العزاء ، وأنعم

(١) لم تكتب السنة في النص الأصلي.

(٢) سورة القصص آية (٨٨)

عليهما بالخلع الفاخرة والأموال الوفرة ، كما رفع عن أبناء وأسرة المرحوم أردية الحزن والسواد ، وقد نظم نظام الحق والحقيقة والدين والمقرب من السلطانية الأمير عليشير هذا الرباعي في رثاء الوزير شمس الدين محمد مرواريد .

(رباعي ، ترجمته) :

— لقد رحل الوزير محمد إلى جنات النعيم
— ونجا من — هذه الدار — دار الجحيم
— وإذا كان مروان قد رحل عن دار الفناء هذه
— فإنه خلف درتين يقيمتين عنه كتذكّار !

الوزير علاء الدين علي الصانعي :

كان الصانعي من أشرف ولاية باخرز ، ونظراً لأن نسبه الشريف كان يتصل بالبرامكة فإنه كان دائماً يتباهى بذلك ويفخر ، وكان معروفاً بحدة الطبع وصفاء الذهن ، ومتصفاً بكثرة الجود والسخاء على أهل العلم والفضل . وقد تولى الوزارة في أوائل عصر السلطان حسين ميرزا ، وأخذ في إدارة ذلك المنصب الرفيع . ونظراً لأنه كان قاسياً في جمع الأموال ، فإنه كان يستبيح الظلم والإيذاء بالعجزة والرعايا ، كما كان يضمّر دائماً في نفسه نية الكيد والتزوير لزملائه وشركائه ، ولذلك تغير عليه مقرب الحضرة السلطانية الأمير عليشير ، ولكثرة تمارضه غضب عليه أيضاً السلطان ، وعندما كان الوزير [٣٩٨] صانعي جالساً في مجالس الطرب ، رفع أحد الحراس — تنفيذاً للأوامر — عمامة الوزير وكانت محكمة جداً ولفها حول عنقه ، وعند ذلك نظر الأمير عليشير إلى السلطان وأنشد هذا المصراع :

(مصراع ، ترجمته) :

— « حيث إنك كنت قد أحكمتها جيداً حول رأسه ، أحكمها الآن
جيداً حول عنقه ! »

والخلاصة أنه تمت مؤاخضة الوزير صانعي ومعاقبته ، ثم حبس في الطابق الأعلى من السجن بعد أن دفع مبلغاً كبيراً لخزانة الديوان ، وقد ظل ما يقرب من ثلاثين عاماً في السجن ، نظم أثناءها غزلية رائعة وبعث بها إلى مقرب الحضرة السلطانية مطلعها :

(بيت ، ترجمته) :

— يا من لم تسمع أذنك أبداً صراخى
— ، ويا من لا يحول بخاطرك أبداً خيالى

ولكنه لم يحقق بذلك أية فائدة ، ولم يغفر له الأمير . وقد سمعت مايلي :
لقد أقبل صانعى خلال سجنه على تحصيل الفضائل ، وانغمس فى قراءة مقدمات
العلوم وطالع كذلك مختصر التلخيص ، كما [٣٩٩] تشرف أيضاً بحفظ القرآن
الكريم ، ودرس القصيدة المصنوعة لسلطان الساجى ، واستعمل الكثير من تلك
الصناعات فى كتاباته ، وإن شاء الله سوف نتحدث قريباً عما آل إليه أمره .

الوزير سيف الدين مظفر شبانكاره :

كان مظفر من أعيان مملكة فارس والعراق . ولما رحل من تلك المنطقة إلى
دار السلطنة هراة ، وأصبح من عظماء أهل القلم ، أسند إليه أخيراً السلطان حسين
ميرزا منصب الوزارة ، وقد ظل الوزير مظفر يدير فترة — وهو فى غاية المكنة
والاستقلال — شئون السلطنة والديوان . وفى تلك الأثناء اتهمه جمع من الأشرار
بالاختلاس والتقصير ، فعزله السلطان حسين ميرزا وسجنه ، ولما مضى على سجنه
بضعة أيام ، صدر الأمر — بسبب سعاية المغرضين — بقتل الوزير ، وقد استمعت
والعهدة على الراوى — إلى ما يلى :

حينما غضب السلطان على الوزير مظفر وأمر بقتله ، قال أحد النواب :
إلى متى سيظل الوزير صانعى فى السجن ؟ .. فقال السلطان : سوف يحاكم اليوم
كذلك ! وفى ذلك اليوم — وكان من أيام شهر الحرم عام ٨٤٠ هـ — صلبوا
[٤٠٠] الوزير صانعى على مدخل سوق هراة ، والوزير مظفر على بوابة
السلطان ... وقد نظم أحد الفضلاء وقتها هذا الرباعى .

(رباعى ، ترجمته) :

— أياها الناظر انظر إلى الفلك الظالم
— ، انظر فى جبروت الدنيا القاسية !
— وقس وجرب على نهاية الصانعى
— ، وتمعن فيما آل إليه حال مظفر شبكانكاره !

الوزير مجد الدين محمد بن خواجه غياث الدين بير احمد الخوافي :

كان مجد الدين يمتاز على أكثر عظماء الدولة وأعيان البلاط بعظم الشأن ورفعة وعلو الهمة ، وكان مجد الدين يعمل جاهداً أثناء اشتغاله بالوزارة على إسعاد الرعايا والوقوف على آلام الفقراء والضعفاء وحل مشاكلهم ، كما كان ماهراً في علم الفلك وفن الإنشاء ، وكانت له قدرة خارقة في حسم المهام والقضايا المختلفة .

(بيت ، ترجمته) :

— كانت أسرار النجوم واضحة أمام فكرة المستنير
— ، وببساطة حل تدبيره معضلات السلطنة

وقد تولى ذلك الرجل رئاسة ديوان الإنشاء فترة في عصر السلطان السعيد ميرزا سلطان أبي سعيد وعمل لبضعة أيام — في أوائل سلطنة حسين — في وزارة الأمير ميرزا سلطان محمد — المشهور بميرزا كيجيك — ولد ميرزا سلطان أحمد ابن ميرزا سيدى أحمد بن ميرزا ميرانشاه بن الأمير تيمور گورگان — والذي كان ابن شقيقه [٤٠١] السلطان العظيم . ولما بدت مهارته وظهرت كياسته أمام ذلك السلطان الفاتح . اهتم به اهتماماً خاصاً وأخذ يرفعه يوماً بعد يوم من درجة إلى درجة إلى أن وصل الأمر بأن أصدر أمره بأن يوقع مجد الدين محمد — رغم وجود رئيس ديوان الرسائل والخاتم الملكي — على الأحكام والمنشورات السلطانية بجوار الخاتم الأعظم بعبارة « اطلع عليه » . وحينما كان السلطان الأعظم يرتقى عرش السلطنة ويأخذ في بحث شئون الدولة كان مجد الدين محمد يجلس وحده بجوار العرش السلطاني ، ويعرض على السلطان أمور الملك والمال ، وشكاوى الشاكين وغيرهم ويسجل كل حكم يصدره .

(بيت ، ترجمته) :

— هذا قليل على مدى وضعه ومكانته وهو
— ، أنه كان يجلس في حضرة السلطان ، في حين كان الجميع يقفون !
ولما صدر له الحكم المذكور — على النهج السابق — اشتعلت نيران الحقد والحسد في نفوس أركان الدولة ، فقال الأمير حسن شيخ تيمور — وكان أعلى درجة من الأمراء العظام — للسلطان : لم يعرف قط عن السلاطين الأقوياء أنهم كانوا يجلسون

أمامهم أحد الإيرانيين في الوقت الذي يقوم فيه جميع أمراء الدولة وأركانها بالخدمة وهم واقفون في خشوع بكل أدب واحترام ! فرد السلطان على الفور على [٤٠٢] مقرب الحضرة السلطانية الذي كان الحامى - من قبل - لمحمد الدين محمد ، قائلاً : ليس ضرورياً قط أن ينهج موظفو الديوان السلطاني نهج السلاطين السابقين في كل شيء ، بل ينبغي أن تعطى الفرصة للموظفين الأذكياء للابتكار ،

(مصراع ، ترجمته) :

- « كان يجعل الجميع يفكرون تفكيراً سليماً بفضل طباعه اللطيفة »
والخلاصة أن المناصب المذكورة قد أسندت إلى محمد الدين محمد ، وشملت العناية السلطانية ، وارتفعت مكانته ومنزلته أكثر مما يتصوره الخيال ، ووضعت في قبضته الخبيرة إدارة شئون الملك والمال بحرية واستقلال ، وأصبحت أعباءه العلية ملاذاً للجند والرعية ، بل أصبحت ملجأً للأمراء الأقوياء والوزراء الأذكياء .

(بيت ، ترجمته) :

- أصبح إمام عظماء العالم ذلك

- ، ملاذاً وملجأً لأبناء آدم جميعاً !

وطوال أيام ذلك الوزير الموفق ، لم يتبق في نفس مخلوق أية غصة أو جراح ، لأنه كان يعرض جميع المسائل المالية صغيرها وكبيرها ، ويفضل فيها بمجرد وصولها . والحقيقة أن الوزير محمد الدين محمد كان يعمل كما يلزم وينبغي من أجل إنجاز جميع الأمور السلطانية ، والأعمال الديوانية . كما بذل جهداً مشكوراً لفتح أبواب العدل والإنصاف أمام العبد ، ورفع مستوى الشعب ونشر العمران في البلاد .

[٤٠٣] (بيت ، ترجمته) :

- لقد فتح أبواب العدل أمام العباد

- ، وأغلق أمامهم أبواب الظلم والفساد

وبعد أن قضى بضعة أعوام في الرفعة والإقبال ، استرد الغادر - كعادته - عطاياه .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا تنظر بعيداً إلى الفلك وحب السخى

— ، لأنه لا يسلم من غدره أحد قط

— فإذا أحب أحداً في الصباح

— ، فسوف يتخلى عنه في المساء !

وتوضيح هذا هو أن خواجه قوام الدين نظام الملك وخواجه أفضل الدين محمد — وكان كل منهما رئيس ديوان في ذلك الوقت — قاما بآتهام الوزير مجد الدين محمد بالاختلاس والإهمال لدى السلطان حسين ميرزا ، فسلم ذلك الوزير — بناء على أوامر السلطان — إلى الأمير بلر الدين فسيجنه .

(بيتان فارسيان ، ترجمتهما) :

— أى ضرر يستطيعون إلحاقه بالسيف بوضعهم له في نعمه !

— ، وأى عيب للمرأة بوضعها في حافظتها !

— فلو حبست الشمس ليلة في برج غروبها

— ، فإنك تراها في اليوم التالى سراج العالم !

وبعد بضعة أيام بدأ السلطان — الرحيم على أصدقائه المهلك لأعدائه — بنفسه التحقيق في قضية الوزير [٤٠٤] مجد الدين وأحضر خواجه نظام الملك وخواجه أفضل الدين محمد للمناقشة وجها لوجه مع الوزير مجد الدين محمد ، ثم قال ذلك السلطان العادل لهما : "إن الإنصاف يقضى أن تتناقشا معه واحداً واحداً حتى لا يكون فوزكما عليه بسبب اجتماعكما فقوى الوزير مجد الدين محمد بهذه اللفتة الطيبة ونهض وركع للسلطان . فلما شاهد الواشون هذه الصورة انعقدت ألسنتهم ، وعلى ذلك لم تثبت على الوزير مجد الدين مطلقاً تهمة الاختلاس والإهمال .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كل من يكون الصدق حرفته

— ، فلن يندم في الدنيا أو الآخرة !

— والسروة لما استقامت من أول الأمر

— ، فلا يلحقها أذى من حجارة الناس !

وما لاشك فيه أن السلطان العادل أصدر عفوه عن ذلك الرجل على أن يقوم بدفع مبلغ ستين ألف دينار كبكى - كتعبير منه عن الشكر - لخزانة الدولة ، وقرر إعفائه من تولى جميع المناصب هو والأمير محمد على أبو شكيجى حامل الختم السلطانى . وظل ذلك الرجل الفاضل تسع سنوات بالأمل ، وقد انتوى السلطان عدة مرات خلال تلك المدة أن يقربه إليه ، ولكن كان لابد له من أن يتشاور فى هذا الخصوص مع الأمير العظيم نظام الدولة والدين الأمير عليشير الذى لم يرض بذلك ، لأن الوزير مجد الدين محمد - برغم الأفضال [٤٠٥] السابقة لذلك الأمير عليه - كان فصل فى الأمور أيام علوه واقتداره خلافا لرأى الأمير الصائب ، بل كان أحيانا يغتابه فى مجلس السلطان . ولكنه حينما سافر الأمير ليحكم ولاية استراباد مرة أخرى فى عام ٨٩٢ هـ ، اعتقل نجم الوزير مجد الدين محمد مرة أخرى من حضيض الوبال إلى أوج الشرف والسلطان ، وسلمه السلطان فى مشى مرة أخرى جميع المناصب التى سبقت الإشارة إليها بالتفصيل ، ووضع فى قبضة ذلك الوزير زمام أمور الحل والعقد والقبض والبسط فى شئون الملك والمال ، وولت أيام الغضب وجاءت أيام الصفاء ، واستقبله السلطان وانطلق لسان الوزير معبرا عن حاله بهذه الأبيات :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد ولت أطول ليلة لى فى الشتاء

— وظهert تباشير الصباح وانفكت قيود أحزاني بنفتح الصباح

— ورغم أن القلب أصيب يشوك الحفاء ، فله الحمد والمنة

— أن عاد لقطف من روضة انوفد ورود الأمل

ونظراً لأن الأمير العظيم لم يكن موجوداً وقتها فى بلاط السلطان ، فإن استقلال الوزير مجد الدين - هذه المرة - كان أكثر مخذى قبل ، وارتفعت مرتبته وتجاوزت الأفلاك . وكان يقصده جميع الوزراء ومعظم الأمراء - كل صباح - كأنه سلطان ، وكان يخط كتاب السلطنة لقبه « معتمد السلطنة ومؤتمن المملكة » على الأوامر والمنشورات السلطانية ، وكان يفصل [٤٠٦] فى أمور جميع دواوين السلطان بحرية واستقلال ، وكان كل من يعرض من الأمراء أو الوزراء أمراً دون مشورته ،

يقع في قيد البلاء ومحنة الألم والعناء، وقد استمرت فترة حكم ذلك الوزير هذه المرة ما يقرب من ثلاث سنوات «عمل خلالها على تعمير البلاد وإسعاد العباد ، وطوى فيها يسايط الظلم والاعتساف .

(بيت ، ترجمته) :

— تدارك وجوه الخلل السابقة

— وكان عهده صيحاً لليل الظلم

فقد أبدى سلوكاً في منتهى العدل والإنصاف نحو المزارعين والحرفيين ، وأعفاهم بصورة تامة من جميع الضرائب والالتزامات ، ودفع للحراس والجند كافة مخصصاتهم ، ولم يدع في الديوان فلساً يسبب مستحقاتهم .

(بيت ترجمته) :

— لقد وهب العدل وقضى على الظلم وزين الدنيا

— وسعدت في عهده الرعية والجند

ولكنه غلق أبواب منافع الأمراء والمقربين ، وعنف وآخذ عمال الديوان وكتابه ، وعذب كل واحد كان قد تولى عملاً من أعمال الديوان قبل مجيئ ذلك الوزير ، وأتى بأمواله وممتلكاته في الخزنة العامة ، وحصل ما يقرب من ألف تومان من أموال الوزراء وعمال الديوان وغيرهم ، وقطع هبات أكثر الكتاب الذين كانوا [٤٠٧] في ذلك الوقت في أمس الحاجة إلى لقمة العيش ، ولفرط مهابته لم يجرؤ واحد قط من أصحاب الأعمال ، على طلب دينار واحد أو من ثمر على سبيل الرشوة من الرعية ، وخوفاً من عقابه لم يجرؤ لص من اللصوص على إلحاق الأذى بالأسواق بمقدار شعرة وحدة

(بيتان ترجمتهما) :

— ولقد بلغ نطاق عدله إلى درجة

— لم يستطع أى من أعوانه طغيانا وظلماً ،

— أن يأخذ من أحد دانقاً

— اللهم إلا بقدر ما يأخذ المتقاب (المبرد) من يد الصائغ .

وكان الوزير مجد الدين محمد يتفرغ كل يوم - من الصباح حتى صلاة الظهر للفصل في أعمال السلطنة وإنجاز شئون الديوان، ثم يلتقي بعد ذلك بطائفة من أفاضل العصر وكبار العلماء وذلك إلى ما يقرب من منتصف الليل، وكان يلور في مجلسه هذا الكثير من اللطائف والنكات الباعثة على البهجة والسرور، وكل من كان يكثر في هذا المجال كان يصبح أكثر قبولا لدى الوزير. ودائما ما كانت تبسط موائد الإحسان في منزل الوزير مجد الدين محمد، وكان يأمر بإعداد المزيد من الأطعمة المختلفة « وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون (١) ».

(بيت ه ترجمته) :

— كافي يرتب موائد كثيرة

—، ويؤينها بالأطعمة المختلفة

وكان معتمد السلطنة رغم أفعاله الحميدة هذه وأعماله الطيبة حاد الطباع جدا وجاف الحديث، ويستولى [٤٠٨] الغضب على نفسه لأقل سبب فيسب ويلعن. ورغم أنه كان يراعى - في الظاهر - شروط المداينة ومراعاة الموازنة بالنسبة للأمير العظيم نظام الملّة والدين الأمير عليشير، إلا أنه كان يغتابه حينما تحين له الفرصة ويتهمة لدى السلطان بكثرة التدخل في الأمور وغير ذلك من التهم فأت غير اللائقة :

(بيتان ه ترجمتهما) :

— الأنفضل أن لا تغتاب الناس

—، حتى لا يغتابك أيضا أحد !

— وذلك الذي جبل سيده على الطيبة

—، أنى له أن يقبح كلامك القبيح !

كما كان يؤلم سائر أمراء الدولة وأركانها دائما بكلامه القبيح وكان لسانه السيء يمتد كثيرا إلى معظم طوائف الشعب .

(١) سورة الواقعة، آية « ٢٠ - ٢١ »

(بيت عربى) :

جراحات السنان لها التئام وما يلتام ما جرح اللسان
وكان يغفل تماماً مغزى كلام الله المجيد « ولو كنت فظاً غليظ القلب
لانفضوا (١) من حولك » ، كما كان يتبعد دائماً عن مفهوم الآية الكريمة
« والكاظمين الغيظ والعافين عن (٢) الناس »

(بيتان ، ترجمتهما)

- أتدرى أنه لا يعتبر في مصاف

- ، الرجال لدى أدل المعرفة

- ذلك الذى يتألم من لسانه

- ، ويده الأخ المسلم !

وبناء على هذا أضمر أكثر أمراء الدولة وأركانها العداء له ، وظلوا يترقبون
الفرصة للإيقاع به ، ولكنهم وعلى مدى [٤٠٩] ثلاث سنوات تقريباً كانوا
كلما أوقعوا به وأظهروا عيوبه وأخطائه للسلطان ، لم يحققوا فائدة ! فلم يعاقب
السلطان أو يؤنب الوزير مجد الدين محمد ،

(بيت ، ترجمته) :

- لم يعاقبه ذلك السلطان

- ، نتيجة لأقوال المغرضين !

ولما وصل الأمر - بسبب إجماع الأمراء على معارضة الوزير مجد الدين محمد -
إلى حد تفشى الخلل فى أوضاع الدولة ، أعفاه السلطان المهيب مضطراً من تولى
شئون السلطنة ، ومن فرط اهتمامه به أهده فى يوم عزله أربعة أردية فخرية
وأنعّم عليه بمائة ألف دينار كبكى ، ولكنه بعد أن ابتعد معتمد السلطنة بضعة أيام
عن عرش السلطنة وبقي فى منزله ، تحين الأعداء الفرصة ونسبوا إليه سرا وجهرًا -
عند السلطان - الأخطاء الصادق منها وغير الصادق ، كما كانوا يتهمون به كل يوم

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٥٩ » .

(٢) سورة آل عمران ، آية « ١٣٤ » .

بل كل ساعة في مجلس السلطان بكثرة الأموال والهدايا التي حصل عليها أثناء توليه الوزارة ؛

(بيتان ، ترجمتها) :

— لا تصدق ببساطة آراء المغرضين في حق

— ، الناس حتى ولو كانت بسيطة ومختصرة

— [٤١٠] لأن الشعيرات الرفيعة لو تجمع ويصنع منها رسن

— ، فلن يستطيع القيل الضخم قطعه !

ومما لاشك فيه أنه بناء على الحكمة القائلة « من يسمع يخل » ، تغيرت نفس السلطان عليه . وقد أبلغ أحد الأشخاص حقيقة الأمر إلى الوزير مجد الدين محمد ، فاحتفى في دار السلطنة هراة ، ومهما بحث عنه الأعداء فلم يعثروا له على أثر . وفي تلك الأثناء توجه السلطان إلى باخ وقندهار ، وفي غيابه عزم الوزير مجد الدين محمد على السفر إلى الحجاز ، وأخذ يدبر الأمر وبلغ هذا الخبر إلى أعدائه الذين كانوا في ركاب السلطان فأبلغوا السلطان بما يلي : « ما هي الضرورة التي تجعل عمال السلطان يتركون للوزير مجد الدين محمد مبلغ ألف دينار تقريبا من أموال السلطان يتصرف فيها ويأخذها معه إلى الحجاز ! » فتحرك عامل الطمع في نفس السلطان وأصدر أمره بأن يبحثوا برسائل كثيرة إلى هراة لاستمالة معتمد السلطنة حتى تطمئن نفسه ويفضل البقاء على الرحيل . فلما وصلت الرسائل إلى الوزير غفل عن حكيمة السلطان والأعداء الأشرار وألغى نية السفر ، وحيث إنه كان لا يزال خائفا فإنه ظل مخفيا فترة من الوقت . وبعد أن عاد السلطان منصورا مظفرا من ذلك السفر ، بسط الوزير مجد الدين محمد [٤١١] سرا بساط المودة والمحبة مع أمراء برلاس ، أمثال الأمير شجاع الدين محمد برندق والأمير جهانكير ، بعث إليهما بمبالغ كبيرة من المال على سبيل الرشوة ، وتعاهدوا فيما بينهم على مايلي : « إذا وصل مجد الدين هذه المرة إلى منصب الوزارة فعليه أن يتحد معها ويخلص لها وأن لا يترك صغيرة ولا كبيرة من استلزمات الوفاء بالعهد إلا ويراعها ، وعلى هذين الأميرين أن يبذلا ما في وسعها للعمل على حل موضوعه » وقد نقل الأميران إلى السلطان حسين ميرزا كلاما كثيرا حول ذلك الموضوع ، فوافق السلطان عليه

في الظاهر . ولكن الوزير مجد الدين لم يقنع بهذا القدر من الحماية وإظهار العناية ، وتوسل بصاحب الهداية وملاذ الحقيقة وشعار المعارف ومخدوم نور الحق والحقيقة والدين مولانا عبد الرحمن الحامى - روح الله روحه - والتقى ذلك الشيخ بالسلطان وطلب منه عدم التعرض لمعتمد السلطنة ، فوافق السلطان حسين ميرزا على ذلك الكلام ، وأخبر الشيخ مجد الدين محمد بما تم في اللقاء فاطمأنت نفس الوزير كثيراً ، وتوجه في اليوم التالي سعيداً مسروراً إلى قصر السلطان ، وتشرف بحضور مجلس السلطان على يد أمراء برلاس .

[٤١٢] وقد فهم للوهلة الأولى من دخوله المجلس تغير نفس السلطان عليه ، فقدم على خروجه من مخبئه ، ولكنه نظراً لخروج الأمر من بين يديه ، فقد أسلم نفسه لله الواحد القهار ، وقضى بضعة أيام متردداً فيها على مجلس السلطان وبعض الأمراء . وفي تلك الأثناء جاء إلى الوزير مجد الدين محمداً أحد رجال السلطنة وقال له : « لقد قرر السلطان أن ينعم عليك غداً ويوليكَ المناصب التي كانت لك من قبل ، وقد أرسلني الآن لأفوض إليك هذه البشري ، وأخذ منك قائمة بأسماء بعض رجالك لإعداد اللازم نحوهم أيضاً » .

فاستبشر الوزير خيراً بسماع هذا الخبر وسلمه قائمة ببعض بأسماء المقربين إليه ، وفي اليوم التالي وكان . يوافق يوم الجمعة « توجه الوزير بين الخوف والرجاء - بعد الصلاة - إلى الأعتاب السلطانية ، فتم التقبض عليه في الحال وإيداعه السجن ، كما تم في نفس اليوم تجريد الأمير محمد برندق برلاس والأمير جهانكير برلاس - اللذين كانا يعملان على عودة الوزير مجد الدين - من مناصبهما وتم حبسهما في قلعة اختيار الدين .

وبعد بضعة أيام جلس ميرزا سلطان أحمد هو وجماعة من كبار الأمراء والوزراء في الديوان ، وأحضروا الوزير مكبلاً بالأغلال للتحقيق معه ، ولم يتف لذلك الوزير من الحاضرين سوى خواجه عماد الإسلام الذي كان يتولى منصب الوزارة . وقد بدأ المحققون يوجهون إليه أسئلة مختلفة فسألوه قائلين :

أى ذنب اقترفه خواجه نعمة الله حتى تقبض عليه وتعاقبه وتقتله بعد تعذيبه ؟ فأجابهم قائلًا :

لأنهم كانوا ثمانين جاييا ، سرق كل منهم مبلغاً من أموال السلطان فاستحقوا المحاكمة وقبضت عليهم ، ولكنه بعد التحقيق معهم لم يثبت إدانة أحد منهم سوى خواجه نعمة ! ثم سأله المحققون مرة أخرى قائلين : إنك كنت تصدر ما يقرب من سبعمائة أمر سلطاني كل يوم حول الفصل في القضايا والمهام - وفق رأيك - وتختتمها وتسلمها لأصحابها . وكنت تذكر في جميع تلك الأوامر عبارة « تم العرض » ومن هذا يتضح أنك لا يمكن أن تجد الوقت الكافي ، حتى تعرض جميع تلك الأعمال على السلطان وتحصل على حكم فيها . فلماذا كنت تقدم على ختم الأوامر دون العرض على السلطان ؟ فأجاب بقوله : لقد أمرني السلطان بأن لا أؤجل أي أمر يتضمن مصلحة الدولة ويكون من شأنه صالح الجيش والرعية انتظاراً للعرض عليه بل أختتمه حتى لا تتعطل مصالح الناس ! وبعد ذلك سأله المحققون قائلين : لو تظهر دليلاً يوثق قولك هذا لاعتبرنا إجابتك هذه صحيحة وإلا فلا ؟ فلما سمع الوزير محمد الدين محمد مثل هذا الكلام اعترض عليهم وقال لهم : أنتم لماذا قيدتموني بمحض إرادتكم فقط ؟ فقالوا له : [٤١٤] لقد نفذنا هذا العمل بناء على الأمر الصادر إلينا ! فقال لهم : أظهروا الدليل المتضمن هذا حتى يمكن تصديق كلامكم ؟ وبعد هذا القيل والقال جلس محمد عمرو أبادي - وكان خاويًا من المعرفة بجانب الوزير ليأخذ دوره في استجواب الوزير ، فنظر الوزير إلى الأمراء وقال لهم : اجلسوا بجانب الشخص الذي يماثلني حتى أستطيع تحمله إذا وجه إلى كلاما خشناً ؟ فرد عليه محمد عمرو أبادي قائلًا : أنا لست أقل منك ! بل إن أصلي أكثر عراقة منك لأنني حر في الأصل ، وأما أملك فمطعون برقيتها ! فلما استمع الوزير محمد الدين محمد لمثل هذه الإهانات الشنيعة ، انكمش في نفسه وعرف بأن حقه لن يأتيه بطلاقة لسانه وفصاحة بيانه ، فلاشك أن نظر إلى أمراء الدولة وأركانها الذين كانوا جميعاً يعاونونه وقال لهم : أنا على استعداد للموافقة على ما تقولوا واعفوني من الرد على أسئلة محمد عمرو أبادي ! فقالت له تلك الجماعة : اكتب وثيقة اعترافك بخطئك عن أعمال اختلاسك وإهمالك حتى يمكن عرضها على السلطان وتنفذ ما يأمر به على أساسها ؟ فكتب الوزير محمد الدين محمد وثيقة يعترف فيها بكل ما نسبوه إليه ! وقال لهم : قدروا جرمي بمبلغ معين من المال حتى أقوم بسداده ! ونظراً لأن الأمراء والوزراء كانوا يعلمون بأن موضوعه لو ينتهي بسهولة فإنه سوف

يتولى الوزارة مرة أخرى ، ولذلك قالوا له : لا يجوز لنا أن نفعل ذلك ونفصل [٤١٥] في الأمور على هوانا مثلك ! ولكننا سوف نعرض الوثيقة التي كتبها بخطك على السلطان ، وما علينا إلا أن ننفذ ما يأمر به ، وحينئذ أخذ الأمير محمد على بوشكجي الوزير مجد الدين محمد إلى بيته ، وذهب الأمراء والوزراء لمقابلة السلطان ، وعرضوا عليه الوثيقة الخطية التي أخذها عليه . فأصدر أمره إليهم بمحصر أموال وممتلكات الوزير مجد الدين محمد ، وأمر نوابه بتعذيبه حتى يعترف لهم بمالديه ! فأظهر لهم مبلغاً كبيراً من الذهب وكمية من الجواهر والكتب النفيسة والتحف الثينة ، وكذلك أدوية نادرة تبطل سم الحيوانات ، وأواني وأدوات صينية أصيلة ، وملابس حريرية وخياماً منقوشة ملونة بحيث لم يكن يتصور أحد وجود عشرها . ولما عرضت تلك التحف والنفائس على السلطان حسين ميرزا قال : « لقد كان أملنا في مجد الدين محمد أنه حينما تقع في يديه تحفة نفيسة فإنه سوف يعرضها في الحال علينا ، ويهديها لنا لأنه كثيراً ما قال لنا هذا الكلام ، وأكد به بالإيمان المغلظة ، ولكن انضح لنا الآن أنهم يصدق معنا ، كما أنه كان يضمن في نفسه أعمال النفاق والتزوير بالنسبة لرعايانا [٤١٦] وعمالنا » . ولما سمع الأعداء هذا الكلام انتبهوا الفرصة وقالوا لاسلطان : « ورغم وجود ذلك كله فإننا لم نعذب الوزير مجد الدين محمد وحصلنا منه على هذا القدر من التحف والممتلكات ! » وربما كان أغلب ظنهم أنهم لو عذبوه لأمكنهم الحصول على أشياء نفيسة أخرى تليق بالخزانة العامرة ، ولكن السلطان لم يهتم في البداية بكلامهم هذا وفي النهاية أصدر حكمه عليه طبقاً لما تقصده تلك الجماعة ، ولكنه قال لهم : « ينبغي عليكم أن تلاحظوا أنني لا أوافق إطلاقاً على المساس بحياة الوزير ! وكل من يسعى إلى القضاء عليه فسوف يتم قتله ! » ففهم الوزراء والأمراء من هذا الكلام الرحيم أن السلطان ينوي إسناد الوزارة مرة أخرى إلى الوزير مجد الدين محمد ، فلا عجب أن فكروا في حيلة أخرى لإبعاده ، فأخرجوه ليس من دار السلطنة هراة فقط ، بل من جميع ولايات خراسان وتفاصيل هذا فيما يلي : بعد أن عذب المحققون الوزير مجد الدين محمد ، ووضح لهم أنه لا يمكن الحصول منه على أموال أخرى نقداً ، بعثوا إليه بأحد الأشخاص قائلين له : « لو توافق على دفع المبلغ الفلاني خلال بضعة أيام إلى بعض عمال البلاد ، فسوف نطلق سراحك ؟ » ولما وجد الوزير مجد الدين محمد أن خلاصه

ينحصر في قبول هذا العرض ، نفذ ما طلبه الخصوم : وحينئذ فكوا قيوده وأصدروا الأمر بالإفراج عنه ، وأما المبلغ المستحق فقد كتبوا الإذن بتحصيله وسلموه لخدمة من الأتراك الأشداء لتحصيله . ونظروا لأن سداد ذلك المبلغ لم يكن في مقدور الوزير محمد للدين محمد ، فإنه اختفى مرة أخرى مضطراً في مكان ما .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— الدنيا هي عرش الفناء

— وراحة البال فيها من المحال

— وهي منزل ضيق ومظلم نالآلام

— ولا يوجد فيها رائحة من الوفاء ولا لون

وبعد ذلك تأهب الوزير محمد الدين للسفر إلى الحجاز ، وسار متخفياً بصحبة جماعة من الفرنج عن طريق صحراء كرمان عاقداً العزم على أداء فريضة الحج والطواف بالروضة المطهرة لخير الأنام . — عليه الصلاة والسلام . وفي الصحراء ألم به مرض الموت ونبى نداء ربه حينما وصل إلى منزل تبوك في عام (١) ... وصعدت روحه إلى جنة الرضوان .

(مثنوى أربعة أبيات ، ترجمتها) :

— ها هي تصرفات الفلك الدائر

— ، يقدم السم وأحياناً يقدم الحب

— وإذا احتضن أحداً وأسبغ عليه حبه

— ، فإنه يلقيه في النهاية على الأرض ذليلاً حقيراً !

— [٤١٨] فلا يجب الاطمئنان إليه

— لأن الظلم والجفاء من عادته ،

— وهو لم يف لأحد قط

— بل له أضرار كثيرة

(١) أمامها خال في النص الأصل .

الوزير قوام الدين نظام الملك الخوافي :

كان نظام الملك قائماً بتنظيم شئون الدولة في عهد السلطان حسين ميرزا ، وخطاً لهاهاج السلطنة ، ورغم أن ذلك الرجل لم يكن يتصف باكتساب الفضائل النفسانية ، إلا أنه كانت له أباد بيضاء في سرعة البت في أعمال الديوان وإدارة شئون السلطان ، وكان لتدبيره الصائب الفضل في حل المعضلات ولرأيه السديد الفضل في ارتفاع الرايات ، وكان والده مولانا شهاب الدين إسماعيل من قضاء ولاية خواف : وقد التحق ذلك الوزير بالعمل - قضاء وقدرأ - في بلاط السلطان ، فارتفع نجمه خلال فترة قصيرة وقلده السلطان منصب الوزارة الرفيع ، وحدثت خلافات بين الوزير نظام الملك والوزير صانعي - وكان صاحب ديوان أيضاً في ذلك الوقت - من أجل محاولة تقدم كل منهما على الآخر . وفي تلك الأثناء نظم الوزير صانعي قطعة يوضح فيها رفعة نسبه وكثرة حسبه ، فلما سمع مقرب الحضرة السلطانية الأمير نظام الدين عليشير - وكان يكره الوزير صانعي - تلك القطعة قال : « علينا أن نتصرف مع الوزير بمقتضى [٤١٩] آخر مصراع في هذه القطعة ، وهو (مصراع ، ترجمته) :

— « أن يتقدم نظام الملك على ! »

وعلى ذلك نحكم بأن يكون نظام الملك أعلى - في الجلوس والتوقيع - من الوزير صانعي . وهكذا تقدم الوزير نظام الملك على الوزير صانعي وبلغ كوكب آماله ذروة الحجد ، وأخذ في إدارة منصب الوزارة بقررة واقنادر : وبعد أن ملك زمام ذلك العمل عدة سنوات ، اتهم - بسبب مكائد أعدائه - بالاختلاس والتقصير وعزل . ولكنه عندما قدم مبلغاً كبيراً إلى خزانة الديوان ، تولى الوزارة مرة أخرى ، ووضعت في قبضته الخيرة مهمة إدارة ذلك المنصب الخطير : وبعد أن أمضى عدة سنرات أخرى في السعادة والحجد ، ذهب رونق وزارته خلال عام ٨٩٢ هـ حينما علت مكانة الوزير مجد الدين محمد وأستندت إليه إدارة جميع أعمال الديوان وشئون السلطان بحرية واستقلال ، وطغت قوة معتمد السلطنة على ذلك الوزير :

(بيتان ، ترجمتهما) :

- لم يزدهر البستان
- ، حتى لا يضار من الخريف
- ولم ترنفع شجرة السرو من مكانها في الحميلة
- حتى لا تجث في النهاية
- وقد أمضى الوزير نظام الملك خمسة شهور أو ستة تقريبا في منصب الوزارة بلا نفوذ ، وفي النهاية وجد أن :

[٤٢٠] (مصراع ، ترجمته) :

- « الموت أحب إليّ من الحياة بلا اعتبار ! »

وأخذ يضطرب اضطراب السمكة في الشبكة ، وبعث إلى السلطان بشكوى ضد الوزير مجد الدين محمد ، وأحال السلطان تلك الشكوى إلى معتمد السلطنة ، فلما قرأ الوزير مجد الدين محمد ، ووقف على حقيقة نوايا الوزير نظام الملك ، قصر كل همته على دفع شره ، وحرّض عدداً من أشرار العمال على الدس له حيث نسجوا حوله الأقاويل ، فازداد حق السلطان عليه وأمر بالقبض عليه هو وأبناؤه وأتباعه ، وقام السجافون الغلاظ بتعذيبهم والاستيلاء على مبالغ كبيرة من أملاكهم ولما تجاوزت أعمال الإيذاء والتعذيب لذلك الوزير الحكيم حد الاعتدال ، أشفق عليه الوزير مجد الدين محمد وأمر بفك قيوده وإطلاق ، سراحه : وقد صاحب هذا الأمر مسألة إتفاق الأمراء على معتمد السلطنة من ، إدارة [٤٢١] شئون السلطنة ، ففكر الوزير مجد الدين محمد أنه بمن المحتمل - بعد أن يتنحى هو - أن يقلد بعض أركان الدولة الوزير نظام الملك مرة أخرى منصب الوزارة ويقدم على الانتقام منه بسبب ما استقر في نفسه من كراهية له ، وبناء على ذلك انفرد مجد الدين بالوزير نظام الملك وقال له : سوف أمكنك مرة أخرى من منصب الوزارة وأضع في قبضتك زمام الأمر والنهي في شئون الديوان .

(بيت ترجمته) :

- تعال يا من جاء وقت الصلح معك والصدقة لك

— والعناية بك ، وذلك شريطة أن ننسى ما فات
وذلك شريطة أن تؤكد لي بأغظ الأيمان أسس العهد والميثاق ، وأن لا ترفع
بعد ذلك راية الاختلاف معى والعصيان لى ، وأن تسلك معى بقوة سبيل الموافقة
والمصاحبة ، وأن لا تبسط بساط المحبة والمولاة مع أعدائى والمخالفين لى .

(بيت ، ترجمته) :

— ما دام هو لم يقطع أيامك وتركها متصلة

— فحافظ على العلاقة حتى تحفظك

وعرف الوزير نظام الملك أن هذا الأمر يعد نصرا كبيرا ، فعقد الميثاق
كتابه مع الوزير مجد الدين محمد ، وأكد أسس المعاهدة بالإيمان المعظمة ؛ وبذلك
تولى مرة أخرى منصب الوزارة . ونظر لأن الوزير مجد الدين محمد قد نفّض يديه
[٤٢٢] مضطرا من إدارة شئون السلطان ، فإن الوزير نظام الملك قد جعل قواعده
الحميدة دستوره فى العمل لعدة أيام وظل يفصل على أساسها فى أمور الملك والمال
ولكنه فى النهاية تناسى قواعد العهد والميثاق مع مجد الدين وانضم للمخالفين له
وبدأ يفكر فى الانتقام منه ، فبعد انقضاء فترة وجيزة من الزمن ألقى بالوزير مجد
الدين محمد فى محنة الألم والفناء .

(بيت ، ترجمته) :

— إذا أتيت بأمر سىء فلن تسلم من الحزن

— ، وجاز عليك أن تعامل بمثل ما عاملت !

وبعد ذلك وحينا تشردت نفس معتمد السلطنة الشريفة فى بلاد خراسان
بل فى قضاء الدنيا الواسعة ، تجاوزت مكانة الوزير قوام الدين نظام الملك أعلى
السموات ، وشع كوكب طالعه من كواكب السعادة ، وأشرقت شمس دولته
من أفلاك العظمة ، وقصر المغفور له السلطان على رعايته ، ورفع مكانته ومترلته
على مرتبة الوزراء ، وأمر بأن يكون نظام الملك مشرفاً على الوزراء ، ويكون
توقيعه بين توقيع الأمراء والوزراء . وهكذا جلس ذلك الوزير على مقعد الإشراف
على الديوان ، وعقد العزم على الخدمة الطيبة ، وبعد بضعة أيام ترقى إلى درجة أخرى

ونال إدارة الديوان [٤٢٣] ووقع في مصاف الأمراء والنبلاء ، وأصدر السلطان أمره بأن يكتبوا لقبه على الأوامر السلطانية باسم « أمين الدولة القاهرة » .
والخلاصة أن خميلة آمال وأمانى الوزير نظام الملك أصبحت يافعة ومزدهرة بفضل عناية السلطان له وأفضاله عليه للدرجة أن مكانته ومرتبته لم تتجاوز مراقب الوزراء السابقين فقط بل تجاوزت مكانة الأمراء السابقين أيضا .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد أوصلت المقادير كل شخص كان
—، يقبل التراب على أعتابك إلى أوج السموات
— فمن هو قدره عندك في مصاف النعال اليوم ،
—، سيوصله غداً الحظ السعيد إلى قمة المحمد !
وكان معظم أركان الدولة وأعيان الحضرة في حاجة إلى مثل ذلك الوزير —
في إنجاز الأمور — وكان أكثر العلماء الكبار والفضلاء العظام يقصدون أعتابه
العلية ، وفي الحقيقة أن الوزير نظام الملك كان يتصف بالوقار والحلم والتواضع ،
كما كان يراغب دائماً على ترديد الأدعية والأذكار ، ورفع راية الزهد ، ولم
يتخذ أبداً لنفسه حرساً ، وكان كل شخص — له مصلحة — يجد الفرصة لعرضها
عليه ، ولم يكن يردد الألفاظ القبيحة على لسانه مطلقاً ، كما كان يتحدث مع
الجميع بدمائة خلق واحترام .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد كانت قامته العظيمة

—، مزدانة بعلامات الرجولة والإنسانية

[٤٢٤] وكان الأبناء العظام لذلك الوزير العريق الأصل عبارة عن شابين هما خواجه
كمال الدين حسين وخواجه رشيد الدين عبد الملك ، وكانا يتصفان بحسن السيرة
والصورة ، ويتطهران من الصفات الذميمة والدنيئة ، وكان خواجه كمال الدين
حسين معروفاً بجودة الطبع والذكاء ومشهوراً بفصاحة البيان وطلاقة اللسان . كما
كان يتصف خواجه رشيد الدين عبد الملك بالإضافة إلى الصفات السابقة بأنه كان ينتزع

قصب السبق في ميدان الشجاعة والقتال من أمثاله وأقرانه . وكان هذان الابنان من بين المقربين في فترة علو شأن والدهما العظيم ، ورغم ان خواجه كمال الدين حسين لم يكن صاحب ديوان الرسائل إلا أن أكثر الأوامر السلطانية كانت تصل إليه ليختمها بخاتمة . وكان قد أعد نفسه خاتماً مربعا طويلاً يوقع به على ظهر المنشورات السلطانية بمحاذاة الخاتم السلطاني العظيم ، وإذا لم يوجد ذلك الخاتم على أحد المنشورات فإن أحداً قط لم يكن يقيم أى اهتمام بالمنشور ، وأما خواجه رشيد الدين عبد الملك فإن كان يبعد نفسه عن التدخل في شئون الديوان ، وكان يعضى أغلب أوقاته في مزاوله التدريب على أعمال الحرب والقتال ، وقد تعلم هذان الأخوان على يد المغفور له مولانا كمال الدين عبد الواسع الذي كان [٤٢٥] في فن الإنشاء والبلاغة — إماماً لأهل الفضيلة ، وقد نظم قطعة توصيلية باسمهما ، يقول ، فيها :

(قطعة سبعة أبيات ، ترجمتهما) .

- لقد وهبك الله ولدين جاءا من السماء
- ، فذاك صاحب وزارة وهذا صاحب إمارة
- ذاك كمال الدولة والدين الرشيد في كل شئ
- ، وهذا رشيد الملك والململة البائع حد الكمال
- وقد أضواء ذلك بتدبيره صبح السعادة
- ، وأكسب هذا بحسن وجهه شمس المجد الجمال
- وهما يفوقان الشمس والقمر ، ذلك في الرفعة وهذا في المجد
- ، وهما يفضلان البحر والمنجم ! ذلك في السخاء وهذا في النوال
- ولن تستطيع الدولة البعد عن ذلك
- ، ولن يستطيع المجد الانتقال عن هذا
- ذلك كالشمس في صورته ، وهذا كبرجيس في مكانته ،
- ، وذاك محمود الطالع ، وهذا ميمون الحظ
- فليحفظ الله عمر عظمة ذلك ! من الحسوف
- وليحم الله شمس مجد هذا ! من الكسوف

والخلاصة أنه بعد أن ظل أمين الدولة ووالديه وأقاربه عدة سنوات ينسقون وينظمون بحرية واستقلال مهام السلطنة وشئون الديوان ، فإن أمرهم قد وصل في النهاية إلى ما ينطبق عليه قول الشاعر :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— أى شجرة باسقة منحها الفلك الحياة

— ، ولم يصبها في النهاية بالذبول والفناء بتار ظلمه !

— ومن هو ذلك الذى قلده الفلك تاج العظمة

— ، [٤٢٦] ولم يدهمه في النهاية بالكوارث ويكبله بالأغلال !

وتغيرت نفس السلطان على الوزير نظام الملك وأتباعه ، وفي هذه المرة بلغ غضب السلطان درجة الاشتعال حيث لم يحمد مطلقا بسماحة العفو والإغماض ، كما يقولون :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كان التقرب من عرش السلطنة أمرا بعيداً

— ، فلا تقرب ذلك العرش العالى

— لأننى أخشى لو أنك اقتربت منه

— ، فسوف تقع فريسة سائغة لغضبه

وكان لاستشهاد تلك الجماعة عدة أسباب : أولها تغير نفس الأمير العظيم نظام الدولة والدين الأمير عليشير عليهم بسبب وقعة الأشرار والتمايز ، وغرورهم بمالهم من قوة وصوبلجان حيث لم يحاولوا استرضاءه رغم ما للأمير من أفضال سابقة عليهم ، بل إنهم كانوا يغتابونه بمجلس السلطان كلها وجدوا مجالا لذلك ! كما كانوا يقدمون على الإتيان بالأعمال المخالفة لرأيه الصائب .

(ثلاثة أبيات ، ترجمتهما) :

— كل من يكون له فضل رعايتك ،

— ، احذر قدر ما تستطيع أن تخرج عن طاعته

- وإذا لم يكن العمل معه يريحك ،
- ، فأعرف قدر مرحمته عليك وإحسانه إليك واشكره !
- ولو لم يتيسر لك القيام بأحد هذين الأمرين ،
- ، فإننى أخشى أن تحمل عليك لعنة الكفر بنعمته !

[٤٢٧] وفى النهاية بلغ الأمر إلى حد أن فكر الأمير العظيم فى الانتقام وحرص جماعة من المقربين على اغتيال الوزير وأولاده وأقاربه أمام الملأ وكانوا يتقصون على السلطان كل ما يستطيعون فى هذا الخصوص .

وقد سمع كاتب هذه الكلمات من ذلك الأمير المخلص مايلى : « فى الوقت الذى وضح فيه للسلطان حقيقة غضبي على الوزير نظام الملك ، انفرادى ذات يوم وسألنى بقوله : هل قربك منى أكثر أو كان قرب مجد الدين محمد ؟ فأعرضت عن الإجابة على هذا السؤال . وكرر السلطان سؤاله ، وحينئذ قلت له : إن مجد الدين محمد لم تكن له السلطة والصدقة التى تؤهله للمقارنة بى ، لأنك قد أمرت بأن يكتب كُتَّابُ البلاط السلطاني اسمى فى الأوامر السلطانية بلقب « مقرب الخصرة السلطانية » ، كما أن أولادكم الأجداد الذين هم درر عرش السلطنة والخلافة يقفون احتراماً لى ولم يكن لمجد الدين محمد حظ من مثل هذه النعم والعطايا ! فقال السلطان المهيب : رغم أن مجد الدين محمد لم يكن له أى اعتبار بالنسبة لك فى هذا البلاط ، إلا إننى أصدرت أمراً مرة - بسبب مكيدته - بالقبض على نظام الملك وأمرت بتعذيبه والآن [٤٢٨] أسمع أن نظام الملك بات مغروراً يعناتى به ويسلك معك سبيل المخالفة والمعادة ، فلو أنك ترضى فإنى آمر بالقبض عليه فى هذه اللحظة وإيداعه السجن فقلت له : إن كل من أضمر لى سوء فى ظل دولتكم الخالدة قد نال جزاءه . وإنى لعلى يقين من أن نظام الملك سوف يتلى بمصيبة أيضاً ، ولكنى لا أحب أن أكون أنا السبب فى ابتلائه !

(رابعى ، ترجمته)

- أى ضرر لنا لو ينظر إلينا شخص بعين السوء
- ، ويرى مئات العيوب فىنا منها عيب واحد !

— فنحن كالمرأة ، كل من ينظر فيها
— ، يرى صورته ، جميلة كانت أم قبيحة !

وأتمس من رجال السلطان الآن ألا يتعرضوا له بسببي ، وأن يتغاضوا عن الجرائم التي صدرت منه في حقى . فتمت الموافقة على التماساتى وتغاضى السلطان الرحيم فى ذلك اليوم عن فكرة القبض على الوزير نظام الملك ! »

ومن الأسباب الأخرى أيضا أنه فى تلك الأيام التى كانت إدارة الأمور فيها فى يد الوزير نظام الملك حدث أن خرجت — بسبب تقلبات الأيام — جماعة من الأمراء العظام — كانوا يحكمون فى أطراف البلاد — على [٤٢٩] والدهم العظيم ، وكانوا لا يدفعون فلساً واحداً من الضرائب المستحقة على الولايات التى كانت تحت حكمهم . ولهذا السبب أخذت إيرادات الديوان السلطانى فى النقصان ، وقام الوزير نظام الملك — تنفيذاً لأوامر السلطان — بتحصيل مبالغ كبيرة من الحرفيين والمزارعين فى دار السلطنة هراة — سلمت من المصائب والبليات — أكثر من مرة خلال ما يقرب من عامين تحت ستار الضرائب ورسوم متنوعة ، حتى يتسنى تغطية نفقات الجيش وأوجه الإنفاق الضرورية الأخرى ، وترتب على ذلك اضطراب الخاصة من الناس والعامه ، وأرجعوا السبب فى زيادة هذه الأعباء إلى سوء تدبير الوزير . ومن الأسباب الأخرى أيضا أن خواجه أفضل الدين محمد — الذى كان قد ذهب عام ٨٩٢ هـ إلى العراق والحجاز بسبب اضطهاد الوزير محمد الدين محمد له — وصل فجأة إلى دار السلطنة هراة ، وحظى بالقرب بفضل مساعى بعض المقربين ، وجعله السلطان حسين ميرزا بمقتضى الحكمة القائلة « لكل جديد لذة » موضع عنايته ورعايته ، كما أن مقرب الحضرة السلطانية — نظراً لصداقته القديمة لخواجه أفضل وعداوته الجديدة للوزير نظام الملك — احتضن خواجه أفضل الدين محمد وجعله فى حماه ، وبذل مساعيه حتى أسند السلطان حسين إليه الوزارة مرة أخرى . [٤٣٠] كما انشق على الوزير نظام الملك بعض أركان الدولة وأعيان الحضرة وأصحاب الدواوين ورجالهم الذين كانوا قد أضرروا بسببه وانضموا إلى الوزير أفضل . وأخذ الوزير أفضل يتقصى أخطاء أمين الدولة وأتباعه ، ويكشف كل يوم أمراً خفياً يتضمن إما إهلاً أو اختلاساً — بموجب القول المأثور « الإنسان مركب من السهو

والنسيان « - على نوابه ، ويفضى بذلك صراحة وتفصيلاً إلى السلطان ، فكان ذلك باعثاً على تغيير نفس السلطان . وكان أول عمل قام به الوزير أفضل الدين في ذلك الوقت - على غير رغبة من الوزير نظام الملك - هو قيامه بالقبض على خواجه عماد الإسلام بن خواجه محمد عتيق الله - وكان شقيقاً لأبناء الوزير من أمهم وكان يعمل بالوزارة - وذلك في يوم الأحد الموافق الحادى والعشرين من شهر رمضان عام ٩٠٣ هـ وسجنه وتعذيبه . كما حدث أيضاً في تلك الأيام أن وقع مرسوم سلطاني في يد السلطان حسين ميرزا ، وشاهد على ظهره خاتم خواجه كمال الدين حسين فقال السلطان : « إننى لم يكن الذى علم بأن كمال الدين حسين كان يوقع على الأوامر السلطانية » ، وأصدر أمره بأن يكف كمال الدين عن الاستمرار في ذلك العمل من الآن فصاعداً .

والخلاصة أنه بعدتوفرت أسباب قتل نظام الملك وأتباعه ، قام الأمراء العظام - تنفيذاً لأوامر السلطان المهيب - في [٤٣١] منتصف شهر شوال من العام المذكور بالقبض على الوزير نظام الملك وخواجه كمال الدين حسين وخواجه رشيد الدين عبد الملك وعلى أقاربهم وأتباعهم وحبسوهم في قلعة أختيار الدين ، واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم التي كانوا قد جمعوها خلال عشرين عاماً أو أكثر ، وضموها لأموال الديوان . وفي يوم السبت الموافق ٢٥ من الشهر المذكور دارت معركة حربية في « ذلك نشين » بين السلطان والسلطان بدیع الزمان ، انتصر فيها الوالد العظيم وهزم الابن ، فاتهنز أعداء الوزير نظام الملك الفرصة وقالوا للسلطان لقد انضم الوزير نظام الملك وأولاده يوم المعركة إلى قائد القلعة ، وانفقوا فيما بينهم أنه إذا انتصر بدیع الزمان ميرزا فإنهم سوف يهربون من القلعة وينضمون إليه ، كما أرسلوا الأمير شاه منصور - الذى هرب من المعركة وجاء إلى المدينة وتسلم أسلحة - إلى بدیع الزمان ميرزا ، فاشتعلت نيران غضب السلطان أكثر من ذى قبل بسماع هذه الأقوال ، وأسر في نفسه نية القضاء على حياتهم من أساسها ، وذات يوم أفضى بكل ما يحول بخاطره نحوهم إلى مقرب الحضرة السلطانية وقال له : « إننى أريد أن أقضى على هذه الجماعة ، وأرجو منك أن تتردد في تنفيذ ذلك ! » فأجابته ذلك وقتها بجواب مناسب ، ولكن حدث بعد هذه المناقشة ببضعة أيام أن انتهنز خواجه كمال الدين حسين وخواجه رشيد الدين عبد الملك الفرصة وهربا ذات ليلة من قلعة

اختيار الدين ، واختفيا في منزل أحد [٤٣٢] أعوانهما ، وفي اليوم التالي تمكن رجال السلطان من الوصول إلى المكان الذى اختفيا فيه وألقوا بهذين الشابين مرة أخرى في السجن ، ولما بلغ خبر هروبهما وكيفية القبض عليهما إلى السلطان ، توهجت نيران غضبه وأصدر حكمه القاطع بإعدام تلك الجماعة ، وفي شهر ذى القعدة من العام المذكور تم إعدام الوزير نظام الملك هو وأولاده وبعض أقاربه أمثال خواجه عبد العزيز ، وخواجه نظام الدين ، فسبحان الحى الدائم الذى لا يزول بقاءه .

(بيتان ، ترجمتهما) :

- يامن بقاءك سابق على الفناء
- ، — وفناء الآخرين لاحق لذلك الفناء
- وبقاء هؤلاء ليس ببقاء بل عين الفناء
- ، — وأما البقاء الحقيقى فهو بقاء الله !

الوزير عماد الإسلام :

كان عماد الإسلام متصفاً بالحلم وطيبة النفس ، ومعروفاً بحسن معاملة الرعية والاعتناء بشئونهم ، كما كان يعشق كثيراً تناول الشراب ومجالسة الشباب الملاح ، فكان الكأس الأرجوانى على شفتيه دائماً وصوت الدف والرباب على أذنيه ، وكان وجهه الصافى دائماً النظر إلى الفتيان — فى مجلسه — ذوى الوجوه الوردية وإلى الفتيات الجميلات ذوات الشعور البنفسجية .

(بيتان ، ترجمتهما) :

- كان الكأس الوردى دائماً فى يديه
- ، — كما كان لا يستمع إلا لصوت الموسيقى !
- [٤٣٣] وكان لا يرى سوى وجوه الفتيان الجميلة
- ، — ولا يبحث الا عن مجالسة الفاتنات الرقيقة

وقد تقلد عماد الإسلام منصب الوزارة فى أواسط أيام حكم السلطان صاحب القران . ولما قضى ما يقرب من عشرين عاماً فى ذلك المنصب تم القبض

عليه وإيداعه السجن — وذلك قبل القبض على الوزير نظام الملك بعدة أيام —
كما انتقل إلى جوار ربه أيضاً في نفس اليوم الذي استشهد فيه الوزير المذكور .

(بيت ، ترجمته) :

— أى عظيم أو كبير منحه الفلك العلو والازدهار
، — ولم تقتله رياح الأحداث العاتية من الأساس !

الوزير افضل الدين محمد الكرمانى :

كان أفضل الدين يمتاز على سائر الوزراء العظام بكثرة الفضائل والكمالات ،
ويفضل عليهم بالقدرة على إنجاز أعمال الديوان ، كما كان إمام عطاء الدنيا في
سيرته الحميدة ، وأخلاقه الكريمة ووجهه الجميل وأناقته ، وفي جميع مراحل حياته
السعيدة وآثاره الخالدة ، حيث وصل إلى مرتبة عالية من المهارة في فن السياق
والاستيفاء لدرجة أن أحداً قط من معاصريه لم يكن يجرؤ على التفكير في المساواة به .
كما كان يشغل نفسه أحياناً بنظم الأشعار ، وكان يكرم أهل الفضل والعلم ويحلهم .
(بيت ، ترجمته) :

— لقد استطاع بفضل قلبه المترن

، واطفه الشامل أن يحقق أعلى الآمال

وقد اتصل أفضل الدين محمد — في عهد السلطان السعيد ميرزا سلطان أبى
سعيد بالوزير برهان الدين عبد الحميد ، ووجد طريقة إلى مجلس السلطان بواسطة
الوزير المشار إليه ، ولما شاهد ذلك السلطان السعيد الفراسة والنجابة [٤٣٤] والاتزان
بادية على جبينه الطيب ، عينه — رغم صغر سنه — في منصب مستوفى الديوان
الأعلى ، وكان المستفسر منه مباشرة عن حالة الحسابات . وقد أصبح أفضل الدين
محمد أثناء حكم السلطان حسين ميرزا موضع رعايته وعنايته حيث قلده منصب
الوزارة في عام ٨٧٨ هـ ، فحقق مجداً أكثر من سائر الوزراء بفضل ذكائه وخبرته
كما جعل أبواب البر والإحسان مفتوحة أمام جميع فئات الشعب .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد فتح أبواب العدل للناس جميعاً

، وعاملهم بالبر والإحسان !

ومن بين المصادفات الحسنة التي توفرت لذلك الوزير أنه جعل صفحة قلبه مزينة بنقوش الحب والإخلاص لمقرب الحضرة السلطانية الأمير عليشير نظام الدولة والدين ، وعاش العمر كله مخلصاً لذلك الأمير العظيم ، وكان دائماً يترنم بهذه الأبيات :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا يمكن الحصول على المنة الإلهية مطلقاً عن

— ، طريق إفساد ضمير هذا وذاك لأن ذلك يفكك بناء المحبة !

— فصور تكتم مستقرة في رعوسنا على مر الشهور والأعوام

— ، وحبكم دائماً في نغرسنا على مر الليالي والأيام !

وبناء على ذلك كان الوزير العظيم يبذل جهداً كبيراً من أجل رعاية ذلك الوزير الحكيم ، ومنحه الأمن والرعاية في كنفه ، ولم يكن يتوانى مطلقاً عن حمايته ورعايته ، وفي عام ٨٩٢ هـ حينما أصبح الوزير مجد الدين محمد — في مشى مرو — صاحب التصرف في أمور الملك والمال ، وبلغ ذروة الجاه والجلال ، تصرف الوزير أفضل الدين محمد بوحى من فكره الصائب ، فتوجه إلى ولاية استراباد بحجة تحصيل الضرائب المستحقة عليها ، وسعد بلقاء الأمير السعيد بمجرد وصوله ، وعرض عليه [٤٣٥] بعضاً من علامات تقرب الوزير مجد الدين محمد وسيطرته ، وشرح له بأسلوب شيق أساليب دسه للوزراء ، والسبب من مجيئه بنفسه ، فكرس الأمير ذو التدبير السديد كل همته من أجل إنقاذ الوزير الخالص وأرسل خواجه غياث الدين محمد أهدار — الذى كان يتميز على معاصريه بشدة الذكاء وكثرة الدهاء — إلى العرش السلطاني بحجة تسليم رسالة منه إلى السلطان ، وأوصاه الأمير بأن يستدرج الوزير مجد الدين محمد بطوائف الحيل ليفهم منه أى تدبير ينويه بالنسبة للوزير أفضل الدين محمد حتى أنه لو يعرف أن الأموال فقط سوف تقضى حاجته يقوم بتقديم ما يلزم من ممتلكاته أو يحتاط لنفسه إذا كان مجد الدين يفكر له في أمر آخر !

ولما رجع خواجه غياث الدين من ذلك السفر أخبر الأمير أن هدف الوزير مجد الدين محمد من الوزير أفضل الدين محمد ليس هو الطمع في أمواله وممتلكاته بل

لأنه يهدف إلى القضاء على حياته "وعند وصول خواجه دهلدار وصحات أوامر السلطان الكثيرة والمتعاقبة إلى دار الفتح استرا باء من أجل استدعاء الوزير أفضل الدين محمد ، ولم يجد ذلك الوزير خيراً في البقاء ، وتوجه حسب نصيحة الأمير إلى العراق وآذربايجان فجعله يعقوب بيك الذي كان حاكماً عاماً على تلك الولاية موضع عنايته ورعايته . وبعد أن قضى الوزير أفضل الدين محمد بضعة أيام في منطقة تبريز عزم على الرحيل ، وأبدى الرغبة في أداء فريضة الحج والطواف بالروضة الشريفة لسيد الأنعام - عليه [٤٣٦] أفضل الصلاة والسلام ، وقد وفر له الحاكم سبيل العناية والاهتمام فأُسند إليه إمارة قافلة الحج عام ٨٩٣ هـ ، وتوجه الوزير أفضل الدين محمد مسرعاً بعد أن اكتملت له جميع الأسباب إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وكان قد حمل الكثير من خيرات خراسان بالإضافة إلى الهبات التي حصل عليها من يعقوب بيك وأعيان دولته ، وبذلك تمكن من أداء فريضة الحج المبارك والفوز بالزيارة والطواف بقر أشرف بنى عبد مناف - صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم - ، ثم عاد بسلامة الله سعيداً إلى العراق ، وقضى بضعة سنوات في تلك الولاية في فراغ وفي عام ٩٠٣ هـ بلغه أن السلطان السعيد كان يذكره أحياناً كما كان الأمير عليشير في غاية الشوق إلى رؤيته ، ففكر في التوجه إلى هراة رغم سيطرة أعدائه وعلو شأنهم بل إنه بهداية الله وإرشاده اتجه صوب هراة في نفس العام المذكور ، وأخذ يطوى الطريق بسرعة البرق والرياح ، وفجأة ظهر ذات صباح في بستان السلطان ؛ فغرق أركان الدولة وأعيان الحضرة - الذين شاهدوا هذا المنظر - في بحار الخيرة - وظهرت علامات البهجة والسرور على السلطان السعيد بوصول الوزير العظيم ، وقد حزن الوزير نظام الملك وأتباعه وتملكهم الغضب وعزموا على الإيقاع بالوزير أفضل ، ولكنه نظراً لأن مقرب الحضرة السلطانية كان هو المتكفل بحماية ورعاية ذلك الوزير ، فلم ينفع الماكرين مكرهم .

[٤٣٧] (بيت ، ترجمته)

- إن الشمع المضاء بنور الله

- ، لا ينطفئ مهما تعرض للرياح !

وأُسند منصب الوزارة إلى أفضل الدين محمد .

وقد سعى ذلك الأمير حتى جلس أفضل الدين محمد على كرسي الوزارة ، كما عزم على العمل على عزل نظام الملك . ولما تم القبض على تلك الجماعة — كما سبق أن ذكرنا — ارتقى الوزير درجة أعلى من منصب الوزارة حيث أسند إليه منصب الإشراف على الديوان ، وجعل توقيعه بين الأمراء والوزراء ، وبعد أن عمل بضعة أيام بعد ذلك بجهد واجتهاد ، شملت عناية السلطان مرة أخرى ، وأسند إليه منصب رئاسة الديوان الأعلى ، وبذلك وضع توقيعه في مصاف الأمراء العظام والنبلاء الكبار ، وصار بلا منازع صاحب التصرف في إدارة أمور الملك والمال وارتقى مراتب الرفعة والأبهة ، وبلغت منزلته ومكانته عنان السماء ، وكتب كتاب السلطان وناخو توقيعات الديوان الأعلى لقيه على الأوامر السلطانية باسم « الناظم الأعظم لقواعد السلطنة والخلافة معتمد الملك ذو الرأي السديد خواجه أفضل الدين محمد إمام الوافين » . كما وصل إخوته وأقاربه أيضاً الملازمون لبعض الأمراء إلى مرتبة الإدارة ، وقد حظى ابنه العزيز خواجه ضياء الدين محمد بمكانه رفيعة عند ميرزا مظفر حسين كوركان الذي كان أعز أبناء السلطان ، فكان يوقع في مصاف الأمراء . وقد ظل الوزير أفضل الدين محمد في أوائل أيامه عدة أيام يتشاور مع الأمير مبارز الدين محمد ولي بيك — وكان أعظم الأمراء — في البيت في أمور السلطان وشئونه ، وفي النهاية دب بينهم الخلاف بسبب وقعة المفسدين مما [٤٣٨] دفع الوزير أفضل الدين محمد إلى البيت في أمور دون مشورة ذلك الأمير . وقد قلده في ذلك جميع أمراء الدولة وأركانها ، ولم يستعينوا برأي الأمير الأعظم في أي أمر من الأمور ، وكان الوزراء العظام يعتبرون أعتاب أفضل الدين ملجأ وملاذا لهم ، وكانوا يتوجهون يومياً لمقابلته مقدمين له فروض الطاعة والولاء .

(بيت ، ترجمته) :

— كانت أعتابه ملجأ العطاء

—، وكان الجميع يولون وجوهم شطره

وكان ذلك الوزير يقيم بالديوان الأعلى من الصباح حتى المساء يعمل على إنجاز شئون الدولة وتنظيمها .

وحقيقة أنه كان يفصل في شئون العامة والخاصة بمنتهى العدل والإنصاف ، وكان يبقى كل أسبوع ليلتين في الديوان يجتمع خلالها بالفضلاء والموالى ، يخرج معهم ويلاطفهم ، ويرسخ في قلوبهم بذور المحبة والإخلاص له ، كما كان يعشق كثيرا تعميم الخيرات وإقامة البنايات ، وقد أقام في عهده الكثير من المؤسسات الخيرية مثل المسجد الجامع والمدرسة والخانقاه .

(بيت ، ترجمته) :

— اعمل الخير لأنه لا يبقى للإنسان

—، سوى عمله يذكر به على صفحات الأيام !

وفي اليوم الذى تم فيه بناء المدرسة والخانقاه اللتين أقامهما في ضواحي دار هراة ، شرف حفل الافتتاح — بناء على دعوة ذلك الوزير الحكيم — جلالة السلطان ميرزا بدیع الزمان وميرزا مظفر حسين كورگان أكثر مشايخ وسادات وعلماء دار السلطنة هراة ، وقد قام ذلك الوزير بإعداد الهدايا المناسبة للمدعوين [٤٣٩] واستحضر تسعة من كبار المشايخ والعلماء للتدريس والوعظ والإرشاد في مؤسستى الخير هاتين ، وألبسهم القفططين الغالية والثياب النفيسة ، فأعجب السلطان كثيرا بتلك المراسم والأعمال ، وأنعم على ذلك الوزير المخلص بل ذلك الأمير الهمام بأربعة أردية فاخرة ، وأخذ يرفع هذه المرة من مكانة أفضل الدين محمد يوميا ولمدة سبع سنوات درجة بعد درجة بقدرة الله — تعالى العلى العظيم .

ولما توفرت أسباب الجاه والجلال لذلك الوزير وبلغ مجده وسلطانه حد الكمال ، فكر أن يستضيف السلطان السعيد في منزله ويهديه ما وسعه من آثمن الأموال وأنفس التحف والمنقولات ، وأجود الحياض والبغال ، وذلك ليعلو قدره أكثر بمحصل هذا الأمر ، وبالفعل أفضى برغبته هذه إلى السلطان ، فاستجاب السلطان لدعوته ، ولكن ذلك الوزير انتقل إلى جنة الله قبل أن توضع رغبته هذه موضع التنفيذ ، ورحل عن دنيا الفناء إلى عالم البقاء في منتصف شهر رجب عام ٩١٠ هـ .

(بيت ، ترجمته) :

— منصب الوزارة الذى كان باردا غير منتعش

—، وحينما منحته الدفء والانتعاش قال لك قم وارحل !

وقد سار في جنازة ذلك الوزير بديع الزمان ميرزا وظفر حسين ميرزا
وجميع الأمراء والسادات والعلماء وحملوا نعشه في موكب [٤٤٠] مهيب إلى
كازركاه ودفنوا جسده في المدرسة التي كان قد شيدها بجوار مزار فائض الأنوار
مقرب الحضرة الإلهية خواجه عبد الله الأنصاري قدس الله سره .

(ثلاث أبيات ، ترجمتها) :

— لو تكشف لك الدنيا عن أسرارها

— ، وتطلعك على ما تضمه فوقها وتحتها

— لوجدت جوانبها مليئة بالمشاهير

— وصدرها ممتلئ بدماء الفرسان !

— ووجدت مؤخرتها مزدحمة بالعلماء

— ، وجيوشها مليئة بالفضلاء !

وبعد الواقعة المذكورة ، انتهر الأمير محمد ولي بيك وجع آخر من أركان
الدولة ممن كانوا ينتظرون ذلك اليوم الفرصة ونقلوا للسلطان صورة عن كثرة
صورة أموال الوزير وممتلكاته ، كما قالوا له : إن الوزير ادعى أثناء حياته أنه
كان يأخذ رجال السلطان إلى منزله ويقدم لهم الهدايا من أمواله وممتلكاته . فتحركت
في نفس السلطان رغبة الطمع في أموال ذلك الوزير وأمر بالقبض على أولاده
وأقاربه وإيداعه السجن وهمّ الأمراء بالانتقام منهم ، وعذبوهم بشقي ألوان
العذاب ، ونقلوا أموال وممتلكات المغفور له ذلك الوزير وأولاده إلى البديوان ،
كما أخذوا من عماله ونوابه والمقرين، إليه أيضاً مبالغ كبيرة من الأموال .

[٤٤١] (بيت ، ترجمته) :

— لطالما دमित القلوب ودمعت العيون

— ، فسبحان الله في ما أتلفته القلوب وادخرته العيون

والعزة والبقاء لله الملك المعبود وهو العفو الغفور الودود .

الوزير أمين الدين محمود :

كان شقيق الوزير أفضل الدين محمد ، وكان يميل كثيراً إلى تناول شراب
المسكر ، ومجالسة الفاتئات الحميلات . وقد امتاز على أمثاله وأقرانه بحسن الخلق

وكثرة الكرم ، وكان دائماً يرغب في مصاحبة العلماء والفضلاء ، ووصل في عام ٨٨٩ هـ إلى منصب وزير السلطان السعيد ، ولكنه بعد أن قضى خمس سنوات في ذلك المنصب ، تم عزله في الفترة التي توجه فيها شقيقه العظيم إلى العراق . وبعد أن عاش فترة بلاعمل في دار السلطنة هراة ، أصبح مرة أخرى - موضع عناية السلطان ، وتولى منصب الوزارة مرة أخرى ، ولكن الوزير قوام الدين نظام الملك - في فترة تسلطه واقتداره - قبض عليه وسجنه . وبعد عامين تقريباً نحين الوزير أمين الدين محمود الفرصة وهرب من السجن متخفياً في لباس امرأة واختفى في مكان ما إلى أن وصل شقيقه الوزير أفضل الدين محمد ، فلما تقلد ذلك الوزير بعد عودته من العراق - المناصب الرفيعة ، خرج الوزير أمين الدين محمود من منجبه وعمل [٤٤٢] في خدمة مظفر حسين ميرزا ، فنال عنده المكانة العالية والدرجة السامية نظير خدماته السابقة وأعماله اللاحقة . ولما وافاه أجله انتقل إلى عالم الخلود في أوائل عام ٩١٠ هـ .

(رباعي ، ترجمته) :

- مهما احتذى شخص كأساً من شراب البقاء

، ومهما نال مقصده وحقق أمنيته في دار الفناء

- ومهما تقدمت السنون

، فإنه سوف ينتهي كالآخرين

الوزير علاء الدين علي ميكال :

كان علاء الدين يتصف بالأصالة واشتهر بحسن الخط ، وكان هو الموجه لديوان السلطان السعيد ميرزا سلطان حسين لعدة سنوات ، وفي النهاية وصل إلى منصب الوزارة ، وظل يعمل بضع سنوات في إدارة ذلك المنصب ، ولم يبتل خلال مدة خدمته مطلقاً بمحنة السجن أو التعذيب ، ولما جاءه أجله الموعود لبي نداء ربه وانتقل إلى دنيا الخلود .

(رباعي ، ترجمته) :

- لقد رحل فخر الوزراء الوزير علي ميكال

، من دار الفناء هذه إلى جنة الخلود

— وهكذا وبمشيئة الله الكريم المتعال
—، تكون نهاية الجميع في كل وقت وآن

الوزير كمال الدين حسين منصور :

كان الوزير حسين متواضعاً جداً سليم النفس لا يميل إلى الأذى ، وقد ظل يعمل لمدة كبيرة في بلدة مرو بالوزارة للسلطان أبي المحسن ميرزا ، ثم توجه الأوامر الصادرة إليه في عام ٩٩٣هـ إلى دار السلطنة [٤٤٣] هراة فعيّنه الوزير مجد الدين محمد في وزارة السلطان السعيد ، ولكنه نظراً لجهله وتواضعه ألجم لم يستطع الاستمرار في إدارة ذلك العمل الخطير ، ولذلك تم عزله ، فعاد إلى مرو مرة أخرى حيث توفي في تلك البلاد عام ... (١)

الوزير أبو اسحق :

كان أبو اسحق إماماً للمستوفين في العالم ، كما كان الجميع يشهدون بتفوقه في علم السباق . وقد وصل إلى منصب الوزارة عدة أيام أثناء فترة تسلط وسيطرة الوزير مجد الدين محمد ، ثم عزل . وقد توفي في عام ... (٢)

الوزير نعمة الله سرخ :

كان يعمل لمدة طويلة ضمن كبار كتّاب ديوان السلطان البعيد ، وكان يتولى الأعمال العظيمة والأمر الخطيرة ، وفي الوقت الذي بلغ فيه كوكب إقبال الوزير مجد الدين محمد أوج الجاه والجلال ، وقام بالقبض على عمال الديوان وسجنهم ، خشى خواجه نعمة الله على نفسه وفضل الهرب على البقاء . فتعقبه أحد رجال السلطان وقبض عليه وقدمه للوزير مجد الدين محمد ، فعاقب مجد الدين خواجه نعمة الله سرخ بتغريمه مبلغاً كبيراً من المال ، ولكنه بعد أن دفع تلك الأموال ، اهتم به الوزير مجد الدين محمد ورعاه وقلده منصب الوزارة ، ولما قام الوزير نعمة الله بإدارة ذلك المنصب فترة ، ضاقت نفسه بتحركات الوزير مجد الدين محمد ، [٤٤٤] وأخذ يغتابه في مجالسه ، فأمر الوزير مجد الدين محمد بالقبض عليه وسجنه ، وكلف محمود الحمال الذي كان واحداً من العمال

(١) هكذا جاءت العبارة في النص الفارسي

(٢) هكذا ردت العبارة في النص الفارسي .

الأشرار بالتحقيق معه ، فاتهمه بالإهمال والاختلاس وأنزل به الكثير من التعذيب ويقولون إنه في الوقت الذي كانوا يعذبون فيه نعمة الله ، اعترف لهم بأنه يخفى عدة صناديق من المال في مكان معين ، فقال محمود الحمال : ابعث بأحد الأشخاص ليحضر الصناديق إلى هنا ؟ فرد عليه نعمة الله في نفس الوقت ساخرأ حيث قال له : ما حاجتي إلى شخص يحمل الصناديق وأنت الحمال !

وخلاصة القول أنه لما ضاق الوزير مجد الدين محمد ، بل أكثر وزراء الدولة بلسان نعمة الله اللاذع ، أنزلوا به الكثير من التعذيب حتى استشهد .

(رباعى ، ترجمته) :

— يجب أن لا يتعلق أحد بالدنيا الفانية

— ، فتنبّه ولا تركزن إليها ، ولا تغفل

— ولا تتعلق بذواهبها الجميلة فتشقى !

— ، ولا ترتبط بوجهها المنمق فيقضى عليك !

الوزير عتيق الله :

كان والده مولانا نصير أبناء محمد من أبناء حامى الشريعة وصاحب الفضيلة مولانا حميد الدين عتيق الله ، وكان ذلك [٤٤٥] الرجل يتولى منصب المحتسب في عهد السلطان شاهرخ في دار السلطنة هراة ، وكانت أمه من حفدة خواجه شرف الدين حاجى ، وكان خواجه حاجى وزيرا أثناء حكم الملك حسين . وقد توفى مولانا نصير الدين خواجه عتيق الله وهو لم يزل بعد في سن الطفولة ، ولما بلغ عتيق الله سن الرشد اختلط بأقارب أمه وانشغل بتعلم علم السياق ، ولما أصبح ذا باع طويل في ذلك العلم أسند إليه الوزير مجد الدين محمد — وقت علوه واقتداره — بعض أعمال الديوان ، وبعد أن أنجز تلك الأعمال على خير وجه وأصبح موضع عنايته . ولما قبض على الوزير مجد الدين محمد وسجنه ، توجه خواجه عتيق الله من دار السلطنة هراة إلى قلعة شادمان ، فحظى برعاية السلطان مسعود ميرزا الذى كان حاكماً عاماً على تلك الولاية ، وتولى منصب الوزارة له وظل يدير ذلك المنصب مدة طويلة بحرية واستقلال ، ولكنه كان يتعالى ويتكبر على أمراء الدولة وأعيانها مما جعل تلك الطائفة تنفر منه .

وحينما نكبت دولة السلطان مسعود ميرزا ، وتنكر خسرو شاه لأفضال أخيه عليه ، وأجلس ميرزا بايستقر على عرش السلطنة ، أسند منصب الوزارة أيضاً إلى خواجه عتيق الله . وبعد أن مرت بضعة أيام على تلك الحادثة ، قام ميرزا بايستقر بقتل خسرو شاه وقبض محمد الباقر المشهور بالأمير الباني على خواجه عتيق الله وأودى بحياته نظراً لما كان يكتنه له من عداوة سابقة .

[٤٤٦] (ثلاثة أبيات ، ترجمتهما) :

- هذه هي طبيعة الفلك الدائر
- ، تكون دائماً نعمته قرينة لنعمته
- من قطف ورود العظمة من بستان الدنيا
- ، ومن لم يصبه الضرر من أشواك النكبة
- ولن يدوم في الدنيا أحد
- ، فمتى كان البقاء في الدنيا خلوداً !

الوزير غياث الدين منصور شبكانكاره :

وهو شقيق خواجه سيف الدين مظفر ، وكان يعمل وزيراً لأبي الحسن ميرزا فترة من الوقت في ولاية مرو ، ولما سجنه ذلك السلطان ، توجه بعد الإفراج عنه إلى دار السلطنة هراة ، وصار ضمن وزراء السلطان السعيد حسين ميرزا . وبعد أن عمل ما يقرب من عام في ذلك المنصب انتقل إلى رحمة الله بعد أن وافاه الأجل الموعود في عام (١) وأقام شقيقه العظيم زبدة وزراء الخافقين خواجه معز الدين حسين — الذي كان وقتها وزيراً للسلطان السعيد ، وهو الآن يعمل رئيس الديوان لإمام الزمان وخليفة الرحمن أبي الفتح محمد الشيباني — مراسم العزاء وطعام المساكين والفقراء ، كما قدم السلطان السعيد العزاء لخواجه معز الدين حسين وكرمه بالخلع الفاخرة .

(بيت ، ترجمته) :

- إذا كانت رحمة الله قد شملته
- ، فليبق الله مجد معز الله

(١) هكذا جاءت العبارة في النص الفارسي

الوزير سيد زين العابدين

ظل والدين^١ العابدين محمود يضطلع بانجاز عظام الأعمال الديوانية لمدة طويلة ، وأما والدته فكانت [٤٤٧] من أعرق عائلات نجند ، وكان سيد زين العابدين الخجندى - أحد المشاهير - شقيقاً لتلك الأم ، فكانت تغرس في ابنها صفات خاله العظيم حيث كان ذلك الرجل موصوفاً ومشهوراً بمحامد السير ومحاسن الشيم . وكان سيد في بداية أمره يتولى الوزارة للأمين محمد برندق برلاس ، وبعد ذلك بلغت أخبار كفاءته وجدارته إلى السلطان السعيد وأسند إليه منصب الوزارة وبعد أن قضى سيد زين العابدين فترة في القيام بأعباء الوزارة ، تولى الوزير قوام الدين نظام الملك منصب الإشراف العام ، فقام بعزل سيد زين العابدين ، وفي العام الذى استشهد فيه الوزير نظام الملك هو وأبناؤه وأقاربه أسند السلطان السعيد إلى سيد الوزارة مرة أخرى ، وأثناء فترة اقتدار الوزير أفضل الدين محمد وارتقاؤه اختلف مع « سيد » وعزاه مرة أخرى ، فترك سيد الوزارة وظل بضعة أيام يتردد على الديوان دون الارتباط بمنصب من المناصب . وبعد وفاة الوزير أفضل الدين محمد عرض السلطان السعيد على سيد زين العابدين منصب الوزارة أكثر من مرة ، ولكنه يعتذر ، وفي النهاية تقرر أن يحضر ذلك الوزير يومياً إلى انديوان ، وأن لا يفصل الوزراء العظام في أى أمر من الأمور دون الأخذ برأيه ، وأن يوقع سيد على الأوامر السلطانية قبل الوزراء بعبارة « اطلع عليه » وقد ظل ذلك الرجل يعمل على النهج المذكور حتى آخر أيام حياة السلطان السعيد . وبعد وفاة ذلك [٤٤٨] السلطان العظيم اهتم بديع الزمان ميرزا أيضاً بذلك الرجل ، وأصدر أمره بأن لا يبت الوزراء مطلقاً في الأعمال الديوانية أو الأمور السلطانية دون استشارة سيد ، وبذلك استمر في الحضور يومياً إلى الديوان ، وصار يبذل جهداً ملموساً في تسيير الأعمال السلطانية . وبعد أن انقضى ما يقرب من عام على سلطنة بديع الزمان ميرزا طوت يد القضاء والقدر بساط سلطته ، وارتفعت رايات انتصار إمام الزمان وخليفة الرحمن في سماء دار السلطنة هراة ، فأثر سيد زين العابدين الحرب على البقاء . وبعد أن قطع مسافة قصيرة اعترضه نفر من الجند الرافعين راية الانتصار فاشتبك سيد معهم محاولاً إبعادهم . ولكن سهما قاتلا أصابه في مقتل ، فرحل كجده الأكبر في يوم عاشوراء لملاقاة آبائه .

(بيتان ، ترجعتهما) :

— دائماً ما نكون هدفًا لتلك اليد التي

— ، يأتى منها السهم وينفذ حكم القضاء

— ولا يستطيع أحد أن ينقذ نفسه منها

— ، فقد أصاب سهمها قمر أهل البيت !

الوزير نظام الملك الدين أحمد :

كان نظام الدين معروفاً بالصفات الحميلة ومشهوراً بالأخلاق الكريمة ، كما كان يمتاز على جميع وزراء بديع الزمان ميرزا . وقد عمل خاتمه العظيم شمس الدين محمد لعدة سنوات وزيراً للسلطان السعيد ميرزا سلطان [٤٤٩] أبى سعيد ولحسن بيك — كما سبق أن ذكرنا من قبل — كما كان والده مولانا نظام الدين محمود وزيراً ومستشاراً لحكام قبة الإسلام بلخ مدة طويلة ، ولما توفى بقى نظام الدين أحمد فى تلك الولاية . وبعد أن اعتلى الحكم فى تلك الولاية السلطان بديع الزمان ميرزا ، أسند إليه منصب الوزارة والنيابة له ، فانهمك الوزير نظام الدين أحمد فى إدارة ذلك المنصب بحرية واستقلال بفضل كفاءته وقدرته . ولما هزم بديع الزمان ميرزا فى منطقة « جهل جراغ » على يد والده العظيم ، ودخلت مرة ثانية قبة الإسلام بلخ فى حوزة السلطان السعيد ، سارع نظام الدين أحمد إلى الاعتاب السلطانية ، فلقى ترحيباً كبيراً من السلطان وألحقه بالعمل فى الديوان ، وجاء إلى دار السلطنة هراة ملازماً لركب السلطان المنتصر . وبعد بضعة أيام طلب إعفائه من ذلك العمل الكبير فأجيب إلى طلبه ورجع معزواً إلى قبة الإسلام . وبعد أن وقعت تلك الولاية فى عام ٩٠٤ هـ مرة أخرى فى يد بديع الزمان ميرزا ، أسند الوزارة إلى نظام الدين أحمد . فحظى ذلك الوزير هذه المرة بمزيد من القوة والنفوذ وشمله السلطان كثيراً بعنايته . وأخذت مكانته فى الارتفاع يوماً بعد يوم عند السلطان ، فرغم أن مكانته كانت قد فاقت مرتبة الوزراء إلا أن السلطان أسند إليه أيضاً إمارة الديوان ، واستقل بالفصل فى جميع الأعمال والمهام [٤٥٠] وأمضى خمس سنوات فى غاية من العظمة والسعادة . ولما سلك الأمير عمر بيك فى عام ٩٠٩ هـ سبيل الخلاف مع السلطان بديع الزمان ميرزا وتحصن فى قلعة شيرغان ،

هبطت مكانة الوزير نظام الدين أحمد بسبب العلاقة التي كانت بينه وبين الأمير عمر بيك . أما الوزير كمال الدين محمد الذي كان يتولى منصب الإشراف على الديوان ويضمر في نفسه دائماً العداء للوزير نظام الدين أحمد فقد انتهز الفرصة وعرض على السلطان بديع ميرزا جانباً من إهمال وسوء تصرف ذلك الوزير وبناء على ذلك عاقب السلطان الوزير ، وكلف الشيخ عبد الله بكاول بالتحقيق معه ، فتدخل الأمير شجاع الدين والتون أرغون للدفاع عنه ، وحل موضوع الوزير نظام الدين أحمد على أن يدفع مبلغ ثلاثين تومان كبكى . وقد دبر الوزير ذلك المبلغ خلال بضعة أيام . وصار مرة أخرى موضع عناية السلطان . واستأنف إدارة شئون الوزارة كما كان ، وبعد أن قضى ما يقرب من عام على هذه الواقعة ، كلف الوزير نظام الدين أحمد بالتوجه لحكم ولاية شبرغان . فذهب إلى تلك الولاية وعمل على إحياء مراسم العدل والإنصاف فيها ، وجعل الرعاية يسعدون وينعمون بالعدل والإحسان .

وخلال تلك الفترة تقدم جند السلطان العظيم إمام الزمان خليفة الرحمن أبو الفتح محمد الشيباني - خلد الله ملكه - لفتح شبرغان ، وكانوا يغيرون على تلك الولاية كل بضعة أيام . وأما نظام الدين أحمد فلم يسعده الخط [٤٥١] وجعل ملجأه الحوائط الأربعة لقلعة شبرغان ولم يتقدم للقتال سوى بضعة أفدام . كما كان يحاول أحياناً خديعة جند السلطان الأقوياء بشئ أنواع المكر وكثرة الوعود الكاذبة ، ومهما كان الزمن يقول له بلسان حاله :

(بيت ، ترجمته) :

— أى صمود تقفه أنت أمام

— ، شخص أعد العدة للقتال أكثر منك بكثير !

فإنه لم يكن يصغى لكلامه . ولما عبر السلطان نهر جيحون بنفسه في شهر ذي الحجة عام ٩١٢ هـ ، تزلزل موقف نظام أحمد وترك قلعة شبرغان وهرب إلى منطقة كرزوان الجبلية ، وبعد ذلك دخلت جميع ولايات خراسان في حوزة السلطان . وأثناء عودة قنبر ميرزا حاكم قبة الإسلام بلخ من خراسان متوجهاً إلى مقر حكمه ، توجه نظام الدين أحمد إلى معسكره ونظراً لما كان قد لاحظته قنبر ميرزا

من أمور الغدر والخذاع في تصرفات نظام الدين ، فانه قام بالقبض عليه واعدامه .
« لا مرد لقضاء الله ولا معقب لحكمه »

الوزير غياث الدين ميكال :

كان غياث الدين من أكابر نواب الديوان في أوائل عصر السلطان سعيد ، وكان يتقرب أكثر للوزير قوام الدين نظام الملك حيث كان يسند إليه عظام الأمور . وفي العام الذي تم فيه القبض على الوزير نظام الملك — بسبب سعاية الوزير مجد الدين محمد — وإيداعه السجن قرب الوزير مجد الدين محمد — على عكس ما كان يتصوره الناس — غياث الدين وعينه [٤٥٢] نائبا له . ولما سافر الوزير مجد الدين محمد إلى الحجاز . وحظى الوزير نظام الملك مرة أخرى بالجاه والسلطان ، اختص غياث الدين ميكال أيضاً بمزيد من النفوذ ، وأمر السلطان السعيد بأن لا يفصل الوزراء العظام في أى أمر من الأمور قبل الأخذ برأيه ، وأن يتصرفوا بما يشير به ، ويعرضوا عليه الأحكام السلطانية للتوقيع عليها . وقد أمضى غياث الدين ميكال عدة سنوات في السعادة والجاه وكان يوقع على ظهر الأوامر السلطانية أمام توقيع الوزراء بعبارة « أنا لطلع عليه » . ثم استقال من ذلك العمل في عام ٩٠٢ هـ واشتغل ضمن نواب مظفر حسين ميرزا وسافر إلى استرabad — للملاقة ذلك السلطان — وفي تلك الولاية في العام الذي دارت فيه الحرب — ناحية برج قابوس بين مظفر حسين ميرزا ومحمد حسين ميرزا ، وقد انتصر فيها محمد حسين ميرزا وشمله بعطفه وعنايته وأمر وزرائه بالانقياد له . وقد عاش الوزير غياث الدين تلك الولاية معززا مكرماً حتى وفاة محمد حسين ميرزا ، وكان يوقع على الأوامر السلطانية مكان الوزير مجد الدين محمد ، وكان ينجز أمور الديوان ومهام السلطان بقدرة وكفاءة ، ثم عاد إلى دار السلطنة هراة بعد وفاة محمد حسين ميرزا وعمل مرة أخرى ضمن خاصة مظفر حسين ميرزا ، ولكنه لم يختص بمنصب معين فترة من الوقت .

وفي عام ٩١٢ هـ حينما اعتلى الأمير المذكور عرش السلطنة بالاشتراك مع بدیع الزمان ميرزا . جعل الوزير غياث الدين [٤٥٣] محل عنايته واهتمامه أكثر من ذي قبل وجعله يوقع في مصاف الأمراء العظام . ولما انتقضت بضعة أيام على

إمارة غياث الدين ، طوى القدر بساط سلطنة مظفر حسين ميرزا ، وعاش
غياث الدين بعد ذلك في عزلة وانزواء إلى أن مرض في عام ٩١٤ هـ وانتقل إلى
رحمة الله :

(بيت ، ترجمته) :

— كان هذا قائماً منذ عرفت الحياة وسوف يظل هكذا

— ، وسوف تكون هكذا نهاية الجميع !

الوزير درويش أحمد القابض :

وكان في بداية أمره من بين أرذل العمال ، وكان يعمل معظم أوقاته في وظيفة
جمع الأموال واستلامها ثم ترقى بعد ذلك وأصبح أميراً للعمال في دار السلطنة
هراة . وأمضى فترة طويلة في ذلك المنصب ، وفي عام ٩١١ هـ حينما عمل
الوزير صاين الدين على في ديوان السلطان العظيم حسين ميرزا ، عرض صاين
الدين على السلطان جانباً من تصرفات ذلك الحقير الذي كان سبباً في الحقد
والحسد والفساد ، ومصدراً للعجاج والعناد ، فأمر السلطان العادل بالقبض عليه ،
ووضع الوزير صاين الدين على قيداً ثقيلاً في قدميه . ولما كانت إدارة شؤون الملك
والمال في ذلك الوقت آلت إلى الأمير محمد ولي بيك ، ونفذ الوزير صاين الدين
هذا الأمر دون الأخذ برأيه فأضمر الأمير محمد الحقد في قلبه على الوزير
صاين الدين ، وتقدم للدفاع عن درويش أحمد القابض واتهم الوزير صاين الدين
على بإساءة التصرف وكثرة الأخطاء ، وغير نفس [٤٥٤] السلطان عليه ، وأعلن
السلطان أن كل ما قاله الوزير المشار إليه عن درويش أحمد القابض ما هو إلا محض
افتراء وبهتان ، وبالعالم الأمير محمد ولي بيك في الحديث عن هذا الموضوع لدرجة
أنه قال : إن السلطان السعيد هو الذي فك بنفسه قيد درويش أحمد وقيد صاين
الدين على بنفس القيد وأسد منصبه إلى درويش أحمد .

وقد علا نجم درويش أحمد — الوضع — من حضيض الوبال إلى أوج الإقبال ،
وتولى ذلك المنصب الرفيع وأمر السلطان ألا ينادوا الوزير بعد الآن بالقابض
بل يسموا درويش أحمد بالكافي وبدأ ذلك الشرير — بسبب طبيعته الشريرة
ووضاعته — سوء الأدب وفتح أبواب الظلم والتعدي على الرعية الذين هم وديعة

الخالق في عنق الحاكم ، وأثقل كاهل المظلومين بالأعباء الكثيرة ، وأقام أسباب الفتنه والفساد . وكان يفكر من الصباح حتى المساء في : هل من مسكين يلقى في قيد البلاء ويفكر من المساء حتى الفجر في : هل من برىء يشترى في الآفاق دُون ما ذنب جناه ورغم أنه كان يأخذ مبالغ كبيرة من الناس على سبيل الرشوة ، إلا أنه كان لا ينجز أعمالهم فيضطربون أكثر ويقوم هو بمضاعفة ما كان قد كتبه عليهم

(رباعى ، ترجمته) :

- ليس الكافر مثل الحارس السيء الظالم
- ، فليس لدى الحارس شأن لقريب أو أخ .
- كل من لا يؤدى الحراسة يكون كافرا
- ، لكن لا يكون حارسا كل من لا يكون كافرا

[٤٥٥] وبسبب زعيم الأفاقين هذا صعدت عائلة من العائلات واحترقت عائلات كثيرة بنيران الظلم والطغيان ، وزالت .

(بيت ، ترجمته) :

- حينما اشتعلت نيران ظلمه
- ، احترقت عائلات كثيرة !

ولما انتقل السلطان السعيد إلى جوار ربه في الحادى عشر من شهر ذى الحجة عام ٩١٩ هـ وجلس بديع الزمان ميرزا بالاشتراك مع مظفر حسين ميرزا على عرش السلطنة ، أراد ذلك الأفاق الشرير أن يعمل في ديوان كل من السلطانين [ولكنه نظرا لأن هذه الرغبة كانت غير معقولة فإنه لم يتيسر له ذلك وأصبح فقط رئيسا لـديوان مظفر حسين ميرزا ، وعمل كسابق عهده بالظلم والعدوان بل أكثر ، وعلت صرخات العباد من شدة ظلمه وطغيانه ، وبلغت استغاثات الخلق جميعاً مسامع ساكنى السموات لكثرة فسادهم ومؤامراتهم

(بيت ، ترجمته) :

- لقد خربت قلوب المساكين بسبب ظلمه
- ، وتحطمت أكبادهم بسبب طغيانه

١ فرفع أهل الصلاح والتقوى أيديهم إلى السماء سائلين الله بحق الظلم الواقع عليهم أن يخلصهم من ذلك الشرير وفي النهاية استجاب الله لدعاء البائسين وتحقق رجاء المظلومين

(رباعى ، ترجمته)

- إلى متى يستمر ظلمك هذا وجفاؤك
- ، وإذئذ لك للناس هذا بلاسبب !
- [٤٥٦] فأصحاب الحق فى يدهم سيف قاتل
- ، عله يصيبك ويقضى عليك !

وفى شهر ذى الحجة عام ٩١٢ هـ وفى أمسية من الأمسيات كان ذلك الشرير يتناول فيها كتوس الخمر فى منزل الأمير يوسف على كوكلتاش - وكان حاكماً على هراة من قبل مظفر حسين ميرزا - دارت مناقشة بينه وبين طرخانى بياك شقيق الأمير المذكور ، فاستل ذلك الشاب حسامه الفتاك من غمده وقضى على ذلك الخبيث بضربة واحدة ، وخلص الناس من شره وفساده ، وفى صباح اليوم التالى ذاع هذا الخبر السعيد ، فتجاوزت أفراح أهل هراة عنان السماء ، وكان كل اثنين يلتقيان ببعضهما يهتنان نفسيهما كما يحدث فى أيام الأعياد ، كما كانت كل جماعة يجمعها مجلس واحد تتذكر ظلم ذلك الشرير وطغيانه فتكيل آلاف اللعنات على روحه الخبيثة .

(بيت ، ترجمته) :

- اعلم أن الذى يؤذى الناس
 - ، بلحدير بلعنة جميع الناس
- ولما كانت هناك خشية من أنه إذا وقعت عيون الشعب على جثمانه فسوف يتزاحمون ، ويهجمون عليه ويفنون جسد ذلك الجاهل برجه بالأحجار ، فقد ظل الجثمان لمدة ثلاثة أيام فى أسطبل الأمير يوسف على .

وفى تلك الأيام كان سياس الأمير المذكور يمررون الناس الذين كانوا يرغبون فى إلقاء نظرة اعتبار على جثمان ذلك الشرير واحداً أو اثنين داخل المنزل ، ويأخذون منهم مبلغاً من المال كرسوم مشاهدة ، فتحققت للسياس من وراء هذا

العمل أموال كثيرة ، وفي النهاية لفوا جثة ذلك الظالم المتعفة في ملاءة وخرجوا بها في منتصف الليل من المدينة ودفنوها في حفرة من الحفر ، ولم يجعلوا مكان دفنه ظاهراً خوفاً من الناس .

[٤٥٧] ما أشقى الإنسان الذى يجعل نفسه العزيرة هدفاً للاملاء حبا منه في نيل المناصب ، ورغبة منه في حكم الدنيا القانية ، ويسعى إلى نفسه ويستهن بها بسوء خلقه وشؤم حياته ، ويلقى بها من أوج الشرف والسعادة إلى حضيض المذلة والهوان ، فيقولون :

(بيت ، ترجمته) :

— عش يا عزيزى بحيث إذا زل قدمك

— ، يصونك بدعائه ملائك

وما أسعد ذلك الذى لا يغبر همته مطلقاً بغبار الحب للعظمة والجاه ويلبس دولته وسلطانه الزائل ثوب العفة « يلتقى بنفسه في مهالك الظلم والعدوان متعظاً بقوله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (١) » . وأن يبعد نفسه الغالية قدر طاقته عن المضى في دروب الظلم والطغيان ، وأن يقنع من متاع الدنيا بالقليل من أموال الفقراء والمساكين ، وأن لا يسعى إلى المناصب الرفيعة بهدف الاستمتاع بكثرة الأموال والحصول على أسباب الجاه والسلطان .

(ثلاث أبيات ، ترجمتها) :

— رغيفان من الخبز سواء أكانا من القمح أو من الشعير

— ، ورداءان من القديم كانا أو من الجديد

— والعيش في أمان داخل حجرة صغيرة خير من

— ، ذلك أن يقول لك أحد : قم من هنا واذهب إلى هناك !

— [٤٥٨] وأفضل آلاف المرات عند أهل البقين

— ، من ملك وسلطنة كيقباد وكيخسرو

(١) سورة البقرة ، آية « ١٩٥ » .

وإذا قدر له بالضرورة وبمشيئة الله - سبحانه وتعالى - أن يخرج من عش العزلة ويجلس على عرش السلطة ، ويضع قدمه في مركز الخدمة ، ويحواله القضاء والقدر إلى صاحب مناصب ويضع في قبضته زمام أمور العباد ، فعليه أن يخشى الله في السر والعلن حتى يعنيه على إبعاد المصائب ويأخذ بيديه وقت الأزمات ويعطيه القوة والطمأنينة . وعليه أن يجعل الخالق شعاره ودثاره ، وأن يتجنب ويحترس من الاعتماد على مساعدة الفلك الظالم وأن لا يركن إلى نعيم دار الغرور الذي لا يدوم ولا يبقى .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا تغير بهذه الدنيا الفانية

— ، لأنه لا يخلد فيها أحد

— ولو تغتر بالنجمة الفانية

— ، فستظل بعيدا عن العز الدائم

وعليه أن يظهر المساعي الطيبة والأعمال المحميدة بإرساء قواعد العدل والإحسان مستعينا بقول - تعالى - : « إن الله يأمر [٤٥٩] بالعدل والإحسان (١) » . وعليه أن يزهر أغصان آمال الخاصة والعامة بفيض من محاب « مخائه وإنعامه » ، ويقطرات من غمام عنايته وإكرامه ، ويعلم أن العدل وعمل الخير عبارة عن شجرة يمكن الاستمتاع بثمراتها في الدنيا والآخرة ، وأن يعرف أن البذل والتعفف عبارة عن بداية يمكن أن تكون تليجتها فتح أبواب السعادة في الأولى والآخرة .

(رباعى ، ترجمته) :

— يامن أصبحت روضة الإقبال مسكنك

— ، أغرس أغصان الإنصاف في روضة الدنيا

— واجعلها خضراء مزهرة بكثرة الإحسان

— ، حتى تمدك بالسعادة في كلا العالمين

(١) سورة النحل ، آية « ٩٠ » .

وعليه أن يصغى بعين الرضا لأقوال المظلومين وتظلم المغموين في جميع الأحوال وأن يعمل بنية صادقة وبقبول حسن بضمون الحكمة القائلة « استمع كلام الملهوفين صدقة (١) »

(بيتان ، ترجمتهما) :

— استمع لأقوال المظلومين

—، وتلطف معهم في الكلام

— واقض حاجات الفقراء والمظلومين

—، ولا تحطم قلوب أحد مطلقاً

كما يجب عليه أن يضمم بالرحمة والإحسان جراح المجرّوحين ، ويشفي بالمناسب من الدواء أسقام المتألمين .

[٤٦٠] (بيتان ، ترجمتهما) :

— امنح الشفاء والصحة للناس

—، وقدم الدواء للمتألمين

—، وضع المرمم على قلوب المجرّوحين

—، وحينما ترى محزوناً أسعده

وعليه أن يبعد يد الأقوياء عن الضعفاء والعاجزين ، ويقهر الظالمين ، وأن لا يدع صورة آمال المحتاجين خلف الحجب بسبب المهملين والمقصرين .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا يجوز لك أن تساند الظالمين

—، وحقق آمال المظلومين

— وإذا أنعم الله عليك بسلطان

—، فلا تحجب حاجة المحتاجين

(١) حديث شريف .

ويجب عليه أن يجعل دائماً فحوى عبارة « أنزل الناس منازلهم » موضع نظره الثاقب ، وأن يقدم لجميع فئات الشعب « على اختلاف طبقاتهم وتباين درجاتهم » مراسم اللطف والإحسان وأن يوفّر ويكرم ويعزز ويحترم سادات أهل البيت الذين هم درة سماء النبوة ، ولؤلؤة بحر الرسالة وكما توضح الآية الكريمة « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى (١) » حتى يجعلهم ينقشون محبته ومودته في قلوبهم ، ويتشفعون له عن جرائمه وآثامه يوم الحساب عند خاتم الأنبياء عليه من الصلوات أكملها ومن التحيات أفضلها .

[٤٦١] (بيتان ، ترجمتهما) :

- لو يكن لك عقل وفهم وإدراك
- ، فاعمل دائماً على احترام أهل البيت
- لأن احترام هؤلاء القوم الكرام
- ، ينفعك كثيراً يوم القيامة

وعليه أن يكون واضحاً وصريحاً مع العلماء الكبار الذين هم — بأرائهم المشرفة — هداة مشكاة الإيمان ، ومصابيح العرفان ، وأن يطرز ويزين وجودهم الوضاء بحق إعزاز الآية الكريمة « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٢) » ويلحظهم بعين العاطفة حتى يملأوا وقتهم بالبحث والتبحر في بحار العلم والمعرفة ، ولا ينشغلون من أجل تدبير ضروريات معيشتهم .

(بيتان ، ترجمتهما) :

- لا تكن غافلاً عن أحوال أهل العلم
- ، لأن أقوالهم فيها الحل للمعضلات
- واجعل مقامهم مقام السعادة
- ، وأقوالهم مصابيح الهداية

(١) سورة الشورى ، آية « ٢٣ » .

(٢) سورة الزمر ، آية « ١٣ » .

وعليه أن يميز ويستثنى المشايخ أصحاب الكرامات - الذين كانوا يثبتون إيمانهم بشعار « الفقر فخرى » جاعلين نصب أعينهم وضائرتهم فحوى الآية الكريمة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ^(١) » ، كما كانوا يقضون أوقاتهم المباركة بأداء الطاعات والعبادات على سجدات « لى مع الله » - بمزيد من حرية الإرادة والإخلاص فى العبادة ، والتفرغ للعقيدة ، ويلتمس عندهم الدعوات الصالحات . وبهذه الطريقة الشريفة يرفع راية التوفيق والسداد .

[٤٦٢] (بيتان ، ترجمتهما) .

— إن الجماعة الذين يكون شعارهم التقوى

— ، ويختارون طريق العبادة

— لا تتبع سوى طريق إخلاصهم

— ، وابتح عما تريده عندهم

وعليه أن يجعل الشعراء وأصحاب الإنشاء - الذين ربما تكون روائع منظوماتهم « كأنهن الياقوت والمرجان ^(٢) » وشاحاً لفاتنات جميلات « حور مقصورات فى الخيام ^(٣) » ، وبدائع منشوراتهم التى هى « كأمثال اللؤلؤ المكنون ^(٤) » تزين بأبهى صورة آذان رقاب « ولدان مخلدون ^(٥) » - راضين شاكرين وسعداء متطمئين بلطفه معهم ، وكرمه لهم وإحسانه عليهم بالأموال حتى ينشئوا أشعارهم الرقيقة ، ومنشآتهم الفصيحة من كرم أخلاقه ومحاسن أعماله ويكتب لاسمة البقاء والخلود على صحائف الزمان وأوراق الليل والنهار .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كان لحسن كلمات الأنورى الفضل فى

— ، ترديد قصة إحسان أبى الحسن حتى يومنا هذا !

(١) سورة الحجرات ، آية « ١٣ » .

(٢) سورة الرحمن ، آية « ٥٨ » .

(٣) سورة الرحمن ، آية « ٧٢ » .

(٤) سورة الواقعة ، آية « ٢٣ » .

(٥) سورة الإنسان ، آية « ١٠ » .

— وبقيت في الدنيا بسبب قول الشاعر الطوسي

—، شهرة شجاعة كاوس وشهمتين !

وعليه أن يغمر البسطاء والمزارعين برحمته وشفقته لأن مهمة انتظام الدنيا وإنجاز شئون [٤٦٣] الخلق منوطة بأحوالهم ، ورضاء الله — سبحانه وتعالى — ودوام مجد السلطنة مربوط براحة بالهم . وأن يمطر بستان آمالهم من سحاب رأفته وغمام عاطفته وقطرات عنايته ورعايته ، حتى يشمل حاله بمضمون الحديث الشريف . « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ^(١) » ، ويشاهد — بعد إراحة نفوسهم — صورة التحسن واضحة في مرآة آمالهم .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— أمطر يا عزيزي بضع قطرات من سحاب كرمك

—، على بستان آمال المزارعين

— لأن اخضرار بستانهم

—، يزيد في فترة علوك واقتدارك !

وعليه أن يعزز ويكرم تجار البحار والأمصار ، الذين يتجولون في البحار والأقطار من أجل الكسب الحلال ، ويأتون بالنفائس من بطون البحار ، وبالروائع من جمع البلاد والديار إلى مواطنهم الصغار منهم والكبار ، ويجعلون تحت تصرفهم — بمقتضى الحديث الصحيح المتفق مع الشريعة الغراء ^[٢] — من أراد الدنيا فليتبجر — الأقمشة النادرة الطاهرة الموجودة في ربوع الدنيا الفانية ، ويزين قامتهم الطيبة بالهدايا الخاصة ، ويخفف عنهم بقدر الإمكان جزءا من الضرائب والرسوم والأعباء المستحقة عليهم .

(بيت ، ترجمته) :

— حتى ينتشر صيت سمعته الطيبة

—، ويشتهر الحديث عن فعل الخير بسببه

(١) حديث شريف

ويجب عليه أن لا يؤتم الحرفيين وأهل الأسواق الذين يتحملون مختلف المشاق
ويضطلعون بما لا يطاق بالأعباء الثقيلة وأن [٤٦٤] يتطلف بهم . وبذلك الطريقة
يجعل دولته عامرة .

(ثلاث أبيات ، ترجمتها) :

- تنبه واحزن لآلام المغلوبين
- ، واخش غلبة الأيام عليك
- فعندما تقضى على أحزان المغلوبين
- ، وتقدم اللطف والإحسان لأهل الفضل
- يعمر ملكك ويقوى جندك
- ، وتحقق لك عظمة الأكاسرة

وعليه أن يحقق مسألة الغرباء والجياح والفقراء في كل مكان الذين يستمدون
الدفع بالنهار في قرص الشمس - لشدة جوعهم - ويرقبون بذور الأمل
بالليل من حالة القمر - لشدة فقرهم - فيطفئ لهيب جوع الغرباء بإحسانه ، وينير
صومعة الفقراء المظلمة بمصابيحهم .

(مثنوى ١٨ بيتاً ، ترجمته) :

- تذكر الغرباء الجائعين
- ، وأسعد الفقراء الهائمين
- وارحم يا عزيزي كل بائس
- ، لأنه اغترب خوفاً من الأذى
- وحقق حاجة كل محتاج لأنه
- يلتمس العدل من لطفك
- ولا تجادل يا عزيزي في النصيحة
- ، وأغلق شفئك وافتح أذنك
- وتأكد بأن ذلك الوزير العظيم
- ، باسط العدالة وقابل النصيحة
- السامي كالقمر المهيّب كالشمس

- ، المسير في ركابه الكواكب خاضعة ذليلة
- الذي استمد منه كوكب المشتري السعادة
- ، وتعلم كوكب الزهرة من أفراحه الغناء
- دنيا الكرم والسخاء . وشمس عالية في السماء
- ، وبهرام في الانتقام من الأعداء ،
- له فطنة عطار وصفات الملائكة
- ، حامى الخلاق وراعى الأمم
- يسمى الرسول قرشى الأصل
- ، ليكون محموداً دائماً في العز والسلطان
- ليس في حاجة إلى هذه النصائح
- ، لأنها في نفسه وطبيعته
- وكل رواية خطها قلم البلاغة
- ، في هذا الكتاب عن أخلاقه الحميدة ،
- كانت جزءاً فقط من أخلاقه الطاهرة
- ، ولا يشك في هذا الكلام أحد !
- وكل مستحق في عصره
- ، كان له نصيب وافر من الطافه
- والدعاء له فرض واجب على الجميع
- ، بأن يستمد منه الملك الحسن والجمال
- فيا إلهي ! بحق خير خلقك عندك
- ، وبحق نجوم فللك الهادية لعبادك
- اجعل دائماً هذا الوزير الورع العادل
- ، قريناً للعظمة والساطان
- ولتكتب له العمر في الدنيا
- ، محافظاً عليه يا ذا الجلال والإكرام

الخاتمة

بعد أن وصلنا الى هذا القدر من الدراسة عن المؤرخ الاسلامى الكبير خواندمير ، وتناولنا عصره بالدراسة ، وتحدثنا عن موطنه وسيرته ، ومؤلفاته وقيمتها ، وقدمنا دراسة تحليلية عنه من كتابه دستور الوزراء بالمقارنة بينه وبين الكتب السابقة عليه ، اتضح من خلالها قيمة دستور الوزراء وأهميته ، ونقلنا هذا الكتاب الى اللغة العربية وعلقنا عليه . بعد هذا كله وجب علينا أن نقف قليلا لنستخلص فى ايجاز نتائج هذه الدراسة سواء المتعلق منها بمؤرخنا نفسه أو بكتابه دستور الوزراء .

لقد شغل خواندمير بالدراسة والبحث والتأليف منذ نعومة أظفاره وحتى العام الأخير من حياته وعشق الكتابة التاريخية حيث شغلت الجزء الأكبر من مؤلفاته ، فوضع سبعة منها فى هذا الفن . واعتبره (١) « ريپکا Rypka » مساويا لحافظ آبرو وعبد الرزاق السمرقندى وميرخواند فى فن الكتابة التاريخية. وعده (٢) عبد الحسين نوائى واحدا من فحول المؤرخين فى عصره .

مؤلفات خواندمير المؤرخ الاسلامى الكبير لم يلق معظمها حتى الآن الاهتمام الكافى من الدارسين ، فرغم كونها تسعة مؤلفات الا أنه لم يطبع منها حتى الآن سوى كتابى « حبيب السير » و « دستور الوزراء » ، كتب عنهما مقدمات قصيرة لا تفى بحقه ولا بقيمة مؤلفاته ، وبقيتها لا زالت مخطوطات موزعة بين المكتبات الايرانية والأوربية .

تضمن كتاب دستور الوزراء معلومات دقيقة عن وزراء بعض الدول ، التى لا يوجد مثلها فى الكتب الأخرى ، كما تضمن ذكرا لأسماء بعض المصادر التى لا توجد الآن - وكانت موجودة فى عصره - فالفضل يرجع له فى تعريفنا بأسماء تلك المصادر التى استفاد منها .

History of Iranian Literature, p. 281.

(١) فى كتابه

(٢) فى كتابه : رجال كتاب حبيب السير - المقدمة ، ص (هـ) - طهران ١٣٢٤ هـ ش

ولقد لاحظنا أيضا وضوح شخصية خواندمير طول الوقت في كتابه دستور الوزراء وتوفيقه الشديد في اختيار مصادره ، وطريقته العلمية الصحيحة في عرض أخباره ، ونقده لرجاله .

كذلك اتضح لنا جيدة خواندمير وتجرده من التعصب ، والبعد عن النظرة الضيقة ، وهذا ما وضع جليا أثناء حديثه عن الوزراء - من بنى جنسه - أمثال وزراء البرامكة والوزير ابن العلقمي وغيرهم .

لم يكن خواندمير مؤرخا فحسب ، بل كان كاتباً أدبياً شاعراً حكيماً ، وضع كتابه بأسلوب أدبي أفضل بكثير مما كان منتشر في عصره . ضمنه الكثير من الأشعار - بعضها من نظم - والبعض الآخر من نظم غيره - والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ووضعها في مكانها المناسب من الكتاب ، مدركاً أنه يتحدث عن سير الخلفاء والسلطين والوزراء وأخلاقهم - للخلفاء والسلطين والوزراء - من قبيل العظة والاعتبار . ومن هنا يمكننا اعتبار كتابه هذا كتاباً أخلاقياً ونموذجاً طيباً لتطور الكتابة التاريخية في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين .

لاحظنا كذلك خلال البحث قلة نادرة للكتب التي ألفت عن الوزراء باللغة الفارسية ، يقابلها كثرة هائلة في الكتب التي ألفت باللغة العربية ، رغم أن منصب الوزارة منصب إيراني أصيل . ومن هنا تتضح أهمية نقل كتاب دستور الوزراء الى اللغة العربية .

وختاماً أقر بأن الباب ما زال مفتوحاً على مصراعيه أمام الدارسين لتناول مؤلفاته العديدة بالدراسة والبحث والترجمة وحبذا لو تطوع المتطوعون من رجال العلم والأدب وعملوا على الحصول على مؤلفات خواندمير المخطوطة وقاموا بتحقيقها ونشرها لتعم الفائدة ويتيسر الاقتراب من الحقيقة .

أرجو أن يكون قد حالفني بعض من التوفيق في إعطاء صورة عن المؤرخ الاسلامي الكبير خواندمير وكتابته دستور الوزراء .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

ثبت باسماء المراجع (١)

١ - المراجع التي كتبت باللغات الشرقية

(أ) المراجع الفارسية :

- استرابادی : (سلطان حسین واعظ) :
١ - دستور الوزراء ، تصحيح وتحقیق اسماعیل واعظ جوادى ، طهران ١٣٤٥ هـ . ش .
اسکندر : (اسکندر بیك ترکمانی منشی) :
٢ - تاریخ عالم آرای عباسی ، طهران ١٣١٤ هـ . ش .
اقبال : (عباسی) :
٣ - وزارت در عهد سلاطین یزرك سلجوقی ، بكوشش محمد تقی دانش پزوه ویحیی ذكاء ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش .
بداونی : (عبد القادر بن ملوك شاه) :
٤ - منتخب التواریخ ، مجلد أول ، بتصحیح مولوی أحمد علی صاحب ، باهتمام كبير الدين أحمد ، باريس ١٨٦٨ م .
براون : (ت ١٩٢٦ م) ادوارد جرانفیل :
٥ - تاریخ ادبی ایران از نیمه قرن هفتم تا آخر قرن نهم هجری ، ترجمة علی أصغر حکمت ، طهران ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م .

(١) ساذكر هنا المراجع التي ورد ذكرها في ثنايا البحث ، والتي اعتمدت عليها في كتابته ، وكذا المراجع التي رجعت اليها عند التعليق على الترجمة .

بهار : (محمد تقی ملک الشعراء) :

- ۶ - سبک شناسی یا تاریخ تطور نثر فارسی ج ۳ ، طهران ۱۳۲۱ - ۱۳۲۶ هـ . ش .

بهرامی : (اکرم) دکتور :

- ۷ - خاندان سهل ، بحث علمی مطول مستخرج من مجلة « وحید » ، بعدد « ۱۱ » ، « ۱۲ » ، « ۱۳ » ، ۱۳۵۱ هـ . ش - ۱۳۹۳ هـ - ۱۹۷۲ م طهران .

جویی : (ت ۶۸۱ هـ) علاء الدین عطا ملک بن بهاء الدین محمد :

- ۸ - تاریخ جهانکشای (ألف ما بین سنة ۶۵۰ - ۶۵۸ هـ) ، نشر وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزوينی . لیدن ۱۳۲۹ - ۱۳۵۵ هـ = ۱۹۱۱ - ۱۹۳۷ م .

خواندمیر : (ت ۹۴۲ هـ) غیاث الدین محمد بن همام الدین :

- ۹ - حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر ، المجلدات الثلاثة ، ۱۲۷۱ - ۱۲۷۳ هـ بمبای . حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر ، المجلد الأول ، طبعة طهران ۱۳۷۳ هـ .

- ۱۰ - نفس المؤلف : دستور الوزراء ، طهران ۱۳۱۷ هـ ش .

رشید الدین فضل الله : (ت ۷۱۸ هـ) :

- ۱۱ - جامع التواریخ ، جلد دوم ، در تاریخ باد شاهان مغول ازا وکتای قا آن تا تیمور قا آن ، بسعی واهتمام بهمن میرزا - کریمی . از نشریات کتابخانه مرکزی ، طهران .
رضا بازوکی :

- ۱۲ - تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ۱۳۰۶ هـ ش طهران .

شبقق : (رضا زاده) :

- ۱۳ - تاریخ ادبیات ایران ، ۱۳۲۱ هـ . ش ، طهران .

عقیلی : (سیف الدین حاجی بن نظام عقیلی) :

- ۱۴ - آثار الوزراء ، صححه وعلق علیه میر جلال الدین حسینی أرموی . نشر

جامعة طهران ، عام ۱۳۳۷ هـ . ش ، طهران .

علی شیر نوائی : (ت ۹۰۶ هـ) امیر نظام الدین :

- ۱۵ - مجالس النفاثس (مؤلف أصلاً باللغة التركية الجغتائية ثم ترجم الى الفارسية) . نشر وتصحيح علی أصغر حکمت ، طهران ۱۳۲۳ هـ ش .

عوفى : (سديد الدين محمد) :

- ١٦ - جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، بانزده باب ، طهران ، ١٣٣٥ هـ . ش .
١٧ - جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، جلد أول از قسم سوم ، با مقابله
وتصحيح ومقدمة دكتور بانو مصفا « كريمى » ، ١٣٥٢ هـ . ش . طهران .

قزوينى : (ت ٧٥٠ هـ) حمد الله مسنوفى :

- ١٨ - تاريخ كزيده ، نشر وتحقيق المستشرق براون ، لندن ١٣٢٨ هـ =
١٩١٠ م

ميرخواند : (ت ٩٠٣ هـ) محمد بن خاوندشاه بن محمود :

- ١٩ - روضة الصفا ، ١١٦٦ هـ ، بمباى .

نوائى (عبد الحسين) :

- ٢٠ - رجال كتاب حبيب السير از حملة مغول تا ملك شاه اسماعيل اول ،
طهران ١٣٢٤ هـ . ش .

(ب) المراجع العربية :

ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا :

- ٢١ - الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، نشر الحلبي ، ١٣٥٧ هـ
- ١٩٣٨ م ، القاهرة .

أبو العينين فهمى محمد :

- ٢٢ - أفغانستان بين الأمس واليوم ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ،
فرع مصر ، ١٩٦٩ م .

أربرى : (أ - ج) :

- ٢٣ - تراث فارس ، كتبه نخبة من المستشرقين ، اشترك فى كتابته وأشرف
على نشره أ . ج . أربرى ، نقله الى العربية محمد كفاي وآخرون .

البدليسى : (شرف خان)

- ٢٤ - شرف نامه ، الترجمة العربية ، ص ٢٠ ، القاهرة .

الجهشياري : (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) .

- ٢٥ - كتاب الوزراء والكتات ، حققه ووضع فيايرسيه مصطفى السقا . وآخرون ،
الطبعة الأولى ، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م ، القاهرة .

الراوندى : (محمد بن على بن سليمان) .

٢٦ - راحة الصدور وآية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ، ليدن ١٩٢١م
(وهو مؤلف أصلا بالفارسية) ، نقله الى العربية كل من : الدكتور/
ابراهيم الشواربى ، الدكتور/ عبد النعيم حسنين ، الدكتور/فؤاد
الصياد ، دار القلم ، القاهرة ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

الساداتى : (أحمد محمود) دكتور :

٢٧ - تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، الطبعة
الثانية ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م . القاهرة .

الشواربى : (ابراهيم أمين) دكتور :

٢٨ - مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى ، بحث علمى مطول مستخرج من
كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السابع سنة ١٩٤٤ م .

الصابى : (أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم) :

٢٩ - تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار فراخ ، دار احياء
الكتب العربية ، ١٩٥٨ م ، القاهرة .

الصياد : (فؤاد عبد المعطى) دكتور :

٣٠ - المغول فى التاريخ (من جنكيز خان الى هولاكو خان) ، دار القلم ،
القاهرة ١٩٦٠ م .

٣١ - مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ، دار الكاتب العربى
للطباعة والنشر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .

الطبرى : (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) أبو جعفر محمد بن جرير :

٣٢ - تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الأول ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م .
الطرازى : (نصر الله مبشر) :

٣٣ - الفهرس الوصفى للمخطوطات الفارسية المزينة بالصور والمحفوظة
بدار الكتب ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٨ م .

براون : (ت ١٩٢٦) ادوارد جرانفيل :

٣٤ - تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ، نقله الى العربية
الدكتور/ ابراهيم أمين الشواربى ، القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .

حسن ابراهيم حسن : (دكتور) :

٣٥ - الدولة التيمورية في الهند ، بحث علمي مطول استخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السابع سنة ١٩٤٤ م .

٣٦ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الثالث الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٦٥ م .

رشيد الدين الله الهمداني : (ت ٧١٨ هـ) :

٣٧ - جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون ، ١٩٦٠ م . القاهرة .

طليمات : (عبد القادر أحمد) دكتور :

٣٨ - ابن الأثير الجزرى المؤرخ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ م .

ماجد : (عبد المنعم) دكتور :

٣٩ - التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٠ م القاهرة .

محمد فؤاد عبد الباقي :

٤٠ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ .

مسكويه : (أبو علي أحمد بن محمد) :

٤١ - تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، ج ١ تحقيق آمد روز ، طبع شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٤ م .

ولبر : (دونالد) :

٤٢ - ايران ، ماضيها وحاضرها . نقله الى العربية الأستاذ الدكتور/ عبد النعيم حسنين ، القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .

ياقوت : (ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى :

٤٣ - معجم البلدان ، المجلد الأول والثاني ، طبعة بيروت ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .

٢ - المراجع التي كتبت باللغات الأوربية

(أ) بالانجليزية :

BROWNE, E.G. :

A Literary History of Persia, Vol. II, III, Cambridge, 1928. — ٤٤

ELIOT :

History of India, Vol. 5, p. 116. — ٤٥

RIEU, CHARLES, Dr. :

Catalogue of the Persian Manuscripts in the British Museum,
London, 1879. — ٤٦

RYPKA, JAN. :

History of Iranian Literature, pp. 279-281 (University of
Leyden, Holland). — ٤٧

STOREY, C.A. :

Persian Literature, section II, Fasciculus 1, London, 1935. — ٤٨

(ب) بالفرنسية

BLOCHET, E. :

Catalogue des Manuscrits Persans de la Bibliothèque Natio-
nale, Vol. 4, pp. 279-281, Paris, 1925. — ٤٩

FERTE, H. : Vie du Sultan Hossein Baikara, traduite de Khondé-
mir, Paris, 1898, — ٥٠

الفهرس

٣	إهداء
٥	تقديم
٩	مقدمة
	القسم الأول :
١٦	خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء
	الباب الأول :
١٧	خواندمير ، عصره أسرته ، مؤلفاته
	الفصل الأول :
١٩	عصر بخواندمير (٨٨٠ - ٩٤٢ هـ) (١٤٧٥ - ١٥٣٥ م)
	الفصل الثاني :
٣٥	خواندمير ترجمته وأسرته ، فترة نضجه وحياته السياسية
	الفصل الثالث :
٤٧	مؤامرات خواندمير
	الباب الثاني :
٦٣	خواندمير ودستور الوزراء ، دراسة مقارنة
	الفصل الأول :
٧٢	خواندمير المؤرخ ودستور الوزراء
	الفصل الثاني :
٨٩	خواندمير رجل الأخلاق في دستور الوزراء

الفصل الثالث :

خواندشير مصادر كتابه وقيمته وأسلوبه وخصائصه ٩٤

القسم الثاني :

١١٩	ترجمة كتاب دستور الوزراء والتعليق عليه
١٢١	مقدمة بقلم سعيد نفيسى
١٣١	مقدمة صاحب الكتاب المؤرخ خواندشير
١٤٧	الوزراء فى العصر الأموى
١٥٢	الحديث عن بعض أحوال وزراء الدولة العباسية
١٦١	الحديث عن بعض أحوال البرامكة
٢١١	الحديث عن وزراء السلاطين
٢١٢	وزراء سلاطين الدول السلمانية
٢١٩	الحديث عن وزراء الديلمة
٢٣٤	الحديث عن جانب من أخبار بعض وزراء سلاطين الدولة الفاطمية
٢٤٣	وزراء السلاجقة
٣٠٢	وزراء وخلفاء وحكام طائفة الاسماعيليه
٣٠٨	وزراء الدولة الخوارزمية
٣١٣	وزراء سلاطين السلغرى
٣١٣	الحديث عن الملك العظيم الأمير الشيخ أبو اسحق
٣٢١	وزراء آل مظفر
٣٢٩	وزراء سلاطين المغول
٣٩٢	وزراء قطب الدين الأمير تيمور كور كان وأولاده المشاهير
٤٨٣	الخاتمة :
٤٨٥	ثبت بأسماء المراجع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨١/٢٦٠٨

ISBN ٩٧٧ ٧٣٤٥ ٣٢ ١

المؤرخ الأبرقي الكبير
غياث الدين خواندقير

الدكتور جوي امين سليمان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٩١٥-
١٣١-

٩٥١٠
٣١٤٢